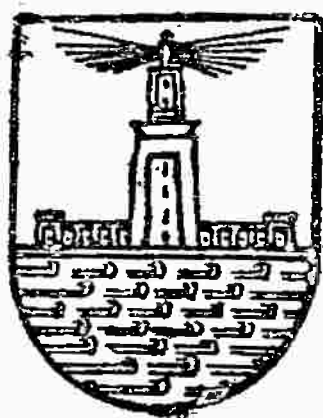




جامعة الاسكندرية

مجلة كلية الآداب

العدد السابع والأربعون
العام الجامعي ١٩٩٨/٩٧

١٩٩٨

642.

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ الدكتور / محمد عبده محجوب

عميد الكلية

رئيس التحرير

أ.د. / عثمان سليمان موافى

هيئة التحرير

- أ.د. / طاهر سليمان حمودة .
- أ.د. / نادية زكى بشاى .
- أ.د. / محمد على الكردى .
- أ.د. / حمدى عبد المنعم محمد .
- أ.د. / فتحى عبد العزيز ابو راضى .
- أ.د. / ماهر محمد عبد القادر
- أ.د. / السيد عبد العاطى السيد .
- أ.د. / عبد الله عبد الغنى غانم .
- أ.د. / عزيزة سعيد محمود .
- أ.د. / سهام محمد القارح .

أثر ثقافات دول البحر الأبيض المتوسط
في
شروح أسفار العهد القديم

بقلم

دكتورة /فائزة عبد الفتاح عز الدين

دكتوراه في اللغات السامية

من معهد اللغات الشرقية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

اثر ثقافات دول البحر الابيض المتوسط في شروح أسفار العهد القديم

تحتوى شروح وتفسير وتراجم العهد القديم على عدد كبير من الأساطير والقصص والحكايات الشعبية وأخبار الخوارق والبطولات بعضها من نتاج العقلية العبرية وبعضها دخيل قد تهود.

ويتناول هذا التراث أفكاراً أسطورية عن بدء خلق العالم وخلق الإنسان الأول وخلق جنة عدن والجحيم والثواب والعقاب وقتل الأخ لأخيه وقصة الطوفان وتشتت الناس واختلاف ألسنتهم بالإضافة إلى عدد كبير من قصص آباء الجنس البشرى مثل آدم ونوح وإبراهيم وقصص عن إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام وحكايات وقصص وأساطير عن الكهنة والقضاة والربانيين والأبطال الشعبيين وملوك بني إسرائيل كما يتناول أساطير وخرافات عن الملائكة والجن والشياطين والسحر والسحرة والتنجيم والمنجمين والعرافة والعرافين وخرافات عن مخلوقات ما قبل الطوفان.

وتقوم هذه الدراسة على نقاط هي : اثر ثقافات دول البحر الابيض المتوسط في الأساطير والقصص العبرية القديمة وتأثير هذا التراث في التراث الأسطوري عند الشعوب المختلفة* ومصادر الأساطير والقصص والخرافات العبرية القديمة* وملامح الأسطورة العبرية القديمة.

-
- أن الدراسة الأدبية المقارنة دراسة واسعة ومستقلة لا مجال لها في هذا المكان الضيق إنما يشار هنا إلى بعض نماذج من المرويات العبرية القديمة ونظائرهما في الآداب الأخرى وبالعكس. ويقصد بالخرافة في هذا البحث الحكاية الخرافية ذات المغزى التي تهدف إلى العبرة والموعظة (كحكايات الحيوان التي يشترك فيها الإنسان والحيوان والجماد والنبات)

أولاً. أثر ثقافات دول البحر الابيض المتوسط في الأساطير والقصص العبرية القديمة^(١)

اكتسب اليهود أثناء طوافهم المتصل الدائم طوال حياتهم^(٢) كثيراً من الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والأساطير الخاصة بالحضارات والشعوب الذين عاشوا في كنفهم أو احتكروا بهم أو تعاملوا معهم كالحضارة الكنعانية والفينيقية والبابلية ثم الفارسية واليونانية الرومانية وأبعد من ذلك

^(١) يراد بذلك القصص والأساطير التي وردت في أسفار العهد القديم و شروحه وتراجمه .
^(٢) وذلك منذ خروج القبائل الرعوية العبرية من الجزيرة العربية وتزولهم العراق ثم خروجهم من أورد كلدان بقيادة تارح أبى إبراهيم و أسرته وتزولهم أول أمرهم في حران (تكوين ١١/١٣) ثم يبعثهم مصر والإقامة فيها ردحا من الزمن أيام إبراهيم (تكوين ١٠/٣١) وتزولهم مرة أخرى على هامش الحضارة الكنعانية (تكوين ١٣) والعودة الى مصر أيام يعقوب وبنه (تكوين ٤٦) ثم الخروج من مصر بقيادة موسى وتزولهم بركة سيناء (خروج ١٥/١٢) واستيلائهم على مدن كنعان بقيادة يشوع بن نون (يشوع ١٤) واتصالهم وتعاملهم مع الكنعانيين والفينيقيين وغيرهم من سكان وجزائر فلسطين منذ أيام الملك سليمان (الملوك الأول) واتصالهم الدائم لثقافة الشعوب الذين عاشوا بينهم أو بجوارهم أو اتصلوا بهم ثم يبعث بعد ذلك اتصالهم بالبابليين والآشوريين والفرس وفيما بعد اليونان والرومان . ولأجل معلومات أوسع ارجع الى دروزة - محمد عزة (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) بيروت ١٩٦٩/١٣٨٩ وكذلك انظر مثل :

Sarson Mary (The History of the people of Israel) copyright London 1956
Goldberg , David J & John D Rayner (The Jewish people their History and Their Religion , Penguin Books England 1989 .

الحضارة الهندية.^(١) وقد جاءت الكشوفات والحفريات السومرية والاكدييه فى العراق والأوجاريتية والكنعانية فى فلسطين وغيرهما من الحفريات والنقوس المصرية القديمة فى السنوات الأخيرة الماضية لتكشف عن أوجه شبه سديدة جدا بين آداب وثقافات الشرق الأدنى القديم وخاصة الأدب السومرى والاكدى والكنعانى والمصرى، وبين ما ورد فى أسفار العهد القديم من أساطير وحكايات وقصص وحكم وأمثال.... فضلا عن قليل أوجه الشبه بين العهد القديم بوجه عام والأدب الحيثى واليونانى والرومانى^(٢). كما ظهرت دلائل تلك المؤثرات الأجنبية بوضوح فى الأساطير والقصص التى نمت جنبا إلى جنب مع العهد القديم وتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل فتسربت إلى التلمود والمدراش وسائر المدونات التى شرحت أسفار العهد القديم بخاصة الأجزاء الأسطورية منها^(٣). لذلك نحن نرى أن كثيرا من علماء الأساطير يرفضون اعتبار التراث الأسطورى العبرى بعامة تراثا مميزا على اعتبار أنه فى جملته ينتمى لتراث الأمم والشعوب التى كان بنو إسرائيل على اتصال بهم. ويقول (البروفيسور وليام سميث) فى هذا الصدد:

^(١) Encyclopaedia Britannica 15 th ed, U.S.A. 1975 vol 10 P 193

^(٢) موسسة ياحمد لمسيم. (العرب واليهود فى التاريخ)، دمشق. ١٩٧٨، ص ١٧٩

^(٣) Encyclopaedia Britannica vol 10 p 193

" عندما تطالعنا فكرة دينية أو ثقافية عند العبريين سوف نجد أنها تراثاً مشتركاً بين أمم متقاربة ولا نحسبها إراثاً مخصوصاً لبني إسرائيل ^(١) .

فمن الكنعانيين وغيرهم من سكان فلسطين وجيرانهم الفينيقيين أخذ بنو إسرائيل كثيراً من العادات والتقاليد والطقوس الدينية ^(٢) كما يبدو أن كثيراً من المأثورات وقصص البطولات والخرافات التي نتحدث عن الآلهة والتأله في الأساطير الكنعانية قد أدرجت في ثنايا العهد القديم بعد أن تم تعديلها وتبديلها وتحويرها لكي توافق المقتضيات الأخلاقية لبني إسرائيل ^(٣) . ومع ذلك فقد ظلت بقايا أفكار أسطورية وخرافية غير واضحة في أسفار العهد القديم، وهذا ما نلمسه من صرخات وتحذيرات أنبياء بني إسرائيل أمثال (أشعيا ، وأرميا ، وحزقيال ، وعاموس ، وهوشع) . ويقول (صموئيل كريم) "إن أساطير كنعان لهامة في أكثر من أمر واحد. فإن أهم دلالتها إنما تتمثل في تأثيرها على بني إسرائيل سواء حين يشملها العهد القديم أم حين يعرض عنها" ^(٤) .

ومن ثم يمكننا التعرف على أساطير كنعانية من خلال دراستنا للأساطير العبرية القديمة.

(١) Smith, W> Robertson : Lectures on the Religions of Semites, London 1927 P5

(٢) العرب واليهود في التاريخ ص ٢١٦ وما بعدها.

(٣) Graves Robert, and Patai Rophael, Hebrew Myth, the Book of genesis U.S.A 1967 P14

(٤) كريم/ صموئيل فوح: أساطير العالم القديم ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف الهيئة المصرية للعلماء للكتاب ١٩٧٤ ص ١١٩

ولم تكن الآداب المصرية القديمة بأقل شأن في ذلك ، حيث يرجح الباحثون أمثال (جيمس برستيد) أن الحضارة المصرية القديمة كان لها عظيم الأثر في تكوين الأدب العبري القديم ^(١) ويظهر ذلك جلياً في الأسفار الشعرية مثل سفر الأمثال والمزامير ونشيد الأنشيد والجامعة وأيوب ^(٢) . بالإضافة إلى ذلك هناك لمسات مصرية واضحة في قصة يوسف ويعقوب مما يرجح أن تلك القصص تأثرت بالثقافة والعادات والتقاليد المصرية القديمة ^(٣) .

لم يقتصر التأثير الذي أحدثته الحضارات المختلفة في التراث الأسطوري العبري القديم على الحضارات السالفة الذكر بل امتد إلى الآداب البابلية الآشورية في عصور اتصالهم بآشور وبابل أثناء الأسر . فقد ذكر الباحثون أن عقلية اليهود وأفكارهم قد تأثرت تأثيراً كبيراً بالحضارة البابلية آنذاك ، وقد ظهر ذلك بوضوح في الأدب العبري القديم فدونت أجزاء كبيرة من العهد القديم بخاصة أسفار موسى الخمسة (التوراة) التي استمدت قصصها وأساطيرها وخرافاتها من البيئة البابلية ^(٤) . أضف

(١) برستيد : جيمس هنري ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، دار مصر للطباعة بدون تاريخ ص ٣٧٢ وما بعدها .

(٢) راجع تفصيلاً : حميدة : محمود طي ، (أسفار الحكمة في العهد القديم والتأثيرات المصرية والبابلية عليها) ، مجلة الدراسات الشرقية دورية نصف شهرية ، العدد الأول ، ١٩٨٣ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

(٣) راجع تفصيلاً : فجر للضمير ص ٣٧٥ ، ٣٨٣ ر انظر (X125 X126) (X127) والأمثلة التي أوردها المؤلف طي ذلك من العهد القديم ص ١٤٢ وما بعدها .

(٤) جلال / الدكتورة آنت محمد : الأدب العبري القديم ، والوسيط ، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٨ ص ١٠٤

إلى ذلك فقد أخذ اليهود أغلب معتقداتهم عن السحر والحيوانات والطيور الخرافية التي تبنت أسماؤها في الأسفار الشعرية من العهد القديم^(١) كما ظهرت في رؤى أنبياء بني إسرائيل^(٢) ثم امتدت إلى أساطير التلمود والمدراش والابوكريفا فيما بعد - كما سيأتي شرحه - كذلك إن من تأثير بابل في المعتقدات العبرية القديمة ما يظهر عند مقارنة الأساطير المأخوذة من الواح بابل بما ورد في أسفار العهد القديم حيث يقول (ويلز) : " لو تأملنا قصة الخلق وخلق آدم وحواء والطوفان في أسفار العهد القديم لوجدنا وثيقة مماثلة لأساطير بابلية تشبهها كما أن قصة موسى وشمشون لها نظائر سومرية بابلية^(٣) .

ويبدو أن تلك الأساطير والقصص كانت من المعتقدات الشائعة لدى شعوب الشرق الأدنى بعامة والساميين بخاصة وكان من يكتبون أسفار العهد القديم على علم بها .

(١٤٦)

(١) انظر سفر أشعيا ص ١٣ ، ص ٣٤ ، ظهرت فكرة الغول أو العفريتة ليليث ، الأشاعر ، والتهوم و العالوفة بعد السبي البابلي وهي من المؤثرات الأجنبية التي تسربت إلى الفكر الديني اليهودي =

= Black and cheyne Encyclopaedia Biblica London 1899/1903 vol 3 P 2799

(٢) راجع سفر حزقيال الاصحاح الأول ، وسفر دانيال الاصحاح السابع والثامن .

(٣) ويلز : هـ . ج . (معالم تاريخ الإنسانيات) ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثانية لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ٩٠ وما بعدها .

ولأجل معلومات أوسع عن ديانة بابل وأساطيرها وتأثيرها على الديانة اليهودية وأساطير العهد القديم يمكن مراجعة :

Smith, Homer, (Man and his god s) copy right 2nd universal Library N.Y 1956
ص ٩١ وما يليها

ويقال إن كل تصورات اليهود عن الملائكة والجن والسياطين^(٦) والأرواح إلى جانب الثنائية عن الخير والشر. قد جاءهم عن طريق الفرس^(١) وإن لم يبد ذلك بوضوح في العهد القديم وبدا ظاهرا في أساطير التلمود .

زد على ذلك إن أفكارا أسطورية عن خلق الإنسان الأول (سفر التكوين ص ٢) لها نظائر في الآداب الفارسية^(٢) وإن قصة استير في العهد القديم بها كثير من الملامح الفارسية والبابلية^(٣).

ويقول نقاد العهد القديم إن اليهود قد استقوا تلك المعتقدات والأفكار من الفرس ليس فقط لأن فارس كانت دولة متحضرة آنذاك ولكن لأن الديانة الفارسية تشبه الديانة اليهودية من حيث معاداة فكرة عبادة التماثيل والصور^(٤) التي نهت عنها الشريعة الموسوية في قوله:

(٦) في سفر صموئيل الأول ٧/٢٨ : ٢٤ جاء أن سبب انتقال عرش شاول إلى داود خطيئة سببها أن شاول طلب من الجن عن طريق إحدى العرفات إحضار روح صموئيل فأماته الرب وحول مملكته إلى داود . كذلك ورد في سفر صموئيل الثاني/٢٤ أول فكرة عن الشيطان . كانت خطيئة داود حين وقف الشيطان ضد إسرائيل فأغوى داود بأحصاء الشعب فغضب الرب عليه كما ظهر الشيطان مرة أخرى في سفر أيوب عندما تحدى الرب ضد أيوب (الإصحاح الأول)

(١) فجر الضمير ص ٣٦٩ : ٣٧٠ ، علم الفولكلور ص ٢١٠ .
(٢) ديورانت/ولي : قصة الحضارة ترجمة محمد بدران الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية بنون تاريخ ج ٣٦٨/٢

(٣) كامل /مراد : (الكتب التاريخية في العهد القديم) معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٩٠/٨٩ وانظر كذلك : (علم الفولكلور) ص ١٩٠ .

(٤) Ginzberg , Louis : Legends of the Bible, The Jewish Publication Society of America U.S.A 1972 introduction PXIX

" لا تصنع لك منحوتات ولا صورة شئ مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل ولا في المياه من تحت الأرض ولا تسجد لها" (١).

وأبان العصر اليوناني أثرت الثقافة الهيلينية أيما تأثير فني العقلية اليهودية ، وظهر ذلك جليا في تأثير اليهود ببعض الأفكار والاتجاهات الأدبية والفلسفية عند اليونان (٢). ولعل خير مثال على تآثر العهد القديم بالثقافة اليونانية هو سفر الجامعة الذي دون في ذلك العصر (٣).

فيما بعد ظهر التأثير اليوناني في أدب ما بعد التوراة أي في أساطير وخرافات التلمود والمدارش. ولم يستطع كاتبو الميثولوجيا الذين كانوا يكتبون باليونانية آنذاك إخفاء المؤثرات الأجنبية تماما لذلك فقد ظهرت آثار للخرافة المصرية مثلا في بعض الأساطير الخاصة بوفاة آدم وحواء وموسى والعثور على التابوت الذي دفن فيه يوسف. كما ظهرت آثار يونانية في المدارش عند تفسير سفر نشيد الأنشيد وسفر الجامعة (٤) وسبأتي شرحه.

أما عن التأثير الروماني فقد نقل اليهود الكثير من الآداب والفنون الرومانية التي توافق معتقداتهم وصبغوها بالصبغة اليهودية.. وإن لم

(١) سفر خروج : ٤/٢٠ ، التثنية ١٦/٤ : ١٨.

(٢) جلال : الدكتور الفات محمد. الأدب العبري القديم والوسيط مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٨ ص ١٠٥

(٣) موسكاتي : مينيوتو: الحضارات السامية القديمة. ترجمة السيد يعقوب بكر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨ ص ١٦٤

(٤) Hebrew Myths pp 3 : 4

يظهر ذلك بوضوح في أسفار العهد القديم. وظهر في أنب ما بعد العهد القديم^(١).

هذا إلى جانب غير قليل من التأثيرات العربية على التراث الأدبي العبري^(٢) وحسبنا أن نضرب مثلا على ذلك بما ورد في سفر الأمثال بخاصة الإصحاحين الثلاثين والواحد والثلاثين من حكم وأمثال عربية يرى الباحثون أنها تتشابه تشابها مذهلا مع حكم وأمثال وعادات وتقاليد عربية صميمية^(٣) كذلك وردت أفكار أسطورية في هذا السفر مثل فكرة العالوقة أو البومة ماصة الدماء^(٤) وهي من المعتقدات العربية القديمة التي تسربت إلى العهد القديم. ويرى كثير من الباحثين أن سفر أيوب ما هو إلا قصة عربية أدرجت في العهد القديم بعد أن تهوئت^(٥).

ويقول (إسرائيل ولفنسون) في هذا الصدد : " لا أعلم من تاريخ اليهود إقليما تأثر به اليهود بالعادات والتقاليد سوى إقليم الجزيرة العربية وذلك أثناء وجودهم فيها ... " ^(٥) وسيأتى شرحه -

(١) الأدب العبري القديم والوسيط ص ١٠٩

(٢) راجع مراجع عدة منها مثلا : الأدب العبري القديم والوسيط ص ١١٦ : ١١٩ .

(٣) راجع تفصيلا التأثير والتأثر العبري والعربي : المراجع : محمود حسن (الصور الأدبية في أسفار المكتوبات والأدب الجاهلي) ، رسالة دكتوراه ، مخطوطة جامعة عين شمس القاهرة ١٩٨٤ .

(٤) سفر الأمثال الإصحاح ١٥/٣٠

(٥) راجع الآراء التي قالت بعروية سفر أيوب في مثل : نظاذا : حسن : الفكر الديني الاسرائيلي أطواره ومذاهبه جامعة الدول العربية معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١ ص ٥٦/٥٥

(٥) ولفنسون ، إسرائيل : (أرذوب) (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام) تحقيق طه حسين ، لجنة الترجمة والنشر مطبعة الاعتماد ، مصر ، ١٣٤٥ / ١٩٢٧ (المقننة) وكذلك راجع ول ديورانت في قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٦٨/

لقد جاءت الكشف السومرية اللسامية والأكادية السامية في العراق وغيرها من الكشف فأوضحت الكثير من الغموض بالنسبة للتراث العبري القديم وبخاصة حقيقة أصل معظم ما ورد في أسفار العهد القديم من أساطير وخرافات وقصص وحكم وأمثال..^(١) (وإن هذه المجموعة من المآثر لم تلت إلى الوجود كاملة النمو كالأزهار الصناعية النامية من فراغ إنما تمتد جذورها في الماضي البعيد وتنتشر انتشارا واسعا في تراث البلدان المجاورة)^(٢) لذلك يظن الباحثون أنه ليس بغريب أن يكون التراث الأسطوري العبري على وجه التقريب تراث السومريين والأكديين بخاصة ، وصل اليهود عن طريق الوساطة الكنعانية مثلهم في ذلك مثل سائر الشعوب السامية وذلك عقب انتقال التراث السومري إلى الورثة المباشرين وهم الأكديون^(٣) ومنهم إلى ورثتهم الكنعانيين والحيثيين.

فقد كانت فلسطين منذ البدء ممرا يلتقى فيه الشرق بالغرب كما استوطنتها عدد من الشعوب والأجناس المختلفة التي أثرت في التراث الكنعاني . علاوة على ذلك كانت البوثة التي انصهرت فيها عدة حضارات كالحضارة المصرية والبابلية ... وبعض الحضارات في آسيا وأفريقيا^(٤)

(١) العرب واليهود في التاريخ - راجع المقدمة

(٢) الأدب العبري القديم والوسيط ص ٨ : ١٠

(٣) يرى (كريمر) أن الأساطير الأكديّة استمدت أصولها من النماذج السومرية وأشهر الأساطير المأخوذة من سومر هي أسطورة الخلق والطوفان وقد نقلت هذه الأساطير من كنعان مباشرة = أساطير العهد القديم ص ٩٨

(٤) فجر الضمير ص ٣٦١ : ٣٦٢ و ص ٢٧٢ وانظر كذلك : الحضارات السامية القديمة ص ١٢٦ : ١٢٧

وعن طريق الكنعانيين الذين سبقوا بنى إسرائيل في استيطان فلسطين ،
وبعض مدن الساحل الفينيقي سرى إلى الوجود تراث الحضارة السومرية
المنشرة.

فقد لعبت الحضارة الكنعانية والفينيقية - نظرا لاحتكامهما المبكر
للبحرين الأبيض والأحمر - دور الوسيط في حمل تراثى مصر وبابل
والإبحار به ونشره على طول سواحل البحر الأبيض^(١) بمعنى آخر لعل
فكرة خلق حواء من ضلع آدم مثلا ترد منحدره من التراث السومرى
اللاسامى ميثية في التراث السامى عند الورثة البابليين منتقلة إلى
الكنعانيين والفينيقيين ظاهرة في أسطورة الإله (موت) في أساطير
الخلق الكنعانية ، فكان أن نقلها اليهود إلى أسطورة الخلق في سفر
التكوين^(٢) كذلك طوف بها الكنعانيون والفينيقيون إلى الحضارة الإيجية .
ومنها دخلت هذه الجزئية إلى التراث اليونانى ثم الرومانى فيما بعد ثم
اللاتينى في وقت متأخر^(٣).

ومن هنا يقول (موسكاتى) : إن تأثير التراث السومرى لم يقتصر على
الحضارات السامية فحسب ، بل بلغ بلاداً غير سامية مثل اليونان^(٤) كذلك
يقول (برستيد) إن أسطورة الخلق البابلية شقت طريقها متجهة غربا
صوب البحر الأبيض حتى انتشرت في فلسطين وكان أن نقلها اليهود

(١) الحضارة السامية القديمة ص ١٢٧

(٢) Warren, w Jackson : legends , Myths and History of The O.T copyright
U.S.A 1970 PP 3:4

(٣) Myths , and History of the O.T P 4

(٤) الحضارات السامية القديمة ص ٧٤.

إلى الأدب العبري القديم^(١) وبشكل مجمل يقترح الباحثون أن أساطير سفر التكوين التي تقع في الإصحاحات الإحدى عشرة الأولى (وهي أساطير الخلق وخلق آدم وقابيل وهابيل والطوفان و برج بابل) تنتمي بكاملها إلى الميثولوجيا الكنعانية المتوارثة مباشرة عن البابليين^(٢) وهذا أن دل على شيء إنما يدل على أن العقل اليهودي كان واعيا لهذا الموروث الثقافي القديم وقد عبر عنه بأفكار مختلفة بعد أن صبغها بالصبغة الدينية اليهودية التي تناسب الفكر الديني اليهودي، لذلك نرى (هوك) يقول : " إن الباحث في أساطير العهد القديم يعترضه عدة أسئلة هي :

ما مصدر وأصل الأساطير الموجودة في العهد القديم؟ وما التعديلات التي أجريت على الأصل وما مدى معرفة اليهود الحقيقية بالأساطير؟^(٣) وكما تأثرت أسفار العهد القديم بالتراث الأسطوري الإنساني تأثرت شروحه وتفسيره أيضا حيث تسربت إلى التلمود والمد راس أعداد كبيرة من الخرافات والأساطير والمعتقدات الخاصة بالشعوب الذين عاش اليهود بينهم أو بجوارهم أو تعاملوا معهم^(٤) فقد أدرج في التلمود أساطير

(١) فجر الضمير ص ٣٦١ : ٣٦٢

(٢) ومن القائلين بهذا الرأي مثلا (صموئيل هوك) في كتابه :
Hooke S. Middle Eastern Mythology Penguin Books , Baltinore Great Britain
1963 (Hebrew Mythology)

(٣) Middle Eastern mythology P 104

(٤) كما سيأتي شرحه ظل الأحبار يكتبون تفاسير وشروح العهد القديم على مدى قرون طويلة ومن هنا أضيفت أساطير وخرافات الأمم المختلفة إلى هذه الشروح بعد أن تهود بعضها وظل بعضها الآخر كما هو راجع تفصيلا الأدب العبري القديم والوسيط ص ٩٣-٩٤ و ١٠٢-١٠٥ والفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه ٧٣-١٠٨

وخرافات مصرية تتحدث عن الثواب والعقاب والحياة بعد الموت
وخرافات وأساطير مصرية وفينيقية تتحدث عن الآلهة والأبطال
الشعبيين والعالم السفلي، ودخلت بأعداد كبيرة إلى التلمود من مصر

وكنعان وفينيقيا وبابل وفارس واليونان الأساطير والخرافات التي تتعلق
بأسرار الموت والحياة وعوالم الآلهة ودفن الموتى والملائكة وملاك
الموت وقد ظهر ذلك في قصص تتحدث عن كيفية وفاة آدم وحواء
وقايل وإبراهيم وموسى وكيفية عثور موسى على تابوت يوسف في
نهر النيل ثم دفنه في شكيم كما تتحدث هذه الأساطير والخرافات الدخيلة
عن ميلاد الأنبياء والملوك والأبطال الشعبيين أمثال صموئيل وداود
وسليمان وشمشون وبقثاح وجدعون^(١) . كما تسربت إلى التلمود

خرافات من بابل عن السحر والتنجيم والنجوم والكواكب والعرافة^(٢) .
ومن فارس خرافات عن الأرواح الشريرة والشياطين والجن والملائكة
وثنائية الخير والشر^(٣) .

(١) Rappoport, *Angles Myths and legends of Ancient Israel* London 1928 vol I
P 15

ولمراجعة أساطير من هذا النوع راجع:

H. Polano, *The Talmud Selections* London and N.Y. Tamuz 1978 Part 1-2

- *מגן אברהם*: כרך א' חלק א' ע' ١٧٤٥

- *בבלי* ח' פ' ١٠: ١٧٥-١٧٦

(٢) برع البابليون في أعمال السحر والتنجيم وطرد الشياطين (الحضارات السامية
القديمية) ص ٨٠: ١٣ ويبدو أن هذه الخرافات قد اقتبسها اليهود من بابل أثناء
وجودهم في الأمر .

(٣) *Legends of the Bible* pXIII

تسربت من الهند وغيرها من البلاد واستقرت ، في التلمود^(١)

وقد تردد صدى كل هذه الأساطير والخرافات في تقاسير العهد القديم
وشروحه بعد أن حورت وبذلت كي تناسب روح الإيمان بالإله الواحد
عند اليهود^(٢) .

خلاصة القول كان مدونو العهد القديم وشروحه على علم بالتراث
الأسطوري لدى شعوب مصر والشرق الأدنى القديم ولم يعدوا لونا من
ألوان الحياة الأسطورية إلا أن أساطير العهد القديم وشروحه اتخذت
الطابع الديني ومن ثم نستطيع أن نقول أن التراث الأسطوري العبري قد
حفظ لنا الكثير من خرافات وأساطير الشعوب القديمة .

(١) Encyclopaedia Britannica vol 10 P 194

(٢) Hebrew Myths P 14

ولأجل معلومات أوسع عن مصادر الأساطير والقصص والخرافات الموجودة في
أسفار العهد القديم راجع على سبيل المثال :

- Hooke S. Middle Eastern Mythology Penguin Books , Baltimore Great Britain
1963 (Hebrew Mythology)

- Frank Fort: Henri : The Legends of the Bible and their origins double day and
Co. N.Y. 1950

- West James. King introduction to the O.T Copyright 2nd London 1981

james Prichard Ancient near eastern Texts relating to the O.T U.S.A 1955

- فريزر/ جيمس جورج : الفولكلور في العهد القديم ترجمة نبيلة إبراهيم الهيئة
المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢ ج ٢، ١

ثانيا : تأثير الأساطير والقصص والخرافات العبرية القديمة على التراث

الأسطوري لدى الشعوب المختلفة:

إذا كان التراث الأسطوري العبري^(١) يحمل آثارا للتأثير المصري والكنعاني والفينيقي والبابلي والفارسي واليوناني والهندي فإن الباحثين يرون أنه قد تسرب بدوره وانتشر عبر الأرجاء شرقا وغربا تاركا آثاره المميزة في عدد كبير من الأساطير والقصص والحكايات الشعبية وقصص الأبطال الخاصة لدى كثير من الشعوب المختلفة^(٢) فحيث كان اليهود يرتحلون كانت ترحل معهم أساطيرهم وخرافاتهم وقصصهم وأمثالهم وحكمهم. ويبدو أن الذي ساعد على الانتشار الواسع لهذه المأثورات ترجمة العهد القديم وشروحه بلغات مختلفة^(٣) ويرى بعض الباحثين أمثال (فيليب حتى) أن العهد القديم كان المنبع الأساسي الذي أمد كثيرا من الفنانين والشعراء والأدباء في مختلف العصور و الأزمان بفيض غزير من الأساطير والقصص و الحكايات الشعبية والأمثال والأشعار^(٤). كما ذهب علماء الأساطير أصحاب نظرية الكتب المقدسة

(١) يراد بذلك أساطير العهد القديم وتفسيره

(٢) علم الفولكلور ص ١٣٩ وما بعدها

(٣) ترجم العهد القديم بلغات مختلفة منها الكلدانية أو الآرامية والسريانية واليونانية واللاتينية والعربية إلى جانب التراجم الإنجليزية والألمانية الحديثة راجع تفصيلا :

The Jewish Encyclopaedia, New York London 1904 Vol 111 PP185:197

كما راجع تراجم التلمود في نفس المرجع (tamud) vol IIX

(٤) حتى/فيليب: (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) ترجمة جورج حداد - عبد الكريم

رافق - دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ ج١ ص ٢٢٨-٢٢٩

إلى أن جميع الأساطير والقصص الموجودة في الآداب المختلفة مشتقة من العهد القديم. وقد أخذ منها كل شعب ما يوافق مزاجه الشعبي الفني ومذهبه الخلقى في القصص^(١). ويرجح الباحثون أمثال (هجرتى كواب) و (جينزبرج) أن بعض الحكايات المتداولة في مختلف الآداب قديما وحديثا منقولة من قصص وأساطير وخرافات موجودة في العهد القديم وشروحه. ولعل خير مثال على ذلك أن تكون القصة التي تروى حكاية تدمير سدوم مدينة لوط (سفر تكوين ١٩) فحين يمعن البشر في ارتكاب المعاصي تكون أسطورة أو خرافة مأخوذة من العهد القديم أقدر على التفسير والشرح من أى مرجع تاريخي، أو غير تاريخي. كذلك إذا روت خرافة قصة أشخاص خسفت بهم الأرض نتيجة ظلمهم وطغيانهم كانت خرافة (داتان - وأبريام - وقورح) (سفر العدد ١٦) المثال المحتذى في ذلك ، وثمة أمثلة على ذلك لا مجال لحصرها هنا^(٢).

وبالرغم من أن ليس كل الأساطير والخرافات الموجودة في العهد القديم وشروحه يهودية الأصل إلا أن عددا كبيرا منها قدر له أن يجد طريقه إلى مختلف آداب العالم في مختلف العصور. فعلى سبيل المثال إن للخرافات الخاصة بالطيور والحيوانات والنباتات في العهد القديم وشروحه والتي يرجعها العلماء إلى أصول كنعانية أو بابلية أو مصرية

(١) بلغتش/توماس: عصر الأساطير المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية للقااهرة ١٩٦٦ ص ٤١١
(٢) راجع في ذلك : علم الفولكلور ص ١٣٩ وما بعدها وص ٢٠١ وما بعدها وانظر أيضا =

أو هندية قام اليهود بنقلها إلى الآداب الأوربية وسائر آداب الشعوب الذين كانوا على صلة بهم في مختلف العصور والأزمان. وقد ذكر الباحثون أن كثيراً من الأساطير والخرافات الخاصة بالخلق وخلق آدم وحواء والطوفان وبعض شخصيات من العهد القديم الموجودة في آداب العصور الوسطى والآداب الحديث يمكن ردها إلى العهد القديم مباشرة^(١).

ويبدو أن اليهود خلال العصور الوسطى كانوا من أفضل المترجمين ومن خلال تراجمهم المختلفة لآداب الشرق القديم والتي استقرت في التلمود والمدراش تعرف الأوروبيون على التراث الأسطوري السامي بخاصة والشرقي بعامة. وقد أقر العلماء المتخصصون بالتأثير اليهودي على الأساطير والقصص المسيحية حيث يمكن رد أساطير خلق آدم والطوفان وقصص إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام الموجودة في التراث الأسطوري المسيحي إلى تأثيرات يهودية^(٢). كما يمكن رد عدد كبير من الخرافات التي تتحدث عن الجن والأرواح الشريرة وما إلى ذلك في أدب العصور الوسطى إلى ماثورات شرقية بعامة وعبرية بخاصة حيث جلبها الصليبيون إلى أوروبا ضمن ما جلبوه من حضارات وثقافات عربية وشرقية^(٣) وأظن أن اليهود الذين كانوا يعيشون في الأندلس زمن الشتات أو قبل ذلك بكثير قد لعبوا دوراً في نقل كثير من الأساطير والقصص والخرافات العبرية والتي تهوت إلى الأدب الأندلسي وسائر الآداب الأوربية^(٤) ويحتمل أن اليهود الذين أسلموا ودخلوا الأندلس مع العرب أثناء الفتح الإسلامي قد أمدوا الأدب الأندلسي بالأساطير العبرية القديمة.

كذلك أن الأساطير والخرافات التي ذكرتها أساطير التلمود عن الملك سليمان وحكمته التي فاقت حكمة أهل زمانه والأساطير التي نسجت حول زواجه بابنة فرعون وحكايته مع بلقيس ملكة سبأ وبنائه القصر والهيكل وتسخيره للطير والجن والرياح لأغراض منشأته قد تردد صداها في كثير من كتب الأدب العربي التي

^(١) Hebrew Myths P.7

^(٢) علم القولكلور ص ١٣٩ وما بعدها وص ٢٢١ وما بعدها.

^(٣) Myths and Legends of Ancient Israel vol. I P XXVIII

^(٤) الأدب العبري القديم والوسيط ص ١٢٩ ، ١٣٠

تهتم بالإسرائيليات^(١) كما نقلت إلى الآداب الأوربية المختلفة في صور وأشكال مختلفة^(٢) وأكثر من ذلك يقول الباحثون إن الخرافات التي حكيت حول قصة الخلق وخلق آدم وخلق حواء من ضلعه والقصص الخاصة بشخصيات العهد القديم الموجودة في آداب العصور الوسطى والآداب الحديث لدى الشعوب المختلفة مأخوذة من أساطير التلمود والمدراش والترجوم الأرامي والأبوكريفا (أي أدب ما بعد التوراة) فمثلا إن قصة ليلى زوجة آدم الأولى ذات الأصول السومرية والبابلية يمكن تتبع تأثيرها في الحكايات الشعبية السامية وغير السامية بأشكال وأسماء مختلفة^(٣) كما أن قصة نوح وإيليس وزرع الكرم ذات الأصل الهندي التي وردت في أساطير التلمود والمدراش (تفسير تكوين ٢٠/٩) وجدت طريقها إلى الآداب العربية^(٤) والأوربية (الألمانية واليونانية بخاصة)^(٥) وقصة إبراهيم وسارة وفرعون مصر والنمرود ملك العراق ذات الأصل الهندي الموجودة في المدراش (تكوين الأصحاح ١٢) نقلت إلى الآداب المختلفة ومن أمثلة ذلك أيضا الخرافات التي حكاها التلمود عن عوج بن عناق من العمالقة وخوارقه العجيبة قد تسربت إلى الأدب العربي^(٦). ويوجد لها أشباه ونظائر في الأدب الأوروبي^(٧) واعتقد أن المأثورات العبرية باختلافها وصلت إلى أدباء العرب وشعرائهم ممن يهتمون بالإسرائيليات عن طريق من أسلم من اليهود أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبيد بن شربة وغيرهم من الذين قدر لهم إثراء الأدب العربي بقصص وأساطير العهد القديم وشروحه وسيلتي شرحه.

ويقال أن الأساطير التي نسجت حول الكهنة الذين كانوا يطردون الأرواح الشريرة

(١) الحوت - سليم: في طريق الميثولوجيا عند العرب - بيروت ١٩٥٥ ص ٢٦٤

(٢) Myths and Legends of Ancient Israel vol.3. P139

(٣) Encyclopedia Biblica vol3 p 2799

(٤) هذه القصة الموجودة في ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥٨٥ ١٥٨٦ ١٥٨٧ ١٥٨٨ ١٥٨٩ ١٥٩٠ ١٥٩١ ١٥٩٢ ١٥٩٣ ١٥٩٤ ١٥٩٥ ١٥٩٦ ١٥٩٧ ١٥٩٨ ١٥٩٩ ١٦٠٠ ١٦٠١ ١٦٠٢ ١٦٠٣ ١٦٠٤ ١٦٠٥ ١٦٠٦ ١٦٠٧ ١٦٠٨ ١٦٠٩ ١٦١٠ ١٦١١ ١٦١٢ ١٦١٣ ١٦١٤ ١٦١٥ ١٦١٦ ١٦١٧ ١٦١٨ ١٦١٩ ١٦٢٠ ١٦٢١ ١٦٢٢ ١٦٢٣ ١٦٢٤ ١٦٢٥ ١٦٢٦ ١٦٢٧ ١٦٢٨ ١٦٢٩ ١٦٣٠ ١٦٣١ ١٦٣٢ ١٦٣٣ ١٦٣٤ ١٦٣٥ ١٦٣٦ ١٦٣٧ ١٦٣٨ ١٦٣٩ ١٦٤٠ ١٦٤١ ١٦٤٢ ١٦٤٣ ١٦٤٤ ١٦٤٥ ١٦٤٦ ١٦٤٧ ١٦٤٨ ١٦٤٩ ١٦٥٠ ١٦٥١ ١٦٥٢ ١٦٥٣ ١٦٥٤ ١٦٥٥ ١٦٥٦ ١٦٥٧ ١٦٥٨ ١٦٥٩ ١٦٦٠ ١٦٦١ ١٦٦٢ ١٦٦٣ ١٦٦٤ ١٦٦٥ ١٦٦٦ ١٦٦٧ ١٦٦٨ ١٦٦٩ ١٦٧٠ ١٦٧١ ١٦٧٢ ١٦٧٣ ١٦٧٤ ١٦٧٥ ١٦٧٦ ١٦٧٧ ١٦٧٨ ١٦٧٩ ١٦٨٠ ١٦٨١ ١٦٨٢ ١٦٨٣ ١٦٨٤ ١٦٨٥ ١٦٨٦ ١٦٨٧ ١٦٨٨ ١٦٨٩ ١٦٩٠ ١٦٩١ ١٦٩٢ ١٦٩٣ ١٦٩٤ ١٦٩٥ ١٦٩٦ ١٦٩٧ ١٦٩٨ ١٦٩٩ ١٧٠٠ ١٧٠١ ١٧٠٢ ١٧٠٣ ١٧٠٤ ١٧٠٥ ١٧٠٦ ١٧٠٧ ١٧٠٨ ١٧٠٩ ١٧١٠ ١٧١١ ١٧١٢ ١٧١٣ ١٧١٤ ١٧١٥ ١٧١٦ ١٧١٧ ١٧١٨ ١٧١٩ ١٧٢٠ ١٧٢١ ١٧٢٢ ١٧٢٣ ١٧٢٤ ١٧٢٥ ١٧٢٦ ١٧٢٧ ١٧٢٨ ١٧٢٩ ١٧٣٠ ١٧٣١ ١٧٣٢ ١٧٣٣ ١٧٣٤ ١٧٣٥ ١٧٣٦ ١٧٣٧ ١٧٣٨ ١٧٣٩ ١٧٤٠ ١٧٤١ ١٧٤٢ ١٧٤٣ ١٧٤٤ ١٧٤٥ ١٧٤٦ ١٧٤٧ ١٧٤٨ ١٧٤٩ ١٧٥٠ ١٧٥١ ١٧٥٢ ١٧٥٣ ١٧٥٤ ١٧٥٥ ١٧٥٦ ١٧٥٧ ١٧٥٨ ١٧٥٩ ١٧٦٠ ١٧٦١ ١٧٦٢ ١٧٦٣ ١٧٦٤ ١٧٦٥ ١٧٦٦ ١٧٦٧ ١٧٦٨ ١٧٦٩ ١٧٧٠ ١٧٧١ ١٧٧٢ ١٧٧٣ ١٧٧٤ ١٧٧٥ ١٧٧٦ ١٧٧٧ ١٧٧٨ ١٧٧٩ ١٧٨٠ ١٧٨١ ١٧٨٢ ١٧٨٣ ١٧٨٤ ١٧٨٥ ١٧٨٦ ١٧٨٧ ١٧٨٨ ١٧٨٩ ١٧٩٠ ١٧٩١ ١٧٩٢ ١٧٩٣ ١٧٩٤ ١٧٩٥ ١٧٩٦ ١٧٩٧ ١٧٩٨ ١٧٩٩ ١٨٠٠ ١٨٠١ ١٨٠٢ ١٨٠٣ ١٨٠٤ ١٨٠٥ ١٨٠٦ ١٨٠٧ ١٨٠٨ ١٨٠٩ ١٨١٠ ١٨١١ ١٨١٢ ١٨١٣ ١٨١٤ ١٨١٥ ١٨١٦ ١٨١٧ ١٨١٨ ١٨١٩ ١٨٢٠ ١٨٢١ ١٨٢٢ ١٨٢٣ ١٨٢٤ ١٨٢٥ ١٨٢٦ ١٨٢٧ ١٨٢٨ ١٨٢٩ ١٨٣٠ ١٨٣١ ١٨٣٢ ١٨٣٣ ١٨٣٤ ١٨٣٥ ١٨٣٦ ١٨٣٧ ١٨٣٨ ١٨٣٩ ١٨٤٠ ١٨٤١ ١٨٤٢ ١٨٤٣ ١٨٤٤ ١٨٤٥ ١٨٤٦ ١٨٤٧ ١٨٤٨ ١٨٤٩ ١٨٥٠ ١٨٥١ ١٨٥٢ ١٨٥٣ ١٨٥٤ ١٨٥٥ ١٨٥٦ ١٨٥٧ ١٨٥٨ ١٨٥٩ ١٨٦٠ ١٨٦١ ١٨٦٢ ١٨٦٣ ١٨٦٤ ١٨٦٥ ١٨٦٦ ١٨٦٧ ١٨٦٨ ١٨٦٩ ١٨٧٠ ١٨٧١ ١٨٧٢ ١٨٧٣ ١٨٧٤ ١٨٧٥ ١٨٧٦ ١٨٧٧ ١٨٧٨ ١٨٧٩ ١٨٨٠ ١٨٨١ ١٨٨٢ ١٨٨٣ ١٨٨٤ ١٨٨٥ ١٨٨٦ ١٨٨٧ ١٨٨٨ ١٨٨٩ ١٨٩٠ ١٨٩١ ١٨٩٢ ١٨٩٣ ١٨٩٤ ١٨٩٥ ١٨٩٦ ١٨٩٧ ١٨٩٨ ١٨٩٩ ١٩٠٠ ١٩٠١ ١٩٠٢ ١٩٠٣ ١٩٠٤ ١٩٠٥ ١٩٠٦ ١٩٠٧ ١٩٠٨ ١٩٠٩ ١٩١٠ ١٩١١ ١٩١٢ ١٩١٣ ١٩١٤ ١٩١٥ ١٩١٦ ١٩١٧ ١٩١٨ ١٩١٩ ١٩٢٠ ١٩٢١ ١٩٢٢ ١٩٢٣ ١٩٢٤ ١٩٢٥ ١٩٢٦ ١٩٢٧ ١٩٢٨ ١٩٢٩ ١٩٣٠ ١٩٣١ ١٩٣٢ ١٩٣٣ ١٩٣٤ ١٩٣٥ ١٩٣٦ ١٩٣٧ ١٩٣٨ ١٩٣٩ ١٩٤٠ ١٩٤١ ١٩٤٢ ١٩٤٣ ١٩٤٤ ١٩٤٥ ١٩٤٦ ١٩٤٧ ١٩٤٨ ١٩٤٩ ١٩٥٠ ١٩٥١ ١٩٥٢ ١٩٥٣ ١٩٥٤ ١٩٥٥ ١٩٥٦ ١٩٥٧ ١٩٥٨ ١٩٥٩ ١٩٦٠ ١٩٦١ ١٩٦٢ ١٩٦٣ ١٩٦٤ ١٩٦٥ ١٩٦٦ ١٩٦٧ ١٩٦٨ ١٩٦٩ ١٩٧٠ ١٩٧١ ١٩٧٢ ١٩٧٣ ١٩٧٤ ١٩٧٥ ١٩٧٦ ١٩٧٧ ١٩٧٨ ١٩٧٩ ١٩٨٠ ١٩٨١ ١٩٨٢ ١٩٨٣ ١٩٨٤ ١٩٨٥ ١٩٨٦ ١٩٨٧ ١٩٨٨ ١٩٨٩ ١٩٩٠ ١٩٩١ ١٩٩٢ ١٩٩٣ ١٩٩٤ ١٩٩٥ ١٩٩٦ ١٩٩٧ ١٩٩٨ ١٩٩٩ ٢٠٠٠ ٢٠٠١ ٢٠٠٢ ٢٠٠٣ ٢٠٠٤ ٢٠٠٥ ٢٠٠٦ ٢٠٠٧ ٢٠٠٨ ٢٠٠٩ ٢٠١٠ ٢٠١١ ٢٠١٢ ٢٠١٣ ٢٠١٤ ٢٠١٥ ٢٠١٦ ٢٠١٧ ٢٠١٨ ٢٠١٩ ٢٠٢٠ ٢٠٢١ ٢٠٢٢ ٢٠٢٣ ٢٠٢٤ ٢٠٢٥ ٢٠٢٦ ٢٠٢٧ ٢٠٢٨ ٢٠٢٩ ٢٠٣٠ ٢٠٣١ ٢٠٣٢ ٢٠٣٣ ٢٠٣٤ ٢٠٣٥ ٢٠٣٦ ٢٠٣٧ ٢٠٣٨ ٢٠٣٩ ٢٠٤٠ ٢٠٤١ ٢٠٤٢ ٢٠٤٣ ٢٠٤٤ ٢٠٤٥ ٢٠٤٦ ٢٠٤٧ ٢٠٤٨ ٢٠٤٩ ٢٠٥٠ ٢٠٥١ ٢٠٥٢ ٢٠٥٣ ٢٠٥٤ ٢٠٥٥ ٢٠٥٦ ٢٠٥٧ ٢٠٥٨ ٢٠٥٩ ٢٠٦٠ ٢٠٦١ ٢٠٦٢ ٢٠٦٣ ٢٠٦٤ ٢٠٦٥ ٢٠٦٦ ٢٠٦٧ ٢٠٦٨ ٢٠٦٩ ٢٠٧٠ ٢٠٧١ ٢٠٧٢ ٢٠٧٣ ٢٠٧٤ ٢٠٧٥ ٢٠٧٦ ٢٠٧٧ ٢٠٧٨ ٢٠٧٩ ٢٠٨٠ ٢٠٨١ ٢٠٨٢ ٢٠٨٣ ٢٠٨٤ ٢٠٨٥ ٢٠٨٦ ٢٠٨٧ ٢٠٨٨ ٢٠٨٩ ٢٠٩٠ ٢٠٩١ ٢٠٩٢ ٢٠٩٣ ٢٠٩٤ ٢٠٩٥ ٢٠٩٦ ٢٠٩٧ ٢٠٩٨ ٢٠٩٩ ٢١٠٠ ٢١٠١ ٢١٠٢ ٢١٠٣ ٢١٠٤ ٢١٠٥ ٢١٠٦ ٢١٠٧ ٢١٠٨ ٢١٠٩ ٢١١٠ ٢١١١ ٢١١٢ ٢١١٣ ٢١١٤ ٢١١٥ ٢١١٦ ٢١١٧ ٢١١٨ ٢١١٩ ٢١٢٠ ٢١٢١ ٢١٢٢ ٢١٢٣ ٢١٢٤ ٢١٢٥ ٢١٢٦ ٢١٢٧ ٢١٢٨ ٢١٢٩ ٢١٣٠ ٢١٣١ ٢١٣٢ ٢١٣٣ ٢١٣٤ ٢١٣٥ ٢١٣٦ ٢١٣٧ ٢١٣٨ ٢١٣٩ ٢١٤٠ ٢١٤١ ٢١٤٢ ٢١٤٣ ٢١٤٤ ٢١٤٥ ٢١٤٦ ٢١٤٧ ٢١٤٨ ٢١٤٩ ٢١٥٠ ٢١٥١ ٢١٥٢ ٢١٥٣ ٢١٥٤ ٢١٥٥ ٢١٥٦ ٢١٥٧ ٢١٥٨ ٢١٥٩ ٢١٦٠ ٢١٦١ ٢١٦٢ ٢١٦٣ ٢١٦٤ ٢١٦٥ ٢١٦٦ ٢١٦٧ ٢١٦٨ ٢١٦٩ ٢١٧٠ ٢١٧١ ٢١٧٢ ٢١٧٣ ٢١٧٤ ٢١٧٥ ٢١٧٦ ٢١٧٧ ٢١٧٨ ٢١٧٩ ٢١٨٠ ٢١٨١ ٢١٨٢ ٢١٨٣ ٢١٨٤ ٢١٨٥ ٢١٨٦ ٢١٨٧ ٢١٨٨ ٢١٨٩ ٢١٩٠ ٢١٩١ ٢١٩٢ ٢١٩٣ ٢١٩٤ ٢١٩٥ ٢١٩٦ ٢١٩٧ ٢١٩٨ ٢١٩٩ ٢٢٠٠ ٢٢٠١ ٢٢٠٢ ٢٢٠٣ ٢٢٠٤ ٢٢٠٥ ٢٢٠٦ ٢٢٠٧ ٢٢٠٨ ٢٢٠٩ ٢٢١٠ ٢٢١١ ٢٢١٢ ٢٢١٣ ٢٢١٤ ٢٢١٥ ٢٢١٦ ٢٢١٧ ٢٢١٨ ٢٢١٩ ٢٢٢٠ ٢٢٢١ ٢٢٢٢ ٢٢٢٣ ٢٢٢٤ ٢٢٢٥ ٢٢٢٦ ٢٢٢٧ ٢٢٢٨ ٢٢٢٩ ٢٢٣٠ ٢٢٣١ ٢٢٣٢ ٢٢٣٣ ٢٢٣٤ ٢٢٣٥ ٢٢٣٦ ٢٢٣٧ ٢٢٣٨ ٢٢٣٩ ٢٢٤٠ ٢٢٤١ ٢٢٤٢ ٢٢٤٣ ٢٢٤٤ ٢٢٤٥ ٢٢٤٦ ٢٢٤٧ ٢٢٤٨ ٢٢٤٩ ٢٢٥٠ ٢٢٥١ ٢٢٥٢ ٢٢٥٣ ٢٢٥٤ ٢٢٥٥ ٢٢٥٦ ٢٢٥٧ ٢٢٥٨ ٢٢٥٩ ٢٢٦٠ ٢٢٦١ ٢٢٦٢ ٢٢٦٣ ٢٢٦٤ ٢٢٦٥ ٢٢٦٦ ٢٢٦٧ ٢٢٦٨ ٢٢٦٩ ٢٢٧٠ ٢٢٧١ ٢٢٧٢ ٢٢٧٣ ٢٢٧٤ ٢٢٧٥ ٢٢٧٦ ٢٢٧٧ ٢٢٧٨ ٢٢٧٩ ٢٢٨٠ ٢٢٨١ ٢٢٨٢ ٢٢٨٣ ٢٢٨٤ ٢٢٨٥ ٢٢٨٦ ٢٢٨٧ ٢٢٨٨ ٢٢٨٩ ٢٢٩٠ ٢٢٩١ ٢٢٩٢ ٢٢٩٣ ٢٢٩٤ ٢٢٩٥ ٢٢٩٦ ٢٢٩٧ ٢٢٩٨ ٢٢٩٩ ٢٣٠٠ ٢٣٠١ ٢٣٠٢ ٢٣٠٣ ٢٣٠٤ ٢٣٠٥ ٢٣٠٦ ٢٣٠٧ ٢٣٠٨ ٢٣٠٩ ٢٣١٠ ٢٣١١ ٢٣١٢ ٢٣١٣ ٢٣١٤ ٢٣١٥ ٢٣١٦ ٢٣١٧ ٢٣١٨ ٢٣١٩ ٢٣٢٠ ٢٣٢١ ٢٣٢٢ ٢٣٢٣ ٢٣٢٤ ٢٣٢٥ ٢٣٢٦ ٢٣٢٧ ٢٣٢٨ ٢٣٢٩ ٢٣٣٠ ٢٣٣١ ٢٣٣٢ ٢٣٣٣ ٢٣٣٤ ٢٣٣٥ ٢٣٣٦ ٢٣٣٧ ٢٣٣٨ ٢٣٣٩ ٢٣٤٠ ٢٣٤١ ٢٣٤٢ ٢٣٤٣ ٢٣٤٤ ٢٣٤٥ ٢٣٤٦ ٢٣٤٧ ٢٣٤٨ ٢٣٤٩ ٢٣٥٠ ٢٣٥١ ٢٣٥٢ ٢٣٥٣ ٢٣٥٤ ٢٣٥٥ ٢٣٥٦ ٢٣٥٧ ٢٣٥٨ ٢٣٥٩ ٢٣٦٠ ٢٣٦١ ٢٣٦٢ ٢٣٦٣ ٢٣٦٤ ٢٣٦٥ ٢٣٦٦ ٢٣٦٧ ٢٣٦٨ ٢٣٦٩ ٢٣٧٠ ٢٣٧١ ٢٣٧٢ ٢٣٧٣ ٢٣٧٤ ٢٣٧٥ ٢٣٧٦ ٢٣٧٧ ٢٣٧٨ ٢٣٧٩ ٢٣٨٠ ٢٣٨١ ٢٣٨٢ ٢٣٨٣ ٢٣٨٤ ٢٣٨٥ ٢٣٨٦ ٢٣٨٧ ٢٣٨٨ ٢٣٨٩ ٢٣٩٠ ٢٣٩١ ٢٣٩٢ ٢٣٩٣ ٢٣٩٤ ٢٣٩٥ ٢٣٩٦ ٢٣٩٧ ٢٣٩٨ ٢٣٩٩ ٢٤٠٠ ٢٤٠١ ٢٤٠٢ ٢٤٠٣ ٢٤٠٤ ٢٤٠٥ ٢٤٠٦ ٢٤٠٧ ٢٤٠٨ ٢٤٠٩ ٢٤١٠ ٢٤١١ ٢٤١٢ ٢٤١٣ ٢٤١٤ ٢٤١٥ ٢٤١٦ ٢٤١٧ ٢٤١٨ ٢٤١٩ ٢٤٢٠ ٢٤٢١ ٢٤٢٢ ٢٤٢٣ ٢٤٢٤ ٢٤٢٥ ٢٤٢٦ ٢٤٢٧ ٢٤٢٨ ٢٤٢٩ ٢٤٣٠ ٢٤٣١ ٢٤٣٢ ٢٤٣٣ ٢٤٣٤ ٢٤٣٥ ٢٤٣٦ ٢٤٣٧ ٢٤٣٨ ٢٤٣٩ ٢٤٤٠ ٢٤٤١ ٢٤٤٢ ٢٤٤٣ ٢٤٤٤ ٢٤٤٥ ٢٤٤٦ ٢٤٤٧ ٢٤٤٨ ٢٤٤٩ ٢٤٥٠ ٢٤٥١ ٢٤٥٢ ٢٤٥٣ ٢٤٥٤ ٢٤٥٥ ٢٤٥٦ ٢٤٥٧ ٢٤٥٨ ٢٤٥٩ ٢٤٦٠ ٢٤٦١ ٢٤٦٢ ٢٤٦٣ ٢٤٦٤ ٢٤٦٥ ٢٤٦٦ ٢٤٦٧ ٢٤٦٨ ٢٤٦٩ ٢٤٧٠ ٢٤٧١ ٢٤٧٢ ٢٤٧٣ ٢٤٧٤ ٢٤٧٥ ٢٤٧٦ ٢٤٧٧ ٢٤٧٨ ٢٤٧٩ ٢٤٨٠ ٢٤٨١ ٢٤٨٢ ٢٤٨٣ ٢٤٨٤ ٢٤٨٥ ٢٤٨٦ ٢٤٨٧ ٢٤٨٨ ٢٤٨٩ ٢٤٩٠ ٢٤٩١ ٢٤٩٢ ٢٤٩٣ ٢٤٩٤ ٢٤٩٥ ٢٤٩٦ ٢٤٩٧ ٢٤٩٨ ٢٤٩٩ ٢٥٠٠ ٢٥٠١ ٢٥٠٢ ٢٥٠٣ ٢٥٠٤ ٢٥٠٥ ٢٥٠٦ ٢٥٠٧ ٢٥٠٨ ٢٥٠٩ ٢٥١٠ ٢٥١١ ٢٥١٢ ٢٥١٣ ٢٥١٤ ٢٥١٥ ٢٥١٦ ٢٥١٧ ٢٥١٨ ٢٥١٩ ٢٥٢٠

ويشفون الناس من الجن والشياطين الموجودة في أدلاب العصور الوسطى
ما هي إلا أساطير مقتبسة من التلمود^(١).

ويظن أن العهد القديم بما حواه من مادة أسطورية ضخمة قد أثر بطريقة
ما على الفكر العربي القديم في الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده ،
ولاشك أن الباحث يحتاج إلى جهد كبير ليتتبع هذا التأثير وإظهاره وليس
هنا مجال للإقضاة في ذلك ولكن يكفي فقط بالإشارة إلى بعض الطرق
التي رآها العلماء والدارسون في سبب تصرب هذا التراث الأسطوري
إلى الفكر العربي القديم ، فيظن أن جماعة من أهل الكتاب ومعظمهم من
اليهود الذين كثروا يقطنون الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا يحملون
ترجمة عربية للعهد القديم وقد ناصت تلك الترجمة بين الأنبياء العرب في
ذلك الحين وربما يظهر ذلك في شعر أمية بن أبي الصلت - ولكن تلك
الترجمة فقدت^(٢) زد على ذلك أن قبيلة كزيش في الجاهلية كانت تقوم

(١) Legends of the Bible p XIX .

(٢) سكنت الجزيرة العربية منذ القدم بعض الأسر اليهودية وقد تزجت إلى بلاد
العرب من مواطن متعددة تحت ظروف قهريّة وقد تشاركت الأكلال عند تحديد
الفترة التي حاجر فيها العربون إلى الجزيرة العربية واليمن لفترة المصاعف التي
ترجع إلى هذه الفترة الصعبة من الزمن كما لم يرد في العهد القديم سوى إشادات
بسيطة من صلاة العرب باليهود ومن القبائل اليهودية التي سكنت بلاد العرب .
ويمكن القول بأن اليهود قد تعرضوا إلى اضطرابات مختلفة طوال حياتهم سواء
طبيعية أم سياسية أم اجتماعية . ومن هنا قد تكون الهجرات الأولى منذ موسى
حيث طلب من جماعة محاربة الملوك الذين يسكنون فلسطين فتمتصّل أن يكون
بعضهم قد أُر إلى الجزيرة العربية حيث الأمن لم يرد في ذلك بكثير والقبائل
من كتب التاريخ معظمها أن الهجرات الأولى لم تظهر واضحة إلا في القرن الأول
بعد الميلاد بخاصة في عصر الرومان وتحطيم الهيكل الثاني . وكان أكثر توليد
اليهود في المدينة والمدن وغيرها واليمن وقد عاشوا بهرول العرب يتسلخرون
عليهم بكنائسهم المناس ويقصون عليهم قصص الأنبياء والخلق والطوفان وكان ذلك

برحلتين صيفا وشتاء (وذلك ما يخبر به القرآن الكريم في سورة قريش)
 فرحلة الصيف كانت إلى الشام والشتاء إلى اليمن وفي اليمن والشام كان
 يسكن كثير من اليهود ولا بد أن قريشا كانت تتصل بهؤلاء اليهود وربما
 تعرفت منهم على تراثهم الأسطوري. ولما جاء الإسلام وقف المسلمون
 على التراث الأسطوري العبري بخاصة أساطير الخلق والطوفان
 وقصص الأنبياء مثل (نوح - إبراهيم - ويعقوب - وموسى -
 وإسماعيل - ويونس ... الخ) وذلك عن طريق من أسلم من اليهود أمثال
 (كعب الأحبار - وهب بن منبه - عبيد بن شريح - عبد الله بن سلام)
 الذين قدر لهم أن يؤثروا في التفاسير الإسلامية واملأوا كتب الأدب
 العربي بالقصص والخرافات الإسرائيلية^(١) - المسماه بالإسرائيليات
 الآن - والتي جلب اليهود معظمها من بابل وكنعان وفارس والهند
 ومصر - وقد سبق الإشارة إليه - .

سجذب العرب اليهم فلما جاء الإسلام اقبل المسلمون على من أسلم من اليهود
 يستمعون إلى ما عندهم من قصص. راجع تفصيلا عدة مراجع ملها:
 - (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام) (ص ٢٦-٤٠)
 - علي / جواد (تاريخ العرب قبل الإسلام) المجمع العراقي ببغداد ، ١٩٥٧
 (ج ٦) ص ٥٠٠ وما بعدها .

- ابن هشام / محمد (السيرة) طبعة جوتنجن ١٨٥٨ / ١٨٦٠ ج ١ / ٢١١
 (١) أمين : أحمد (فجر الإسلام) الطبعة العاشرة القاهرة ١٩٦٥ ص ١٦٠ كذلك
 انظر الخولي : أمين (مادة تفسير) في دائرة المعارف الإسلامية طبعة دار الشعب
 بدون تاريخ

و لئن أن المسلمين قد قبلوا على قصص أهل الكتاب حتى لا يكونوا
أقل شأنا منهم وهم الذين طالما كثروا يقتلهم عليهم بهذه المثلثات .
وقد أشار ابن هشام إلى ذلك في كتاب السيرة طبراج (١)

كذلك يرى الباحثون أن من الطرق التي صوب منها القصاص اليهودي
بعد الإسلام الترجمة العربية العهد القديم التي ظهرت في الأعصر
العربية (٢) ويذكر (ابن القيم) في كتاب التبرعات أن أحد علماء اليهود
المستكين من اللغة العربية ويدعى (الجارون سعيد بن سعديا القومسي)
قد ترجم العهد القديم إلى العربية . ويذكر ابن القيم أيضا ترجمة عربية
أخرى لأحمد بن عبد الله بن سلام (٣)

وقد نثر كثير من المفسرين والأدباء العرب والمسلمين بالعهد القديم
وغيرها من كتب اليهود الدينية ولكن معلوماتهم كانت مشوَّبة بالخط
التاريخي فكل ما وجدوا بالخرافات ولعل تفسير الخلق المسمى (لباب
التكوير في معنى التبريل) يأتي في مقدمة التفسير الإسلامية المأونة
بالقصص اليهودية بشكل يدخل معه القارئ أنه أمام كتاب أساطير
وخرافات فخر منه كتاب تفسير القرآن . كذلك يمكن أن ينطبق هذا القول
على كتاب (قصص الأنبياء) القبطي .

(١) السيرة ج ١/ ٢١١

(٢) راجع تسيلا : زيدان : جرجي (تاريخ الأدب اللغة العربية) مطبعة الهلال
مصر ١٩٤١ ج ٢/ ١٥٥

(٣) ابن القيم - محمد بن إسحق الوراق : (التبرعات) ليزك سنة ١٨٧١ م ص ٢٢
وكذلك راجع الترجمة العربية لسعد القومسي في

- The Jewish Encyclopedia Vol 3 P 128

كما يقول الباحثون إن أساطير وتخصص للعهد للتعليم كانت أحد مصادر
كتاب (ألف ليلة وليلة) وإن أساطير التلمود والمدرش ذات الأصل
اليوناني واليوناني أو الفارسي أو البابلي قد نضجت وانتشرت في (ألف ليلة
وليلة) أيضا. (٢٧١)

ولم تخل الأساطير الخيرية القديمة ألف ليلة وليلة قط بل استخدمها
شعوب العصور الوسطى في كثير من أعمالهم حيث كانوا يرسمون
أساطير سفر التكوين مثل أسطورة الخلق والطوفان وأدم وحواء
وشخصيات أخرى من العهد القديم ... على نوافذ الكنائس والمعابد
قديما. (٢٧٢)

ويقول (كراب) "رغم ذلك يجب ألا نفرط كثيرا أو نبالغ في تأثير أدب
العهد القديم وشروحه على الأدب المسيحي أو الإسلامي" (٢٧٣) ولكن يمكن

(١) Encyclopaedia Britannica vol 10 P 194

(٢) لو فكرنا الأساطير التي وردت في سفر التكوين (٢-٧)

وذكرها في سفر التكوين (٢٧٧) في العهد القديم
في عهد الملك سليمان وخولقه وتسخيره للجن والحيوانات والطيور لوجدنا مثيلا
لها في كثير من تخصص ألف ليلة وليلة وكتب الأدب العربي والتفسير الإسلامية .

(٣) Legends of the Bible XIX (Introduction)

(٤) كان مايكل ليجو رساما ومثالا وشاعرا قديما وقد ارتبط اسمه بأروع الآثار الفنية
في تاريخ النهضة الأوروبية كتمثال دلود العريان وتمثال موسى الضخم وقصة الخليفة
على جملته الفنية الواسعة في كنيسة القديس بطرس ب روما - وأدم وحواء والطوفان
توح وقصة قاييل وهابيل على نوافذ كثير من الكنائس في أوروبا .. راجع تفصيلا

- Legends of the Bible P XIX

(٥) حلم هولوكور من ٢١٢

القول فقط أنه لا يمكن دراسة المأثورات الشرقية القديمة معظمها بعزل
 عن أسفار العهد القديم وشروحه وبالعكس .
 قصاري القول إن المادة الأسطورية التي يعج بها العهد القديم وتغاسيره
 سواء العبرية الأصل أم التي تهودت قد تسربت إلى الأدب الأوروبي في
 العصور الوسطى زمن الشتات اليهودي حيث يدين أدب العصور الوسطى
 في أوروبا إلى حد كبير في انتشاره إلى التراث الأسطوري العبري . كما
 تأثر كثير من أدباء الغرب ورواتهم في العصر العباسية وتأثر بعض
 مفسري القرآن الكريم الذين يهتمون بالإسرائيليات بالقصص والأساطير
 التي يحتويها العهد القديم وغيره من كتب اليهود الدينية بخاصة قصة بدء
 الخليقة وقصص الأنبياء مثل آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وداود
 وسليمان ... وغيرهم. (١)

(١) نضرب مثلاً : خرافة عزرايل وعزرايا التي روتها أساطير التلمود ، כִּתְּמֵי אֶזְרַיִל וְעֶזְרַיָּה (T ١٦٧٦) ١١
 ج ١ ص ٢١١ وما بعدها ، يرويها التعلي في قصص الأنبياء ص ٣١/٣٠ عند تصدره لقصة الملكين
 هاروت وماروت وقد سر بها المنسرون الميتمون بالإسرائيليات مثل الحازن والنويري والنسفي الأبية
 الكرمجة من سورة البقرة رقم ١٠٢ . كذلك أن القصة التي رواها التعلي عن الخضر هي نفسها قصة
 (أيليا هو) أحد أنبياء بني إسرائيل التي روتها أساطير التلمود كما أن قصة عنتر المدحد علي الحجر الخالص
 بناء هيكل سليمان والتي روتها أساطير التلمود لها منيل في قصص الأنبياء للتعلي في قصة الملك سليمان .
 للراجع .

ثالثاً - مصادر الأسطورة والقصة والخرافة اليهودية القديمة:

قامت على المادة الأسطورية الموجودة في أسفار العهد القديم أساطير وخرافات متعددة توجد متناثرة في كل مكان مع الخرافات والنقائض الدينية في كل من التلمود^(١) والمدرش^(٢) والأبوكريفا^(٣) كما يوجد جزء كبير منها في التترجم الأرامي^(٤) وسائر تفاسير وشروح وتراجم العهد القديم وهو ما يسمى بلطب ما بعد التوراة . وتسمى الأجزاء التي تتناول الأساطير والخرافات في تلك الشروح والتراجم (بالهالاجلة أو الأجلالة)^(٥)

(١) التلمود: وهو مكون من الشتا والجمارا وهي شروح كتبت على أجزاء من أسفار العهد القديم وتنقسم إلى البابلي وكتب في بابل ونورشليم ووضع لسي السطون وتنقسم المادة الموجودة فيه إلى الهالاجلة التراث الأسطوري والهالاخا الأحكام والوصايا الديني-تراجم تصولا

H.Polano, "The Talmud Selections", London 1978 Part 1-2 pp 1:10

والفكر الديني الإسرائيلي لمطورة ومطالعة من ٩٥ وما بعدها

(٢) المد رتب-التفسير أو كشرح أي شرح النص التورعي ويطلق عليه الألب التفسيري وهو فرع من فروع الشتا ويحتوي على أجزاء من الأساطير والخرافات - عهد العهد : مصدر بحري اليهودية مصر ١٩٢٠ من ١٢٠:١١٩

(٣) الأبوكريفا: كلمة يونانية لها معنى متعددة منها متباين حتى يصعب بها الأساطير الخرافية التي لم يكن لها وجود في العهد القديم العبري ثم وضعت ضمن الترجمة اليونانية - السبعينية - العهد القديم إلا أن اليهود لم يعترفوا بها ولم يسموها إلى أسفارهم التوراتية السبعة العهد القديم بل جمع الفكر الديني الإسرائيلي لمطورة ومطالعة من ٧٧/٧٧

(٤) التترجم الأرامي: ترجمة وتفسير أسفار العهد القديم بالآرامية في عصر احتمال اللغة العبرية وتزدحم الآرامية وهو أقدم كتب تلامي حنن بن اليهود - الألب العبري القديم والوسط من ٤/٥

(٥) الهالاجلة كلمة عبرية تعني تراث اليهود الأسطوري والخرافي تقدم على أسفار العهد القديم وهي مأخوذة من أصل المزيد (مجدد) بمعنى تفسيري نفس ولكن يرد بها لأمسلاخ

وكانت الكلمة تعنى أصلاً تعليم و تلاوة العهد القديم ثم وصارت تعنى الإفاضة التفسيرية للفقرات المذكورة في العهد القديم بخاصة الأجزاء التي لا تمس الشريعة ثم تحولت بالتدريج فأصبحت تعنى تفسير وتاويل أسفار العهد القديم بوجه عام^(١).

و تشمل الهاجادة موضوعات متعددة ومتنوعة منها أساطير وخرافات مستقاة من العهد القديم تدور حول خلق العالم وأسراره وخلق آدم وحواء من ضلعه وطردهما من الجنة وخلق جنة عدن. وتشمل أيضاً حكايات شعبية وقصص تاريخية حكيت حول شخصيات جاء ذكرها في العهد القديم مثل قابيل ، وهابيل ، ونوح ، وإبراهيم وزوجته سارة ، وإسحاق ويعقوب وبنيه وموسى ومعجزاته في صحراء سيناء ومعجزة المن والسلوى طعام بنى إسرائيل في الصحراء. أضف إلى ذلك قصص عن داود وهو صغير يرعى الغنم وهو كبير يرعى بنى إسرائيل وقصته مع الملك شاول ومقتل جالوت الفلسطيني على يده وقصص وخرافات عن ابنه الملك سليمان وحكمته وحكاياته مع ملكة سبأ ومع الجن والشياطين والطير والنمل^(٢) والوحوش ومائر الكائنات.

قصة موسى وخروجه مع قومه من مصر وكان رب الأسرة يرويه على أسرته في عهد اللصح ثم استخدمت بدلا منها الكلمة الآرامية اجدادة وهي أعم وأشمل =

The jewish Encyclopaedia vol VI P 141 (haggadah)

(١) The jewish Encyclopaedia vol VI P 141

(٢) من الطيور التي كثرت حولها الخرافات في قصة سليمان الهمد والسنبل وفي قصة نوح والحمامة والغراب. لأجل معلومات أوسع أرجع إلى : $\text{דברא אגדה} \text{ שרצח} :$

$\text{חלפ ראשון} \text{ שלש} ; \text{ספר האגדה} : \text{חלפראשון}$

وقصص عن بناء سليمان للمهيكل^(١) أضف إلى حكايات وخرافات لا
 حضر لها عن معجزات منسوبة إلى شخصيات أخرى ظهرت بعد فترة
 العهد القديم^(٢)، كما تزخر الهاجادة أيضا بألوان شتى من الخرافات
 الخاصة بالسحر والتنجيم والعرافة والملائكة والشياطين والأرواح
 والهوام والجن... وما إلى ذلك. وهناك قصص وخرافات لا نهاية لها
 عن معجزات رجال الدين اليهودي ولا تحتوى الهاجادة على خرافات
 فقط بل فيها ما يتعلق بالطب والفلك وما يختص بالنواحي الأخلاقية
 والفلسفية والصوفية إلى جانب كم هائل من الحكم والأشعار والتشبيهات
 التي استخدمت في ضرب المثل والعبرة والقصص الرمزية التي ترشد
 اليهود إلى الأخلاق الكريمة وتحثهم على التمسك بالدين^{(٣) (٤)}

ويذكر الباحثون أن السبب الرئيسي في ظهور تلك المادة الأسطورية
 الضخمة هو الرغبة في شرح وتفسير ما غمض من أسفار العهد القديم
 في عصر تدهور اللغة العبرية ونسيانها . فبعد السبى البابلي استمر
 اليهود في نسج الأساطير حول شخصيات من العهد القديم و أجزاء منه

(١) بناء الهيكل - الجزء الثاني ص ١٩٢ - ٢٠٤ The Talmud Selections

(٢) راجع مثل هذه القصص وغيرها في the talmud Selections الجزء الثالث

(٣) The Jewish Encyclopaedia vol IX p 215 (Parable) و VI p 141

(٤) ليس من الضروري أن تكون هذه المأثورات من نتاج العقليّة اليهودية حيث يقال إن
 علماء اليهود قد اقتبسوا معظمها من الهند ومن مصر واليونان وكنعان . راجع في ذلك مثل
 ظاظا ، حسن : في حديثه (لغة اللحم ماذا تقول) لجريدة أخبار اليوم ١٩٧٠/٧/١٨ ومثل
 فجر الضمير ٢٩٠

وامتد هذا النشاط الشعري على مدى عشرة قرون ورمت الأساطير باستخدامها الخيال والتخيل والخرافة إلى الإفاضة فيما هو غير مفهوم من العهد القديم. وكان الغرض من ذلك تشويق المستمع وجذبه لسماع ما يروى إليه مع الاهتمام بتقريب اليهودى من الرب الذي خلق الكون ، وحثه على تمجيده والسير في طريقه ونشر الطمأنينة في قلوب اليهود أثناء الأسر البابلي^(١) وكانت الهاجادة الفرع الأكبر شعبية لأنها بدلا من التعامل مع الشرائع والنصوص التشريعية كما تفعل الهالاخا^(٢) كانت تتعامل مع العادات والمعتقدات والتقاليد القديمة والخرافات والأساطير والأمثال والقصص أي كل ما يتعلق بعلم الأساطير و التراث الشعبي. ورغم أن الهاجادة تقوم مادتها على أسفار العهد القديم ، إلا أنها تحاول أيضا عرض أفكار جديدة للنص مستشهدة بقرات من العهد القديم لكي تؤثر في الناس^(٣) .

وتتناول الهاجادة بوجه عام ما جاء في العهد القديم من شرائع دينية وقصص وأحداث تاريخية في شكل قصص وأساطير وحكايات وخرافات من أجل التشويق والترهيب والترغيب ،

(١) The jewish Encyclopaedia vol VI P 141

(٢) الهالاخا الجزء الذي يهتم بالنصوص والشرائع والاحكام الدينية بعيدا عن الأساطير والمعتقدات =

~The Jewish Encyclopaedia vol VI p 141

(٣) The Jewish Encyclopaedia vol VI P141

سراج أيضا الألب العبري القديم والوسيط ص ٦/٥

ونظرا لأن الهاجادة كانت تستمد أصولها من تأملات الإنسان والحريسة الفكرية فهي تعد نتاج للزمان والأفكار التي كانت منتشرة آنذاك ، بمعنى أنها قد تعرضت لمؤثرات أجنبية متعددة ، حيث تركت الحضارات المختلفة التي كان اليهود يعيشون في كنفها مثل الحضارات الكنعانية والفينيقية والمصرية والبابلية والفارسية واليونانية والرومانية آثارها على الهاجادة^(٦) التي لم تنته بإتمام التلمود بل استمرت لعدة قرون . وقد عمل كتاب الميثولوجيا اليهودية على صبغة تلك المؤثرات الأجنبية بالصبغة الدينية اليهودية كي تتناسب مع الفكر الديني اليهودي والمقتضيات الأخلاقية عند اليهود لكن رغم ذلك ظلت بقايا تلك المؤثرات الأجنبية واضحة في ثنايا الهاجادة فمثلا في قصة وفاة آدم وحواء وإبراهيم وموسى وحضور ملاك الموت وكيفية دفنهم ظهرت بقايا الخرافات المصرية التي تتحدث عن دفن الموتى وظهور ملائكة الموت^(١) وتبدت آثار يونانية في المدراس عند تفسير سفرى الجامعة ونشيد الأناشيد^(٢) وظهرت آثار لخرافات بابلية وفارسية في الهاجادة تتحدث عن الجن والشياطين والأرواح وثنائية الخير والشر عند الفرس. وعوالم الآلهة

(٦) راجع ص ١٤ : ١٥ من هذا البحث

(١) لأجل معلومات أوسع راجع :

Myths and Legends of Ancient Israel vol I (المقدمة) = legends of the Bible

(٢) الحضارات السامية القديمة ص ١٦٤ والأدب العبري القديم والوسيط ص ١٠٥

وعن سحر والسحرة والتنجيم^(٥) كما تسربت معتقدات وخرافات من الأمم الأخرى مثل خلق صفات البشر على الرب ووصف العالم السفلى والموت والحياة ووصف الجنة والنار. وفوق ذلك كله ظهرت بوضوح في ثنايا الهاجادة عناصر خرافات وأساطير تتحدث عن كيفية خلق الشمس والقمر والكون والإنسان والحيوان ومائر الكائنات وخرافات تتعلق بصفات الرب وأشكال الملائكة والجن والشياطين وتجسيد الطبيعة وتجسيد الإله^(١) وهذه المعتقدات والخرافات بعيدة عن الروح الإيمانية عند اليهود .

وقد انتعشت الهاجادة ونمت عبر القرون كفرع من فروع الأدب الشعبي وابتكرت أساطير وخرافات وحكم وأمثال جديدة لا تعتمد على العهد القديم، وعدلت القديمة بطريقة تخدم الأهداف الأخلاقية والسياسية أيضا. وجمع الأحرار الذين أتوا في فترة ما بعد التلمود الخرافات المبعثرة ونقضوها محاولين تنظيمها كي تناسب احتياجات اليهود^(٢)

(٥) يمتلئ التلمود بطقوس السحر والشعوذة والخرافة ويعتقد بوجود الغاريت والجن

مركيبة طرد الأرواح الشريرة = שו"ס 272, שו"ס 272: שו"ס 272: שו"ס 272

Copyright - Tel Aviv 1970 - P 406

(١) The Jewish Encyclopaedia vol VI P 141 (Hagadah)

(٢) الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه ص ١٠٤/١٠٥

وينسب اليهود بداية تأليف الهاجادة إلى عصر عزرا الكاتب في القرن الخامس الميلادي عندما حاول أن يجعل العهد القديم مقبولا لدى عامة اليهود ففسره في شكل قصص وأساطير لجذب الناس إليه.^(١)

وخلاصة القول تعنى الهاجادة الحكاية أو الأسطورة أو الخرافة اليهودية التي أوحى بها العهد القديم فهي نابعة منه مفسرة لما غمض فيه. وقد عبر كتاب الميثولوجيا اليهودية تعبيراً واقياً عن معتقدات وعادات وتقاليد و آمال و آلام اليهود في تلك المادة الأسطورية الضخمة لذلك فهي تعد بمثابة مرآة للكشف عن أخلاق اليهود وطباعهم وأفكارهم كما تمدنا بشئ عن تاريخهم وتعرفنا بأداب الشعوب الأخرى التي كانت موجودة عصر التلمود وبعده. ومن هنا يمكن اعتبار الهاجادة من الوثائق التي تعتمد عليها في معرفة تاريخ اليهود وآدابهم و آداب من كانوا على اتصال بهم وهذه المادة بالطبع ذات طابع ديني وأخلاقي بالرغم من المبالغات والخيالات الواسعة التي تحيط بها .

(١) مرسى : أحمد على : وفاروق جودى الفولكلور والإسرائيليات : دار المعارف : مصر ١٩٧٧ ص ١٧ وما بعدها.

ملاحح الأساطير والخرافات العبرية القديمة:

من الملاحظ أن الأساطير والخرافات في العهد القديم وشروحه وتراجمه تشترك مع أساطير وخرافات الأمم الأخرى في أنها تخضع كل قوى الطبيعة إلى سيطرة قوة ذات مشيئة أعظم وتعتبر أساطير العهد القديم سواء التي من نتاج العقلية العبرية أو التي تهوت أساطير رمزية وإشارية وتاريخية تصف أصل تطور القوة الطبيعية مثلها في ذلك مثل أساطير الأمم الأخرى^(١) كما تشترك الخرافات المذكورة في أسفار العهد القديم وشروحه مع خرافات الشعوب الأخرى في أنها وليدة الخيال وليس لها أساس من الواقع والغرض منها فقط الموعظة أو العبرة أو الترغيب أو التخويف. لكن مع ذلك فإن الأساطير العبرية القديمة تختلف اختلافاً بيناً في كثير من ملامحها عن أساطير وخرافات الشعوب الأخرى.

فقد كانت الشعوب القديمة تنظر إلى القوى المجسدة ومظاهر الطبيعة على أنها عدد كبير من الكائنات المستقلة وكانت الطبيعة مزيجاً من الإلهادات يحكم الكون آلهة متعددة^(٢) أما الأساطير العبرية القديمة فهي تختلف عن ذلك في أن الفكر الديني اليهودي يعتمد على فكرة الإله الواحد والإرادة الواحدة التي تحكم الكون كله. ومما يميز الأساطير

(١) الألب العبري القديم والوسيط ص ١٧

(٢) راجع تفصيلاً

=Hamilton Edith (Mythology) Armentor Book U.S.A. 1955

في أكثر من مكان

العبرية القديمة عن أساطير الشعوب الأخرى أيضا إن الكائنات العليا التي تظهر في صورة مادية والتي تلعب دورا في النشاطات الإنسانية لا تدفعها أي أسباب أخلاقية لتكون كذلك^(١) على العكس من ذلك فإن الأساطير والخرافات العبرية القديمة تقوم على أسس تأديبية و تعليمية لأنها وردت في كتب دينية. ومن الملاحظ في أساطير الشعوب الأخرى أن الأسطورة تمتزج بالدين امتزاجا قويا كما هو الحال مثلا بالنسبة لأساطير اليونان حيث كانت الآلهة وأنصاف الآلهة وحتى الأبطال اليونانيين دين لكل ولحد منهم على حده ، كما كانوا يتمتعون بالعبادة والشرف الذين لا يلقان إلا بالآلهة^(٢) أما بالنسبة للأساطير العبرية القديمة فليست لها علاقة بالعقيدة أو عبادة الرب إلا فيما يتعلق بإثبات وحدانية الرب أو فيما يتعلق بتسبيحه وتمجيده^(٣) أو عند تهديد أعداء بني إسرائيل^(٤) أو عند شرح شريعة أو طقس وما إلى ذلك . كذلك مما يميز الأساطير العبرية القديمة عن غيرها من الأساطير عند سائر الشعوب الأخرى القرون التشكيلية فقد كانت الأساطير عند تلك الشعوب

(١) يقول فريزر : في هذا الصدد تخيل الإنسان أنه بواسطة السحر يمكن للتحكم في مظاهر الطبيعة كالطقس والشمس والرياح .
 - فريزر : جيمس هنري: للفصل الذهبي النهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ ج١ ص ٢٤٣ وما بعدها، وكذلك لمعلومات في هذا الصدد راجع :
 - الحضارات السامية القديمة ص ٧٨:٧٩ والخادم : سعد: (الفن الشعبي والمعتقدات السحرية) المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدون تاريخ

(٢) Mythology pp 24 : 25

(٣) راجع أكثر من مكان في سفر التزمير
 (٤) راجع أسفار الأنبياء مثل سفر أشعيا وأرميا

مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالفنون التشكيلية وممزوجة بها فكل نتاج خيالي مهما بلغت غرابته كان يتم تجسيده للشعب وطبعه في الأذهان عن طريق تمثيل هذا النتاج باللون والخطوط في صورة رسم يتم على القماش أو نحت في رخام أو حجارة وما إلى ذلك وإنما تتجه الأنظار في المعابد أو الأماكن العامة وحتى المنازل يجد الناظر في هذه الأشكال تمثيلاً لخرافة أو حكاية شعبية معينة وبذلك ترسخ تلك الماثورات في الأذهان^(١) ولكن إذا ما عدنا إلى العهد القديم لاحظنا أن الشريعة الموسوية قضت بتحريم تشكيل أو تمثيل أو تصوير أو نحت لأي مظهر من مظاهر الطبيعة^(٢)

وهناك سمة أخرى تميز الأساطير والخرافات العبرية القديمة عن غيرها من الأساطير الأخرى ففي الأساطير اليونانية والمصرية والكتانية والقصائد السومرية والملحمة البابلية تلعب الآلهة دوراً هاماً بجانب الإله في المجتمع الإلهي^(٣) لكن على العكس من ذلك تم استبعاد الجنس الأنثوي من الأساطير والخرافات العبرية القديمة من المناطق السماوية حتى أننا لا نسمع عن ملائكة أنثى مثلاً . ولكن مع ذلك في فترات لاحقة ظهرت إشارات إلى عرافات وكاهنات مثل (خلدة) العرافة^(٤) ونبيات

(١) زكي، دكتور أحمد كمال الأساطير : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) سفر الخروج ٤/٢٠ وكذلك انظر سفر الملوك الثاني ٣/١٨

(٣) مجلة الدراسات الشرقية دورية نصف سنوية العدد الثاني يوليو ١٩٨٤ مقالة للدكتورة مريم البغدادي بعنوان (الأمومة في الأسطورة والملحمة)

(٤) سفر الملوك الثاني ١٤/٢٢ واخبار ثان ٢٢/٣٤

مثل (دبورة) النبية^(١) وان لم تتحكم تلك الشخصيات في المجتمع كتحكم الإله .

أما بالنسبة للقصص الموجودة في التراث الأسطوري العبري فهي تتخذ طابعا آخر غير القصص الموجودة في آداب الشعوب الأخرى حيث يتخذ معظمها طابعا تعصيبا وسياسيا وتقوم على أهداف قومية تصل أحيانا إلى حد لا يمكن تصديقه^(٢) وهناك ظاهرة واضحة تميز التراث الأسطوري العبري القديم هي ظاهرة تعليل وتفسير العلل والغايات والأهداف أو شرح أصل الأسماء والأشياء و الأمكنة أو تفسير وشرح عادة من العادات أو تقليد أو أصل أو شعيرة أو طقس^(٣) .

كذلك أن ما يميز ذلك التراث الأسطوري استخدام الصور المجازية المختلفة لتقريب المفاهيم إلى الأذهان فقد استخدمت مظاهر الطبيعة بألوانها المختلفة كما استخدمت طباع الطيور والحيوانات وسائر الكائنات

(١) سفر القضاة ٥/٤

(٢) راجع سفر القضاة فهو خير مثال على ذلك

(٣) خذ مثلا الأسطورة التي ارتبطت بتغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل وتحريم بعض اللحوم على بني إسرائيل (تكوين ٢٩ : ٥/٢٢) وأسطورة الطوفان التي جاءت بسبب فساد الأرض (تكوين ٦ : ٧/٨) وأسطورة برج بابل وأصل اختلاف الألسنة (تكوين ١١) أصل تسمية معظم الأشخاص الذين ذكرت أسمائهم في العهد القديم و لامجال لحصر ذلك هنا .

المختلفة من أجل ذلك^(١) .

أما بالنسبة لأساطير وخرافات أدب ما بعد التوراة فهي تتناول أكثر ما تتناول أجزاءً من العهد القديم، فبينما اتجه كتاب الأساطير والخرافات في الشعوب الأخرى صوب الطبيعة فنسجوا حولها أساطيرهم عمد الربانيون إلى العهد القديم لتفسير ما غمض منه عن طريق رواية الأساطير والخرافات حتى يروق للعامة. وقد اخترقت عناصر وثنية جدار الأساطير والخرافات الموجودة في شروح وتفسير العهد القديم فحول الأساطير التي لعبت من العهد القديم قامت خرافات لا تدور حول الرب بل تتحدث عن السحر والتنجيم والملائكة والأرواح والعفاريت والصراع بين الخير والشر ... الخ^(٢). وأكثر من ذلك استخدمت هذه المخلوقات في دور الوسيط بين الرب والعباد . كما ظهرت تشبيهات الصفت بالرب وذلك نتيجة لاتصال بني إسرائيل بالشعوب الأخرى وتأثيرهم بخرافات الأمم الوثنية^(٣) . فالمعروف أن إسرائيل شعب كثير الحل والترحال وهكذا كان حال تراثه الأسطوري بالطبع .

مهما كانت المادة الأسطورية سواء الموجودة في العهد القديم أو التلمود محاطة بألوان من الخيال والمبالغة فقد جاءت في إطار دليي يناسب مكانتها في كتب مقدسة.

(١) راجع أسفار الأنبياء والمكتوبات فهي أسفار شعرية تهتم بالصور البلاغية المختلفة .

(٢) راجع البحث ص ٢٠ .

(٣) راجع البحث ص ٢٠ .

الخاتمة

تنتهى هذه الدراسة فنقول أن العهد القديم والشروح والتفاسير التي قامت عليه تحتوى على مجموعة من الأساطير والخرافات والقصص الشعبية وحكايات الحيوان وأخبار الخوارق والأبطال .

وقد أدت الدراسة السابقة إلى أن هذه المادة الأسطورية الضخمة بعضها من نتاج العقلية العبرية وبعضها دخيل من أمم مختلفة سامية وغير سامية.

وقد ذكر علماء الميثولوجيا أن العهد القديم وشروحه يعد تسجيلاً لمجوى الأحداث المبكرة لتاريخ الأمم والشعوب الذين عاش بنو إسرائيل بينهم أو بجوارهم أو تعاملوا معهم^(١).

ومن هنا يحق لنا أن نقول أن أسفار العهد القديم وشروحه علاوة على الصفة الدينية فهي تعد وثيقة مدونة مبكرة لها أهميتها في التعريف بعادات وتقاليد ومعتقدات و تاريخ بنى إسرائيل وقلمطين بخاصة ، وتاريخ الشرق الأدنى القديم بعامة تضاف إلى بقية الوثائق من حفريات وتاريخية ونصية وشفاهية^(٢).

(١) خذ مثلاً قصص إبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وقصص قضاة وملوك بنى إسرائيل فكلها تعرفنا معرفة تامة بالأمم والشعوب التي اتصل بنو إسرائيل بهم منذ نشأتهم الأولى .
(٢) راجع تفصيلاً:

نظرا لندرة أو انعدام المصادر والمراجع التي ترجع إلى عصور صحيحة من ناحية ومن جهة أخرى إن ما توصل إليه الباحثون والمكتشفون من كشوفات وأثار حفريّة سومرية أو أكديّة ونصوص أوجاريتيّة وكنعانيّة ومصريّة قديمة و فينيقيّة وما إلى ذلك، مازالت قليلة جدا بل نادرة وغامضة وغير محددة لصعوبة التوصل إلى ترجمة دقيقة للغات تلك الكشوفات^(١) بالإضافة إلى أن كثيرا منها لم يسلم من العطب^(٢) أيضا قد تبين لنا مما سبق شرحه أن الأسر البابلي كان له عظيم الأثر في تغيير مفاهيم وأفكار اليهود حيث اكتسب اليهود أثناء وجودهم في الأسر كثيرا من العادات والتقاليد والمعتقدات البابلية بالإضافة إلى كثير من الأدب والفنون وشتى فروع العلوم وقد ظهر ذلك بوضوح في أجزاء من العهد القديم وشروحه.

كما اتضح أن المادة الأسطورية التي وردت في العهد القديم وشروحه وتراجمه لها مثيل في التراث الإنساني فظنرا لأن العهد القديم لم يدون في حينه كما لم يدون في بيئة واحدة كذلك الحال بالنسبة لشروحه التي دونت على مدى قرون طويلة وفي بيئات مختلفة فقد تسربت كثير من المعتقدات والأفكار الأسطورية والخرافات والقصص والحكايات الخاصة بالأمم والشعوب الذين كان بنو إسرائيل على اتصال بهم طوال تاريخهم واستقرت في العهد القديم وشروحه بعد أن حورت وبدلت وصبغت بالصبغة الدينية اليهودية لكي تتناسب الفكر الديني الإسرائيلي.

(١) للحضارات السامية القديمة ص ١١٦-١١٧-١١٨-١٢٠

(٢) Middle Eastern Mythology p 103

وكما تأثر التراث الأسطوري العبرى بالثقافات و الأفكار والمأثورات الشعبية والمعتقدات التي كانت سائدة أثناء تدوينه أثر بدوره في كثير من آداب الشعوب المختلفة سامية وغير سامية في مختلف الأزمان وذلك لما يحتويه من مادة أسطورية ممتعة وجذابة ...

وتظن الباحثة أن التماثل بين التراث الأسطوري العبرى والتراث الأسطوري لدى الشعوب الأخرى يدل على أن شعوب الشرق الأدنى القديم والبيئات المحيطة بها بخاصة منطقة حوض البحر الأبيض قد تلتز بعضها ببعض وأن ذلك التراث كان منتشرا وسائدا جدا زمن تدوين العهد القديم وشروحه وتراجمة وكان من يكتبون العهد القديم وشروحه على دراية تامة بالمخلفات الثقافية لدى شعوب الشرق الأدنى القديم ،

ويمكن توضيح مجال التأثير والتأثر الفكرى عن طريق الدراسات الأدبية المقارنة التي تنبذ في تأصيل الروى الفكرية وتحديد منبتها الأول وأماكن انتشارها. لكن البحث في مثل هذه الدواعى وتحقيق نتائج علمية سليمة يحتاج إلى مصادر يرجع إليها كما تقتضى طبيعة الدراسة الأدبية المقارنة والآثار الباقية عن القرون الخالية في أساطير الساميين جميعا قليلة جدا ولا تحتفظ خرافات وأساطير أمة من الأمم إلا بعد أن تدون في آدابها وتاريخها ، و أدب الساميين الوثنيين ضئيل جدا وكل ما وصل إلينا من خرافات وأساطير الساميين إنما هو أخبار متقطعة ومبعثرة مثل الأساطير البابلية التي اكتشفت في الألواح السبعة وقليل جدا من نقوش الساميين الشماليين أضف إلى ذلك أن هناك قصورا في نقل وترجمة الآداب السامية القديمة إلى اللغة العربية الفصحى . ولا يمكن للأدب

المقارن أن ينجح فى هذا المجال إلا بعد تقديم النصوص الأساسية للآداب السامية أو غير السامية موضوع المقارنة فى لغة عربية فصحة. مجمل القول لا يمكن دراسة الأساطير والقصص والحكايات التى وردت فى العهد القديم وفى التلمود والمدراش والأبوكريفا والترجوم الآرامى بمعزل عن أساطير الشعوب الأخرى والعكس بالعكس. فالتراث الأسطورى العبرى يعد ذا أهمية كبرى فى الكشف عن عادات ومعتقدات وتقاليده بنى إسرائيل ومن كانوا على اتصال بهم طوال حياتهم. إلى جانب ذلك فإنه يعرفنا بآداب الشعوب الأخرى التى طواها النسيان على مرور الأزمان واحتفظت بها المرويات العبرية السالفة الذكر.

أضف إلى ذلك كله إن التراث الأسطورى العبرى قد أمد الآداب المختلفة فى العصور المختلفة بثروة هائلة من الأساطير والقصص والتاريخ منها ما هو حقيقى ومنها ما هو غير حقيقى يشوبه الخيال والمبالغات لذلك وجب على الباحثين المتخصصين تنقية التراث العبرى والإسلامى من هذا التراث أو التنويه عنه حتى يكون القارئ أو الدارس على علم بما يصح ولا يصح. كما يجب أيضا توضيح أثر الحضارة السامية والفكر السامى فى تكوين الحضارات الإنسانية حيث لوحظ أن علماء الغرب ينسبون ذلك إلى الحضارة الهيلينية والرومانية والهندية.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع العربية والمعرّبة:

١. كتب العهد القديم
٢. أمين، دكتور أحمد
٣. ابن النديم، محمد بن اسحق
٤. ابن هشام، محمد
٥. برستيد، جيمس هنري
٦. بلنش، توماس
٧. الطبري أبو اسحق أحمد النيسابوري
٨. جلال، دكتور ألفت محمد
٩. حتى ، فليب
١٠. الحوت، محمود سليم
١١. الخادم ، سعد
١٢. الخازن ، علاء الدين على
١٣. الخولي ، دكتور أمين
١٤. دروزة ، محمد عزة
١٥. ديورانت ، ول
١٦. زكي ، دكتور أحمد كمال
- جمعية التوراة الامريكالية بدون تاريخ
- فجر الإسلام. الطبعة العاشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٥
- الفهرست لينزك ١٨٧١
- مسيرة سيدنا محمد طبعة جوتجن ١٨٥٨ - ١٨٦٠
- فجر الضمير ترجمة حسن سليم دار مصر للطباعة بدون تاريخ
- عصر الأساطير المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية القاهرة ١٩٦٦
- تخصص الأنبياء المعنى بالعرائس طبعة دار الكتب بدون تاريخ
- الأدب العبري القديم والوسيط مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٨
- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ترجمة جورج حداد رعد الكريم والمق دار الثقافة بيروت ١٩٥٨
- في طريق الميثولوجيا عند العرب الطبعة الأولى بيروت ١٩٥٥
- الفن الشعبي والمعتقدات السحرية المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدون تاريخ
- تلابب التأويل في معاني التكريل الطبعة الأولى مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٥٥
- مادة التفسير في دائرة المعارف الإسلامية طبعة دار الشعب بدون تاريخ
- تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم الطبعة الثانية المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٩
- قصة الحضارة. الجزء الثاني من المجلد الأول الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية بدون تاريخ
- الأساطير الهيئة العامة المصرية للكتاب مصر ١٩٨٥

١٧. زيدان ، جورجى
١٨. سوسة، دكتور أحمد
نسيم
١٩. ضيف ، دكتور شوقي
٢٠. ظاظا دكتور، حسن
توفيق
٢١. عبد المجيد، دكتور
محمد بحر
٢٢. على، دكتور فؤاد
حصنين
٢٣. فريزر، جيمس جورج
٢٤. كامل، دكتور مراد
٢٥. كراب ، الكزاتندر
هجرتى
٢٦. كريم ، صمويل نوح
٢٧. مرسى ، دكتور أحمد
على والحاروق محمد
جودى
٢٨. موسكاتى ، سبتينو
٢٩. ولفنسون ، دكتور
إسرائيل أبو نؤيب
٣٠. ويلز، هـ ج
- تاريخ أداب اللغة العربية. مطبعة الهلال مصر
١٩٤١م
- العرب واليهود في التاريخ، الطبعة الأولى دمشق
١٩٧٣م
- تاريخ الأدب العرب العصر الجاهلى، الطبعة
الحادية عشرة دار المعارف ١٩٨٦م
- الفكر الدينى الإسرائيلى وأطواره ومذاهبه .
جامعة الدول العربية معهد البحوث والدراسات
العربية ١٩٧١م
- : اليهودية - الطبعة الأولى مصر ١٩٧٠
- من الأدب العبرى-جامعة الدول العربية معهد
الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٢-١٩٦٣
- :الفولكلور في العهد القديم ترجمة نبيلة إبراهيم
مراجعة حسن ظاظا الهيئة المصرية العامة
للكتاب القاهرة ١٩٧٢
- :الكتب التاريخية في العهد القديم-معهد البحوث
والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٨
- علم الفولكلور ترجمة رشدى صالح دار الكتاب
العربى القاهرة ١٩٦٨
- :أساطير العالم القديم ترجمة أحمد عبد الحميد
يوسف الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤
- :الفولكلور والإسرائيليات-جامعة القاهرة ١٩٧٧
- :الحضارات السامية القديمة ترجمة د/السيد
يعقوب بكر دار الكتاب العربى للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٨
- تاريخ اليهود في بلاد العرب فى الجاهلية
وصدر الإسلام لجنة الترجمة و النشر مطبعة
الاعتماد بمصر ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م
- معالم تاريخية الإنسانية ترجمة عبد العزيز توفيق
جاريد القاهرة ١٩٥٦

الدوريات

- ٣١-صحيفة أخبار اليوم القاهرة عدد ١٨ من أكتوبر ١٩٧٠
٣٢-مجلة الدراسات الشرقية القاهرة العدد الأول ديسمبر ١٩٨٣ - العدد الثاني يوليو ١٩٨٤

الرسائل العلمية

المراعى : الدكتور محمد احمد حسن
الصور الأدبية بين الأسفار المكتوبات والأدب الجاهلى رسالة دكتوراه
مخطوطة جامعة عين شمس كلية الآداب

ثانيا: المصادر والمراجع العبرية

- 1.ביאליק:ח.נ. זרובניצקיהו : ספר האגדה ,
מבחר האגדות של תלמוד ובטדרשי"ט .

Copyright Co ITD Tel Aviv 1933 - 1934

- 2- לבנר, י.ב: כל האגדות ישראל . Tel.Aviv, 1945

- 3- דובשני, מנשה: מבוא כללי למספרא. יבנה"ב צ"נ

- 4- שטיינברג; יהשע: מלון התנ"ך . Copyright Tel Aviv 1970

ثالثا المراجع الأجنبية

- | | |
|---------------------|--|
| 1-Bratton,F.G | :Myths and legends of Ancient Near east crowell N.Y 1970 |
| 2-Breasted: James,H | :The conquest of the civilization New edition N.Y 1938 |
| 3-Ginzberg,Louis | :Legends of the Bible -the Jewish publication society of America U.S.A |

1972

- 4-Graves, Robert, and Rophael Patni :Herbrew myths U.S.A 1967
- 5-Hamilton, Edith : (Mythology) Amentor book, the new American library of world literature N.Y. 1955
- 6-Hooke S.H : :Middle eastern mythology penguin books, baltimore great Britian 1963
- 7-Pritchard, James,B : :Ancient near eastern texts relating to the old testament Newjersey Princeton Univ. press 1950
- 8-Polano, H : :The Talmud selection from the contents of the Ancient Book its commentaries teachings poetry, and legends transform the original by polano, London tamuz 36 76
- 9-Rappoprt,Angels,s : :Myths and legends of Ancient Israel London 1928
- 10-sarson, Mary : :The History of the people of Israel copyright London 1912
- 11-Smith, William , R : :Lectures on the religion of the semites London 1927
- 12-Smith, Homer, W : :Man and his god copyright 2nd ed Univ. Library N.Y. 1956
- 13-Warren W, Jackson : :Legends, Myths, and History of the O.T copyright U.S.A 1970

مصادر المعارف

- 14-Encyclopaedia Biblica : :Edited by Black and cheyne London 1899-1903
- 15-Encyclopaedia Britannica : :15th ed U.S.A 1975
- 16-The Jewish Encyclopaedia : :New York, London 1903 -1905

هناك مراجع أقل أهمية ذكرت في الهوامش

استلھام النص التراثي في رواية رحلة ابن فطومة

حسن محمد النعمي

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
جامعة الملك عبد العزيز، جدة، المملكة العربية السعودية

المستخلص: على الرغم من أن للرواية العربية بدأت مقلدة للنموذج القصصي الغربي، فقد تزايدت وتنوعت تجارب تأصيل السرد العربي على يد العديد من كتاب الرواية العربية في محاولة للاستفادة من الإمكانيات السردية في النص العربي التراثي. ومحاولات نجيب محفوظ في تأصيل فن السرد للحديث من خلال العودة إلى صيغ السرد العربي القديم كما في ألف ليلة وليلة، والمقامات، والسير الشعبية، والأخبار، تأتي واعية بضرورة الاستناد إلى الموروث السرد، لغة وأسلوباً. لقد أصبحت ظاهرة تأصيل السرد الحديث ممارسة واسعة النطاق. لذلك، فقد بات لزاماً من الناحية النقدية دراستها من أجل بلورتها ومعرفة موقعها ضمن إطار السرد العربي الحديث.

سيناقش هذا البحث رواية نجيب محفوظ، *رحلة ابن فطومة*، كنموذج لاستلھام النص التراثي. تتدخل رواية *رحلة ابن فطومة* نصياً مع *رحلة ابن بطوطة* (بَحْفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) باعتبارها نصاً تراثياً تظهر فيه ملامح سردية مهمة. يسعى هذا البحث إلى كشف العلائق النصية بين هذين النصين، *رحلة ابن بطوطة*، باعتباره النص النموذج أو الأساس الذي اعتمد عليه محفوظ في كتابة روايته، *رحلة ابن فطومة*، التي تمثل النص اللاحق في هذا السياق.

تعد قضية تتأصل الرواية العربية مع النص التراثي السرد من القضايا الملحة في النقد الأدبي الحديث. وظاهرة التناص بين هذين النوعين،

الرواية والنص التراثي، باتت تشكل اتجاهها واضحا في السنوات الأخيرة بعد أن استتغنت الأشكال التعبيرية الروائية الأخرى كل حضورها الدلالي والجمالي. فالروائي يكتب بوعي للتناص من أجل فتح آفاق الحوار مع السرديات التراثية. أما الناقد فإنه يستقرئ الظاهرة من أجل بلورة هذه التجارب ضمن معطيات ثقافية وفلسفية تبرر هذه التوجهات في الخطاب الروائي العربي الحديث.

نظم أن استلهم الموروث السردى للعربي كان هاجسا ملحا منذ بدء الكتابة الروائية في منتصف القرن الماضي. فقد كان جنس المقامة أكثر الأشكال حضورا في محاولات كتاب تلك المرحلة، كونه الفن القصصي الصريح الذي وجد في الأدب العربي الوسيط إن اعتبار المقامة جنسا قصصيا يأتي من منطلق التميز الذي حظيت به، فقد توفر للمقامة نمط يتكرر سواء في كتابات بنيع الزمان الهمداني أو الحريري أو في كتابات أدباء القرن الماضي وبداية هذا القرن. ويتمثل هذا النمط في راو يقوم بفعل القص، وبطل يقوم بفعل الحكاية وفق تيمة معينة تقوم على الكدبة والاحتيال. لقد كان هذا الجنس الأدبي، المقامة، هاجسا لبعض أدباء العصر الحديث، إما بالمحاكاة المباشرة مثل ما فعل ناصيف اليازجي في مجمع البحرين، أو بالتقاطع مع تجربة المقامة كما فعل محمد المويلي الذي تُعد تجربته من أهم التجارب في تلك الفترة. ففي عمله حديث عيسى بن هشام مزج المويلي مزجا إبداعيا بين تقنية المقامة وتقنية الرواية الغربية إلى حد ما. وهذه التجربة المبكرة، بعينها الفضوليتين، عين على التراث ولخري على الحديث المستعار، كانت واعية بضرورة الاستناد إلى فضاء من الموروث السردى.

على الرغم من أن النص التراثي له خصوصيته البنائية والموضوعية، فإنه يكتسب، أيضا، جلاله وهيبته من تاريخيته. فالنص التراثي يمتلك نسقا خاصا له أبنيته ومتونه وتاريخيته. فهو تراثي لأنه ينهض وفق أبنية سردية خالصة، تتبلور في أشكال مطومة في المقامات، والسير الشعبية، والأخبار. وهو تراثي لأنه يملك خصوصية اجتماعية تحيل إلى واقعه سواء الملأ منها أو المختل. وهو، أيضا، تراثي لأنه يرتفع

إلى فضاء تاريخي تشكل وفقاً لمعطيات زمانية معاصرة لولادته. ولذلك فإن الحديث عن النص التراثي السردى يستدعي بالضرورة ربطه بالتاريخ بكل معطياته الزمانية والمكانية وما توحى به من ظلال إيديولوجية. وعندما نتحدث عن التاريخ، هنا، لا نقصد تاريخ الوقائع المادية، بل نقصد التاريخ باعتباره مدونات تحمل وجهة نظر كاتبها فيما كان يحدث من وقائع.

يمكن اعتبار روايات جورجى زيدان التاريخية محاولة لاستخدام التاريخ كموضوع روائى. لقد كان الهدف، كما يمكن أن نقرأه الآن، هو تسجيل مظاهر التاريخ ضمن نسق سردي. ووفقاً لتجربة زيدان، فإن التاريخ تعاد صياغته من داخله دون ربطه بنسق اجتماعي معاصر. وهذه التجربة جاءت على خلاف تجربة نجيب محفوظ الروائية التاريخية في مطلع حياته الأدبية، حيث وظف محفوظ التاريخ كمادة وكبنية لرؤية معاصرة عبر اختيار نسق تاريخي يتطافر مع معطيات الواقع الذي كان يخاطبه. إن تجربة محفوظ هذه تسجل قفزة نوعية في الاستفادة من مادة التاريخ. وهي بكل تأكيد أكثر وعياً بضرورة تحويل التاريخ إلى أبنية سردية من شأنها إعادة صياغة الخطاب التاريخي ليكون خطاباً ثقافياً يخرج من مجرد رصد لوقائع ومصائر مجتمعات أصبحت رهن الماضي إلى خطاب فاعل متجدد. لكن تجربة محفوظ هذه توقفت فترة طويلة حتى عاودها بوعي جديد وضمن ضرورات فنية كشفت عنها رحلته في كتابة الرواية.

ومما لا شك فيه، فإن هناك تجارب أخرى لمجموعة من الكتاب المرموقين على خارطة الرواية العربية، نذكر منهم جمال الغيطاني، وخاصة في "الزيتوني بركات" و"التجليات"، حيث يشتبك خطاب الواقع مع خطاب التاريخ في محاولة للإفادة من سلطة التاريخ الثقافية والفكرية. إن حضور التاريخ في روايات الغيطاني يتبلور تارة عبر نماذج لها حضور تاريخي مؤثر، بيد أنها تكتسب بعداً فلسفياً يجعل حضورها مؤلجاً، يحمل إسقاطات معاصرة. واستخدام الوثيقة من الطرائق التي يلجأ إليها الغيطاني لتجسيد رؤية التاريخ في محاولة لنفي المتخيل وتثبيت الموثق. وهذا يعطي للكاتب مساحة أرحب للتعبير عن واقع قد لا يحتمل حدة الكشف والتشريح الذي قد يتعرض لها موضوع الرواية. كما أن تجربة واسيني الأعرج في

روايته "نولر اللوز او تغريية صالح بن عامر الزوقوي" تتعالق مع تغريية بني هلال، مع التركيز على فضاء السيرة كوجه من وجوه السرد المعروفة في النص التراثي. إن الأعرج في نصه هذا يؤسس نصه على تغريية بني هلال بهدف الإضافة، فهو نص يعتمد المغامرة وتجاوز نص السيرة من أجل تشكيل أفق جديد للكتابة الروائية العربية.

هذه التجارب وغيرها من أمثال رواية "الرحيل إلى الزمن الدامي" لمصطفى المدائني، و "النفير والقيامة" لفرج لحوار، و "عرس بغل" للطاهر وطار، و "بدر زماته" لمبارك ربيع، تتدرج تحت باب التناص بغرض تشكيل نص حدثي يستفيد من تجربة السرد العربي كما هو حادث في المقامات والسير الشعبية، وتقنية السند في رواية الحديث. وهذه التجارب تمت من أجل خلق خصوصية إبداعية تتجاوز النموذج الغربي المستعار، وتستفيد من أبنية النص التراثي، مع تأكيد أهمية المجاوزة لا على مستوى المضمون فقط، بل من خلال اجترار شكل يمثل الطموح لخلق نص حدثي عربي له حضوره الجمالي والدلالي. إن هذه التجارب وغيرها لتؤكد أن تناص الرواية العربية مع النص التراثي بات يشكل اتجاهاً واضحاً في مسار الرواية العربية.

مناقش في هذا البحث ظاهرة استلهاام النص التراثي من خلال تأسيس تقابلية نصية بين رحلة ابن بطوطة تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار باعتباره النص النموذج، ورواية نجيب محفوظ رحلة ابن فطومة (١٩٨٣). يسعى هذا البحث إلى كشف العلائق النصية بين هذين النصين، رحلة ابن بطوطة، باعتباره النص النموذج أو الأساس الذي اعتمد عليه محفوظ في كتابة روايته، رحلة ابن فطومة، التي تمثل النص اللاحق في هذا السياق.

ينظر للتناص غالباً من منظورين: الممارسة والمصطلح. أما فيما يتعلق بالممارسة، أي تداخل نص لاحق مع نص سابق، فهي تجربة قديمة بقدم الكتابة ذاتها. فكل نص يولد هو حاصل نص سابق، وهو في ذات

الوقت يحمل بذور نص لاحق. أما فيما يتعلق بالتناص كمصطلح، فقد قدمته جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) عند مناقشتها لنظرية ميخائيل باختن (Mikhail Bakhtin)، أصوات الرواية المتعددة. والتناص، كما تراه كريستيفا، يشير إلى الطرائق المتعددة التي يتداخل بها نص ما مع نص أو نصوص سابقة أو معاصرة سواء عن طريق إشارات أو اقتباسات صريحة أو ضمنية، أو مجرد تمثل واستيعاب لشكل ومضمون نص سابق^١. لكن لا يجب أن يقصر تصور هذا المفهوم عند حدود الاقتباسات الجزئية، بل هو كما تراه كريستيفا، "علاقة بين الخطاب في النص وبين خطابات محيطية وملازمة، أكثر منه علاقة بين جمل معينة تُقتبس أو تُحلل أو تُعارض في جمل أخرى مساوية أو مقاربة، في نص آخر".

ويوسع جيرار جينيت (Gérard Genette) دائرة التفاعل بين النصوص ليصبح التناص حسب رايه نوعاً من خمسة أنواع. فهو يرى أن هذه الأنواع تندرج كلها تحت مفهوم عبر النصية أو النصية^٢ (Transtextuality). وجينيت لا يلغي مفهوم مصطلح كريستيفا، بل إنه يوسع نطاقه ليشمل كل أشكال التفاعلات النصية. فإذا كانت كريستيفا قد أوردت تحت مصطلح التناص كل التفاعلات النصية الممكنة، فإن جينيت فصل القول بدقة بين أشكال هذه التفاعلات. ويحدد مصطلح (Hypertextuality)، لاحقية النص أو التحويل النصي، وهو أحد التقسيمات النصية التي قدمها جينيت، مفهوم العلاقة بين نص سابق (Hypotext)، ونص لاحق (Hypertext)، بحيث يُبنى النص اللاحق انطلاقاً من النص السابق^٣. وهذا المفهوم للتفاعل النصي "يعني أن العلاقة بين النصين إنما هي علاقة اشتقاق وتحويل ومحاكاة"، غرضها تأسيس شكل جمالي مستنداً على نوع سابق، بهدف الاستفادة من تاريخيته، أو شهرته الأدبية والجماهيرية، أو بغرض إسقاط بعد فلسفي معاصر انطلاقاً من منظور تاريخي. ويجب أن نؤكد أن التقارب في المفهومين، التناص كما عند كريستيفا ولاحقية النص كما عند جينيت، يتيح استخدام المصطلح الأكثر شيوعاً، وهو التناص دون أن نستغني عن ظلال مفهوم لاحقية النص أو التحويل النصي. ونحن نشير إلى هذا النوع بالذات لأنه المفهوم الذي ينطبق على تجربة التحويل النصي كما هو ملحوظ في تجربة نجيب محفوظ التي نحن بصدد الحديث عنها.

إن دراسة أي عمل أدبي يقتضي فهم الإجراءات النقدية التي تعين الباحث على استقراء الظاهرة وتحليلها. وإذا كانت كرسنفا ومن بعدها جينيت قد سعيًا إلى تعميق المفهوم الفلسفي للتفاعلات النصية، فإن الباحث بحاجة إلى أدوات تعينه على تحليل بنية النص وكشف منطلقاته التي ترمي إلى تسجيل حضور له يميزه عن النص السابق. وفي هذا السياق نجد أن المنهج الذي حدده أوين ميلر (Owen Miller) يحيل إلى طريقتين أساسيتين لتحديد النقص كتمارين نقدية. الأولى تتعلق بتحديد ما إذا كان تداخل نص لاحق مع نص سابق تم مصادفة أم عمدًا. لذا يجب على الباحث تحديد السمات والظروف والأطر التاريخية التي يتبلور فيها النص اللاحق. وهذا الإجراء يساعد على تحديد منظور العمل اللاحق وكيفية تفاعله مع النص السابق. فالمصادفة في التفاعل النصي تؤكد عدم قصدية الفعل النصي، وبالتالي ربما يقلل من إمكانية العمق في البعد الفلسفي. أما الطريقة الثانية، التي يقترحها ميلر، فهي ناتجة عن الأولى، فبعد أن يتم تحديد علاقة النص اللاحق بما قبله من نص أو نصوص، يشرع الدارس في تأسيس الفروق التي تميز النص اللاحق عما سبقه، حتى تتضح هويته كنص أدبي له حضوره الفلسفي الخاص به^٨. فكشف هذه الفروق، سواء في البنية أو في المحتوى، مهم في تأكيد استقلالية النص اللاحق وفرض سيادته كنص متجاوز أو مساوٍ في أهميته للنص السابق. وبما أننا نتحدث في هذا البحث عن رواية رحلة ابن بطوطة، كنص لاحق، فإننا في البدء سنحدد العلائق المرجعية التي استند إليها نجيب محفوظ في النص السابق، رحلة ابن بطوطة. وبعد هذا التحديد سنعمد إلى بلورة وبناء النص اللاحق وفقًا للمعطيات المكتسبة من كشف العلائق المرجعية مع النص السابق. وهذا بالتالي سيساعد على تبيان مدى وحدة وتناغم وتمازج رواية نجيب محفوظ، رحلة ابن بطوطة عن رحلة ابن بطوطة.

رحلة ابن بطوطة: النص والتاريخ

تعتبر الرحلة من أهم مصادر المعرفة الجغرافية التي تبنى على المشاهدة والمراقبة ثم التكوين. وتنقسم الرحلة في الأدب العربي إلى قسمين:

قسم تم بدافع علمي غرضه الكشف الجغرافي. ويعتبر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) والمقدسي (٣٣٦-٣٨٠هـ) وابن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ) والإدريسي (٤٩٣-٥٦١هـ) والمسعودي (ت ٣٤٦هـ) لشهر الرحالة الذين عنوا عن غاية خاصة بالمادة الجغرافية في مدوناتهم. أما القسم الثاني فته بدافع تجاري أو ديني أو سياسي. ومثل هذا الاتجاه رحالة من مثل ابن جبير (٥٤١-٦١٤هـ) وأبو حامد الغرناطي (٤٧٤-٥٦٤هـ) وابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ).^١

وابن بطوطة، رغم عدم ريافته في هذا المجال، فهو "يعتبر سيد الرحالة العرب والمسلمين".^{١٠} فقد استغرقت رحلته حوالي ثلاثين عاماً قضاها منتقلاً بين البلدان والأمصار. ولما استقر في فاس في أحضان الدولة المرينية (٥٨٨-٨٧٥هـ) بدأ بإملاء رحلته. والرحلة مرتبة ترتيباً تصاعدياً من نقطة البدء حتى آخر مطاف الرحلة بعودته إلى وطنه. إن طابع الرحلة الذي يتكرر في كل الفصول يكمن في الوصف السريع للأمكنة، والانتطباع الشخصي عن قابل من الرجال، فليس هناك من هدف آخر إلا تحقيق ذلك مع سرد ما أمكن من مفارقات وطرائف الرحلة. إذ لم تحقق الرحلة أي كشف جغرافي غير معروف في ذلك الحين. لكن أهمية الرحلة تكمن في قيمتها الأنثروبولوجية، ففيها رصد لكثير من عادات وتقاليد الشعوب التي لا يهتم بها التاريخ السياسي عادة. وقد ظهر ولع ابن بطوطة بذكر الغريب من كرامات الأولياء والدرأوش الذين لقيهم في رحلته، فجاءت رسالته حافلة بنزعة أسطورية أعطى لخياله العنان في تخيل الكثير من المفارقات والأحداث.^{١١}

والدوافع التي دفعت ابن بطوطة للقيام برحلته تتمثل في نزعة دينية تجلت دلائلها في ثانيا رحلته. فهو لم يقم بها بهدف الكشف الجغرافي كما أسلفنا. فدافعه الأول ما كان سوى الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.^{١٢} ولكن في أثناء رحلته تولدت لديه فكرة مواصلة الرحلة بإيحاء من "الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع"^{١٣} برهان الدين الأعرج الإسكندري كان ابن بطوطة قد لقيه في الإسكندرية. يقول ابن بطوطة:

دخلت عليه [برهان الدين الأعرج الإسكندري] يوماً فقال لي: أراك تحب السياحة والجولان في البلاد. فقلت له: نعم، أني أحب ذلك. ولم يكن حينئذٍ بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين. فقال: لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكريا بالسند، وأخي برهان الدين بالصين. فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام. فعجبت من قوله، وألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم، وأبلغتهم سلامه^{١٤}.

أما الدافع الثالث، فقد نتج عن تفسير الشيخ الصوفي عبد الله المرشدي لرويا رأها ابن بطوطة قاتلاً: "سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك، وتبقى بها مدة طويلة، وستلقى بها دلشاد الهندي، ويخلصك من شدة تقع فيها"^{١٥}. هذه كانت الجنوة التي دفعت ابن بطوطة لاكتشاف الأفاق. فإلى جانب روح المغامرة وحب الترحال، فقد لعب الدافع الديني لدى ابن بطوطة دوراً هاماً في تكييف رحلته^{١٦}.

في البدء يجدر بنا أن نجيب على السؤال التالي: على أي أساس يمكن أن يكون كتاب *رحلة ابن بطوطة* هو المرجع النصي الأساس؟ إن افتراض كتاب *رحلة ابن بطوطة* كمرجع نصي له ما يدعمه في رواية نجيب محفوظ أنفة الذكر. لكن قبل ذلك يجب أن نتعرف على ظروف ظهور كتاب *رحلة ابن بطوطة*. توضح مقدمة هذا الكتاب عدة أمور على درجة كبيرة من الأهمية، تتعلق بالظروف التي أحاطت بظهوره. إن فكرة تأليف كتاب *رحلة ابن بطوطة* جاءت بعد أن أتم ابن بطوطة رحلاته مطوفاً ومقيماً في كثير من الأمصار، من مثل بلاد السند والهند والصين بالإضافة إلى الأقطار العربية. وقد بدأ ابن بطوطة بإملاء رحلته على الأديب البارعي^{١٧} محمد بن جزى الكلبي بأمر مقام السلطان أبي عنان المريني سلطان الدولة المرينية. وقد ترك ابن بطوطة لابن جزى الحرية في نقل معانيه التي قصدها "بألفاظ موفية للمقاصد"^{١٨}. وبذلك يضطلع ابن جزى بمهمة تأليف الرحلة، رغم تأكيده عدم التعرض لحقيقة ما أورده ابن بطوطة بالبحث أو الاختبار^{١٩}.

والأهم من ذلك، فإن ابن جزى يتدخل في سياق النص كثيرا، إما مفسرا أو مؤيدا لبعض المسائل. وتدخله في السياق يأتي دائما صريحا ومقوماً بعبارة، قال ابن جزى. والتدخل في السياق والصياغة اللغوية التي تعتبر مرحلة لاحقة للإملاء تؤكد أن ابن جزى لم يكن مجرد ناسخ، بل لقد كان له القرار في التقديم والتأخير، وترتيب الأولويات، والإشارة في مواضع كثيرة إلى حوادث سترد لاحقاً. وابن جزى نفسه يفرق بين التقييد والتأليف. فالتقييد هو كتابة ما أملاه ابن بطوطة كتابة أولية. وقد انتهى من هذا التقييد في سنة ست وخمسين وسبعمائة هجرية، بينما استغرق التأليف سنة أخرى، حيث انتهى ابن جزى من تأليف الرحلة في سنة سبع وخمسين وسبعمائة هجرية^{٢٠}. قال ابن جزى في خاتمة الرحلة: "انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة"^{٢١}. إذن فالعمل قد مر بثلاث مراحل، تقييد ما أملاه الشيخ، ثم تلخيصه، وبعد ذلك إخراجه في صورته النهائية التي هو عليها الآن. فالعمل فيه صنعة التأليف التي تقتضي خصوصية في اختيار الألفاظ، وفي عرض أحداث الرحلة التي تحمل التشويق. وهو - التشويق - أمر لا يمكن إلا أن ننسبه إلى ابن جزى بحكم سيطرته على العمل في مرحلة التأليف. وهكذا فإننا نرى أن دور ابن بطوطة، على الرغم من أهميته، قد اقتصر على الفعل المادي للرحلة، ثم سرد ما تذكره من أحداث. فهو كبطل روائي يخوض غمار تجربة درامية فيها الكثير من المواقف الإنسانية، ومواقف الصبر والتحدى في مكابدة الرحلة التي امتدت لسنوات طويلة متواصلة. لكن تجربة الرحلة هذه تصل إلينا عبر وسيط له فهمه المعرفي الخاص به. والغرض مما نحن بصدد ليس نفي نسب الرحلة إلى ابن بطوطة، ولكننا نسعى إلى تأكيد دور ابن جزى في وصول هذا العمل بهذه الصورة التي وصل بها إلينا.

رحلة ابن بطوطة: بحث في المرجعية النصية

نحن نفترض أن كتاب رحلة ابن بطوطة هو المرجع الرئيس لرواية رحلة ابن بطوطة دون غيره من مصنفات الرحلات العربية. وهذا الافتراض ليس اعتباطياً، بل هو افتراض نجد له ما يبرره في رواية رحلة

ابن فطومة. إن البناء الخارجي لهذه الرواية هو بناء الرحلة ذاتها. فهناك رحالة يسرد مشاهداته عبر ضمير المتكلم، محدداً الإطار المكاني الذي تجري فيه تجربة الرحلة. يستهل نجيب محفوظ روايته بعبارة في غاية الأهمية، قائلا: "نقلا عن المخطوط المدون بقلم قنديل محمد العنابي الشهير بابن فطومة". وينهي نجيب محفوظ روايته قائلا:

بهذه الكلمات ختم مخطوط رحلة قنديل محمد العنابي الشهير بابن فطومة. ولم يرد في كتاب من كتب التاريخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك. هل واصل رحلته أو هلك في الطريق؟ هل دخل دار الجبل وأي حظ صادفه فيها؟ وهل أقام بها لآخر عمره أو رجع إلى وطنه كما نوى؟ وهل يعثر ذات يوم على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة؟ علم ذلك كله عند عالم الغيب والشهادة^{٢٢}.

ونشعر هنا أن نجيب محفوظ يتقمص دور ابن جزي في رحلة ابن بطوطة. فحضوره هو حضور المؤلف لا حضور الرحالة. وإذا كان ابن جزي قد أفصح عن دوره في رحلة ابن بطوطة، فإن نجيب محفوظ يتمثل ذات الدور تماما، فيقدم عمله على أنه نقلا عن ابن فطومة. وفي عمل نجيب محفوظ، يبدأ الرحالة قنديل محمد العنابي الشهير بابن فطومة بسرد دوافع رحلته، ثم الأحداث التي عاصرها في رحلته. وقد ترحل هذا الرحالة في البلدان مصورا مشاهداته وانطباعاته عن النظم السياسية والاجتماعية في الأماكن التي زارها. والعنوان بذاته يحمل دلالة مشابهة. فنجيب محفوظ يقدم روايته كرحلة لشخص يلقب بابن فطومة. فالارتباط الصوتي بين اللقبين، ابن بطوطة وابن فطومة، كبير جدا، مما يغدو الربط بين العمليين بديهية لا تحتاج إلى كبير غناء. وإذا أردنا أن نرصد المتقابلات النصية، فإننا نرى أن العلاقة تبدأ من المشترك اللفظي بين الاسمين، ولكنها لا تتوقف عند هذا الاشتراك، رغم ما تتركه من دلالة عميقة، بل تتعداه إلى تكوين الشخصية. فابن بطوطة رحالة أحب المغامرة وأمضى ما يقرب من ثلاثين عاما متجولا في البلدان يدفعه حب الإطلاع واكتشاف الجديد. قام برحلته وهو ما يزال أعزب في الثانية والعشرين من عمره. وكان في أثناء رحلته يحرص

على لقاء الرجال ذوي المقام العالي من ملوك وولاة وقضاة ومشايخ وأنمة. وفي أثناء ترحاله تزوج وولي القضاء، وأخذ يمكث في البلدان فترات مختلفة حسب ما تمليه ظروف رحلته. وينتهي به المطاف في بلاط السلطان أبي غان المريني حيث أخذ يملئ رحلته. هذا الصورة العامة لشخصية ابن بطوطة يقابلها ذات التخطيط لشخصية ابن فطومة. فهو رحالة أمضى ربما ذات الفترة^{٢٣} في رحلته مسجلاً كل غريب يراه من شؤون الخاصة والعامة، من أمور الحرب والسياسة، من طقوس العادات وخرائب الأحداث. كما أنه رحل وهو أعزب في العشرينيات^{٢٤} من عمره. وكان مدفوعاً بالمغامرة في الوصول إلى كشف معرفي كما سيرد التفصيل فيه لاحقاً. وقد تنقل في البلدان، واحدة تلو الأخرى^{٢٥}، بغرض الوصول إلى الغاية التي يريد. وإذا كان ابن بطوطة قد عاد إلى وطنه فإن ابن فطومة لم تتسن له العودة، فبعث بمخطوطه مع القافلة العائدة إلى وطنه. وبذلك يكون كل رحالة منهما قد ترك أثر رحلته مدوناً لينتفع به من يأتي من بعد.

إن فاهمية هذه المشابهة تتعدى المظهر الشكلي للاسمين، فدور ابن فطومة هو ذات الدور الذي لعبه ابن بطوطة في رحلته. فقد قاما بفعل الرحلة، أملى ابن بطوطة رحلته، بينما أرسل ابن فطومة مخطوطه مع القافلة العائدة إلى وطنه. ولأننا إزاء عمل روائي، فإن ذلك لا يعدو كونه استراتيجيات من استراتيجيات القص التي وظفها الكاتب في نصه. فلو سلمنا جدلاً بوجود مخطوط من هذا النوع، فإنه يحتاج إلى كثير من الجهد حتى يتم تحقيقه ومراجعته والتعليق عليه، وبالتالي توجيهه وتصنيفه وفق نمط معرفي معين. فالمخطوط ما هو في النهاية إلا مادة خام تحتاج إلى جهد كبير لإخراجه إلى حيز الوجود. وهنا تظهر المتقلبات النصية على مستوى الشكل. فابن فطومة يشابه ابن بطوطة في كونهما صاحبي الرحلتين اللتين لولاهما لانتفى دور كل من ابن جزى ونجيب محفوظ. ومحفوظ كما أسلفنا يتقصد دور ابن جزى في تأليف الرحلة، وتوجيهها وفقاً لرؤيته الفكرية والمعرفية. فاستلهم نجيب محفوظ لتقنية شكل الرحلة فيه الكثير من الخصوصية. فهو لم يعمد إلى استلهم شكل الرحلة بعموميتها، بل عمد إلى استلهم رحلة معينة، مستلهماً كل تقنياتها وخصوصياتها.

لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أننا نقارن بين عمليتين مختلفتين في طبيعتهما. **فرحلة ابن بطوطة** رحلة لها واقعها التاريخي بأشخاصها، وأمكنتها وأزممنتها. فالرحلة ليست جنساً قصصياً يخضع لشرط الفن فقط، بل هي نمط فيه من القصة والتاريخ والأنثروبولوجيا. فنجد روح القصة في عامل التشويق المهيمن على أجواء الرحلة. كذلك نجد روح القصة في السردية التي خيمت على العمل، إذ لا يوجد هناك إلا صوت ابن بطوطة بضمير المتكلم مع بعض التداخل من قبل ابن جزي كما أشرنا سابقاً. أما التاريخ فهو موجود في الوثائق التي اهتم بها العمل من ذكر للأسماء ووظائفها، والحرص على ذكر التواريخ التي توثق ارتباط الرحلة بزمان معين. وأخيراً عنصر الأنثروبولوجيا الذي يسجل عادات الناس وتقاليدهم الدينية والاجتماعية. بينما **رحلة ابن فطومة** رواية تخضع لتكنيك القص بكل أبعاده. وهذا الفرق كافٍ لأن يحدد غاية كل عمل. فغاية رحلة ابن بطوطة هي تسجيل الوقائع كما هي لا رابط بينها إلا كونها نتاج تجربة شخصية للرحالة ذاته. فانتقالاته في الزمان والمكان مرهونة بظروف رحلته لا بغاية محددة لا يحيد عنها. أما رواية نجيب محفوظ فهي معمار فني له دلالة الفلسفية بدءاً من أول الرواية إلى آخرها. فالزمن الذي يقطعه ابن فطومة زمن نفسي يمتد امتداد الوجود البشري ذاته، بدءاً من المجتمعات البدائية الوثنية في العمق المسحيق من التاريخ البشري إلى عصر العلم والتكنولوجيا في القرن العشرين. فتنقلات ابن فطومة ليست تنقلات عفوية، بل هي، على العكس من ذلك، مبنية وفق غاية لا تخضع لأي عامل سوى إرادة كاتب الرواية. واختيار الكاتب لهذا الشكل أتاح له فرصة السباحة في إيديولوجيات الأمم مع مقارنتها بالواقع العربي.

رحلة ابن فطومة

١- خصوصية التجربة

ينهض مشروع نجيب محفوظ في هذه الرواية على شكل الرحلة في الأدب العربي باعتباره فضاء مفتوحاً، تتوغل فيه مقومات السرد، وتاريخية الوقائع، وجغرافية الأمكنة، وأنثروبولوجيا الشعوب. وإذا كانت رواية نجيب

محفوظ قد استوعبت كل هذه المظاهر، فإنها قد تفادت السقوط في نمطية شكل الرحلة. إننا في هذه الرواية أمام رحلة غير تقليدية، فضاؤه مفتوح الزمان والمكان، واهتماماته ليست تسجيل الغريب والمدهش من المصادفات والمشاهدات، بل الدخول في حوار مع الحضارات قديمها وحديثها. إنه يدخل هذه الرحلة وهو محمل بإيديولوجية هدفها نقد الواقع الذي ينتمي إليه، العالم العربي المعاصر بكل تعقيداته وأزماته. وقد أتاح لعبة الشكل التي استخدمها نجيب محفوظ أن ينأى ببطله عن الإقليمية، فالبطل / الرحالة في هذا السياق السردي، عربي الفكر والانتماء. وهذا يحيلنا إلى أزمة المثقف العربي في إقامة حوار مع السلطة التي تهدم أقدار الحوار، وتسعى، بدلاً من ذلك، إلى تأسيس مبدأ الأحادية. وهذا ما دفع ابن فطومة، على العكس من ابن بطوطة، إلى تجربة الحوار مع الآخر بعد أن عجز عن إقامة حوار مع الذات. ولذلك، فإن رواية رحلة ابن فطومة عبارة عن رحلة ذات هدف إيديولوجي باعثه الرغبة في معرفة الذات من خلال الآخر.

إن الكاتب يعطينا كل المقومات التي تجعلنا نحس بواقعية الرحلة، وما يجري فيها من مفارقات، ولكنها بطبيعة الحال ليست رحلة عادية. فعبر شخصية ابن فطومة يقدم الكاتب صورة مؤرقة من دأب الإنسان في البحث عن الحرية والعدل. ففي الفصل الأول الموسوم بالوطن تتجسد صورة الظلم في حاجب الوالي الذي يتزوج خطيبة ابن فطومة عنوة. ويكشف ابن فطومة معنى القهر والظلم الذي قزم رغبة الحياة عنده. وتحت وطأة الحرمان تتفاعل رغبة الرحلة في وجدان ابن فطومة، بحثاً عن العدل الإنساني كما قرأه في نصوص الدين. والغاية من رحلته هي أن يرجع إلى وطنه "المريض بالدواء الشافي"^{٢٦}، ولكن ليس قبل أن يصل إلى دار الجبل، ذلك السر المغلق، الذي يشبه "الكمال الذي ما بعده كمال"^{٢٧}.

ورغم التقابل الواضح بين شخصيتي ابن بطوطة وابن فطومة، كما أشرنا آنفاً، فإن التضاد لا يقل وضوحاً بحال من الأحوال. وهذا ما يعطي شخصية ابن فطومة تميزها عن شخصية ابن بطوطة. فعلاوة على أننا نتعامل مع شخصيتين مختلفتين في حقيقة الوجود، وجود حقيقي يمثل ابن بطوطة، ووجود خيالي يمثل ابن فطومة، فإن التضاد لا يتوقف عند هذا

الحد، وهو كاف لو أننا نريد تحديد كينونة كل شخصية، بل يتعداه إلى الحيز المكاني والزماني الذي وجدت فيه كل شخصية. إن شخصية ابن فطومة، وهي وجود خيالي، تشكلت في مكان وزمان خياليين لهما أهدافهما ومراميها الإيديولوجية التي سعى العمل إلى تأكيدها. إن شخصية ابن فطومة تسير ضمن إطار تتشكل غايته في كل خطوة يخطوها الرحالة. فرحيله من وطنه ليس رحيلاً عفواً بلا غاية، بل إن غايته محددة وواضحة منذ البدء^{٢٨}. فهو في رحلته لا يرى ويدون فقط، كما فعل ابن بطوطة، بل إنه يجادل ويدافع فكرياً، ولكنه ليس ذلك المتعصب الذي يفقد خاصية الباحث عن المعرفة. وهو دائماً يضع دينه ووطنه في الجهة المقابلة في أي جدل يدور بينه وبين من يلقي من الحكماء وغيرهم في البلدان التي يزور. كما أنه دائم النقد لكل سلبية تورث مجتمعه الظلم والقهر والجهل. وابن فطومة لا يخجل من أن يعترف بنقائص مجتمعه، بل إنه يسعى إلى معرفة كيفية الخلاص منها استناداً إلى ما اكتسبه من مشاهداته وحواراته. ويؤكد في كل حواراته عظمة الإسلام كمنهج شامل لكل شؤون الحياة، ولكنه في الوقت ذاته يؤكد أن المسلمين هم من أضاع الإسلام. فهو يرى أن "الإسلام اليوم قابع في الجوامع لا يتعداها إلى الخارج"^{٢٩}.

عبر رحلته في الأمصار تتبلور درلما الحياة التي تتوزعها رغبة الإنسان في العيش بسلام. ففي طريقه للبحث عن العدل والحرية، يجول ابن فطومة في دار المشرق، ودار الحيرة، ودار الحلب، ودار الأمان، ودار الغروب، وفي نهاية المطاف يتجه إلى دار الجبل، لكن مخطوطته تنتهي قبل أن نعلم ما إذا كان قد وصل بالفعل أم لا. وفي كل قطر من هذه الأقطار يعايش لونا من فهم الإنسان لمعنى العدل والحرية. فهناك من يرى أن الحياة هي في إطلاق حرية الغرائز، مجسدة المجتمع الوثني كما يحصل في دار المشرق. وفي دار الحيرة يعايش ابن فطومة لونا آخر من ادعاء العدل الذي ما يلبث أن يكون غطاء لحب القوة والنفوذ والسيطرة. فحكيم تلك الديار الذي يدعي أن نظام بلاده يقوم على العدل، زاعماً أن دار الحيرة هي دار الجبل، يلقي بابن فطومة في غياهب السجن عشرين عاماً، لأنه لم يمثل لأوامره عندما طلبه أن يتنازل عن جاريته الجميلة لصالحه. ويتحول بحث ابن فطومة عن العدل المطلق إلى سجن مديد يكابد فيه كل الويلات. وفي

دار الحلبة، يكتشف ابن بطوطة نمطا آخر من الحياة. ففيها يتمثل النموذج الغربي المعاصر القائم على علمنة الحياة السياسية، وتأكيد مبدأ العلم والديموقراطية. أما في دار الأمان، فيعيش ابن بطوطة نمطا آخر من فهم العدل. فهناك يرى مظاهر العدل في بعده الاشتراكي كما كان سائدا في الاتحاد السوفيتي وما كان يدور في فلكه من الدول. وكما هو واضح، فإن ابن بطوطة لم يرق برحلة في جغرافيا الأمكنة، بل إن رحلته كانت في جغرافيا الحضارات، "رحلة في الزمان لا المكان"^{٢٠}. فعالم الرحلة لا يتجاوز ست بقاع تمثل ست حضارات، كل منها يملك فهما خاصا للحرية والعدل الإنساني.

تكمُن أهمية هذه الرواية في قدرة نجيب محفوظ على الاستفادة القصوى من نص تراثي غير أدبي بالمعنى النقدي، رحلة لبن بطوطة، بل إنه نص أقرب للكشف المعرفي والعلمي. فهو نص مفتوح على الكثير من المعارف، من جغرافية، واثربولوجية، وتاريخية توثيقية، وغيرها. إن محفوظ في تجربته لم يخضع لسلطة المضمون، فيتحوّل عمله إلى مجرد سرد لمعارف ومعلومات عن البلدان والأمكنة التي يزورها بطله، بل لقد استفاد من تقنية الشكل، من فكرة الرحالة الذي يجوب الأرض. وهو بهذا النهج قد كسر سلطة المكان، وأحال رحلة بطله إلى رحلة في الأزمنة، رحلة في تاريخ البشرية. وكما ذكرنا سلفا، فبطل محفوظ ليس رحالة على الإطلاق، بل إنه شخص يجوب الحضارات، من أجل حوار فلسفي وفكري وسياسي وأخلاقي. لقد راهن محفوظ أن بطله قادر على الحوار، رغم أنه ينتمي لثقافة تعاني من التسلط. إن ما دفعه أصلا للخروج كان أزمة الحرية التي يعد غياب الحوار أبرز سماتها. هل محفوظ بتقديمه شخصية مختلفة عن نسق الثقافة التي أنتجتها، يخالف السائد؟ أم أنه يفترض إمكانية التحول من رفض الحوار إلى قبوله مستقبلا. إن محفوظ من خلال رحلة بطله يؤكد أن غياب الحوار له صور كثيرة، فحتى الحضارات الأخرى كانت تعاني، بدرجات مختلفة، كما سنعرف لاحقا، من غياب الحوار. ولذلك تأتي الغاية التي يقصدها ابن بطوطة ولا يصلها غاية في الكمال والغموض في أن معا. فالنهاية التي انتهت إليها الرواية تؤكد استحالة التحقق الكامل للعدل والحرية في المجتمع الإنساني. وهذه النهاية رغم منطقيتها تجسد عمق أزمة الإنسان

مع ذاته ومع الآخر. فعندما عجز ابن فطومة عن إقامة حوار داخل وطنه، سعى للبحث عن صيغة للحوار مع الآخر في الحضارات الأخرى. ورغم خيالية الفكرة، فقد جسدت عمق الأزمة التي يعاني منها البطل. إن ابن فطومة ليس ذاته في سياق الرواية، بل إنه في بعض صورته يمثل المتقف العربي في عجزه عن الحوار مع السلطة. وما يجعل هذا التصور يبدو منطقياً هو تكوين الرواية. فالرواية تفترض وجوداً مكانياً كوطن للبطل، لكنه يخلو من أي دلالة جغرافية تماماً. فليس بإمكان القارئ أن يحدد ملامح المكان مطلقاً. إلا أن الرواية تشير بوضوح تام إلى أن هذا الوطن ما هو إلا جزء من دار الإسلام في فضائه الثقافي والسياسي. ولذلك، فإن ابن فطومة يبحث عن دواء لثقافة أبرز سماتها القمع ورفض الحوار كمبدأ حضاري. إن الطريف في الأمر، أن ابن فطومة لا يعود، وهي مسألة ليست شكلية لجأت إليها الرواية بقدر ما هي مسألة لها دلالة تكمن في رفض ابن فطومة العودة دون أن يجد الدواء الشافي لعله وطنه الثقافية والسياسية. فغيابه أو عدم عودته إلى وطنه، وإرساله مخطوطته التي لم تكتمل فيها تفاصيل رحلته، يشكل مازقاً آخر، لا يخص الثقافة العربية فقط، بل باقي الثقافات الأخرى التي رأى فيها محفوظ من خلال بطله أنها ما تزال عاجزة عن تقديم الحل الأمثل للإنسان.

٢- رحلة في ضمير الحضارات

يتخذ ابن فطومة من دار الإسلام خلفية لكل حوار يجريه مع الحضارات الأخرى. فوطنه بما يمثل من فكر وإيديولوجية يمر تحت فحص لا يخلو من قسوة هدفها الوصول لفهم العضلات التي تلون نمط الحياة هناك. وإذا كان في رحلته يحاول أن يسجل انتصاراً لوطنه على المستوى الديني، فإنه يعجز أن يتغني عنه صفة الضعف والترهل. فهو منذ البداية يعي الداء، وما رحلته إلا بحث عن الدواء. وقد جعل منذ البدء الحوار أساساً لفهم الحضارات الأخرى. والكاتب يوظف هذا النهج كإحالة للمرجو تحقيقه، وليس بالضرورة عما هو صائر في أرض الواقع. وبذلك يمثل ابن فطومة النموذج الذي يتسامى على الواقع. فهو ليس ذلك البطل الذي يمثل الشرائح الاجتماعية بما تحمل من انفعالات ثقافية تخزن تجربة قرون من اللاحوار.

وهكذا فإن حضور الوطن في ذاكرة ابن فطومة حضور سابي في أغلب الأحوال. فالوطن ضحية أهله الذين يرون في الدين ممارسة طقسية ليس إلا. ومن هنا تتخذ رحلة ابن فطومة إيديولوجية الحوار ممارسة بديلة، يرى من خلالها وطنه من بعيد، يراه "علي ضوء بقية الديار"^{٣١}، لعله يستطيع أن يجد المعادلة الضائعة في مجتمعه. والسؤال الآن هو، كيف تعامل ابن فطومة مع إيديولوجية الحوار الحضاري؟

أولى البلدان في رحلة ابن فطومة كانت دار المشرق. وهي مجتمع وثني بدائي له فلسفته الخاصة في تقسيم الناس إلى سادة وعبيد. وكلمة المشرق هنا ربما أنها تشير إلى بدء الحضارات الإبتدائية في بحثها عن صيغة مناسبة للتعایش الإبتدائي. وأول ما لفت انتباه ابن فطومة هو التكوين السياسي لهذا البلد. فهو يتكون من عاصمة وأربع مدن، وكل مدينة تخضع لعنيد هو مالكها والناس عبيده. وكما هو واضح فإن هذا المجتمع البدائي لم يكلف نفسه عناء البحث عن مفهومي العدل والحرية. فالعبيد قد رضوا أن يعيشوا في خدمة السادة الذين سرهم الولاء المطلق والامتيازات غير المحصورة في نطاق معين. ويرى ابن فطومة أن هذا النظام يذكره "بالقبائل الجاهلية ولكنه مختلف"، كما يذكره "بملك الأرض في [وطنه] ولكنه مختلف"^{٣٢}. فعلاقة التشابه بين وطنه ودار المشرق يراها ابن فطومة واضحة، ولكنه يرى أن إثم الناس في وطنه "أفزع من سائر الخلق"^{٣٣}، أفزع لأنهم أهدروا قيمة الدين الروحية والحضارية في حياتهم. وهذا ما جعل ابن فطومة ينعى وطنه مؤكداً أن "ديننا عظيم وحياتنا وثنية"^{٣٤}. وهو يشير بذلك إلى أن المكتسب الديني لم يبلغ عقلية التعصب والتسلط. وهو ما جعل حكيم دار المشرق في حوار مع ابن فطومة ينكر فكرة الأخوة التي نوه إليها ابن فطومة، معتبراً إياها شعاراً لا أثر له في المعاملة بين الناس^{٣٥}.

وفي دار الحيرة يعايش ابن فطومة تجربة أخرى من فهم العلاقة بين الحاكم والمحكوم. فالحاكم يمثل قمة الهرم الذي لا يُسال عما يفعل. ويتبعه في الترتيب الصفوة من رعيته الذين لهم الحظوة والامتيازات عن مساوهم. وفي آخر الهرم يأتي السواد الأعظم من الرعية الذين يعيشون كأجراء في وطنهم. هذه الصورة أفضى بها حكيم البلدة الذي يرى أنها صورة تمثل قمة

النضج والكمال، مؤكداً أن كل الناس سعداء في دار الحيرة. لكن ابن فطومة يسأله عن رأى من المشوقين في إحدى ساحات المدينة. هذه الملاحظة أغضبت الحكيم، وراح يفسر هذا الحدث بأنه ظاهرة محدودة قد تحدث في أي مجتمع. ونجد التفسير المناسب لغضب الحكيم عندما نستشف ارتباط كلمة الحيرة بالمنجز الذي تحقق فيها. فتجربة دار الحيرة هي التجربة الثانية في رحلة ابن فطومة. ففي هذه التجربة ما يزال الحلم الإنساني بعدل مطلق وحرية مطلقة أمراً حائزاً، تتجاذبه عوامل الضعف الإنساني من حب للتسلط ورغبة في تملك جائر.

ورغم أن هذه الصيغة لم ترق لابن فطومة، فقد سلم بإمكان تحقيقها. لكن هذا القبول سرعان ما يتبدل إلى شك كامل في صحة ما ذهب إليه الحكيم الذي يستخدم كل نفوذه ليضع ابن فطومة في السجن مدة عشرين عاماً لأنه قال لا عندما أراد أن يملك جارية ابن فطومة. هذه الصورة تذكر ابن فطومة بالوالي في دار الإسلام عندما مارس نفوذه ليتزوج خطيبة ابن فطومة. وهنا يصل ابن فطومة إلى قناعة مفادها أن وجه الظلم واحد مهما تعددت صورته.

ويمضي ابن فطومة في رحلة الحوار حتى يصل إلى دار الحلبة. هناك يجد وجهاً آخر من وجوه الحرية. فهو هنا في بلد يتيح الحرية لكل الأديان والمعتقدات، بلد فيه مسلمون ويهود ومسيحيون، بل فيه ملحدون ووثنيون. فالمساواة في المعاملة، وفي الحقوق والواجبات شرط من شروط التعايش التي يكفلها هذا البلد لرعاياه. إن الحياة في دار الحلبة تقوم على مبدأ العلم والديمقراطية. فالعلم كما يقول حكيم تلك البلدة حررها من الجهل، لما الديمقراطية فقد أنقذتها من استبداد الحكم. وهي إشارة من الكاتب إلى أن هذه الثنائية هي عماد الفكر الإيديولوجي والسيلسي في المجتمعات الغربية المعاصرة التي تقوم على علمنة الحياة السياسية، متيحة قدراً من ديمقراطية للرأي والمعتقد مع التركيز على العلم كغاية لرقى الإنسان. وقد لاحظ ابن فطومة أن الحرية باب للاختلاف، وكلما زاد الاختلاف زاد التمسك بالحرية. وهنا يتضح استخدام كلمة «الحلبة» التي جاءت مناسبة للصراع الفكري والإيديولوجي الذي يجد حريته في هذا المجتمع. لكن المشكل الذي

لاحظه ابن فطومة هو انعدام الأساس الأخلاقي في فكر ذلك المجتمع. وحين جادل حكيم ذلك البلد وجد ابن فطومة أن ملاحظته تنطبق على وطنه الذي يحكم فيه الحاكم بهواه، ويطوع العارفون بالدين الدين له، ويعيش الشعب يفكر فقط في لقمة عيشه، مما جعله يتساعل عن الأساس الأخلاقي لكل ذلك. وقد عبر ابن فطومة في غير مرة أنه ما من سينة عثر عليها في رحلته إلا ذكرته ببلاده الحزينة^{٢١}.

وفي دار الأمان، المحطة التالية في رحلة ابن فطومة، يكشف تراجع الحرية كمبدأ وممارسة لصالح العدل الذي ينبع من صرامة القانون والنظام. وهنا تظهر ظلال المجتمع الشيوعي الذي يفرض المساواة بين الأفراد من منطلق إلغاء الفوارق الاجتماعية التي تسبب خللاً في النسيج الاجتماعي. فالإنسان في ذلك المجتمع يشعر بالأمن المكتسب من العدل في تأمين احتياجات الناس بقدر متساو نسبياً. لكن عليه في المقابل أن يتخلى عن شرط الحرية والإذعان التام، بالتالي، لقانون النخبة. وقد رأى ابن فطومة أن إلغاء الحرية، من أجل تأسيس مجتمع غير طبقي يسوده العدل النسبي، أمر يمكن فهمه إذا وضع في ميزان المقارنة مع دار الإسلام حيث لا عدل ولا حرية تضمن للإنسان المسلم كرامته التي أكدها القرآن.

وفي دار الغروب، يفاجأ ابن فطومة بنمط آخر من الحياة، نمط أسمى من الحياة في كل الحضارات السابقة. فالإنسان هناك أشبه بالملك. فالبشر تسكنهم السكينة والرغبة في التسامي على كل ما هو دنيوي. ويجد ابن فطومة نفسه مضطراً للانضمام للجموع البشرية التي لا هم لها إلا التحضير للرحلة الكبرى، الرحلة إلى عالم الكمال، إلى دار الجبل. وهنا يمكن أن نستشف من تسمية هذه الدار (بالغروب)، إلى أنها نهاية المطاف للجهد البشري لتحقيق المزيد من العدل والحرية. ودار الجبل، دار لا يمكن أن تكون موجودة على أرضنا. فهي حلم مطلق وسر مغلق. ولذلك، فإن من ينشد العدل والحرية، عليه أن يرحل إلى ما وراء الواقع، إلى المثال، إلى النموذج كما جسده الأديان. وهذا يوضح أن الجهد البشري في تحقيق العدل والحرية جهد بشري تكتفه عوامل الضعف كأي شيء بشري؛ لأنه قاصر عن النظر بشمولية بعيداً عن مغريات الذات.

هذا البحث الدائم عن المجتمع الكامل بقي عند حدود الاجتهاد. فكل حضارة تدعي أنها حققت ما يكفل لها الحياة الكريمة. فالعلاقات الإيديولوجية بين الحضارات هي علاقات تضاد. فكل حضارة ترفض إيديولوجية الحضارة السابقة، معلنة أن لديها الحل الجذري لمعاناة الإنسان وقلقه الدائم في رحلة البحث عن العدل والحرية. وما يستطيع أن يؤكد ابن فطومة أن كل البلدان التي زارها، وخاصة دار الطبعة ودار الأمان، كان لهما أهدافا حقتاهما بدقة. وعلى حد زعم ابن فطومة فإن دار الإسلام: تعلن هدفاً وتحقق آخر باستهتار وبلا حياة ولا محاسب^{٣٧}. وقد خلاص إلى نتيجة مفادها أن الإسلام ينوي على أيدي أبناء وطنه، فقد جرد من مضمونه فغدا مجرد عبادات شكلية غير مؤثرة في حياة الأمة.

خاتمة

رحلة ابن فطومة ليست رحلة في جغرافيا الأمكنة، بل هي رحلة في جغرافيا الإيديولوجيات الحضارية الكبرى. رحلة في قلق البشرية الدائم وتلفها من أجل الحصول على إجابات مقنعة على سؤال كبير بحجم التاريخ البشري ذاته. هذا السؤال أزلي يكتسب صفة القدريّة التي تلازم البشر في أي زمان ومكان. هذا السؤال هو: لماذا الظلم، أو هل هناك عدل وحرية؟ إن ابن فطومة تحمل عبء البحث عن إجابة شافية. وبرغم مشقة البحث فلم يستطع أن يصل إلى نهاية حاسمة. فأرسل مخطوطته وأكمل مسيرته نحو دار الجبل، موطن الكمال المطلق للحرية والعدل. ولأن مخطوطته تتوقف قبل أن يصل إلى دار الجبل، فإن ذلك يؤكد أن الطموح إلى الكمال وهم لن يجدي معه الجهد البشري في تركيب المعادلة الصعبة. إن رحلة ابن فطومة في الحضارات أكدت أن الجهد البشري قاصر عن إيجاد صيغة مثالية تحقق العدل للجميع. وهذا ما جعله يؤكد عظمة الإسلام، وينعى تفريط أبنائه في الإجابات الشافية التي قدمها الإسلام.

هذه الرحلة الإيديولوجية تقابلها رحلة ابن بطوطة، رحلة في الجغرافيا. وصف ابن بطوطة واندھش ونمق ما رأى وأضاف عليه من أجل خلق جو أسطوري يبعث الدهشة التي عايشها في أذهان سامعيه وقرائه. فرحلته انطلقت من واقع له إشكالاته التاريخية الخاصة به، متجهة نحو عالم أشبه بالخيال لما فيه من المفارقات والأساطير التي حرص الرحالة على تدوينها. بينما رحلة ابن فطومة رحلة معاكسة تماماً. فهي رحلة من الأسطوري إلى الواقعي. فتركيبة الرواية خيالية بحثة، بدءاً من بطلها وانتهاء بأحداثها وأمكناتها وشخصها وإطارها الزمني، ومع ذلك فهي أشد ملامسة للواقع من رحلة ابن بطوطة. وهنا تتجلى خصوصية الرواية مسجلة حضوراً فلسفياً يؤكد غايتها الإيديولوجية.

إن العلاقة بين هذين العاملين هي علاقة تناصية تتجلى مظاهرها على مستوى الشكل. فقد أفاد نجيب محفوظ من تقنية الرحلة ليرتحل ببطله في أعماق الحضارات من أجل كشف معرفي ثمين. فخاض بطله مشقة الرحلة، معانياً فيها ألم الغربة والسجن وخطر الموت. وهذه إشارة إلى أن للبحث عن شيء عزيز يقتضي معاناة غير عادية. فالعلاقة التناصية بين العاملين هي علاقة اختيار من الكاتب لضرورات فنية. وقد نجح الكاتب في استلزام هذا الشكل الذي برهن أنه الأنسب لهذه الرواية لكونه يسعى إلى تأسيس خط متصاعد يؤكد فيه سيادة الحضور الفلسفي لموضوع الرواية. فالرحالة يرتحل في الزمان تقوده لذة المعرفة في كشف المجهول المتمثل في الحلم الأبعد، الحلم الذي يمثل أمل الإنسان في العدل والحرية. ورغم أن الرواية لا تقدم الإجابة، فإنها تعيد اكتشاف الذات مقابل الآخر.

في أثناء مناقشتنا حاولنا أن ندلل على أن هناك عوامل التقاءات وتضادات نصية بين رحلة ابن بطوطة ورحلة ابن فطومة. والسؤال الآن: هل هذه التفاعلات النصية بين هذين العاملين تلغي فكرة أن يكون نجيب محفوظ قد تأثر أو استلهم عملاً أو مرجعية معينة خلافاً لما افترضناه؟ فيما يتعلق بفرضية التأثير، فإنه لا يمكن أن ننفي إمكانية أو بالأصح حتمية تأثر محفوظ بأجواء أدب الرحلات العربية ككل. وما نذهب إليه هنا، يأتي من منطلق أن التجارب الإنسانية متوارثة، تنشق طريقها إلى عقل ووجدان

الإنسان بشكل آلي، منعكسة في سلوكياته وفكره متى دعت الحاجة إلى ذلك. فانعكاس تجربة سابقة في أخرى لاحقة تعتبر مسألة واردة. لكن هذا التأثير يبقى في أحيان كثيرة غير واع بمرجعياته. وعلى العكس من ذلك، يأتي الاستلهام كاستراتيجية واعية بالتفاعل النصي مع مرجعية محددة الملامح. وهذا ما نجد ملامحه في رواية رحلة ابن فطومة. فنجيب محفوظ، إلى جانب اختارته تجربة الرحلة في الأدب العربي، استلهم بشكل واع تجربة الرحلة كما هي في رحلة ابن بطوطة. فقد أعاد تشكيل هذه الرحلة، ولكن بمضمون جديد. هذا المضمون انعكس بالتالي على نمط شخصية الراوي، ابن فطومة. فله ملامح ابن بطوطة، لكنه رحالة أو بطل له موقف حضاري من الحضارات التي تفاعل معها. فرغم إعجابه بها، لم يسلم بصحتها المطلقة.

إن تجربة محفوظ هذه، تجربة متميزة على صعيد استلهام موروث السرد العربي. فإلى جانب استلهامه للشكل، فقد برهن أن هذه التجربة ليست بداعي الاستلهام بحد ذاته، بل إنها تجربة أملاها مضمون العمل ومقتضياته الفنية. وهذا يتطابق مع فكرة لوين ميلر التي تنادي بتحديد العلاقة النصية بين العاملين: هل هي علاقة تمت مصادفة أم عمداً؟ فالحكم على العلاقة بين عاملين بأنها تمت عن طريق المصادفة، مسألة تؤكد عدم الوعي بالعملية وربما ندخلها تحت نمط العلاقة التأثيرية التي تتبع من اختزان تتابعات معرفية غير منضبطة أثناء الكتابة. بينما العلاقة الواعية هي ما يجب أن تكون مبنية على استراتيجية فنية نابعة من روح العمل، مدركة لضرورتها ومبرراتها في إقامة علاقة تناسية مع عمل سابق. وهذا بالتأكيد ما تحقق في رواية نجيب محفوظ رحلة ابن فطومة.

كما أشرنا سلفاً، فإن تجربة محفوظ هذه تتسم بعدة سمات على مستوى التفاعل النصي مع النص التراثي. يأتي في مقدمة هذه السمات أن نجيب محفوظ اعتمد على نص تراثي غير أدبي بالمعنى النقدي. فرحلة ابن بطوطة نص مفتوح على الكثير من المعارف، من جغرافية واثروبولوجية وتاريخية وثيقية. فالرحلة نص واقعي في سرده للأحداث، وليست نصاً يقوم على التخيل، كالف ليلة وليلة أو المقامات أو السير الشعبية فالبنية السردية

في رحلة ابن بطوطة ليست بنية للحكي، بل هي بنية هدفها توصيل مادة واقعية لجمهور يعي واقعية التجربة المسرودة. وبكل تأكيد فإن هذا يعطي تجربة محفوظ خصوصية في التعامل مع النص التراثي واختراق المألوف، وتوظيف غير الأدبي لمصلحة الأدبي. فقد طوع بنية الرحلة كشكل لعمله المتخيل مع المحافظة على شكل الرحلة، وتجاوز مضمونها إلى مضمون متخيل يحمل إسقاطات على الواقع الثقافي والسياسي والأخلاقي لمجتمعه.

إن السؤال الملح الآن هو، هل رواية رحلة ابن فطومة رواية أصيلة؟ أو بمعنى آخر، هل بإمكان القارئ أن يقرأ هذه الرواية بعيداً عن رحلة ابن بطوطة؟ أو هل لهذه الرواية وجود مستقل عن رحلة ابن بطوطة؟ هذه الأسئلة تحيلنا مرة أخرى إلى مفهوم التحول النصي كما هو عند جينيت. فشرط التحول النصي أن يكون للنص اللاحق مرجعاً ونموذجاً، فلا وجود للنص اللاحق دون النص السابق^{٢٨}. بمعنى أن حضور رواية محفوظ، مرهون دائماً باستدعاء عفوي لرحلة ابن بطوطة. فهل هذا الاستدعاء سلطة مهمشة لرواية محفوظ؟ إن مجرد إثارة هذه الأسئلة، تبين مدى أهمية أن يؤسس النص اللاحق تميزه واستقلاله، وإلا فإنه سيسقط في طور المحاكاة المباشرة. ورواية محفوظ، كما أسلفنا، رواية تستدعي شكل الرحلة كنضاء سردي تمكن محفوظ من خلاله أن يوجد نصاً أصيلاً في مضمونه، وفي بنيته السردية. إن تحويل محفوظ شكل الرحلة من بنية سردية لنقل الواقع المادي بشكل مباشر، إلى بنية سردية تعتمد الحكي والمتخيل كشرط أساسي لتمييزها، يضعنا أمام عمل له خصوصيته مبنى ومعنى.

إن تجربة محفوظ هذه ليست تجربة منفردة بالنسبة لإبداع الكاتب، فقد بدأ التحول في تعاطيه للكتابة الروائية مستنداً على استلهام النص التراثي منذ منتصف السبعينيات حين أصدر ملحمة *الحراقيش* (١٩٧٧)، و*ليالي ألف ليلة* (١٩٨٢)، وأخيراً *رحلة ابن فطومة* (١٩٨٣). هذه الروايات تتدرج تحت ما يمكن أن نطلق عليه بمرحلة الشكل التراثي^{٢٩}، وهي مرحلة سعى نجيب محفوظ من خلالها إلى تأصيل أدواته القصصية باستلهام صيغ المراد في النثر العربي القديم. إن من يتأمل نمو تجربة محفوظ الروائية بدءاً من المرحلة التاريخية ومروراً بالمرحلة الواقعية ومرحلة التجريب الحديثة،

وأخيراً مرحلة الشكل التراثي، يلحظ دأب الكاتب على الاستمرار في استحداث صيغ شكلية جمالية. فمحفوظ ليس كاتباً اجتماعياً يهتم بالمضامين فقط، بل هو روائي بالدرجة الأولى، يشغله البناء الفني بقدر ما يشغله البحث في المضامين الفكرية. إن اتجاهه هذا يأتي وعياً من الكاتب بضرورة تأصيل التجربة الروائية العربية التي ظلت أسيرة للنموذج الغربي. ولذلك، فإن اشتغال نجيب محفوظ بهذا النهج يأتي عن قناعة بالعودة للتراث السردى، لغة وأسلوباً، ومحاولة توظيفه كنهج عربي خالص يضيف للتراكم السردى العربى فضاءً سردياً جديداً.

- ^١ أصدر لجيب محفوظ ثلاث روايات تاريخية في بداية حياته الأدبية، هي على التوالي: عبث الأكراد (١٩٣٩)، ورلدرييس (١٩٤٣)، وكفاح طيبة (١٩٤٤).
- ^٢ بن جمعة، بو شوشة. "الرواية المغربية المعاصرة: توظيف التراث (نماذج)". كتابات معاصرة. العدد ٢٩، ١٩٩٧، (ص ١٠٠).
- ^٣ Abrams, M. H. *A Glossary of Literary Terms*. 5th ed. New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1988 (p. 247).
- ^٤ الخشاب، وليد. دراسات في تعدي النص. القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، (د. ت)، (ص ١١).
* هذه الترجمة اعتمدها الناقد وليد الخشاب في كتابه دراسات في تعدي النص، (ص ٧-٢١).
- ^٥ الخشاب، وليد. (ص ١٩).
- ^٦ المطوي، محمد الهادي. في تعالي النصي والمتعاليف النسيية. للمجلة العربية للثقافة. العدد ٣٢، ١٩٩٧م، (ص ١٩٧).
- ^٧ Miller, Owen. "Intertextual Identity." *Identity of Literary Text*. Eds. Mario J. Valdés and Owen Miller. Toronto: University of Toronto Press, 1985, (p. 28).
- ^٨ خصبك، شاكز. ابن بطوطة ورحلته. بغداد: مطبعة الأدب، ١٩٧١م (ص ٧ - ١١).
- ^٩ المصدر السابق، (ص ٧).
- ^{١٠} خروب، جورج. ألب للرحلة: تاريخه وأعلامه. ط ٣. بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٩م (ص ٦٤).
- ^{١١} ابن بطوطة. رحلة ابن بطوطة (تحفة للنظر في غرائب الأمصار وصحائب الأسفار). بيروت: دار للشرق العربي، ج ١، (ص ٧).
- ^{١٢} المصدر السابق، (ص ١٤). وقد حرصت على إيراد هذه الألقاب كما أوردتها ابن بطوطة حتى تتبين درجة التأثير الروحية لكلام هذا الإمام الصوفي في نفس ابن بطوطة. فكما صرح أحد الباحثين أن علامات الدرب الطويل لرحلة ابن بطوطة قد وضعها صوفي هو برهان الدين الإسكندري. انظر بحث سعيد الطوي "الغريب والمألوف في عالم ابن بطوطة" المنشور في كولف العدد الخامس، ١٩٩٥م، (ص ٩ - ٢٤).
- ^{١٣} المصدر السابق، (ص ١٤ - ١٥).
- ^{١٤} المصدر السابق، (ص ١٩).
- ^{١٥} خصبك، شاكز. ابن بطوطة ورحلته. بغداد: مطبعة الأدب، ١٩٧١م، (ص ٣٣).
- ^{١٦} ضيف، شوقي. الرحلات. ط ٤. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م، (ص ٩٧).
- ^{١٧} ابن بطوطة. (ص ٥).
- ^{١٨} المصدر السابق، (ص ٦).
- ^{١٩} المصدر السابق، (ص ٥٤٣ - ٥٤٤).
- ^{٢٠} المصدر السابق، (ص ٥٤٤).

الاحتلال الفرنسي للجزائر وموقف الدولة العثمانية منه "قراءة جديدة"

تأليف

**الدكتور : سعيد بن سعد سفر الغامدي
الاستاذ المشارك في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية العلوم الإجتماعية بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**



الاحتلال الفرنسي للجزائر

وموقف الدولة العثمانية منه

" قراءة جديدة "

- ☆ أسباب الحملة الفرنسية على الجزائر.
- ☆ الاحتلال الفرنسي للجزائر.
- ☆ عبد القادر الجزائري.
- ☆ إحتلال قسنطينة.
- ☆ تجدد القتال بين فرنسا والأمير عبد القادر.
- ☆ جهاد الأمير عبد القادر ثم إستسلامه.
- ☆ موقف الدولة العثمانية من الإحتلال الفرنسي للجزائر.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد :

بذلت الدول الأوروبية النصرانية جهوداً مضنية لإحتلال العالم الإسلامي وضرب الإسلام والمسلمين، ولكن تحطمت معاولهم على صخرة الإسلام والمسلمين أيام الحروب الصليبية التي خرجوا منها يجرؤون أذيال الخيبة والخسران والعار.

ولكن مازالت روح الحقد الصليبي تسيطر عليهم - حتى يومنا هذا - فأخذوا في إقتطاع البلاد الإسلامية بلداً تلو الآخر بهدف محو هويتهم الإسلامية وتنصيرهم.

ومن أشهر الحملات الصليبية التي تعرضت لها البلاد العربية والإسلامية الحملة على (الجزائر). فقد أراد الفرنسيون تعويض ما خسروه في حملتهم الفاشلة على مصر. لكن ضمود الشعب الجزائري وكفاحه حال دون ذلك، وعجزت فرنسا بكل ما تملك من قوة عسكرية وأموال طائلة في إخماد ثورة الجزائر الأهلية الإسلامية.

وقد كتب الكثير من المؤرخين المؤلفات العديدة عن جهاد أهل الجزائر وفي مقدمتهم الأمير عبد القادر الجزائري حتى أعجزوا الحكومة الفرنسية.

ولكن لاحظت تحامل الكثير من المؤرخين على الدولة العثمانية واتهموها بالتنصير في مسألة الجزائر، وقد تناسي أولئك للكتاب إلى حالة الضعف التي وصلت إليها الدولة، والمشكلات الداخلية والخارجية التي أشغلتها وأضنت مضجعها.

وقد اشار قلة قليلة من المؤرخين إلى التظاهر العسكري الذي قامت به الدولة العثمانية ضد الإحتلال الفرنسي والذي انتهى بالفشل الذريع. وقد يكون لمثل هؤلاء المؤرخين العذر في عدم دراسة الموضوع دراسة كاملة تغطي معظم جوانب الموضوع لغيب الوثائق العثمانية وصعوبة الحصول عليها.

وفي أثناء بحثي في الإرشيف العثماني عثرت على وثائق توضح الجهد السياسي والدبلوماسي الكبير الذي بذلته الدولة العثمانية من أجل حل مشكلة الجزائر. ولم ألاحظ - على حد علمي - ذكراً لهذا في المؤلفات التاريخية.

لهذا أثرت إبراز هذا الجهد السياسي الذي بذلته الدولة العثمانية، وغاب عن ذهن الكثير من المؤرخين. وهذا هو الجديد الذي حاولت التطرق له في هذا البحث المتواضع.

والله الموفق.

أسباب الحملة الفرنسية على الجزائر :

دخلت الجزائر في الحكم العثماني سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م، وتعتبر أول إقليم من أقاليم شمال إفريقيا - بعد مصر - يدخل تحت السيادة العثمانية^(١). وكانت الجزائر منذ ذلك التاريخ تعتبر معقل الإسلام في قارة إفريقيا، كما كانت فرنسا في المقابل آنذاك معقل النصرانية في أوروبا، ولم تأتِ الحملة الفرنسية أو (الاستعمار الفرنسي) للجزائر إلا بعد تخطيط دقيق من قبل الفرنسيين ودراسة لمصالحهم الخاصة. وهناك مجموعة من الأسباب تعللت بها فرنسا لاحتلال الجزائر منها :

- فقدت فرنسا الكثير من مستعمراتها أثناء حروب نابليون في أوروبا، وكانت تريد إعادة مجد إمبراطوريتها القديم مرة ثانية. فرأت إستعمار الجزائر لتكون مفتاح دخولها إلى دول أخرى. ولم يكن هناك معارضة من الدول الأوروبية لتلك السياسة الفرنسية، بل ربما وجدت التشجيع والتأييد لكي تصرف فرنسا عن المطالبة بالأقاليم التي فقدتها في أوروبا^(٢).

- ومن أسباب الحملة الفرنسية على الجزائر إدعاء فرنسا أن البحارة المسلمين يقومون بالإعتداء على السفن الفرنسية في البحر المتوسط وأنها تريد منعهم من مزاوله ذلك النشاط الذي يخل بالأمن^(٣).

- وهناك سبب إقتصادي. وهو أن فرنسا مرت بضائقة مالية شديدة أثناء حروبها، ولم تجد من يساعدها أو يقدم لها المعونة من الدول الأوروبية. وقامت للجزائر ببيع كميات كبيرة من القمح لها. وكانت على شكل دين مؤجل. وقد تراكمت هذه الديون على فرنسا وأصبحت علجة عن سدائها، فأضطرت للجزائر إلى إستعمال القوة لكي تحصل مالها من ديون على فرنسا، ولكن الأخيرة أمتنعت من دفع الديون التي عليها للجزائر مدعية حيناً أن القمح غير صالح، وأن أثمانه التي قدر الدين على أساسها مبالغ فيها، وكانت تلك الديون تصل إلى ثمانية عشر مليوناً من الفرنكات، ورغم هذا فقد خفضت الجزائر تلك الديون إلى سبعة ملايين فرنك. فعادت فرنسا إلى الإدعاء بأن السلطات الفرنسية لم تتسلم تلك البضائع،

واصمت آذانها عن المطالبة بتسديد ذلك الدين^(٤).

- كذلك فإن رغبة كبار التجار والملأ الفرنسيين في الإستيلاء على أراضي جديدة تُدر لهم أرباحاً طائلة ليعوضوا ما خسروا من أملاك قد دفع بالحكومة الفرنسية إلى التعجيل بأمر إحتلالها للجزائر^(٥).

- ومن الأسباب التي دعت فرنسا لغزو الجزائر رغبة شارل العاشر في أن يشغل الشعب الفرنسي عن المشاكل الداخلية في فرنسا، ويجعلهم يهتمون بالحروب الخارجية، وكذلك يريد أن يشغل أولئك السكان العاطلين عن العمل في تلك الحروب، ويوجد لهم أرضاً جديدة يستقنون فيها طاقاتهم المعطلة، كما أراد شارل العاشر إرضاء الكنيسة الفرنسية بأنه سوف يعمل على نشر النصرانية، ويقضي على الإسلام والمسلمين في دولة إسلامية كبيرة وهي الجزائر^(٦).

- وهناك سبب آخر أدى إلى الغزو الفرنسي للجزائر يذكره كثير من الكتاب والمؤرخين ويعتبرونه الشرارة التي أشعلت نار الحرب بين الدولتين. وهو : أن قنصل فرنسا في الجزائر ذهب إلى الداوي - حاكم الجزائر - لتهنئته بمناسبة عيد الفطر لسنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م فسأله الداوي عن السبب الذي جعل ملك فرنسا لا يرد على رسالته التي بعث بها إليه منذ مدة، فكان رد القنصل جافاً غليظاً مفاده أن الملك أرفع من أن يرد على رسالة الداوي، فغضب الأخير ونهر القنصل وأشار إليه بيده أن يخرج من أمام وجهه. وقيل أن مروحة كانت بيد الداوي لمست وجهه القنصل. فذهب الأخير إلى الملك وأخبره بما حدث، وزاد على ذلك بأن الداوي صفعه على وجهه. فاعتبر الملك أن ذلك العمل إهانة له وللشعب الفرنسي وهدد بالانتقام^(٧).

والحقيقة أن فرنسا كانت تتذرع بأي سبب لإحتلال الجزائر. ومهما قيل من أسباب فإن الحقد الصليبي الدفين في قلوب أعداء الإسلام والمسلمين هو السبب الرئيسي لإحتلال فرنسا للجزائر بعد أن تحطمت معاولهم على صخرة الإسلام أيام الحروب الصليبية في بلاد الشام، وبعد أن فشلت فرنسا في إحتلال مصر سنة ١٢١٣هـ / ١٢٩٨م وخرجت تجر أنيال الخيبة والخسران أمام التضامن الإسلامي الكبير. ولأنت هنا أن

تكرر حقدما للصليبي باحتلال بلد عربي مسلم. فأضحت الأعداء الواهية لاحتلال الجزائر.

الاحتلال الفرنسي للجزائر :

صممت فرنسا على إجبار الجزائر على الاعتذار حتى ولو بالقوة، وقرر مجلس الوزراء الفرنسي إرسال القطع البحرية أمام الجزائر للمطالبة بهذا الاعتذار. ووصلت هذه القطع البحرية أمام مدينة الجزائر وطالبت بتحية العلم الفرنسي، لكن الداي رفض ذلك، فعاد الأسطول حاملاً رعايا فرنسا في الجزائر، وعهدت لقنصل سردينيا مهمة الإشراف على المصالح الفرنسية في الجزائر. وقطعت العلاقات دون دفع أي مبلغ للجزائر عن مشترياتها من القمح، وتذرعت بإهانة الداي لقنصلها، واحتفظت لنفسها بحق التدخل حسبما يترأى لها^(٨).

قررت الحكومة الفرنسية إحتلال مدينة الجزائر نفسها. ولكن حوادث المورة جعلت الفرنسيين يفضلون البدء في فرض الحصار إلى أن يجلي لهم الموقف الدولي في البحر المتوسط، خصوصاً وأنهم كانوا يرغبون في المحافظة على التحالف الذي وصلوا إليه مع كل من إنجلترا وروسيا، وأن مسألة إنزال الجنود في الجزائر قد تؤثر على هذا التحالف، وعلى موقف كل من إنجلترا وروسيا في مسائل المضائق والبلقان وشرق البحر المتوسط.

بقي للحصار البحري مفروضاً على سواحل الجزائر مدة ثلاث سنوات في الفترة ١٢٤٣-١٢٤٦هـ/ ١٦ يونيو ١٨٢٧م - ١٤ يونيو ١٨٣٠م، وقد عانت فرنسا خلال فترة الحصار هذه معاناة كبيرة حيث استطاع الجزائريون أسر بعض رجال البحرية الفرنسية وقتلهم، ونظر الداي لعملية الحصار على أنها إعلان حرب رسمي موجه إليه أكثر من كونه منلورة بحرية للضغط عليه إذ أن سفن الفرنسيين كانت تعترض طريق السفن الجزائرية عند مدخل الميناء، مما يتناقى مع أبسط للقواعد والتقاليد الموجودة بين رجال البحرية في حالة السلم، وحاول الأسطول الفرنسي تهديد الداي من وقت لآخر بإرسال أحد الضباط ملحاً في طلب تقديم الاعتذار الرسمي، فلم يكن من الجزائريين - بعد تكرار هذه

المسألة - إلا أن أغرقوا بقنابلهم الزورق الذي حمل آخر ضابط جاء لهذا الغرض^(٩).

وأخيراً صممت فرنسا على إرسال حملتها للجزائر خصوصاً وأن "بولينياك" قد وصل إلى الحكم سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م، وكان يرى أن عملية الحصار عملية خاسرة دون أي فائدة، وكان من ناحية أخرى يريد أن يوجه أنظار الشعب إلى الخارج، ويعتقد في أن نصراً خارجياً سيساعده على الوصول إلى نتائج طيبة على مجموع الناكبين، وسيساعده في تقوية الملكية، بأن يتجمع حول العرش كل هؤلاء الذين أتهموها منذ سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٥ م، باتباع سياسة سلبية في العالم.

وقد حاول بولينياك في أواخر سنة ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م إقامة تحالف بينه وبين محمد علي في مصر، وعرض عليه أن يحتل هذه الولاية نظير مساعدة مالية، وضمان حماية فرنسا لقواته ضد تدخل أي دولة أوروبية. وأن يقوم الأسطول الفرنسي بمعاونته في تلك الحملة، وأن يحصل من السلطان العثماني على إذن للقيام بها، ولكنها لم تنجح لأن محمد علي اعتذر عن ذلك حتى لا يثير الرأي العام الإسلامي، كما أن امتداد سلطة مصر حتى تونس كان أمراً غير مقبول من الباب العالي ومن إنجلترا، بالإضافة إلى ذلك فإن وضع قطع الأسطول الفرنسي تحت سلطة مصر كان مخاطرة واضحة، لذلك فإن بولينياك قد صمم على القيام بهذه العملية لحساب دولته^(١٠).

أما إنجلترا فقد رفضت عرض الحكومة الفرنسية بالإشتراك معها في هذه الحملة، ورأى ولنجتون أن في هذا مخاطرة كبيرة قد تؤدي إلى مشاكل دولية. ولذلك فإنه قرر ترك فرنسا تعمل بمفردها^(١١).

أصدر الملك أمره بالتعبئة يوم ٧ فبراير، وأعلن عن مهاجمة الجزائر يوم ٢ مارس في خطاب العرش، وتجمعت القوات البرية والبحرية ومعدات الحرب والذخائر والتموين على البر بين طولون ومرسيليا، كما تجمعت السفن للحربية وسفن النقل ومعدات الإنزال أمام طولون. وبلغ مجموع الحملة البرية في آخر أبريل (٣٧,٦٠٠) جندياً و(٤٥٠٠) حصاناً، و(٩١) مدفعا، وأعطيت قيادة هذه الحملة للجنرال "بورمون"، أما القوات البحرية فكانت تضم (٦٠٠) قطعة بحرية، كانت تشمل

على (١٣-١١) قطع حربية مقسمة إلى ثلاث فرق للعمليات، وإنزال الجند، وللإحتياطي، علاوة على السفن التجارية المجهزة لنقل الجند والمعدات في شكل قافلة بحرية، وأعطى الملك القيادة البحرية للأميرال "دوبريه"، وقام ولي العهد بتفتيش القوات البحرية والبحرية في طولون ثم سافرت إلى الجزائر (١٢).

وصلت الحملة في ١٤ يونيو ونزلت في الخليج الغربي من جزيرة سيدي فروج (١٣). واستطاعت إحدى الفرق الفرنسية الثلاث - تحت ستار مدفعية الأسطول - أن تستولي على قطع المتفعية الجزائرية المنصوبة إلى الداخل من شبه الجزيرة. ثم استمر إنزال المدفعية والمعدات في الأيام التالية، وأخذ الجنود يعملون في تحصين شبه الجزيرة ليتخذوها قاعدة عامة لهم (١٤).

وقد حدث ثلاث معارك مهمة في تلك المنطقة. وهي على التوالي : الشتولي ثم سيدي خالد، وقلعة السلطان، ورغم دفاع أهل الجزائر المستميت في هذه المعارك بقيادة إبراهيم آغا نسيب الداوي حسين إلا أنهم أنهزموا في النهاية. وكانوا يعتمدون في حروبهم هذه على أسلوب الكر والفر السريع الخفيف، واعتمدوا على البنادق القديمة والسيوف، بينما اعتمد الفرنسيون على خطوطهم التي تؤيدها نيران المدفعية والأسلحة الحديثة، واستولوا على معسكر الشتولي وسيدي فروج وسيدي خالد.

قرر الفرنسيون أن يستمروا في سيرهم إلى مدينة الجزائر لكي يستولوا على قلعة السلطان، لكن حدثت بعض الظروف الجوية التي حالت دون وصولهم إليها. ولم يستغل الجزائريون تلك الفرصة للإيقاع بهم بل تركوهم حتى أعادوا تنظيم جيوشهم، وقد تولى " الخزنجي " الدفاع عن قلعة السلطان، ومعه (٨٠٠) جندي من الأتراك، و(١٢٠٠) جندي من العرب، إضافة إلى التحصينات القوية للقلعة ومناعة أسوارها. ثم بدأ الفرنسيون في ضرب القلعة بالمدافع، وقد استمات الجزائريون في الدفاع عنها، لكن نيران المدفعية تسببت في إحراق مخزن الذخائر مما سهل على الفرنسيين إحتلالها، ثم تحصنوا فيها وأخذوا ينطلقون منها لضرب الجزائر (١٥).

وقد أراد الداوي حسين أن يقاوم دخول الفرنسيين مدينة الجزائر لكن الوضع

العسكري لم يكن يسمح له بذلك. خصوصاً وأن الأسطول الفرنسي كان يحاصر المدينة من البحر، ومدفعية الجيش مُصوبة على المدينة من قلعة السلطان، فاضطر الداي إلى الإستسلام لقاء معاهدة تعهدت فيها فرنسا بحمايته وترك الخيار له بين البقاء في الجزائر أو الرحيل، كما تعهدت بحماية الدين الإسلامي، وإعطاء الحرية التامة للمسلمين في ممارسة شعائرهم الدينية وتم التوقيع على المعاهدة ١٣ محرم ١٢٤٦هـ / ٥ يوليو ١٨٣٠ م. لكن فرنسا نقضت هذه المعاهدة قبل أن يجف مدادها^(١٦).

وبعد دخول الجيش الفرنسي مدينة الجزائر أذاع القائد بورمون بياناً على أهل الجزائر أفتحه بـ "بسم الله المبتدئ المعيد وبه تستعين ... " ثم أخذ يعدهم ويمنيهم بالخير إذا هم سلموا للقيادة الفرنسية التي جاءت من أجل تحقيق الخير والسعادة لهم، وتكر بورمون في هذا البيان أنه يحب الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم - وسيضمن لهم الحرية الدينية الكاملة، وسيعاقب كل من يتعرض لهم في أملاكهم وعوائلهم ومساجدهم..^(١٧). وهي نفس سياسة نابليون بونابرت حينما احتل مصر، وكما أن هذه السياسة الكاذبة قد أنكشت للمصريين فقد انكشت من أول يوم للجزائريين.

بعد دخول الفرنسيين مدينة الجزائر أنقضوا بوحشية على المواطنين، وأشاعوا الرعب، والخوف بين الأهالي، وقاموا بشتى أنواع السلب والنهب والفساد وقتل المواطنين بالجملة، وحرقوا القرى والمزارع بكل وحشية. كما استولوا على الخزانة العلماة التي أبلغوا باريس أنهم قد وجدوا فيها ما قيمته "٤٨,٧٠٠,٠٠٠" فرنك من الذهب، وكان هذا يكفي بطبيعة الحال لتغطية نفقات الحملة التي بلغت "٤٣,٥٠٠,٠٠٠" فرنك، ولكن الجنرالات بدأوا يتهمون بعضهم بعضاً بسرقة مبالغ من أموال الخزانة الجزائرية قبل إعلانها لباريس، وقاموا بإحراق السجلات عمداً حتى لا تتكشف سرقاتهم^(١٨).

وكان أول أعمال بورمون بعد إحتلاله لمدينة الجزائر هو نزع سلاح الجنود غير النظاميين، ثم طرد الجيش الإنكشاري العثماني إلى إزمير، واختفى بذلك آخر

سيطر من سيطر للحكم العثماني في الجزائر. وبعد أن قام الجنود الفرنسيون بقتل السجلات، لم يكن من السهل الحصول على بيانات خاصة بملكية الأراضي أو بالدخل العام، وكان ذلك في صالح أصحاب النفوس الضعيفة ممن يتمتعون بالسلطة أو المقربين إليهم، أما الجنود فإنهم بدّلوا يعيشون بين أفراد شعب لا يعرفونه ولا يستطيعون التفاهم معه، مما ساعد على إنتشار الفساد والسلب والنهب وجعل مدينة الجزائر في حالة يرثى لها^(١٩).

ولم يكن بورمون يعرف حقيقة الوضع في الجزائر، واعتقد أن إحتلال مدينة الجزائر سيجعله يسيطر على كل البلاد في مدة أسبوعين وبدون مقاومة.

قام بورمون بإرسال حملة لإحتلال المرسى الكبير ووهران، وأرسل حملة أخرى استولت على عنابة الميناء البحري لقسنطينة، واعتقد بأن هذا الإحتلال سيجبر قسنطينة على التسليم، ولكنه أخطأ في تقديره، إذ أن الأهالي في الداخل كانوا مصممين على مقاومة الإحتلال الفرنسي. وشعرت السلطات الفرنسية أخيراً بأن عليها مهاجمة جميع مدن الجزائر الواحدة تلو الأخرى، فأرسل بورمون حملة إلى "بليدا" التي تقع عند سفح جبل أطلس على بعد ٤٨ كيلو متراً جنوب مدينة الجزائر، وفي إقليم يسكنه رجال القبائل ليثبت لأهالي الجزائر قوة الجيش الفرنسي وقدرته على السيطرة على كامل البلاد، ولكن رجال القبائل هاجموا عند عودته، وأزّلوا به خسائر فادحة، وكشفت هذه الهزيمة مع ما تلاها من هزائم عن أن الفرنسيين ليسوا سادة الموقف، وأن تحطيمهم للحكم العثماني في الجزائر لن يسهل عليهم السيطرة على الولاية^(٢٠).

أما باي قسنطينة فرفض التسليم، واستمر هو وشعبه في الجهاد الإسلامي، واستطاع أن يقاوم الفرنسيين سبع سنوات تجلت فيها بطولة الجزائريين، وألحقوا بالعديد خسائر كبيرة واستطاعوا طرد الفرنسيين من عنابة، وهجم الفرنسيون على قسنطينة في سنة ١٢٥٢ هـ / نوفمبر ١٨٣٦ م لكن الجزائريين هزموهم شر هزيمة، وكان لهذه الموقعة صداها العنوي في فرنسا وأوروبا.

رأى بعض أهل الحل والعقد إزاء ما لمستوه من فساد الأحوال وتفرق كلمة المسلمين وإنقسامهم شيعاً إلى بربر وعرب وقبائل متنايضة، ذلك الإنقسام الذي يرجع إلى عهود الدايات، والذي استغلته الحكومة الفرنسية لتستعين به في التغلب على البلاد وإضعاف مقاومتها. رأوا أن يختاروا أميراً تجتمع فيه صفات الإمارة، فكان أن توجهوا إلى رجل من العلماء والأشراف لكنه اعتذر عن الإمارة ولم يتخلف عن الجهاد، وظل يقود للمجاهدين إلى وهران يقاتل الفرنسيين ويرجع قي غارات متعددة، وحاول قادة المسلمين أن يلجأوا إلى سلطان المغرب ليولي عليهم من يتزعمهم في الجهاد، فرحّب بهم وولى ابن عمه عليهم وهو علي بن سليمان، فتوجه إلى الجزائر وبدأ ينظم الأمور ويعد العدة للجهاد. فعلمت فرنسا بذلك، وهنّدت سلطان المغرب. فسحب ابن عمه قبل أن يمضي في مهمته أكثر من ستة أشهر، وتأكدت من جديد زعامة السيد محي الدين الحسني أحد زعماء الأشراف، وظل يجاهد سنتين ثم تخلى عن القيادة سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣٢ م لابنه البطل الأمير عبد القادر الذي لقب نفسه بالجزائري، لتكون ثورته تمثل الجزائر كلها، ولمصلحة الشعب الجزائري كله. والتف حول الأمير عبد القادر آلاف من الشبان، وأيدته القبائل تأييداً تاماً حتى بلغ عدد جيشه (٨٠٠٠) من المشاة، و(٢٠٠٠) فارس (٢٢).

وتعتبر مبايعة الأمير عبد القادر بداية لحكومة جزائرية صالحة، فقد تحلّى هذا الأمير بمزايا خلقية وعقلية كبيرة فضلاً عن أنه كان من صميم الشعب الجزائري، فمحنة الغزو الفرنسي تمخضت عن إختيار هذا الأمير الذي تجلّت عبقريته في التنظيمات المختلفة التي أدخلها إلى البلاد، فهناك التنظيمات التي أدخلها في الجيش والتي قسمته إلى مشاة وخيالة ومدفعية، كما عينت رتب الجند ولباسهم، وحددت رواتبهم ومسؤولياتهم وواجباتهم، وبعبارة موجزة يمكننا القول أنه وضع أساساً متيناً لجيش وطني نظامي (٢٣).

وامتدت إصلاحاته الواسعة إلى تنظيم القضاء. فكان هناك منصب قاضي
القضاة الذي يشرف على إدارة القضاء في البلاد، وبطبيعة الحال كان المذهب
المطبق هو المذهب المالكي المنتشر في المغرب العربي. واهتم اهتماماً كبيراً
بالتقافة، وشجع طلاب العلم والعلماء، وعمل على جمع الكتب من كل مكان استطاع
أن يجدها فيه، كما كان الأمير مهتماً بالدعوة إلى التمسك بالدين الإسلامي
الحنيف^(٢٤).

كما أنشأ مجلساً للشورى يتم اختيار أعضائه بالانتخاب لمعاونته في حكم
البلاد، كما أخذ لنفسه لقب " أمير المؤمنين " أو " خليفة سلطان المغرب " ^(٢٥).

وظل الأمير عبد القادر يجاهد الفرنسيين ويشن عليهم الغارة تلو الغارة
محاولاً إخراجهم من وهران ومستغانم، لكن الفرنسيين كانوا قد أعدوا دفاعاً قوياً
لهاتين المدينتين، وبنوا خارجها الحصون فاستعصى عليه فتحهما، واضطر في آخر
الأمر إلى عقد معاهدة يحاول بها أن يضمن عدم توسعهم من الساحل إلى داخل
البلاد، واعترف لهم في هذه المعاهدة بسلطانهم على وهران ومستغانم وتم التوقيع
على هذه المعاهدة ١٧ شوال ١٢٤٩هـ/ ٢٨ فبراير ١٨٣٤م^(٢٦).

لكن الفرنسيين لم يلتزموا بنصوص هذه المعاهدة وشنوا غارة على تلمسان،
فأدى ذلك إلى نشوب الحرب من جديد بين فرنسا والأمير عبد القادر وأدت هذه
الحرب إلى توقيع معاهدة جديدة هي معاهدة " تافنا " وتعين هذه المعاهدة مواقع
إحتلال فرنسا وهي مدن الجزائر، وهران، والبليدة، والقليعة مع المساحات التابعة
لهذه المدن، وتعتزف للأمير بولايتيه على سائر أجزاء الجزائر، مع ما تبقى من
ولاية وهران والجزائر وتلمسان على أن يخرج منها الفرنسيون ما عدا قسنطينية
التي كان يحكمها أحمد باي وغير ذلك من عهود. وقد تم التوقيع على هذه الإتفاقية
٦ ربيع الأول ١٢٥٤هـ/ أول يونيه ١٨٣٨م بين الأمير عبد القادر، والقائد الفرنسي
الجنرال " بيجو " ^(٢٧).

احتلال قسنطينة :

عملت فرنسا على المفاوضة مع الأمير عبد القادر في الغرب، ومع أحمد باشا في الشرق، وانتهت المفاوضة الأولى إلى عقد معاهدة تأفنا، أما المفاوضة الثانية فإن فرنسا قد عرضت فيها الاحتفاظ بمدينتي عنابة وكالو مع ضواحيهما. والإعتراف بسيادتها على كل المنطقة، وأن يدفع لها أحمد باشا ضريبة سنوية كرمز للتبعية، فرفض أحمد باشا هذه الشروط، وكان يأمل في أن تساعد الدولة العثمانية^(٢٨) كما سيأتي فيما بعد إن شاء الله.

وجهت فرنسا إنذاراً إلى أحمد باشا، وبدأت القوات الفرنسية تزحف صوب قسنطينة، وكانت تتكون من (١٢,٠٠٠) جندي، مزودة بست عشرة قطعة ميدان، وسبع عشرة مدفعية حصار، ووصلت هذه الحملة إلى أسوار قسنطينة أول أكتوبر سنة ١٨٣٧م، ولم يحاول مجاهدون قسنطينة الإشتباك مع الفرنسيين قبل وصولهم، بل صمموا على الدفاع عن مدينتهم من داخلها، وتولى أحمد باشا قيادة الفرسان التي عملت على مناوشة الأعداء^(٢٩).

أرسل الجنرال دامريمون القائد العام إنذاراً طالباً التسليم، ولكن الأهالي رفضوه، وفي اليوم التالي قتل هذا الجنرال أثناء تفقده المدفعية بصحبة دوق نامور ابن ملك فرنسا، كما قتل رئيس أركان حرب الحملة، فتولى القيادة الجنرال قالي. وأمر بالاستعداد للهجوم في اليوم التالي، وهجم الفرنسيون على قسنطينة في ١٣ أكتوبر سنة ١٨٣٧م بثلاثة طوابير أفتحمت الفتحات التي أحدثتها المدفعية في أسوار المدينة، ولكن الشوارع كانت مملوءة بالمتاريس وكان الأهالي يطلقون النيران من النوافذ الصغيرة على الجنود الفرنسيين أثناء تقدمهم في الشوارع الضيقة، ولكن تقدم الفرنسيين استمر رغم الخسائر الفادحة التي تكبدوها. ثم أشعلت النيران في مخازن البارود مما تسبب في نسفها، واستمر الالتحام في الشوارع وفي المنازل بشكل مجزرة عامة بين الطرفين إلى أن احتلت قوات الفرنسيين قشلاق الإنكشارية والقصبة فتوقفت المقاومة^(٣٠).

وتعتبر معركة قسنطينة أول معركة حاسمة اشتركت فيها القوات الفرنسية منذ عهد نابليون. وأبقت الحكومة الفرنسية على ثلثة آلاف جندي فرنسي في تلك المدينة. وما إن عاد الجنرال فالي إلى عنابة حتى وجد أمر تعيينه حاكماً عاماً للجزائر بالنيابة، وكانت فرنسا قد رأت فيه قائداً منصرفاً على العكس من بيجو الذي وقع معاهدة تافنا مع الأمير عبد القادر. ولكن الجنرال فالي رفض هذا التعيين، وطلب إعادته إلى فرنسا، فلم يكن أمام حكومة باريس إلا أن ترضيه حتى تستغل انتصاره ولسمعه في شمال إفريقيا. فعينت حاكماً عاماً، وأُعمد عليه برتبة الماريشال^(٢١).

وبدأت فرنسا في استغلال انتصارها إلى آخر درجة ممكنة لصالح تجارتها ونمو مستعمراتها، كما أنه وجد من شيوخ الأهالي من يرغب في التعاون معها ويسهل عليها أمر الإبقاء على إحتلال قسنطينة.

وتعتبر القرارات الصادرة عام ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م هي الأسس الأولى لتنظيم مقاطعة قسنطينة، وقد تركت أثراً كبيراً في تاريخ الجزائر لأنها كانت البداية للعلاقات بين السلطة الفرنسية والأسر الإقطاعية هناك، وقد قسمت المقاطعة إلى إدارتين. إحداهما خاصة بعنابة، والثانية خاصة بقسنطينة. وكانت إدارة الأولى تنقسم إلى دوائر تخضع كل منها لقائد فرنسي يجمع في يديه السلطات العسكرية والمدنية والقضائية، أما بقية المقاطعة فكانت متروكة لسلطة الرؤساء الإقطاعيين من الأهالي الذي قبلوا التعاون مع الفرنسيين. وكانوا يخضعون للقائد العام الفرنسي، وكانوا يجتمعون تحت رئاسته في مجلس إداري، وكان عليهم جمع الضرائب من الأهالي والإحتفاظ بجزء منها كمردب لهم. وكان لهم الحق في الإحتفاظ بقوات محلية خاضعة لهم كحرس غير نظامي يساعدهم في فرض نفوذهم على الأهالي. وكان لهم حق تعيين الشيوخ، وترشيح القادة الذين سيعملون تحت إدارتهم، على شرط موافقة الحاكم الفرنسي على ذلك. وكان هؤلاء الرؤساء يعتبرون رؤساء إقطاعيين أكثر من كونهم موظفين نظاميين، فكان الفرنسيون يعاملونهم على أنهم وكلاء للقائد العام في المقاطعة، وعلى أنهم في مرتبة أمير الألاي في الجيش الفرنسي. وذلك إستمراراً للعمل على النظام العثماني الذي كان

يعتبرهم في مرتبة القائم مقام للواء قسنطينة^(٣٢).

وكان الجنرال فالي مضطراً في حقيقة الأمر إلى إنتهاج هذا النوع من السياسة لأن حكومة فرنسا كانت ترغب في تحديد المنطقة المحتلة في الجزائر، ولم تكن توافق على الميزانيات التي لا تسمح بالتوسع في الداخل. فكان على فالي أن يجد حلاً عملياً وقليل التكاليف.

وأخيراً فإن إحتلال فرنسا لقسنطينة وسيطرتها غير المباشرة على تلك المقاطعة قد سمح لها بالتفرغ من جديد للأمير عبد القادر الجزائري في غرب الجزائر، بعد أن ضمننت إنقسام الجزائر إلى قسمين، وضمننت صعوبة إرسال الإمدادات والمعونات العسكرية من الشرق إلى المجاهدين في غرب الجزائر.

تجدد القتال بين فرنسا والأمير عبد القادر :

بدأت المشكلات بين فرنسا والأمير عبد القادر بمجرد إحتلال مدينة قسنطينة. وقد بعث الأمير عبد القادر عدة خطابات إلى لوى فيليب، وإلى رئيس الوزراء ووزير الحربية في باريس، معلناً رغبته في المحافظة على السلم، على أساس الإحتفاظ بالمعاهدات الدولية، ولكنه لم يستلم أي رد على مراسلاته. فما كان من الأمير إلا أن احتل المناطق المتنازع عليها في مقاطعة تڨيري، ثم احتل وادي الزيتون، وعاقب الأهالي الذين تعاونوا مع الفرنسيين، ولقد خشي الماريشال من سياسة عبد القادر التي كانت ترمي إلى توحيد كل المناطق الجزائرية ومحاصرة الفرنسيين في الساحل. فانتهز فرصة حضور الدوق دوليان إلى الجزائر في سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م ونظم حملة صحبت ولي العهد من فيليب فيل إلى قسنطينة ومنها إلى الجزائر ماراً ببعض المناطق الخاضعة لحكم عبد القادر^(٣٣).

كتب الأمير عبد القادر إلى الماريشال فالي معلماً إياه أنه يعتبر الحملة التي سارت من فيليب فيل إلى قسنطينة ومنها إلى الجزائر نقضاً صريحاً لمعاهدة تافنا، ونصحه بإتخاذ احتياطاته اللازمة للحرب. من منع للمسافرين وسحب لمواقعهم

المنعزلة، إذ أن الحرب قائمة، وكان عبد القادر قد تأكد من سياسة الفرنسيين الترامية إلى الاستيلاء على الجزائر بالتدريج^(٢٤).

قام الأمير عبد القادر بالهجوم على إقليم متيجة، وعمل المجاهدون على إحراق أكواخ المستعمرين وتخريبها واستولى على ماشيتهم، واحتلوا كل الأقليم مما نشر الذعر في قلوب الفرنسيين في مدينة الجزائر، وطلب فالي من حكومته في باريس إرسال المزيد من الإمدادات، فسارعت الحكومة بإرسال (١٢,٠٠٠) جندي، ثم زادت قواته بعد أشهر قليلة إلى (٦٠,٠٠٠) جندي، ولكنه عجز عن إستعادة الأقاليم التي استولى عليها الأمير عبد القادر الجزائري^(٢٥).

في تلك الفترة كان تيير قد استلم مقاليد الحكم كرئيس للوزراء في فرنسا منذ سنة ١٢٥٦هـ/مارس سنة ١٨٤٠م، وكانت فرنسا تجتاز أخطر فترة صافقتها ملكية يوليو، نظراً لفتح باب المسألة الشرقية بسبب العلاقات بين محمد علي والسلطان العثماني، وموقف كل من إنجلترا وروسيا في هذه المسألة، وكان العالم على أبواب حرب عالمية، وكان موقف فرنسا متأثراً بذلك كل التأثير، ولقد حاول أعداء الإستعمار من الفرنسيين إنتهاز الفرصة لمحاولة إجبار حكومتهم على إخلاء الجزائر، ولكن أنصار الإستعمار كانوا أشد قوة، ولقد نادى الجنرال بيجو بتغيير نظام الحاميات المنعزلة والإعتماد على قوات سهلة الحركة في السيطرة على الجزائر، أما تيير فإنه صرح بأن الضرورة تحتم عليه إعلان الحرب على الأمير عبد القادر والتوغل في كل البلاد وإحتلالها إحتلالاً تاماً، بطريقة تسمح لفرنسا بالإحتفاظ بمواقعها في جنوب البحر المتوسط^(٢٦).

وظهر جلياً أن الماريشال فالي ليس هو الرجل الذي يستطيع تنفيذ سياسة فرنسا في الجزائر، فقررت فرنسا تغييره، وعينت بيجو حاكماً عاماً على الجزائر ويعتبر هذا القرار في غاية الأهمية، إذ أنه كان الحد الفاصل بين سياسة الإحتلال الجزئي والاحتلال الكلي للقطر الجزائري.

وصول بيجو إلى مدينة الجزائر سنة ١٢٥٧هـ / ٢٣ فبراير سنة ١٨٤١م، وظل محافظاً على منصبه، كحاكم عام حتى عام ١٢٦٤هـ / ٢١ سبتمبر ١٨٤٧م، مما سمح بالاستقرار في القيادة الفرنسية، كما أيدته وزارة جيزو التي وصلت للحكم في نهاية سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م، وظلت هذه الوزارة تحكم فرنسا حتى عام ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م، مما ساعد بيجو على الاستناد إلى حكومة تؤيده على طوال الخط، طوال حربه مع الأمير عبد القادر، وقد أعطته هذه الحكومة كل ما طلبه من إمدادات فأزداد عدد قواته من (٦٣,٠٠٠) في عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م إلى (٨٣,٠٠٠) في عام ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م، ثم إلى (٩٠,٠٠٠) في عام ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م، ثم إلى (١٠٨,٠٠٠) في عام ١٢٦٣هـ / ١٨٤٦م، وكان هذا العدد الأخير هو ثلث القوات الفرنسية في ذلك الوقت (٣٧).

كما طلب بيجو من الحكومة الفرنسية أن تضع تحت تصرفه مائة ألف جندي ومائة وخمسين مليون فرنك، ثمانون منها للقوات المحاربة، وسبعون للاستعمار. وذلك لمدة ست سنوات حتى يستطيع إقامة حكم فرنسي مستقر في الجزائر (٣٨).

أما الأمير عبد القادر الجزائري فإنه كان سيداً على كل ولاية وهران، ومعظم ولاية الجزائر، وله أعوان في القبائل وولاية قسنطينة، وكانت خزانته الحربية تحتوي على ما قيمته مليون ونصف المليون فرنك من الذهب، وكان جيشه النظامي يتألف من (٨,٠٠٠) من المشاة، وألفين من الفرسان، و(٢٤٠) من رجال المدفعية، وعشرين قطعة مدفعية في حالة جيدة، وكانت القبائل ترسل إليه المتطوعين والمجاهدين في زمن الحرب مما جعله يسيطر على قوة غير نظامية تتكون من (٥٠,٠٠٠) مجاهد، ولكن قواته الأساسية كانت تقوم على جيشه النظامي قبل كل شيء، وعلى إنفاق الشعب حوله في نضاله ضد الفرنسيين، وكان الأمير يعرف أن لفرنسا قوة كبيرة ومجهزة بأحدث الأسلحة والمعدات، ولكنه كان يثق بالله أولاً ثم في قوة شعبه، ولقد اعتمد عبد القادر على حرب العصابات وعلى الكر والفر السريع لإنهاك الفرنسيين ومفاجأتهم

وسلب أسلحتهم ومعداتهم، وكان يهاجم الفرنسيين بسرعة وفي جهات مختلفة، ويستدرجهم إلى الجبال أو إلى الصحاري، ويقطع خطوط مواصلاتهم، وخطوط رجوعهم، وينهكهم بالسير والرجوع، وكل ذلك دون أن يمكنهم من الالتحام مع قواته في معركة فاصلة ثابتة الخطوط، وكان يعمل على القضاء على جزء فجزء من القوات الفرنسية. ولقد طبق هذا التكتيك بنجاح لمدة سبع سنوات، وكان يأمل في أن يساعده الزمن والمناخ بعد الله على القضاء على اللياليين من الفرنسيين، أو يضطرهم إلى الانسحاب إلى الساحل أو إلى بلادهم الأصلية، خصوصاً وأن حالة الفرنسيين منذ وصولهم مدينة الجزائر من إحدى عشرة سنة مضت كانت تقوى عنده ذلك الأمل^(٢٩).

وكانت خطة ييجو تتلخص في إحتلال المواقع التي حصنها عبد القادر، وفي إمتباحة القبائل التي خضعت له، وإجبارها مادياً على التخلي عن ولايتها، واتخذت حملة ربيع سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م مدينة المعسكر عاصمة عبد القادر هنفاً لها، وأرسل ييجو المؤن والذخائر إلى ميديا وملينا واتخذها قاعدتين أماميتين له، ثم هاجم عاصمة عبد القادر القديمة، وهدمها، ثم واصل للزحف على مدينة المعسكر. وقد رأت القبائل المالية لعبد القادر أن الفرنسيين يحرقون محاصيلها، ويستولون على مواشيها وأغنامها، وعمل الفرنسيون في بعض الجهات على حصد القمح والشعير الذي زرعه الأهالي وصادروه، وخرج ييجو على رأس قوات كبيرة وعمل على تخريب الإقليم الذي ولد فيه عبد القادر، وهدم الزاوية التي تعلم فيها، ولم يذق الجنود طعم الراحة لمدة شهرين، وبليت لحثيتهم فساروا حفاة الأقدام، تاركين وراءهم للخراب والدمار، وثبتوا أنهم يطلبون الخضوع التام، أو إجبار الأهالي على الجوع، أو إستلام البلاد بغير مكافأة^(٣٠).

حاول ييجو في عام ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م الإشتباك مع القوات النظامية للأمير، فهاجم تلمسان وأعاد إحتلالها، وأرسل طوابير إلى مناطق ندرومة والمعسكر ومستغانم، وقد استطاع أن يقيم المواصلات البرية لأول مرة بين ولاية الجزائر وولاية وهران عن طريق وادي الشليف، إلا أن قوات عبد القادر هاجمت أحد الطوابير الفرنسية الذاهبة إلى بليدا وقضت عليها فما كان من الفرنسيين إلا أن استباحوا القبائل المحيطة

بميتاحله وخرج طليوير قرتسي من مدينا يعقيلة اللوق هومال، إين ملك قرتسا، واتجه جتورياً يباحثاً عن قاعنة الأمير عبد القادر، وكانت هذه القاعدة عبارة عن مدينة كبيرة من اللخيام يعيش فيها أهله وعشيرته، وأسر المجاهدين للتظلميين، وقد علم أن قاعدة الأمير تقع عند منبع "الطنجين" فهاجمها بالفرسان وأخذ ثلاثة آلاف أسير مع كمية كبيرة من الغنائم. فاقع الملك برتبة للفريق على إبنه، وأرسل بعضا المارنشالية لبيجو في سنة ١٢٥٩هـ / آخر يوليو ١٨٤٣م، كما نجح الفرنسيون في قتل مبارك، قائد الجزائريين الشهير والساعد الأيمن للأمير عبد القادر وذلك في المعركة التي وقعت عند سيدي يحي سنة ١٢٥٩هـ / ١١ نوفمبر ١٨٤٣م، وكانت هذه الضربة لقوى عند الأمير من فقدته قاعنته، واضطر بعدها للإلتجاء إلى المغرب، خصوصاً وأن القمح والذخائر كانت تنقصه لمواصلة جهاده ضد الفرنسيين^(٤١).

كان إلتجاء عبد القادر إلى المغرب أمراً يثير المشكلات أمام فرنسا، ويهددها بقيام حركة تحررية كبرى في شمال إفريقيا تقذف بقواتها إلى البحر، وكانت فرنسا تعرف أن المولى عبد الرحمن سلطان المغرب يؤيد الأمير عبد القادر ويعطيه الإمدادات اللازمة، ولكنها كانت تعرف كذلك أن السلطان يخشى إزدياد نفوذ الأمير في المغرب، وسارت القوات الفرنسية غرباً مدعية البحث عن قوات عبد القادر ووصلت إلى "لامغنية" وأقامت هناك نقاطاً عسكرية، ولكن هذا الموقع كان داخل الإمبراطورية الشريفة مما أضطر السلطان تحت ضغط الرأي العام، إلى إرسال قوة عسكرية إلى جوار وجده بقيادة القائد القناوي^(٤٢).

ويعتبر زحف القوات الفرنسية حتى لامغنية تحريشاً سافراً بالمغرب وعملاً لا يقصد من ورائه إلا البحث عن المشكلات، ووقع إشتباك بين المغاربة والفرنسيين سنة ١٢٦٠هـ / ٣٠ مايو ١٨٤٤م بالقرب من سيدي عزيز في الشرق الغربي لمغنية. ولم ينجح المؤتمر الذي عقد بين ممثلي الطرفين يوم ١٥ يونيو على ضفاف نهر المولوية في الوصول إلى نتيجة، فصمم بيجو على الزحف على وجده وإحتلالها للضغط على سلطان المغرب وإجباره على تسليم الأمير عبد القادر أو طرده من

المغرب كما طلبت فرنسا عن طريق سفيرها في لندن أن يشرح للوزارة البريطانية ويؤكد لها أن هدف فرنسا هو ألا يصبح المغرب ملجأ وملاداً لعبد القادر، يتزود فيه بالقوات لكي يوالي الحرب ضدها. وقد هاجم الرأي الإنجليزي سياسة فرنسا وخشي أن تتدخل في المغرب بنفس الشكل الذي تدخلت به في الجزائر، مما اضطر جيزو أن يعلن صراحة بأنه لا يهدف إلى إحتلال أي جزء من الأراضي المغربية^(٤٣).

وتجدد القتال بين المغاربة والفرنسيين، وكانت القوات المغربية بقيادة سيدي محمد بن السلطان تشمل على (٦,٠٠٠) من الفرسان النظاميين و(١,٢٠٠) من المشاة، وعدد كبير من الفرسان المتطوعين يصل عددهم إلى ٤٠ أو ٥٠ ألف مجاهد أما القوات الفرنسية فكانت تحت إمرة بيجو، وكانت تتكون من ١٨ كتيبة مشاة و١٩ آلي من الفرسان. أي ما يبلغ (١١,٩٠٠) جندي، و١٦ مدفع، وكان الجيش الفرنسي يمتاز على الجيش المغربي بحسن النظام وبحدائث الأسلحة، وبكمية النيران، علاوة على التكتيك، ما يقلل من أهمية العدد عند المغاربة، وانتهت المعركة بتقهقر قوات المغرب، وقد سهل عليهم ذلك الانسحاب كون غالبيتهم من الفرسان، ولكنهم تركوا بميدان المعركة (٨٠٠) شهيداً، وبعض قطع المدفعية، أما خسارة الفرنسيين من الجرحى فكانت أكثر من خسارتهم من القتلى^(٤٤).

كما قامت فرنسا بهجوم بحري على سواحل المغرب، وضربت طنجة بالقنابل، ولكن انجلترا تدخلت وأعلنت أن إحتلال أي نقطة من الأراضي المغربية سيكون سبباً للحرب مع فرنسا^(٤٥).

طلبت حكومة المغرب الصلح، وقامت المفاوضات بينهما، وجاءت معاهدة طنجة الموقع عليها سنة ١٢٦٠هـ / ١٠ سبتمبر ١٨٤٤م صورة طبق الأصل من الإنذار الذي وجهته فرنسا للمغرب. إذ أن السلطان قد تعهد فيها بأن يسجن عبد القادر في إحدى المدن المغربية في حلة ولوعه بين يديه، أما تحديد الحدود المغربية للجزائر فكان موضوع إتفاقية أخرى وقّع عليها في اللامتية سنة ١٢٦١هـ / ١٨ مارس سنة ١٨٤٥م، وهكذا سمحت معاهدة طنجة واللامتية لفرنسا بفرغ لحرب عبد القادر والمجاهدين لجزائريين^(٤٦).

أما الأمير عبد القادر الجزائري فقد أنصرف عنه بعض أعوانه، ولم يبق معه إلا من كان أصلبهم عوداً وأشدهم حباً وثباتاً في الجهاد في سبيل الله. وقد ساعدت قسوة الفرنسيين ووحشيتهم ضد الأهالي على تثبيت المجاهدين في تحرير بلادهم والإنقاذ من اعتداءات جنود الاحتلال، وكسبت فرنسا في إتفاقها مع سلطان المغرب، ولكنها خسرت نتيجة لإستخدام العنف والوحشية ضد الأهالي، وليس أدل على ذلك من الطريقة التي أستخدمها أحد القادة الفرنسيين لإعطاء مثل على قسوته أن أشعل النار في مدخل مغارة كان قد التجأ إليها بضع مئات من الجزائريين مع نساءهم وأطفالهم - ومواشيهم، ولم يأت الصباح حتى كان الجميع قد قضى عليهم بالإختناق، ولقد تسببت هذه الجريمة في إثارة جزء من الرأي العام في فرنسا نفسها، وكانت سبباً في زيادة تصميم الجزائريين على الجهاد والكفاح رغم تخلي المغرب عنهم.

في إثارة جزء من الرأي العام في فرنسا نفسها، وكانت سبباً في زيادة تصميم الجزائريين على الجهاد والكفاح رغم تخلي المغرب عنهم.

وهكذا نرى قيام حركات بقيادة بعض الشيوخ المحليين والدينيين في جهات متعددة من الجزائر نادت كلها بالجهاد ضد الفرنسيين وساعد بعضها بعضاً في ذلك، وقد استطاع الأمير أن يقضي على قوة فرنسية كبيرة بالقرب من سيدي إبراهيم بكل ماأشتملت عليه من ضباط وجنود سنة ١٢٦١هـ / ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٤٥ م، وحاصر قوى أخرى في نفس المنطقة وضيق عليها الحصار حتى سلم من بقي منها ومن بينهم الأسرى الجزائريون. وقد كان من أثر هذين الإنتصارين أن سلمت القوة الفرنسية المراقبة في سيدي موسى بالقرب من عين تموشنت للأمير عبد القادر دون أن تحارب، وازدانت نيران الثورة الجزائرية إستعلاء في كل مكان مما اضطّر بيجو أن يعود بسرعة من فرنسا إلى الجزائر، ولكنه فشل في تطويق عبد القادر والمجاهدين الجزائريين^(٤٧).

ويمكن إعتبار عامي ١٢٦١-١٢٦٢هـ / ١٨٤٥-١٨٤٦م من أصعب السنوات التي أمضتها القوات الفرنسية في الجزائر، ولولا وجود القيادة في أيدي المارشال بيجو

واجباره لجنوده على سرعة الحركة في الهجوم والتفكير والإنقاذ، ولولا ضخامة عدد المقاتلين الفرنسيين تحت إمرته، وحسن تدريبهم وتسليحهم وتفوقهم في كمية النيران والتكتيك والإمداد والتمويل لما تمكنت فرنسا من البقاء في الجزائر، وكانت القوات الفرنسية تخرج من مدينة الجزائر في ثياب جديدة، نشطة وكاملة التزود، وتعود إليها بعد شهور في ثياب بالية وبوجوه يظهر عليها الإعياء والتعب، ولكن فسوة الفرنسيين في حربهم ضد الجزائريين أنهكت قوى المجاهدين أيضاً. ونشرت الفقر والخراب في أنحاء الجزائر مما قلل من قوة مقاومة الجزائريين، وكان الحصار البحري المفروض على سواحل الجزائر مع الحصار البري المفروض على الحدود الغربية والشرقية يقلل من وصول الأسلحة والإمدادات إلى المجاهدين.

كما نشب خلاف بين بيجو وحكومته في باريس، وأخذ بيجو يشكو من أن حكومته منعه من تعقب عبد القادر داخل الأراضي المغربية، ومن إرسال حملة لإخضاع منطقة القبائل، وسحبت منه حق توزيع الأراضي على المستعمرين في المنطقة المحيطة بمدينة الجزائر، ورفضت إعطائه مبلغ ثلاثة ملايين فرنك لإنشاء مستعمرات لقنماء المحاربين، وللمسرحين من الجنود، وكان لوي فيليب يرغب في أن يعين ابنه الدوق دومال حاكماً عاماً على الجزائر لاعتقاده بأن قوات عبد القادر قد ضعفت وأن فترة الغزو قد انتهت وستتلوها فترة الإدارة والاستعمار ما يسمح بتقليد هذا المنصب لابنه، فاستقال المارشال بيجو الذي حصل خلال حربه في الجزائر على أعلى رتبة (المارشالية)، ثم عين الملك ابنه حاكماً عاماً سنة ١٢٦٤هـ / ١١ سبتمبر سنة ١٨٤٧م^(٤٨).

وقامت فرنسا بالضغط السياسي على سلطان مراكش وأبلغته أن قواتها ستدخل حدود المغرب لتعقب الأمير عبد القادر والمجاهدين الجزائريين سواء سمح هو بذلك أو لم يسمح، فما كان من السلطان إلا أن أمر عبد القادر بتسريح قواته والحضور بنفسه إلى مدينة فاس، ولما رفض الأمير هذا الأمر مستنداً إلى تعصيد العلماء له، أرسل سلطان المغرب قوة عسكرية لتنفيذ أمره في نفس الوقت الذي وضع فيه الفرنسيون خمسة آلاف جندي على الحدود عند اللامغنية لإنتظار خروج عبد القادر من الأراضي

المغربية، وحارب عبد القادر قوة المغاربة، وأنزل بها خسائر فاحشة، ولكنه اضطر إلى التقهقر صوب الحدود ثم عبر المولوية ولكنه اضطر إلى أن يحارب من جديد. ثم نصح مجاهديه في آخر الأمر أن يفرقوا وتابع هو سيره جنوباً محاولاً النخول في الأراضي الجزائرية^(٩٩).

وكانت القوات الفرنسية تعلم كل حركات الأمير، وكانت قد أقامت له النقاط العسكرية على طول الحدود، مما اضطره إلى طلب التسليم على أساس وعد بالسماح له بالسفر إلى الإسكندرية أو عكا، وقد قبل الفرنسيون هذا الشرط، واستقبلوه إستقبالاً يليق بخصم شهيم، وبرئيس دولة محاربة، وبقائد جيش شجاع، ثم جاء الدوق دومال بنفسه لقبول إستسلام الأمير، وقبل منه فرسه السوداء التي كانت كل ما يملك ويحب من حطام للدنيا^(١٠٠).

تم إستسلام الأمير عبد القادر سنة ١٢٦٤هـ/أواخر ديسمبر سنة ١٨٤٧م، ولكن فرنسا لم تنفذ وعدها بالسماح له بالسفر إلى الشرق إلا في عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م وذلك بسبب نشوب ثورة فبراير سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م. وقد استقر به الأمر في مدينة دمشق هو وأسرته بعد أن أمضى خمسة عشر عاماً في الجهاد ضد المحتل الأجنبي، وبعد أن أثبت أنه رجل سياسي ماهر، وقائد محنك، وإداري وحاكم ووطني مستبتر^(١٠١).

وكما أن إستيلاء القوات الفرنسية على مدينة الجزائر قد سبق سقوط شارك العاشر ببضعة أشهر، نجد أن إستسلام الأمير عبد القادر قد سبق سقوط لوي فيليب بفترة وجيزة، وكان من أولى نتائج الثورة عزل الأسرة المالكة ونفيها من الأراضي الفرنسية، وتعيين خليفة للدوق دومال في الجزائر. فتركها إلى إنجلترا مصحوباً بأخيه دوق جرانفيل قائد البحرية السابق في غرب البحر المتوسط، أما الجزائر فإنها قد أصبحت فريسة سهلة أمام رجال الإرادة الفرنسية ورجال الإستعمار فاستخدموها حقلاً لتجار بهم.

موقف الدولة العثمانية من الاحتلال الفرنسي للجزائر :

كانت الدولة العثمانية تمر بظروف سيئة للغاية في عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥ هـ / ١٨٠٨-١٨٣٩ م) حيث كثرت الفتن والإضطرابات الداخلية في الدولة العثمانية، وخاضت الدولة معارك هائلة في الداخل والخارج. مثل معاركها مع تابعها محمد علي في مصر، وحروبها ضد أسرة القرملي التي أسقطت بطرابلس، وتهدة بعض الفتن والثورات الداخلية في بلاد الشام والعراق. بالإضافة إلى الحروب الخارجية مع روسيا واليونان. مما أثقل كاهل الدولة عسكرياً، خاصة أن هذه الحروب قد جاءت بعد قضاء السلطان محمود الثاني على الجيش الإنكشاري عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٦ م.

وكانت الجزائر ولاية عثمانية تتبع الباب العالي في إسطنبول. إلا أنها كانت تتمتع بحكم ذاتي داخلي أعطي لها منذ أيام الدايات، ورغم هذا فإن الجزائر لم تطلب في وقت من الأوقات الانفصال عن الدولة العثمانية بل كانت تعتر بالإنسحاب إليها والإرتباط بها على الرغم من مخالفتها في بعض الأحيان الأوامر الصادرة عن إسطنبول^(٥٢).

وحينما علم السلطان محمود الثاني بأن الخلاف بين الجزائر وفرنسا قد وصل إلى القمة، وأن الإستعدادات في فرنسا تجري على قدم وساق من أجل غزو الجزائر وإحتلالها. اتخذت عدة أساليب من أجل الحيلولة دون هذا الإحتلال. وأصدر أمراً إلى مفتي الجزائر السابق الذي كان يقيم في مدينة إزمير الشيخ خليل أفندي وزوده السلطان بعدة مقترحات من أجل حل الأزمة القائمة بين الجزائر وفرنسا وكلفه بالسفر إلى الجزائر من أجل هذه المهمة. إلا أن مهمة خليل أفندي قد فشلت لتصميم فرنسا على الإحتلال^(٥٣).

لجأ السلطان محمود بعد فشل مهمة خليل أفندي إلى أسلوب آخر أكثر فعالية. حيث استدعى السفير البريطاني في إسطنبول، وطلب منه أن ينقل إلى حكومته في لندن

رغبة الدولة العثمانية في رفع الحصار البحري الفرنسي عن الجزائر، وأن تقوم بريطانيا بدور الوساطة بين فرنسا والجزائر. وكان السلطان يعلم مدى التناقض الشديد بين كل من بريطانيا وفرنسا. لذلك حاول السلطان أن يشرح للتفسير البريطاني خطورة الاحتلال الفرنسي للجزائر وأن هذا سيضر بالمصالح العثمانية والبريطانية على حد سواء^(٥٤).

غير أن الحكومة البريطانية لم ترد على طلب السلطان. فعمد الأخير إلى كتابة رسالة إلى الحكومة البريطانية سلمها السفير العثماني إلى وزير خارجية بريطانيا، وقد ألح السلطان في رسالته هذه على سرعة التدخل، وذكر حكومة لندن موقفها المشرف من حملة نابليون بونابرت على مصر الذي لا يزال كل مسلم من رعايا الدولة العثمانية يذكره بالشكر والتقدير، وختم السلطان محمود رسالته بأنه واثق كل الثقة من سرعة تدخل بريطانيا لمصالح الدولة العثمانية^(٥٥).

أهتمت بريطانيا بأمر الحملة الفرنسية على الجزائر. لأنها لا تريد أن تطأ الأقدام الفرنسية المناطق الكائنة ما بين مالطة وجبل طارق، بل لا تريد دخول فرنسا منطقة الشمال الإفريقي. فكيف تستريح وتستقر وهي ترى عدوتها الأولى ومنافستها الوحيدة تريح الجولة. وبناءً عليه قد بذلت بعض المصاعى في كل من باريس والجزائر. ويستتبول لإيقاف هذا العمل الحربي. ثم لجأت بعد ذلك إلى الوعد والتهديد لفرنسا إذا هي أهتمت على مثل ذلك العمل. فرد الملك الفرنسي على آراء الحكومة البريطانية بقوله: "نحن لا نتدخل في شئون إنجلترا وعليها ألا تتدخل في شؤوننا"^(٥٦).

ولم يكتف السلطان بإستثارة الحكومة البريطانية بل أصدر تعميماً إلى جميع السفراء العثمانيين في العواصم الأوروبية كلّفهم بمناشدة تلك الدول سرعة التدخل لإيقاف الزحف الفرنسي على الجزائر الذي يهدد الملاحة الدولية في البحر المتوسط. وختم السلطان تعميماته هذه بنوع من التهديد. إذ أن معظم الدول الأوروبية الكبرى تحتل بلاداً إسلامية وشعوباً مسلمة في كل أنحاء الأرض. ولن تقف تلك الشعوب الإسلامية مكتوفة الأيدي إزاء هذا الاحتلال، ويخشى - السلطان - من قيام حرب عالمية لا تنطفئ إلا بعد أن يكتوي الجميع بنارها^(٥٧).

هال السلطان محمود الصمت المروع الذي لاذت به الدول الأوروبية، فقرر إرسال أحد كبار رجال الدولة العثمانية من أجل التفاوض والوصول إلى حل يرضي الطرفين، وأرسل طاهر باشا قائد الأسطول العثماني في معركة نفارين. وحمله مذكرة فيها مقترحات الصلح. ولكنه وصل متأخراً إذ كان الجيش الفرنسي يحاصر مدينة الجزائر، وتوجه طاهر باشا إلى قائد الأسطول الفرنسي، وعرض عليه شروط الصلح، فرد عليه قائد الأسطول أن هذه الشروط يجب عرضها على المجلس الملكي في باريس، أما قائد الجيش الفرنسي فقد رفض مقابلة طاهر باشا، وأمر بترحيله إلى ميناء طولون في فرنسا في حراسة عسكرية مشددة، وكان الغرض الحقيقي إبعاد طاهر باشا حتى يتم الإحتلال^(٥٨).

أصبحت الدولة العثمانية بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر أمام أمر واقع مؤلم، ومما زاد في ألمه أن الدولة لا تملك جيشاً قوياً تحارب به الفرنسيين. إضافة إلى ذلك أنها لازالت تعاني من بعض المشكلات والثورات الداخلية. لكن رغم ذلك كله لم تستسلم الدولة العثمانية بل بذلت كل ما تستطيع عليه من مساع دبلوماسية وعسكرية.

بعث السلطان محمود الثاني بعدة رسائل إلى جهات مختلفة، وقد عثرت على بعضها أثناء بحثي في الإرشيف العثماني منذ سنوات طويلة. وسوف استعرض بعضها بإيجاز شديد إن شاء الله تعالى.

أرسل السلطان محمود الثاني رسالة مؤرخة في ٢٩ محرم سنة ١٢٤٦هـ/ الموافق ٢١ يوليو سنة ١٨٣٠م موجهة إلى علماء الجزائر وأهل الحل والعقد فيها يحثهم على التضحية والإستبسال والجهاد في سبيل الله، وينكرهم فيها بما أعده الله للمجاهدين من أجر كبير وخير وفير في الدنيا والآخرة، كما ينكرهم بجهاد أسلافهم الأوائل، وما فعله إخوانهم المصريون الذين أجبروا القوات الفرنسية على مغادرة مصر وهي تجر أنيال الخيبة والخسران والعار، وقد وعد السلطان في هذه الرسالة أهل الجزائر بوقوف الدولة العثمانية إلى جانبهم بعد أن تتخلص من بعض المشاكل الداخلية^(٥٩).

كما بعث الداي أحمد حاكم قسطنطينية برسالة إلى السلطان محمود مؤرخة في سنة ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م يستجد فيها بالدولة العثمانية، ويشرح فيها ضعف الإمكانيات التي يملكها للدفاع عن قسطنطينية، ويُلحّ على السلطان في سرعة إرسال الأسطول العثماني أو جيش قوي يمنع سقوط هذه المدينة في أيدي الأعداء^(١٠).

وجه السلطان محمود رداً على أحمد باي قسطنطينية في نفس السنة بطمئنه بقوة تحصينات المدينة وقوة المدافعين عنها، وأنه يثق بخبرة الداي وتجربته في ميدان المعارك، كما ذكر السلطان في رسالته بأنه سيبعث قطعاً من الأسطول العثماني للدفاع عن المدينة من جهة البحر، كما بطمئنه بأنه سيبعث بجيش بري يصل إلى الجزائر عن طريق طرابلس وتونس، ولن تسقط المدينة في أيدي الأعداء بإذن الله كما قال السلطان^(١١).

وحينما رأى السلطان إنتصارات الفرنسيين في الجزائر، وإستماتت أهل البلاد في الدفاع عن دينهم وأرضهم وأموالهم وأعراضهم، وحينما رأى صمت الدول الأوروبية عن الأعمال الوحشية التي أرتكبتها قادة الجيش الفرنسي في الجزائر أعلن الجهاد في سبيل الله، وأيده العلماء والفقهاء الذين رأوا حسب تعاليم الدين الإسلامي أن الجهاد أصبح فرض عين إذا حل الكفار بديار المسلمين، وأمر السلطان بأن تقرأ هذه الفتوى في خطب الجمعة وأماكن تجمع الناس^(١٢). وكان لهذا الإعلان صدى كبير في جميع أنحاء الدولة العثمانية، فتوافدت وفود المجاهدين من كل مكان. من الاناضول، وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، ومصر وبقية بلاد شمال إفريقيا. التي كانت تتوقع أن يحل بها ما حل بالجزائر، وانظم بعض هؤلاء المتطوعين إلى أحمد باي قسطنطينية، والبعض الآخر إلى الأمير عبد القادر الجزائري، والبعض الثالث واصل الجهاد تحت قيادة بعض العلماء والفقهاء بغية النصر أو الشهادة.

وكانت نقطة الضعف في المقاومة الجزائرية الفرقة، وعدم وحدة القيادة، فأحمد باي قسطنطينية يجاهد في شرق الجزائر، والأمير عبد القادر في غرب الجزائر، وبقية المتطوعين من أنحاء الدولة العثمانية ورجال القبائل متفرقين في أنحاء البلاد. فكان

يعوزهم القيادة الموحدة، خاصة وأن الجيش الفرنسي يتبع بقيادة موحدة وأسلحة متطورة. وعقب توقيع معاهدة تافنا بين الأمير عبد القادر الجزائري والقوات الفرنسية عام ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م بعث السلطان محمود الثاني برسالة حملها القائد العثماني نجيب باشا إلى الأمير عبد القادر، أبدى فيها السلطان إعجابه الشديد بمهارة الأمير وحسن قيادته السياسية والعسكرية التي سوف تحقق النصر المؤزر للإسلام والمسلمين في الجزائر، ويطلب السلطان من الأمير بذل المزيد في الجهاد حتى لا تقوم للنصارى قائمة بعد اليوم، ويكون مصيرهم نفس المصير الذي تلقوه في مصر. وذكر السلطان في رسالته هذه بأنه تم إرسال كميات كبيرة من الأسلحة الخفيفة والبارود... ويستوضح السلطان عما إذا كانت هذه الأسلحة والإمدادات قد وصلت للأمير أم لا^(١٢). ولم أجد في الإرشيف العثماني أو في المصادر والمراجع التركية والجزائرية ما يشير إلى ذلك. وقد يكون الجيش الفرنسي قد استولى عليها.

هذا من ناحية الجهود السياسية والدبلوماسية التي بذلها السلطان محمود الثاني من أجل حل مشكلة الجزائر.

ولم تقتصر جهود الدولة العثمانية على الناحية السياسية فقط بل تداخل معها جهود عسكرية أشير إلى بعضها إشارة سريعة.

بعد أن فرغت الدولة العثمانية من تسوية مشكلاتها مع محمد علي والي مصر في عام ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٢ م عقب حرب الشام الأولى بعقد صلح كوتاهية عام ١٢٤٩ هـ / ٨ أبريل (نيسان) عام ١٨٣٣ م حاولت استخدام القوة لاسترداد الجزائر من فرنسا، وكان مما شجعها على اللجوء إلى الحرب أن فرنسا لم تكن وطدت نفوذها في الجزء الشرقي من الجزائر، وفي الأقاليم الداخلية مثل قسنطينة، ولكن كانت فرنسا تعلم تماماً أنه ليس في مقدور الأسطول العثماني ولا الجيش العثماني خوض معارك ضد قواتها المسلحة، وفي هذه الفترة نجحت الدولة العثمانية في إنهاء حكم أسرة القرمانلي في طرابلس (ليبيا) عام ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م وأعادت هذه النيابة إلى الحكم العثماني المباشر. واستغلت الدولة هذا الوضع الجديد في نيابة

طرابلس وأعلنت عن عزمها إرسال قوات برية من الأناضول إلى طرابلس تزحف في الداخل عبر الأراضي التونسية إلى الجزائر للإشتراك في الدفاع عن قسنطينة التي كان يدافع عنها الحاج أحمد باي قسنطينة، وطلبت الدولة العثمانية من باي تونس تسهيل مرور القوات العثمانية البرية عبر أراضيها من طرابلس إلى الجزائر، كما أراد الباب العالي منح رتبة الباشوية لأحمد باي قسنطينة لتوطيد مركزه تجاه الفرنسيين، وليزداد أهل الجزائر التفافاً حوله. فتلقى الباب العالي إنذاراً من الحكومة الفرنسية جاء فيه أن منح الحاج أحمد هذا اللقب سيؤدي إلى عواقب وخيمة، وطلبت أن يكف الباب العالي فوراً عن تدخله في موضوع قسنطينة، كما أبلغت فرنسا الحكومة العثمانية أن باريس لن تغض الطرف عن تعيين والٍ معادٍ لها في تونس، وإذا أرسلت الحكومة العثمانية قوات عسكرية إلى باي قسنطينة فإن فرنسا تعتبر نفسها في حالة حرب مع الدولة العثمانية^(٦٤).

وعلى الرغم من هذه التهديدات الفرنسية المستمرة والمتلاحقة. فقد دخلت الدولة العثمانية في تجربة جديدة ومحدودة، وأرسلت بعض وحدات من أسطولها بقيادة فوزي باشا إلى ميناء طرابلس في عام ١٢٥٣هـ / أواخر شهر يوليو (تموز) عام ١٨٣٧م، ثم واصل الأسطول سيره إلى ميناء تونس، وردت الحكومة الفرنسية بتوجيه أسطولها في سبتمبر (أيلول) إلى ميناء تونس بحجة حماية مصالحها في حوض البحر المتوسط، وكان من المقرر أن يجري فوزي باشا إتصالات مع مصطفى باشا باي تونس. ولكن تهرب الأخير من مقابلة مندوبية تحت ضغط الأسطول الفرنسي، وخشي السلطان محمود الثاني أن يتحرش الأسطول الفرنسي بالأسطول العثماني قبل وصول الإمدادات الجديدة من إسطنبول. وظل الأسطول العثماني رابضاً في مياه طرابلس وتجنب الإقتراب من المياه التونسية. ولذلك لم تطل مدة مكث الأسطول العثماني في مياه طرابلس، فزار مالطة ثم أفلح في سبتمبر (أيلول) من السنة نفسها إلى إسطنبول، وظل الأسطول الفرنسي يقتضي أثره حتى مضيق الدردنيل^(٦٥).

هذه هي إمكانيات الدولة العثمانية وجهودها تجاه الجزائر، وهي جهود تشكر عليها. لأن الدولة قد شاخت وهرمت وأصبحت غير قادرة عن الدفاع عن نفسها أو عن عاصمتها إستانبول، وقد صاحب هذا الضعف في الدولة العثمانية كثرت التمرد والثورات الداخلية كما ذكرت سابقاً حتى لم يكد يثار قطر من أقطار الدولة العثمانية من ثورة أو تمرد.

ولفني أختلف إختلافاً كاملاً مع ما ذكره الأستاذ ساطع الحصري في كتابه البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٥٨ حيث ذكر أن الدولة العثمانية التزمت موقف الحياد التام " في الخصام الذي قام بين فرنسا والجزائر حتى أنها لم تحتج على عمل فرنسا، ولو احتجاجاً صورياً. وذلك على الرغم من تصريحاتها المنكرة بأن القطر الجزائري ملك للدولة العلية. وبأن أهلها من تبعه الدولة العثمانية. وبأن حكام الجزائر لم يأتوا بعمل يخالف رضاء الله وينافي إرادة السلطان. وكل شيء يدل على أن رجال الدولة كانوا قد زعموا أن واجبهم نحو فرنسا يعادل واجبهم نحو الجزائر. ولذلك لم يجنوا في استيلاء الفرنسيين على تلك البلاد ما يستوجب التأثير والإعتراض^(٦٦)

وهذا القول غير صحيح ومنافي للحقيقة والواقع التي أثبتتها المصادر والمراجع العربية والتركية والأجنبية.

الهوامش

- (١) عن كيفية دخول الجزائر في الحكم، وسياسة الدولة العثمانية فيها أنظر :
 - عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، العصر الإسلامي، الناشر الدار القومية
 للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦ م، ص ٤٨٧ - ٥٠٠
 - ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. طبعة ليدن
 ١٩٤٨ م، ج ١ و ٢.
 - صلاح العقاد : المغرب العربي، الجزائر - تونس - المغرب الأقصى دراسات
 في تاريخه الحديث ومشاكله المعاصرة. مكتبة الأنجلو
 المصرية ١٩٦٢ م، ص ٢١ و ٢٢.
 - زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية. بيروت،
 لبنان ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ص ٤٨٨ وما بعدها.
 - إسماعيل ياغي ومحمود شاكور: تاريخ العالم الإسلامي، الجزء الثاني،
 دار المريخ للنشر ١٤٠٣ هـ، ص ١١٩.
 (٢) إسماعيل ياغي ومحمود شاكور : المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٥.
 (٣) رافت غنيمي الشبخ: في تاريخ العرب الحديث، دار الثقافة بالقاهرة، ص ٣٨٦.
 (٤) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير
 البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٧، ص ٦٢٠.
 (٥) رافت غنيمي الشبخ : المرجع السابق، ص ٣٨٦.
 (٦) حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي : الجزائر مشكلة نولية (كتب سياسية)، دار
 القاهرة للطباعة، ص ١٢.
 عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥ - ١٩٦٠ م، القاهرة
 ١٩٨٢ م، ص ٢٧.
 (٧) جلال يحيى : السياسة الفرنسية في الجزائر، دار المعرفة، الطبعة الأولى،
 ١٩٥٩ م، ص ٦١.
 محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل بيروت
 ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ص ٢٣٢.

- (٨) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، دار المعارف بمصر، ص ١١٩.
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، دار المتنبي، الدوحة، ص ٢٢٢.
- أبو القاسم سعد الله : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الطبعة الثانية ١٩٧٦م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ٢٤.
- (٩) سيمون بفايفر : منكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، ترجمة أبو العيد ودود، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٢م، ص ٥٧ و ٥٨.
- (١٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، ص ١٨٩.
- أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر، ج ٣، دار الشعب ص ٩٥٣ و ٩٥٤.
- (١١) جلال يحيى : المرجع السابق، ص ١٢١.
- (١٢) نقولا زيادة : قصة الإستعمار في العالم العربي، منشورات الفاخرية، الرياض، ص ٣٩.
- (١٣) تقع هذه الجزيرة على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً من الجزائر.
- (١٤) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، ص ١٢٤ و ١٢٥.
- (١٥) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، ص ١٢٤ و ١٢٥.
- (١٦) أنظر نص الإتفاقية في :
- محمد عبد القادر الجزائري : تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. شرح وتعليق معدوح حقي، بيروت ١٩٦٤ م، ص ١٣٤ و ١٣٦.
- (١٧) نقولا زيادة : المرجع السابق، ص ٤١ و ٤٢.
- (١٨) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث. دار النهضة العربية ١٩٧٠، ص ٤١١.
- (١٩) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١ ص ١٢٧.
- (٢٠) أحمد الخطيب : الثورة الجزائرية، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٥٧ وما بعدها.

(٢١) ولد الأمير عبد القادر عام ١٢٢٢هـ مايو (أيار) عام ١٨٠٧ م في قرية القيطنة التابعة لإيالة وهران، وكان والده من كبار العلماء في الجزائر حفظ القرآن الكريم وهو صغيراً، واشتهر في السابعة عشرة من عمره بشدة البأس، وقوة البدن والفروسية حتى كان يُسار إليه بالبنان بين الفرسان لمهارته في ركوب الخيل. وفي عام ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م سحب والده إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج، ومرا في طريقهما بالإسكندرية، وزارا القاهرة، وفيها محمد علي باشا فأكرمهما، ومن القاهرة قصدا الحجاز عن طريق السويس، وعرجا بعد الحج نحو دمشق فضا فيها زمناً وسارا منها إلى بغداد، ثم عادا من هناك إلى الحرمين الشريفين ثانية، ومنها إلى وطنهما فوصلاه في أوائل عام ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م. لمعرفة المزيد عن الأمير عبد القادر أنظر :

(لوتروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي. ترجمة عجاج نويهض، تعليقات الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٣ م، ج٢، ص ١٦٨).

(شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مكتبة الانجلو المصرية، ص ٣٦٥)

(يحي بوعزيز : الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص ٤١ وما بعدها).

(أديب حرب : التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري ١٨٠٨ - ١٨٤٧م الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ج١، ص ٦٧-٨٠).

(٢٢) خير الدين الزركلي : الأعلام. قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء الرابع ص ٤٥ ، ٤٦.

بسام العسيلي : الأمير عبد القادر الجزائري، دار النفائس، ص ٢٠ - ٣٠.

(٢٣) شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله - الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٤م ص ٥٥ و ٥٦.

- (٢٤) زاهية قنورة : المرجع السابق، ص ٤٩٩.
- (٢٥) أييب حرب : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٠ - ٧٢.
- (٢٦) أنظر نصوص هذه المعاهدة في : شارل هنري تشرشل : المرجع السابق، ص ٦٧ - ٦٩.
- (٢٧) أنظر نصوص معاهدة تافنا في :
- محمد بن عبد القادر الجزائري : المصدر السابق، ص ٢٧٧ - ٢٧٩.
- كاتب ياسين : الأمير عبد القادر وإستقلال الجزائر ترجمة محمد هناد. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، ص ٤٠ - ٤١.
- (٢٨) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة القاهرة ١٩٨٠ م، ج ٢، ص ٩٥٦.
- (٢٩) أرجمند كوران : أحمد باي قسنطينة المدافع عن الجزائر. بحث مقدم للمؤتمر التاريخي الخامس الذي عقد في أنقرة في الفترة من ١٢ إلى ١٧ أبريل - نيسان عام ١٩٥٦، وقد نشره الدكتور عبد الجليل التميمي كملحق لرسالة الدكتور كوران التي عربها، ص ٧٨ - ٨٥.
- (٣٠) أبو القاسم سعد الله : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث. بداية الاحتلال. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٧٦ م ص ٣٤ - ٣٧.
- (٣١) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، ص ١٤٠.
- (٣٢) أرجمند كوران : أحمد باي قسنطينة المدافع عن الجزائر. مرجع سبق ذكره، ص ٧٨ - ٨٥.
- يحيى بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين. دار البعث، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م، الجزائر ص ١١.
- (٣٣) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي، ج ٢، ص ١٧٠.
- (٣٤) شارك هنري تشرشل : المرجع السابق، ص ١٨١ و ١٨٢.

- (٣٥) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، ص ١٤٥.
- (٣٦) جلال يحيى : المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٥ و ١٤٦.
- (٣٧) علي حصون: تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٣٤.
- (٣٨) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، ص ١٤٧.
- (٣٩) بسام العسيلي : المرجع السابق، ص ١٣٨.
- (٤٠) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، ص ١٥٠ - ١٥٢.
- (٤١) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي، ج ٢، ص ١٧١.
- (٤٢) رافت غنيمي الشيش : المرجع السابق، ص ٤٠٥.
- (٤٣) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، ص ١٥٢ و ١٥٣.
- (٤٤) أديب حرب : التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري، ج ٢، ص ٤٥٨ - ٤٦٢.
- (٤٥) حسن محمد جوهر ومحمود مرسى أبو الليل : الجزائر، دار المعارف بمصر، ص ٤١ و ٤٢.
- (٤٦) بسام العسيلي : المرجع السابق، ص ١٤٧ و ١٤٨.
- (٤٧) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، ص ١٥٦ - ١٥٨.
- (٤٨) جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، ص ١٥٨ و ١٥٩.
- (٤٩) كارل بروكلمان : المرجع السابق، ص ٦٢٦.
- (٥٠) حسن محمد جوهر ومحمود مرسى أبو الليل : الجزائر، ص ٤١ و ٤٢.
- (٥١) سيد محمد إبراهيم : الجزائر، دار النهضة بمصر للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٣٦.
- محمد كامل حسن المحامي: الأمير عبد القادر الجزائري، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٠م، ص ٩٦ - ١١٠.

(٥٢) عزيز صالح لقر : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٦٣٧.

(٥٣) عزيز صالح لقر : المرجع السابق، ص ٦٤٢.

(٥٤) الدورية العلمية لدار محفوظات رئاسة الوزراء، إستانبول،

وثيقة رقم (٧١٢)، تاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٢٤٥ هـ / ١١ سبتمبر ١٨٢٩ م

السلطان محمود الثاني (لم يترك اسم المرمى إليه).

(٥٥) وثيقة رقم (٧٣١)، تاريخ ٢٩ ربيع الثاني ١٢٤٥ هـ / ٣١ سبتمبر ١٨٢٩ م

من السلطان محمود إلى وزارة الخارجية البريطانية.

(٥٦) عزيز صالح لقر : المرجع السابق، ص ٦٣٧ - ٦٣٨.

(٥٧) الدورية العلمية لدار محفوظات رئاسة الوزراء، إستانبول.

وثيقة رقم (٨٢٥)، تاريخ ٢ شوال ١٢٤٥ هـ / ١٣ فبراير ١٨٢٩ م، من

الباب العالي (لم يترك اسم المرمى إليه).

(٥٨) عزيز صالح لقر : المرجع السابق، ص ٦٤٣ - ٦٤٤.

(٥٩) الدورية العلمية لدار محفوظات رئاسة الوزراء، إستانبول،

وثيقة رقم (٧١٠)، تاريخ ٢١ محرم ١٢٤٦ هـ / ٢١ يوليو ١٨٢٠ م، من الباب

العالي إلى أهل الجزائر.

(٦٠) وثيقة رقم (٧٨١)، تاريخ ١٢ نو الحجة ١٢٥٢ هـ / ١٠ نوفمبر ١٨٣٦ م، من

الداي أحمد حاكم قسنطينة إلى مقام السلطان.

(٦١) وثيقة رقم (٧٨٩)، تاريخ ٢٨ نو الحجة ١٢٥٢ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٨٣٦ م،

من السلطان محمود إلى حاكم قسنطينة.

(٦٢) الدورية العلمية لدار محفوظات رئاسة الوزراء، إستانبول،

وثيقة رقم (٨٤٠)، تاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٥٤ هـ / ٢٣ يونيو ١٨٣٨ م، من

الباب العالي إلى مفتي الدولة.

- (٦٣) المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء، إستانبول، وثيقة رقم (٨٥١)، تاريخ ٢٩ ذو الحجة ١٢٥٤ هـ/ ٢٤ نوفمبر ١٨٣٨ م، من السلطان محمود إلى إمام المجاهدين الأمير عبد القادر.
- (٦٤) أرجمند كوران : أحمد باي قسنطينة المدافع عن الجزائر، ص ٧٨ - ٨٥.
- (٦٥) أرجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ص ١١ - ١٣.
- (٦٦) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٦٥ م، دار العلم للملايين، ص ١٥٨.

المصادر والمراجع

القسم الأول : الوثائق العثمانية

وثائق عثمانية غير منشورة من المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة مجلس

الوزراء، إستانبول. BASBAKANLIK ARSIVI

- وثيقة رقم (٧١٢)، تاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٢٤٥ هـ / ١١ سبتمبر ١٨٢٩ م. من
السلطان محمود (لم يذكر إسم المرسل إليه).

- وثيقة رقم (٧٣١)، تاريخ ٢٩ ربيع الثاني ١٢٤٥ هـ / ٣١ سبتمبر ١٨٢٩ م. من
السلطان محمود إلى وزارة الخارجية البريطانية.

- وثيقة رقم (٨٣٥)، تاريخ ٢ شوال ١٢٤٥ هـ / ١٣ فبراير ١٨٢٩ م. من
الباب العالي (لم يذكر إسم المرسل إليه).

- وثيقة رقم (٧٩٠)، تاريخ ٢٩ محرم ١٢٤٦ هـ / ٢١ فبراير ١٨٣٠ م. من
الباب العالي إلى أهل الجزائر.

- وثيقة رقم (٧٨١)، تاريخ ١٢ ذو الحجة ١٢٥٢ هـ / ١٠ نوفمبر ١٨٣٦ م. من
الداي أحمد حاكم قسنطينة إلى مقام السلطان.

- وثيقة رقم (٧٨٩)، تاريخ ٢٨ ذو الحجة ١٢٥٢ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٨٣٦ م. من
السلطان إلى حاكم قسنطينة.

- وثيقة رقم (٨٤٠)، تاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٥٤ هـ / ٢٣ يونيو ١٨٣٨ م. من
الباب العالي إلى مفتي الدواة.

- وثيقة رقم (٨٥١)، تاريخ ٢٩ ذو الحجة ١٢٥٤ هـ / ٢٤ نوفمبر ١٨٣٨ م. من
السلطان محمود إلى إمام المجاهدين الأمير عبد القادر.

القسم الثاني : المصادر والمراجع العربية والمعرية

- أديب حرب : للتاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري ١٨٠٨/١٨٤٧م.
الطبعة الأولى ١٩٨٣م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.
- أحمد الخطيب : الثورة الجزائرية، دار العلم للملايين، بيروت.
- أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية ١٩٧٠م.
- أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر. ج ٣، دار الشعب.
- إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي، دار المريخ للنشر ١٤٠٣هـ.
- أرجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الإحتلال الفرنسي للجزائر.
- أبو القاسم سعد الله : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث. بداية الإحتلال.
المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم ١٩٧٦ م.
- أين عذاري : البيان للمغرب في أخبار الأندلس والمغرب، طبعة لندن ١٩٤٨م، ج ١ و ٢.
- بسام العسيلي : الأمير عبد القادر للجزائري، دار النفائس.
- جلال يحيى : السياسة الفرنسية في الجزائر، دار المعرفة، ط ١، ١٩٥٩ م.
- جلال يحيى : العالم العربي الحديث، ج ١، دار المعارف بمصر.
- حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي : الجزائر مشكلة دولية. كتب سياسية، دار القاهرة للطباعة.
- حسن محمد جوهر ومحمود مرسى أبو الليل : الجزائر، دار المعارف بمصر.
- خير الدين الزركلي : الاعلام. قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين، الجزء الرابع.
- رأفت غنيمي الشبخ: في تاريخ العرب الحديث. دار الثقافة بالقاهرة، ط ١، ١٩٧٥م.
- زاهية كنورة: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- سيد محمد إبراهيم : الجزائر، دار النهضة بمصر للطباعة والنشر، القاهرة.

- سيمون بفايفر: مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، ترجمة أبو العيد ودود
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٢ م.
- ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٦٥م،
دار العلم للملايين.
- شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية.
- شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار
التونسية للنشر، تونس ١٩٧٤ م.
- صلاح العقاد: المغرب العربي، الجزائر- تونس- المغرب الأقصى، دراسات في تاريخه
الحديث ومشاكله المعاصرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.
- صلاح العقاد: الجزائر المعاصرة، القاهرة، ١٩٦٤ م.
- عزيز سامح التتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي،
دار النهضة العربية، بيروت.
- عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج٢، مكتبة
الأنجلو المصرية، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٠ م.
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، سلسلة الكتاب
الجامعي (١)، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، دار المتنبى، قطر.
- علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، العصر الإسلامي، الدار القومية للطباعة
والنشر، القاهرة، ١٩٦٦ م.
- عبد الرحيم بن سلامة: المغرب قبل الاستقلال، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط٢، ١٤٠٠هـ.
- عبد الله شريط ومحمد الميلي: للجزائر في مرآة التاريخ، ١٩٦٥ م.
- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكي،
الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت.

- لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي، ج-٢، ترجمة عجاج نويهض. دار الفكر، بيروت، ط ٤، سنة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٣ م.
- محمد كامل حسين المحامي: الأمير عبد القادر الجزائري، ط ٣، بيروت، ١٩٨٠ م.
- محمد بن عبد القادر الجزائري : تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممنوح حقي، بيروت، ١٩٦٤ م.
- محمد عبد الغني سعودي : الوطن العربي، القاهرة، ١٩٦٦ م.
- محمد عبد الرحمن برج : دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤ م.
- محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.
- محمد علي دبور : نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الطبعة التعاونية، ط ١، ١٣٨٥ هـ.
- نقولا زيادة : قصة الإستعمار في العالم العربي، منشورات الفاخرية، الرياض.
- يحيى بو عزيز : الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- يحيى بو عزيز : ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر والعشرين، دار البعث، الطبعة الأولى، ١٩٨٠ م.



- أرجمند كوران: أحمد باي قسنطينة المدافع عن الجزائر. بحث مقدم للمؤتمر التاريخي الخامس الذي عقد في أنقره في الفترة من ١٢ إلى ١٧ من شهر أبريل (نيسان) عام ١٩٥٦ م، نشره الدكتور عبد الجليل التميمي كمحلق لرسالة الدكتور كوران التي عربها.

— — —

أثر الطرق التجارية على الانتشار القبلي بالحجاز في عصر ما قبل الإسلام

د/رشاد محمود بغداددي

قسم التاريخ الإسلامي

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى

تعتبر بلاد الحجاز^(١)، من المناطق الهامة في شبه الجزيرة العربية ، من الناحيتين الدينية والاقتصادية، وليس من شك في أن مكة المكرمة، أهم مواضع الحضر في الحجاز علي الإطلاق، كما أنه علي الرغم وجود "بيوت العبادة"^(٢) في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فإن واحدا منها لم يجتمع له ما اجتمع لبيت الحرام في مكة، ذلك لأن مكة إنما كانت ملتقى القوافل بين الجنوب و الشمال، وبين الشرق و الغرب، و كانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب، و كانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها، و لم تكن فيها سيادة قاهرة علي تلك القبائل في باديتها أو في رحلتها، فليست في مكة دولة كدولة التباغة في اليمن، أو المناذرة في الحيرة، أو الغساسنة في الشام، وليس من وراء أم حجاب، الرئاسة فيها سلطان كمسلطان الروم أو الفرس أو الأحباش، أو الإمارات والدويلات العربية المتفرقة علي الشواطئ أو بين بوادي الصحراء، وإنما كانت مكة بمثابة عبادة و زعامة تجارية^(٣)، ولا شك أن مدن الحجاز، وخاصة مكة المكرمة، كانت كجزء من بلاد العرب، استقبلت هجرات سابقة تعدد فيها أنواع المهاجرين من عناصر بشرية تعددا لا يستطيع تعيينه، وتاريخ مكة بدءا من بني إسماعيل و حتى عهد قصي بن كلاب^(٤)، غامض غموضا شديدا، و لا يعرف حتى المؤرخون العرب كيف يملأون فراغ هذه القرون الطويلة^(٥)، لأن المصادر التي توسعت في ذلك لا يمكن التسليم بما كتبت تسليما قاطعا، ولا تيزغ شمسهم مشبعة بالغيوم — فوق أفق التاريخ الحقيقي، إلا من

(١) عبد المحسن الصليبي : " الأقسام الجغرافية لجزيرة العرب ، كما تسورها المصادر العربية " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلدان السادس والسبع ، ١٩٥٢ - ١٩٥٣ ، من ١١٤ - ١٢٨ .

(٢) انظر عن هذه البيوت : بقوت ٢٢٨/١ ، ٤٢٧/٣ ، ٣٩٤/٤ ، ٢٩٥ ، ٢٦٨/٥ - ٢٦٩ ، وكذا الأضلع من ٣٨ .

(٣) علي محمود الحفاد : سطلع للور — أو طواف البيت المقدس ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٦٨ ، من ١٣٤ - ١٣٥ . وكذا محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ، المطبعة الثانية، الرياض ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، من ٣٩١ - ٤١٦ .

(٤) ابن الأثير : التكميل في التاريخ ٢٢/٢ وكذا السعدي : مروج الذهب ٣١/٢ .

(٥) أحمد محمود صليون : مكة المكرمة ، أساطيرها وتاريخها ، الإسكندرية ١٩٩٥م ، من ٥٩ - ٨٤ .

عهد قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي، و لقد تركت لنا مصادر التاريخ أخبارا لا تخلو من الغموض و الاضطراب عن القبائل التي سكنت مكة وبقية بلاد الحجاز ، و لعل أقدم هذه القبائل ، تلك المعروفة بالعماليق ^(١) ، حيث ينسبهم الإخباريون إلى "عمليق بن لاوز بن إرم بن سام بن نوح" ^(٢) ، ويبدو أن العماليق دفعت بموجات من القبائل، التي امتدت في بلاد الحجاز، دون أن تقتصر على مكة فقط، بل يثرب (المدينة المنورة) و باقي من الحجاز، و أنهم قد عاشوا في الأرض ضادا ^(٣) .

تسامعت جرم ^(٤) بخير تنجر بئر زمزم، و لزم الطير الوادي، حيث رأت الماء، ولما كانت جرم تمكن على مسافة قصيرة من مكة، فقد استأذنت لتتقل بببوتها حول البئر، و التي تولى مضاض الجرهمي أمر الحرم بعد ذلك، و أبناء إسماعيل مع أحوالهم لا يرون أن ينازعوهم الأمر، لخولتهم و قرابتهم، و إعظاما للحرمة أن يكون بها بغي أو قتال، إلى أن قدمت قبائل الأزد مهاجرة من جنوب عربي شبه الجزيرة العربية، في فترة لا نستطيع تحديدها على وجه اليقين، ونازعت واحدة من هذه القبائل (خزاعة) جرم أمر البيت في مكة ^(٥) ، حيث

^(١) يبلغ الإخباريون في أصبة العماليق وسمة يتشكروهم بدرجة لا يمكن أن يقبلها منطق أو بقوما عل ، فيجملونهم لما كثيرة تفرقت في البلاد فكان منهم أهل صان والحجاز والشام ومصر ، فضلا عن أهل المدينة وبنو هب وبنو مطر وبنو الزرق وسد بن زهران، وأهل نجد ، وبنيل ورحط وغفار وقيما ، هذا إلى جانب شعبة منهم ذهبت إلى صنعاء قبل أن تحمل الأخيرة اسمها هذا ، ولخيرا فقد كان منهم للجبلية بالشام - وهم الكتعمون - والتراعين بمصر ، والأركم ملك الحجاز بتيما . انظر : الهذلي : الإكليل ١/٧٤-٧٧، تاريخ الطبري ١/٢٠٧، نهاية الأرب للقفندي ص ١٤٤، جواد علي ١/٢٤٦، محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ١٧٦-١٧٧ .

^(٢) الهذلي : الإكليل ٢/٤١٠، تاريخ الطبري ١/٢٠٧، المعروف : ص ٢٧ .

^(٣) ابن رسته : الإعلاني التنصية ، ص ٦٠ وما بعدها .

^(٤) ينظر الإخباريون في جرم على أنهم طيقتان الولحة من العرب البتة وكانت في مكة المكرمة ، على عهد عاد وثمود والعماليق ، ثم أيدت بلدي للتحطيين ، والأخرى من جرهم بن فطمان بن هود ، وقد كفروا أصيلا لإسماعيل عليه السلام . انظر : الهذلي : الإكليل ١/٢٨، ١١٦، نهاية الأرب للقفندي ص ١٩٦، المعروف ص ٣٤، تاريخ الطبري ١/٢٥٦، ٣١٤، سعد زغول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٦، ص ١٢٧ - ١٢٩ . وكذا محمد بيومي مهران : المرجع السابق، ص ١٧٦ .

^(٥) لعمد المباعي : تاريخ مكة ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، مطبوعات نادي مكة الثقافي ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ١٨ - ١٩ . انظر عن خزاعة واسولها : القلي : نداء الغلام ٢/٧١ - ٨١ حسين مؤنس : تاريخ قريش ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٧٥ - ٧٦ .

انتهى أمر مكة بعد فترة إلى عمرو بن لحي الخزاعي^(١).

يتضح لنا أن مكة، كانت هدفا رئيسيا لتلك الهجرات إليها، وذلك لما تتمتع به كموقع جغرافي سببا في أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، فضلا عن السيطرة على طرق القوافل^(٢).

يعطي الباحث هنا لمحة موجزة عن الطرق التجارية البرية القديمة^(٣)، و التي كانت بطول شبه الجزيرة العربية و عرضها، أما الطولية، فأهمها الطريق الجنوبي الشمالي، و الذي يطلق عليه أحيانا "الطريق التجاري العظيم"، و أحيانا أخرى "طريق البخور الذهب". و هو الطريق الموازي تقريبا للبحر الأحمر من أقصى الجنوب^(٤)، حيث يبدأ في الواقع من عدن و قنا و مأرب، حيث تجارة البخور، ثم يتجه إلى نجران، فالطائف ماراً بمكة، ثم يتجه إلى يثرب و خيبر ثم الحجر (مدائن صالح) و منها إلى إيلة (العقبة)، ثم بعد ذلك إلى البتراء، حيث

^(١) ساد قومه في مكة المكرمة، و قد بلغ في مكة من الشرف ولم يبلغه عربي قبله، و كان أول من أطعم الحاج بمكة مذيق الأبل و لصحا على الشريد، و عم في تلك السنة جميع حاج العرب بثلاثة ثواب من برد أمين، و كان قوله فيهم دينا متبعا لا يخلف و نه كان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، ف نصب الأوثان، و بحر فبحرة و صيب السقبة، و وصل الوصولة، و حصى الحصى. انظر:

الإسنام، ص ١٨ ابن مشام ٧٨/١ البخيري ٢١١/١ المسعودي: مروج الذهب ٢٩/٢ - ٣٠، لحد الضاعى: المرجع السابق، ص ١٢٢ و كنا لحد محمود صابون: ٣ جمع السابق، ص ٧٧-٧٨.

^(٢) Watt W. M., Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, p.3.

^(٣) لمزيد من التسلسل - انظر:

جواد على ٣١٧/٧ - ٣٦٤ وكذا

منظر الفكر: "العرب والتجارة الدولية منذ قدم الفصور إلى نهاية العصر الروماني"، العرب، الحد ٤، السنة الثالثة

١٤٩٠هـ - ١٩٧٠م، ص ٤٨ - ١٠٤ وكذا

رضا جواد الهنسي: "تجارة القوافل في الخليج العربي"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات

العربية، بغداد ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ص ٧-٢٨ وكذا

لصان عيسى: "العلاقات التجارية بين مكة والشام حتى بداية الفتح الإسلامى"، مجلة الأبحاث، السنة ٢٨، جامعة لأمريكية، بيروت ١٩٩٠، ص ٢-٤٠.

^(٤) لقد كان الطريق البرى هذا أقدم وأهم من الطريق البحرى، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى عاملين أولهما، أن العرب بطبيعتهم كانوا، بالدرجة الأولى، تجار بر، لا تجار بحر، وثانيهما، عدم صلاحية قسطنطينة الأسيوى للبحر الأحمر لتحميل القوافل عليه بالنسبة للساحل الغربى، ولذلك لاجد الأسيما ولحا لشهر كميناء عربى قديم وهو ميناء "موزا" (مخا الحالية تقريبا). انظر: عبدالمعزم عبدالحليم سيد: "البخور عصب تجارة البحر الأحمر في الفصور القديمة"، مجلة كلية الآداب والعلوم الأساسية، جامعة الملك عبدالمعز، المجلد الثانى، سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، ص ١٥٧.

يتفرع الطريق هنا إلى فرعين ، أحدهما إلى تكمر في الشمال ، والآخر إلى الغرب مع ميل طفيف إلى الشمال الغربي ، حتى يصل إلى غيزة ^(١) .

أما العرضية ، فقد عرفت شبه الجزيرة العربية أربعة منها ، على الأقل ، (الأولى) منها ، الطريق ، الذي يرفد البحر العربي والمحيط الهندي والممالك العربية الجنوبية ، وخاصة حضرموت ومنطقة عمان ، حيث يبدأ من الخليج متجها شمالاً بغرب ماراً بمحاذاة الحدود الشرقية لنجد ، فمنها بعدئذ ، إما إلى الشمال في اتجاه العراق ، وإما إلى بادية الشام ^(٢) . أما (الثاني) ، فينطلق من القسم الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية ، بدءاً من مأرب ، ومنها إلى نجران ثم شمالاً شرقاً في وادي الدواسر ، حيث يمر بقرية الفاو ، ومن هناك يتجه الطريق إلى الأفلاج فاليمامة ، أو عن طريق واحة بئرین - على مبعدة ٣٠٠ كيلومتر ، جنوب غرب الهفوف - ثم واحة الهفوف ، فهجر ، على ساحل الخليج العربي ^(٣) . أما (الثالث) ، يخترق شبه الجزيرة العربية عرضاً ، بدءاً من مكة وينتهي إلى وادي الرافدين . غير أنه في وسط المسافة تقريباً ، عند حائل ، يتفرع الطريق إلى فرعين في هذا الاتجاه ، أحدهما يصل إلى مصب الفرات ، والآخر يصل إلى بابل ^(٤) . أما (الأخير) ، فقد كان عبر الطرف الشرقي من الربع الخالي ، ويبدأ من منطقة حضرموت وعمان متجها إلى منطقة اليمامة ، صاعداً إلى بلاد الشام أو العراق ، حيث يلتقى بالطريق الشرقي ويفرع الطريق الغربي ^(٥) .

لقد زادت أهمية مكة وقيمتها التجارية ، إن اليمن - بعد الاحتلال الحبشي في ٥٢٥ م - لم تنجح في سد الفراغ الذي تركته البحرية الرومية ، ربما

خطه

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى : العرب في المصور القديمة ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٣١٤ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٣٥ .

(٤) غير أن هذا الفرع الأخير ، أصبح طريقاً رئيسياً للحج والتجارة في العصر الإسلامي تحت لم ترب زبيدة " والذي يصل الى المتحف بجولي بابل ، ولكن يبدو مؤكداً أنه كان موجوداً ومستخدماً قبل ظهور الإسلام . انظر :

لطفي عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق ، ص ٣١٩ .

(٥) عبد الرحمن الأعصرى : " لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية " ، مجلة الدارة ، العدد الأول

١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ٨٧ .

لظروف جغرافية أكثر منها ميامية، ثم فقد أصبح الطريق البرى - عبر تهامة والحجاز - هو الطريق المفتوح أمام التجارة ، وكان لابد - بعد زوال النشاط اليمنى - أن يوجد من يسد هذا الفراغ ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين ، لنقل التجارة . وقد جاء هذا الوسيط ممثلاً في مكة ، التي حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادي ، بمكانة ممتازة بين عرب الشمال ، فضلاً عن طرفي الصراع الدولي (الفرس والروم) وقت ذلك ، وساعد على ذلك رغبة الفريقين المتنازعين في وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية ، وبعد مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى (١).

ظل أمر مكة في يد عمرو بن لحي وولده مدة حكمهم ، حتى آل أمر مكة إلى قصي بن كلاب، وإليه يرجع الفضل في جمع أفراد قريش المبعثرين في نواحي متعددة إلى وادي مكة ، وجعل لكل بطن منهم حياً خاصاً على مقربة من الكعبة ، فاستحق بذلك لقب "المجمع" (٢).

إن قريشا (٣) في انتقالها من البداوة وحياة الظعن إلى الاستقرار والحضارة في مدينة لم تتحول إلى مجتمع مدني ، بل حافظت على نظامها القبلي ، التي لم تكن سوى مرحلة أكثر نضجاً في مكة ، والتي كان للجرأمة والخزاعيين دور كبير في تحضيرها وتطوير أنظمتها السياسية والاقتصادية . لقد كان للخزاعيين دور بارز في محور التطور لزعامة مكة في بلاد الحجاز ، فقد مثلت الحقبة الخزاعية ، التي كانت من أطول عهود مكة قبل الإسلام (٤) ، الدور التأسيسي الأول في شخصية هذه الأخيرة، التي تبلورت إبان الحقبة القرشية . وعلى الرغم من اشتداد المنافسة على النفوذ في مكة ، فقد صمدت خزاعة طويلاً واحتفظت بالزعامة المطلقة ، حتى

(١) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة : ١٩٦٥ ، ص ١٥٤ وكذا محمد بيومي مهران :

المرجع السابق ، ص ٤١٤ وكذا

Huzayyin, S.A., Arabia and the Far East, Cairo, 1942, p.142 f;

Gibbon, E., The Decline and Fall, of the Roman Empire, London, 1950 p.213.

(٢) محمد الطيب النجار : "أنواء على المسجد الحرام بين الجاهلية والإسلام" ، مؤتمر قضية الحرمين الشريفين ، المركز العلم

لبحوث فتنان المسلمين عالمياً ، القاهرة ٢٣ - ٢٥ ربيع أول ١٤٠٨ هـ / ١٥-١٧ نوفمبر ١٩٨٧ ، ص ٦٣.

(٣) فخر بن قريش : حنين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٦٩ - ٧٣ .

(٤) يقرأها السعدي بثلاثمائة سنة . فخر مروج الذهب ٣٢/٢ .

انكها إلى قروش ، بد أن قلنا قصي بن كلاب إلى السلطة بصعوبة ثم بدأ لذلك
 يتزوج من ابنة خليل بن حشبة ، وكل هو آخر من ولى البيت من خراصة ،
 فرب قبه خليل فوجه ابنة فولدت له عبد الدار ، وعبد مناف ، عبد العزى ،
 وعبداً (٩)

فلما اترو ولاد قصي وكثر ماله وعظم شرفه ملك خليل ، فرأى قصي أنه
 أولى بالكلية وزعامة مكة حيث انكح إليه القرعة بصورة شبه وراثية ، ومن ثم
 قد عل على جمع قومه ولأن لهم أن يخوا بكعة ميتة ، وأن يسكروا . وقال لهم :
 إني أن مكتم الحرم وحول البيت ، طبعكم العرب ، ولم تستطع قلكم ولا يستطيع
 لذي إيراكم ، فكلوا له أنت ميتا ورأينا طبع لرك ، فجمعهم حول البيت ، وأيقنا
 هويته طر القصة (١٠)

وقد باتت شجرة القريش في التجارة ومهاوتهم فيها ، إلى أن هناك من
 ذهب إلى القول بأن قريشاً ، إنما سبت كلك لآخراتها التجارة (١١) ، لأن القريش
 إنما هو التجارة والكنف (١٢) ، كما أن رحلتهم التجارة مكثرت في القران الكريم ،
 حيث يقول سبحانه وتعالى : " إنا لف قريش لياتهم وخطة الشتاء والصيف فيبيعوا
 رب هذا البيت الذي السهم من جوع ولأنهم من خوف (١٣)

لما لاف (١٤) . النتيجة القوية من مكة . قد كان على رعاها غلضاً (١٥) قيل

(٩) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١٠) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١١) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١٢) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١٣) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١٤) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١٥) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١٦) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١٧) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١٨) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(١٩) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(٢٠) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(٢١) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(٢٢) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(٢٣) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(٢٤) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(٢٥) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

(٢٦) ابن جرير: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ ، السيرة: ١٧٧/١ ، تاريخ: ١٧٧/١ .

ارتباطها بتقيف^(١) المعاصرة لقريش في مكة ، ولكن أخبارا قد لا يرقى كثيرها إلى الموضوعية ، تشير إلى ظهورها في زمن العمالقة ، حيث يذهب الإخباريون إلى أن اسمها القديم " وج " نسبة إلى " وج " أخو " أجا " الذي سمي به أحد جبلى طىء ، وهما من العماليق^(٢) ، على أن هذه المدينة ، التي استمدت قوتها المعنوية من توحيد التقنيين لها^(٣) ، بعد جهود مستميتة ، قدر لها أن تشغل دوراً غير ثانوي في تاريخ الحجاز ، حيث كانت منذ البدء حلقة لقريش ، وقد كان بين أهل مكة وأهل الطائف تناقض وتحاسد ، حيث حاول أهل الطائف جلب قوافل إليهم ، وجعل مدينتهم مركزا للتجار يستريحون فيه ، وقد نجحوا في مشروعهم هذا بعض النجاح يوم استولى الفرص على اليمن ، وتمكنوا فيه من طرد الحبش عن العربية الجنوبية في الربع الأخير من القرن السادس الميلادي^(٤) ، فصارت قوافل الفرس التجارية ولطائم^(٥) ملوك الحيرة تذهب إلى اليمن وتعود منها من طريق الطائف ، ونقصت بذلك عيش أهل مكة ، الأمر الذي أدى إلى نشوب حرب الفجار^(٦) ، التي كلفت في مضمونها تهديداً للتجار الذين سلكوا هذا الطريق ، كما أن أهل مكة تمكنوا من التغلغل إلى الطائف ومن بسط سلطانهم عليها ، بإقراض مائنتها أموالا وبشراء الأرضين ، فبسطوا بذلك سلطانهم عليها ، أقاموا بها أعمالا اقتصادية خاصة

(١) الحارث ، ص ٩١ .

(٢) رقت ٩/٤ ، ١٢ ، تاج العروس ١٨٤/١ ، المقدسي ١٠٩/٢ ، البكري ٨٨٦/٢ .

(٣) يشير الإخباريون إلى أن أول من سكن الطائف إنما هم العماليق ، ثم غلبهم عليها قيس بن عيلان بن مضر ، ثم بنو عكر بن صمعة بن معوية بن بكر هوازن ، ثم اكتسها منهم تقيف . انظر : الحارث ، ص ٩١ ، تاج العروس ١١٠/٢ .

بينما يزعم آخرون أن الذين سكنوا الطائف بعد العماليق ، إنما هم قوم ثمود قبل ارتباطهم إلى الحجر وولدي لقري ، فيما بين الحجاز والشام ، ومن ثم قد ربط أصحاب هذه الرواية نسب التقنيين للثموديين ، الذي نسبهم إلى جد أعلى هو " قسي بن مذبه " ، الذي يجعله بعضهم من " يمد " ، بينما يجعله البعض الآخر من " هوازن " . انظر : الأغاني ٢/٤ ، تاريخ ابن خلدون ٢٤/٢ ، بداية الأرب للفتنسي ، ص ١٨٧ وكذا :

Montgomery , J. A , Arabia and the Bible , Philadelphia , 1934 , p. 137.

(٤) عبد يوسف مهراي : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ - ٢٨٩ .

(٥) اللطائف في السير إلى تحمل الطيف ، انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٢/٥٤٢-٥٤٤ .

(٦) عن حرب القحط ، انظر : البكري ١٥/١٦ وكذا شفاء القرام ١٤٨/٢ - ١٥٠،١٥٠ وكذا دراسة حديثة انظر : جندلبار منسى القمدي : " حروب القحط كسبا وتناحرا " ، الموضح لعمري ، العدد الثامن ، بغداد ١٩٢٩ ، ص ١٢٤-١٤٦ .

ومشتركة . وهكذا استغل أنكباء مكة هذا الوضع المهم وحولوه إلى مكان صار فى حكم التابع لسادات قريش ، أو بمعنى أن تقيف لا تلبث أن تعود إلى الاعتراف بصدارة منافسها قريش، كحليفة لها ^(١) . كما أن اسمها يقترن عادة بمكة المكرمة، فيقال مكة من الطائف ، والطائف من مكة ، ومن ثم فقد تسميتا " القريبتين " من قوله تعالى : "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " ^(٢) .

ويبدو أن وحدة للمصالح بين القبيلتين المتحالفتين ، قد انتهت بهم إلى إقتسام النفوذ عشية الدعوة إلى الإسلام ، فكانت لقريش السيطرة المطلقة على تجارة الشام ، بينما كانت الطائف تجارة اليمن ، تتولى مراقبتها والأشراف عليها وذلك فى ظل همنية عامة للأولى ، لم تقتصر على الطائف فقط ولكنها امتدت حينذاك إلى مختلف الطرق التجارية فى شبه الجزيرة العربية ، ولعل الطائف كانت تتوق إلى الحد من هذه التبعية والارتباط المباشر بالاقتصاد المكي ، حيث الطبيعة هيات لها أسباب المزاحمة مع أئدادها القرشيين ، ولكن الدهاء الذى توقفت به الشخصية النقية ، سقط أمام خبرة هؤلاء وراثهم القديم فى التجارة .

أما يثرب (المدينة المنورة) ^(٣) ، فهي ثالث مدن الحجاز ، ذات الأهمية ، بالإضافة إلى المراكز الثانوية المنتشرة حولها ، أقبلت جماعات يهودية^(٤) ، فامتدّت فى مواضع عيون ماء، كانت صغيرة ولكنها نمت مع الزمن بفضل من استقر فيها من اليهود ، وما قامت به من جهد فى الزراعة والصناعة ، ومن هنا نشأت مراكز عمرانية فى خيبر وادى القرى ، ثم فى فدك إلى الشمال الشرقى من خيبر فى مداخل نجد ^(٥) .

وعلى الرغم من وقوع يثرب فى دائرة طرق التجارة القديمة إلى

(١) جواز على ١٥٣/٤ وكذا :

Lamrence , H., La Ville Arabe de Taif a la ville de L' Hegire, Beyrouth, 1922, p.119.

(٢) سورة الفرقان : آيه ٢١ .

(٣) عبدالحسن المسنى : المرجع السابق ، ص ١٠٢-١٠١ .

(٤) حول تاريخ دخول اليهود بلاد الحجاز ، انظر : أحمد محمود صايون : "حول تاريخ دخول اليهود بلاد الحجاز " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد الثانى و الأربعين ، ١٩٩٤ - ١٩٩٥ ، ص ٢٠٣ - ٢٤٣ .

(٥) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٨٠ - ٨١ .

الشام، فإن حظها من التجارة الخارجية كان محدوداً ، إذا ما قورنت بمكة ، حيث كان يخالفها عدم الرضا إزاء احتكار الأخيرة لها، ذلك الشعور التقافسى ، الذى سيطبع العلاقات المستقبلية بين المدينتين مكة ويثرب.

يميل بعض الباحثين إلى إرجاع صلة اليهود بالعرب فى الحجاز بصفة عامة ، ويثرب بصفة خاصة ، إلى عهد موغلة فى القدم ^(١) ، غير أن يهود شبه الجزيرة العربية لم يتركوا أثراً مكتوباً يتحدث عن ماضيهم فيها ، وكل ما عثر عليه من نصوص معدودة وجدت فى اليمن ، لا تفصح عن شيء ذى بال عن اليهود واليهودية ناهيك عن وجودهم بالحجاز ، كلك لم يذكر أحد من المؤلفين وكتبه بنى إسرائيل شيئاً عن - يهود عصر ما قبل الإسلام فى بلاد الحجاز ومن ثم فليس هناك من تاريخ اليهود فى شبه الجزيرة العربية بعامة وبلاد الحجاز بخاصة ، إلا ما جاء فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف وكتب الحديث والأخبار والمسير ، فمادتنا عن تاريخ اليهود فى موضوع هذا البحث لا ترتقى إلى عهد بعيد عن ظهور الإسلام ^(٢) .

تتضارب آراء الاخباريين حول اليهود فى يثرب حيث يذكر أحدهم ^(٣) ، أن هناك قبائل يمنية هاجرت إلى الحجاز منها فخذان من جذام استقرت بعد تهودها فى يثرب عند جبلين يحمل كلاهما من القبيلتين - النضير وقرظة - اسماً لأحدهما ، وذلك دون أن يتعرض صاحب هذا الرأي للقبيلة الثالثة (القينقاع) ، التى افتتح الرسول - صلى الله عليه وسلم - معها الصراع ما بين الإسلام وبنى إسرائيل فى الحجاز فى أعقاب معركة بدر الكبرى ^(٤) ، وثمة من يذهب ^(٥) ، إلى أن القبيلة الأخيرة هي نواة اليهود فى يثرب " وذلك لما أسنده رزين عن أبى المنذر الشرفى قال: سمعت

(١) زكى شنودة : اليهود ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٦ - ٢٩ وكذا :

لاندو : الإسلام والعرب ، ترجمة منير بطي ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٦ .

(٢) جوك على : ٥١٢/٦ .

(٣) الطغوى : ٤٩/٢ ، ٥٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٨٠/٢ ، ٩٦ .

(٥) ابن رست : الإعلان النبى ، ص ٦٠ ، ٦١ وكذا السهرردى : ولاء الرنا ١٥٧/١ ، ١٦٢ .

حديث تأسيس المدينة من سليمان بن عبيد الله بن حنظلة العسلى ، قال وسمعت أيضا بعض ذلك من رجل من قريش عن ابي عبيدة بن عبد الله بن عمار بن ياسر ، قال : فجمعت حديثه لكثرة اتفاقه وقلة اختلافها ، قالوا : بلغنا انه لما حج موسى ^(١) ، عليه السلام حج معه أناس من بنى إسرائيل ، فلما كان فى انصرافهم أتوا على المدينة ، قرأوا موضعها صفة بلد نبي يجدون وصفه فى التوراة بأنه خاتم النبيين ، فاشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به ، فنزلوا فى موضع سوق بنى قينقاع ، ثم نزلت بعض قبائل العرب عليهم . ورأى ثالث ^(٢) يرى بأن يهود يثرب يمثلون هجرة لها خلفية سياسية ، وليست دينية ، عندما هربوا من الاضطهاد فى فلسطين ، الذى بلغ ذروته فى العصر الرومانى فى القرنين الأول والثانى الميلادى .

ولكى نعرف جنسية اليهود فى بلاد العرب ، فإنه من الأفضل أن ننظر فى الأخلاق والتقاليد واتجاه الأفكار والأعمال ^(٣) ، فنجد التشابه كثيراً بينهم وبين اليهود السابقين على عصرهم أو نلاحظ مواقف واحدة ، ولولا اختلاف الزمان والمكان والأحداث ما استطاع أحد أن يفرق بينهم .

أيا كانت العلاقة مع الهجرة اليمنية إلى الشمال - خاصة بعد اشتداد صراع العقائد فى النوبة الحميرية والاضطهاد المتبادل بين أصحابها - يستثنى O'Leary بنى القينقاع ، بإرجاعهم إلى أصل عيسى ^(٤) . كما يعتقد Lammence أن بعض اليهود فى الحجاز ، لا سيما "جالية الطائف" كانت نتيجة تلك الحروب الدينية ، التى اتخذت مسرحها آنذاك فى اليمن ^(٥) ، بعد أن قُتل الملك الحميرى ذى نواس ^(٦) فى

(١) اختلف المؤرخون فى تاريخ زمان موسى عليه السلام ، ومخرج بن إسرائيل من مصر ، والمؤرخون الذى عاصر موسى ، عليه السلام ، بين أن يكون أحسن الأول أو ولده أمجد الأول أو توت عنخ آمون أو رمسيس الثانى أو مرنبتاح أو فى أسرته الأسرة الخامسة عشرة أو أوائل الأسرة العشرين . انظر : محمد يونس مهران : إسرائيل ، الكتاب الأول - التاريخ ، الاسكندرية ١٩٧٨ ، ص ٣٥١ - ٤٣٩ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢٨٩/١ ، للمهروى : وفاة ١٦٠/١ .

(٣) ابن هشام ١٨٣/٢ - ١٩٠ وكلاهما عن اسلاف اليهود فى الحجاز : محمد عزة دروزة : تاريخ بنى إسرائيل من اسفارهم ، بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ ، ص ٤٣٨ - ٤٥٣ .

(٤) O'Leary, De Lacy D. D, Arabia before Muhammad, London, 1927, p.173

(٥) Lammence, H., L'Arabie Occidentale avant L'Hejre, 1928, p.54.

(٦) رغب البعض أن الملك ذى نواس ، هو الهلالي بهتم الحرب . فتر :

Winckler, H., "Zur Alten Geschichte Yemens and Abessinians", AOF, IV, 1896, p.327.

تهود هذه الأخيرة ، الذى كان من نتائجه ما اشتهرت به نجران من الحادثة التى وقعت فيها ، حادثة تعذيب النصارى ، والمعروفة باسم " أصحاب الأخدود" (١) وما جرت إليه من احتلال الحبشة لليمن ، مما أدى إلى إفراغ اليمن من اليهود ، وربما كان الاتجاه نحو الشمال ، هو الخيار الأفضل والطريق الآمن لهؤلاء الهاربين من الاضطهاد .

أما عن العلاقة بين يهود الحجاز واليمن ، فإن التساؤل أنه يبدو شائكا إلى حد ما ، حيث المعطيات التاريخية لا تتوفر بصورة كافية ، ولكن الفصل بين الإقليمين فى تلك المرحلة من التجاذب السياسى والبشرى والعقائدى ، قد لا يتفق وطبيعة تلك التطورات ، التى شهدتها المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية ، منذ بدايات القرن السادس الميلادى ، ولعل أبرز مؤشرات هذه العلاقة ، ما ورد فى المحبر (٢) ، من هجرة يهودية من أرض الحجاز إلى اليمن فى فترة سابقة على حملة الحبشة ، التى يفترض أنها اضطهدت لليهود والمتهودين ودفعت بقسم منهم ، على الأرجح ، نحو الحجاز ، حيث نزلوا فى أحياء خاصة بهم فى يثرب وبعض المراكز الأخرى ، أو فى نطاق " جاليات " تجارية فى المدن المزدهرة كالمطائف ، وتجمعات زراعية فى الواحات الخصبة من هذا الإقليم (٣) . ما نلاحظ أحد وجوه هذه العلاقة فى فقدان الموقف اليهودى بعض تماسكه فى يثرب من طبيعة أية جماعات مهاجرة من أوطانها بسبب ضائقات اقتصادية كالأوس والخزرج أن تتوحد وتتقرب إلى يهود يثرب ، إلا أن اليهود بعد أن قطعوا التحالف ، فلن الوئام والائتلاف بين الطرفين بدأ يتغير ويتبدل نحو الأسوأ (٤) حيث يقرر البعض (٥) أن بطون الأوس والخزرج لم تصارح اليهود بالعداوة إلا بعد النكبة التى حلت باليهود

(١) قننر دراسة عن أصحاب الأخدود :

محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) فى بلاد العرب ، الرياض ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٣٥٥-٣٦٩ .

(٢) ابن حبيب (ابن حجر عسقلاني) من عمدة المؤرخين : كتاب المصنف ، جلد اول الدكن ١٩٤٢ ، ص ٣٨٦ .

(٣) السهمودي : وفاء الوفا ١٦٢/١ وكذا :

Lammence , H., op.cit., p. 67, 96.

(٤) محمد رشيد الصبلي : يهود فى شبه الجزيرة العربية ، عمان ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٦٤ .

(٥) إسرائيل ولغسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى العاقبة وسنن الإسلام ، القاهرة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م ، ص ٦١ وكذا : Graelz, H., The History of the Jews, III, Philadelphia, 1936, pp. 67, 91, 410.

فى اليمن ، إذ لا يتصور أن يضطهد اليهود فى الحجاز فى العصر الذى كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ويتعصبون لدينهم ويناهضون كل من يناهضهم أو يتعدى عليهم ويؤيد ذلك من أن الحجاز الشمالية كانت فى شبه تبعية لليمن فى عصر وجود حمير المتهودة وأن واحداً من الأسرة المالكة فى اليمن كان يشرف على شئون الطوائف المختلفة فى شمال الحجاز ، ومن ثم فقد بقيت البطون العربية عصوراً طويلاً على موالة ومناصرة اليهود دون أن يظهر عليهم شئ يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل إلى أن أخذت عمان ^(١) تنصب لليهود المكائد وتحرض عليهم زعماء الأوس والخزرج ليفتكوا بهم ، مما أدى إلى إختلال الوضع الداخلى لمصلحة العرب ، وإفساح المجال أمامهم لتدعيم نفوذهم كقوة أساسية منافسة لهم فى المدينة ^(٢) . كان من البديهي أن تنعكس سلبات الهجرة العربية بدورها على موقع اليهود فى الحجاز ، حيث كان لهذا الإقليم نصيب غير قليل منها ، فأسهم ذلك فى ازدياد الشعور بالعزلة لدى هؤلاء والخوف على مصيرهم القلق ، والتى دفعتهم بالتالى إلى الشقاق والاحتفال ^(٣) .

يبدو التراجع أن يهود اليمن ، الذين وفدوا إلى يثرب والمراكز المجاورة لها ، لا يؤدى حكماً إلى وضوح انتمائهم الأساسى ، الذى يبقى مجرد فرضية ، بأنهم ينحدرون من خارج المنطقة ، حيث ظلوا خلاقاً للتصارى ، جسماً غريباً عنها ، غير منطبعين بحياتها إلا بمقدار ما تفرضه المصلحة الخاصة ، كمحور لعلاقتهم مع القبائل العربية فى الحجاز ^(٤) . ولعل تجربة اليهود فى يثرب تعزز هذا الاتجاه ، حول انعدام التأثير أو التأثير مع الآخرين ، بحيث أدى هذا إلى

(١) انظر عن الضلالة : محمد بن موسى مهران : رسالة فى تاريخ العرب القديم ، ص ٥٦١-٥٧٥ .

(٢) السمووى : وفاة لوليا ١٦٦/١ .

(٣) لا شك أن اليهود لم يكونوا متحدين فى دولهم السياسية والاجتماعية ، فقد كانوا فى شقاق دائم ولم تظهر بينهم الألفة إلا فى أيام لبؤس والشدة ، كما اتحد بنو النضير وبنو ربيعة فى يوم بعثت ضد عدوهم من بنى الخزرج . وفى يوم بعثت كل بنو قينقاع يحاربون إلى جانب صفوف الخزرج ضد أبناء . لنتهم ، وقد بالغ اليهود فى قتلهم ، لأن عدوة بنى قينقاع لبعية اليهود قديمة . انظر : محمد رشيد الميلى : المرجع السابق ، ص ٦٧-٧٠ .

(٤) Lammence, H., op. cit., p. 54.

افتقاد احتمالات التعايش فى المجتمع الواحد فقد ظل عرب المدينة من الأوس والخزرج وشبى العقيدة ، شأن القبائل العربية فى الحجاز ، على الرغم من التفوق السكافى ، الذى كان لوقت غير قصير معقوداً لهؤلاء اليهود ^(١) .

وعلى أية حال ، تبقى مسألة يهود الحجاز محاطة بالكثير من الغموض ، دون ثمة ما يشير بجلاء إلى كيفية وصولهم إلى هذه المنطقة أو المصدر الذى قنموا منه ، وإذا ما سلمنا بأنهم وفدوا من فلسطين ، حسب الاعتقاد المطروح ، فقد يكون بتواجدهم فى شمال الحجاز ، أى تخوم الشام ، كان نتيجة عمليات الاضطهاد الرومانى ^(٢) ، كما يرجح أن فكرة إقامة الحصون والأطام ^(٣) على قمم الجبال فى شمال بلاد الحجاز إنما أتت بها اليهود من مناطق استقرارهم الأولى ^(٤) ، الذى كثرت فى جباله الحصون المنيعة . وثمة دلالة أخرى لهذه " الأطام " العسكرية ، أن اليهود فى الحجاز ، تفردوا بهذا التقليد الدفاعى ، ربما تحت تأثير الشعور بالخوف الذى دفعهم إلى التكتل والعزلة ، فى مناطق كانوا طارئين عليها ولم يطمئنتوا كثيراً إلى قبائلهم المجاورة لهم ^(٥) ، حيث عاش اليهود فى أحياء وقرى خاصة بهم فى يثرب وما حولها ، كجاليات طارئة على عادة بنى اسرائيل منذ تشردهم فى مختلف الأكناء والبلاد ^(٦) . ويستتج ذلك من كثرة الحصون والأطام ،

(١) اليهودى : وفاة لولا ١٦٦/١ .

(٢) أحمد محمود صلبون : المرجع السابق ، ص ٢٢١-٢٢٥ .

(٣) الأطلام : هى أبنية مرتفعة بنيت بالحجارة ، تُنظر إلى منظور : لسان العرب ١٩/١٢ .

(٤) يستدل من بداية الحصون والأطام عند اليهود فى بلاد الحجاز أنهم ليسوا عرباً ولا من أصل عربى ، إلا لو كانوا عرباً لكانت لهم فى قبائلهم عزوة ينتصرون بها على أعدائهم ، ولكن من قبائلهم نصير يعززون به ويمتصرونه ، وإما بنى اليهود هذه الحصون وتلك الأطام ليتجنبوا إليها إذا لحز بهم أمر أو أصابهم مكروه ، ولو كانوا من أصل عربى لتمسكوا بقبائلهم وألوا إلى قوتهم ، وما يؤيد ذلك أنه لم يكن لليهود فى يثرب والحجاز عصبه قبلية بين أعرب وإنما كانت صلاتهم بقبائل العربية صلة حلف ومصالح مشتركة ، ولذلك لم يجدوا بين قبائل العرب من يقف إلى جانبهم بدافع انصيابة حين حاربهم القبلى - صلى الله عليه وسلم - وطرد بعضهم من المدينة وكفى على بعضهم الآخر ، بل أنهم حين خرجوا من المدينة لم يرحلوا إلى الشام . انظر :

أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ وكذا أحمد محمود صلبون : المرجع السابق ، ص ٢٣١-٢٣٢ . وانظر عن "الأطام " : السيد عبيد ملى : " لعلوم المدينة المنورة " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض ، المجلد الثالث ، الرياض ١٣٩٣-١٣٩٤ م / ١٩٧٣-١٩٧٤ م ، ص ٢١٣ - ٢٢٦ .

(٥) اليهودى : وفاة لولا ١٦٦/١ ، وكذا اسرائيل ولتسون : المرجع السابق ، ص ١٦ وكذا :

Lammence,H.,op.cit.p.68 f.

(٦) محمد عزة نروزة : المرجع السابق ، ص ٤٢٤ .

التي أقامها اليهود للاحتفاء بها وكانت في الغالب تحمل اسم رجل أو زعيم مهم من رجالات اليهود، أو اسم عشيرة يهودية ^(١) ، أو اسم وادٍ من الأودية التي يحتمون بها ^(٢) ، أو اسم جبل من جبالها ، أو يحمل اسماً له مدلوله عند اليهود ^(٣) .

هكذا عاش اليهود في يثرب عبر مجموعات ثلاث ^(٤) ، عرفت في التاريخ بالقبائل ، حيث كان بينها من التناحر ما شابه الصراعات القبلية لدى العرب ، ولا شك أن اختلال نفوذهم في يثرب ، كان نتيجة حتمية لوحدهم المضطربة وإخفاقهم في تكوين جبهة سياسية متماسكة ، فهم في أكثر أمورهم كالعرب ، حيث لبسوا لباسهم وتظاهروا معهم ، فتروج اليهود عريبات وتزوج العرب يهوديات ، ولعل كون بعض اليهود من أصل عربي ، هو الذي ساعد علي تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعريبات والعكس ، والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود عند ظهور الإسلام هو الاختلاف في الدين ، وقد تمتع اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد ^(٥) ، كما أن يهود يثرب وبقية الحجاز الذين أقاموا بين ظهرائي العرب ، لم يعرفوا سوى اللغة العربية لغة يتكلمونها ، لهذا كان من الضروري أن يتعلموا هذه اللغة ، وأن يعتدوها لغة التخاطب ^(٦) ، حتي يمكنهم التعايش مع السكان الأصليين للمنطقة ، التي اتخذوها دار مقام لهم .

(١) ليراتيل ولتسون : المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٢) الديول بكري : تاريخ الخميس في أحوال القنيس ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ص ٤٥ .

(٣) ليراتيل ولتسون : المرجع السابق ، ص ١٦٧ (٥) .

(٤) خريطة والتفسير وتيفاق ، ولكن Watt يضيف إليهم قبيلة ربيعة وهي قبيلة التي لا تدور أن تكون فرعاً من المجموعة الأولى (خريطة) . قطر :

Watt, W.M., Muhammad at Madina, Oxford 1956, p. 96.

(٥) جواد طي ١٣٢٧/١ ، وكذا :

Gratez, H., op.cit., p.p. 58-60 ; Watt, W.M., op.cit. p.297 .

(٦) من المرجح أن هذه اللغة لم تخل من وطأة عربية ، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العربية تركاً تاماً ، حيث إن اللغة العربية كانت لغة كتبهم وطقوسهم ومدارسهم وتعاليمهم . قطر :

ليراتيل ولتسون : المرجع السابق ، ص ٢٠ وكذا :

محمد عزة درويزة : المرجع السابق ، ص ٥٠ ، ٤٣٦ .

وعلي أية حال ، فقد جاءت هذه المحاولة علي هامش قضيتين أساسيتين في حياة اليهود في الحجاز : الاولى ، مرتبطة بالولاء المصلحي المطلق ، الذي ألغى دور القبيلة كنظام يتعارض والنزعة الفردية المتحكمة في سلوكه الاجتماعي والاقتصادي ، والثانية ، يحركها الشعور الدائم بالخطر ، حيث يعيش في محيط عربي ، للقبيلة فيه نظامها الجماعي ، وقرارها الازمائي من حيث المبدأ ، ولعل ذلك كان وراء النمط الحياتي الخاص الذي فرضه اليهود علي انفسهم ، وفي الحجاز بصفة عامة ويثرب بصفة خاصة وانعكس علي مظاهر التحصين - كما ذكرنا سابقاً - في احياءهم المغلقة والمعروفة بالأطام .

وعلي أية حال ، كل ذلك يفسر الفقدان يثرب إلي زعامة بارزة علي مستوى التنافس مع مكة المكرمة ، التي وظفت دورها الديني في خدمة مصالحها الاقتصادية داخل الحجاز وخارجه ، بحيث كان كل من الدورين متلازماً مع الآخر ومكملاً له ، ولعل يثرب ، ربما تحت تأثير أهميتها الجغرافية كمحطة علي طريق الشام بعيدة عن مكة المكرمة ، كانت مؤهلة لاحتلال دور الشريك لهذه الأخيرة إن لم يكن المنافس لها ، ولكن انطواء هذه المدينة علي تناقضاتها الداخلية واستمرار اليهود قوة فاصلة لوقت غير قصير ، ربما أعاق اتخاذها اي دور ديني رائد في الحجاز ، وحالا ، بالتالي ، دون قيام مركز يهودي وثني فيها ، وذلك نتيجة لاتعدام التماسك ، سواء في العقيدة أو في المصلحة بين قبائل يثرب .

إن صورة الوضع السكاني خارج المدن أقل وضوحاً ، حيث خضعت للتحرك القبلي المتذبذب حيناً والمتدافع حيناً آخر ، فضلاً عن أخباره المضطربة في كتب الأنساب ، التي تجعل من تتبع لمراكز هذه القبائل وبطونها وأفخاذها وعائلاتها ودوائر نفوذها أمراً في غاية الصعوبة ، ولا بد أن يعيدنا ذلك الي المنظومة التقليدية عن التصنيف المتبع في حصر انساب العرب كلها في أصليين أساسيين قحطان وعدنان ، فإننا نرى القبائل كما يفهم من روايات الإخباريين كلاً ، تُرجع كل كتلة منها نسبها الي جد قديم تزعم ان قبائلها انحدرت من صلبه^(١).

(١) جوه طي ٤١٤/٤ - ٥٤٠ .

من الواضح ان هذه الأخيرة تمثل بما يسمى علماء الأنساب بالشجرة العدنانية ، مقتصرأ في الغالب علي ذكر القبائل الكبرى الممثلة لقبائل الحجاز البدوية منها والمتحضرة علي السواء^(١) . ومن ثم فإن مكة المكرمة ، استنادا إلي ذلك منطلق الحزب المنحدر من عدنان^(٢) من سلسلة تنتهي باسماعيل بن ابراهيم الخليل - عليهما السلام - ومنه كان نزار بن معد سيد بني أبيه وعظيمهم ، ومقامه بمكة ، وكان له من الولد أربعة : مضر وايد - وربيعه - ولنمار^(٣) ، وكانت مضر محور القبائل العدنانية في الحجاز ، حيث طغت علي بقية الفروع حتي اندماجها في فرع قيس بن عيلان^(٤) ، فحملت اسمه ، الذي اصبح مرادفا لهذه القبائل وممثلا لها^(٥) .

ليس الهدف من هذه الدراسة التحدث عن مواضع تقسيم القبائل العربية المألوفة عند الإخباريين ، وتصنيفها جنوبية وشمالية ، وخصوصاً الشمالية ، المعنية بالانتشار السكاني في الحجاز ، ولكننا سلعرض فقط المسميات القبلية ومراكز استقرارها الثابتة والمتحركة في الحجاز، ومن ثم البحث في علاقتها مع المدن الحجازية والمصالح المشتركة بينها ، لا سيما مكة المكرمة ، فالشجرة العدنانية التي يزعم النسابةون أنها ملتقى العرب الحجازيين وفروعهم ، يكاد امتدادها التسلسلي يقتصر علي مكة المكرمة ، ربما نتيجة للدور الجذري ، الذي تبوأته به

(١) لعل هذا التفرز القبلي وما يتضمنه من تحديد عربي ، لا يتوافق وللنظريات السكانية الحديثة ، التي ترفض هذا الانتماء التسلسلي في وقت لم تتوقف فيه هجرة القبائل عند حد في التحرك أو التمزج مع بعضها البعض أو مع الآخرين ، ولعل الخلقة السليسية تتخذ دوراً أكثر أهمية في الانتماء القبلي ، ذلك الذي تبلور بشكل خالص في العصر الأموي ، حيث تركز الانقسام إلي جزئين كبيرين ، الأمر الذي صرح به بعض التسالين المعروفين إن العرب ثلاث : نزار واليمن وقضاعة ، علي بعد المسافة الزمنية ، التي تجعل من هذه المسألة أمراً في غلبة الصعوبة وللتعقيد . انظر : جواد علي ٤/٢٠٠ وكذا محمد عبدالغني سعودي : الجغرافية والمشكلات للدولة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (بدون) ص ٥٠-٥١ .

(٢) يقول بعض التسالين ان عشرون لباً بين اسماعيل - عليه السلام - وخفيده عدنان ، ولغيرهم لربيعن . انظر : شيمتوي ١/٢٢٢ - ٢٢٣ وكذا تاريخ ابن خلدون ٢/٢٩٨ .

(٣) اليعقوبي ١/٢٢٣ .

(٤) يعتمد من مضر حسب رواية التسالين : إلياس المعروف بـ عيلان ، ويرى اليعقوبي ان عيلان هو ابن لكر لمضمر . انظر : اليعقوبي ١/٢٢٧ ، انظر عن فرع قيس عيلان بن مضر : حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٥٨-٦٦ .

(٥) يتصل إلياس بقصى زعيم قريش عبر مدركة وخزيمة وكثلة والنتضر وملك وغالب ولوي وكعب ومرة وكلاب . انظر : اليعقوبي ١/٢٢٧-٢٢٨ وكذا تاريخ الطبري ٢/٢٦٨-٢٧٠ وكذا جواد علي ٤/٤٧٦-٤٨١ . وانظر عن فرع إلياس بن مضر : حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٦٦-٦٩ .

كمناطق للإسلام.

وإذا صح التكوين القبلي بتفاصيله المضطربة في مكة المكرمة فثمة تكوينات^(١) ، خارج هذه المدينة لا تخضع لقانون ثابت ولا تزال موضع خلاف لدى المؤرخين ، ولعل قضاة^(٢) ، والتي تنسب الي قضاة بن عدنان^(٣) في رأيي، لما الآخر فيري أن قضاة بن مالك بن عمر بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير^(٤) .

وعلي أية حال ، فهي من القبائل الكبيرة في الحجاز التي تجسد عملية التمازج القبلي في هذه المنطقة ، تحت ضغط المتغيرات السياسية والاقتصادية ، التي تعرضت لها في ذلك الوقت، ويبدو أن قضاة كانت إحدى الهجرات اليمنية المرتقة من التجارة والدقيرة في فلكها ، حيث انتشرت علي طريق القوافل^(٥) ، واتخذت أول مراكز نفوذها في ميناء مكة المكرمة حيث يستخدمون هذا الميناء والموانئ القريبة منه للاتصال بالبحشة والصومال ومصر أيضاً . ومن المعروف أن قریشاً لم تكن تملك سفناً في البحر الأحمر والأرجح لهم استخدموا سفناً كانت تعمل لحسابهم^(٦) . وهذا قبل أن تمتد قضاة شرقاً إلى الحجاز ونجد وشمالاً نحو الشام ، ذلك أن بعض قبائل قضاة الأصل ، أوردتها النساجون بين القبائل الحجازية وفي طليعتها بلي^(٧) ، التي أقامت بجوار تيماء وجهينة^(٨) ، إلى الشرق منها فقد كانت منازلها في نجد ، في الأصل ، وعند ظهور الإسلام كانت تقيم في الحجاز علي مقربة من المدينة بين ساحل البحر الأحمر ووادي القرى^(٩) ، أما الثالثة فهي

(١) نكر الطبري في معجمه : وتزل الحجاز من العرب لد وعس وعطفان وخزارة ومزينة ولهم وعولان وهذيل وخثم وسلول وكلاب بن ربيعة وطى ولحد ، ص ٢٢ .

(٢) ابن حزم جبهة لساب العرب ١ / ٤٤٠ - ٤٦٢ .

منك مشكلة قضاة وحررة النسلين في نسبها إلى عدنان أو قحطان ، ربما كانت دليلاً علي صحة ما يقوله ابن حزم من أن قضاة قوم من العرب متعديين بانفسهم لا الي قحطان أو عدنان . انظر : حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٣٨-٤٣ .

(٣) البلاذري : لساب الأشراف ١ / ١٥١ نهاية الأرب للفتنندي ، ص ٣٥٨-٣٥٩ .

(٤) اليعنوبي ١ / ٢٠١ ابن حزم : جبهة لساب العرب ٢ / ٤٤٠ .

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٩ .

(٦) السيد عبدالعزيز سلم : المرجع السابق ، ص ٣٦٣-٣٦٤ .

(٧) بلي بن عمرو بن الحاقلي بن قضاة . انظر : صبح الأعشى ١ / ٣١٦ .

(٨) جهينة بن ليث بن مود بن لسان بن الحاقلي بن قضاة . انظر المصدر نفسه .

(٩) جواد علي ٤٢٥ - ٤٣٠ .

عذرة^(١)، وتقع منازل بني عذرة في أعالي الحجاز في جوار عدد من القبائل المنتشرة إلى مجموعة قضاة، وتقع أرضها إلى جوار غطفان، ومن مواضعها: وادي القرى وتبوك حتى إيلة، أي إنها إقامة على الطريق التجاري البري الجنوبي - الشمالي، حيث نجد أن عذرة لها علاقات ودية مع مكة^(٢)، على غرار القبائل المقيمة على امتداد هذا الطريق أو بجواره، بعد أن أصبح مصدر ارتزاقهم الرئيسي وثمة قبيلة رابعة، تنسب أيضا إلى قضاة وهي كلب^(٣)، التي انتشرت في جنوب الشام حتى أعالي الحجاز، وذلك بتأثير الدوافع نفسها للتحركات القبلية، في المنطقة، ومع الطموح إلى القيام بدور أشد خطورة، وهو التحكم في نهاية الطريق التجاري وسوقه الكبرى في بصرى^(٤)، التي يلتقي عندها خطا الحجاز والخليج^(٥)، وكانت دومة الجندل^(٦)، حيث مركز هذه القبيلة من أهم الأسواق التجارية بعد بصرى، وتميزت بأنها سوق موسمي كان يؤمها التجار للتبادل، حيث كان التجار ينزلونها أول يوم من شهر ربيع الأول، يجتمعون في أسواقها للبيع والشراء والتبادل^(٧).

تفرعت من قضاة قبائل سبعة، هي: نهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم ابن الحاف بن قضاة، وجهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن

(١) عذرة بن هزيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاة، انظر صبح الأعشى ٣١٦/١ - ٣١٧.

(٢) جواد على ٤٣١/٤ - ٤٣٢.

(٣) كلب بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة، انظر:

صبح الأعشى ٣١٦/١ نهاية الأرب للتلطد، ص ٣٦٥.

(٤) نريد ذكر بصرى في كثير من شمار العرب في الجاهلية، وكثرت بصرى مدينة شديدة الحصانة والمنعة، انقود بوظيفتها كمركز ومحرس لبلاد الشام، وكثرت تواف المحطة لتجارية الإخوة لقوافل قريش، والسوق الكبرى للخلال بالنسبة للحجاز، كما كانت تشتهر بسلعتها ودروعها، وكثرت أسواق بصرى تمتد خارج أسوارها، وقد قصدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو صغير مع عمه أبو طالب، فلم تستغله بالتجارة إلى قشلم. انظر: ابن هشام ١٩٢/١ وكذا السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٥) لويس ارثيوالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، ومراجعة محمد شفيق غريمال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠، ص ١٦.

(٦) أدوماتو، وفي التوراة دومة، وفي جغرافية بطليموس (Dumatha) Adomatha، لما في المصادر العربية اسم دومة الجندل، نسبة إلى دومة (أو دومان أو دومة أو دوما) ابن إسماعيل ابن إبراهيم الخليل - عليهما السلام - وهي الآن في الجوف. انظر ياقوت ٤٦٨/٢ - ٤٨٧؛ البكري ٥٦٥/٢؛ لويس مومل: شمال الحجاز، ترجمة الدكتور عبد المحسن الضبي، الإسكندرية ١٩٥٢، ص ٦٧.

(٧) جواد على ٣٣١/٧.

قضاة ، وعذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاة ،
وسليم بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة ، وكلب بن وبره بن تغلب بن
حلوان ، وتتوخ وهو مالك بن فهم بن تيم الله بن الأسد بن وبره بن تغلب بن حلوان ،
فهذه جماهير قضاة (١) .

إن أكثرها شهرة تلك التي مر ذكرها حيث تعيش بعضها مع اليهود في
وادي القرى كبنى جهينة ، والأخرى امتدت على طريق الشام ، فضلاً عن
مجاورته للثنتين معاً ، كبنى عذرة ، والذين توغلوا في أعالي الحجاز حتى جنوبي
الشام ، كبنى كلب ، وهذه التكوينات القبلية سواء كانت هجرة يمنية (٢) ، غير بعيدة
العهد ، حيث تفرق أهل اليمن في البلاد وخروجهم من ديارهم بسبب سيل الغرم (٣) ،
أو أنها انتسبت إلى الشجرة العدنانية ، فيما يزعم النسابون ، ابن نزار بن معد بن
عدنان ، وكان نزار يكنى أبا قضاة (٤) .

يتضح أن مواقع نزول القبائل ، ربما أدى إلى كشف نمط حياتها الذي
كان أقرب إلى الاستقرار منه إلى التنقل من مكان لآخر ، وهذا يعني أن مصادر
عيشها ارتبط عضوياً بأنظمة مستقرة من الناحية الاقتصادية ، سواء في محطات
ثابتة على الطريق التجاري التقليدي ، أو في المناطق الزراعية التي أقامها اليهود في
يثرب ومجاورتها .

تعد قبيلة جذام ، التي تنسب إلى عمرو بن عدى بن الحارث بن مرة ،
وكانت ديارهم حوالى أيلة من أول أعمال الحجاز إلى ينبع من أطراف يثرب ،
وكانت لهم ريادة في معان وما حولها من أرض الشام (٥) ، وهي من القبائل
اليمنية ، والتي كان لها تأثير في الحياة السياسية والاقتصادية بالحجاز .

(١) اليعقوبي ٢٠٢/١ - ٢٠٣ .

وردت ضد التتخذى مع شيء من الاختلاف : بلى ، جهيلة ، كلب ، عذرة ، بهراء ، مهد ، جرم . انظر :

دلهة الأرب للتتخذى ، ص ١٧٠-١٧٢ ، ١٩٤ - ١٩٦ ، ٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٣٢٦ ، ٣٥٦ ، ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) اليعقوبي ٢٠١/١ ، ٢٠٣ .

(٣) انظر عن سيل الغرم : محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) في بلاد العرب ، ص ٢٤٧ - ٢٥٢ .

(٤) اليعقوبي ٢٠٢/١ .

(٥) اليعقوبي ٢٠٢/١ ، دلهة الأرب للتتخذى ص ١٩١ - ١٩٢ وكذا جواد على ٤٦٢/٤ - ٤٦٣ .

أما عن القبائل العدنانية^(١) ، فى الحجاز ، فهى مضر بن نزار وقيس ابن عيلان^(٢) ، وتتصدر بنى مضر قبيلة كنانة ، التى تنسب إلى مدركة بن إلياس ابن مضر^(٣) ، وإليها انتسبت قريش ، وتليها هذيل ، والتى تنسب إلى مدركة بن إلياس بن مضر^(٤) ، والتى كانت ديارها بجبال السروات ، وممراتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف ، ولهم أماكن مياه فى أسفلها من جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة^(٥) .

أما التى تتصدر قيس ، فهى قبيلة غطفان^(٦) ، والتى تنسب إلى سعد بن قيس بن عيلان ولأتى تفرعت بدورها إلى ثلاثة قبائل : أشجع وعيس وذيبيان^(٧) ، وتقع منازلهم شرقى خيبر وحدود الحجاز إلى جبل طى^(٨) ، ثم انتشرت بعد تفرعها ، حيث أشجع ، مابين ضواحي يثرب ، أما عيس فقد كانت إلى الشمال الغربى من أشجع ، أما الأخيرة ، ذيبيان ، فقد كانت فى وادى القرى ونجد^(٩) ، وبين هذه الأخيرة تفرعت منها فزارة ، التى كانت على عداوة تقليدية مع عيس^(١٠) ، وتقع مواطن فزارة بنجد وبوادي القرى ، انتشروا بعد ذلك فى مواطن أخرى^(١١) .

(١) انظر عن نسب عدنان : المعارف ص ٦٣ .

(٢) يرى بعض المسلمين انه ابن آخر لمضر ، ولحق بهمله حفيدا له . انظر : البكري ٢٢٦/١ - ٢٢٧ ، البلاخرى : نسب الأشراف ٢٢/١ ، نهلة الأرب للتقشدى ، ٣٦٦ .

(٣) تاريخ الملبى ٢٢٦/٢ ، نهلة الأرب للتقشدى ، ص ٣٦٦ .

(٤) نهلة الأرب للتقشدى ، ص ٣٨٧ .

(٥) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

(٦) هى قبيلة كبيرة معروفة ، وهناك قبيلة أخرى تسمى بـ (غطفان) ، كذلك ، وهى بمثابة ، تنسب إلى غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذلم . انظر : جواد على ٥٠٨/٤ .

(٧) البلاخرى : نسب الأشراف ٤٤٢/١ ، نهلة الأرب للتقشدى ، ص ٣٤٨ .

(٨) جواد على ٤٧٦/٤ .

(٩) السبيلى : الروض الأثف ١٢٣/١ .

(١٠) قتلت بينهما حرب للشيرة بـ " دلص والبراء " ، ولتى ولدت بين عيس وزيبان ، وكلفت لحرب بينهما سجالاً وقتلت بصلح ، ودلص والبراء أسماء قرشية لقبى بن زهير ، وتشتمل هذه الحرب على أيام المريقب وذى حصاء واليسرية والهباءة وفروق . انظر : نهلة الأرب للتقشدى ، ص ٤٠٥ (٣) جواد على ٥١١/٤ وكذا سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

(١١) تشتت فزارة إلى خمسة فروع وهى : عدى ، ظالم ، شمع ، ملون ، سعد ، وهذه الأخيرة يشار إليها جواد على بـ مرة ، التى ينسبها التقشدى إلى هذه القبيلة . انظر نهلة الأرب للتقشدى : ص ٢٦١ - ٢٦٨ ، ٢٨١ ، ٢٩٨ ، ٣٢٢ - ٣٢٥ ، ٣٦٨ وكذا جواد على ٥١٢/٤ - ٥١٣ .

هناك من القبائل التي تنسب إلى قيس بن عيلان ، قبيلة بنو سليم ، وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن حصفة بن قيس ، وقد كانت منازلهم فى عالية نجد بالقرب من خيبر ، حيث منازلهم حرة سليم وحرة النار ووادي القرى وتيماء ، وهى أرض شديدة الخصوبة وكثرة معاننها ، وكانوا على صلات حسنة باليهود ، كما كانوا على صلات وثيقة بقريش ، وقد تحالف معهم أشرف مكة وكبارها لما لهم من علاقات اقتصادية بهذه القبيلة ^(١) ، وينسب إلى هذه القبيلة بنو زغبة (زغب) ، وهى بطن من بهته من بنو سليم العدنانية ، وهم بنو زغب بن مالك ابن بهته ، وكانت ديارهم بين الحرمين ، مكة ويثرب ، ثم انتقلوا إلى المغرب فسكنوا شمال أفريقيا ^(٢) .

أما الثانية ، فقد كانت قبيلة بنى هوزان ، وهى بطن من قيس عيلان العدنانية ، وهم بنو هوزان بن منصور بن عكرمة بن حصفة بن قيس عيلان ^(٣) ، وقد توقفت على الاولى ، من حيث للشهرة والكثافة فى عددها ومدى انتشارها ، حيث اقامت فى نقاط عدة متفاوتة الأهمية على تخوم نجد واليمن ، فضلاً عن مركزها الرئيسى فى نواحي الطائف ، ولقد أعطتها هذا الموقع الوسط على مقربة من قبائل ذات نفوذ كبير مثل قريش وتقيف وكنانة ، دوراً غير هامشي فى الأحداث التى مرت بالحجاز ، التى سبقت الإسلام. أو التى عاصرت بداياته الاولى ، فتمه أخبار عن حروب تقيف ، حيث نجد تقيفاً تهاجم فيها فى الطائف ، فتضطر عندئذ للدفاع عنها ^(٤) ، ربما كان محورها الصراع على النفوذ فى هذه المنطقة الحساسة التى وصفت بأنها قلب شبه الجزيرة العربية فى ذلك الوقت ، ولكن محاولات قبيلة هوزان آلت إلى فشل وهزيمة ، وإلى اعتراف بسيادة قريش وتحالفها مع تقيف ، ومن ثم إلى ارتباط بشبكة المصالح القرشية ، التقيفية المشتركة ^(٥) .

(١) نهلة الأرب للتقشدى ص ٢٧١ - ٢٧٢ : السهرى : ولله لولا ١٩٨/١ ، صبح الأضى ٢٤٥/١ - ٢٤٦ ، جواد على ٥١٨/٤ .

(٢) نهلة الأرب للتقشدى ، ص ٢٥١ وكذا سعد زغلول عبدالصمد : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(٣) نهلة الأرب للتقشدى ، ص ٣٩١ .

(٤) ابن الأثير : التلخيص ٥٨٨/١ : السهرى : فروض الألف ٢١٠/١ : صبح الأضى ٢٤٦/١ ، جواد على ٥١٧ .

(٥) Lammence, H., La Mecque a La Veille de L'Hegire, Beyrouth, 1924, p. 177.

أما الأخيرة ، فقد كانت قبيلة بنى عامر ، التى يتنسب إلى عامر بن هلال بن صعصعة ، وهم بطن من هوازن العدنانية ^(١) ، ولقد ذهب رأى ^(٢) ، الى احتمال كون بنى عامر هم (Hamirei) , (Hamirou) , (Hamirinoel) ، وتقع منازلهم بين منازل قبائل هوازن وتثيف ، ولهم مع القبائل الأخرى حروب عديدة ^(٣) .

بالإضافة إلى ما سبق ، فهناك ثمة قبائل أخرى عدنانية قد لا يكون تتبعها فى مراكزها المتحركة على جانب من السهولة خاصة ، وأن فروعها الرئيسية الثلاثة وهى : مضر وقيس وربيعة ، المتشعبة بدورها إلى مجموعات متداخلة حيناً ومتباعدة حيناً آخر وربما أفقدت القبيلة وحدتها بعد أن نأى العهد بين الأصل والفروع منها .

إن للمحاولة من الدراسة السابقة ، لا نقصد بها التعرف على أسباب القبائل فى الحجاز ، بقدر ما نقصد من ذلك ، الاهتمام بالتعرف على مناطق التحركات القبلية فى البادية ، خارج المناطق الحضرية ، كما يهمنا الوقوف ، من ناحية أخرى ، على العلاقة بين البادية والحضر ، ومدى التأثير الذى مارسه إكلأ منهما فى الحياة السياسية والاقتصادية فى الحجاز ، والتى كانت مكة المكرمة توجهها فى ذلك الوقت ، حيث كانت زعيمة لقبائل العرب فى وسائل التجارة والدين قبل ظهور الإسلام ، لم أظهر رجالها من كياسة ومهارة ضمنت لهم الاستمرار لهذا التميز ، وعلى أيديهم تفتحت واتسعت آفاق عصر جديد فى تاريخ التجارة فى شبه الجزيرة العربية ، حيث كانت التجارة فى شبه الجزيرة العربية تقتصر على عدد من الأسواق الداخلة تبدأ عند هجر والمُشَقَّر على ساحل الخليج وتتوالى بعد ذلك فى نسق من موضع إلى موضع من شرق الجزيرة إلى جنوبها حتى عدن ، ثم تصعد إلى مكة المكرمة .

هناك تجمعات قبلية أخرى ، أقل أهمية ، حيث كانت لها إقامة كاملة

(١) نهاية الأرب للفتننى ، ص ٣٠١ .

(٢) نهاية الأرب للفتننى ، ص ٣٠١ وكذا جود على ٥٢٠/٤ .

(3) Ency.Of Islam, I , 329.

أو متفرعة على طول الحجاز وعرضه ، وعلى تخومه ، ومن هذه القبائل ، كانت
 عنزة ^(١) ، والتي تعد من القبائل العربية الكبيرة ، ولها بطون عديدة في الحجاز ،
 حيث استقر نفوذها جهات خير ^(٢) ، أما قبيلة عبد القيس ^(٣) ، فقد امتدت ما بين
 تهامة والبحرين عبر اليمامة ، حيث اتصلت على الأرجح بتجارة الخليج ، التي
 كانت تنتقل عن هذا الطريق إلى مكة المكرمة ^(٤) ، أما الثالثة فقد كانت بكر بن
 وائل ^(٥) ، والتي انتقلت من تهامة إلى شرقى شبه الجزيرة العربية وغربى الفرات
 فى العراق ^(٦) ، أما الأخرى فقد كانت بنو حنيفة ^(٧) ، وهى من بكر بن وائل من
 العدنانية ، وكانت منازلهم اليمامة ، التي كان من الصعب فصلها جغرافياً أو قبلياً
 عن إقليم الحجاز ^(٨) ، ولا سيما فى تلك المرحلة التي يمكن تسميتها بالعصر الذهبي
 الأول للحجاز ، فقد توثقت عرى الاتصال وتداخلت المصالح بين مكة المكرمة ،
 والنقطة المركزية فى شبه الجزيرة العربية وبين هذه الأطراف المتشابكة معها ،
 سواء تهامة فى الغرب أو اليمامة فى الشرق ، ولعل ذلك يتفق مع عبارة البعض :
 " وديار العرب هى الحجاز التي تشمل على مكة والمدينة واليمامة ومخالفها ونجد
 والحجاز المتصل بالبحرين " ^(٩) ، وبالنسبة لقبيلة بنى حنيفة ، فقد سيطرت على
 مرافق اليمامة الحضرية منها والبدوية ، حيث يرى فيها أحد الباحثين ^(١٠) ، أنها
 كانت دولة عربية أو مملكة ^(١١) ولياً لما كان الأمر ، فإن الموقع الذى نزلت به بنو

(١) عنزة بن لؤي بن ربيعة . نظر البلاتى : قصاب الاشراف ١/٢٠١ جواد على ٤٨٢/٤ .

(٢) نهاية الأرب للقسندى ، ص ٣٤١ .

(٣) عبد القيس بن قصى بن دصى بن حنبلة بن لؤي بن ربيعة بن لؤي المشيرة . نظر :

ابن حزم : جمهرة قصاب العرب ٢/٤٦٩ .

(٤) نهاية الأرب للقسندى ، ص ٣٠٧ .

(٥) ابن القبطين هب بن قصى بن دصى بن حنبلة بن لؤي بن ربيعة بن لؤي بن معد بن عدنان . نظر :

نهاية الأرب للقسندى ، ص ١٦٩ .

(٦) جواد على ٤٨٤/٤ - ٤٨٧ .

(٧) بن لؤي بن سعب بن علي بن بكر بن وائل . نظر : نهاية الأرب للقسندى ، ص ٢٢٣ .

(٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٢٨٠ .

(٩) ابن الجاور : تاريخ المسترصر ١/٣٩٩ .

(١٠) رضوان السيد : الأمة والجماعة والسلطة ، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٢٥ .

(١١) يرى البعض أنها كتبت على غرار دول الأشراف (القساسنة والمناذرة) وكلفت لها علاقاتها بالقرى وإمارة الحيرة الخصبة .

نظر : سعد زغلول عبد الصمد : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ وكذا محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٥٥٦ - ٥٩٧ .

حديثة ، كان على جانب كبير من الأهمية ، يؤهلها لـ دور تجارى بارز قد لا يختلف كثيراً عن الدور الذى شغلته تدمر ، فهى من جهة تطل على تجارة الخليج العربى ، حيث يبدأ الطريق من الحجر ^(١) ثم اليمامة ماراً بمكة المكرمة ^(٢) . ولقد كانت الحجر تتصل شرقاً بالبحرين حيث بلى تميم ، وجنوباً بأطراف اليمن والحجاز ، وشرقاً وبارض نجد ، كما إنها كانت كلها بلاد نخل وزرع ، الأمر الذى أعطاها ذلك الطابع المتجاذب بين البداوة والاستقرار ^(٣) .

وهكذا تبدو اللوحة القبلية فى الحجاز متناسقة الخطوط ومتقنة الألوان ، إن لم يكن فى منحدرات أصولها ذات التشعب الفطرى الواسع ، ولكن فى ظروفها الجغرافية والاقتصادية المتشابهة ، بحيث لا نجد تبايناً كبيراً بين ما هو شائع عن وجود نمطين مختلفين تماماً فى المجتمع الحجازى ، أحدهما حضرى والآخر بدوى ، وإذا كان لابد من الاعتراف بوجود نماذج أكثر تنظوراً فى المدن المعروفة ، فإن ذلك لا ينفي وجود نماذج أخرى ، تقترب منها أو تتلقى معها ، عند حد معين ، من ذهنية عامة مشتركة ، كنظام اجتماعى متقارب .

ولم تكن البداوة الحجازية فى مطلق الأحوال إلا مظهراً لنظام حياتى ، فرضته البيئة بشتى ظروفها ، حيث إنها تكون مرافقة للتخلف ، مذاقصة للتحضر الذى يتلازم و الاستقرار فى المدن ، حسب المفهوم السائد لهذه الكلمة ، فلا بد أن يستمد ذلك مع تغلب البداوة فى شبه الجزيرة العربية وتطور أنظمتها ، التى أخذت تتبلور فى هذا الاتجاه منذ القرن السادس الميلادى ، حيث شهد الغرب صعوداً

(١) مدائن صالح ، تقع على مسافة ١٥ كيلومتر إلى الشمال من مدينة العلا الحالية ، على الطريق التجارى الهام الذى يربط جنوب شبه الجزيرة العربية بسوريا . انظر : عبد الرحمن الأندلسى ، المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٢) جولا على ٣٤٤/٧ .

(٣) زكريا بن محمد القزوينى : ذكر البلاد وأخبار العباد ، تصليف زكريا بن محمد القزوينى ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م ، ص ١٣٦ وكذا خليل إسماعيل محمد : " تطور الفكر الجغرافى عند المسلمين " ، مجلة البلاغ ، المند السادس ، ١٩٦٦ م ، ص ٤٠ وكذا سعد زعزل عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

للبدواءة تزامن مع صعودها الشمالي ^(١) ، في الوقت الذي يفترض أن هذه المرحلة من التخلف قد تجاوزت نفسها ، استناداً إلى المفهوم نفسه .

إن قريشاً في مجموعها كانت قبيلة ناجحة وسط القبائل عرفت كيف تهيء لنفسها مكاناً صدرأ بين القبائل في شبه الجزيرة العربية كلها قبل الإسلام ، وكان نظامها الداخلي يجمع بين النظام القبلي وبعض خصائص الحضرة ، وقد أفاد القرشيون من النظام القبلي وما تأتي عن إستقراهم في مكة من خصائص الحضرة ، وعرفوا كيف يسوسون بلادهم ويقومون بمسؤوليتهم تجاه التجارة وتجاه الكعبة ، وأفادوا من الوجهين أكثر الفائدة ^(٢) .

وهكذا تصبح قبائل شمال غرب شبه الجزيرة العربية ، وكأنها ولايات ترتبط بشئ من المركزية مع مكة المكرمة ، عاصمة بلاد الحجاز المزدهرة ، دون أن تكون معزولة في خيامها البائسة لو علي ارتحال دائم بحثاً عن الكلاً والماء في الصحراء المجدية ، لقد كانت خلافاً لذلك ، تعيش علي أبواب حضارات قديمة ، تطل عليها من نقاط وجودها شبه الدائمة و المستقرة ، أما علاقتها بمكة المكرمة ، فلم تكن ذات مضمون احتكاري حسب اعتقاد Lammence ^(٣) ، ولكنها ارتبطت معها بمواثيق ومعاهدات تجارية ولمنية ^(٤) التي كانت تعبيراً ملحاً عن الحاجة المتبادلة بين الطرفين ، فجميع هذه المؤشرات صبت دون ريب في أهمية الدور الذي مثله القبائل البدوية في الحجاز وتوابعه، ذلك الدور الذي تبلورت مع حركة الفتوح الإسلامية، حيث هؤلاء البدو ، مادة الأكثرية من الجند ، التي رافقت الطلائع المبكرة لهذه الجيوش من مسلمي المدن الحجازية ^(٥) .

(١) رضوان السيد : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٢) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(3) Lammence , H. La Republique Marchande De La Mecque , Beyrouth, P.P. 52,54.

(٤) فقد عثت قريش معاهدات مع لواء العرب في شبه الجزيرة العربية مع شيوخ لاس ولؤلؤ القين ولأراء اليمامة وطوك عمان والحيرة ، وكثت هذه المعاهدات تسجل في مهلق وصحف لو علي الأديم . انظر : السيد عبدالعزيز سلم : المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٥) خالد طه الهاشمي : " خالد بن الوليد " ، مجلة الرسالة ، العدد ٦٦ ، ١٣٣٤هـ ، ص ١٦٥٤ وكذا صالح لعمد لعلسى : محاضرات في تاريخ العرب ، الجزء الأول ، بغداد ١٩٥٩ ، ص ١٢٢ .

ومن الواضح أن مكة المكرمة ، بحكم موقعها فى طريق تجارة الطيب والغلال وأنواع الأقمشة ، والتي كانت تجارتها تشهد نمواً متزايداً فى ذلك الحين ، ومن ثم فقد كانت ذات مركز استراتيجى ممتاز ، حيث استطاعت أن تمسك بزمام الأمور فى المنطقة المحيطة بها سواء فى تهامة أو نجد ، فضلاً عن الحجاز واليمامة وأن تهيئ الأرض الخصبة لتأصيل علاقاتها مع تلك القبائل ، خاصة الدائرة فى فلك نفوذها المباشر ، وذلك على امتداد خطوات رئيسية أو فرعية ، تجمعت حولها مصالح دول كبرى (١) ، لم تكتف بالضرورة عند حدود المتاجرة بالسلع ولكنها صدرت معها الأفكار والمعتقد والنظم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، ووهم بعض المؤرخين فى إدراج مكة مناج القبائل من أحياء العرب ، وحسب آخرون أنها كانت نزلة يمضى عليها بما يمضى على نزل العرب وقراهم فى أفاق شبه الجزيرة العربية ، ولكن شيئاً من الاستقرار ينتهى بنا إلى غير هذه النتيجة ، فالقرآن الكريم سماها فى أكثر من مرة " أم القرى " ، وفى هذا مؤشر إلى ميزتها فى مستوى من حولها من منازل شبه الجزيرة العربية (٢) .

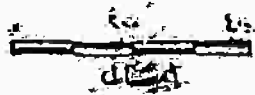
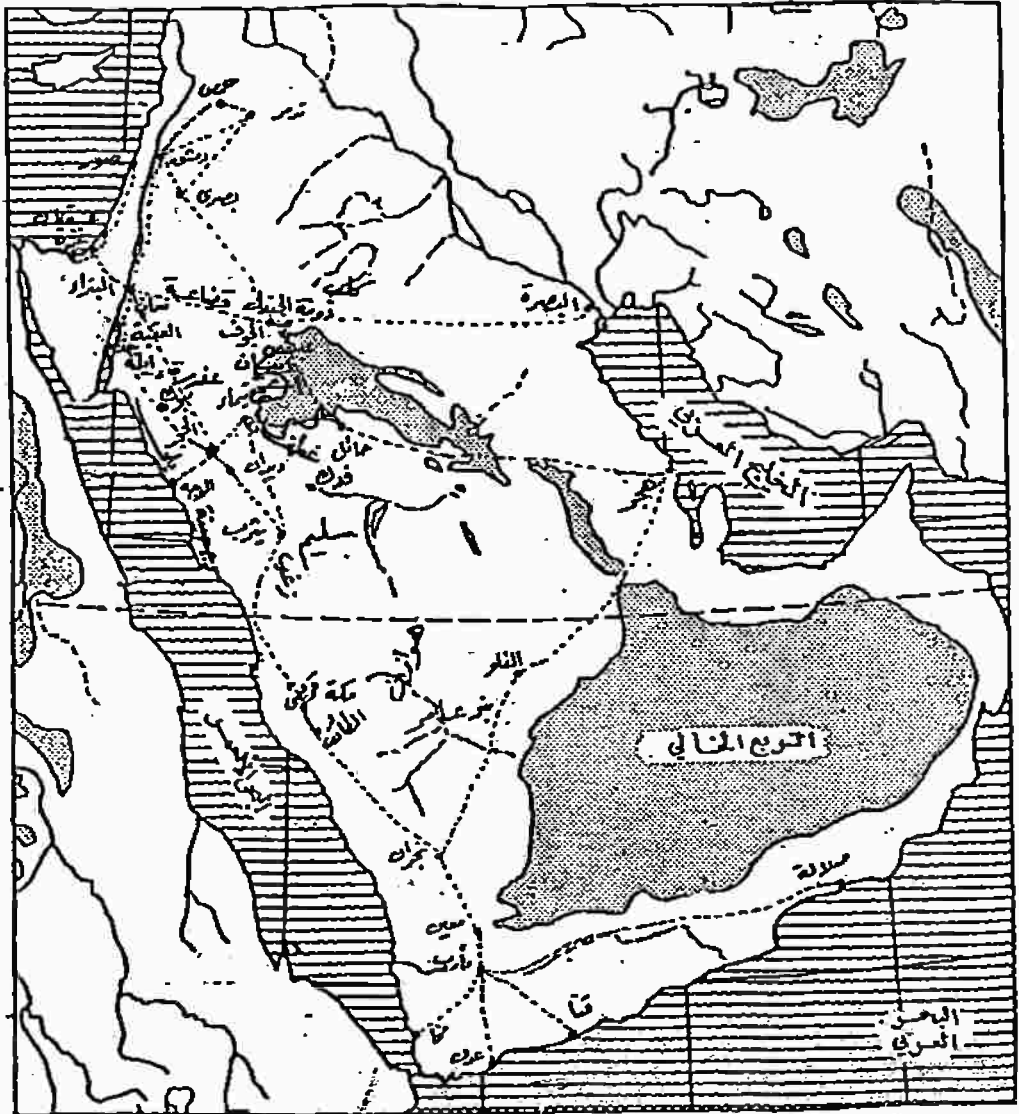


(١) إن إقبال بوزلطة للتدوين وثقتها على منتجات الهند والصين ، لم تصرفهم عن الإمتعة بقروشيين كوسطاء للتجارة الهندية . انظر :

سيد عبدالمعز سالم : المرجع السابق ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٢) أحمد الجبلى : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

الطرق التجارية في الحجاز والتوزيع القبلي في عصر ما قبل الإسلام



الطرق التجارية
المراكز التجارية

قائمة المصادر والمراجع

أولاً ، المصادر والمراجع العربية :

- (١) ابن الأثير (أبو الحسن بن علي بن الكرم محمد الشيباني) : الكامل في التاريخ ، الجزءان الأول والثاني ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- (٢) ابن الكلبي (أبو المنذر بن هشام بن محمد بن المائب الكلبي) : كتاب الأصنام ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- (٣) ابن المجاور (يوسف بن يعقوب) : تاريخ المستبصر (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز) ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٥١ .
- (٤) ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن أمية بن عمرو الهاشمي) : كتاب المحبر ، حيدر آباد الدكن ١٩٤٢ .
- (٥) ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) : جمهرة أنساب العرب ، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر ، الجزءان الأول والثاني ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- (٦) ابن حوقل النصيبي (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض ، بيروت ١٩٦٣ م .
- (٧) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- (٨) ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) : الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩٢ م .
- (٩) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : المعارف ، حققه وقدم له د. ثروت عكاشة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ م .
- (١٠) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : لسان العرب ، المجلد الثاني عشر ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
- (١١) ابن هشام (أبو محمد عبد الله بن أيوب الحميري) : السيرة النبوية ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، الجزءان الأول والثاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (بدون) .

- (١٢) إحسان عباس : " العلاقات التجارية بين مكة والشام حتى بدايات الفتح الإسلامي " ،
مجلة الأبحاث ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ١٩٩٠ م .
- (١٣) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- (١٤) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، مطبوعات نادي مكة
الثقافي ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- (١٥) أحمد محمود صابون : " حول تاريخ اليهود بلاد الحجاز " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة
الإسكندرية ، المجلد الثاني والأربعين ، ١٩٩٤ - ١٩٩٥ م .
- (١٦) ————— : مكة المكرمة ، أسماؤها وتاريخها ، الإسكندرية ١٩٩٥ م .
- (١٧) إسرائيل ولغزمون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ، القاهرة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م .
- (١٨) الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الهيثم) : الأغاني ، الجزء الرابع ، بيروت ١٩٥٦ م .
- (١٩) الأزرق (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق) : أخبار مكة وما جاء فيها
من الآثار ، تحقيق رشدي الصلح محسن ، الجزء الأول والثاني ، الطبعة الثانية ، مطبع
دار الثقافة ، مكة المكرمة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .
- (٢٠) البكري (عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد
والمواضع ، عارض بمخطوطات القاهرة ، حققه وضبطه مصطفى السقا ، جزءان ، عالم
الكتب ، بيروت (بدون) .
- (٢١) البلاذري (أحمد بن يحيى) : أنساب الأشراف ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور محمد
حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- (٢٢) الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، الجزء الثاني ، للقاهرة
١٣٠٢ هـ .
- (٢٣) الزبيدي (أبو الفيض مرتضى بن محمد) : تاج العروس ، الجزء الأول والثاني ،
مطبعة مصر ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- (٢٤) السمهودي (نور الدين علي) : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، الجزء الأول ،
القاهرة ١٣٢٦ هـ .
- (٢٥) السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله) : الروض الآنف ، القاهرة ١٩٧١ م .
- (٢٦) السيد عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب ، الجزء الأول ، عصر ما قبل

الإسلام ، الإسكندرية ١٩٦٧ م .

(٢٧) السيد عبيد مدني : " أطوم المدينة المنورة " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض ،

المجلد الثالث ، الرياض ١٣٩٣ - ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٣ - ١٩٧٤ م .

(٢٨) الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) : تاريخ الأمم والملوك (المعروف

بتاريخ الطبري) ، الجزءان الأول والثاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة

الثانية ، دار سويدان ، بيروت ١٣٨٧ - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م .

(٢٩) الفاسي (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد) : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ،

الجزء الثاني ، بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

(٣٠) القلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي أحمد بن عبد الله القلقشندي) : صبح الأعشى

في صناعة الإنشاء ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩١٣ م .

(٣١) ————— : نهاريّة الأرب في معرفة أنساب العرب ، الطبعة

الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م .

(٣٢) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) : مروج الذهب ومعادن

الجواهر ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، دار الأتلس ، بيروت ١٩٦٥ م .

(٣٣) المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري) : أحسن

التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، لندن ١٩٠٦ م .

(٣٤) الهمذاني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الإكليل ، جزءان :

الأول : تحقيق محمد بن علي الأكوخ ، للقاهرة ١٩٦٣ م .

الثاني : تحقيق محمد بن علي الأكوخ ، للقاهرة ١٩٦٦ م .

(٣٥) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) : تاريخ اليعقوبي ، مجلدان ، دار بيروت

للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

(٣٦) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الأجزاء :

الأول : الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٨ .

الرابع : الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٠ .

السادس : الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٠ .

السابع : الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ .

- (٣٧) حسين مؤنس : تاريخ قريش ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
- (٣٨) خالد طه الهاشمي : "خالد بن الوليد" ، مجلة الرسالة ، العدد ٦٦ ، ١٣٣٤هـ .
- (٣٩) خليل إسماعيل محمد : "تطور الفكر الجغرافي عند المسلمين" ، مجلة البلاغ ، العدد الثالث ، ١٩٦٦ م .
- (٤٠) رضا جواد الهاشمي : "تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم" ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- (٤١) رضوان السيد : الأمة والجماعة والسلطة ، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ١٩٨٤ م .
- (٤٢) زكريا بن محمد القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد : تصنيف زكريا بن محمد القزويني ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠ م .
- (٤٣) زكي شنودة : اليهود ، القاهرة ١٩٧٤ م .
- (٤٤) سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٦ م .
- (٤٥) صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، الجزء الأول ، بغداد ١٩٥٩ م .
- (٤٦) عباس محمود العقاد : مطلع النور — أو طوابع البعثة المحمدية ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٦٨ م .
- (٤٧) عبد الجبار منفى العبيدي : "حروب الفجار : أسبابها ونتائجها" ، المؤرخ العربي ، العدد العاشر بغداد ١٩٧٩ م .
- (٤٨) عبد الرحمن الأنصاري : "لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية" ، مجلة الدارة ، العدد الأول ، الرياض ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- (٤٩) عبد الكريم بن محب الدين القطبي : إعلام العلماء والأعلام ببناء المسجد الحرام ، علق عليه أحمد محمد جمال وعبد العزيز أحمد الرفاعي ود. عبد الله الجبوري ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- (٥٠) عبد المحسن الحسيني : "الأقسام الجغرافية لشبه جزيرة العرب" ، كما تصورها المصادر العربية" ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلدان السادس والسابع ، ١٩٥٢ - ١٩٥٣ م .

(٥١) عبد المنعم عبد الحليم سيد : " البخور عصب تجارة البحر الأحمر فى العصور القديمة " ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة الملك عبد العزيز ، المجلد الثانى ، جدة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

(٥٢) لطفى عبد الوهاب يحيى : العرب فى العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ م .

(٥٣) محمد الطيب النجار : " أضواء على المسجد للحرام بين الجاهلية والإسلام " ، مؤتمر قنسية الحرمين الشريفين ، المركز العام لجمعيات للشبان المسلمين العالمية ، القاهرة ٢٣ - ٢٥ ربيع أول ١٤٠٨ هـ / ١٥ - ١٧ نوفمبر ١٩٨٧ م .

(٥٤) محمد بيومى مهران : إسرائيل ، الكتاب الأول - للتاريخ ، الإسكندرية ١٩٧٨ م .

(٥٥) ————— : دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م .

(٥٦) ————— : دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) ، فى بلاد العرب ، الرياض ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

(٥٧) محمد رشيد العقيلي : اليهود فى شبه الجزيرة العربية ، عمان ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م .

(٥٨) محمد عبد القنى سعودي : الجغرافية والمشكلات الدولية ، دار النهضة العربية ، بيروت (بدون) .

(٥٩) محمد عزة دروزة : تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ، بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

(٦٠) منذر البكر : " العرب والتجارة الدولية منذ أقدم العصور إلى نهاية العصر الرومانى " ، المريد ، العدد ٤ ، السنة الثالثة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

(٦١) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت عبد الله الحموى) : معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، بيروت ١٩٦٨ م .

ثانياً ، المترجمة إلى اللغة العربية

(٦٢) الويس موصل : شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسينى ، الإسكندرية ١٩٥٢ م .

(٦٣) لاثنو : الإسلام والعرب ، ترجمة منير البعلبكي ، بيروت ١٩٦٢ م .

(٦٤) لويس أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، ومراجعة محمد شفيق غربال ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠ م.

ثالثاً ، الأجنبية :

- (65) The Encyclopedia of Islam , New Edition , edited by Lewis C.H., Pellat J., Schacht , Leidene J., Brill – London Luzac and Co., 1960 .
- (66) Gibbon, E., The Decline and Fall of the Roman Empire , London, 1950 .
- (67) Gractez, H., The History of the Jews, III, Philadelphia, 1956 .
- (68) Huzayyin, S.A., Arabia and the Far East, Cairo, 1942.
- (69) Lammence , H., L'Arabie Occidentale avant L'Hegire, Beyrouth, 1928 .
- (70) ———— , La Mecque a la Veille de L'Hegire, Beyrouth , 1928.
- (71) ———— , La Republique Merchande de la Mecque, Beyrouth , 1910 .
- (72) ———— , La Ville Arabe de Taif a la Veille de L'Hegire, Beyrouth , 1922 .
- (73) Montgomery, J.A., Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934 .
- (74) O'Leary, De Lacy, D.D., Arabia before Muhammad, London, 1927 .
- (75) Osman, R., Rock Inscriptions in the Hijaz, Cairo, 1948 .
- (76) Watt, W.M., Muhammad at Mecca, Oxford, 1953 .
- (77) ———— , Muhammad at Madina, Oxford, 1956 .
- (78) Winckler, H., “ Zur Alten Geschichte Yemens and Abessiniens “, AOF, IV, 1896 .



الأثر السياسي لفرقة الفداوية (من الباطنية) في الجهة الإسلامية خلال الحروب الصليبية

إعداد :

الدكتور / إبراهيم بن محمد الحمد المزيني
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / كلية العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ والحضارة

الرياض - ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

22

1870. 1871. 1872.

23

24

25

26

1873. 1874. 1875. 1876. 1877. 1878. 1879. 1880.

1881. 1882. 1883. 1884. 1885.

27

28

29

مقدمة:

شهدت الجبهة الإسلامية خلال الحروب الصليبية ظهور فرقة الفداوية (إحدى فرق الباطنية الشيعية) التي كان لها أثر واضح في تفكك القوى الإسلامية في المنطقة عن طريق الفتك بزعماء أهل السنة، أو التحالف مع الصليبيين ضدّهم في كثير من الأحيان مما شكل خطراً واضحاً على الأمة الإسلامية خلال ذلك العصر.

وتعرف هذه الفرقة في المصادر التاريخية بأسماء عديدة من أشهرها: (الباطنية، والإسماعيلية، والحشيشية، والنزارية، والفداوية) وإن كان الاسم الأخير قد اشتهر في عدد من هذه المصانير، فهو لكثرة استخدامه في بلاد الشام، وخطورة فرقة الفداوية بين فرق الباطنية لاشتغالهم بعمليات القتل والإغتيال سرّاً مما أربح خصومهم، (وهم أصحاب الخناجر المسمومة) وهذه التسمية من باب تخصيص هذه الفرقة بالفكر، وإن كان المراد أحياناً فرقة الباطنية بعمومها.

ولم يقتصر وجود هذه الطائفة بالوجود الصليبي في المنطقة، وإنما هي فرقة ذات جذور تاريخية بعيدة، وذات توجه عقدي خطير، استقادت من حالة الضعف والتمزق الذي أصاب العالم الإسلامي في الفترات السابقة على الوجود الصليبي، وتكاد خطرهما خلال تلك الحروب والمواجهات التي تمت بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، وكانت عاملاً من عوامل الضعف والتمزق في الجبهة الإسلامية آنذاك.

وجود هذه الفرقة وسط طرفين متحاربين المسلمين السنة والصليبيين فرض عليها أن تتخذ سياسة معينة تتفق مع مصالحها أولاً وقبل كل شيء، كما دفعها إلى تقوية نفوذها، وتعميق وجودها في المنطقة على حساب الصراع الدائر فيها، وكان من الطبيعي أمام هذه الظروف المتشابكة المتداخلة المعقدة أن يكون هناك اختلاط وتشابك بين تاريخ هذه الفرقة وتاريخ كل من المسلمين السنة في المنطقة، والصليبيين. ذلك أن كل طرف من الأطراف الثلاثة كانت له أهداف وغايات تشابكت وتداخلت فيما بينها أحياناً، وتعارضت وتنافرت أحياناً أخرى.

ولخطورة هذه الفرقة، وتردد ذكرها في أحداث الحروب الصليبية وجدت أن من الأهمية تتبّع الأثر السياسي الذي تركته في الجبهة الإسلامية آنذاك، مع التقديم بتعريف سريع عن ماهية هذه الفرقة

وطبيعتها، وظروف انتقالها إلى بلاد الشام ومصر مسرح الأحداث الصليبية.

ولن يعتمد هذا البحث إلى التوسع في التاريخ لهذه الفرقة مذهباً وعقيدة، لأن هذا سيخرجنا إلى مجال الدراسات المذهبية والعقدية، وهو مجال له أهله ومتخصصوه، كما أن هذا البحث لم يقصد منه تتبع تاريخ تلك الطائفة وتسلسل أسماء شيوخها، وسنني حكمهم، وأبرز أعمالهم لأن هذا الأمر سُبقت إليه بتفصيل عند كثير ممن كتبوا عن هذه الفرقة، وإنما سيتم التركيز على الأثر السياسي الذي تركته هذه الفرقة في الجبهة الإسلامية إبان الحروب الصليبية.

وقد كانت الكتابة عن هذا الموضوع فكرة تراودني منذ زمنٍ مبكرٍ لإحساسي بأهميته، والحاجة إلى طريقه، ولكن انشغالي بما هو أهم صرفني عن هذه المهمة، فلجلت ذلك إلى حينه. وحينما عدت إلى الموضوع وأخذت بجمع مادته العلمية، وبعد أن تجمّع لدي حصيلة لا بأس بها من المعلومات ذات العلاقة وقفت على عددٍ من المراجع الحديثة التي طرقت هذا الموضوع أو بعض جوانبه^(١)، وكدت أترجع عن المضي في إتمام الكتابة فيه، إلا أنني استشعرت أهمية الموضوع من جديد، وأدركت أنه من الموضوعات التي تحتاج مزيداً من الدراسة والبحث، لأهميته وتشعب آثاره، خاصة إذا وجهت الدراسة إلى تفصي الأثر السياسي الذي تركته تلك الفرقة في الجبهة الإسلامية آنذاك، فمضيت مستعيناً بالله عز وجل في إتمام الدراسة.

الفداوية وطبيعة مذهبهم:

أشير بداية إلى أن اسم الفداوية من الأسماء التي شاع إطلاقها على هذه الفرقة في بعض مصادر العصر، ويقصد بها (الباطنية) وهي فرقة نشأت فرعاً مستقلاً من فرق الشيعة، وذلك بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ (٧٦٥م)، حيث نادى أصحاب هذه الفرقة بالإمامة من بعده لاينه إسماعيل دون أخيه موسى الكاظم. كما عرفت هذه الطائفة بالإسماعيلية أو السبعية لأن إسماعيل في نظرهم هو الإمام السابع^(٢). وعرفت فيما بعد في مختلف البلاد الإسلامية بأسماء مختلفة مثل: المزدكية، والتعليمية، وعرفت في بلاد الشام أيام الحروب الصليبية بالحشيشية والفداوية، وهما أشهر

(١) سيرد ذكر لمجموعة من هذه المراجع ضمن هوامش البحث، وسيتم سردها في قائمة المراجع في نهاية

البحث.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ١/١٦٧-١٩١.

لقابها. ^(٢) وسبب ذلك فيما يبدو أنهم في بلاد الشام أقرب ما يكونوا للتنظيم العسكري (الفداوي). وكان أهم ما يقوم عليه المذهب الباطني أو الإسماعيلي هو إيمانهم بأن العقيدة ظاهرة وباطنة، وأن الشخص الذي يدرك كنه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب، وقد أدى بهم هذا الرأي إلى تأويل أحكام الشريعة، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادات باطناً وجعلوا للتزويل معاني ظاهرة يعرفها الناس، وأخرى باطنة يعرفها الإمام وحده دون سواه، ولذلك سموا أتباعه بالباطنية. ^(٣)

كما أن هناك من يفكر أن هذه الفرقة إنما سميت بالباطنية نسبة إلى قول دعائها بالإمام الباطن أو المستور، أو قولهم أن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويل، وربما عرفوا بذلك أيضاً لأنهم كانوا يكتُمون مبادئهم ويلقونها سرّاً إلى الحكام. ^(٤)

وقد اتخذ أصحاب هذه الفرقة التفسير وسيلة لنشر مبادئهم، ولجأوا إلى التأويل كذلك، فهم يؤكّدون على ضرورة وجود الإمام يقول الغزالي: « وإنما لقبوا بها - يعني الباطنية - لدعواهم أن الظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر. » ^(٥)

وقد اتخذ الباطنية الاغتيال وسيلة لهم في التخلص من أعدائهم، وكان يتولى هذه المهمة فئة منهم تسمى الفداوية أصحاب الخناجر المسفومة، وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداءً لرئيسهم، وهم ما سنتعرف عليهم عند الحديث عن مراتب الفرقة. كما ذكر ابن الفرات أن الإسماعيلية يقال لهم الفدائية. ^(٦) وهذا سر إطلاق اسم «الفداوية» على هذه الفرقة.

(٢) أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، ص ٥٤.

(٤) عن آراء الباطنية ومذاهبهم انظر: الغزالي، فضائح الباطنية، ص ١١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،

٢٠٠/٨ - ٢٠٤.

(٥) الغزالي، فضائح الباطنية، ص ١١، ١٢؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ٢/٥٩٠، ويوضح الغزالي هدفهم من هذا السلوك بقوله: « وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الاتصاف عن قواعد الدين إذ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى للشرع عصام يرجع إليه ويقول عليه » (ص ١٢).

(٦) فضائح الباطنية، ص ١١.

(٧) تاريخ الدول والملوك، ص ١٥٣ - ١٥٤.

أما عن تسميتهم بالحشيشية، فإنه يفهم مما ذكره المؤرخون أن داعي دعاة الباطنية، والمسمى شيخ الجبل في الموت،^(٩) أنشأ حديقة غناء فيها كل مألّف وطاب، وحاول أن يظهر بها بعض الأصناف التي ذكرت في الجنة من تخيل وأغراب وفواكه وغير ذلك، ويعد أن يتسامر داعي الدعاة مع فرقة الفداوية الخاطئة بهم أمر اغتيال شخص معين يساق بينهم مشروب الحشيش إلى أن يتم تخديرهم، ثم ينقلون إلى تلك الحديقة، وهناك يفيقون فيجلون أنفسهم بين حدائق غناء وفاكهة، وبنات غانيات يفكر لهم أنهن الحور العين. ويعد أن ينغمسوا بها في هذه الحدائق يتم تخديرهم مرة أخرى ثم ينقلون إلى حضرة داعي الدعاة الذي يسألهم أين كانوا، فيجيبون أنهم كانوا بالجنة. ويقصون عليه ما شاهدوه من نعميها، وهنا يقول لهم إذا أنتم أن تنعموا بتلك الجنة مرة أخرى عليكم بقتل فلان، ويحدد لهم الشخص المراد قتله، فلا يتردد هؤلاء الفتية في تنفيذ ما طلب منهم طمعاً في الرجوع إلى تلك الجنة مرة أخرى وقد أيد هذا الوصف الرحالة البندقي ماركو بولو (٦٥٢-٧٢٥هـ/١٢٥٤-١٢٢٤م) الذي زار المنطقة فيما بين عامي ٦٧٠-٦٧١هـ (١٢٧١-١٢٧٢م) أيام حكم شيخ الجبل علاء الدين، وأشار إلى أنه رأى هذه الجنة بنفسه.^(١٠)

وهي الواقع أنه رغم تأكيد الرحالة ماركو بولو كشاهد عيان لوجود هذه الجنة إلا أنه لا يوجد أي دليل يؤكد صحة ذلك، إذ يستبعد أسامة زكي زيد ذلك، ويعدّه ضرباً من الخيال والأساطير، ويدعم زعمه هذا بعدد من الآراء والدلالات.^(١١)

ومن ناحية أخرى فإنه ينكر أن أتباع تلك الطائفة كانوا لا يعبّون بالموت لإيمانهم بأن الشخص إذا مات في سبيل سيده شيخ الجبل، أو لأي سبب آخر ضمن نطاق المذهب خلت روحه في جسد شخص آخر، وهي أكثر راحة وأطمئناناً.

(A) الموحدة كلمة بيلمية معناها المكان الذي أرشد إليه العقاب، ويذكر ابن الأثير أنها من نواحي قزوين قيل أن ملكاً من ملوك الديلم كان كثير التصيد فأرسل يوماً عقاباً وتبعه فراه قد سقط على موقع هذه القلعة فوجدّه موضعاً حصيناً فحفر بيناء قلعة عليه فسماه إله موت، ومعناه تعليم العقاب، ويسمى هذا الموضع الطالقان (الكامل ٢٠١/٨).

(٩) الرحالة البندقي، ماركو بولو، ص ٦٤-٦٥.

(١٠) الصليبيون وإسماعيلية الشام، ٦٩-٧٣.

ومما يذكر هنا أنه أطلق عليهم اسم الحشاشين أو الحشيشية نسبة إلى مادة الحشيش التي يتم تخديرهم بها، وهو من أسمائهم.

ومما يلفت الانتباه هنا أيضاً: أن بعض علماء اللغويات، يؤكد أن الفعل الإنجليزي (to assassinate)، بمعنى يقتال أو يقتل، والاسم منه (assassin) بمعنى قاتل أنه مشتق من الحشاشين بقلب الشين سيناً نسبة لتلك الفئة من الفدائية الذين اشتهروا بالقتل والاعتقال في عصر الحروب الصليبية، وهم الذين أطلق عليهم بعض المراجع الحديثة اسم «الحشيشية» لتناوهم الحشيش، وقد جاء في «قاموس أكسفورد» أن أصل هذا اللفظ الأوربي هي كلمتا (حشاش، وحشيشية) العربيتان، ويدلل هؤلاء العلماء على رأيهم بأن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه المراد هنا في اللغات الأوربية إلا في عصر الحروب الصليبية.^(١١)

وكان لهذه الفرقة أثرٌ خطيرٌ في تاريخ الجبهة الإسلامية زمن الحروب الصليبية عن طريق مباشر أو غير مباشر في مجرى تلك الحروب وأحداثها، مما يؤكد أهمية هذا الموضوع وضرورة إفراده بدراسة علمية مستقلة.

ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان فيه المسلمون في حال دفاع ضد الصليبيين أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب هذه الفرقة، مما كان له أثره البالغ في إضعاف المسلمين وإحداث ثغرات واسعة في جبهتهم، وهذا عامل ضعف قوي أضيف إلى عوامل الضعف والتفكك التي مني بها المسلمون، وتعرضت لها الجبهة الإسلامية في تلك المرحلة الحرجة من تاريخهم في الوقت الذي ازداد فيه تماسك أعدائهم الصليبيين، وحرص أمرائهم على تحالفهم فيما بينهم وشد أزر بعضهم بعضاً. ولكن يحسن بنا، قبل أن نلتي إلى هذه الأحداث، وما تركته هذه الفرقة من آثار في تمزيق وحدة المسلمين في ذلك الوقت، أن نتلمس، ولو بشكل سريع، نشأة هذه الفرقة في كل من بلاد العراق وفارس، ومن ثم امتدادهم إلى بلاد الشام ومصر، وأثرهم في أحداث تلك البلاد.

(١١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١/٢٩٩هـ، وقد حرصت على عدم الاسترسال في سرد الأسماء التي أطلقت على هذه الفرقة، وتعليقاتها، ومدى صحتها لعدم مناسبتها هنا من ناحية، ولتغطيتها من قبل عدد من المؤرخين والباحثين من ناحية أخرى، انظر (أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ٨١-٨٨).

فرقة الباطنية في كل من العراق وفارس:

وجدت الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية طريقها إلى بلاد فارس والعراق بداية الأمر امتداداً للدعوة الفاطمية الشيعية على يد داعي الدعاة الفاطمي الشيرازي الذي كان له أثر كبير في نشر المذهب الشيعي في بلاد العراق للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، واعتمد في ذلك على تأييد السلطان البويهبي أبي كالبجار الذي كان لا يخفي ميله للفاطميين.^(١٢)

وكان أول دعاة الباطنية بفارس والعراق أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذي قدمه الباطنية عليهم والبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال.^(١٣) وبعد موته سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) حلّ محله الحسن بن الصباح^(١٤) الذي يعد من أهم دعاة الباطنية، وأكثرهم أثراً في المذهب. وكان كما وصفه المؤرخون شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب.^(١٥)

وقد نشأ الحسن بن الصباح في الري، وتأثر في شبابه بالدعوة الإسماعيلية، ولما تسلم قيادة المذهب ذاع صيته، في بلاد فارس، وساعده في ذلك تفكك الدولة الإسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة من ناحية أخرى. ويؤكد برنارد لويس أثر ذلك بقوله: «لقد أظهر حسن الصباح عبقرية سياسية في إدراك ضعف الحكومات الإسلامية وقد أبدى مواهب إدارية

(١٢) أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ١٦٧-١٨٧.

(١٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١/٥٣٦.

(١٤) هو حسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن بن الصباح الحميري، ولد في مدينة الري سنة ٤٤٤هـ (١٠٥٢م). وتلقى العلم في مدينة نيسابور على يد الموفق النيسابوري أحد علماء السنة المشهورين في ذلك الزمان، ولم يكن تعلمه للمذهب السني مقصوداً لذاته، وإنما كان لتصد التمدد فيه، حيث كان التشيع آنذاك أمراً مقبولاً ومسموحاً على معتقه. وقد التحق ابن الصباح في خدمة السلطان السلجوقي ملكشاه، وحاول أن يفسد العلاقات التي تربط السلطان بالوزير نظام الملك حتى يغترد في حظرة السلطان، ولكن الوزير شعر بذلك فعمل على طرده من القصر السلطاني، فحمل ابن الصباح كراهة لنظام الملك، وبيت القدر به، فكان أول عمل قام به بعد تكوين دولته في الموت هو التخلص من نظام الملك عن طريق أحد فدائيه في رمضان سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)، وقد مات ابن الصباح سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) (ابن خلكان، ولبيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ١/٢٠٣).

(١٥) سعيد عاشور، المرجع نفسه، ١/٥٣٦-٥٣٧.

استراتيجية رائدة في استغلالها في الهجوم الإرهابي،^(١١)

وقد لجأ ابن الصباح في نشر دعوته إلى سلاحين، الأول: استمالة بعض الزعماء المحليين وأمراء القلاع في بلاد فارس، والثاني: محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعات لتكون معاقل له ولأتباعه، يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحمايتها من سلاطين السلاجقة، وكانت أهم القلاع التي استولى عليها الحسن بن الصباح قلعة الموت في طبرستان قرب قزوین، وقلعة شاه ذر، وقلعة خان، وهما على جبل أصبهان قرب العاصمة أصفهان.^(١٢)

وقد طاف الحسن بن الصباح البلاد، وعاش بمصر حوالي عام ونصف العام، والتقى الخليفة المستنصر الفاطمي مرة واحدة سنة ٤٧١هـ (١٠٧٨م)، وسأل المستنصر من الإمام بعدك؟ فأخبره المستنصر أن الإمام بعده ابنه نزار؛ ثم كان أن عاد الحسن بن الصباح إلى فارس، وأخذ يدعو لنزول، ثم حدث بعد ذلك نزاع حول ولاية العهد بين ابني المستنصر نزار والمستعلي، وانقسم الإسماعيلية إلى فريقين، فريق يناصر نزاراً، والآخر يناصر المستعلي. ولم يتمكن نزار من الوصول إلى العرش، وهزم وأسر ومات في الأسر. تغير أن الحسن بن الصباح رفض بيعة المستعلي، واستمر يدعو لنزار مكوناً طائفة النزارية.^(١٣)

وقد اتخذ الحسن بن الصباح قلعة الموت - الحصن الجبلي المنيع قرب قزوین والمسمى عش الغواب لمناعت - معقلاً للباطنية سنة ٤٨٢هـ (١٠٩٠م)، وأصبحت هذه القلعة نواة لظهور دولة الباطنية في المنطقة، والتي أصبحت فيما بعد ضربة قوية لسلاطين السلاجقة، وشوكة في صدورهم حيث إنها أصبحت مصدر خطر عظيم بالنسبة لهم، فحاولوا إخضاعها أكثر من مرة إلا أن مجاولاتهم باءت بالفشل، وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

ويفضل ما اشتهر به ابن الصباح من الدماء والحكمة، فقد وضع لاتباعه تنظيماً دقيقاً، وقسم الدعوة الباطنية إلى عدة مراتب وفق تنظيم محكم أساسه مبدأان هما: الصبرية التامة، والطاعة العمياء. كما ألف كتاباً من أربعة فصول ضمنه أهم مبادئ دعوته. ولما كان هدف الحسن تأسيس

(١١) B. Lewis. The Assassins. A radical Sect. in Islam. P.127.

(١٢) ابن الأثير، الكامل ١١٧/١٠-١١٨.

(١٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/١٤٨؛ ابن تقي الدين، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٤٥/٥.

دولة كبيرة ثابتة، فإنه قسّم الدعوة إلى خمس مراتب هي:

١- مرتبة شيخ الجبل: وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من بعده الذين يجمعون في قبضتهم أمور الدولة

والدعوة معاً، فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم في فارس والعراق والشام وغيرها من البلاد. (١)

٢- مرتبة كبار الدعاة: وكانوا ثلاثة، كل واحد منهم يتولى مهمة نشر الدعوة الفاطمية في جزء من

العالم الإسماعيلي، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية في ألمات. (٢)

٣- الدعاة: وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم يتبعون كبار الدعاة، ويتلقون تعاليمهم من

قلعة ألمات ثم ينشرون الدعوة، ويعطون العهد للمستجيبين لها. (٣)

٤- مرتبة الرفاق: وهم دعاة تحت التمرين لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة، ويصل الواحد منهم

بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعد اختبارات طويلة ودقيقة. (٤)

٥- مرتبة الفداوية أو الفدنيين، وهم الذين كانوا يضجون بأنفسهم فداء رئيسهم، وطمعاً في الخلود

بالجنة، وقد أصبحوا الأداة التي استخدمها الحسن ابن الصباح وغيره من دعاة الباطنية في تصفية

خصومهم. ويختار هؤلاء عادة من الفتيان الأقوياء الذين تتفاوت أعمارهم بين الأثنتي عشرة سنة

والعشرين، ويعنون إعداداً خاصاً بتمرينهم على تحمل المشاق وشطف العيش واستعمال السلاح مع

تعلمهم عدة لغات وآداب التصرف في البلاطات، وأهم من ذلك كله توجيههم إلى فكرة ثابتة هي

الإخلاص إلى السيد الذي هو كفيل بنقلهم من عالم اتصف أهله بالكتب والخداع إلى عالم الحقيقة،

عالم الدين والتقوى الذي يعود بهم إلى الصلاح الأبدي. (٥)

ومن الواضح أنه روعي في اختيار هذه الفرقة الشجاعة التي هي أقرب إلى التهور والقوة البدنية

الفائقة التي تمكنهم من أداء المهام الخطيرة التي تناط بهم.

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أن الفداوية كانوا هم أهم مراتب التنظيم الإسماعيلي بوصفهم الأداة

(١٩) طه أحمد شرف الدين، الدولة الزيارية، ص ٨٠.

(٢٠) سعيد عاشور، مرجع سابق، ١/٥٢٧.

(٢١) سعيد عاشور، المرجع نفسه، ١/٥٢٨.

(٢٢) نفسه، ١/٥٢٨.

(٢٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ١/٢٧١-٢٧٢.

العاملة التي قامت فعلاً بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة في عصر الحروب الصليبية، لذلك اهتم الحسن بن الصباح بتدريب الفداوية تدريباً خاصاً طويلاً يتناول الجانبين الروحي والمادي، ويبدأ من الطفولة، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد، المخاطرة والرغبة في التضحية.^(٢٤) وقد مرّ بنا سابقاً حديث عن إغراءاتهم ببلذات الجنة، وغير ذلك من الأحلام.

وبهذا نجح الحسن بن الصباح في تأسيس هذه الدولة في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، واتخذ من الموت عاصمة لها، أخذ بيث، منها الدعاة، ويعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية، وتعزيزها. وقد قلنا لتلك الدولة أن تهزّ عروش الملوك والسلاطين، لأنها أصبحت مصدر خطر بالنسبة لهم، فحاولوا إخضاعها، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل.

وكان أسلوب الاغتيال هو الوسيلة المشروعة عند هؤلاء الفداوية لتنفيذ خططهم وأعمالهم. وقد أثار هذا العمل الرعب والخوف في نفوس أهالي فارس والعراق، ويذكر برنارد لويس أن ضحايا هؤلاء يتركزون في مجموعتين إحداهما تكون من الأمراء والوزراء، والمجموعة الثانية من القضاة والشخصيات الدينية.^(٢٥)

زيال الفعل، فقد كان من أوائل ضحاياهم في تلك الفترة المبكرة الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، الذي ناصبهم العداء بعد استيلاء الحسن بن الصباح على الموت، فلم يترددوا في التخلص منه عن طريق القتل سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)، ويذكر ابن خلكان أن نظام الملك قُتل في شهر رمضان بعد تناوله طعام الإفطار، وفي أثناء خروجه لزيارة بعض أهله، حيث اعترض طريقه غلام يلمي من الباطنية، أظهر أن معه ظلمة، فلما مدّ نظام الملك يده لتناولها طعنه الصبي بسكين في قلبه، فسقط فاقد الوعي، وتوفي بعد أن وصل إلى مسكنه، في حين قبض رجال نظام الملك على القاتل وقتلوه.^(٢٦) على أنها توجد عدة روايات في قتل نظام الملك منها أن السلطان ملكشاه دسّ له من قتله لعداوة نشأت بينهما، ومنها أن تركان خاتون زوجة ملكشاه هي التي حققت عليه، لأنه كان يعيل إلى تربية

(٢٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١/٥٣٨.

(٢٥) Ibid., P134.

(٢٦) وفيات الأعيان، ١/٣٩٨.

بركياروق العهد، وهو ابن ضررتها بدلاً من ابنها الصغير محمود، قدبرت مقتله.^(٣٧)

على أي حال فإنّ في مقتل نظام الملك خسارة فادحة على العالم الإسلامي لما له من جهود كبيرة في تنظيم الدولة، وترتيب أمورها، وركفها فخرأ ماله من أثر في تأسيس المدارس السنية، والتي تسمى المدارس النظامية، ونشرها.

ومما يشهد على الأثر الذي تركه اغتيال نظام الملك، والنتائج التي ترتبت على ذلك ما سجله المؤرخ ابن أبي النعم في كتابه التاريخ المظفر، إذ يقول: «لما قتل نظام الملك تشوشت أمور السلطان ملكشاه، واختلت الأحوال فطاح العدل، وانطقت أنوار العلم، ودرست معالم الفضل، ولم يبق منها إلا

الرسوم».^(٣٨) كما يرد ابن القلانسي أسف الناس عليه بقوله: «لما كان عليه من حسن الطريقة وأثارها

العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن».^(٣٩) وبعد مقتل نظام الملك بشهر وأيام توفي

السلطان ملكشاه في شوال من سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م). وقد أشار السيوطي إلى أنّ أمر الباطنية قد

ازداد بالعراق بعد مقتل نظام الملك و وفاة ملكشاه، فعملوا على تدعيم نفوذهم في هذه المنطقة عن

طريق الاستيلاء على عدة قلاع جديدة على غاية من الأهمية، ثم بنشر مذهبهم بكل الوسائل الممكنة،

والعمل على إسكات الخصوم بكل ما يمكن لهم من أنواع الإرهاب والقمع، وزاد قتلهم الناس، واشتد

الخطب بهم حتى كان الأمراء يلبسون الدروع تحت ثيابهم.^(٤٠)

وقد استغل الباطنية الصراع الذي احتدم في البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه بين

ابنيه بركياروق ومحمود الذي ساندته أمه ترکان خاتون، ثم لم يلبث أن شاركهما عمهما تتش الذي

كان ناشئاً عن ملكشاه في حكم بلاد الشام، ولم ينقطع هذا الصراع طيلة سنتين وبضعة أشهر إلا

ب وفاة محمود بن ملكشاه ومصرع تتش سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) وتولي بركياروق عرش السلطنة.^(٤١)

وقد استغل الباطنية هذه الفرصة أقوى استغلال، حيث تقبلوا في ولائهم بين المتنازعين، ونجحوا

(٣٧) ابن الأثير، الكامل، ١٩١/٨-١٩٢.

(٣٨) التاريخ المظفر، ورقة ٩١.

(٣٩) تاريخ دمشق، ص ١٢١.

(٤٠) تاريخ الخلفاء، ص ٤٢٨.

(٤١) البنداري، مختصر تاريخ آل سلجوق، ص ٨٥.

في تنفيذ عدد من مخططاتهم، وحققوا عدداً من المكاسب، فنجحوا بعد قتل نظام الملك من قتل السلطان العادل ألب أرسلان بن نواد أخيه طغرل بك سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م) على نهر جيحون، حيث اغتاله أحد الباطنية الذين تنكروا في زي الفقهاء. (٣)

وتعرض وزير أم السلطان بركياروق المسمى عبد الرحمن السبعمري للقتل على يد الباطنية، وقتلوا أيضاً أرغش النظامي مملوك نظام الملك بالري « وكان قد بلغ مبلغاً عظيماً بحيث تزوج ابنة ياقوتي عم السلطان بركياروق » (٣)

وقتلوا في العام نفسه الأمير برسق وهو من أكابر الأمراء ومن أصحاب السلطان طغرل بك، وكان هو أول من تولى وظيفة الشحنة في بغداد (٣)

وفي رمضان عام ٤٩٣هـ (١١٠٠م) قتلوا الأمير بلكا بك سرمرز بأصبهان، وكان من رجال السلطان السلجوقي، وكان يحتاط دائماً من الباطنية لايفارقه لبس الدرع ومن يمنع عنه. لكنه في يوم مقتله لم يلبس درعه، وعندما سخل إلى دار السلطان وثب عليه باطني فقتلوا. (٣)

وقد حاول السلطان بركياروق أن يضع حداً لتلك الأعمال، فبدأ بمحاربتهم وتعقبهم في كل مكان خاصة في أصبهان مركز دعوتهم، فتضافرت جهود الأهالي في أصبهان على الإطاحة بهم، من ذلك ما قام به الفقيه مسعود بن محمد الخجندي من حفر أخايد أوقد فيها النار، وجعل العامة يأتون بالباطنية أقواجا ومنفردين فيلقونهم في النار. (٣)

وكانت أبرز الجهود التي بذلت ضد الباطنية في ذلك الوقت ما قام به السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الذي أدرك خطر هذه الفرقة، وأيقن ضرورة القضاء عليهم في أسرع وقت، فأمر أصحابه بمحاصرة القلعة التي كانوا يقيمون فيها بأصبهان وهي شاهنذ «شاه بن» وتم الاستيلاء عليها في ذي القعدة سنة ٥٠٠هـ (١١٠٧م) بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وتم قتل الزعيم الكبير أحمد بن عطاش

(٣٢) ابن الأثير، الكامل ٨/١٨٢.

(٣٣) المصدر نفسه، ٨/١٨٥.

(٣٤) نفسه ٨/١٨٥.

(٣٥) نفسه ٨/١٩٦.

(٣٦) ابن الأثير، الكامل ٨/٢٠٠.

الذي كان متحصناً بها وقتل معه ابنه بعد أسرهما^(٣٧)، وقد شجع هذا الانتصار الذي حققه السلطان على الباطنية في شاء نر على ملاحقتهم في عاصمتهم الموت. ففي عام ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) قام بمحاصرتها، لكنه اضطر إلى الرحيل عنها عند حلول الشتاء. وحاول الباطنية الانتقام منه في العام نفسه، فترصدوا له في أحد مساجد بغداد، وطلعنوه بالسكاكين عدة طعنات لم تكن قاتلة، فبرئت جراحه بعد ذلك بزمان قصير^(٣٨). كما قام السلطان بقتل وزيره سعد الملك الأبي لما أحس بأنه متواطئ مع الباطنية ويتصل بهم في الخفاء. وقد كثرت حملات السلطان محمد على الباطنية من أجل محو آثارهم وخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم^(٣٩).

ولم يرق السلاجقة بمحاولة ذات شأن للقضاء على هذه الفرقة بعد وفاة السلطان محمد سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) إلا بعد موت الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م)، إذ شجع ذلك سنجر على ملاحقتهم من جديد ظناً منه أن أمرهم قد هان بعد وفاة زعيمهم، والعقل المدبر لهم، فقام بمهاجمتهم في الموت سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) واستطاع أن يقتل منهم خلقاً كثيراً قتلوا بما يزيد على عشرة آلاف نفس^(٤٠).

ولكن على الرغم من الجهود التي بذلها السلطان محمد ومن خلفه من سلاطين السلاجقة في إضعاف هذه الفرقة ومحاولة القضاء عليها، إلا أنهم نجحوا في تنفيذ كثير من مخططاتهم، واستمروا في عمليات الاغتيال لعدد من قادة المسلمين في المنطقة، واصلوا زعزعتهم للجبهة الإسلامية في كل مكان، ولم يفرقوا بين دين أو مذهب أو لغة بطشوا بكل من خالفهم مما أدى إلى التفكك وراث النعر في البلاد^(٤١).

(٣٧) المصدر السابق ٢٤٢/٨.

(٣٨) نفسه، ٢٥٩/٨.

(٣٩) نفسه، ٣٧٨/٨.

(٤٠) نفسه، ٣٢٥/٨.

(٤١) عفاف صبره، لرامات في تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٥٤.

امتداد نشاط الباطنية (الفداوية) إلى بلاد الشام ومصر:

من الثابت أن نشاط الفداوية قد امتد إلى بلاد الشام منذ أيام الملك السلجوقي رضوان بن تتش صاحب حلب (٥٨٨-٥٠٧هـ/١٠٩٥-١١١٢م) حيث عمل على استمالاته إلى الفداوية الحكيم بن المنجم الباطني أحد دعائهم، وظهر مذهبهم في حلب وشايعهم رضوان، وحفظ جانبهم، وصارت لهم في بلاده قدرة زائدة وجاء عظيم، وأصبحت لهم فيها دار للدعوة.^(١١)

ويعد الملك رضوان هو أول من أنشأ للباطنية دار دعوة ببلاد الشام، حيث أدى تشجيعه لهم إلى انتشار مذهبهم وازدياد نفوذهم حتى احتسب بهم الأهالي، وأصبح كل من تحل به مصيبة أو ضيم يحتسب بهم. كما دخل كثير من الأهالي في مذهبهم خوفاً منهم واتقاء لشُرهم.^(١٢) وامتداد نشاط الفداوية إلى بلاد الشام في تلك الفترة الحرجة ازداد الوضع في المنطقة فوضى واضطراباً، وأضاف عاملاً جديداً من عوامل الصراع والتنافس داخل تلك البلاد، وأخذ رجال الفداوية يوجهون نشاطهم ضد المسلمين، حيث قاموا بعمليات اغتيالات واسعة ضد عدد من قادة الجبهة الإسلامية في تلك الأثناء، كما أنهم تحالفوا في فترات كثيرة مع الصليبيين ضد المسلمين، الأمر الذي أدى إلى زيادة التفكك والتمزق في بلاد الشام في ذلك العصر.

وباستقراء سريع لأحداث الساحة الإسلامية في تلك الفترة، يتضح لنا الدور الكبير الذي قامت به تلك الفرقة في أحداث المنطقة، كما يتضح لنا أن هذا الدور قد سار باتجاهين هما:
الأول: مقاومة الكذب السني، والعمل على الفتنك بعدد من زعمائه وقائمه. ويمكن أن يدخل ضمن ذلك التحالف مع الصليبيين على حساب الجبهة السنية.

ثانيهما: مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم. إذ لم يفرق الفداوية في ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين النصاري، وإنما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً.^(١٣)

وبهذا، فقد أدى اتساع نشاط الفداوية في بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد إلى عوامل التفكك التي تعرضت لها الجبهة الإسلامية إبان الحروب الصليبية، ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان فيه المسلمون في حال دفاع ضد الصليبيين أن تعرضوا لطمعات قوية من الخلف من جانب

(١٢) ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص ١٤٢: ابن العديم، زبدة العلب من تاريخ حلب، ١٤٥/٢.

(١٣) ابن العديم، المصدر نفسه، ١٤٥/٢.

(١٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٥٢٩/١.

الفداوية، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية في جبهتهم، في الوقت الذي شهد تماسكاً قوياً في الجانب الصليبي، وحرص أمراؤهم على شدّ أزر بعضهم بعضاً.^(١١)

من ذلك ما فعله الفداوية في حصن شيزر سنة ٥٠٢هـ (١١٠٩م)، إذ ثار جماعة منهم على حين غفلة من أهله فملكوه، وأخرجوا من فيه وانتزعوه من أصحابه بني منقذ.^(١٢)

وكان للقتل هو السلاح الوهيب الذي نهجه الفداوية في تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم لدرجة أنه يضيق المقام عن حصر ضحاياهم من الأمراء والقادة وغيرهم في عصر الحروب الصليبية.

وهذا من أسباب ميل رضوان لهم وعطفه عليهم، وذلك للحاجة الماسة إليهم في مثل ذلك الوقت، فقد استعان بهم بشكل واضح، حتى أنه اتخذ منهم جنداً وحماة له داخل حلب.^(١٣) كما اعتمد عليهم في التخلص من بعض أعدائه المناوئين له حسب طرقهم الفداوية السرية التي اشتهروا بها، من ذلك قيامهم بقتل جناح الدولة الحسين صاحب حمص في رجب سنة ٤٩٥هـ (مايو ١١٠٢م) بوازع من الملك رضوان نفسه حسب إشارة أغلب المصادر.^(١٤)

ونظراً لكون طبيعة الفداوية وعقائدهم المؤسسة على الفتك والندم، أصبحت من الأمور الهدامة في حلب ومثار خوف وانزعاج الناس في ذلك الزمان، فقد كاتب بعض الملوك والأمراء رضوان في أمرهم، وافتقر نظره إلى خطأ الاعتماد عليهم. غير أنه لم يابِه بذلك ولم يعر مكاتباتهم أي اهتمام، واستمر في تأييده لهم.^(١٥)

وقد أثر تأييد رضوان لهم على علاقاته مع أقاربه من الملوك والأمراء كما أدى إلى غضب العامة

(١٥) المرجع نفسه ١/٥٤٠.

(١٦) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٧٧؛ ابن الأثير، الكامل ٨/٢٥٧.

(١٧) العيني، ٢/٦٣٦.

(١٨) ابن القلانسي، مصدر سابق، ٣٠. وقد جعل هذه الحادثة ضمن حوادث سنة (٤٩٦هـ): سبط ابن

الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٤.

(١٩) ابن العديم، زبدة الحلب، ٢/١٤٥.

داخل حلب عليه، فاطلقوا ألسنتهم في سبه وعابوه لسوء تبينه. (٥٠)
وكان أول من أظهر مذهب الباطنية في حلب هو الحكيم المنجم وأبوطاهر الصائغ، حيث وجدنا كل

تشجيع من رضوان، ومال إليهما خلق كثير من الباطنية في سائر مناطق حلب. (٥١)
وقد وصف ابن العديم تقرب الباطنية إلى رضوان، وأثر الحكيم المنجم في ذلك بقوله: « واستمال
رضوان إلى الباطنية جداً، وظهر مذهبهم في حلب وشايعهم رضوان وحفظ جانبهم وصار لهم بحلب
الجاه العظيم والقدرة الزائدة، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه. » (٥٢)

وقد وصف ابن القرات أمر الباطنية في حلب بقوله: « عظم شائهم وصار كل من يجني جنائية منهم
منعوه وحرسوه وكتبوا الملوك في أمره حتى يخلصوه، فكثر بذلك أتباعهم واشتهر أمرهم واشتدت
شوكتهم، وصار الرجل منهم يلقي الرجل من غيرهم فينزعه منه ثيابه ولا يقدر على الامتناع عنه ولا يجد
ناصرأ، ويلقى المرأة والصبي في الطريق فيفتصبه، ويذهب به أنى شاء، ولا يقدر أحد على
استخلاصه. » (٥٣)

ومما يذكر هنا أن الحكيم المنجم قد مات بعد مقتل جناح الدولة بعدة أيام، ثم تولى أمر الباطنية في
حلب نائبه أبوطاهر الصائغ الذي أصبحت حلب في عهده قلب الباطنية النابض في بلاد الشام، وكان
أبوطاهر أكثر جراً، وأعظم إقداماً من سلفه كما كان على جانب كبير من النفوذ والسلطان عند الملك
رضوان. (٥٤)

وقد تقاسم أبوطاهر زعامة القدارية في بلاد الشام مع زميل له يعرف بلقب الفتح السرميني الذي

(٥٠) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١/٣٩٣-٣٩٥.

(٥١) ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ١٨٩.

(٥٢) زبدة الحلب، ٢/١٤٥.

(٥٣) تاريخ ابن القرات، ج ١، ورقة ٧١.

(٥٤) ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ١٤٩.

اقتض من سَرْمِين^(٥٥) مركزاً له، وكان رضوان قد منحها إياه حينما طلبها منه أبوطاهر الصائغ^(٥٦).
 لكن يذكر هنا أن الملك رضوان لم يستمر في مؤازرته واحتضانه للباطنية بصفة مستمرة، فقد ساء موقفه عند السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٤-١١١٧م) حيث بلغه ما شاع عنه من مشايعة الفداوية، وقد لُعن رضوان في مجلس السلطان لذلك، فما كان منه إلا أن أمر في سنة ٥٠١هـ (١١٠٧م) أبا الفنائم ابن أخي أبي الفتح السرميني بالخروج من حلب فيمن معه من أتباعه الفداوية، فخرج في جماعة من أصحابه بعد أن قُتل منهم كثيرون^(٥٧).

ولكن لا يعني أن الملك رضوان حينما أوعز إليهم بترك حلب أنه استغنى عن خدماتهم، إذ إنه لم يلبث أن دعاهم إليها، واعتمد عليهم في حفظ بلاده من الطامعين بها. وكان قد استعان بهم في حراسة قلعة حلب ضد قوات السلطان محمد الذي كان قد بعثها بقيادة مولود بن أيتكين وأحمد يل الكردي لتجدة أهالي الشام ضد غارات الصليبيين^(٥٨).

وهذا يؤكد أن الدافع الرئيسي الذي دفع رضوان إلى الاعتماد على الفداوية هو رغبته في تحقيق بعض الاطماع الشخصية، ومحاولة الاعتماد على قوة تساعد في ذلك، حتى ولو كانوا من أعدائه في العقيدة، وهذا يوضح ما وصل إليه بعض حكام المسلمين من تخبط وسوء تدبير في ذلك العصر، وهو بالتالي عامل من عوامل الضعف الذي أصاب الجبهة الإسلامية آنذاك.

(٥٥) سرمين، بلدة مشهورة من أعمال حلب ذكر ياقوت أن أهلها في زمنه كانوا من الإسماعيلية (معجم

البلدان، ٢/٢١٥).

(٥٦) أسامة زكي زيد، مرجع سابق ص ١٣.

(٥٧) ابن العديم، زبدة الحلب، ٢/١٥٢.

(٥٨) ابن القلائسي، مصدر سابق، ١٧٥؛ ابن العديم، مصدر سابق، ٢/١٥٩.

قلاع الدعوة في بلاد الشام:

أدرك دعاة الفداوية في بلاد الشام أنه من الضرورة البحث عن أماكن منيعة قوية التحصين، صعبة المنال، ليعتزلوا فيها، ويتخللوا مواقع انطلاق أعمالهم الإجرامية في المنطقة، ويتمكنوا من خلالها من مزاوله نشاطهم وسياساتهم ضد المسلمين والصليبيين على السواء، وكانوا يحصلون على هذه المواقع إما بشرائها أو باحتلالها بالقوة. كما عمدوا إلى اتخاذ عددٍ من المواقع المنيعة في قمم الجبال لإنشاء قواعد جديدة لهم، وكان شيخ الجبل يختار عادةً أشد القلاع حصانة ومنعة ليتخذ منها مقراً له، أما باقي الدعاة فيتخللون من القلاع الأخرى العادية ملاجئ لهم.^(٥٩)

وكان الحسن بن الصباح أول من خطط للاستيلاء على القلاع واتخاذها مقراً للباطنية، فبدأ بسياسته تلك في بلاد فارس، إذ استولى على قلعة شاه نربا صيبتها، ثم قلعة الموت سنة ٤٨٢هـ (١٠٩٠م)، فضلاً عن عددٍ من القلاع المهمة في بلاد فارس، وحينما اتجهت أنظاره إلى بلاد الشام وأدرك أهميتها للدعوة وخصويتها لنشرها بدأ بترسل الدعاة إليها في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، فعملوا كلٌّ جهدهم من أجل الاستيلاء على عددٍ من القلاع في هذه المنطقة لتكون مراكز لتجمعات دعائهم، ومواقع لبث مبائده دعوتهم، فاقاموا فيها كل وسائل الراحة والرفاهية، وقد اكسبها وجودها على قمم الجبال قوة ومناعة. وكان من أهم قلاعهم: مصياف، والكهف، والخوابي، والقدموس، والرأسفة، والعليقة، والمينقة، والمرقب.^(٦٠)

وقد أصبحت هذه القلاع مراكز دعوة وتجمع لهذه الفرقة طيلة مراحل وجودهم في المنطقة، مكونين حزاماً حصيناً من القلاع يصعب اختراقه مما كان له أثر كبير في الدور الذي لعبته هذه الفرقة في بلاد الشام ضد المسلمين والصليبيين.^(٦١)

(٥٩) أسلمة زكي زيد، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٦٠) المرجع نفسه، ص ٨٩.

(٦١) أسلمة زكي زيد، المرجع نفسه، ص ٨٩-٩٦، وقد أسهب في الحديث عن هذه القلاع بصورة تحليلية جيدة.

أثر الفداوية (الباطنية) في الجبهة الإسلامية:

ظهر للفداوية في بلاد الشام سياسة جديدة ضد خصومهم تعتمد على إظهار الصداقة والعداء في وقت واحد تحقيقاً لمصالحهم. وهذه السياسة تقوم على استغلال الحوادث والظروف لصالحهم، فكان أتباعهم يتقلبون في خدمة الأصدقاء والأعداء كلما أنسوا في ذلك غنماً لهم، وذلك مع مراعاة مصلحتهم أولاً وقبل كل شيء، وكانت تتساوى لديهم الأطراف المقابلة لهم في الود والعداء. وفي مقابل ذلك لم يتأخر زعمائهم عن معارضة الصليبيين ومخالفتهم حيناً، ومواصلتهم ومهادنتهم حيناً آخر، وكذلك الحال مع المسلمين. وهذا الأمر أدى إلى اتساع نشاطهم في المنطقة، وأضاف عاملاً من عوامل الضعف الذي تعرضت له الجبهة الإسلامية زمن العدوان الصليبي.

كما أن أخذت تعوق أي محاولة لد النفوذ السني في المنطقة حتى ولو كان ذلك على حساب الصليبيين لاتفاق هذا مع سياستها العامة من ناحية، وحتى لا يتغلغل النفوذ السني في المنطقة، ويكون حجر عثرة في طريق نموها ونشاطها، ويتضح ذلك جلياً بما قاموا به من عمليات اغتيال لعدد من قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مما كان له أثره البالغ في مسيرة حركة الجهاد ضد الصليبيين في تلك الفترة.

وقد بدأوا تلك العمليات باغتيال جناح الدولة ابن الحسين صاحب حمص سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م)، الذي كان على عداء مع الملك رضوان صاحب حلب، ولكنه في الوقت نفسه من أعداء الصليبيين، خاصة ريموند التولوزي، حيث وقف جناح الدولة حاملاً بين ريموند وتحقيق أطماعه في طرابلس. لذا فقد افتتح الفداوية نشاطهم في بلاد الشام بالتخلص من جناح الدولة بوازع من الملك رضوان نفسه الذي أرسل ثلاثة من رجالهم لاغتياله، فنبهوا خطة لذلك، حيث انتظروه في جامع حمص حتى نزل من القلعة لصلاة الجمعة، وكان يحيط به خواصه وأصحابه مزودين بالسلاح، وبالرغم من ذلك فقد وشب عليه ثلاثة منهم وهو في مصلاه، وكان معهم شيخ كبير يقودهم، وكانوا جميعاً مرتدين زبي الصوفية، فانقضوا على جناح الدولة بخناجرهم ناريوه قتيلاً كما قتلوا جماعة من أصحابه بالمسجد.^(٧)

وهذه الجريمة تعد من أولى الجرائم التي قام بها الفداوية في بلاد الشام، وقد صادف أنها وجهت

(٦٢) ابن القلائسي، مصدر سابق، ٢٢٠، وقد جعلها ضمن حوادث سنة ٤٩٦هـ سبط ابن الجوزي، مرآة

ضد شخصية إسلامية رائدة حملت عبء الجهاد الإسلامي ضد القوى الصليبية في بلاد الشام في بداية مراحلها، وقد جاء اغتيال جناح النولة في صالح الصليبيين بصفة عامة، وريموند بصفة خاصة، وأصبح في مقدوره تحقيق أطماعه في طرابلس.

ويتأكد هذه الحقيقة عندما اغتال الفداوية خلف بن ملاعب صاحب أفامية، حيث لم تعض سنوات ثلاث على مقتل جناح النولة إلا وقد تحالف رضوان مع الفداوية في اغتيال زعامة إسلامية أخرى في المنطقة، وهو خلف بن ملاعب الذي تحمل مهمة الجهاد ضد الصليبيين في المنطقة، فهدرت ضده مؤامرة انتهت بقتله على أيدي الفداوية مع جمع من أصحابه سنة ٤٩٩هـ (١١٠٦م)،^(٣) فما كان من تانكرد إلا أن انتهر الفرصة، وهاجم أفامية، واستولى عليها بعد مقتل صاحبها^(٤)، كما أصبح الطريق ممهداً أمامه للاستيلاء على كبريط، وغيرها من أعمال حلب.^(٥)

ويبدو أن الفداوية أراوا أن يأخذوا لأنفسهم مقراً آخر ببلاد الشام غير حلب، بعد أن أحسوا بثقلهم على رضوان ونفوذ أهل حلب منهم، وما فعله العامة في حلب من سب رضوان والنيل منه بسببهم، لذا فكروا في اتخاذ قلعة شيرز مقراً لهم، وكان أن انتهزوا فرصة خروج صاحبها للتنزه سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) فقاموا بمهاجمتها بغتة، حيث دخلوها على حين غفلة من أهلها، فملكوها وملكوا قلعتها، غير أن صاحبها تمكن من استعانتها من الفداوية بعد قتال شديد.^(٦) وبذلك أثار الفداوية الذعر والخوف في صفوف المسلمين في بلاد الشام، وأصبح أهل الشام واقعين بين نارين، العنوان الصليبي من جهة، والفداوية من جهة أخرى.

وكان من بين ضحايا الفداوية في ذلك الوقت القائد التركي مولود بن أيتكين الذي تزعم حركة الجهاد ضد الصليبيين، والذي اغتالته الفداوية سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) في جامع دمشق أثناء تاديتة صلاة الجمعة.^(٧) وهذه العملية جاءت في صالح الجانب الصليبي لئلا توجة أن أحد ملوك الصليبيين

(٦٣) ابن القلاسي، المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

(٦٤) ابن الأثير، الكامل ٨/٣٣٤.

(٦٥) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ٨٩/٢.

(٦٦) ابن القلاسي، المصدر السابق، ٣٠٢-٣٠٤.

(٦٧) ابن القلاسي، المصدر نفسه، ص ٢٩٨-٢٩٩؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار العواتق، ج ١، ص ٦٨/٦٩-٦٩.

انتقد المسلمين بذلك في رسالة وجهها إلى طفتكين صاحب دمشق جاء فيها: «إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها».^(٦٨)

ويتمثل فائدة الصليبيين من هذا الحدث بشعور طفتكين بالذنب لانتهاك الرأي العام الإسلامي له بضلوعه في تلك الجريمة على حساب مصلحته الشخصية، الأمر الذي جعله لا يطمئن لمن يحالفه في المنطقة سوى الصليبيين للاحتفاظ بإمارته، وحمايته من الصلاجة، فوضع يده في أيديهم وحالفهم^(٦٩) وهذا جانب من جوانب الضعف الذي شهدته الجبهة الإسلامية آنذاك، وكان لفرقة القداوية - أداة الفتك الخطيرة ضد الزعماء المسلمين - يدٌ طويلة في ذلك.

ويعد أن تولى ألب أرسلان بن رضوان حكم حلب بعد وفاة والده سنة ٥٠٧هـ (١١١٢م) برز في موقفه المعادي من القداوية لتعاظم أمرهم آنذاك من ناحية، ولكاتبة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه له في أمرهم حيث قال له: «كان والدك يخالفني في الباطنية، وأنت ولدي فأحب أن تعظمهم»^(٧٠) فاستغل رئيس الأحداث في حلب صاعد بن بديع هذه الرسالة، وكان قد خشي خطرهم، وشرع في محاكمة ألب أرسلان في أمرهم وتمكن من إقناعه بضرورة التخلص منهم، فقبض على زعيمهم أبي طاهر الصائغ، وأمر بإعدامه، كما قتل إسماعيل الداعي، واعتقل أكثر من مائتي رجل من أعيانهم، فحبس بعضهم، وصادر أموالهم كما قام بإعدام بعض غلاتهم برميهم من أعلى القلعة، وتمكن عدد منهم الإقلاط ففترقوا في البلاد، والتجأ عدد منهم إلى الصليبيين.^(٧١)

(٦٨) ابن الأثير، التاريخ الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية ص ١٩.

(٦٩) ابن القلاسي، مصدر سابق ص ٢٠٢.

(٧٠) ابن العديم، زبدة الحلب ١٦٨/٢.

(٧١) تاريخ المظيني، ص ٢٨٢؛ ابن القلاسي، المصدر السابق، ص ١٨٩-١٩٠؛ ابن الأثير، الكامل ٢٦٧/٨؛ ابن

العديم، زبدة الحلب ١٦٨/٢-١٦٩.

ولم تنقض هذه المحاولة على الفداوية بحلب، إذ عانوا إلى قوتهم السابقة، وذلك بفضل ألب أرسلان نفسه الذي أشار المؤرخون بأنه انغمس في اللهو وسئ التصرف، مما أتاح الفرصة للباطنية لمعاودة نشاطهم من جديد، متخفين حلب قاعدة لهم.^(٧١) إلا أن أمرهم في حلب لم يعد كما كان عليه في زمن رضوان، ففضلوا على هذه الحال حتى كان حكم بلك بن بهرام الأرتقي لحلب سنة ٥١٧هـ (١١٢٢م) الذي وجد أنه من المصلحة تنظيم الجبهة الداخلية في حلب قبل التفرغ لمواجهة الصليبيين، وإن يتحقق له ذلك إلا بضرب الفداوية الذين استفحل خطرهم في حلب، فأمر بإخراجهم من حلب، وقبض على قائدهم نائب بهرام الداعي، واعتقله فباعوا أموالهم ورجالهم، وخرجوا من حلب.^(٧٢)

ولم يضعف شأن الفداوية كثيراً في بلاد الشام بما حل بهم على يد بلك بن بهرام بن أرتق، فقد تزعم أمرهم أحد رجالهم البارزين وهو بهرام الاسترياذي، وتجمع معه كثير منهم في خفية واستتار، حتى ظهر أمرهم في دمشق سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) نتيجة علاقة مودة ربطته مع ظهير الدين طفتكين الذي تقرب منه انتقاء لشره، ويتأزل له عن ثغر بانثياس في السنة نفسها، فغدت بانثياس حصناً للباطنية استعاضوا بها عن حلب إلى حد ما، الأمر الذي أدى إلى استفحال خطر الفداوية في المنطقة.^(٧٣)

رعيبر ابن القلاسي عن ذلك بقوله: « فلما حصل فيه [يعني ثغر بانثياس] اجتمع إليه أوباشه من الرعاع، والسفهاء والفلاحين، والعوام، وغوغاء الطغام، الذين استقواهم بمحاله وأباطيله، واستمالهم بخدعه وأضاليه، فعظمت المصيبة بهم، وجلت المحنة بظهور أمرهم وشينهم، وضائق صدور الفقهاء والمتدينين، والعلماء، وأهل السنّة، والمتقدمين، وأهل الستر والسلامة من الأخيار المؤمنين، وأحجم كلّ منهم عن الكلام فيهم، والشكوى لواحد منهم، دفعا لشهرهم، وارتقاباً لدائرة السوء عليهم لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضلة من يثأرهم على الضلال».^(٧٤) أما ابن الأثير فقد عبّر عن استيلاء الفداوية على بانثياس بأن ذلك جاء كارثة على البلاد، يقول عن بهرام: «فعظم حينئذ خطبه وجلت المحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين لاسيما أهل السنّة والستر والسلامة

(٧٢) ابن العديم، مصدر سابق، ١٧١/٢.

(٧٣) المصدر نفسه، ٢١٦/٢.

(٧٤) ابن القلاسي، ص ٢٤٢-٢٤٣: ابن الأثير، الكامل، ٢١٩/٨-٢٢٠.

(٧٥) تاريخ دمشق، ص ٢٤٣.

إلا أنهم لا يقدرّون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من سلطانهم أولاً، ومن شر الإسماعيلية ثانياً، فلم يقدر أحد على إنكار هذه الحال فانتظروا بهم العوائق^(٣) وقد أثار ذلك العمل عدداً من المعاصرين، واعتبروه كارثة حلت بالامة، وحسب ذلك سيئة من سيئات طغتكين في حق الإسلام والمسلمين، خصوصاً وأنّ الفداوية بزعمهم قد اتخنوا من بانياس قاعدة لهم انطلقوا منها للاستيلاء على مزيد من التحصينات، فاستولوا على حصن القدموس^(٤) سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م)، ويذكر ابن الأثير أنّ هذا الحصن كان تابعاً لبوهيمند الثاني - صاحب أنطاكية - وأنه كان يحكمه نيابة عنه ابن عمرون فاشتراه الفداوية منه، وصعدوا إليه وحاربوا من جاورهم من المسلمين والصليبيين معاً.^(٥)

وقد واصل الفداوية أعمالهم ضد المسلمين، ولم يستطع أحد الاعتراض عليهم أو الوقوف في وجههم لحماية طغتكين لهم من ناحية، ولعنّف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخرى، إذ «شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الظلال، ويرفدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير، ولا يقل حدّ شرهم مقدم ولا أمير».^(٦) غير أنّ بهرام لقي حتفه في السنة التالية وهو في طريقه للاستيلاء على مزيد من التحصينات، في مواجهة تمت بينه وبين جماعة من أهل وادي التيم سبق أن قام بقتل أحد زعمائهم، ولكنه كان قد استخلف على بانياس رجلاً من أصحابه اسمه إسماعيل العجمي.^(٧) ومن نشاطات الفداوية في المنطقة في تلك المرحلة اغتيال آق سنقر البرسقي، صاحب الموصل في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ (نوفمبر ١١٢٦م)، وهو الرجل الذي تحمل عبء الجهاد ضد الصليبيين في شمال الشام، بعد أن عجز حكامه عن الصمود في وجه الصليبيين، وقد قام ثمانية من الفداوية في زعي زهاد بالوثوب عليه أثناء تلايته صلاة الجمعة بجامع الموصل، وكان لا يسارعاً من حديد وحوله جمع من حرمه، ولكنهم وصلوا إليه فضربوه بسكاكينهم حتى اتخنوه، وحمل إلى داره

(٧١) الكامل، ٢٢٠/٨.

(٧٧) حصن القدموس، حصن قديم غربي مصيف بينها وبين بانياس (ابن العديم، مصدر سابق، ٢٥١/٢).

(٧٨) الكامل، ٢٤١/٨.

(٧٩) ابن القلائسي، المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

جريحاً قُامت في اليوم نفسه.^(٨١) وكان البرسقي قبيل مقتله قد حقق انتصارات رائدة ضد الصليبيين، لذا فرح الصليبيون كثيراً بمقتله، وانتهزوا فرصة اضطراب الأحوال في بلاد الشام بعد مقتله، فقاموا بمهاجمة عدد من القرى والضياح الآمنة في شمالي حلب بقيادة جوسلين، بل تعدى الأمر إلى مهاجمة حلب نفسها، وكادت المدينة أن تسقط في أيديهم.^(٨٢)

ومما يثير التساؤل والعجب أن بوهيمند الثاني صاحب أنطاكية قد أرسل إلى مسعود بن البرسقي في حلب يخبره بمقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر. ويعلل ابن الأثير ذلك بقوله: « وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية ».^(٨٣) ولكن هذا يثير بعض الشكوك في وجود اتفاق مسبق بين الصليبيين والفدائية لاغتيال هذا الزعيم المسلم.^(٨٤)

وقد ألقى البنداري الضوء على الدوافع المباشرة لاغتيال الفدائية للبرسقي، فأشار إلى وجود عداوة مستحكمة بينه وبين التركمانيين - وزير السلطان السلجوقي محمود - وكان التركماني مائلاً للباطنية محباً لهم، فعمل جاهداً لإقناع السلطان بعزل البرسقي، فلم ينجح في مسعاه، وحاول الكيد له فلم يفلح وفشل الأمر الذي جعله يتفق مع أحلافه الفدائية على اغتياله فتم له ما أراد.^(٨٥)

أما ابن أبي الدم فيتوقع سبباً آخر لاغتيال الفدائية للبرسقي، وهو الانتقام منه لقيامه في العام

(٨١) ابن القلانسي، مصدر سابق، ص ٢١٤؛ ابن العديم، مصدر سابق، ٢/٢٣٤؛ ابن

الأثير، الكامل، ٨/٢٢٠. وقد أورد ابن الأثير أن البرسقي قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة كلاب وثبت عليه، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما أذهاه فقص رؤياه على أصحابه، فشاؤوا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام، فقال لهم: « لا أترك الجمعة لشيء أبداً، وأخذ المصحف ليقرا فيه، فكان أول ما وقع عليه نظره قوله تعالى: « وكان أمر الله قديراً مقدوراً »، فخرج إلى الجامع كما دت، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة عشر نفرًا، وكانوا في عدة الكلاب التي رآها في منامه، فجرحوه بالسكاكين، فخرج هو بيده ثلاثة منهم، وأثرت فيه الجراح لمحات. (الكامل، ٨/٢٢٠) وما ذكره ابن الأثير ذكره مثله النويري أيضاً في نهاية الأرب، ٢٧/٢٦-٢٧، وربما أنه ناقل عنه

(٨٢) ابن العديم، ٢/٢٣٨.

(٨٣) الكامل، ٨/٢٢٠-٢٢١.

(٨٤) عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية، ص ١٢٧.

(٨٥) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٢٥-١٣٦.

السابق لمقتله بقتل جماعة من الفداوية أدانهم بقتل القاضي أبي الفضل بن الخشاب في حلب.^(٨٦) ويبدو أن طفتكين أحسّ بعد ذلك بخطورة الموقف، وخاف من الآثار السيئة التي صاحبت استيلاء الفداوية على بانياس واتخاذها معقلاً لنشاطاتهم الإجرامية، وما قام به بعد ذلك من أعمال. لذا فقد حاول التخلص منهم، ولكنه توفي بعد قليل، فما كان من الفداوية إلا أن استغلوا وفاته في أول سنة ٥٢٢هـ (١١٢٨م)، وسعوا إلى الاتفاق مع الوزير أبي علي بن سعد المزدقاني وزير ابنه تاج الملوك بوذي الذي خلفه في الحكم على تسليم دمشق للصليبيين في مقابل حصول الوزير على صور التي كان الصليبيون قد استولوا عليها من الفاطميين سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م).

وقد رسم المزدقاني خطة لهذه العملية، فطلب من الصليبيين أن يحضروا إلى دمشق في يوم جمعة عيبتها لهم، حيث يكون الناس في المسجد، وفي الوقت نفسه اتفق مع الفداوية أن يكونوا على أبواب المسجد، حتى لا يتمكن أحد من الخروج حتى يأتي الصليبيون ويملكون المدينة.^(٨٧) ويعد أن علم بوذي بذلك وتأكدت لديه المؤامرة قبل تنفيذها استدعى وزيره المزدقاني، وأمر بقتله في السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٥٢٢هـ (١١٢٩م)، وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الفداوية، فقتل منهم جمع عظيم. قدره بعض المؤرخين بنحو ستة آلاف نفس.^(٨٨) ولا شك أن هذه المقتلة قد أسهمت في شلّ حركتهم في بلاد الشام إلى حين.

وحيثما علم الفداوية في بانياس بما حلّ بإخوانهم في دمشق، أسقط في أيديهم، وخافوا على أنفسهم، فقرر رئيسهم إسماعيل مراسلة الصليبيين ليسلمهم بانياس على أن يسمحوا له بالالتجاء إليهم، فقدم الصليبيون بزعامة بلدوين الثاني إلى بانياس وتسلموهم من الفداوية الذين قرروا منها سنة ٥٢٣هـ (١١٢٩م). أما زعيمهم إسماعيل، فقد تسلل مع عدد من رفاقه إلى الأعمال الصليبية، وفي الطريق أصيب بعلة هلك على إثرها في أوائل سنة ٥٢٤هـ (١١٢٩م).^(٨٩) وفوق ذلك، فقد قام

(٨٦) التاريخ المظفر، ورقة ٩٩ب.

(٨٧) ابن الأثير، الكامل، ٢٢٩/٨: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٢/٣-٣: النويري، نهاية الأرب في فنون

الأدب، ج ٢٧، ص ٨٠.

(٨٨) ابن القلاسي، مصدر سابق، ٢٥٤: ابن الأثير، الكامل، ٢٢٩/٨: أبو الفداء، المختصر، ٢/٣.

(٨٩) ابن القلاسي، مصدر سابق، ص ٢٥٤: ابن الأثير، الكامل، ٢٢٩/٨.

الصليبيون بالإغارة على دمشق منتهزين فرصة اضطراب الأحوال فيها، ولم يرجعوا عن دمشق حتى أنزلوا بها أضراراً بالغة.^(٦٠)

أما الفداوية في ألمات، فلم يسكنوا للمذبحة التي أقامها بوري على إخوانهم في دمشق، فخططوا لاغتياله، وذلك عن طريق رجلين خراسانيين أرسلوا إلى دمشق لهذا الغرض، وقد تنكر هذان الخراسانيان في زي الأتراك، وقلما دمشق، وتمكنا من الانخراط في سلك الخدم، وتدرجا حتى وصلا رتبة حراسة مركب بوري نفسه. وأخذا يتحينان الفرصة حتى كان يوم الخميس الخامس من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢٥هـ (١١٢٠م) انتهزا فرصة رجوع بوري من حمامه إلى داره بالقلمة فتلكأ في الاتصاف حتى تفرق عنه أصحابه، فهجما عليه وطعناه عدة طعنات أدت إلى إصابته بجرحين في رقبته وخاصرته، فعلم أصحاب بوري بالحادث قبل فرارهما، فانتقضا عليهما، وقتلوهما في الحال، وأخذ بوري لطيبه للعلاج حتى برى، وتماثل للشفاء، وتمكن من العودة لمباشرة مهامه من جديد.^(٦١) غير أن الجرح الذي أصيب به في خاصرته لم ينعمل تماماً، فلم يلبث أن انبعث عليه من جديد حتى أودى بحياته في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ٥٢٦هـ (١١٢٢م).^(٦٢)

يرى أن كان الصليبيون هم المستفيدين من هذه الأعمال، وبخاصة بعد موت البرسقي إذ أن هذا يعيق الجهود المبذولة لمحاولة توحيد الجبهة الإسلامية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه يتيح لهم تعزيز كياناتهم في المنطقة، فاستغل الصليبيون فرصة عدم وجود زعامة قوية توحد صفوف المسلمين وتقف في وجوههم، وأخلوا يعيشون فساداً في المنطقة، ويهاجمون البلاد، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما برز في الساحة رجل لا يقل كفاءة عن سابقه وهو عماد الدين زنكي الذي استكمل الجهود في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية، وخلفه بعده نور الدين محمود الذي عاصر وجوده شيخ الجبل الباطني راشد الدين سنان الذي كان يغلي حقداً وسخطاً على نور الدين وعلى أهل السنة عموماً.^(٦٣) وعلى الرغم مما حل بالفداوية من تمار وتشريد على أيدي عدد من قادة المسلمين في بلاد

(٦٠) ابن القلاسي، المصدر نفسه، ٢٥٥-٢٥٦: التوربي، نهاية الأوب، ٨٠/٨١.

(٦١) المصدر نفسه، ٣٦٥-٣٦٦: التوربي، المصدر السابق، ٨١/٢٧.

(٦٢) نفسه، ٣٧٠: ابن الأثير، الكامل، ٨/٢٢٤: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/٢٩٦.

(٦٣) أسامة زكي زيد، مرجع سابق، ١٦٨.

الشام في ذلك العصر، فإن نشاطهم العدائي للمسلمين عامة وأهل السنة خاصة لم ينقطع، بل إنه ظلّ عائقاً أساسياً في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية آنذاك فقد نجحوا في سنة ٥٢٥هـ (١١٤٠م) في امتلاك حصن مصياق (مصياث) «بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له»^(١٤).

ثم إن نشاط الفداوية ضد الجبهة الإسلامية لم يقتصر على بلاد الشام وإنما امتد إلى مصر، ففي القاهرة أشير الاتهام إليهم في تنفيذ عملية اغتيال الوزير الأفضل في أحد طرق القاهرة سنة ٥١٥هـ (١١٢١م).^(١٥)

تحالف الفداوية مع الصليبيين ضد المسلمين:

لم يفرق الفداوية في تعاملهم بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، بل إنهم لم يتورعوا عن التحالف مع الصليبيين ضد قادة الجهاد الإسلامي. فقد عمل الفداوية على وضع أيديهم في أيدي الصليبيين مرات عديدة محاولة منهم للضغط على زعماء الجبهة الإسلامية من ناحية، وحرصاً على تحقيق أكبر قدر لهم من المكاسب في المنطقة من ناحية أخرى. وتاريخ الفداوية مليء بمثل تلك المحالفات التي رحب بها الصليبيون، ووجدوها فرصة لمعرفة أسرار الجبهة الإسلامية عن قرب، بل وصل الأمر بهم إلى أن اتخذوا هذه الفرقة؛ وخاصة الفداوية منهم، أداة لتنفيذ مخططاتهم ضد زعماء المسلمين.

ويصعب هنا استعراض كل الصور التي تحالف فيها الفداوية مع الصليبيين، وإنما سنكتفي هنا بإيراد عدد من الأمثلة فقط لتسجيل هذه الظاهرة، ومنها:

- التحالف بين ريموند صاحب أنطاكية والفداوية في بلاد الشام ضد نور الدين محمود، وهجومهم

المفاجيء عليه في أقمية سنة ٥٤٢هـ (١١٤٨م) مما اضطر نور الدين إلى التقهقر.^(١٦)

- اعتماد القائد الصليبي ريموند دي بواتييه على الفداوية سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) أثناء محاربتة

نور الدين، ويبدو أن الفداوية قد أنكروا على نور الدين إبطاله لكثير من شعائر الشيعة في دولته، لذا لم

(١٤) ابن القلائسي، مصدر سابق ص ٤٢٨.

(١٥) سعيد عاشور، مرجع سابق، ١/٥٤٢.

(١٦) ابن القلائسي، مصدر سابق، ٤٧٤.

يترددوا في الوقوف إلى جانب الصليبيين ضده. (٣)

كما أنَّ الفداوية لم يسهل عليهم إسقاط البولة الفاطمية الشيعية في مصر، وتسلم صلاح الدين الأيوبي زمام الأمور فيها سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)، وإزالته لكثير من شعائر التشيع فيها، الأمر الذي أثارهم ضده، مما أدى إلى انضمامهم إلى الملك الصليبي عموري الأول ملك بيت المقدس سنة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) (٣) وإعلان استعدادهم الوقوف معه ضد نور الدين، أو صلاح الدين لأنهم اعتقدوا أن الصليبيين أقل خطراً عليهم منهما، ولكن الفداوية طلبوا ثمناً لتحالفهم مع الملك عموري وهو أن يأمر بإعفائهم من الضريبة التي يأخذها منهم الداوية والتي تبلغ ألفي دينار، وكان أن رحب الملك عموري بهذا العرض ترحيباً بالغاً، واعتبرها فرصة للاستفادة من هذه الفرقة وإمكاناتها، فكتب الملك عموري الداوية بإعفاء الفداوية من الضريبة المفروضة عليهم. (٤)

وعلى الرغم من عدم تأثر صلاح الدين بهذا التحالف إلا أنه أثبت ولاء هذه الفرقة لأعداء المسلمين، وتكشف موقفهم من الجبهة الإسلامية.

وانتقل صلاح الدين إلى بلاد الشام ليعيد توحيد الجبهة الإسلامية تحت قيادته بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)، وأثار ذلك مخاوف الفداوية، فقرروا التخلص منه عن طريق الاغتيال، فببر مقدمهم وزعيمهم آنذاك راشد الدين سنان المؤمرات لاغتيال صلاح الدين، وأرسل فداويته لقتله أكثر من مرة لكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل، وانكشف أمرهم. (٥)

وفي الجانب الآخر، فقد حرص سنان على كسب صداقة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب والتقرب إليه، وكان يعرض خدماته عليه دائماً ويلبي خدماته. وقد أثبت ذلك حينما أراد الملك الصالح التخلص من وزيره شهاب الدين العجمي، فقام راشد الدين بإرسال فداويته يوم الجمعة الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٢هـ (أغسطس ١١٧٥م) واغتالوه، ويشير ابن العديم أن ذلك تمَّ

(٩٧) أبو شامة، الروضتين ٥٧/١.

(٩٨) ابن واصل، مفرج الكروب ٢٤٩/١، المقرئ، السلوك ج ١، ص ٦٢.

(٩٩) عاشور، الحركة الصليبية، ٧٠٨-٧٠٩.

(١٠٠) ابن واصل، المصدر نفسه ٥٤/٢، المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك ٦١/١، ابن تفرج، البردي، النجوم

الزاهرة ٣٧.

بتبشير من سعد الدين كمشتكين أحد كبار قواد الملك بسبب غيرته منه وحقده عليه، فقد انتهز كمشتكين فرصة خروج الملك في رحلة صيد، وقدم له خطاباً أبيضاً وطلب توقيعه حتى يتمكن من إنجاز بعض الأعمال التي لا تحتمل التأخير حتى يعود من رحلته، فوقع الملك ثقة فيه، ولكن كمشتكين كتب فيه خطاباً موجهاً إلى سنان يطلب فيه اغتيال أبي صالح العجمي، وبناءً على ذلك تم اغتياله، ولما علم الملك الصالح بالأمر كتب إلى سنان يلومه ويؤنبه على فعلته، فما كان من سنان إلا أن أرسل إليه الخطاب الموقع بخطه. فأترك الملك حقيقة الموقف، وتبىض على كمشتكين^(١٠١) إلى جانب ذلك، فقد قام سنان بمحاولة لاغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي أثناء حصاره لحلب فيما بعد، وقد قصد سنان من ذلك استغلال فرصة تولي الملك الصالح وكان صبياً صغير السن في وقت كان فيه صلاح الدين يعمل على توحيد الجبهة الإسلامية تحت لوائه، وهذا أمر يقلق الفداوية لذلك يابر سنان في محاولة لمساعدة الملك الصالح طمعاً في أن يتمكن من بذل الخلاف بينه وبين صلاح الدين حتى تضعف بانشقاقهما قوى السنة في المنطقة، ويقتل من ضربة متوقعة، وحتى يخلو الجو له لتحقيق أهدافه^(١٠٢).

ولم يمض هذا الوقت طويلاً إذ انقلب إلى عداء بين الفريقين حينما جأحتهم الطعنة من الملك الصالح سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م) عندما استولى على أحد المواقع التابعة للباطنية ويقال له (بحجيرا) من ضياع نفرة بني أسد، ورفض إعادتها إليهم رغم كثرة مكاتبة سنان له في هذا الأمر الذي أدى إلى عزيم الفداوية على الانتقام منه وذلك بإشعال النيران في عدد من المحلات التجارية الواقعة في الطرف الشرقي من سوق الزجاج بحلب رغبة في إثارة الفوضى والاضطراب فيها، وقد أدى ذلك إلى خسائر فاحشة في عدد من أسواق حلب^(١٠٣).

وقد أدى موقف الفداوية المعادي لصلاح الدين إلى تصميمه على الانتقام منهم عن طريق الإغارة على عدد من معانقلهم، فقام سنة ١٥٧٢-١١٧٦م بمهاجمة مصياف إحدى معانقلهم المهمة في بلاد الشام، وكادت مصياف أن تقع في يده لولا أن طلب الفداوية الوساطة من شهاب الدين الحارمي

(١٠١) ابن العديم، مصدر سابق، ٢/٢٢، ٢٤.

(١٠٢) أسامة زكي زيد، مرجع سابق، ١٧٧-١٧٨.

(١٠٣) أبوشامة، الروضتين، ١٦/٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ٣/٢٨، ٢٩.

صاحب حماة وهو خال لصلاح الدين، فتمّ الصلح بينهما ورحل عنها صلاح الدين.^(١٠٤)

وقد أدى نجاح صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية تحت قيادته إلى تخوف كل من الصليبيين والفدائية منه، الأمر الذي أدى إلى ازدياد ارتباطهم وتحالفهم، تؤكد ذلك الزيارة التي قام بها هنري دوق شامبني (Henri Champagne) لحصون الفدائية ومعاقلهم سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م)، حيث استقبله زعيمهم الحسن بن سنان في قلعة الكهف، وهناك وقف هنري على قوة هذه الفرقة، ورأي بنفسه ما يقوم به شباب الفدائية، وما يتميزون به من طاعة عمياء (لقائدهم).^(١٠٥)

وقد حرص الفدائية في أثناء تلك الزيارة على أن يلفتوا نظر الصليبيين إلى قوتهم وثروتهم، فقدموا إليه كثيراً من الهدايا، كما عرضوا عليه محالفتهم إياه، واستعدادهم لقتل من يرغب قتله، ويؤكد عاشور - بعد ذلك - أن الفدائية قصصوا من وراء هذه الأعمال تحقيق نوع من التوازن بين

الصليبيين ، والأيوبيين مما يضمن البقاء على حساب الجميع.^(١٠٦)

وهذا يؤكد أن علاقة الصليبيين بهذه الفرقة لم تكن عدائية بصفة دائمة، فقد ساندتها عوامل الولد والمصداقة في كثير من الأحيان .

إلا أن هذه العلاقة لا تليث أن تتعرض لنوع من التدهور والافتور، وذلك حينما يكون الفدائية أداة في أيدي بعض قادة الصليبيين ضد بعضهم البعض، فقد سجل التاريخ أنهم في سنة ٥٤٦هـ (١١٥٢م) قاموا باغتيال ريموند الثاني ، صاحب طرابلس ، والذي يذكر أن زوجته «هوليرن» ابنة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس هي التي أوعزت إلى الفدائية بقتله لخلاف كان قائماً بينهما.^(١٠٧)

وفي سنة ٥٨٨هـ (١١٠٢م) قام الفدائية أيضاً باغتيال كونراد دي مونتفرايت. وقد اختلفت الآراء

(١٠٤) ابن الأثير، الكامل ١٢٩/٩.

(١٠٥) من ذلك أن الحسن دعا أحد رجاله من الفدائية فلمره بإلقاء نفسه من أعلى أبراج القلعة على مرأى من الكونت ، فهوى ذلك الفدائي وأصبح جثة هامدة، ثم دعا آخر فلمره بقتل نفسه ففعله فقتل الكونت بما شاهده، ويطلب من الشيخ أن يتوقف عن ذلك لما راعه من مشاهد (وقد أورد أسامة زكي زيد نص هذه الزيارة نقلاً عن المؤرخ اللاتيني هرتل في ملحق خاص ضمن كتابه «الصليبيون وإسماعيلية الشام» ص ٢١٩-٢٢٠).

(١٠٦) سعيد عاشور، الحركة الصليبية ٨٧٢/٢-٨٧٣.

(١٠٧) عاشور، المرجع نفسه، ٦٢٠/٢.

حول المحرض على قتله، وإن كانت أصابع الاتهام تشير إلى الملك ريتشارد قلب الأسد بأنه المحرض على ذلك، على حد زعم عدد من المراجع. بينما تشير عدد منها إلى أن ذلك راجع إلى وجود عداوة بينه وبين راشد الدين سنان زعيم الفداوية.^(١٠٨) كما قام الفداوية في سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) باغتيال ريموند الابن الأكبر لبوهيموند الرابع (أمير أنطاكية وطرابلس) في كاتدرائية أنطربوس، وكان عمره ثمانى عشرة سنة، فاهتز الصليبيون لهذا الحادث، وحزن عليه أبوه حزناً شديداً. يقول ابن واصلته وخافوا واحتزوا لأنفسهم».^(١٠٩)

ويبدو أن الأسبتيارية هم الذين عرضوا على قتله نظراً لأن الفداوية كانوا آنذاك يؤمنون أتاوة لهم، وكانوا على علم وفاق مع بوهيمند الرابع.^(١١٠)

وفي السنة التالية قام الفداوية باغتيال اليرت بطريك بيت المقدس، وكان من أعداء الأسبتيارية أيضاً، وقد سعى بعدها بوهيمند للانتقام منهم، ويفضل ما جاءه من مدد من الفداوية فاجم قلعة الخوابي (إحدى قلاع الفداوية) سنة ٦١١هـ (١٢١٤م) وكانت تصقط في أيديهم لولا نجدة الملك الظاهر غازي أمير حلب الذي استنجد به الفداوية، فالتمس بنوره المساعدة من السلطان العادل، فرفع بوهيمند الحصار عن الخوابي.^(١١١)

وقد ركز الملك لويس التاسع (ملك فرنسا) جهوده في التحالف مع الفداوية الذين يأنق بالهدايا فور وصوله إلى الشام حتى يؤمنوا أنفسهم إزاء الموقف الجديد الناشئ عن قيام دولة المماليك في مصر من ناحية، ومحاولة للتخلص من الإتاوة التي كانوا يدفعونها للفداوية والأسبتيارية من ناحية أخرى، فرد عليهم لويس بأحسن مما (جاء) به، ورحب بعقد محالفة بين الجانبين.^(١١٢)

(١٠٨) نفسه، ٢/٨٥٠-٨٥١.

(١٠٩) ابن واصله مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢/٢١٩.

(١١٠) عاشور، مرجع سابق، ٢/٩١٢؛ عفاف صبره، مرجع سابق، ٢٢٥.

(١١١) ابن واصله مصنف سابق، ٢/٢٢١.

(١١٢) عاشور، المرجع السابق، ٢/١٠٦١ وقد أورد جوزيف نسيم تتابع العلاقة بين لويس التاسع، وهذه الفقرة

بشكل مفصل (انظر: العنوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٢٨-٢٤٥).

انهيار الوجود الباطني في بلاد الشام ومصر:

وهكذا كان موقف هذه الفرقة في بلاد الشام بين مد وجزد ، وتقلب في الولاء بين القوى المتصارعة في المنطقة إلى أن تمّ القضاء على آخر معاقلهم في العراق على أيدي المغول سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م). أما في بلاد الشام ومصر فقد استمرّ الفداوية يؤدون نشاطهم في الجبهة الإسلامية طيلة عصر الحروب الصليبية، وكان داعي الفداوية في بلاد الشام أبو المعالي قد انتهز فرصة انهزام المغول من أمام المسلمين، وبخل في معركة مع المغول استردّ بعدها بعض القلاع التي كان المغول قد استولوا عليها، ثم قام بقتل بعض الفداوية ممن نسبته إليهم الخيانة أو التعاون مع التتار. يقول ابن ميسر في ذلك: «ولما ملك التتار على بلاد الإسلام... سلّم الإسماعيليون إليهم أربع قلاع من هذه القلاع، فلما كسروهم المظفر قطز عانت الأربع قلاع إليهم، فتسلمها رئيسهم وقتل أصحابه الذين سلموها للتتار»^(١١٣). وقد أدرك الفداوية قوة السلطان بيبرس وحفكته منذ البداية، فأرادوا مهابته والتودد إليه حيث قدمت فرقة منهم إلى بيبرس وهو محاصر لقلعة الكرك سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) ومعهم هداياهم، فاستقبلهم بيبرس وأحسن وفادتهم، وعادوا.^(١١٤)

وقد ركّز السلطان بيبرس جهوده في هذا الوقت على تقليص نفوذ الفداوية ، وتقليم أظافرهم ، وكان الفداوية يدفعون مبالغ تأمينية (آتاوات) للصليبيين، ومن تبعهم من الداوية والأسبتارية حتى هادن بيبرس الأسبتارية في الكرك واشتروط عليهم أن يمتنعوا عن أخذ هذه الآتاوات من الفداوية. وصار الفداوية منذ ذلك الحين يدفعون الأموال للسلطان بيبرس بدلاً من دفعها للصليبيين، فيذكر ابن عبد الظاهر أن رسلهم وصلوا إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م) وقالوا: «هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين، لينفق في المجاهدين»^(١١٥) وهذا يعني مطلق الإنعان من هؤلاء للظاهر بيبرس. لكن السلطان لم يقتنع بهذا الوضع، بل أخذ يسعى في القضاء على نفوذهم كلية من المنطقة، وبدأ بذلك في سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) عندما قدم إليه شمس الدين بن نجم الدين الشعرائي شيخ الفداوية في بلاد الشام، فقبض عليه وعلى أصحابه، وسيروا إلى

(١١٣) ابن ميسر، أخبار مصر، ٦٨/٢.

(١١٤) الروض الزاهر، ٢٧٤.

(١١٥) السلوك، ٥٥٧/١.

مصر وجبوا بها لاتهمهم بالتعاون مع الصليبيين، واستمرت مضايقتهم حتى تسلم نواب السلطان معاقليهم.^(١١٦) وقد أثار هذا الموقف نجم الدين حسن بن الشعراني شيخ الفداوية، وساءه القبض على ابنه وسجنه في مصر، الأمر الذي دعاه إلى الامتناع عن الحضور إلى السلطان وتقديم الخدمة إليه وهو محاصر للكرك في جمادى الآخرة من سنة ٦٦٨هـ (١٢٧٠م)، بل إنه بعث إلى السلطان يطالبه بتتقيص ما كان يدفعه لبيت المال.^(١١٧)

وقد أثار ذلك السلطان بيبرس، وزاد من حنقه على هذه الفرقة، لذا فكر بطريقة يضعف بها جانب الفداوية في المنطقة لئلا يدخل معهم بمواجهة مباشرة، لأنه يدرك أن الوقت لم يحن للدخول معهم بصراع مباشر لانشغاله بالمواجهات المستمرة مع الصليبيين، فبدأ بعزل زعيمهم نجم الدين الشعراني عن مشيخة الفداوية في بلاد الشام، وقتل مكانه صارم الدين مبارك بن الرضي صاحب قلعة القليعة الذي قدم له فروض الولاء والطاعة مما جعل السلطان يقلده مشيخة جميع قلاع الفداوية وهي: الكهف والخوابي، والمنيفة، والعلقية، والقدموس، والرصافة مقابل أن تكون مصياف إقطاعاً للسلطان، وصدر لهم مرسوماً بذلك.^(١١٨) ومعنى ذلك أن نجم الدين الشعراني أصبح معزولاً من الناحية النظرية عن رئاسة الفداوية في بلاد الشام، إلا أن الأمور في بلاد الشام سارت في غير صالح الفداوية، إذ تنكر صارم الدين لموقف السلطان فاستولى على مصياف بالقوة، وأخل باتفاقه، لذا قبض عليه بيبرس وأرسله سجيناً إلى القاهرة، حيث مات في سجنه.^(١١٩)

وقد استغل نجم الدين الشعراني هذه الظروف وقدم إلى السلطان بيبرس لإصلاح ماشاب علاقاتهما من توتر، وكان عمر نجم الدين حينئذ تسعين عاماً، فرحمه السلطان لكبر سنه، وسامحه عن سابق أخطائه، وعينه على مصياف عرضاً عن صارم الدين، وفرض عليه جزية تقدر بخوالي عشرين ألف درهم يدفعها للسلطان، وبذلك أصبح الفداوية يؤمنون الجزية لحكام المسلمين، بعد أن كانت تدفع

(١١٦) المصدر نفسه، ١/٥٩٩.

(١١٧) نفسه، ١/٥٨٦.

(١١٨) المقريزي، السلوك، ١/٥٨٧.

(١١٩) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٦٥-٣٦٦.

لهم اتقاء لشهرهم،^(١٢٠) وهذا يدل على مدى الضعف الذي وصل إليه الفدائية في تلك المرحلة. وقد نجح بيبرس في الاستفادة من قدايتهم في تنفيذ بعض عملياته ضد الصليبيين، فقد استعملهم في محاولة اغتيال الأمير إيوارد ولي عهد إنجلترا الذي قدم إلى المنطقة لاستعادة أنطاكية، ورغم عدم تمكن الفدائية من اغتياله، فقد أصابوه بجراح خطيرة، بانو السلطان بإخراج نفسه منها بأن بعث إلى الأمير رسالة يهنئه فيها على نجاحه، وكان قد عقد معه هدنة.^(١٢١)

وقد تبين لبيبرس بعد ذلك ضرورة تصفية هؤلاء وإبعادهم عن المنطقة خاصة وأنه أخذ يتفرغ في تلك الأثناء لتصفية الوجود الصليبي من المنطقة، فأخذت معاقل الفدائية تتساقط شيئاً فشيئاً في أيدي قوات السلطان، حيث سقطت العليقة في شوال سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٢م)، بينما استولى نوابه على الرصافة في الشهر نفسه.^(١٢٢)

وقد استمرت معاقل الصليبيين بالتساقط تباعاً، وذلك بعد أن حاول سكان حصن الكهف والقدموس والمينقة تنصيب مقدم عليهم بالقلاع.^(١٢٣)

ففي سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢م) تسلم نواب الملك الظاهر ماتأخر منها، وبيتيج المقريني بسقوطها في أيدي المسلمين بقوله: «وَأَقِيمْتَ هُنَاكَ الْجَمْعَةَ وَتَرْضَى عَنْ الصَّحَابَةِ بِهَا، وَعُقِيَتِ الْمُنْكَرَاتُ مِنْهَا، وَأُظْهِرَتْ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ وَشَعَائِرُهُ».^(١٢٤)

وقد بقي شيخ الفدائية نجم الدين الشعرائي في مصر إلى أن توفي سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٤م). وبذلك ضعف دور هذه الفرقة الذين كان لهم أثر سلبي واضح في الجبهة الإسلامية، وتهاوت أستارهم على يد السلطان الظاهر بيبرس الذي نجح في تخليص العالم من عدو كاد أن يمزق العالم الإسلامي إرباً وهم المقلوب، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل على يديه أيضاً تخليص العالم الإسلامي من خطر

(١٢٠) المقريني، السلوك ٨/٨٧٧هـ.

(١٢١) ابن عبد الظاهر، الروض من ٢٨٥.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٤-٣٩٠.

(١٢٣) البيريني، نيل مرآة الزمان، ٢/٤٧٣هـ.

(١٢٤) السلوك ٨/٦٠٨.

داخلي كان منسجاً في جسم الأمة الإسلامية، ألا وهم القداوية^(١٣١).

إلا أنه يشار هنا إلى أنه على الرغم من الجهود التي قام بها السلطان الظاهر بيبرس في سبيل القضاء على هذه الفرقة، وتوجه المصائر التاريخية إلى ضعف نشاطهم أو انعدامه في أواخر حكم بيبرس إلا أن قلاعهم في المنطقة لا تزال تتميز بمظاهر القوة والمنعة مما هدد سلطان المماليك بعد بيبرس، وشكل خطراً ماثلاً على نفوذهم في بلاد الشام^(١٣٢).

لذلك تعين على السلطان المنصور قلاوون الذي تولى السلطنة سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) أن يضع في اعتباره أن تكون هذه القلاع في حوزته، وتحت هيمنته، وذلك في اتفاقه مع الصليبيين في الهدنة التي عقدها مع كل من الاسبتارية وإمارة طرابلس في المحرم من سنة ٦٨٠هـ (أبريل ١٢٨١م) فحرص السلطان على أن تكون مصياف وبلاها وقلاع الدعة في المنطقة ضمن ما يخضع للسلطان دون منازع^(١٣٣).

وفي مرصد الرحالة ابن بطوطة على حصون هذه الفرقة تحدث عنها بقوله: « وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم القداوية »^(١٣٤).

ويشير ابن بطوطة إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد استعان بهذه الفرقة في الانتقام من أعدائه كما أنه خصص لهم مرتبات مغرية نظير ذلك، ويضيف أن السلطان إذا أراد أن يبعث أحداً منهم لغرض اغتيال عدو له أعطاه دينه، فإن سلم بعد تنفيذ ما طلب منه فهي له، وإن أصيب فهي لوالده؛ ثم يقول ابن بطوطة: « ولهم مساكن مسمومة يضربون بها من بعث إلى قتله »^(١٣٥).

ويمكن أن يشار هنا إلى أن أصحاب هذه الفرقة - وبهذه الصفة - قد استعاروا شيئاً من نفوذهم بعد أن اضمحل في عهد بيبرس وكاد أن ينتهي.

(١٢٥) عفاف صبره، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦٠-٢٦١.

(١٢٦) عثمان عبد الحميد عدوي، الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية

{ ٤٩١-٦٩١هـ / ١٠٩٧-١٢٩٠م } ص ٢١٣.

(١٢٧) ورد نص شروط هذه الهدنة في المقرئ، السلوك، ج ١/ق ٣، ص ٩٧٤-٩٧٧.

(١٢٨) ابن بطوطة، الرحلة، ١/٩٣.

(١٢٩) الرحلة، ١/٩٣.

الخاتمة:

من خلال هذا البحث تبين لنا أثر الفداوية السياسي في الجبهة الإسلامية خلال الحروب الصليبية، ذلك الأثر الذي جعل تاريخ هذه الفرقة يمتزج بتاريخ الفريقين المتنازعين في المنطقة، بل إنهم أصبحوا قوة يحسب كل فريق لها حساباً خاصاً، بسبب سياستهم التي تقوم على الفتك بمن يخالفهم، فقد ذهب ضحيتهم جمع من زعماء الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في المنطقة، وعند أيضاً من زعماء الصليبيين الذين حاولوا الوقوف في طريقهم، أو تعارضت مصالحهم معهم.

كما أوضحت لنا هذه الدراسة كيف أن هذه الفرقة أصبحت عاملاً من عوامل الفرقة والضعف الذي أصاب العالم الإسلامي آنذاك بمواجهاتها المستمرة مع زعماء المسلمين، وتوجيه الطعنات الماسمة إليهم من الخلف وفي تحالفاتهم المستمرة مع قادة الصليبيين، مما شكل خطراً حقيقياً على الجبهة الإسلامية.

وقد أحسن الصليبيون استغلال وجود هذه الفرقة والخلاف الدائر بينها وبين المسلمين السنة، لتحقيق مكاسب لهم على حساب الفريقين، وهذا ما أدى إلى تداخل الأطراف الثلاثة فيما بينها، وكل طرف من هذه الأطراف أخذ يتصرف وفقاً لما تمليه عليه مصالحه الخاصة حتى ولو تقلّب في ولائه بين طرفين.

وبما تقتضيه الأمانة التاريخية القول بأن العلاقة بين هذه الفرقة وبين الفريقين المتحاربين في المنطقة (المسلمين والصليبيين) لم تكن على وتيرة واحدة، ولم تكن موجهة مع فريق ضد الآخر على طول الخط فقد كانت تتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين تارة لتحقيق مصلحة معينة، وينعكس الوضع أحياناً، فيتم تحالف هذه الفرقة مع المسلمين ضد الصليبيين تارة أخرى، وقد مرّ بنا نشاط الفداوية في اغتيال عدد من قادة الصليبيين في المنطقة، وهذا يعني أن مصالحهم الشخصية هي التي تملّي عليهم مثل هذه المواقف.

فلم ينتج عن علاقات الفداوية بالصليبيين في المنطقة روابط قوية بين الطرفين، ولم تسفر تلك العلاقات عن نتائج حاسمة. وكل ما هناك وفادات من الرسل والسفارات وتبادل المراسلات في بعض الأحيان، وفي المقابل تهديد من قبل الفداوية وتلويح باستخدام الخناجر المسمومة أحياناً أخرى، وقد سجل للباطنية أنهم قاموا بعدد من الاغتيالات لعدد من زعماء الصليبيين حينما اقتضى الأمر ذلك.

وهذا يعني أن تلك العلاقات كانت تملئها المصالح الخاصة لكل طرف.
ومما يشار إليه هنا أن هؤلاء الفداوية لم يتمكنوا من السيطرة على أي من الحكومات الإسلامية،
ولم يؤسسوا لهم في المنطقة دولة ذات نظام مستقر، وحتى قلاعهم إن وجدت، فإنها مجرد مقاطعات
صغيرة ذات دور محلي، ومآلها في نهاية الأمر إلى السقوط في أيدي زعماء المسلمين كما حدث
فعلًا، وهذا أثر بدوره على عدم استقرار هذه الطائفة في المنطقة.

المصادر والمراجع:

أولاً المصادر:

- ابن الأثير : عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
- ١- الكامل في التاريخ، ط٤، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
- ٢- التاريخ الباهر في النولة الاتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليعات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٢٨٢هـ (١٩٦٣م).
- أين بطول: أبو عبدالله، محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).
- رحلته، المسعاة تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تحقيق وتقديم، علي المتصر الكتاني، ط٤ بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
- البنداري: قوام الدين الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (ت: ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).
- تاريخ نولة آل سجوق، ط٢، بيروت ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).
- أين تقوى يردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر (د.ت).
- أين خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م).
- وقيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (١٩٧٢م).
- أين أبي السم الحموي: القاضي شهاب الدين إبراهيم بن عبدالله (ت: ٦٤٢هـ/١٢٤٤م).
- التاريخ المظفر، ميكروفيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة برقم (٦٠٤).
- سبط أين الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغي (ت: ٦٥٤هـ/١٢٥٦م).
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، الهند، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ (١٩٥١م).
- السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر محمد (ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م).
- تاريخ الخلفاء تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، دار التراث، ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).

- أبو شامة: شهاب الدين، أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسى (ت: ٦٦٥هـ/١٢٦٦م).
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج: تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، ق١ نشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة (١٩٥٦م)، ق٢ نشر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة (١٩٦٢م)، ج٢، مطبعة وادي النيل، القاهرة (١٢٨٨هـ).
- الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت: ٤٤٨هـ/١١٥٣م)
- الملل والنحل، تحقيق: عبدالعزيز محمد الوكيل، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).
- ابن عبدالظاهر: محيي الدين أبو الفضل عبدالله بن عبد الظاهر (ت: ٦٩٢هـ/١٢٩٢م).
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبدالعزيز الخويطر، ط١، الرياض، ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م).
- ابن العديم: كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـ/١٢٦١م).
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، المطبعة الكاثوليكية، (١٩٥٤م).
- العظيمي: محمد بن علي العظيمي الحلبي (ت: ٥٥٦هـ/١١٦٦م علي الأرجح):
- تاريخ حلب، تحقيق: إبراهيم زعرور، دمشق، ١٢٨٤هـ (١٩٨٤م).
- العيني: يبرالدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (٨٥٥هـ (١٤٥١م)
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان
- الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت: ٥٠٥هـ/١١١٢م)
- فضائح الباطنية، تحقيق عبدالرحمن بدوي، القاهرة، دار القومية للطباعة والنشر، ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م).
- أبو اللداء: عماد الدين إسماعيل بن علي (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م).
- المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار المعرفة، د.ت.
- ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم الحنفي المصري (ت: ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)
- تاريخ الدول والملوك المعروف بـ «تاريخ ابن الفرات» ١٨ مجلد مصور في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ٢١٩٧.

- ابن القلانسي: أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي التميمي دمشقي (ت: ٥٥٥هـ/١١٦٠م).
تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار إحسان، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
البداية والنهاية، ط٢، بيروت، مكتبة المعارف (١٩٧٧م).
المقريزي: تقى الدين أحمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م).
كتاب الصلوك لمعرفة دول الملوك ط٢ نشر محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٧٠م).
ابن منقذ: أبو المظفر مؤيد الدولة أصامة بن مرشد بن علي (ت: ٥٨٤هـ/١١٨٨م) الاعتبار
ابن ميسرة: محمد بن علي بن يوسف بن جلب (ت: ٦٦٧هـ/١٢٧٨م)
أخبار مصر، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي بمصر (١٩١٩م).
النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م).
نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٧، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت: ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيباني، القاهرة (١٩٥٣م).
ابن الوردي: زين الدين عمر (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).
تنمية المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت الببراوي، بيروت، دار المعرفة، ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م).
ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
معجم البلدان ط٢ بيروت: دار صادر، ٤٠٤هـ (١٩٨٤م).
اليونيني: قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي (ت: ٧٣٦هـ/١٣٢٥م).
ليل مرآة الزمان، حيدرآباد الدكن، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م).

ثانيًا : المراجع:

- أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، الكويت، ١٩٧٥م.
- أسامة زكي زيد: الصليبيون وإسعاقلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن الثاني الميلادي/السادس الهجري) الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٨٠م).
- جوزيف نسيم يوسف: العنوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، مكتبة الحروب الصليبية، ٢، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٨١م).
- حامد قنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة (١٩٧١م).
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، (١٩٦٧م).
- ونسيمان «ستيلن»: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريضي، بيروت، دار الثقافة (١٩٦٧-١٩٦٨م).
- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ط٢، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٧٨م).
- سهيل زكازن: الحروب الصليبية، دمشق، دار حسان، ١٤٠٤هـ- (١٩٨٤م).
- طه أحمد شرف الدين: الدولة النزارية، القاهرة، ١٩٥٠م.
- عثمان عبد الحميد عشوي، الإسماعيليون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (٤٩١-٦٩١هـ/١٠٩٧-١٢٩٠م)، القاهرة، المكتبة التاريخية، ١٩٨٢-١٩٨٣م.
- عفاف سيّد صبرة: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٤٠٦هـ- (١٩٨٥م).
- عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للفوز الصليبي، عصر ولاية السلاجقة في الموصل (٤٨٩- ٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧) الرياض، مكتبة المعارف ١٤٠١هـ- (١٩٨١م).
- ماركو بولو: الرحالة البندقي (٦٥٢-٧٢٥هـ/١٢٥٤-١٣٢٤م) رحلات ماركو بولو، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٧٧م).
- B. Lewis. The Assassins. A radical Sect. in Islam. (Oxford :1967).

العلاقات السياسية بين الصليبيين والبحتريين في عصر الحروب الصليبية

إعداد

د. محمد محمد عبد الحميد فرحات

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية التربية بالعريش

جامعة قناة السويس

كان على الصليبيين بعدما نجحوا في تأسيس إماراتهم الأربع في بلاد الشام -بعد الحملة الصليبية الأولى^(١)- أن يتعاملوا مع جيرانهم المسلمين المحيطين بهم؛ إذ لم يكن يوسعهم العيش بم عزل عنهم، كما كان على المسلمين أيضاً أن يتعاملوا مع الوضع الجديد وقيموا علاقات مع الصليبيين وفقاً لما عليه عليهم مقتضيات الأمر؛ لذا فقد قامت بين الجانبين علاقات مختلفة اتسمت بالعداء حيناً والسلم حيناً آخر. وقد أقام الصليبيون علاقات مع جيرانهم المسلمين سواء كانوا دولاً أو مدناً كبيرة أو حتى كيانات صغيرة حيثما وجئوا مصالحتهم. ومن أمثلة تلك الكيانات الصغيرة التي ارتبطت بعلاقات مع الصليبيين، البحريون^(٢) الذين لعبوا دوراً هاماً على مسرح الأحداث السياسية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي إبان فترة الحروب الصليبية وأغفلته المصادر -سواء كانت عربية أو غربية- إغفالاً يكاد يكون تاماً، كما أنه لا يوجد بحث قائم بذاته يتناول بالدراسة والتحليل العلاقات الصليبية البحرية إبان تلك الفترة؛ لذا فقد وقع اختيار الباحث على هذا الموضوع ليكون هدفاً لهذه الدراسة التي جعلت عنوانها "العلاقات السياسية بين الصليبيين والبحريين إبان عصر الحروب الصليبية".

^(١) تعتبر الرها هي أول الإمارات الصليبية التي أسسها الصليبيون في الشرق الإسلامي ١٠٩٧م/٤٩١هـ تليها إمارة أنطاكية في نفس العام، ثم إمارة بيت المقدس ١٠٩٩م/٤٩٢هـ وأخيراً طرابلس ١١٠٩م/٥٠٣هـ.

^(٢) بحر: يضم الباء وسكون الحاء للمهمل وضم التاء المشاء من فوق: بطن من طيء من القحطانية، وهم بنو بحر بن عمرو بن عيين بن سلمان بن نعل، والبحر في اللغة القصور المجتمع الخلق. ولزيد من التفاصيل عن نسبة البحريين راجع:

القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الإيباري، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٠م، ص ١٧٣، صبح الأعمش في صناعة الإنشاء، ج١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والروضة والنشر، ١٩٦٣م، ص ٣٢١، ابن حزم: جبهة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، ط ٤، دار المعارف، بدون تاريخ، ص ٤٠١، ٤٧٦، السريدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، بيروت ١٩٨٦م، ط ١، ص ٢٤٠.

والجدير بالذكر أن المصادر العربية والغربية على حد سواء كانت ضئيلة للغاية على الباحث بتزويده بمادة تتعلق بهذا الموضوع، فنجد بعض المصادر أغفلت ذكر البحريين تماماً سواء كان ذلك تصرّيحاً أم تلميحاً، والبعض الآخر نجده يشير إليهم بمجرد إشارات سريعة مقتضبة، مما جعل مهمة الباحث جد عسيرة، ولعل صمت المصادر هذا يرجع إلى جهلها بالبحريين أو لصغر كيانهم بالمقارنة بغيرهم من الكيانات الكبيرة المحيطة بهم، أو لأنها استقلت الدور الذي قاموا به في تلك الحقبة رغم أن البحريين قاموا بدور هام إبان فترة الحروب الصليبية.

ويعتبر كتاب صالح بن يحيى المرسوم بـ "تاريخ بيروت وأسراء بني الغرب البحريين"^(٣) من أهم المصادر العربية التي حوت مادة تاريخية عن هذا الكيان على قدر كبير من الأهمية لا نجد معظم مادتها في سواء من المصادر سواء كانت عربية أو غربية، ولذلك فهو يعتبر المصدر الأساسي الذي استمدت منه تلك المصادر معظم ما كتبه عن البحريين. ولم يكن قصد صالح بن يحيى عندما وضع كتابه هذا سرد الأحداث التاريخية وكتابة تاريخ عام بقدر ما كان يهدف إلى تسجيل مآثر أسلافه وأجدادهم حتى يقف عليها الخلف وتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل. وقد أوضح ذلك في مقدمة كتابه، وذكر أنه قصر هذه المذكرات على أهل بيته فقط «لا تخرج عن الخلف ولا تعار لغيرهم» على حد قوله^(٤).

وبما أن كتاب صالح بن يحيى يعتبر المصدر الرئيسي لهذه الدراسة لاحتوائه على كثير من المادة التاريخية الخاصة بالبحريين؛ لذا كان على أن أتعامل معه بحرص وحذر شديد. فرغم أن الكاتب كان ثقة دقيقاً لا

(٣) صالح بن يحيى: كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بني الغرب، نشر وتعليق لوريس شبيغو، بيروت في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٨٩٨م.

(٤) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧.

يررى شيئاً إلا شفعه بأسانيده وحججه، إلا أنه يلاحظ مع ذلك ميله أحياناً إلى أسلافه وإغفاله أيضاً لبعض الأحداث التاريخية التي قد تشوه ذكرهم^(٥)، ومع هذا فإن مؤلفه يعد مصدراً أساسياً لهذه الدراسة وقد استقى صالح بن يحيى معلومات عن أسلافه من خلال الوثائق الرسمية والمكاتبات المتبادلة بين الأمراء البحريين من جهة، وبين أمراء دمشق -الذين يتولون الإشراف عليهم- وحكام القاهرة من جهة أخرى^(٦). ومن أمثلة تلك المكاتبات المنشورة الخاصة بتولية البحريين الإمارة على إقطاعاتهم والرسائل التي توضح المهام المكلفين بها وغيرها من الأمور المختلفة التي تتعلق بتصريف شئونهم، وبين ثانياً هذه المكاتبات نجد المادة التي تهمننا والخاصة بالعلاقات بين الأمراء البحريين والصليبيين مبعثرة هنا وهناك، وهي تلقى الضوء على طبيعة هذه العلاقات وماهيتها. وقد اتسمت تلك العلاقات برتوح العداء تارة والوفاق تارة أخرى تبعاً للظروف التي كان يمر بها كلا الجانبين، فنجد الهجمات المتبادلة بين الطرفين حيناً والسلام والمعاهدات حيناً آخر، وذلك وفقاً لما تمليه ظروف كلا الطرفين^(٧).

ولتفهم طبيعة تلك العلاقات يجدر بنا العودة قليلاً إلى السوراء للتعرف على البحريين، من هم؟ وما هي الظروف التي مروا بها منذ

^(٥) ومن أمثلة ذلك إغفاله الإشارة إلى الهجوم الصليبي على إقليم الغرب ١١١٠م/٥٠٤هـ، وكذلك تشييد الصليبيين لقلعة مونت جلاتين في جبال بيروت ١١٢٥م/٥١٩هـ، ونفيه لوجود عطايات متبادلة بين البحريين وكل من أمراء أنطاكية وسيدا وعكا. عن ذلك راجع ص ٦، ١٦، ١٧ من هذا البحث.

^(٦) راجع نصوص هذه الوثائق والمنشور في صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٦٤-٢٥٩، وانظر أيضاً

C. Clermont, Deux Chartes des Croisés dans les Archives Arabes, in (R.A.O.), Vol. VI, 1905, (pp. 1-30), p. 1.

Jean Richard, The Latin Kingdom of Jerusalem, Trans. by Janet Shirley, ^(٧) 2 vols, New York, 1979, Vol I, p. 28; Nikerson, The Seigneurie of Beirut in the Twelfth Century and The Brisebarre Family of Beirut -Blanche-Garde, in Byzantion, 1949 (pp. 141-185), p. 149.

نزوحهم إلى بلاد الشام في القرن السابع الميلادي / الأول الهجري، وحتى
يجي الصليبيون إلى المنطقة ودخلهم في علاقات معهم؟

ينتسب البحريون إلى جددهم الأكبر الأمير بُحتر الملقب بناهض
الدولة أبي العشائر بُحتر بن شرف الدولة علي بن الحسين، والذي ينتهي
نسبه إلى تنوخ^(٨)، ومنه إلى المناذرة ملوك الحيرة اللخمين^(٩). كان
التنوخيون أجداد البحريين قبائل نصرانية قبل الإسلام^(١٠) وبقوا على دينهم
زمنًا بعد المحجرة النبوية الشريفة إلى أن غلب عليهم الدين الإسلامي
لاختلاطهم بالمسلمين^(١١)، واستوطنت تنوخ بعد الإسلام البرية الواقعة بين
حلب ومعرة النعمان^(١٢)، وإلى عربها ينتسب الأمراء البحريون الذين

^(٨) تنوخ: بفتح الحاء وضم النون ثم نداء معجمة، هي حي من اليمن من القحطانية، والتخ المقام،
وينسبون إلى الأمير تنوخ بن قحطان بن كلفة بن جندب الذي يرتفع نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم
الخليل عليهما السلام. وإنما سموا تنوخًا لتوهمهم بالشام وقيل بالحيرة. ولزيد من النفاصل عن
نسبهم راجع: القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ١٨٩، ابن حزم: المصنوع
السابق، ص ٢١٥، ٤٥٣، ٤٦١، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،
ط٤، دار المعارف ١٩٧٩م، ج١، ص ٦١٢، ج٢، ص ٤٢.

^(٩) القلقشندي: صبح الاغشى، ج١، ص ٣٢١، السويدي: المصدر السابق، ص ٢٤٠.

^(١٠) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب للقدية والحديثة، ج١، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت
١٩٨٥، ص ٦٩، قليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج٢، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٨م،
ج٢، ص ١٧٠.

^(١١) على الرغم من أن صالح بن يحيى ذكر في كثير من النسابات أن أجداده كانوا من المسلمين
لكنه، إلا أن هناك من الآراء ما يشير إلى أنهم كانوا من الدرزي، وأنهم تظاهروا بالإسلام لانتفاء شر
السلطات الإسلامية الخاضعين لنفوذهم من جهة، وكسب ودهم من جهة أخرى. عن ذلك انظر:

H. Lammens, La Syrie, Précis Historique, 2 vols, Beyrouth 1921, Vol II, p. 10.

^(١٢) الطبري: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢، ج٤، ص ٥١. انظر أيضًا:

Churchill, Mount Lebanon, London 1853, Vol I, p. 226; Lammens, Op. Cit., Vol II, p. 9.

ومعرة النعمان هي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة ماؤها من الآبار
وعنبهم الزيتون الكثير والتمين. انقازة: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، دار صادر للطباعة
والنشر، بيروت ١٩٥٧، ص ١٥٦.

خضعوا في تلك الفترة المبكرة لإشراف نائب حلب الذي ولى عليهم من قبله مشدًا^(١٣) يرعى شئونهم، وعندما تعرض هذا المشد لبعض حريمهم، قام رجل منهم يدعى نبا بقتله وفر مع حريمه إلى منطقة كسروان^(١٤)، حيث عمر له قرية هناك سميت برج نبا، ولما طلب نائب حلب القاتل من عشيرته خافوا منه فرحل بعضهم إلى إقليم الجزيرة وأعلى الفرات^(١٥)، بينما توجه البعض الآخر إلى موضع نبا حيث استقروا هناك، وذلك عام ٨٢٠م/٢٠٥هـ^(١٦)، وفيما بعد استوطنوا المنطقة الجبلية بصيدا وإقليم الغرب ببيروت الذي يشمل المنحدرات الجبلية الواقعة بين بيروت ونهر الدامور^(١٧) وظلوا بها حتى مجى الصليبيين إلى المنطقة.

^(١٣) المشد: ويقال له أيضًا الشاد، كان يتولى للدوليين وغيرها من الوظائف. فكان هناك شاة للأسواق والسلاح والمراكب وغير ذلك من الوظائف المفردة. ابن شامين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بنشره بولس رابويس، طبع في مدينة باريس المخروسة بالطبعة الجمهورية سنة ١٨٩٢م، ص ١١٤.

^(١٤) كسروان: مقاطعة بيروت، صالح بن يحيى: المصدر السابق، ج٢، ص ١٣.

^(١٥) نفس المصدر، ص ٦٩، الطبري: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢، أنظر أيضًا: محمد كرد علي: خطط الشام، ج١، ط٣، دمشق ١٩٨٣م، ص ٢٢-٢٦، لويس شيخو: بيروت تاريخها وآثارها، بيروت ١٩٢٥م، ص ٦٧. ويقع إقليم الجزيرة بين دجلة والفرات، وتشتمل على ديار شمر وديار بكر. انظر: باقرت الحموي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٤.

^(١٦) الشدياق: أخبار الأحيان في جبل لبنان، بيروت ١٨٥٩م، ج١، ص ٢٢٣، فليب حتى: المرجع السابق، ج٢، ص ١٧٠.

^(١٧) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٢. انظر أيضًا:

Churchill, op. Cit., Vol. I, pp. 237-38; Claude Cahen, La Chronique de Kirtay et les Franc de Syrie, in J.A., Paris 1937, (pp. 240-45), p. 244; Idem, La Syrie de Nord à l'époque des Croisades et La Principauté Franque d'Antioche, Paris 1940, p. 89.

ونهر الدامور: عبارة عن مجموعة أنهار هي: نهر الجاهون، نهر الصفاء، نبع القناع، ونبع دارة، ويبلغ طوله ٤٠ كيلومترًا، ويصب في البحر المتوسط. انظر:

Rey, Les Colonies Franques de Syrie aux XI^e et XIII^e siècles, Paris 1883, p. 521.

ذكر صالح بن يحيى أنه فى عام ١٠٢٧ م / ٤١٨ هـ كان أحد أجداده، ويدعى أبا إسحق إبراهيم أميرًا بالبيرة^(١٨) من قبل خلفاء مصر الفاطميين^(١٩)، فى حين تولى ابنه الأمير إبراهيم الملقب بمجد الدولة حكم مدينة صيدا وظل بها إلى أن استولى عليها الفرنج عام ١١١٠ م / ٥٠٤ هـ^(٢٠)، فانتقل إلى إقليم الغرب الذى كان قد خربه الفرنج قبل استيلائهم مباشرة على مدينة صيدا وتركوه قاعًا صفيصًا بعد أن قتلوا من طائفة أيديهم ولاذ بالفرار كل من تمكن من الهرب، ومن بين هؤلاء الذين

^(١٨) وهى تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات جنوب غرب الرها بحوالى ٨٠ كم، وهذا الاسم يطلق على عدة مواضع، فأما الموضع الذى يعنى فذكر ياقوت أن البيرة «بلدة قرب سيماط بين حلب والثغور، وهى حصينة ولها رستاق واسع...» ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج١، ص ٥٢٦، والبيرة أيضًا «من قرى ولدى بطنان من أعمال حلب» وأيضًا البيرة «من قرى كفر طاب»: ياقوت الحموى: المشرك وضعًا والمفرق صفًا، ج٢، ص ١٨٤٦، ج٢، ص ٧٥، والبيرة أيضًا: «بلدة بين بيت المقدس وتابلس»: ياقوت: نفس المصدر والصفحة، معجم البلدان، ج١، ص ٥٢٦. أما البيرة التى فى الأندلس فأنها أصل والنسبة الألبيرية: البغدادي: مراد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق على محمد البحارى، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٤ م، ص ١١١. ولزبد من التفاصيل عن أهمية موقع البيرة وما تشتهر به، راجع: محمد محمد فرحات: معارك أعالي الفرات بين المسلمين والصليبيين ١٠٩٧-١١٥١ م / ٤٩٠-٥٤٦ هـ، رسالة ماجستير لم تشر بعد، الإسكندرية ١٩٨٨ م، ص ٤٩ وما بعدها.

^(١٩) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٦٩، انظر أيضًا: فيليب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٠.

ج ٢.

^(٢٠) تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة صيدا بالأمان بعد حصار دام سبعة وأربعين يومًا وذلك فى الرابع من ديسمبر ١١١٠ م / العشرين من جمادى الأولى ٥٠٤ هـ عن ذلك انظر:

Albert d'aix, Historia Hierosolymitana, Ed. R.H.C. Occ. Tome IV, Paris 1879, p. 679; Mattieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Mattieu d'Edesse, Ed. R.H.C. Doc. Arm., Paris, 1869, T.1, p. 17; William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, Trans. by Bab Cock and Krey, 2vols, New York, 1943, Vol. I, pp. 487-88.

انظر أيضًا: ابن القلاسى: ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨ م، ص ١٧١، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٩، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، ج ٨، ص ٢٦٠.

ولزبد من التفاصيل عن سقوط لمدينة فى أيدي الصليبيين انظر: أسامة زكى زيد: صيدا ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى، الطبعة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١ م، ص ٩١-٩٩.

نجوا الأمير أبو العشائر بحر الذي كان لا يزال صغيراً فى ذلك الوقت^(٢١)
فتولى الأمير مجد الدولة إبراهيم حكم الإقليم -من قبل طغتكين أتابك
دمشق ١١٠٤-١١٢٨م/٤٩٨-٥٢٢هـ- فقام بتنظيمه وإعادة إعمار
مرة أخرى بعد أن عاد إليه كل من اضطر إلى الهرب إبان الهجوم الفرنجى
على الإقليم^(٢٢).

ومهما يكن من أمر فقد تمتع البحريون بقدر وافر من الحرية إبان
فترة حكم الأمير مجد الدولة إبراهيم ١١١٠-١١٢٦م/٥٠٤-٥٢٠هـ؛ نظراً
لقصر يد الفرنج عليهم، وساعدتهم فى ذلك طبيعة بلادهم الجبلية. ونظراً
لعدم انضوائهم للنفوذ الصليبي بالمنطقة ورفضهم دفع الضرائب لهم، فضلاً
عن انخيازهم لحكام دمشق المسلمين^(٢٣)، أوجس الصليبيون منهم خيفة
واستشعروا منهم الخطر؛ مما دفع بالملك بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١م /
٥١٢-٥٢٦هـ) إلى الحضور بنفسه للإشراف على تشييد قلعة منيعة فى
جبال بيروت لكبح جماح البحريين وإجبارهم على الطاعة، وقد أطلق عليها
اسم قلعة مونت جلانين Mont Glainen أو مونت جلافيانوس Mont
Glavianus، وهى تبعد حوالى ستة أميال عن مدينة بيروت، وذلك فى
أكتوبر عام ١١٢٥م / ٥١٩هـ^(٢٤)، مما يعكس لنا مدى ما كان يشكله
البحريون من خطر على حدود مملكة بيت المقدس الصليبية فى تلك
المنطقة.

Clermont, Op. Cit., p. 26.

(٢١)

Idem.

(٢٢)

(٢٣) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ج١، ص ٦٩. انظر أيضاً:

Clermont, Op. Cit., p. 25.

Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jerusalem, Trans. (٢٤)
by Frances Rita Ryan, (Sisters of St. Joseph), Edited with an introduction by
Harold's Fink, Knuville, U.S.A., 1969, p. 226; cf. also: Nickerson, Op. Cit.,
pp. 156-57.

أدى تشييد الصليبيين لقلعة مونت جلالين إلى الحد من حرية البحريين في مزاولة أنشطتهم اليومية من زراعة وغيرها وسبب لهم أضراراً بالغة والحق بممتلكاتهم خسائر مادية فادحة، فضلاً عن أن الصليبيين تمكنوا -بفضل موقع القلعة- من تحسس أخبار البحريين ونجحوا في إلقاء القبض على ستة من ذوى الشأن منهم^(٢٥)؛ لذلك اضطّر البحريون إلى الرضوخ لمطالب الصليبيين فقدموا لهم الضرائب نظير عدم التعرض لهم ولممتلكاتهم والسماح لهم بمزاولة أنشطتهم اليومية^(٢٦).

والعجيب أن صالح بن يحيى قد صمت عن ذكر هذا الحدث الذى لم يشر إليه سوى المؤرخ اللاتينى فولشر أوف شارتر *Fulcher of Charter*، كما صمت عن ذكر غيره من الأحداث الأخرى، إلا أننا نلتبس له العذر فى ذلك؛ إذ أنه وكما ذكر فى مقدمة كتابه قد أوقف هذا العمل على أهل بيته فقط لإبراز مآثر أجداده ليتوارثها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل وذلك من خلال ما ورد فى مناشيرهم الرسمية التى لم يكن الهدف منها الإشارة إلى الأحداث التاريخية وذكر تفاصيلها بقدر ما كانت تُعنى بإبراز العلاقة بين البحريين وبين كل من دمشق والقاهرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أول منشور خاص بالبحريين أورده صالح بن يحيى فى كتابه يرجع تاريخه إلى عام ١١٤٧م/٥٤٢هـ^(٢٧) وقد بعث به بحير الدين أبى أمير دمشق^(٢٨)، وتاريخ هذا المنشور يلى تاريخ تشييد قلعة مونت جلالين بنحو اثنتين وعشرين سنة.

^(٢٥) Fulcher, Op. Cit., Loc. Cit.

^(٢٦) Nickerson, Op. Cit., p. 149, n.1.

^(٢٧) راجع نسخة هذا المنشور من صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٦٧.

^(٢٨) تولى حكم دمشق فى الفترة من ١١٤٠-١١٥٦م / ٥٣٤-٥٤٩هـ، ونظرًا لحداثة سنة قام معين الدين أنز بتدوير شئون البلاد، واستمر بحير الدين أبى فى الحكم حتى سنة ١١٥٦م عندما عزله نور الدين عن دمشق وضمها إليه فرحل بعدها إلى بغداد حيث توفي هناك. وللمزيد راجع: ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٤٥-٤٦.

وعلى أى حال، خلف الأمير أبو العشائر بحر بن على الأمير مجد الدولة إبراهيم فى حكم إقليم الغرب وذلك فى الفترة من ١١٢٦-١١٥٧م/ ٥٢٠-٥٥٢هـ وقد اتسمت العلاقات الصليبية البحرية إبان عهد هذا الأمير بنوع من الهدوء والاستقرار^(٢٩)؛ إذ أدرك البحريون أنه ليس من الحكمة معاداة الصليبيين؛ نظراً لعدم وجود القوة الإسلامية التى بوسعها حمايتهم والدفاع عنهم إذا ما تعرضوا للخطر الصليبي هذا من جهة، كما أدرك الصليبيون أن من مصلحتهم الإبقاء على علاقات ودية مع البحريين إذا ما أرادوا حدودهم الشرقية أن تنعم بالأمن والاستقرار من جهة أخرى، ولأن الإبقاء على البحريين موالين لهم يعود عليهم بالمنفعة أكثر من معاداتهم حتى وإن كان ميزان القوى فى صالحهم؛ لذلك اتسمت العلاقات الصليبية البحرية إبان تلك الفترة بالسلام والاستقرار، ولم يعكر صفوها سوى بعض الغارات القليلة ضد الصليبيين فى المنطقة، إلا أنها كانت غارات خاطفة ولم تكن مؤثرة بأى حال من الأحوال ومثال ذلك ما حدث فى عام ١١٥١م/ ٥٤٦هـ عندما قام الأمير أبو العشائر بحر بالهجوم على بعض الفرنج عند نهر الغدير^(٣٠) بالقرب من بيروت وتمكن من قتل عدد منهم بينما فر الباقون إلى بيروت للاحتماء بها^(٣١)، وأغلب الظن أن هؤلاء الفرنج كانوا عابرين المنطقة ولم يكونوا من صليبي صيدا أو بيروت التى تناغم حدودها أملاك البحريين، والليل على ذلك أننا لم نسمع عن رد فعل صليبي إزاء هذا الهجوم. ومن العجيب أيضاً أن المصادر المعاصرة وغير

Lammens, Op. Cit., p., 11.

(٢٩)

(٣٠) نهر صغير جنوب بيروت. انظر:

Clermont, Op. Cit., p. 25, n. 4.

(٣١) ابن سباط: صدق الأخبار فى نية آل توتخ، نشر ضمن كتاب حيدر أحمد الشهابي، ص ٥٦٦.

انظر أيضاً:

Churchill, Op. Cit., p. 238.

المعاصرة من غربية وإسلامية باستثناء ابن سباط^(٣٣) لم تُشر البتة إلى هذا المجرم؛ مما يوضح لنا أن البحريين كانوا على قناعة تامة بضرورة مهادنة الصليبيين في تلك الفترة وعدم معاداتهم حتى يتمكنوا من العيش في سلام دون أن يتعرضوا لخطرهم.

ومهما يكن من أمر فقد خلف الأمير شمس الدولة أبو العز كرامة ابن بخت والده في حكم إقليم الغرب وذلك في سنة ١١٥٧م / ٥٥٢هـ^(٣٣). وقد ظلت العلاقات الصليبية البحرية على صفائها السابق طوال فترة حكمه رغم تغير موازين القوى بالمنطقة؛ إذ أخذ ميزان القوى تعادل كفته خاصة بعدما تمكن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ١١٤٦-١١٧٤م / ٥٤١-٥٦٩هـ من ضم دمشق إلى ممتلكاته سنة ١١٥٦م / ٥٤٩هـ فرحد بذلك بين بلاد الشام جميعها تقريباً، وأصبحت الجبهة الإسلامية قوة كبيرة لها وزنها بمقدورها التصدي للخطر الصليبي وإضفاء حمايتها على رعاياها أمثال البحريين وغيرهم.

وقد ذكر صالح بن يحيى أن^٩ الأمير كرامة مال إلى جانب الملك العادل نور الدين وأهمل الفرنج^(٣٤). ويمتشف من هذه العبارة أن البحريين قبل ذلك كانوا مائلين للفرنج ومنحازين إليهم تماماً ثم مالوا إلى جانب نور الدين بعدما قويت شوكة وأصبحت لديه القوة التي تمكنه من الدفاع عن رعاياه. ورغم ما أبداه البحريون من ميل تجاه نور الدين

^(٣٣) والجدير بالذكر أن ابن سباط كان يعمل في خدمة الأمراء البحريين، فليس من الغريب أن ينزف بذلك هذه الحادثة وغيرها لقربه من البحريين.

^(٣٤) لزيد من التفاصيل عن شخصية هذا الأمير ولهم أعماله راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧١.

^(٣٥) الجدير بالذكر أن الأمير كرامة قدم دمشق حيث مَثَل بين يدي الملك العادل نور الدين الذي ضلعه بإنعامه، وأعطاه منشوراً يثبت ملكيته لإقليم الغرب وأغلق عليه منحا كثيرة منها عدة قرى في لبقاع ووادى النيم، كما كتب للأمير كرامة مرسوماً يحثه فيه على جهاد الفرنج ويأمر رعاياه بطاعته ويحذرهم من مخالفته في هذا الأمر. لزيد من التفاصيل عن هذه الناحية راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧١-٧٣.

محمود، إلا أنهم تمتعوا بنوع من الاستقلال الذاتى فلم يخضعوا لاي من القوتين الصليبية أو الإسلامية وتأرجح ولاؤهم بين هؤلاء وأولئك وفقاً لما تقتضيه مصلحتهم الشخصية وقدموا خدماتهم المختلفة لمن يدفع المقابل^(٣٥) وكانهم ورثوا الدور الذى كانت تلعبه دمشق قبل ضم نور الدين لها^(٣٦)؛ لذا حرص كل من الصليبيين والمسلمين على كسب ردهم واستقطابهم إلى جانبهم لما يشكلونه من أهمية لمناخمتهم لحدود الطرف الآخر^(٣٧). وقد تجمع البحريون فى القيام بهذا الدور إلى حد بعيد، الأمر الذى جعل كلاً من المسلمين والصليبيين يشكون فى صدق ولائهم من جهة، ولا يثقون فى وعودهم قط من جهة أخرى لهذا قام البحريون بإنشاء عدد من الحصون والقلاع المنيعة ليحتموا بها إذا ما دارت عليهم اللوائى، ولعل أشهر هذه الحصون حصن عرامون وسرحمول^(٣٨).

ويبدو أن الصليبيين قد عز عليهم ميل البحريين لنور الدين لما كان بينهما من مودة من قبل؛ لذا أسر سيد بيروت الصليبي هذا الامر فى نفسه ولم يده لهم تحيناً للفرصة المواتية التى يثار فيها منهم، واعتماداً على الهدنة المبرمة بينهم^(٣٩) أظهر مشاعر ودية كاذبة حيال أبناء الأمير كرامة -الذين

Nickerson, Op. Cit., p. 149.

(٣٥)

(٣٦) لمزيد من التفاصيل عن سياسة دمشق للزوجة راجع:

ابن القلاسى: اللبل، ص ٢٧١-٢٧٣، ٢٩٨، ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص ٣٦٧، ج٩، ص ٢٠، ٢١، ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج١، تحقيق د. جمال الدين الشيبان، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٨٨، ١١٣. انظر أيضاً:

William of Tyre, Op. Cit., pp. 190-92.

(٣٧) صالح بن عيسى: للمصدر السابق، ص ٧١-٧٢، ٨٣-٨٤، ابن صباط: للمصدر السابق، ص ٥٦٩، شافع بن على: حسن اللواقب السرية للترعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، جامعة الملك عبد العزيز، للكتبة المكرية، جدة، بدون تاريخ، ص ٧٧. انظر أيضاً:

Jean Richard, op. Cit., p. 396; Claude Cahen, Op. Cit., p. 244.

Clermont, Op. Cit., p. 1; cf. also: Lammens, Op. Cit., p. 12.

(٣٨)

ويقع كل من حصن سرحمول وعرامون فى مقاطعة القرب الأسفل، انظر: صالح بن عيسى: المصدر السابق، ص ٧٠، ج ٢، ص ٢١ ح ٢.

Clermont, Op. Cit., p. 29; cf. also: Churchill, Op. Cit., p. 237.

(٣٩)

خلفوا أباهم في حكم الإقليم^(٤٠) - وحرص على الاجتماع بهم مراراً للصيد حتى اطمئنا لجانبه. وعندما أحس سيد بيروت بهذا دعاهم ذات ليلة لحضور عرس ولده، فلبى الثلاثة الكبار هذه الدعوة وحضروا إلى بيروت وبرفقتهم عدد قليل من أتباعهم، ولما دخلوا القلعة لم يخرجوا منها فكان هذا هو آخر العهد بهم. وفي صبيحة اليوم التالي قام سيد بيروت ومن معه من قنات بالإغارة على الإقليم وجائوا خلال دياره ناشرين الرعب والفرع بين أهله وقتلوا عدداً كبيراً منهم بينما فر العديد من سكانه للاحتباء بالأردية المجاورة خوفاً من بطش الصليبيين، ومن بين هؤلاء الذين نجوا زوجة الأمير كرامة ولدها الصغير حجي شقيق الإخوة الثلاثة الذين قتلهم سيد بيروت^(٤١).

ومهما يكن من أمر فإن هناك سؤالين يطرحان نفسيهما على بساط البحث: أولهما متى تمت هذه الواقعة؟ والآخر من من أمراء الفرنج الذي قام بهذا العمل؟ يذكر صالح بن يحيى أن هذه الواقعة وقعت في أواخر أيام الملك العادل نور الدين محمود دون تحديد تاريخ محدد لها^(٤٢)، بينما ذكر ابن سباط أنها وقعت في ٥٧٠هـ / ١١٧٤-١١٧٥م^(٤٣). وقد أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن نور الدين منح قرية جبعة للأمير حجي بعد عدة أيام من هذه الواقعة^(٤٤). وبالرجوع إلى ما ذكره صالح بن يحيى بنحده

^(٤٠) لم نلنا المصادر المتاحة بمعلومات تحدد تاريخ وفاة الأمير كرامة بن بجز، وكل ما نعلمه أنه ترك من بعده أربعة أبناء ذكر أصغرهم بلقي جمال الدين حجي، صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٤.

^(٤١) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٤، ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٦، انظر أيضاً: Clermont, op. Cit., p. 29.

^(٤٢) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٥.

^(٤٣) ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٦.

^(٤٤) لشدهاي: أخبار الأعيان، ص ٢٥٥، ولعل نور الدين منح الأمير حجي هذه القرية نسيبة له عما لحق بأشقائه. هنا ولم نعرف على موضع قرية جبعة.

يحدد تاريخ تلك المنحة في مايو ١١٧٠م / رمضان ٥٦٥هـ^(٤٥). وبناء عليه يثبت للباحث أن هذه الحادثة وقعت في ١١٧٠م / ٥٦٥هـ. هذا ولم نعدنا المصادر المتاحة بمعلومات توضح شخصية سيد بيروت الذي قام بتلك المؤامرة، وإن أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن جوتيه الثالث بريسبار Gautier III هو الذي قام بتلك المؤامرة^(٤٦) وهذا الرأي لا يمكن قبوله على اعتبار أنه تولى حكم بيروت خلال الفترة من ١١٥٧م / ٥٥٢هـ إلى ١١٦٦م / ٥٦١هـ، وهي فترة تسبق وقوع تلك الحادثة.

على أى حال بعدما انجلت الغارة الصليبية على إقليم الغرب وعاد المغفرون من حيث أتوا، أخذ سكان الإقليم في العودة ثانية إلى ديارهم. ولما كان الأمير حمص لا يزال صغيراً - لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره وقتئذ - لنا لم يكن بمقدوره القيام بهجوم مضاد للشار من الصليبيين لما ارتكبوه في حق أشقائه الثلاثة وغيرهم من سكان الإقليم، وفضل أن ينتظر الفرصة المواتية لذلك.

ومهما يكن من أمر، أدى غدر الصليبيين بالأمراء البحريين ١١٧٠م / ٥٦٥هـ إلى توتر العلاقات بين الجانبين ودفع البحريين إلى الانحياز التام للجانب الإسلامي ليثأروا مما ألحقه الصليبيون بهم، فقدموا خدمات كبيرة لصالح الدين، فأطلعوه على دروب المنطقة لمعرفة التامة بمخباياها وشاركوه في غاراته التي شنّها على مدينتي صيدا وبيروت ١١٧٩م /

^(٤٥) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٦. وقد أشار تشرشل إلى أن هذه الكفاية وقعت في ١١٦٠م، وهذا خطأ تاريخي واضح. انظر:

Churchill, Op. Cit., p. 238.

^(٤٦) لويس شيخو: تاريخ بيروت، ص ٦٨-٦٩، وجوتيه الثالث هو الابن الأكبر لملي الثاني Guy II سيد بيروت. ولزيد من التفاصيل عن شخصيته وأهم أعماله انظر:

Lignage d'Ostre-mer, cf. Assises de Jerusalem, T. II, Paris, 1843, p. 459; Rohricht Regesta Hierosolymitani, Innsbruck, 1893, doc. 325.

بينما ذكر حين ريتشارد أن وولو الثاني بريسبار هو الذي قام بتلك المؤامرة The Latin Kingdom, 1, p. 28.

٥٧٥هـ، وإن لم تشر المصادر إليهم صراحة واكتفت فقط بالإشارة إلى أن صلاح الدين قد استعان في غاراته تلك بالقبائل العربية القاطنة في مجاورات بيروت^(٤٧)، ولما كان البحريون هم سكان تلك المنطقة ولديهم الدافع للانتقام من الصليبيين؛ لذا فمن المرجح أنهم هم الذين قاموا بشن تلك الغارات.

وفي سنة ١١٨٢م / ٥٧٨هـ عندما أراد صلاح الدين غزو بيروت عسكرت قواته في منطقة البقاع التي تعد من ممتلكات البحريين^(٤٨)، وظل بها ينتظر ظهور الأسطول المصري ليتم حصار المدينة براً وبحراً؛ لذا بث عيونه وكشافته في جبال بيروت ليزقبوا لحظة وصول الأسطول ويخبروه بذلك ليبدأ الهجوم البري والبحري على المدينة^(٤٩). ومن المرجح أن يكون هؤلاء العيون والكشافة من البحريين أنفسهم لأنهم سكان تلك المنطقة

William of Tyre, Op. Cit., p. 447, cf. also Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 vols, Paris 1948, vol II, p. 671.

انظر أيضاً: المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الثالث، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩، ص ٦٧، أبو شامة: الروشتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢، مطبعة وادي النيل ١٢٨٧-١٢٨٨هـ، ٢، ص ٨-١١، ولزبد من التفاصيل عن تلك الغارات وموقف رينالد صاحب صيدا انظر: أسامة زكي: المرجع السابق، ص ١٦٤-١٦٢.

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 475, cf. also, Grousset, Op. Cit., Vol. II., p. 710; Churchill, Op. Cit., p. 237.

انظر أيضاً: أبو شامة: الروشتين، ٢، ص ٢٩، الحنبلي: شفاء القلوب في تاريخ بني أيوب، تحقيق تازم رشيد، بغداد ١٩٧٩م، ص ٩٨، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ٤، ج ٤ في مجلدين، بيروت بدون تاريخ، ٣، ص ٦٤، البنداري: سنا البرق الشامي، اختصار كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأسفهانى، تحقيق د. فحيد الجاوي، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٢٠٠-٢٠١.

^(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن هجوم صلاح الدين على بيروت وما آل إليه، انظر:

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 475-80, cf. also Grousset, Op. Cit., Vol. II, p. 710.

انظر أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق، ٩، ص ١٥٦، أبو شامة: المصدر السابق، ٢، ص ٢٩، البنداري: المصدر السابق، ص ٢٠١-٢٠٢.

وهم أدري بشعابها ودروبها من سراهم، ولا شك أيضاً أنهم قدموا خدماتهم لصالح الدين أثناء فترة انتظاره بقواته في سهل البقاع، مما يعكس لنا استمرار تدهور العلاقات بين الصليبيين والبحريين وانحياز البحريين التام إلى جانب صلاح الدين، وغير دليل على ذلك أن البحريين بقيادة الأمير حجيّ قاموا عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ - بعد معركة حطين - بالانضمام إلى قوات صلاح الدين الزاحفة لفتح بيروت وشاركوا في العمليات العسكرية ضد الصليبيين. واعترافاً بمجميلهم قام السلطان صلاح الدين بعد فتح بيروت بتقريب الأمير حجيّ إليه وقال له: "ها نحن قد أخذنا ثأرك من الفرنج فطيب قلبك وأنت مستمر مكان أبيك وإخوتك" وكتب له منشوراً يقره فيه على إقطاعه^(٥٠) واعترف بنفوذه على المنطقة الجبلية لصيدا وبيروت^(٥١).

على أي حال، بعدما تمكن الصليبيون من إعادة استيلائهم على ساحل بيروت ١١٩٧م / ٥٩٣هـ لم ينسوا موقف البحريين السابق منهم بعد حطين وانحيازهم التام لصالح الدين وما قدموه له من خدمات، فضلاً عن احتفاظهم بالمناطق الداخلية التي كانت تابعة لهم قبل فتح صلاح الدين لها ١١٨٧م / ٥٨٣هـ^(٥٢)، فتعمدوا مضايقة البحريين وإلحاق الأذى بهم وبممتلكاتهم؛ مما أعاقهم عن مزاوله أنشطتهم اليومية التي اعتادوا عليها من قبل؛ لذا أرسل الأمير جمال الدين حجيّ رسالة إلى الملك العادل شقيق

^(٥٠) راجع تفاصيل هذا المنشور في صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٥-٧٦، ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٦.

^(٥١) Clermont, Op. Cit., p. 29.

^(٥٢) Richard of Cornwall, Letter to Baldwin of Rierers and Robert Clerck
Rome 1, July, 1241 in Matthew, Paris, Vol. I, p. 142.

انظر أيضاً: للقرنزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٣-٣٠٤، تاريخ بطاركة الكنيحة المصرية، قام على نشره أنطون خاطر وأزولك بروسق، المجلد الرابع، ج ٢، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٠٧.

الناصر صلاح الدين^(٥٣) ١١٩٦-١٢١٨م / ٥٩٢-٦١٥هـ يشكو فيها من مضايقة الفرنج لهم وما يعانونه من متاعب بسبب تلك المضايقات. وقد طلب الملك العادل من الفرنج -اعتمادًا على الهدنة المبرمة بينهما^(٥٤)- حُسن معاملة البحريين وأرسل خطابًا للبحريين يحمل هذا المعنى^(٥٥). ويبدو أن الفرنج لم يلتزموا تمامًا بوعودهم تجاه البحريين، والدليل على ذلك أن الأمير جمال الدين حجيّ أرسل خطابًا آخر إلى العزيز عثمان ملك مصر ١١٩٣-١١٩٨م / ٥٨٩-٥٩٥هـ في ذلك الوقت يشرح فيه الحالة التي باتوا عليها وما يسببه الفرنج لهم من مضايقات، ويبدو أن العزيز عثمان تمكن من إقناع الصليبيين بضرورة التوقف عن مضايقة البحريين، كما حثهم على حُسن معاملتهم، وأرسل خطابًا يحمل هذا المعنى إلى الأمير جمال الدين حجيّ^(٥٦).

مهما يكن من أمر فقد أخذت العلاقات الصليبية البحرية تشهد بداية مرحلة جديدة من تاريخها اتسمت بروح التعاون والوفاء وإن ظل البحريون خلالها يمارسون سياستهم المعهودة والتي تركز على ضرورة

^(٥٣) أعطى صالح بن يحيى عندما ذكر أن الأمير جمال الدين حجيّ أرسل خطابه إلى الملك الأفضل على بن صلاح الدين ١١٩٧م / ٥٩٣هـ، فالتفت أن الملك العادل هو الذي كان يتولى حكم دمشق في ذلك العام، راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٧.

^(٥٤) عقدت هذه الهدنة بين الملك العادل والملك عموري الثاني سنة ١١٩٨م / ٥٩٤هـ، وهي تماثل الهدنة التي عقدتها صلاح الدين مع الملك ريتشارد قلب الأسد قبل ذلك بسنوات وإن زيد عليها أن يحتفظ الصليبيون ببيروت وحبل في مقابل بقاء يافا في أيدي المسلمين. وللمزيد انظر:

Eracle mer, Ed. R.H.C., H. Occ., T. II, Paris, 1839, p. 228; Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, Ed. L. de Maslatrie, Paris, 1871, pp. 316-17.

انظر أيضًا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج١، ص ٢٣٨، أبو الفداء: المصدر السابق، ج٣، ص ٩٤، أبو شامة: الدليل على الروضتين، ص ١٣، ابن واصل: المصدر السابق، نشر الشيباني، مصر ١٩٥٣م، ج٣، ص ٧٨.

^(٥٥) ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٦. انظر أيضًا: الشهابي: المرجع السابق، ص ٢٢٦.

^(٥٦) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٨.

وجود علاقات طبيعية بينهم وبين القوتين الصليبية والإسلامية مع عدم الانحياز التام لأى منها بقدر ما أمكنهم ذلك. وحين دليل يبين لنا تحسن تلك العلاقات ما حدث فى ١٢٤٠م/ ٦٣٨هـ من عودة الأجزاء الداخلية من بيروت -والتي كان يحتفظ بها البحريون منذ ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ- إلى الصليبيين^(٥٧) إثر الاتفاق الذى أبرم بين الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر ١٢٤٠-١٢٤٩م/ ٦٣٧-٦٤٧هـ وريتشارد أوف كورنويل Richard of Cornwall قائد الحملة الإنجليزية^(٥٨). وفى العام التالى عام ١٢٤١م/ ٦٣٩هـ استعان باليان دى إبلين Balian d'Iblin سيد بيروت ١٢٣٦-١٢٤٣م/ ٦٣٣-٦٤١هـ^(٥٩) بأعداد كبيرة من البحريين للتصدي لريتشارد فيلانجيري Richard Filangieri المندوب الإمبراطورى فى الشرق وإفشال مخططة لضرب الحزب المعارض للإمبراطور فريدريك الثانى

^(٥٧) فى الخطاب الذى أرسله الأمير ريتشارد كورنويل قائد الحملة الإنجليزية ١٢٤٠م/ ٦٣٨هـ الذى أرسله إلى أصدقائه فى الغرب ذكر الإنجازات التى حصل عليها وللدن التى أسودها الصليبيون ومن جعلها للمنطقة الداخلية لبيروت وغيرها من المدن، من ذلك انظر:

Richard of Cornwall, Op. Cit., Vol. I, p. 142; Eracles, Op. Cit., T. II, pp. 420-23.

انظر أيضاً: المقرئى: المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٣٠٣-٣٠٤، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، ٤م، ٢م، ص ١٠٧.

^(٥٨) لمزيد من التفاصيل عن حملة ريتشارد أوف كورنويل انظر:

Annales de Terre Sainte, Publiées par Rohericht et G. Raynoud, in (A.O.L.) T. II, p. 440; Eracles, Op. Cit., pp. 413-15; William of Nangi, Gesta Sanctae Memoriae Ludovici Regis, in R.H.G.F. Vol. XX, pp. 328-29.

انظر أيضاً: للمؤلف المجهول: تمة كتاب ولهم الصوري المنسوب خطأ لروتلان، ترجمة وتعليق أسامة زكى زيد، مركز الدلتا للطباعة ١٩٨٩م، ص ٦٤-١١٢.

^(٥٩) هو الابن الأكبر ليوحنا دى إبلين سيد بيروت، وقد تولى حكم المدينة بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٦م/ ٦٣٣هـ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بأنصار الإمبراطور فريدريك فى الشرق وطردهم من مدينة صور. للمزيد عن ذلك انظر:

Philip of Novar, The Wars of Frederick II Against the Ibelins in Syria and Cyprus, Trans. by J.L. La Monte and M.J. Hubert, New York 1936, pp. 171-184; Annales de Terres Sainte, p. 441; Amadi, Chronique d'Amadi et de Strambaldi. Ed. Mas Latrie R., Hisoire Politique, 2 vols., Paris 1891-93, pp. 189-194.

Frederich II ١٢١٢-١٢٥٠م / ٦٠٩-٦٤٨هـ^(١٠١). فذكرت المصادر الغربية أن باليان دى إبلين قد حشد قواته العسكرية واستعان بأعداد كبيرة من سكان المناطق الجبلية لبيروت من "الكفار والمسيحيين"^(١١١). وبما أن البحريين هم الذين يقطنون جبال بيروت فمن المرجح أنهم هم المقصودون بكلمة الكفار التي أوردتها المصادر السابقة، ويعد هذا دليلاً قوياً على تحسن العلاقات الصليبية البحرية ولعل المقصود بكلمة "المسيحيين" الموارنة.

ومهما يكن من أمر فقد ظلت العلاقات الصليبية البحرية تشهد تحسناً مضطرباً بينهما حتى اعتلاء السلطان بيبرس البندقدارى عرش مصر ١٢٦٠-١٢٧٧م / ٦٥٨-٦٧٦هـ الذى أخذ على عاتقه مهمة تصفية الوجود الصليبي وقطع دابره من المنطقة؛ لذلك لم يأل جهداً فى الاستعانة بكل وسيلة تعينه على تحقيق هذا الهدف. وإدراكاً منه لأهمية الدور الذى يلعبه البحريون عمد إلى استقطابهم إلى جانبه لإبعادهم عن الصليبيين ليحرّمهم مما يقدمه البحريون لهم من خدمات هذا من جهة، والاستفادة منهم فى تحقيق هدفه من جهة أخرى؛ فطلب من البحريين مد يد العون له وإطلاعه على أخبار الفرنج المجاورين لهم^(١١٢)، فأبدى البحريون استجابة كبيرة لهذا الأمر ورحبوا به خاصة وأن ذلك لا يتعارض مع السياسة التى رسموها لأنفسهم من قبل. وقد تبادل الجانبان العديد من الرسائل التى

^(١٠١) حاول ريتشارد فيلانجيري ممثل الإمبراطور فريديريك فى الشرق ضرب الحزب المعارض للإمبراطور الذى كان يتزعمه باليان دى إبلين سيد بيروت بعضهم البعض واستماله بعضهم إلى تأييد السلطة مع يوحنا فالان John Vallian ووليم دى كونش William de Conches اللذين انشقا عن حزب الإبلين وكلفهما بالعمل على جذب نبلاء آخرين لحزب الإمبراطور، ولما علم ريتشارد فيلانجيري بقدم سيد بيروت وأسماره انسحب على الفور إلى صور. وللمزيد انظر:

Amadi, Op. Cit., pp. 188-89; Philip of Novar, Op. Cit., pp. 171-73; Annales de Terre Sainte, p. 441.

Amadi, Op. Cit., p. 188.

(١١١)

^(١١٢) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٨، ٨٦، انظر أيضاً:

Clermont, Op. Cit., p. 21, n. 1.

تحمّل في طياتها أخبار الفرنج المجاورين في صيدا وبسروت ورد السلطات المملوكية على ذلك بالشكر والتقدير والحث على مداومة المراسلات بينهما، ومن أمثلة ذلك الخطاب الذي أرسله السلطان بيبرس إلى جمال الدين حجيّ وزين الدين بن علي^(٦٣) يشكرهما فيه على حسن تعاونهما معه وإطلاعه على أخبار العدو "ويطلب منهما أن يستمرا على ذلك ويهتما به وليطيب قلبهما وليشرحا صدرهما فسوف يجنيان وأخاهما ثمرة خدماتهما ومجهودهما وليطالعا بالأخبار والمتحذرات والله يوفقهما"^(٦٤). وهناك أيضًا خطاب من أقرش النجيبى -نائب الشام- عن السلطان بيبرس إلى الأمير جمال الدين حجيّ يطلب منه ضرورة جمع العساكر التي لديه وتوجيهها إلى مدينة صيدا^(٦٥)، مما يعكس لنا مدى التعاون الحقيقي بين الجانبين.

أدرك الصليبيون عظم الخطر الذي يأتي من جراء ما ينقله البحريون من معلومات عنهم للسلطات المملوكية وإطلاعهم على ما يجري داخل بلادهم مما يتيح للماليك فرصة أكثر للتعرف على أحوالهم وما يجري بينهم، لذا فقد حاول جوليان Julien سيد صيدا الصليبي^(٦٦) ١٢٣٩-

^(٦٣) كان معاصرًا لجمال الدين حجيّ وأخيه سعد الدين خضر ولدى نجم الدين محمد بن جمال الدين حجيّ بن كرامة، وهو ابن عم جدتهما وكان من أشجع أهل زمانه وأشدهم بأسًا، وكان أكرم وأوفر مروءة. ولزهد من التفاصيل عن شخصيته راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٢-٧٣، ٩٢-٩٣. راجع أيضًا جدول نسب بني بحر في آخر البحث.

^(٦٤) راجع نص هذا الخطاب في: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٧-٩٨، انظر أيضًا: Clermont, op. Cit., p. 21.

^(٦٥) راجع أيضًا نص هذا الخطاب في: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٦-٩٧، انظر أيضًا: Clermont, Op. Cit., p. 21.

^(٦٦) هو ابن بalian جاريه وآخر بارونات صيدا، وكان فارسًا شجاعًا ثقیل الوزن، وكان مشهورًا بمحبته الشديد للنساء والمغامرة، وتنازل عن حكم بلرونية صيدا للداوية سلاطنة لدينونه المراكمة عليه سنة ١٢٦١/٦٦٠هـ. ولزهد من التفاصيل عن ذلك انظر:

Les Gestes des Chiprois, cf. R.H.C. Doc. Arm., T. II, p. 775.

انظر أيضًا: أسامة زكي زينة المرجع السابق، ص ٢٢٥-٢٢٦.

١٢٦١م/٦٣٧-٦٥٩هـ ثنى البحريين عن الاستمرار بالقيام بهذا الدور عن طريق إغرائهم بالمنح والوعود الكثيرة التى يسيل لها لعابهم، فتذكر الرواية العربية أن جولييان قام بمنح الأمير جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي^(٦٧) ضيعة بقرية الدامور التى على الساحل لتكون ملكاً له ولولده ولمن يقوم مقامه على أن يكف الأمير عن نقل أخبارهم إلى السلطات المملوكية^(٦٨)، مما يعكس لنا خطورة الدور الذى كان يلعبه البحريون على مسرح الأحداث السياسية إبان تلك الفترة.

وانطلاقاً من تلك السياسة التى رسمها البحريون لأنفسهم فقد عملوا جهد استطاعتهم على الإبقاء على علاقات ودية مع الصليبيين والماليك على حد سواء ولم يشرعوا فى القيام بأى عمل قبل أن يروا فيه أنه يمتشى ومصلحتهم الشخصية؛ لذا لم يمنعهم قبولهم لمنحة جولييان سيد صيدا وما تعهلوا به له من أن يحافظوا على علاقاتهم الودية مع السلطات المملوكية واستمروا ينقلون إليهم أخبار الفرنج المجاورين لهم، ومن أمثلة ذلك الخطاب الذى أرسله جمال الدين حجي إلى السلطان بيبرس بأمر زواج ملك قبرص^(٦٩) من ابنة سيد بيروت^(٧٠)، وامتنان السلطان بيبرس بتعارف

^(٦٧) هو الأمير جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي، ولد سنة ١٢٣٦م/٦٣٣هـ، وتوفى سنة ١٢٩٨م/٦٩٧هـ. ولزيد من التفاصيل عنه انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٠-٨١.

^(٦٨) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤. انظر أيضاً:

Jean Richard, Op. Cit., p. 396; Lammens, Op. Cit., p. 11.

^(٦٩) هو هيو الثانى لوزيمبان ١٢٦١-١٢٦٧م/٦٦٠-٦٦٦هـ. ولزيد من التفاصيل عن شخصيته رحياته انظر:

Makhairas, Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus entitles "Chroniacle". Edited with a translation and notes by R.M. Dawkins, Vol. I, Oxford, 1932, p. 43; Du Cange, Les Familles d'Out-e-mer, p. 235; cf. also Grouset, Op. Cit., Vol. 111, p. 665.

^(٧٠) هى الأميرة إيزابيل ابنة يو حنا الثانى سيد بيروت، وقد ورثت الإقطاعية بعد موت أبيها سنة ١٢٦٤م/٦٦٢هـ لأنه لم يعقب ذكوراً، وقد عرفتها المصادر العربية باسم "الدبنة" ربما تحريفاً لبنت إيلين. ولزيد من التفاصيل انظر: ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، تحقيق الدول والملوك، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكية ببيروت، ١٩٤٢م، ج ٧، ص ٣٥.

البحريين معه وشكرهم على ذلك^(٧١)، وأخبرهم أنه كان على علم مسبق بهذا الأمر.

استمرت العلاقات البحرية الصليبية قائمة لم تنفصم عراها رغم أن ميزان القوى في تلك الفترة كان يميل بوضوح لصالح الجبهة الإسلامية، فذكرت المصادر العربية أن الأمير زيد الدين وجمال الدين حجي وأخوه سعد الدين خضر^(٧٢) قد أرسلوا رسالة إلى بوهمند السادس ١٢٥٢-١٢٦٨م/ ٦٤٩-٦٦٦هـ أمير طرابلس يظهر له فيها الود، وبادلهم نفس هذه المشاعر في رده عليهم^(٧٣). ولسوء طالع البحريين وقع خطاب بوهمند السادس بطريقة أو بأخرى في يد السلطان بيبرس الذي تميز من القبط وأمر على الفور بالقبض على هؤلاء الأمراء الثلاثة فحبس زين الدين ابن علي في سجن مصر، وجمال الدين حجي في الكرك، وأخاه سعد الدين خضر بقلعة عجلون، ثم جمع الثلاثة بعد ذلك في سجن مصر ١٢٧١م/ ٦٧٠هـ. ولم تجدد مع بيبرس شفاعات الشافعين فيهم وأقسم أنه لن يطلق سراحهم إلا بعدما يفتح طرابلس وصيدا وبيروت، ومع ذلك لم يتزعج منهم إقطاعاتهم أو يجردهم من ملكهم^(٧٤).

^(٧١) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٣. انظر أيضاً:

Clermont, Op. Cit., p. 3.

^(٧٢) سعد الدين محضر بن محمد هو شقيق جمال الدين حجي، كان رجلاً جليل القدر مكرم بالخيال والصيد، ولد في رجب سنة ٦٣٩هـ، وتوفي في ذي القعدة سنة ٧١٣هـ. ولزید من التفاصيل عن شخصيته راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٧-٩٠.

^(٧٣) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٨. انظر أيضاً:

Clermont, Op. Cit., p. 21.

^(٧٤) المفسر بالذكر أن الأمير بطر الدين يبلج الخازنदार نائب السلطنة هو الذي حاول إقناع السلطان بيبرس بالإفراج عن الأمراء البحريين، إلا أنه فشل في ذلك. انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٨، ٩٩، ابن سبط: المصدر السابق، ص ٥٦٨. انظر أيضاً:

Jean Richard, Op. Cit., p. 397; Claud Cahen, Op. Cit., p. 244.

ويستشف من إقدام بيبرس على سجن الأمراء البحريين مع عدم انتزاع إقطاعهم وتجريدهم من أملاكهم أنه لم يكن على يقين تام من تورطهم في هذا العمل، ورغم أن المؤرخ صالح بن يحيى بنفسه عن أسلافه تلك التهمة ويذكر أنها كانت مجرد مكيدة دبرها تقي الدين نجى ابن أبى الجيش الذى يضرر الحقد والحسد للبحريين بسبب ما وصلوا إليه من منزلة ومكانة^(٧٥). إلا أن الباحث يتشكك في ذلك، فلو سلمنا أن الرسالة التى أرسلها الأمراء البحريون قد زورها تقي الدين نجى كما ذكر صالح بن يحيى فإن رد بوهمند السادس من غير شك لم يكن مزوراً، وأنه كان يعرف هؤلاء الأمراء ومكانتهم بـبديليل أنه أرسل الرد على خطابهم ولم يطلعنا على فحواه صالح بن يحيى لحاجة في نفسه، وإذا قيل إن هؤلاء الأمراء قد بلغوا من الشهرة والمكانة العالية ما جعل بوهمند السادس وغيره من الصليبيين على دراية بمكانتهم نشير إلى أن هناك قرائن سابقة على هذا الحدث ولاحقة له تعزز ما ذهب إليه الباحث. فعندما استولى التار على دمشق ١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ أسرع الأمير جمال الدين حجي بن محمد إليهم لخطب ودهم وتبعه ابن أخيه الأمير زين الدين بن علي، ولما بلغهما نبأ خروج القوات المصرية تحت قيادة قطز تشاورا في الأمر واتفقا على أن يتوجه زين الدين إلى المعسكر المصرى ويقيم جمال الدين عند التار بدمشق، حتى إذا انتصر أحد الفريقين سد المنتصر خلة رفيقه. وقد أهلى زين الدين على بلاء حسناً في معركة عين جالوت مما جعل قطز يقبل الشفاعة فيه^(٧٦). أما بالنسبة للأمير جمال الدين حجي بن محمد فلم يذكر صالح بن يحيى الذى أورد هذه الرواية موقوف قطز منه، ولعل مقتل الأخير بعد معركة عين جالوت بوقت قصير

^(٧٥) هو أحد أفراد قبيلة أبى الجيش التى اشتهرت بعناوتها للبحريين، عن ذلك انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣، انظر أيضاً:

Jean Richard, Op. Cit., p. 396.

^(٧٦) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٣-٩٤، ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٧، انظر أيضاً: Jean Richard, Op. Cit., Loc. Cit.; Lammens, Op. Cit., p. 12.

وانشغال خليفته بيوس بثبيت أقدامه فى حكم مصر فى أول الأمر هو الذى أدى إلى إهمال جانب الأمير جمال الدين، وهذا دليل دامغ على تورط البحرّيين مع التار ضد المسلمين. والذى يتورط مع التار - ألد أعداء المسلمين - لا يتورع أن يقيم علاقات مع الصليبيين أيضاً، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن سباط "أن الملك الظاهر كان يحسب أن لهم [البحرّيين] اتفاقاً وعهوداً مع الإفرنج، فكان ينظر إلى الأمراء المذكورين بالعين الرقيقة ويخاف منهم" (٣٧). وظل الأمراء الثلاثة فى سجن بيوس حتى وفاته ١٢٧٧م/ ٦٧٦هـ حيث أطلق ابنه السعيد بركة سراهم فى نفس العام (٣٨). ورغم المعاناة التى كابدها الأمراء البحرّيون خلال فترة الحبس من جراء اتصاّهم بالفرنج؛ إلا أنهم عاودهم الحنين مرة أخرى إلى اتباع سياستهم المعهودة فاتصلوا بالفرنج وتوطدت العلاقات بينهم من جديد، وخير دليل على ذلك الاتفاق الذى تم بين همفرى أوف مونت فورت Humphrey of

(٣٧) ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٨.

(٣٨) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٨. انظر أيضاً:

Clermont, Op. Cit., p. 21.

وليزيد من التفصيل عن موت بيوس وتولية ابنه السعيد بركة الحكيم راجع: ابن عبد الظاهر: تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك للنصور، حققه د. مراد كامل، راجعه محمد على النجار، الناشر: شركة العربية للطباعة والنشر، ط ١، القاهرة ١٩٦١م، ص ٤٣، البروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م، ص ٢٧٣-٢٧٤، ابن شلاد: تاريخ الملك الظاهر، حتى ينشره أحمد حطيط، دار النشر: دار شلاد، برفسادن، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٢٢٣-٢٢٤، ابن حبيب: تذكرة النية فى أيام النصور وجيه، ج ١، حوادث وتراجم ٦٧٨-٧٠٨هـ/ ١٢٧٩-١٣٠٨م، نشره وحققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح حاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م، ج ١، ص ٤٨، بيوس للدولاد: التحفة الملوكة فى الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهارسه د. عبد الحميد صالح حمدان، دار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٩١، زبدة الفكرة فى تاريخ أهل المعرة، ج ٩، تحقيق زبدة محمد عطا، القاهرة بدون تاريخ، ج ٩، ص ١٤١-١٤٢.

Montfort سيد بيروت^(٧٧) والأمير زين الدين بن على سنة ١٢٨٠م/ ٦٧٩هـ، فذكر صالح بن يحيى أن سيد بيروت قام بمنح الأمير زين الدين بن على ضيعة في بلاد بيروت بشرط ألا يبيعها أو يهبها، وإذا ما فعل ذلك رجع عن هبته، وفي مقابل ذلك تعهد الأمير زين الدين بن على بعدم إيواء المجرمين اللاتحين إليه من بيروت وألا يمكنهم من البقاء في إقطاعه أكثر من ثمانية أيام ويردهم صلحاً أو قسراً، كما تعهد بمنع المتسللين إلى بلاد بيروت للوصول إليها والإفساد فيها^(٨٠).

وذكر صالح بن يحيى أن كاتب هذه الوثيقة هو "جورج بن يعقوب" كاتب القلعة "والكتاب في رق وفي أدناه ختم في شمع أحمر خيال بفرسه ورمحه وترسه وهو رنك صاحب بيروت ودائر الختم كتابة بالإنجليزية في أصل الختم"^(٨١). ولعل المقصود بالقلعة هنا قلعة بيروت التي يدير منها سيد بيروت شئون إقطاعه. ويستشف من اسم كاتب الوثيقة أنه مسيحي من أصل عربي، ولعله كان يعمل في خدمة الأمراء الصليبيين ببيروت الذين استعانوا به وبأمثاله فيما يختص بالتعاملات العربية.

وهناك تساؤل يطرح نفسه ألا وهو: هل البنود التي أوردها صالح بن يحيى تمثل ترجمة عربية لتلك الوثيقة أم هي نسخة طبق الأصل من الوثيقة اللاتينية كتبت باللغة العربية في نفس الوقت؟ الواقع أن هذين الاحتمالين واردان لكننا نميل إلى الاحتمال الأخير على اعتبار أن كاتب هذه الوثيقة

^(٧٧) هنري أوف مونت فورت هو الابن الثاني لفيليب أوف مونتفورت سيد صرر الذي تزوج من الأميرة إيشيف Eschive سيدة بيروت والتي ورثت الحكم بعد موت أختها الكبرى إيزابيل، وقد مات عام ١٢٨٤م/٦٨٣هـ. لمزيد من التفاصيل عن شخصيته انظر:

Du Cange, op. Cit., p. 236.

Clermont, Op. Cit., p. 5, 11-12; cf. also, Jean Richard, Op. Cit., pp. 396-97; ^(٨٠)

Prætor, Crusader Institutions, Oxford, 1980, p. 206.

ولمزيد من التفاصيل عن بنود هذه المعاهدة، راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١١١.

^(٨١) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١١٢.

مسيحي من اصل عربي، وما انه كتب نص الوثيقة باللاتينية فمن اليسر عليه أن يكتب نسخة أخرى لنفس الوثيقة باللغة العربية، ومهما يكن من أمر فإن صالح بن يحيى أورد لنا كل هذه التفاصيل الهامة دون تعليق منه ودون أن يدري أنه بذلك يثبت تورط البحريين في علاقاتهم مع الصليبيين وبذلك يضيف لنا دليلاً آخر على صدق ما ذهب إليه الباحث فيما يتعلق بهذا الصدد.

يبدو أن العلاقات الصليبية البحرية قد توطدت أكثر فأكثر، إذ ذكر صالح بن يحيى أن ملك قبرص أهدى الأمير سعد الدين خضر هدية عبارة عن مجموعة من الطيور الجوارح نظراً لشغف الأمير بترية هذه الطيور واللعب بها. والعجيب أن المؤرخ نفسه يشير إلى أنه يرجح أن يكون سيد بيروت هو الذي أهدى هذه الطيور وليس ملك قبرص^(٨٢)، والباحث يتفق مع رأى صالح بن يحيى في ذلك؛ نظراً لمناخية أملاك البحريين لبيروت من جهة، والعلاقات الودية التي اربطت بينهما من جهة أخرى. وهذا دليل آخر يضاف إلى غيره من الأدلة السابقة على طبيعة العلاقات الصليبية البحرية في ذلك الوقت.

وفي أغسطس ١٢٨٣م/ جماد أول ٦٨٢هـ انتهز البحريون فرصة مرور القوات البرية لمير الثالث ملك قبرص^(٨٣) -بالقرب من ممتلكاتهم-

^(٨٢) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٨، انظر أيضاً:

Clermont, op. Cit., p. 23.

^(٨٣) من المعروف أن الملك هيو الثالث ملك قبرص تزوج ملكاً على مملكة بيت المقدس الاسمية ١٢٦٩م/ ٦٦٨هـ، وبعد فشله في التوفيق بين نبلاء المملكة وعدم قدرته على القبض على زمام الأمور، ترك للملكة دون أن يعين نائباً عنه وعاد إلى قبرص ١٢٧٦م/ ٦٧٥هـ، واكتفى بإرسال خطاب إلى نوابها بحريجوري العاشر شرح فيه أوضاع المنطقة الحرجة، مما أتاح لشارل الأنجوي أن يطالب بتاج المملكة بوصفه وريث الإمبراطور فريديك الثاني في صقلية. وفي ١٢٨٣م حاول الملك هيو الثالث استعادة نفوذه السابق في مملكة بيت المقدس من الملك شارل الأنجوي فغادر قبرص على رأس حملة عسكرية متوجهاً إلى هناك، إلا أن الرياح ساقته إلى بيروت فقتل بها في أول أغسطس-

بتوجهة إلى بيروت صوب صور وقاموا بالإغارة عليها وقتلوا منهم أعداداً كبيرة وأسروا ثمانين رجلاً، فنبلاً عن غنائم كثيرة أخرى^(٨٤). وما قام به البحريون من هجوم على القوات القيصية لم يكن له أثر سلبي على صليبي صيدا وبيروت؛ نظراً لأن هذا الهجوم لم يكن مرجحاً ضدهم وإنما كان مرجحاً ضد القبارصة؛ لذا فقد استمرت العلاقات بينهما على صفائها السابق.

لم تقتصر علاقة البحريين على فرنج صيدا وبيروت المجاورين لهم فحسب، بل تخطت ذلك إلى فرنج عكا أيضاً. فيذكر ابن سباط أن الرسائل تبودلت بين البحريين من جهة، وفرنج صيدا وعكا من جهة أخرى في نفس هذا العام ١٢٨٣م/٦٨٢هـ^(٨٥). وعلى الرغم من أن صالح بن يحيى يذكر أن هذه الخطابات قد زورها أيضاً تقي الدين نجا بن أبي الجيش نكاية في البحريين لما حظوه من مكانة عالية^(٨٦)، إلا أن الباحث يتشكك في صدق تلك الرواية أيضاً، والدليل على ذلك أن العلاقات البحرية المملوكية في عهد السلطان المنصور قلاوون ١٢٧٩-١٢٨٩م/٦٧٨-٦٨٨هـ قد شهدت توتراً كبيراً وخطيراً، فلم يكن موقف المنصور

١٢٨٣م/الرابع من جمادى الأولى ٦٨٢هـ حيث استقبله سيدها همفري دي مونفور بالحفاوة والتكريم، يد أن الملك هير لم يمكث طويلاً في بيروت فأبحر إلى صور بينما رحف جيشه برّاً للحاق به فتعرض للهزيمة على أيدي البحريين، بينما فشل لللك هير نفسه في الوصول إلى عكا بسبب معارضة أهلها، خاصة الداوية، فمات كملًا في نفس العام.

انظر: ييوس اللوادار: المصدر السابق، ص ٢١٨، ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص ٥٨، انظر أيضاً: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، القاهرة ١٩٣٦م، ج ٢، ص ١١٥٩-٦٠.
^(٨٥) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٧٧، المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ٣، ص ٧١٦، ييوس اللوادار: المصدر السابق، ج ٩، ص ٢١٨، ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص ٤٧-٤٨، انظر أيضاً:

Amadi, Op. Cit., pp. 214-15.

^(٨٦) ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٩، الشنقي: المرجع السابق، ص ٢٢٩. انظر أيضاً:

Clermont, op. Cit., p. 23.

^(٨٦) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١٠٨.

قلاوون حبال البحريين كسلفه بيبرس، بل كان أشد منه وأعنف؛ إذ قام بتجريد هؤلاء الأمراء من ممتلكاتهم وجعلها للحلقة الطرابلسية^(٨٧) ١٢٨٩م/٦٨٨هـ^(٨٨)، ولا نستبعد قيامه بإلقاء القبض عليهم وسجنهم، وإن كان صالح بن يحيى بنفى سجن الأمراء البحريين مرة أخرى على عهد المنصور قلاوون.

أخذت النكبات تترى على البحريين، فاستغل فرنج بيروت ما لحق بأمراء البحريين من ضرر على يدى المنصور قلاوون وقاموا عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ بالإغارة على بلادهم. وقد تمكن جى Guy سيد بيروت^(٨٩) من الإيقاع بهم وقتل عددًا كبيرًا منهم غدراً^(٩٠)، ولعله قد قام بفعلته تلك كعمل وقائى حتى لا يقدم البحريون على مد يد العون للأشرف خليل ١٢٨٩-١٢٩٣م/٦٨٨-٦٩٢هـ إذا ما أراد استعادة بيروت، لمعرفةهم التامة بخبايا المنطقة ودروبها وإطلاعهم على عورات البلاد. وهكذا جنى البحريون عقوبة سياستهم المزدوجة تجاه الصليبيين والمسلمين على حد سواء.

^(٨٧) جند الحلقة كان عدتهم أربعة وعشرين ألف جنديًا، كل ألف منهم مضاف إلى أحد الأمراء مقدمى الألو، وكل مائة من الألف لهم باش ونيق، ومنهم من هو بحرى يركز بالقلة، ومنهم من يركز فى غية السلطان بمرآكز معينة بمصر والقاهرة، ومنهم من يترجى فى المهمات للتشريفية، انظر: ابن شاهين الظاهري: المصدر السابق، ص ١١٦.

^(٨٨) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١٠٨، انظر أيضًا:

Lammens, Op. Cit., p. 12.

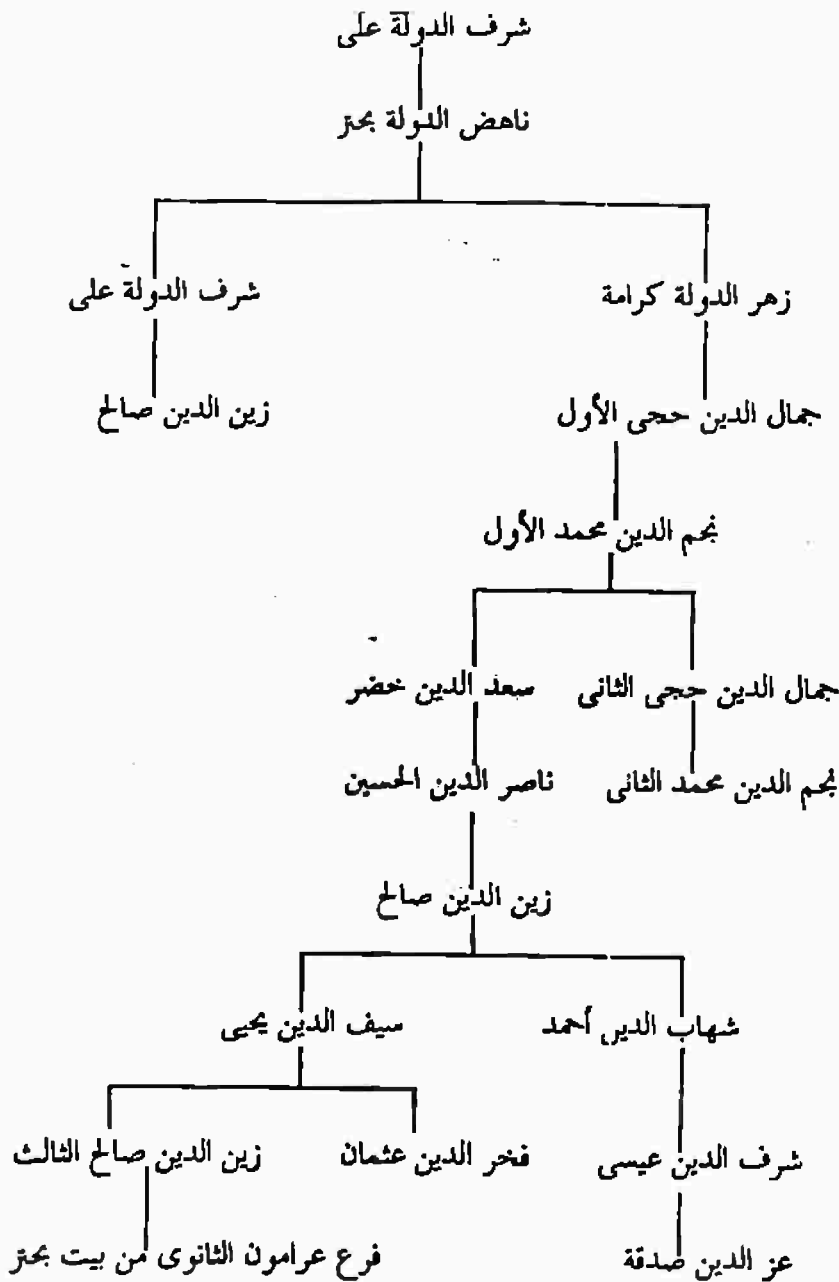
ولمزيد من التفاصيل عن فتح قلاوون لطرابلس انظر: أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٣، شافى بن على: المصدر السابق، ص ١٣٤-١٣٥، للقرنوبى: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣، ص ٢٤٦، الحبلى: شفاء القلوب، ص ٤٥٦.

^(٨٩) جى هو ابن الملك هو الثالث، وقد تزوج من إشياف بعد موت زوجها الأول همفرى أوف مونت فورت، انظر:

Du Cange, Op. Cit., p. 236.

^(٩٠) الحريرى: الإعلام والبيان فى خروج الفرنج للاميين على بلاد المسلمين، دار الدعوة، الإسكندرية ١٩٨٤م، ص ٧٢.

جدول نسب بنى بختر



نقلاً عن:

صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٦٤.

المختصرات الواردة بالبحث

- A.O.L. Les Archives de l'Orient Latin.
- J.A. Journal Asiatique.
- R.A.O. Recueil d'Archéologie Orientale.
- R.H.C., Doc. Arm. Recueil des Historiens des
Croisades, Document Armeniens
- R.H.C., H.Occ. Recueil des Historiens des
Croisades, Historiens Occidentaux
- R.H.G.F. Recueil des Historiens de Gaule et
de France.

أولاً : المصادر الأجنبية

-Albert d'Aix:

Historia Hierosolymitana, Ed. R.H.C., H.Occ, T. IV,
Paris 1879. pp. 265-713.

- Amadi, F., Diomedes, S.:

Chroniques d'Amadi et de Strambaldi, Ed. Mas
Latrie R., Histoire Politique, Paris, 1891-1893.

- Annales de Terre Sainte, (1095-1291)

Publiées par R. Rohericht et G. Raynaud, im
(A.O.L.), T. II

- Clermont Ganneau:

Deux chartes des croisées dans des archives arabes,
in R.A.O.,1905, Vol VI, pp. 1-30.

- Du Cange:

Les Familles d'outre-mer, Publiées par M.E.G. Rey,
Paris, 1869.

- Eracles:

L'Histoire d'Eracles Empereur et de conquête de la
terre d'outre-mer, Ed. R.H.C.,H.Occ, T. II, Paris,
1839.

- Fulcher of Charters:

A History of the expedition to Jerusalem, Trans. by
Frances Ryan, Sisters of St. Joseph, edited with an

introduction by Harold's Fink, Konuville, U S A.,
1969.

- Les Gestes des chiprois, cf. R.H.C. Doc. Arm., T II, Paris
1869.

-Makhairas:

Recital concerning the sweet land of Cyprus entitled
"Chronicle", edited with a translation and notes by
R.M. Dawkins, Vol. I, Oxford, 1932.

-Mattieu d'Eddesse:

Extraits de la chronique de Mattieu d'Edesse, Ed.
R.H.C. Doc. Arm., Paris 1969.

- Philip of Novare:

The wars of Frederick II against the Ibelins in Syria
and Cyprus, trans. by J. L. La Monte and M.J.
Hubert, New York, 1936.

-Richard of Cornuall:

Letter to Baldwin of Rierers and Robert Clerk
Rome, 1, July 1241 in Matthew, Paris, Vol I.

-William of Nangi:

Gesta Sanctae Memoriae Ludovici Regis, in
R.H.G.F., Vol XX.

- William of Tyre:

A History of Deeds done beyond the sea, Trans. by
Babcock and Krey, 2 vols, New York, 1943.

ثانيًا: المصادر العربية

١- ابن الأثير، (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٢ م) أبو الحسن بن أبي الكرم الملقب
عز الدين:

الكامل في التاريخ، ٩ ج، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨ هـ /
١٩٧٨ م.

٢- ابن حبيب، (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) الحسن بن عمر بن الحسن بن
عمر بن حبيب:

تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج ١، حوادث وتراجم (٦٧٨-
٧٠٨ هـ / ١٢٧٩-١٣٠٨ م)، نشره وحققه ووضع حواشيه محمد
محمد أمين، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٧٦ م.

٣- ابن حزم، (ت ٤٥٦ هـ) أبو محمد بن علي بن سعيد بن حزم
الأندلسي:

جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون،
ط ٤، دار المعارف، بلون تاريخ.

٤- ابن خلدون، (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد المغربي:
العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن
عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ٥ م، بيروت ١٩٦٨ م.

٥- ابن سباط، (غير معروف له تاريخ وفاة):

صدق الأخبار في نسبة آل تنوخ، نشر ضمن كتاب حيدر أحمد
الشهابي (ص ٥٦٤-٦٠٥)

٦- ابن شاهين الظاهري، (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري:

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بنشره وتصحيحه بولس راويس، مطبعة الجمهورية بباريس، ١٨٩٤م.

٧- ابن شداد، (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تيم:

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق الدكتور جمال الدين الخيال، ط١، القاهرة ١٩٦٤م.

٨- ابن شداد، (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) عز الدين بن عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم:

تاريخ الملك الظاهر، عنى بنشره أحمد حطيط، دار النشر فرائر شتير، برفسبادن، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٩- ابن عبد الظاهر، (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) محيى الدين:

تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه د. مراد كامل، راجعه محمد علي النجار، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، القاهرة ١٩٦١م.

١٠- ابن الفرات، (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي:

تاريخ الدول والملوك، م ٤ ج١-٢، م ٥ ج١، نشر حسن محمد الشماع، البصرة ١٩٦٧-١٩٧٠م.

١١- ابن القلاسي، (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن غلى بن محمد:

تاريخ أبى يعلى حمزة القلانسى المعروف بذييل تاريخ دمشق،
بيروت ١٩٠٨ م.

١٢- ابن واصل:

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج١، تحقيق جمال الدين
الشيال، القاهرة ١٩٦٠ م.

١٣- أبو شامة، (ت ٦٥٥ هـ / ١٢٦٧ م) شهاب الدين أبو محمد بن عبد
الرحمن:

الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢ ج فى مجلد
واحد، نشره محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٥٦-١٩٦٢ م.

١٤- أبو الفداء، (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) إسماعيل بن على محمود الملك
المؤيد عماد الدين صاحب حماة:

المختصر فى أخبار البشر، ٤ ج فى مجلدين، بيروت، بدون تاريخ.

١٥- البغدادى، (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) صفى الدين عبد المؤمن بن عبد
الحق البغدادى:

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق على
محمد البجارى، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٧٣ هـ /
١٩٥٤ م.

١٦- البندارى، (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) الفتح بن على:

سنا البرق الشمى، اختصار كتاب البرق الشامى للعماد الكاتب
الأصفهاني، تحقيق د. فتحية البجارى، القاهرة ١٩٧٩ م.

١٧- بيارس الدوادار، (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) الأمير ركن الدين بيارس
المنصوري:

١- التحفة المملوكية فى الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع
فهارسه د. عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة
١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٢- زبدة الفكرة فى تاريخ أهل المحرة، ج٩، تحقيق زبدة محمد
عطا، القاهرة، بدون تاريخ.

١٨- الحريوى، (عاش فى القرن السابع الهجرى / القرن الثالث عشر
الميلادى) أحمد بن على:

الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، دار
الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

١٩- الحنبلى، (عاش فى القرن السابع الهجرى / القرن الثالث عشر
الميلادى) أحمد بن إبراهيم:

شفاء القلوب فى تاريخ بنى أيوب، تحقيق قاسم رشيد، بغداد
١٩٧٩م.

٢٠- السويدى:

سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٢١- شافع بن على، (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) شافع بن على بن عباس
الكاتب:

حسن المناقب العربية المتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر عبد
العزیز عبد الله الخويطر، جامعة الملك عبد العزيز، المكتبة المركزية،
جدة، بدون تاريخ.

٢٢- صالح بن يحيى، (عاش فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) الأمير صالح بن يحيى بن الحسين أمير الغرب:-

كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بنى الغرب، نشر وتعليق لويس شيخو، بيروت، فى المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، ١٨٩٨م.

٢٣- الطبرى:

تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، دار المعارف، ج ١، ٢.

٢٤- القلقشندى، (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد عبد الله:

صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ١٤ ج، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.

٢٥- المقرئى، (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقى الدين أبو العباس أحمد:

السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الثالث، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩م.

٢٦- مؤلف مجهول:

تنمة كتاب ويليم الصورى المنسوب خطأ لروتلان، ترجمة وتعليق أسامة زكى، مركز الدلتا للطباعة ١٩٨٩م.

٢٧- ياقوت الحموى، (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) شهاب الدين بن أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى البغدادى:

معجم البلدان، ٥ ج، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

ثالثاً : المراجع العربية

- ١- أسامة زكى زيد (دكتور):
صيدا ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، فرع الإسكندرية ١٩٨١م.
- ٢- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):
الحركة الصليبية، ٢ ج، القاهرة ١٩٣٦م.
- ٣- الشدياق، طنوس بن يوسف:
أخبار الأعيان فى جبل لبنان، بيروت ١٨٥٩م.
- ٤- عمر رضا كحالة:
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ٢ ج، مؤسسة الرسالة، ط ٥،
بيروت ١٩٨٠م.
- ٥- فيليب حتى:
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ٢ ج، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٨م.
- ٦- لويس شيخو:
بيروت تاريخها وآثارها، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٢٥م.
- ٧- محمد كرد على:
خطط الشام، ج ١، ط ٣، دمشق ١٩٨٣م.
- ٨- محمد محمد فرحات:
معاقل أعالي الفرات بين المسلمين والصليبيين، رسالة ماجستير لم
تنشر بعد، الإسكندرية ١٩٨٨م.

رابعاً : المراجع الأجنبية

- Ammoun Blanche:

Le Liban, Beirouth, Librairie du Liban 1968.

- Cahen, C. :

1- La Chronique de Kirtay et les Francs de Syrie, in J.A., Paris 1931.

2- La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la Principauté

Franque d'Antioche, Paris 1940.

- Churchill:

Mount Lebanon, 2 vols., London 1853.

- Grousset, René:

Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 vols., Paris 1948.

- Lammens, H.:

La Syrie, précis historique, 2 vols, Beyrouth 1921.

- Nickerson, M.E.:

The Seignury of Beirut in the twelfth century and the Brisebbarre Family of Beirut-Blanche Garde, in Byzantion, 1949, pp. 141-185.

- Prawer:

Crusader Institutions, Oxford 1980

- Rey, E.:

Les Colonies franques de Syrie aux XI^e et XIII^e siècles, Paris 1883.

- Richard, J. :

The Latin Kingdom of Jerusalem, Trans. from French by Janet Shirley, 2 vols., Amsterdam 1919.

- Smail, R.C.:

Crusading warfare 1091-1193, London 1956.

رؤية جغرافية*

أستاذ دكتور/ عبد الفتاح محمد وهيبه

قسم الجغرافيا

مدخل:

التخطيط والتنمية وجهان لعملة واحدة فليس ثمة تنمية أو تطوير بغير تخطيط سليم. والتخطيط هو في أبسط تعريف له تفكير عقلاني يضع الأساس لعمل مستقبلي فيه خير البشرية. أما التنمية فهي - من وجهة النظر الجغرافية - كل ما يؤدي إلى المحافظة على البيئة وتحسينها والرقى بالمجتمع في كل مناحي الحياة. وقد لا يتحقق الهدف من وراء التخطيط وبالتالي التنمية لأسباب كثيرة منشير إلى بعضها. أما استدامة التنمية فأمل الحكومات والهيئات إلا أن تحقيقها قضية تختلف حولها الآراء.

ولما كانت الجغرافيا هي - في إحدى تعريفاتها - دراسة البيئة فإن التخطيط المرتبط بالمكان يعتمد بالضرورة على قاعدة معلومات جغرافية إيكولوجية تهدينا إلى الفهم الصحيح للعلاقات المتبادلة بين البيئة والإنسان. وما البيئة إلا نظام إيكولوجي^(١) Ecosystem يحتوى مكونات غير حية. وأخرى حية وبين المجموعتين تفاعل متبادل.

* ألقى هذا البحث في سلسلة المحاضرات العامة بكلية الآداب في شهر مارس ١٩٩٦م.

(١) استخدم تعبير نظام إيكولوجي Ecosystem لأول مرة عام ١٩٣٥ من قبل العالم أ. ج. تانسلي A. G. Tansley

والنيقروجين والفوسفور والهواء والمعادن وغيرها. أما مجموعة المكونات الحية فتتقسم إلى قسمين: يضم الأول منهما "صانعة الغذاء" F. Producers وتشمل النباتات الخضراء وهي بالغة الأهمية في إعالة "المستهلكات" Consumers التي يضمها القسم الثاني وتتمثل في الحيوانات والإنسان ويضاف إلى المجموعتين الرئيسيتين مجموعة ثالثة هي "المحللات" Decomposers وهي تلك الكائنات الدقيقة كالبيكتريا والفطريات التي تحلل الأنسجة إلى مواد أبسط منها (مرة ثانية) من قبل المنتجين (النباتات الخضراء) وتتفاعل كل هذه المكونات وفق نظام دقيق أساسه التوازن. فإذا ما حدث خلل ما أختل هذا التوازن الإيكولوجي وأضيرت البيئة وتعرضت حياة الإنسان ومنجزاته للخطر^(١).

أهمية الجغرافيا للمخطط:

وليس من شأننا في هذا المقام أن نتحدث عن طرق الجغرافيا وموضوعاتها وأساليبها ولكن قد يكون في المناسب ان نذكر أن الجغرافية التطبيقية (أو التخطيط الجغرافي) تهدف أساساً إلى تطبيق

- ويعرف النظام الإيكولوجي بأنه نظام دقيق ومتوازن فوديناميكية ذاتية ليستمر في أداء دوره في إعالة الحياة على سطح الأرض ولذا يطلق على النظام الإيكولوجية من هذا المنطلق "نظم إعالة الحياة. Life Support Sys. والايكولوجيا هي الدراسة العلمية للعلاقات المتبادلة بين النبات والحيوان من ناحية والبيئة من ناحية ثانية وتسمى الايكولوجيا خاصة بالمسئليات الحيوية القائمة في المنظومة (أو النظام) الإيكولوجية وهي كيف يكتسب الكائن الطاقة والمادة الضرورية لحياته وكيف بالمقابل يعيدها إلى البيئة.

(١) يحدث هذا الخلل في حالتين: أ - زيادة غير طبيعية في عنصر من عناصر النظام كتلحق الفضلات بكثرة في مجارى الأنهار أو تكثيف استخدام الأسمدة الكيميائية والمبيدات الحشرية بما يفوق قدرات عمليات التسقية الذاتية داخل النظام.

ب - إدخال عناصر غريبة على النظام (الايكولوجي) وتتمثل في مواد لم يسبق التعامل معها مثل المنتجات البلاستيكية ومواد التنظيف.

مفاهيم الجغرافيا وطرقها وتقنياتها عند البحث فى مشكلات البيئة والإنسان أملا فى لفت انتباه المخططين لها. وقد يقل البعض من أهمية المعلومات الجغرافية عند التخطيط بهدف تحسين الظروف البيئية. ولكنهم يكتشفون بعد تجارب عدة أنهم أخطأوا خطأ كبيرا. فالبناء مثلا فى أرض لم تُعرف طبيعتها يؤدى غالبا إلى خلل فى أساسات البناء ومن ثم انهياره . وبناء السدود ومحطات الكهرباء فى مناطق زلزالية يُعرض هذه المنشآت للدمار كما يؤدى الجهل بتأثير عوامل التعرية البحرية والصحراوية على المنشآت إلى فشل مشروعات التنمية. ومن ناحية ثانية يستفيد المخططون مما تعرضه الجغرافية البشرية حول علاقات الحضر بخطوط النقل ومواقع الصناعة وزحف المدن على الأراضى الزراعية ودور الهجرة من الريف إلى المدينة فى ظهور الأحياء العشوائية. ولقد أدرك القدماء مدى أهمية الاستفادة من معطيات البيئة عند بناء الحواضر على سبيل المثال. فهذا ابن خلدون (ق ١٤م) يعدد القواعد التى يجب اتباعها عند اختيار مواضع المدن فيقول فى مقدمته^(١).

١ - أن تحتل موضعا متمنا من الأمكنة على هضبة أو على نهر أو على استدارة بحر.

٢ - مراعاة اتخاذ الموضع الذى يتمتع بطيب الهواء للسلامة من المرض.

٣ - أن يكون البلد على نهر أو بإزاء عيون عذبة لجلب الماء.

٤ - مراعاة طيب المرعى للسائمة.

٥ - مراعاة المزارع فإن الزروع هى الأكوات.

(١) ابن خلدون - المقدمة - القاهرة (بدون تاريخ) ص ٣٤٧.

الجغرافية التطبيقية (أو التخطيط الجغرافى (الطبيعى)

ولقد تمثلت بدايات الجغرافية التطبيقية. Applied Geog فى العصر الحديث فى شكل توجيهات ظهرت مبنية فى الكتابات الجغرافية تذكرنا بما جاء فى التراث الجغرافى فى هذا الشأن. ثم تطورت هذه الكتابات فى بريطانيا بمجئ ج. هربرتسن J. Herbertson (١٨٩٨) الذى يعد أول من نادى بأهمية المعرفة الجغرافية فى مسائل التجارة وعند مزاوله الطب وعند الاستعداد للحرب. ثم تقدمت خطوة أخرى فى فترة ما بين الحربين العالميتين بفضل اهتمامها بالتحليل.

ويعد عقد الستينيات العقد الذى نضجت فيه الجغرافية التطبيقية (أو ما يسمى أحيانا بالتخطيط الطبعى) واتسع مجالها فى الجانب النفعى. وربما كان ما أنجزه ددلى ستامب Dudley stamp منذ عام ١٩٣٠ وحتى عام ١٩٤٨ من أهم الأعمال الفريدة فى مجال استخدامات الأرض فى بريطانيا. بيد أنه لم تكن ضخامة حجم المعلومات ولا تحليلها هو فقط الذى جعل منها إسهاما كبيرا. ولكن يضاف إلى ذلك تلك الخبرة والتجربة المكتسبة بعد معالجة مشكلة استخدامات الأرض فيها. وغيرها من المشكلات التى جابهت الجغرافيين وكان لهم فضل المسبق فى البحث عن حلول لها. وقد أختير من بين هؤلاء من احتلوا بفضل ما أبدوه من قدرات تطبيقية مراكز مرموقة فى أجهزة الدولة فى مجال التخطيط الطبعى لبيئة الأرض N. Landscape Planning والهدف منه هو تخصيص أراض لاستخدامات محددة بعد مسح شامل ودقيق ومع الأخذ فى الاعتبار طبيعة هذه الأراضى من ناحية و الحاجات الاقتصادية والاجتماعية للسكان من ناحية أخرى^(١).

(١) من ذلك إعادة بناء الأحياء التى دمرتها الحرب فى المدن البريطانية وربط الممكن بالصناعة فى إطار خطة مدروسة، وتصنيف الأراضى وفق ملامتها لإنتاج=

إسهام الجغرافية البشرية في مجال التخطيط:

وليس ثمة فرع من فروع الجغرافية البشرية لم يُسهم بنصيب في التخطيط الطبيعي Physical Planning وإذا كانت فروع الجغرافية الاقتصادية من موارد طبيعية وزراعة وصناعة من أكثرها إثراء للفكر فإننا نعلم الجغرافية الاجتماعية من عمران وسكان إذا اتهمناها بأنها لم تنافس في هذا المجال. وعليه فلم يكن غريباً أن يتبنى المخططون الطبيعيون هذه الأفكار جميعاً خاصة فيما يتصل بالتفاعل بين عناصر البيئة، وبالتالي كيفية الاستفادة منها في حل مشكلات اقتصادية واجتماعية. ونضيف أنه حرصاً على النجاح كان على المخططين الطبيعيين أن يكونوا على علم دقيق وفهم واضح ببيئة الأرض الحالية Present Landscape وبالأبحاث فيما قد يصيبها من تطورات.

ولا سبيل إلى حصر كل تلك الأفكار ذات المصدر الجغرافي في هذه العجالة، ولكن يكفي أن ننظر في مجموعة واحدة منها ظهرت منذ ربيع قرن أو يزيد وأثرت في تفكير المخططين أكثر مما أثّر أى فكر آخر ونقصد بها مجموعة الأفكار التى ارتبطت بدراسات المكان المركزى Central Place Studies. وتعالج هذه الدراسات مواقع مراكز الإنتاج وأحجامها وتباعداتها وعلاقتها بالأسواق. من ذلك أنه لما كانت الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالتصنيع والتوزيع تقع في المدن غالباً لذلك فإنها ترتبط بشبكة من طرق النقل والمواصلات وتوظف أعداداً كبيرة من السكان يعيشون في الأغلب غير بعيد عن أماكن أعمالهم. ومن الواضح أن هذه الأفكار التى تنبثق من الدراسات

- محاصيل معينة وتحديد مواضع القرى الجديدة وشبكات الطرق التى تبدأ منها وتنتهى إليها .. الخ كل ذلك مع التوضيح بالخرائط والرسوم البيانية.

الخاصة بالمكان المركزى وكذلك استخدامات الأرض تشكل فى جملتها مصدرا هاما من مصادر التخطيط الطبيعى. إلى جانب هذه الأفكار هناك التقنيات التى تقدمها الجغرافية للمخطط الطبيعى مثال ذلك رسم الخرائط ومسح الأرض وقراءة الصور الجوية وتفسيرها والاستشعار عن بعد إلى غير ذلك من أساليب.

وإلى جانب هذا التخطيط الطبيعى كان التخطيط الاقتصادى الذى تطور مع تطور الاقتصاد الصناعى والبنيات التحتية للمدن وكانت مشكلات البنيات التحتية هذه من أهم ما عكف المخططون الاقتصاديون على حلها. هذا بعض ما تمكن أن يقدمه الجغرافيون التطبيقيون من أفكار وتقنيات لمعالجة مشكلات الحيز Space أو المكان من نواح مختلفة فى العقود القليلة الماضية.

التخطيط البيئى:

أما اليوم فإن نظرة الجغرافى صارت أكثر شمولاً وتعمقا فى قضايا البيئة خاصة بعد أن تفاقمت أزمتها وصار حل مشكلاتها من الأمور الملحة وهذا هو ما دعا إلى المنداة بتخطيط بيئى يعالج أهم تلك المشكلات، نذكر منها مشكلات السكان والماء والغذاء والتلوث واستنزاف الموارد الطبيعية (معادن ومصادر طاقة وأخشاب) ثم التصحر^(١). ولا تغفل هذه المشكلات البيئية إلا أن ثمة خلافا حدث فى العلاقات المعقدة التى تربط بين الغلاف الحيوى من ناحية ونظم الكرة الأرضية من ناحية ثانية. ولا يخفى أن تهديد هذه الأزمة لا يقتصر على جيلنا الحالى وإنما سوف يمتد فى الأغلب إلى الأجيال القادمة إذا لم

(١) نقصد بالتصحر خسارة أرض منتجها بسبب الاستصلاح أو التقلية أو الشبع المائى.

تتحرك دول العالم وخاصة الغنية منها لوقف هذا التدهور البيئي صيانة
لحياة الإنسان بل والحفاظ على بقائه على هذا الكوكب - الأرض.

وقد كان التقرير الذى أصدره معهد "وورلد ووتش" World
Watch فى واشنطن فى شهر يناير فى عام ١٩٩٧ بمثابة انذار للعالم
بقرب وقوع كارثة بيئية إذا لم تتوقف الدول الغربية عن ممارساتها
ومشروعاتها غير المسؤولة. وهى مثلا تنفق ٥٠٠ بليون دولار سنويا
فى إقامة مشروعات تسببت فى الحاق أضرار فادحة بالمحيطات
وثرواتها والغلاف الجوى والتربة. وتنفق ١٠٠ بليون دولار سنويا على
إنشاء محطات كهربائية ترفع من درجة حرارة الأرض. ومن ناحية
ثانية فإن مشكلة تناقص الموارد المائية بسبب زيادة سكان العالم بعامية
والمدن بخاصة والإسراف فى استخدام مياه الري، سوف تواجه العالم
بشكل حاد فى أوائل القرن القادم^(١).

ونعود لنؤكد على أن الجغرافية هى بامتياز أهم مصدر
للمعلومات فى مجال تخطيط بيئى وعليه فإن الموقف يقتضى تفهم بعض
هذه المشكلات بالقاء مزيد من الضوء عليها، إذا ما عقدنا العزم على
وضع حلول لها من خلال مشروعات ناجحة تعيد للبيئة سلامتها
وحيويتها وتضمن للأجيال القادمة حياة أفضل.

(١) يسجل هذا التقرير المعلومات التالية:

- يتضاعف الطلب العالمى على الماء العذب كل ٢١ عاما - معظم المحيطات
تعرضت لعمليات استنزاف منظمة من قبل الدولة الغنية.
- صار البحر المتوسط بحرا ميتا بسبب ما يلقى فيه من نفايات - استنزاف للغابات
لا يتوقف والغابات الاريقية هى أكثر استنزافا.
- إذا استمر معدل ثانى اكسيد الكربون فى الجو فى التضاعف خلال العقود الثلاثة
القادمة فإن ٣٦ دولة ستغرق جزئيا أو كليا تحت مياه البحر.
- تم تدمير نحو ١٢٥ بليون فدان من تربات اريقية - سيبلغ عدد سكان العالم
سنة ألفين نحو ٦ ٣٠٠ بليون نسمة بزيادة سنوية تربو على ٩٠ مليون نسمة.
- يبلغ عدد سكان العالم اليوم (٩٨) نحو ٦ بلايين نسمة.

الخلفية الجغرافية لبعض مشكلات البيئة:

وليس من قبيل المبالغات أن نقرر أن من بين أهم المشكلات التي تترك الحكومات مشكلة تسارع نمو سكان العالم الثالث^(١) الفقير، وما ينشأ عنها من هجرات واسعة إلى الغرب الغني وفي نفس الوقت خروج من الريف إلى المدن مع ما يستتبع ذلك كله من أزمات وأضرار لعل أخطرها العشوائيات المدنية وتدنى الخدمات.

وتذكر الإحصاءات أن عدد سكان العالم الثالث بلغ في عام ١٩٩٣ ٤٢٨ بليون نسمة أي مثل نحوه ٧٧% من جملة سكان العالم وقدرها ٥٤٥ بليون نسمة في نفس العام، ومن المتوقع أن يزداد هذا الحجم في عام ٢٠١٠ م ليبلغ نحو ٥٧٢ بليون أي بزيادة قدرها ٣١ بليون نسمة خلال نحو ١٦ عاما وهو ما سيفوق الحجم المقدر لسكان العالم المتقدم الغني. وقد بلغت جملة سكان العالم في منتصف عام ١٩٩٧ نحو ٥٧٥ بليون نسمة يقدر أنهم سيبلغون نحو ٦٢ بليون نسمة في مطلع القرن الحادي والعشرين يعيش أغلبهم في بلدان العالم الثالث.

وتشير منظمة الأغذية والزراعة FAO إلى أن أكثر من ٥٠٠ مليون نسمة من سكان عالم اليوم يعانون بشدة من سوء التغذية بل يعيشون في شبه مجاعة طوال حياتهم كما تعلن كذلك أنه بينما لا يتجاوز الإنتاج الزراعي للدول النامية ٣٨% من جملة الإنتاج العالمي فإن عدد سكانها يتجاوز ٧٠% من جملة سكان العالم (بإستثناء الصين) ومن التوقعات المشائمة في هذا الخصوص أنه على الرغم من زيادة الإنتاج الزراعي في العالم بما يقرب من ٤٢% بحلول منتصف القرن القادم فلن

(١) هي الدول الأقل نموا Less Developed كما تسميها مصادر إحصاءات السكان.

من بلاد العالم النامي مستوردين الغذاء من الدول الغنية وما يستتبع ذلك من ضغوط سياسية تذكرنا بممارسات الاستعمار القديم.

ونمو السكان إلى ذلك لا يؤدي فقط إلى نقص الموارد سنة بعد أخرى بسبب زيادة الاستغلال ومن ثم الاستهلاك وإنما إلى تغير توزيع السكان الناجم عن الهجرة أو الخروج من الريف إلى الحضر. وهذا ما حدث في الدول الأوربية في أعقاب الثورة الصناعية ويحدث اليوم في الدول النامية ولكن بشكل غير مسبوق. فقد استقبلت العواصم فيها والمدن الإقليمية طوفانا من أهل الريف الباحثين عن فرص للعمل مما أدى إلى ازحام سكانها ونمو أطرافها نموا عشوائيا يحتاج إلى علاج سريع.

ونشير فيما يلي إلى إحصاءات تكشف عن بعض جوانب هذه المشكلة وما نجم عنها من آثار سيئة على البيئة.

كانت نسبة سكان الحضر في العالم عام ١٩٥٠ لا تزيد على ٢٨% عن جملة سكان العالم ولكن سرعان ما ارتفعت النسبة لتبلغ ٣٩% عام ١٩٧٥ وفي المتوقع أن تتجاوز نسبة تقدر بنحو ٥٠% عام ٢٠٠٠.

والنتيجة أنه أصبح يعيش في الحضر اليوم ما يقرب من ٢٨٠٠ مليون نسمة يسكن قسم كبير منهم (خاصة في مدن العالم النامي) أحياء بائسة تقترب أبسط الخدمات. ومن أمثلة هذه المدن التي تعاني موجات من النازحين الفقراء بمبای الكبرى والقاهرة الكبرى. ولعل مجمعة بمبای هي أكثر المجمعات الحضرية تمثيلا للعشوائية فنحو نصف سكانها الذين

سرطانيا بنسبة تبلغ نحو ١٧% سنويا.

ومن ناحية ثانية فإن مساحة الأراضي الزراعية في هذه البلدان تتآكل أمام زحف المدن. بل إن أهل القرى أنفسهم يقتطعون سنويا مساحات من الأراضي الزراعية الخصبة من أجل بناء مساكن تستوعب أبنائهم وأحفادهم المترابدين. ولا يخفى ما سيكون عليه الحال إذا ما استمرت هذه الهجرات الطاغية فسيتهور الريف بيئة ومجتمعا، وستعاني المدن من نمو عشوائي يحمل معه أمراضا اجتماعية يتعين علاجها قبل فوات الأوان وهذا ما تحاول مصر أن تقوم به في عاصمتها وفي الإسكندرية والمدن الإقليمية.

وعلى خلاف ما رأيناه من تسارع نمو سكان الدول النامية نجد تباطؤا مستمرا في نمو سكان الدول المتقدمة نتيجة للأخذ بسياسة ضبط النسل بشكل صارم خلال العقود الماضية. ويرتبط بذلك زيادة فئة كبار السن بالنسبة لمجموع سكان الدولة الواحدة. فقد بلغت نسبة الشيوخ فوق ٦٥ عاما ١٣% سنة ٩٣ بينما لا تزيد على ٤% في الدول النامية. ولا يعنى ذلك إلا نقصا متواصلا في القوة العاملة وماله من تداعيات وتأثيرات في الاقتصاد والسياسة ومناحي الحياة المختلفة بل وفي البيئة. ومن الواضح أن فائض الذكاء والرفاهية التي تتمتع بها هذه الشعوب لن يخفيا معا شعورها بالخطر الداهم الذي يتهدد كيانتها في الصميم.

نحو تخطيط أفضل:

هذه هي أهم المحطيات عن المشكلات التي تؤرق العالم والتي يجب أن نخطط للوصول إلى حلول لها. ولن يتم ذلك إلا بالعلم الصحيح

لوضع مخطط لحل مشكلة من هذه المشكلات فذلك يحتاج إلى تضافر جهود فريق فى العلماء على معرفة دقيقة بجوانب المشكلات وتدايها حيثما كانت. وسنكتفى هنا بذكر بعض النتائج الهامة التى توصل إليها من تصدى من العلماء لحل المشكلات البيئية لإقليمين طبيعيين هما: إقليم الغابات المدارية المطيرة والإقليم المدارى الجاف. وقد بدأت الدراسة بالنظر فى ذلك التوازن القائم فى النظم الإيكولوجية للأقاليم المدارية المطيرة ذات الغنى النباتى من ناحية والأقاليم الجافة الفقيرة فى نباتاتها من ناحية ثانية، وذلك بهدف معرفة الآثار الناجمة عن تدخل الإنسان بغير علم.

من هذه النتائج أن الأقاليم المدارية المطيرة تدين بغناها النباتى إلى الغلاف النباتى الطبيعى ذاته. فقد ثبت أنه إذا ما أزيلت الأشجار والحشائش بهدف الزراعة سرعان ما تفقد الأرض بسبب عوامل التعرية القدرة على تثبيت عنصرى الفوسفات والألمنيوم فى التربة وهما حيويان لتغذية النبات، فتفقد بالتدرج خصوبتها أو بعبارة أخرى تتدنسى طاقتها التحميلية ويتوقف مدى هذا التئنى على ظروف محلية تتصل بنوع الصخور والارتفاع عن سطح البحر ونوعية المناخ والنبات^(١).

وقد أثبتت البحوث والتجارب الحديثة من ناحية ثانية أن خصوبة كثير من تربة الأقاليم الجافة أعلى بكثير مما كان يعتقد من قبل خاصة إذا تم استثمار مثل هذه الأراضى الخصبة بالاستعانة بمورد ماء سطحي

(١) لعل أحدث المشروعات الزراعية التى فشلت فى أحد الأقاليم المدارية المطيرة هو مشروع إقليم الأمازون الذى أزيلت أشجاره وكان من أهم أسباب الفشل فقدان التربة لمقومات خصوبتها وعدم ملائمة نظم استخدام الأرض وعدم وجود أسواق لتصريف الانتاج.

يسبب إلى فقدان مورد غير متجدد وخسارة أموال طائلة انفقَت
في إعداد الأرض للزراعة و في إقامة المنشآت السكنية والخدمية^(١) وما
من شك في أنه بالتخطيط السليم الواعي لنا أن نأمل في أن تتحول هذه
الأقاليم إلى مزرعة وسكن لملايين البشر في القرن القادم.

وقد أعلنت مصر في مطلع هذا العام عن خطط طموحة تهدف
إلى تعمير وتنمية جنوبي مصر وسيناء بإقامة مشروعات زراعية
وصناعية وتعدينية ومياحية تمتد على آلاف الكيلو مترات المربعة وتمهد
لفتح مجالات العمل لملايين من شعب مصر بعد أن ضاق بهم الوادي
القديم. وفي مثل هذه المشروعات الرائدة هي بمثابة غزو منظم
للصحراء على أكثر من جبهة يعتمد على الأساليب العلمية في التعمير
وفي الاستثمار لذلك يتوجب أن تتضافر الجهود لانجاحها بالإدارة
الواعية والمراقبة الدائمة حتى تصير التنمية مستدامة ولا ننسى أن نذكر
في هذا المقام أنه حماية لهذه التنمية واستدامتها يجب أن يتحمل العلماء
والمفكرون ممثلو أصحاب المصلحة الحقيقية من طوائف الشعب عبء
المسؤولية الوطنية وذلك بمساندة الدولة في مشروعاتها القومية تلك
وابداء الآراء البناءة وتقديم المشورة وتقويم الأداء خلال مراحل التنفيذ.
هذه المشاركة هي درع الأمان ضد العجز والفشل لا قدر الله. ولعل ذلك
يكون مدخلا مناسباً للقسم الثاني من هذه الدراسة الا وهو موضوع
التنمية.

التنمية: Development

ثمة أنواع من التنمية ولكننا سوف لا نعرض بالدراسة في هذا
المقام إلا للتنمية الاقتصادية فقط ثم نشير إلى صلتها في تطورها الحديث

(١) هذا ما بدأ يحدث في بعض دول الخليج وفي الجهات الجافة من إيران.

بالتنمية المستدامة Sustainable Dev. والاستدامة اتجاه مستحدث فى التنمية والإدارة سنعرض له فيما يلى من حديث.

فى النصف الأول من هذا القرن نظير الإقتصاديون وكذلك الجغرافيون إلى معطيات البيئة ومواردها على أنها "سلع مجانية" لا تستحق من الإنسان أننى اهتمام. ولكن حدث فى السنوات القليلة الماضية نقلة ملموسة فى الفكر الإقتصادى كان لها تأثيرها فى النظرية الاقتصادية والواقع الإقتصادى ومن ثم النظرة الصحيحة إلى البيئة.

فقد تبين أنه فى المدى القريب والمتوسط يكون تأثير البيئة على السلوك الإقتصادى عالمياً وإقليمياً شديد الوضوح. كما ثبت بالإضافة إلى ذلك أن الاستهلاك قصير النظر للموارد غير المتجددة Nonrenewable فضلاً عن محدودية البدائل سوف يزيد الوضع تآزماً خاصة بعد أن تبين للعلماء أن المنتج النهائى للعمليات الصناعية وهى النفايات لا يمكن الاستفادة منها بالاستعادة Recycling إلا بدرجة محدودة للغاية ومن ثم يتوجب التخلص منها بأى شكل من الأشكال.

فى ضوء ما سبق ظهر ما يسمى بالإقتصاد الإيكولوجى Ecological Econmy (وليس البيئى) والجغرافية الاقتصادية الإيكولوجية Ecological Econ. Geography⁽¹⁾ التى تقوم على أساس أن النظام الإقتصادى ليس منبت الصلة بالطبيعة ولذا فهو يخضع لمحدودية موارد هذا الكوكب - الأرض. وهذا هو ما دعا الجغرافى الحديث أن يأخذ بوجهة نظر جديدة مؤداها التأكيد على التفاعل بين البيئة الطبيعية وأعمال الإنسان.

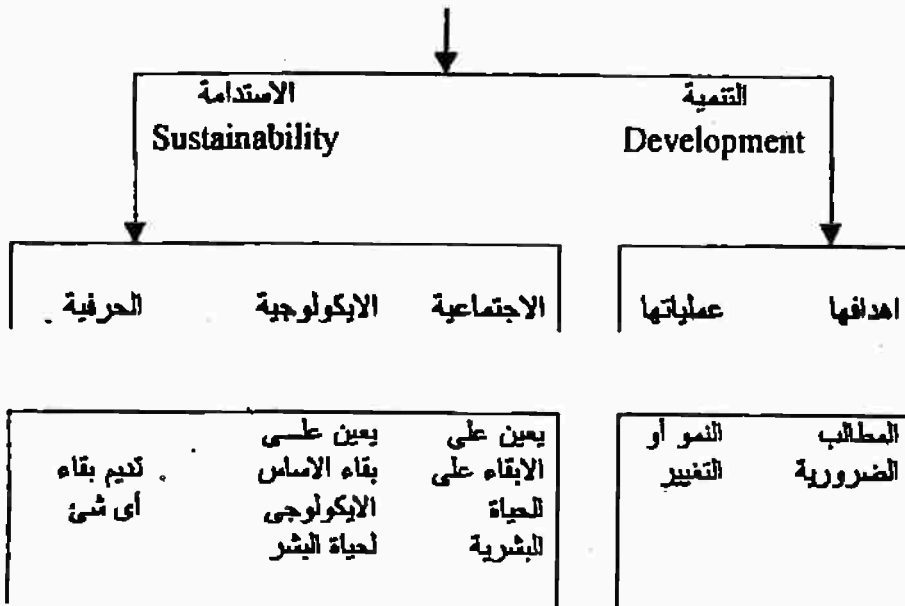
(1) لاتحول وجهة النظر هذه فى نفس الوقت أن تتمسك الجغرافية الاقتصادية بتناولها التقليدى للتفاعلات القائمة بين النشاط البشرى والبيئة الطبيعية.

شكل (١)

رسم بياني يوضح دلالات مصطلح التنمية المستدامة

التنمية المستدامة

Sustainable Development



وكما نعلم فإن الإنسان يتفاعل مع الموارد الطبيعية وغير الطبيعية من خلال مدركاته العقلية وثقافته فضلا عن مهاراته التقنية، كما أنه من خلال نشاطاته الشديدة التنوع استطاع أن يحول النظام الإيكولوجي للطبيعة^(١) إلى نظم أربعة (زراعية وصناعة وحضرية وتجارية) يعتمد كل منها على الآخر. وعلى سبيل المثال نجد أن النظام الزراعي الإيكولوجي يعتمد على النظامين الآخرين الصناعي والحضري (فيما يخص الأسواق والمبيدات والمخصبات ومصادر الطاقة ورأس المال الخ). هذا وتضم النظم الإيكولوجية المحلية نظما إقليمية وأحيانا عالمية وقد أوضح البحث الجغرافي هذه العلاقات في كثير من الدراسات.

ومنذ عام ١٩٨٧ أحتكم النقاش حول قضية الحفاظ على البيئة من خلال سلوك اقتصادي ذي توجيه إيكولوجي لا يخفى إهتمامه بحق الأجيال القادمة في حياة طيبة وهذا ما يعنيه مفهوم "الاستدامة" "Sustainability Concept". وفي أوائل التسعينيات أكد تقرير للمفوضية الدولية للبيئة والتنمية - على أن حسابات الحاضر والمستقبل يجب أن يتم توفيرها من خلال نشاط اقتصادي يتمتع بإدارة مستدامة من أجل تنمية مستدامة يكون من أهدافها عدم الإضرار بموارد البيئة (شكل ١).

ولعل الأفكار الخاصة بالتوزيع العادل لثروات الأرض على أجيال المستقبل هي التي أدت بالضرورة إلى إبراز مفهوم الاستدامة

(١) الإيكولوجيا هي الدراسة العلمية المتكاملة للعلاقات المتبادلة بين النبات والحيوان (المكونات الحية) من ناحية ومكونات البيئة غير الحية من ناحية ثانية وتعنى الإيكولوجيا خاصة بالعمليات الحيوية القائمة في المنظومة الإيكولوجية وتتمثل في كيفية اكتساب الكائن الحي الطاقة والمادة أو المواد الضرورية لحياته وكيف يعيدها بعد ذلك إلى البيئة.

بسير من الموضوع. وينعكس تنوع الاستدامة في الآلية على التمييز
يستهلكوا من الموارد الطبيعية إلا بمقدار ما تتجدد به هذه الموارد
وبمعنى آخر بالقدر الذى يتحملة أو يصمد أمامه النظام أو النسق
الإيكولوجى. ونفس هذا القول يمكن أن نطبقه على الانبعاثات التى تختلط
بالهواء، فيجب ألا تزيد على طاقته الاستيعابية حتى لا يفقد القدرة على
التفاعل.

ومصطلح الاستدامة يؤثر كما أثارت من قبل المصطلحات
المستحدثة - تساؤلات عدة منها:-

هل يمكن أن توضع للاستدامة نظرية تكون أساسا للتنمية الاقتصادية
الإقليمية؟ وهل يمكن للفعل الاقتصادى المستدام أن يتحقق فى ظل النظم
الاقتصادية السائدة فى العالم؟

ومن الواضح أن الإجابة على هذين التساولين وغيرهما صعبة.
وليس أمامنا إلا أن نرجح القول بأن الاستدامة تحتاج كطريقة ومنهج إلى
دراسة بتفاصيل البيئة وكيفية المحافظة عليها من التخريب والتلوث
بطرق علمية ومن خلال تعليم يضع شئون البيئة بين أولوياته. ومع ذلك
قد تخلق الاستدامة مشاكل عويصة كما تكشف عنه دراسة صدرت سنة
١٩٩٥ للتنمية المستدامة لنظم الري كمثال^(١) ونعرض لها فيما يلى:-

تكشف مشكلة التنمية المستدامة لنظم الري مده الخلاف على
ماهية الاستدامة فيما لها وعلى مداها فى الزمن بمعنى هل يمكن أن تمتد
مستقبلا إلى ما شاء الله أم هى استدامة نسبية قد تطول وقد تقصر وقفا
لصفات البيئة والأوضاع الاقتصادية والتقنية والسياسة القائمة.

(١) P. Wolff - Th Problem of the Sustainability of Irrigation
Systems. Applied Geag. & Dev. Vol. 45/ 46, 1995 P. 55 - 62.

وإذا ما صرفنا النظر عن نظم الري القديمة ووجهنا اهتمامنا إلى نظم الري الحديثة نجد أن المساحة التي روتها كانت تتسع بشكل سريع. ففي أواخر القرن التاسع عشر بلغت مساحة الأراضى المروية بهذه النظم نحو ١٠٠ مليون فدان، ثم واصلت المساحة المروية اتساعها فى القرن العشرين (خاصة فى عقد الستينيات) حتى بلغت اليوم نحو ٦٢٥ مليون فدان أى ١٧% من جملة الأراضى المزروعة فى العالم تنتج نحو ٣٦% من الغذاء العالمى تعادل قيمته ٥٠% من جملة قيمة الانتاج الزراعى على مستوى العالم^(١).

بيد أنه على الرغم من الأهمية المتزايدة للرى فى انتاج الغذاء والمواد الخام الزراعية فإن التنمية المستدامة لعمليات الري تخلق مشكلة خطيرة تواجه المسئولين حيثما وجدت زراعة رى مستدامة. فقد حذرت منظمة الأغذية والزراعة فى عام ١٩٩٤ أن نصف مساحة الأراضى المروية مهددة من الأعداء الصامتين الثلاثة. "The Three Silent Enemies" الاستصلاح Salification والتقلية Alkalinization والتشبع المائى أو الغدقية Waterlogging. ويقدر أن ما يتراوح بين ٢ - ٣٢٥ مليون فدان تتحول سنوياً إلى أرض غير منتجة يصعب استصلاح جزء يسير منها إلا بتكلفة باهظة. وبالنظر إلى هذه الأرقام التى تحمل النذير للبشرية يتبين ما يعنيه نقص انتاج الغذاء فى عالم يتزايد سكانه بنحو ٨٥ مليون نسمة سنوياً ليبلغ عددهم فى عام ٢٠٠٠ م نحو ٦٢٠٠ مليون نسمة. وبضيف من لا يعتقدون فى استدامة نظم الري

(١) اقترحت منظمة الأغذية والزراعة FAO تعريفاً أوسع للاستدامة وذلك باضافة صفة عملية لها، والتعريف المقترح هو "إدارة الموارد الطبيعية (النبات والحيوان والأسماك والمياه والمعادن) والمحافظة عليها وتوجيه التطوير التالى من أجل تأمين حاجات الأجيال القادمة من غذاء، ماء ملجأ وملبس، وكود ... الخ بالعمل المستمر وبالتنسيق المناسب.

وبالتالى التنمية الزراعية المستدامة أن نظام الري بأنواعه هو نتاج ظروف البيئة الطبيعية فضلا عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع الزراعى.

- ولما كانت هذه الأحوال دوما فى تغير فإن نظام الري سوف يتأثر بالضرورة. وتتهدد استدامة نظم الري فى الأحوال الآتية:-
- أ - عندما لا يؤدى النظام إلى تطور إقتصادى.
 - ب - إذا تعرضت مصادر المياه لخطر خارجى.
 - ٣ - عندما تقبل شبكات الري فى سد مطالب الزراع المتزايدة.
- من هذا يتبين أن الاستدامة فى هذا الخصوص مشروطة

معوقات أمام التنمية المستدامة فى بلدان العالم النامى:

ومهما يكن الأمر فمن أسف أن التنمية المستدامة أو شبه المستدامة فى بلدان العالم النامى لا تجد اهتماما من قبل الإدارات البيروقراطية التى تتحكم فى مواقع العمل وفى تنفيذ القرارات. فلا يشغل بال هذه الإدارات إلا الحصول على التمويل اللازم. أما تحقيق الأهداف المرجوه من أجل التطور فلا يعنيتها فى كثير، والنتيجة هى إهدار أموال وقصور فى التنمية فضلا عن الاضرار بالبيئة. إلى جانب هذه العقبات الإدارية التى تعطل مسيرة التنمية فى هذه البلدان ثمة أخطاء يقع فيها المخططون تنجم عن الجهل بالنظم الإيكولوجية وبالاقتصاديات الرشيدة وعدم تطبيق التقنيات المناسبة وقلة دراية الشركات الأجنبية بعبادات المجتمعات المحلية ونقلها ثم أخيرا ترك المشروعات غير مستكملة ربما لنقص التمويل ولا تقل خطورة هذه الأخطاء^(١) على البيئة

(١) أمثلة من هذه الأخطاء: استخدام مادة الـ DDT فى مقاومة الآفات الزراعية بعد أن ثبتت أضرارها للنبات والانسان طلى السواء. وبناء قرى لصيد الأسماك من أجل إيواء رعاة ينفرون من أكل صيد البحر. وإبخال وسائل نقل سريعة -

والمجتمع والتنمية بعامة مفارقه بما ينجم عن الإدارة البيروقراطية عندما يوكل إليها تنفيذ مشروعات وبرامج التنمية.

و يعد مشروع السد العالي من المشروعات التى لم تستكمل لمدى سنوات بعد تخزين مياه النهر، فلم يتم إقامة شبكة صرف مغطى كما كان مقررا ولا بناء قناطر حديثة على النيل ربما بسبب نقص التمويل فى ظروف غير مواتية. وترجع أهمية الصرف المغطى فى أنه أكفا فى تصريف مياه الصرف الزراعى وأنه يحل دون ارتفاع مستوى المياه تحت التربة. أما القناطر الحديثة فتساعد على توزيع المياه وفق مطالب الزراعة وتقلل من النحر النهري وفوق ذلك تسهل حركة النقل بين ضفتى النهر. وقد أنجزت وزارة الري خلال السنوات الماضية قسما لا بأس به من شبكة الصرف المغطى وتم تشييد قناطر حديثة عند نجع حمادى واسنا ومستقام قناطر أخرى فى المستقبل القريب.

ومن المشروعات غير الاقتصادية أو قل غير الرشيدة فى مصر تلك التى قامت دون دراسة وافية لأفضل نظم استخدامات الأرض واستثمارها فى منطقة الساحل الشمالى غربى الإسكندرية. فقد انشئت عشرات القرى السياحية الفخمة على طول ساحل البحر تاركة ظاهرها أرضا حاوية كما كان منذ مئات السنين. ويؤخذ على هذا الاستثمار أنه فصلى على الرغم من تكاليفه الباهظة التى تقدر ببلابين الجنيهات. ربما كان للهيئات التى أنشأها ولأصحاب القيلات رأى آخر، ولكن من الثابت إنه بصورته المالىة استثمار غير ناجح وانتهازى خاصة إذا أخذنا فى الحسبان ما تحمّلته وتحمله الدولة من تكاليف فى تزويد هذه القرى

- فى مجتمعات لم تألف سرعة الحركة. وبناء مساكن ثابتة لبدو رجل واخيرا الاعتماد على موارد مياه باطنية غير متجددة فى زراعة الحبوب رغبة فى اكتفاء ذاتى والنتيجة استنزاف المورد المائى.

بالمياه والكهرباء وخطوط التليفون فضلا عن الحراسة وذلك رغم انها تظل مهجورة اغلب اشهر السنة. ومن أسف انها تحيط نفسها إلى ذلك بأسوار مرتفعة تحجب البحر لمسافات طويلة عن العين وفي هذا إقتات على حق المواطن في الاستمتاع بما في بلده من جمال. وقد أحسنت الحكومة صنعا باصدار قرار ينص على إيقاف بناء مثل هذه القرى في المسافة بين العلمين والسلوم حتى توضع الخطة التنموية المناسبة.

وبعد

فهذا تقويم لدور الجغرافيا في التخطيط وما يمكن أن يقدمه الجغرافى للمخططين على اختلاف توجهاتهم يتبعه عرض لمشكلات بيئية وتفسير لأسبابها أملا في فتح مجالات لمشروعات تنموية لها صفة الاستدامة بفضل تخطيط سليم وإدارة مستدامة تحافظ على موارد البيئة ونظافتها حتى يظل كوكب الأرض سكنا صالحا للإنسان كما أراد الله.

المراجع

١ - عربية:

١ - ابن خلدون - المقدمة - القاهرة (بدون تاريخ) - الفصل الخامس.

٢ - أجنبية :

- 1 - Boesler, K-A (1994) "Sustainability, A key Concept in Modern Economic Geography". In: Applied Geog.& Dev. Vol. 44. P7 - 16.
- 2 - Haggett, P (1965) "Changing Concepts in Economic Geography". In: Frontiers in Geographical Teaching. Ed. Chorley, R & Haggett, P. London, P. 101 - 117
- 3 - Ibrahim, F. N. (1995) "Infrastructure & Development..." In: Applied Geog. & Dev. vol. 45/46 P. 9 - 14.
- 4 - Meckelein, W (1986) "Geography - Planning for the Future". Applied Geog. & Dev. Vol. 28, P 7-18.
- 5 - Meyer, G (1980) "Effect of the "New Valley" Project upon the development of the Egyptian Oases. In: Applied Geog. & Dev. vol. 15 P. 96 - 116.
- 6 - Thomas, D. (1969) "Geography & Physical Planning" In: Trends in Geography, London, P. 199 - 221.

- 7 - Wolff, P. (1995) "The Problem of Sustainability of
"Irrigation Systems." In: Applied
Geog.& Dev. vol. 45/ 46 P. 55 - 62.
- 8 - Wood, P.A (1969) "Geography & Physical Planning"
In: Trends in Geog, London, P. 210 –
221.

الخريطة الطبوغرافية الرقمية - مقدمة، في جمع وإدخال المعلومات
والبيانات الخرائطية وعرضها

د. أحمد أحمد مصطفى *

* الأستاذ المساعد بقسم الجغرافيا - جامعة الاسكندرية

100
101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200
201
202
203
204
205
206
207
208
209
210
211
212
213
214
215
216
217
218
219
220
221
222
223
224
225
226
227
228
229
230
231
232
233
234
235
236
237
238
239
240
241
242
243
244
245
246
247
248
249
250
251
252
253
254
255
256
257
258
259
260
261
262
263
264
265
266
267
268
269
270
271
272
273
274
275
276
277
278
279
280
281
282
283
284
285
286
287
288
289
290
291
292
293
294
295
296
297
298
299
300
301
302
303
304
305
306
307
308
309
310
311
312
313
314
315
316
317
318
319
320
321
322
323
324
325
326
327
328
329
330
331
332
333
334
335
336
337
338
339
340
341
342
343
344
345
346
347
348
349
350
351
352
353
354
355
356
357
358
359
360
361
362
363
364
365
366
367
368
369
370
371
372
373
374
375
376
377
378
379
380
381
382
383
384
385
386
387
388
389
390
391
392
393
394
395
396
397
398
399
400
401
402
403
404
405
406
407
408
409
410
411
412
413
414
415
416
417
418
419
420
421
422
423
424
425
426
427
428
429
430
431
432
433
434
435
436
437
438
439
440
441
442
443
444
445
446
447
448
449
450
451
452
453
454
455
456
457
458
459
460
461
462
463
464
465
466
467
468
469
470
471
472
473
474
475
476
477
478
479
480
481
482
483
484
485
486
487
488
489
490
491
492
493
494
495
496
497
498
499
500
501
502
503
504
505
506
507
508
509
510
511
512
513
514
515
516
517
518
519
520
521
522
523
524
525
526
527
528
529
530
531
532
533
534
535
536
537
538
539
540
541
542
543
544
545
546
547
548
549
550
551
552
553
554
555
556
557
558
559
560
561
562
563
564
565
566
567
568
569
570
571
572
573
574
575
576
577
578
579
580
581
582
583
584
585
586
587
588
589
590
591
592
593
594
595
596
597
598
599
600
601
602
603
604
605
606
607
608
609
610
611
612
613
614
615
616
617
618
619
620
621
622
623
624
625
626
627
628
629
630
631
632
633
634
635
636
637
638
639
640
641
642
643
644
645
646
647
648
649
650
651
652
653
654
655
656
657
658
659
660
661
662
663
664
665
666
667
668
669
670
671
672
673
674
675
676
677
678
679
680
681
682
683
684
685
686
687
688
689
690
691
692
693
694
695
696
697
698
699
700
701
702
703
704
705
706
707
708
709
710
711
712
713
714
715
716
717
718
719
720
721
722
723
724
725
726
727
728
729
730
731
732
733
734
735
736
737
738
739
740
741
742
743
744
745
746
747
748
749
750
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
817
818
819
820
821
822
823
824
825
826
827
828
829
830
831
832
833
834
835
836
837
838
839
840
841
842
843
844
845
846
847
848
849
850
851
852
853
854
855
856
857
858
859
860
861
862
863
864
865
866
867
868
869
870
871
872
873
874
875
876
877
878
879
880
881
882
883
884
885
886
887
888
889
890
891
892
893
894
895
896
897
898
899
900
901
902
903
904
905
906
907
908
909
910
911
912
913
914
915
916
917
918
919
920
921
922
923
924
925
926
927
928
929
930
931
932
933
934
935
936
937
938
939
940
941
942
943
944
945
946
947
948
949
950
951
952
953
954
955
956
957
958
959
960
961
962
963
964
965
966
967
968
969
970
971
972
973
974
975
976
977
978
979
980
981
982
983
984
985
986
987
988
989
990
991
992
993
994
995
996
997
998
999
1000

الخريطة الطبوغرافية الرقمية - مقدمة فى جمع وإدخال المعلومات والبيانات الخرائطية وعرضها

مقدمة :

أدت التطورات الحديثة والسريعة فى تقنية الحاسبات الآلية مع التقدم فى التطبيقات المرتبطة بها فى مجال تصميم وإنتاج الخرائط الى تغير فى التفكير الفلسفى فى تصميم الخريطة وفى طريقة إنتاجها، وأصبحت الطرق التقليدية فى التصميم والإنتاج من طرق الماضى وحلت محلها الطريقة الرقمية. وقد تطورت هذه الطريقة من خلال استخدام الحاسبات الآلية القوية فى مراحل تصميم وإنتاج الخريطة بداية من مرحلة تجميع المعلومات والبيانات الى ادارة قواعد المعلومات الجغرافية إلى استخدام هذه المعلومات فى مجالات مختلفة.

الخريطة الطبوغرافية الرقمية Topographical Digital Map عبارة عن مجموعة من النظم لرسم ومعالجة وتحليل وتخزين وعرض وتصوير المعلومات البيانية Graphical Data رقمياً بمساعدة الحاسب الآلى (Jensen , 1986,p.2) . وترجع بدايات الخرائط الرقمية إلى عام ١٩٥٠، ولكن بدأ الإنتاج الفعلى لها فى أواسط عام ١٩٧٠ . وقد شهدت الفترة منذ أواسط الثمانينات قفزات واسعة بفضل التطور فى مجال الحاسبات الآلية من أجهزة وبرامج (Shiryaev , 1987) . كما أنت الحاجة المتزايدة إلى خرائط طبوغرافية دقيقة ومراجعتها وتنقيحها وتحديثها من وقت لآخر، والتي تتطلب كثير من الوقت والجهد والابدئ الفنية المتخصصة مع توفر التقنيات الحديثة والمتطورة فى مجال الحاسبات الآلية من أجهزة Hardware وبرامج Software ، بالإضافة إلى إسهام الخرائطيين فى تطوير وإنتاج البرامج ، وفى تعديل وتطوير الاجهزة اللازمة لرسم الخرائط، إلى تقدم هذا الأسلوب تقدماً كبيراً فى سنوات التسعينات.

ويتجلى دور الحاسب الآلى والبرامج الخرائطية فى القدرة العالية فى معالجة الكميات الضخمة من البيانات، المعلومات، اللازمة لإنشاء الخريطة الطوبوغرافية، وتحسينها، عرضها

المبنول فى تكرار العمليات الحسابية والبيانية لتوقيع احداثيات النقط ومشكلة الإزاحة التى تفرضها الطرق التقليدية عند توقيع كل ظاهرة فى مكانها الصحيح (Wang et al, 1983). وتتضح مزايا استخدام تلك التقنية فى إنشاء ورسم الخرائط فى النقاط التالية :-

١ - القدرة على تجميع كميات ضخمة من المعلومات والبيانات ومعالجتها وتخزينها.

٢ - سهولة وسرعة تصميم الخريطة.

٣ - سهولة رسم وإنتاج الخريطة دون الحاجة إلى رسامين مهرة.

٤ - وضع المعلومات والبيانات فى نظام يكفل امكانية استرجاعها فى أى وقت بسهولة وإجراء العمليات الخرائطية المطلوبة من معالجة وتحليل وتنقيح وتصحيح وتحديث بالحذف والإضافة والتعديل ثم إعادتها فى وضعها الجديد الى وحدات التخزين . ويعنى هذا ايجاد قاعدة بيانات date base يمكن استخدامها مستقبلاً لتنفيذ خرائط ذات مواصفات محددة.

٥ - سهولة تحديث الخريطة وإعادة إنتاجها.

٦ - سهولة رسم الخريطة التى تحتوى على كثير من الرموز والتى تحتاج إلى عمليات حسابية ووقت وجهد وأيدى عاملة.

٧ - التوصل إلى معايير ثابتة فى رسم وإنتاج الخرائط.

٨ - القدرة على عرض المعلومات الجغرافية والخرائطية فى صورة لم تكن متوفرة فى طرق الانتاج الخرائطى التقليدية.

٩ - التقليل من الحاجة إلى اللوحات الخرائطية الورقية ، إذا أصبحت الخريطة مسجلة على أشرطة ممغنطة Magnetic Tapes وعلى أقراص صلبة Hard Disks أو أقراص مرنة Floppy Diskettes يمكن عرضها على شاشة الحاسب الآلى أو رسمها باستخدام مناضد الرسم الرقمية.

ويوضح الجدول التالي الفوارق الأساسية بين الطريقة التقليدية القديمة والطريقة الرقمية الحديثة في إنتاج الخريطة الطبوغرافية.

العنصر الخرائطي	الطريقة التقليدية	الطريقة الرقمية
الاندخال	خرائط مصدرة، صور جوية	خرائط مصدرة، صور جوية ومرئيات فضائية
مقياس الرسم	مثبت ومحدد سابقا	مقاييس مختلفة غير مثبتة
دقة المعلومات	± 0.10 من مقياس رسم الخريطة	يعتمد فقط على دقة معلومات الاندخال ومتطلبات الخريطة المنتجة نهائيا
طريقة تحديد المعلومات	بواسطة الألوان وتنوع الخطوط والرموز والتصوص	مجموعة قوانين Codes والصفات الخاصة بها Attributes.
تصنيف المعالم	بواسطة قائمة تفسيرية Legend	جداول تصنيف Coding Tables
الترميز	بواسطة قائمة تفسيرية Legend	قاعدة بيانات خاصة بالخطوط والرموز
تجميع المعلومات	مزيج الأبعاد 2D	مزيج أو ثلاثى الأبعاد 2D or 3D
معالم سطح الأرض والمناسيب	منفصلة على مرحلتين	مشتركة فى مرحلة واحدة
تعديل المعلومات والبيانات وتصحيحها	يدويا	يدويا أو رقميا أو آليا
عرض المعلومات	الطريقة الخرائطية التقليدية اليدوية	طريقة الإنتاج الرقمية
الإنتاج (الإخراج)	خريطة ورقية تقليدية	خرائط ورقية وخرائط رقمية بمقاييس رسم مختلفة وخرائط مصورة، تقارير جداول احصائية وغيرها

ويهدف هذا البحث إلى عرض نظم إدخال المعلومات والبيانات الخرائطية من أجل إنشاء الخريطة الرقمية كإسلوب خرائطى حديث، وذلك من خلال مناقشة النقاط التالية:-
أولاً : الأجهزة والبرامج المستخدمة فى رسم الخريطة الطبوغرافية الرقمية.
ثانياً : جميع البيانات.

ثالثاً : طرق إدخال المعلومات والبيانات وتسجيلها ومعالجتها وتخزينها
رابعاً : طرق عرض المعلومات.

أولاً : الأجهزة والبرامج المستخدمة فى إنشاء الخريطة الطبوغرافية الرقمية

١ - الأجهزة Hardware : وتعرف بأسم أجهزة الرسم الرقمى Digital Hardware (شكل ١) وتتألف من : جهاز حاسب آلى رئيسى مع وحدة Central Processing (CPU) وذاكرة Unit. Random Access Memory (RAM) وكارت معالجة الرسوم البيانية Graphic Card، ووحدة تخزين Storage Unit ، وشاشة عرض Cathode Ray Tube (CRT) ، ولوحة مفاتيح Keyboard. ويستقبل هذا الجهاز المعلومات الخرائطية من الاجهزة التالية :

أ - لوحة المفاتيح Keyboard .

ب - منضدة الادخال الرقمى Digitizer .

ج - جهاز الفرز الخرائطى Carto Scan .

د - نظام الفاكس Fax System .

هـ - نظام الاتصال التليفونى (المودم) Modom System .

و - أجهزة فرز الالوان Colour Scans .

ز - محطات عمل معدلة لتتوافق مع تلك النظم Compatible and Integrated Systems .

وتخزن جميع المعلومات فى قاعدة بيانات date base أو ما يعرف ببنك المعلومات. ويمكن استرجاع المعلومات من القاعدة ومعالجتها وعرضها أو رسمها ثم إعادتها مرة أخرى. وتتميز الاجهزة المستخدمة فى الخرائط الرقمية بالتطور التقنى السريع ، ولكن المشكلة القائمة حتى الآن تتمثل فى عدم توفر نظام متكامل يغطى كل الاحتياجات. وبصفة عامة فإن أكثر الاجهزة المستخدمة حالياً فى رسم الخرائط الرقمية هى :

أ - محطة الاستريوجراف Stereo Graphics Station .

ب - محطة الأنترجراف Intergraph Station .

ج - محطة السيسكان Syscan Station .

وتتألف تلك المحطات عادة من :

- جهاز حاسب آلى مع أجهزة الادخال الرقمى مثل المنضدة والمؤشر والفأرة وأجهزة الفرز.

- شاشة عرض ملونة لعرض الصورة أو الرسوم البيانية.

- شاشة عرض خاصة بالأوامر والنصوص.

- راسمات رقمية Plotters لمراجعة الرسوم ولإخراج النهاى للخريطة.

- طابعة لطبع المعلومات الكتابية والارقام لمراجعتها.

وتتميز تلك الاجهزة بدقتها العالية وسرعتها الفائقة فى المعالجة وإخراج المعلومات بالإضافة إلى طاقتها التخزينية العالية.

٢ - البرامج Software : تتوافر حالياً مجموعة من البرامج المتكاملة Packages التى تستخدم فى رسم الخرائط الرقمية مثل : برنامج Syscan ، وبرنامج Micro Station وبرنامج Auto Cade وبرنامج Map Info وبرنامج GIS Mapping . وقد شهدت تلك البرامج تطوراً سريعاً فى السنوات القليلة الماضية.

ثانياً : جمع البيانات

تعتبر عملية جمع البيانات من مصادرها المختلفة أولى عمليات انتاج الخريطة الرقمية. ويمكن الحصول على البيانات من المصادر التالية :

١ - الخرائط المصدريّة Source Maps : تتطلب عملية تجميع البيانات اللازمة استخدام خرائط عديدة من مصادر مختلفة للحصول منها على المعلومات والبيانات المطلوبة مثل الخرائط المرجعية Reference Maps (التفصيلية) ذات مقياس الرسم الكبير والتى أنشئت بطرق المساحة الحقلية التقليدية Field Surveying ، وخرائط أخرى قد تكون مبنية بمساقط مختلفة وبمقاييس

رسم مختلفة ، وقد تكون مختلفة أيضا فى مستوى الدقة وفى تاريخ الانتاج . ويقوم الخرائطى عند تجميع البيانات بعمليات الاختيار Selection والتبسيط Simplification والتعديل Modification حيث يختار تلك المعلومة ويستبعد الأخرى ، يعدل تلك ويبسط أخرى ، وكذلك عمليات الدمج Combination والمبالغة Exaggeration والازاحة Displacement حيث يدمج الظواهر المتجاورة والتي تنتمى إلى نوع واحد أو من درجة (رتبة) واحدة ويبالغ فى أخرى، وغيرها من عمليات التعميم Generalization . ويقوم الخرائطى أثناء إجراء تلك العمليات بنقل البيانات والمعلومات المنتقاه (المختاره) وتوقيعها على لوحة تعرف بلوحة التجميع أو لوحة العمل Work Sheet (Robinson & Sale, 1969, p.41).

٢ - الصور الجوية Air Photos : وذلك بنقل الظواهر المختلفة وتحويلها إلى معلومات رقمية تمثل الظواهر فى المستوى الأفقى ذى البعدين (س،ص) ، والظواهر التضاريسية ذات الثلاثة أبعاد (س،ص،ع) بطريقة خطوط الكنتور ونقط المناسب.

٣ - مرئيات الاستشعار من بعد Remote Sensing Images وهى المعلومات المجمعة بواسطة الأقمار الصناعية ، وهى معلومات فى صورة أو هيئة رقمية بطبيعتها Digital Form.

٤ - الوثائق البيانية Graphical Documents والخرائط المصورة Photo Maps والمطبوعات الأخرى.

٥ - الدراسة الميدانية Field Study وذلك لتقديم بيانات وصفية Attribute Data عن الظواهر الجغرافية والطبوغرافية والجيولوجية والمعلومات الخاصة بالتربة والمناطق الرملية والمستنقعات والبرك السبخات والقطاء النباتى الطبيعى أو المزروع ، كما يمكن الحصول على تلك البيانات الوصفية من تفسير الصور الجوية. وتمثل تلك البيانات على هيئة رموز خاصة تبين كل ظاهرة أو معلم أو بإضافة وصف كتابى Descriptive Text.

ثالثاً : طرق إدخال المعلومات والبيانات وتسجيلها ومعالجتها وتخزينها

١ - إدخال المعلومات والبيانات Data Input :

تحتوى الخرائط الرقمية على محتويات أولية Primary Contents ومحتويات ثانوية Secondary Contents تمثل أساس (قاعدة) الخريطة Map base ، وعلى معلومات أساسية

على مسطح الخريطة Basic Information ، وعلى محتويات مساعدة إضافية Supportive Contents وهي المعلومات التي على هامش الخريطة Marginal Information . وتتأى البيانات والمعلومات فى الرسم الرقمى على إحدى حالتين :

أ- معلومات مكانية Spatial Data وهي التى تحدد مواقع الظواهر الجغرافية والطبوغرافية سواء كانت على شكل نقط أو على شكل خطوط أو على شكل مساحات (مصطفى، ١٩٩٠ ب).

ب - معلومات وصفية تحدد خاصية كل ظاهرة Attribute وتميزها عن غيرها من الظواهر، كما تقدم تفسيراً لكمية وتنوع الظواهر الجغرافية والطبوغرافية (Palmer, 1984).

وتصنف المعلومات والبيانات الخرائطية فى أربع فئات (مصطفى، ١٩٩٠ أ) :

أ - معلومات على شكل نقط تمثل الظواهر النقطية Point Features وتشمل أى ظاهرة جغرافية يمكن تمثيلها على الخريطة على شكل نقطة يمكن تحديدها جغرافياً (درجة الطول ، ودرجة العرض) ، أو تحديدها بالاحداثيات التربيعية (الاحداثى السينى والاحداثى الصادى) مثل : نقط المناسيب أو علامات الحدود أو المساجد أو العينين والآبار.

ب - معلومات على شكل خطوط تمثل الظواهر الجغرافية الخطية Line Features وتشمل الظواهر التى لها امتداد طولى يمكن تحديده وتمثيله ولها عرض أو اتساع لا يمكن تمثيله مثل الطرق وخطوط نقل الكهرباء وخطوط أنابيب المياه والمجارى المائية ومحاور الأودية الجافة.

ج - معلومات على شكل مساحات تمثل الظواهر الجغرافية المساحية Area Features وتشمل الظواهر التى لها امتداد طولى وامتداد عرضى يمكن تمثيله بدقه على الخريطة مثل المحلات العمرانية والمناطق الزراعية والبرك والمستنقعات والبحيرات.

د - معلومات على شكل أرقام ومسميات ونصوص أو وثائق تصف الظواهر الجغرافية.

ويتم تصنيف المعلومات والبيانات الخرائطية من أجل إدخالها رقمياً فى الحاسب الآلى إلى:

أ - معلومات محفوظة فى قاعدة البيانات الجغرافية أو الطبوغرافية Topographic or Geo-graphic Data Base وهي فى صورة رقمية ، ويتم سحب المطلوب منها إلى أجهزة رسم الخريطة الرقمية بشرط أن تكون متوافقة مع الأنظمة وطرق بناء البيانات الرقمية المعمول بها.

ب - معلومات على شكل خطوط ومساحات لونية تمثل أشكال الظواهر فى الطبيعة ، وقد تم جمعها من الصور الجوية والخرائط المصدرة ، ويتم ادخالها بواسطة مناخذ الادخال الرقمى -Digi tizers أو عن طريق أجهزة المسح أو الفرز الخرائطى Carto Scanners أو أجهزة فرز الألوان Colour Scanners.

ج - معلومات على شكل أرقام ونصوص أى مسميات Alphanumric Data وتشمل المعلومات التى تم جمعها من الجداول الاحصائية والوثائق الرسمية مثل نقط المنسوب ونقط الضبط الأفقى (نقط المثلاث والتراتيرسات) ونقط الضبط الرأسى (الروبيرات) ، ومعلومات الحدود والمسميات وصفات الظواهر الجغرافية ، ويتم إدخالها بواسطة لوحة المفاتيح Keyboard.

ويتم اختيار المطومات المطلوب ادخالها رقميا بناء على أهميتها والغرض من انتاج الخريطة وحاجة المستخدم وسهولتها للاستخدام ودقتها من ناحية ، وقدرة الاجهزة المستخدمة على جمعها وتحليلها ومعالجتها من ناحية أخرى. كما تشتمل عملية ادخال البيانات والمعلومات Data Entry على عمليات تنظيف البيانات Data Cleaing وعمليات الحذف والإضافة Data Editing وعمليات المراجعة والتصحيح والتنقيح Data Verification. ويتم تسجيل المعلومات والبيانات على شكل سلسلة متتابعة ومتقاربة من الاحداثيات التربيعية السينية والصادية (س.ص) ، وإضافة ما تتطلبه كل ظاهرة جغرافية من مواصفات تميزها عن غيرها مثل السمك والامتداد واللون والظل ، كما تحفظ البيانات والمعلومات فى ملفات Files أو فى ملفات طبقية Layers حسب نوع الظاهرة أو حسب اللون أو حسب الغرض ، وهى عملية تشبه عملية فرز الألوان فى الطرق التقليدية المستخدمة فى انتاج الخرائط ، مثل ملف أو طبقة لشبكة الاحداثيات الجغرافية ولف أو طبقة لشبكة التربيعية السينية والصادية ، ولف أو طبقة لنقط المناسيب ولف لخطوط الكنتور ولف لشبكة التصريف المائى ولف للنطاقات النباتية الطبيعية وآخر للنباتات المزروعة ، ولف للمناطق السكنية ولف للطرق ولف لكل خدمة من الخدمات مثل المدارس ومكاتب البريد والمساجد يهيجم الخ. أما الملفات طبقا للون وتعرف بالملفات اللونية فهناك ملف اللون الأزرق وهو خاص للظواهر الهيدروجرافية ولف اللون الأخضر ويختص بالظواهر النباتية ولف اللون البنى خاص بنقط المناسيب وخطوط الكنتور والهاشور . . الخ وتعتبر طريقة الحفظ فى ملفات لونية غير شائعة.

٢ - طرق إدخال المعلومات الرقمية :

يوجد فى الوقت الحاضر ثلاث طرق لإدخال المعلومات (Robinso & Jackson, 1985)

وهى:

الطريقة الأولى : وهى الإدخال الرقمية للنقط عن طريق نظام ادخال المعلومات نقطة بنقطة point by point mode وذلك بوضع المؤشر فوق النقطة المطلوب ادخالها رقميا، ويتم حساب احداثياتها التربيعية (س،ص) أو احداثياتها الجغرافية (درجة الطول ودرجة العرض) اليكترونيا وتسجيله مباشرة فى الحاسب الآلى.

الطريقة الثانية : وهى نظام الادخال الرقمية المستمر continuous mode وفيه يتم تسجيل النقط عن طريق عمليات الحساب التراكمى للمسافات أو لعدد مرات الادخال، وذلك بحساب المسافة فى كل مرة يتحرك فيها المؤشر. وتصل درجة دقة تلك الطريقة الى صفر مليمتر وبخطأ قدره ± 0.2 مليمتر. وهناك اسلوب آخر للأدخال يندرج تحت هذه الطريقة يعرف باسم طريقة التتبع المستمر للخط line Following Method أو Lock - On Techniques ، حيث يتم تسجيل القواصل والمسافات بين كل نقطة وأخرى على طول امتداد الخط المراد ادخاله عن طريق ضغط زر المؤشر. ويعيب هذه الطريقة أنها غير دقيقة خاصة بالنسبة للخطوط التى تختلف فى سمكها، كما أنها غير دقيقة عندما تتقاطع الخطوط إذ يصعب تحديد الاتجاه الرئيسى للخط.

الطريقة الثالثة : وهى نظام المسح الرقمية Scanning Digitization وتعتبر أفضل طريقة لتتبع مسار الخط واتجاهه. ويتم فى هذا النظام مسح الصورة الجوية المجسمة أو الخريطة المصدرة وذلك بتقسيمها الى مسارات Strips على ألا يتجاوز سمك المسار الواحد 0.25 مليمتر، وعن طريق المسار يتم تسجيل جميع النقط التى يمر فوقها جهاز المسح.

وفى الوقت الحاضر يتم جمع معلومات وبيانات الخريطة الرقمية من الصور الجوية المتداخلة بواسطة أجهزة التوقيع أو الراسمات الاستريوسكوبية Stereo plotters حيث يتم عرض الصورة المجسمة ثلاثية الأبعاد وشقها على منضدة الرسم، ثم باستخدام منضدة الادخال تتم عملية الادخال الرقمية، وتسجيل الاحداثيات السينية والصادية لكل معلم وظاهرة فى الصورة المجسمة آليا مع إضافة الاحداثى الرأسى (ع). وينتج عن هذه الطريقة قاعدة بيانات جغرافية وطبوغرافية ، يمكن

٣ - تسجيل معلومات وبيانات الخريطة الرقمية :

يقصد بتسجيل معلومات وبيانات الخريطة تحويل الظواهر الجغرافية النقطية والخطية والمساحية إلى معلومات رقمية. وتشمل هذه العملية تمثيل تلك الظواهر في شكل مجموعة متناسقة من النقاط والخطوط والمساحات ، إذ أن الهدف من جمع البيانات وإدخالها هو إبرازها في شكل أحداثيات تريبعية (س،ص) تتناسب مع الشكل الصحيح للظاهرة الجغرافية وتبين موقعها الصحيح. وللتأكد من أن التحويل الرقمي للمعلومات وتسجيلها قد تم بصورة صحيحة ، فمن الضروري إعادة تحويل المعلومات من صورتها الرقمية إلى صورتها التخطيطية المشابهة للخريطة وعرضها على شاشة الحاسب الآلي أو رسمها بالرسومات الرقمية لمراجعتها حتى يمكن تصحيحها أولاً بأول.

على سبيل المثال عند جمع المعلومات الخاصة بالطريق الزراعي بين الاسكندرية والقاهرة وتحويل تلك المعلومات من الصورة الخطية على الخريطة التقليدية إلى صورة رقمية Raster Image بواسطة منضدة الإدخال الرقمي والمؤشر ، وذلك بتحويل الخط إلى سلسلة من الأحداثيات السينية والصادية. ولكن هناك مشكلة هندسية ، إذ أن الخط يتكون من عدد غير محدود من النقاط ، فهل يتم تسجيل جميع النقاط المكونة للخط ، أم يمكن تقسيم الخط إلى عناصر خطية Line Segments مستقيمة وتسجيل الأحداثيات السينية والصادية لنقطتي البداية والنهاية لكل عنصر خطي. لاشك أن الخيار الأول هو الأكثر دقة ، ولكنه يحتاج إلى وقت وجهد وإلى حجم كبير من الذاكرة في الحاسب الآلي وإلى وحدة تخزين ذات طاقة استيعابية واسعة. وعلى العكس من ذلك فإن الخيار الثاني الذي لا يحتاج إلا لذاكرة ووحدة تخزين قادرة على استيعاب نقاط الأحداثيات السينية والصادية لكل عنصر خطي. وتزداد هذه العملية تعقيداً بازدياد سمك الخط المطلوب تحويله رقمياً، وبازدياد وتعقد انحناءاته ونقط تغير اتجاهه ، وفي هذه الحالة لابد من استخدام طرق التعميم المختلفة Generalization واختيار نقاط معينة على طول الخط وتحديد أحداثياتها السينية والصادية بشرط المحافظة على الشكل المميز للخط وانحناءاته الرئيسية أي خصائصه المميزة (Buttenfield, 1991, pp. 150 - 171).

٤ - خطة ادخال المعلومات والبيانات وتسجيلها رقمياً :

وهي خطة عمل تساعد الخرائطي في تنظيم عمله عند تحويل المعلومات والبيانات من الصورة التقليدية الي الصورة الرقمية. إذ تحتاج عملية فتح ملفات رقمية للمعلومات مع المحافظة على الدقة المطلوبة وإيجاد ضوابط لتحديد وإزالة الاخطاء ومتابعة سير الرسم الرقمي الى خطة محددة تنظم سير كل مرحلة من مراحل ادخال وتنظيم الكميات الكبيرة من المعلومات الرقمية والسيطرة عليها حتى لاتتعد عمليات الرسم والتسجيل الرقمي وتنشعب وبالتالي يصعب السيطرة عليها. وتشمل خطة التسجيل الرقمي النقاط الأساسية التالية :

أ - تحديد وترميز كل النقط في الخريطة الأساسية التي سيتم مسحها رقمياً. وتشمل هذه العملية نظام الترقيم والفهرسة للمحافظة علي عمليات الرسم الرقمي والسيطرة على المعلومات وتسهيل اجراءات التدقيق والمراجعة وتصحيح الأخطاء.

ب - وصف الأساليب الخاصة بتتبع عمليات الترقيم وطريقة الوصول الي كل معلومة رقمية، ويتطلب ذلك ترتيب مناسب ومتسلسل للمعلومات.

ج - وضع نظام ترميز يضمن استخدام المعلومات النهائية في انتاج الخريطة بواسطة البرامج المناسبة.

٥ - أجهزة ادخال المعلومات والبيانات Input Devices :

تشبه عملية ادخال المعلومات في الحاسب الآلي عمليات تجميع الخريطة -Map Combilation في الطرق التقليدية. وهي ببساطة ادخال المعلومات عن طريق الشف من اللوحات والخرائط المصدرية، ولكن ليس عن طريق ورق الكلك وأدوات التحبير ولكن عن طريق تحويل الخطوط الى صورة أو هيئة رقمية، أي تحويلها إلى لغة يستطيع جهاز الحاسب الآلي التعامل معها machine readable حتى يمكن معالجتها وتخزينها وطباعتها. ويتم ادخال المعلومات بالوسائل التالية :

أ - منضدة الادخال الرقمي Digitizer والمؤشر Cursor ولوحة الرمز Graphic Tablet.

ب- الفأرة Mouse أو قلم الاضاءة Light pen أو عصا التحكم Joystick.

ج - كاميرات الفيديو.

د- أجهزة الفرز الخرائطي Carto Scans وأجهزة فرز الألوان colour scans أو الفرز بالليزر Laser Scan.

هـ - مجسات استشعار الصورة أو المرئية الرقمية Digital Image Sensors.

ويتكون مناضد الإدخال Digitizers (شكل ٢) من :

- سطح مستو، وهذا السطح إما أن يكون سطحاً مصمومتاً Solid أو سطح ذو إضاءة خلفية أو سطح مثبت بأسفله عاكس.

- وحدات استشعار اليكترونية تقوم بتنظيم وضبط العمل على سطح المنضدة.

- أجهزة نقل المعلومات من المصدر المثبت على سطح المنضدة (الخريطة المصدرية أو الصورة الجوية) وتحويلها الى صورة رقمية وإدخالها فى الحاسب الآلى مثل المؤشر وقلم الإضاءة والقلم الاليكترونى لتتبع الخطوط.

ويصفة عامة فإن أكثر مناضد الإدخال استخداماً فى الرسم الرقوى هى التى تعتمد على الرسم أو الشف والتسجيل اليدوى والذي يمكن تسميته بالمسح والتسجيل اليدوى Manual Digitization ، وتعرف باسم منضدة الإدخال اليدوى Manual Digitizer.

٦ - المسح والتسجيل الرقوى اليدوى :

يتم المسح والتسجيل عن طريق تتبع اليدوى للخطوط والنقط المراد تحويلها الى صورة رقمية وإدخالها فى جهاز الحاسب الآلى. وتستخدم فى هذه العملية منضدة الإدخال اليدوى (شكل ٣) حيث توضع الخريطة المصدرية أو الرسم البيانى أو الصورة المطلوب تحويلها الى الهيئة الرقمية فوق سطح المنضدة، ويتم تثبيتها جيداً حتى لا تتحرك أثناء الرسم. ويلاحظ أن هناك منطقة عمل محددة على سطح المنضدة تعرف بالمنطقة النعالة Working Space أبعادها ١.٥٠ × ١.٠٠ متر وتصل درجة وضوحها الى ٢٥ نانومتر، وبدقة تصل الى ٧٥ نانومتر حيث يمكن القراءة والعمل أى النقل منها. أما أطراف المنضدة التى لا يمكن مسح اجزاء اللوحة المصدرية التى تقع فوقها فتسمى بالمنطقة الميتة Dead Space . كما يستخدم فى عملية تتبع الخطوط والنقط المراد رسمها رقمياً من

المصدر المثبت على المنطقة الفعالة من سطح المنضدة مؤشر وموجه Cursor به ١٤ - ١٦ زراً، وعلامة تحديد على شكل خطين متعامدين مثبتة فوق عدسة تكبير (شكل ٤). ويتم تحويل المعلومات المطلوبة إلى صورة رقمية بوضع العلامة فوق النقطة أو تتبع الخط المراد رسمه وتسجيله رقمياً، وبمساعدة مفاتيح الضبط والتحكم ذات الوظائف المتعددة الموجودة على لوحة المفاتيح ، يتم قياس وتسجيل الاحداثيات التربيعية (س،ص) لأى ظاهرة أو معلم.

والمناضد المستخدمة حالياً ، إما أن تكون اليكترونية Electronomechal Table مزودة بإطار تحت السطح مهمته رصد حركة المؤشر على المنطقة الفعالة ، أو أن تكون ذات سطح مصمت Solid به شبكة متساوية المسافات من الاسلاك الاليكترونية الحساسة لرصد حركة المؤشر عند كل نقطة. وتتصل مناضد الادخال بالحاسب الآلى ولوحة المفاتيح وشاشة العرض. وتعمل تلك المناضد على نظامين:-

أ - نظام غير مباشر حيث يكون العمل تحت السيطرة غير المباشره للحاسب الآلى، ويعرف باسم An off - line Mode ويتم تسجيل المعلومات على أشرطة ممغنطة أو على قرص صلب أو على أقراص مرنة.

ب - نظام متداخل Interactive وفيه ترسل التعليمات مباشرة من المؤشر أو لوحة المفاتيح إلى الحاسب الآلى ، فى نفس الوقت الذى يتم فيه شق المعلومات الخرائطية من اللوحة المصدرية، وكذلك عرض ما تم شقه من معلومات على شاشة العرض.

وتسمح مناضد الادخال باختيار طريقة تسجيل المعلومات، إذ يمكن تسجيل المعلومات فى فواصل زمنية محددة أو مسافات ذات فواصل تحددها حركة المؤشر. كما يمكن تسجيل معلومات المواقع عن طريق الضغط على الزر المناسب فى المؤشر. وأياً كانت طريقة التسجيل ، إلا أنه من الضرورى تحديد نوعية العلم أو الظاهرة الجغرافية المراد تسجيلها عن طريق اعطاء رمز معين Feature Code لا تم شقه وتسجيله، وإضافة خاصية العلم أو الظاهرة Attribute ، أو إعطاء العلم مسمى يميزه عن غيره Feature Label . وبعد استخدام الرمز أو الخاصية أو المسمى ضرورياً لعمليات المعالجة Manipulation واجراء عمليات التعميم Generalization ، والحذف وإضافة Editing وإخراج المعلومات وتوقيعها أو طباعتها Plotting .

يقوم الخرائطى على سبيل المثال بإدخال معلومات نقط المنسوب باستخدام منضدة الإدخال ولوحة المفاتيح، فيحدد نقط المنسوب عن طريق أحداثياتها التريعية (س/ص) باستخدام المنضدة والمؤشر، ثم تكتب قيمتها أى منسوبها باستخدام لوحة المفاتيح . ويمكن إعادة عرض جميع نقط المنسوب المطلوبة فى الخريطة على الشاشة أو عرض جزء منها لمعالجتها وتصحيحها. كما يمكن عرض نقط المنسوب التى يزيد ارتفاعها عن قيمة معينة (٢٠٠ متر مثلاً) أو عرضها عن طريق الرمز أو الخاصية التى أعطيت لها مسبقاً مثل نقط المنسوب الخاصة بالأودية أو نقط المنسوب الخاصة بالطرق أو نقط المنسوب الخاصة بخط كنتور معين. وهنا تتجلى ميزة الرسم الرقمى فى القدرة الهائلة على معالجة معلومات الخريطة إذا ما قورنت بالطرق التقليدية. كما يتيح هذا الأسلوب الخرائطى الحديث عرض وطباعة معلومات بعينها.

لوحة الأوامر والرموز Tablet Menu تحتوى مناضد الإدخال Digitizers على لوحة رموز تمثل المعالم والهيئات الجغرافية والطبوغرافية والتى ستظهر على مسطح الخريطة والتى ستظهر أيضاً فى مفتاح المصطلحات أو دليل الرموز والعلامات الاصطلاحية (شكل ٥). وتوجد هذه اللوحة عادة على الجزء الذى لا يستخدم فى عملية الرسم (المنطقة الميتة)، ويمكن استخدامها مع لوحة المفاتيح أو بدلاً منها. وتتألف لوحة الأوامر من مجموعة من الوظائف Functions وعلى الرموز المستخدمة فى رسم الخريطة. ويمكن استخدام هذه اللوحة عن طريق وضع المؤشر فوق إحدى الوظائف المطلوب تنفيذها أو الرمز أو العلامة الاصطلاحية المطلوبة ثم ضغط الزر المناسب فى المؤشر قبل البدء فى عملية الشف والتسجيل. وتسهل لوحة الرموز عملية الرسم اذ لا يحتاج الخرائطى الى التوقف فى كل مرة يريد استخدام لوحة المفاتيح لإدخال رمز أو خاصية لظاهرة ما قد تم تسجيلها، إذ تغنى لوحة الرموز عن استخدام لوحة المفاتيح فى معظم الأحيان، وخاصة فيما يتعلق بتسجيل أحداثيات النقط، وسماكة ونوعية الخطوط.

وتعرف منضدة الإدخال والمؤشر وجهاز الحاسب الآلى بمحطة العمل التخطيطية أو البيانية
Graphic Work Station.

٧ - المسح والتسجيل الرقمي الآلي Raster Scan Digitization :

يستخدم في هذه الطريقة جهاز الفرز أو المسح الخرائطي Carto Scan (شكل ٦) حيث يقوم بتحويل الأشكال النقطية أو الخطية أو المساحية إلى صورة رقمية عن طريق جهاز بصري اليكترونى Electro-Optical أو جهاز حساس (مجس) يعمل بالليزر Laser Sensor يقوم بمسح الرسومات المصدرة الأولية إلى مجموعة من الخطوط المنتظمة، وتختلف طرق الإدخال الرقمية الآلية عن طرق الإدخال الرقمية اليدوية في أن الصورة النهائية تكون على شكل صورة رقمية Raster تختلف عن الصورة التخطيطية أو البيانية Vector، وبصفة عامة فإن أسس المسح الآلي Scanning واحدة سواء تم الإدخال والتسجيل باستخدام جهاز فرز نو سطح مستو Flat Bed أو جهاز فرز اسطوانى Drum Scanner. كما يمكن لأجهزة المسح الآلي مسح خريطة مصدرة أولية على فيلم سالب أو على فيلم موجب أو على شكل خريطة ورقية ملونة. ويتم مسح الخريطة الأولية في شكل مجموعة من الخطوط الدقيقة المتوازية والمقسمة إلى وحدات صغيرة تسمى عنصر الصورة Pixel أو Picture Element ، وهى عبارة عن نقط صغيرة تشكل في مجملها الصورة النهائية.

وتزود أجهزة الفرز الآلي بأداة حساسة في رأس الجهاز Scanner Head مهمتها التسجيل الرقمي لكثافة ولون ودرجة إضاءة كل نقطة يتم مسحها، ويمكن لهذه الأداة قراءة وتسجيل درجة إضاءة تتراوح بين ١ و ١٢٧ أى تعتمد من اللون الأبيض إلى اللون الأسود، وتعتمد دقة جهاز فرز أو مسح الألوان على مدى إمكانيته في تسجيل النقط التى يتراوح حجمها بين ٢٥ ، ٢٠٠ نانومتر. ويمكن تحويل الصورة الرقمية Raster إلى الصورة التخطيطية Vector بواسطة بعض البرامج الخرائطية المساعدة.

ويستخدم في هذه العملية منضدة تتبع ومسح الخطوط آلياً تعرف باسم Automatic Line Following Digitizer ، وهى عبارة عن منضدة ادخال رقمى تشبه مناضد الإدخال الأخرى، إلا أن لها رأس يتصل بجهاز ليزر أو جهاز تصوير اليكترونى. ويتم مسح وإدخال المعلومات من الأفلام السالبة ، إذ يثبت الرأس على بداية الخط المطلوب مسحه رقمياً وتحديد إحداثياته بدقة ، بعدها يقوم الجهاز آلياً بتتبع الخط إلى نهايته.

على سبيل المثال عند مسح خريطة مصدرة مصورة على فيلم سالب ، يثبت الجهاز على الركن الجنوبي الغربي للإطار ثم يعطى أمر الإدخال المناسب ، بعدها يقوم الجهاز بتتبع إطار الخريطة وتسجيل احداثيات نقطة كل ركن من أركانه حتى يعود مرة أخرى إلى نقطة البداية. وكذلك بالنسبة لخطوط الكنتور والطرق ولحدود الظواهر المساحية وغيرها.

وتتم هذه الطريقة باستخدام الأفلام السالبة والتي قد يتم تصغيرها حتى تتلاءم مع حجم المنطقة الفعالة على سطح منضدة الإدخال الرقمية الآلى. كما تمكن هذه الطريقة الخرائطى من تتبع سير عملية التسجيل على الشاشة فى نفس الوقت الذى يتم فيه مسح المعلومات وتحويلها الى الصورة الرقمية. وبذلك يمكنه تعديل أو إعطاء المعلومات أو الأوامر اللازمة عندما يصادف الجهاز بعض المشاكل مثل عدم وضوح الخط أو تقاطعه مع مجموعة من الخطوط مما قد يؤدي إلى فقدان الاتجاه ، ثم متابعة العمل مرة أخرى من النقطة التى توقف عندها الجهاز.

٨ - استخدامات لوحة المفاتيح Key Board :

يقوم الخرائطى عند انشاء الخريطة بتجميع المعلومات والبيانات اللازمة من مصادر مختلفة ، إلا أن المشكلة التى تواجهه عند رسم الخريطة الرقمية تتمثل فى أن كثير من تلك المصادر لا تتميز بالسهولة فى تحويلها من خطية إلى رقمية ، وبالتالي لا يمكن ادخالها فى الحاسب الآلى ووضع ملفات خاصة لها بطريقة مباشرة. لذا لابد من استخدام طريقة أو أخرى لجعل هذه المصادر مقرومة بالنسبة للحاسب الآلى ، ومن ثم فإن هناك حاجة لأجهزة مساعدة وبرامج لتحويل المعلومات من صورتها الأصلية غير الخطية إلى معلومات رقمية واضحة لجهاز الحاسب الآلى. وتعتبر لوحة المفاتيح Key Board أحد الاجهزة المساعدة التى تستخدم فى ادخال المعلومات التى على شكل أرقام أو أسماء يطلق عليها Alphanumeric Data وتشمل :

أ - معلومات قيم الاحداثيات الجغرافية (درجة الطول ودرجة العرض) ، وقيم الاحداثيات التربيعية (س.ص).

ب - معلومات قيم خطوط الكنتور وقيم نقاط المناسيب ، وقيم وأرقام نقاط الضبط الأفقى (نقاط المثلثات ونقط الترافيرسات) ، وقيم وأرقام نقاط الضبط الرأسى (الروبيرات).

ج - المعلومات الاحصائية.

د - المسميات.

ويتم إدخال تلك المعلومات بواسطة لوحة المفاتيح بطريقة تشبه كتابة النصوص بالآلة الكاتبة ، ومن ثم يمكن معالجتها وتخزينها . كما يمكن استخدام لوحة المفاتيح كوسيلة اتصال مع المحطة أو الشبكة الرئيسية ووحدة المعالجة الرئيسية والشاشات المتصلة بالشبكة ، وكذلك فى إدخال أوامر تشغيل الجهاز وأوامر تنظيم البرامج المستخدمة ، وأوامر إدخال وإخراج المعلومات الرقمية وتحريكها من شكل إلى آخر .

رابعاً : طرق عرض المعلومات

يتم عرض المعلومات الرقمية التى تم إدخالها وتسجيلها فى الحاسب الآلى فى صورتين :

١ - الصورة الرقمية Raster Image : تعرض الخريطة على شكل شبكة من الارقام تمثل خلايا Cells (شكل ٧) ، ولتقريب تلك الصورة ، نفترض ان هناك فيلماً شفافاً مرسوم عليه شبكة من الخطوط الرأسية والأفقية تحصر بينها مربعات متساوية الاضلاع ، ويوضع هذا الفيلم فوق الخريطة ، ومن الركن الأيسر العلوى (الشمالى الغربى) يتم ترقيم المربعات الرأسية بدءاً من رقم (١) وفى اتجاه من اليسار إلى اليمين أى من الركن الأيسر العلوى إلى الركن الأيمن العلوى ، كما ترقم المربعات الأفقية بدءاً من رقم (١) وفى اتجاه من أعلى إلى أسفل أى من الركن الأيسر العلوى إلى الركن الأيسر السفلى . وبذلك يكون الفيلم الشفاف على شكل مصفوفة من الارقام تدل على الأعمدة (الرؤسيات) والصفوف ، (الأفقيات) ، ويمكن بواسطتها تحديد أى مربع عن طريق رقم الصف ورقم العمود ، ومن ثم يمكن تحديد أى معلومة على الخريطة بالتعرف على رقم المربع الذى يدل على موقعها . كما يمكن توقيع أى معلومة على الخريطة فى المربع المناسب وتأخذ رقم المربع الذى يدل على موقعها . ويقدم هذا المثال فكرة مبسطة ومختصرة عن الصورة الرقمية ، فالمربع فى الفيلم يمثل الخلية فى الصورة الرقمية . وتتكون كل خلية من مجموعة من النقاط تمثل عناصر الخلية Pixels . وعناصر الخلية هى وحدة الصورة داخل الخلية Picture Elements ، وكلما زادت تلك العناصر كلما زادت دقة ووضوح الصورة

٢ - الصورة التخطيطية أو البيانية Vector Image :. وهى تشبه الطريقة السابقة إلا أن الترميز يبدأ من الركن الأيسر السفلى (الجنوبى الغربى) ، وياتجاه الشمال بالنسبة للصفوف (الأفقيات) وياتجاه الشرق بالنسبة للأعمدة (الرؤسيات) (شكل ٨) . وتمثل الأعمدة الاحداثيات السينية ، والصفوف الاحداثيات الصادية . ويوضع الفيلم الشفاف فوق الخريطة ، وبذلك يتم تحديد

موقع المعلومة ، كما يتم تحديد نقطة بداية أية ظاهرة عن طريق احداثياتها السينية والصادية فى المربع المناسب ، وكذلك تحديد نقط تقاطع امتداد تلك الظاهرة أو حدودها مع أضلاع المربعات على الفيلم. وعند ربط هذه النقاط ببعضها يتم تحديد شكل الظاهرة ، وهذا ما يحدث فى الصورة التخطيطية عند عرضها على الشاشة. وتتأثر دقة تلك الطريقة تبعاً لدقة توقيع الاحداثيات وطريقة الربط بين النقاط المكونة للظاهرة والمسافات بين النقاط من جهة وبين مقدرة الشاشة وذاكرة الحاسب الآلى والبرامج المستخدمة فى عرض الصورة من جهة أخرى.

ويجب على الخرائطى أن يدرك أن ما يراه على شاشة الحاسب ليس بالضرورة هو ما سيحصل عليه فى الخريطة النهائية. ويرجع ذلك الى أن ملف الرسم هو الذى سيتم طباعته ولكن بعد ادخال عدد من المعالجات عليه.

مجالات الاختلاف بين الخريطة المعروضة على شاشة الحاسب والخريطة النهائية : يوجد أربعة أشكال من الاختلاف هى :-

١ - الاختلاف فى اللون.

٢ - الاختلاف فى نوع الخط، ويرجع ذلك الى أن الخريطة النهائية تحتوى على عدد كبير من أنواع الخطوط، وهذا من الصعب إظهاره ورؤيته على شاشة الحاسب.

٣ - الاختلاف فى سماكة الخطوط، حيث أن عملية رؤية سماكة الخطوط على شاشة الحاسب أمر غير دقيق، ذلك لأن العمل على شاشة الحاسب يتطلب استخدام عملية التكبير والتى لا تعطى انطباعاً صحيحاً عن مقدار السمك الحقيقى الذى سيتم الحصول عليه فى الخريطة النهائية.

البرامج المستخدمة فى عرض الخرائط بواسطة الحاسب الآلى : يعتمد عرض المعلومات والبيانات الخرائطية على نوعية البرامج المستخدمة وهى :

١ - البرامج المساعدة فى رسم الخرائط بالحاسب الآلى مثل برنامج (Computer Aid Design (CAD وبرنامج (Computer Assisted Cartogra- (CAC phy. وتشبه هذه البرامج فى أسلوبها طرق الرسم التقليدية ، ولكن بدلاً من استخدام أقلام التحبير والمسطر والمنحنيات، تستخدم مجموعة من الأوامر والأجهزة المساعدة مثل منضدة الإدخال الرقمى والمؤشر والقارة ولوحة المفاتيح. وتقدم هذه البرامج مستوى رسم عالى الدقة إذا ما قورن بالطرق التقليدية ، بالإضافة إلى ما تقدمه من امكانيات فى تصميم الخرائط والتحويل من مقياس رسم إلى آخر.

ويمكن هذه البرامج من رسم أشكال النقط والرموز الهندسية المجردة والخطوط بأنواعها المستقيمة والمنحنية والمتعرجة وفي سماكات مختلفة طبقاً للمواصفات الفنية للخرطة ومقياس الرسم. كما تحوى إمكانات الترميز والتظليل وإضافة الألوان المناسبة وكتابة التسميات ، وكذلك إمكانية إزالة الأخطاء والتعديل والحذف وإضافة وإمكانات التوجيه الجزئى والكلى للظاهرة أو الخريطة ككل. وأيضاً إمكانية طبع الخريطة النهائية على لوحة ورقية أو على أفلام بواسطة الراسمات Plotters.

ويشبه استخدام هذه الأجهزة والبرامج فى رسم الخرائط الطرق التقليدية المعروفة فى الرسم، إذ تتيح للخرائط حرية تنظيم وترتيب المعلومات ، كما تعتمد على مهارته فى انخال وتحليل ومعالجة البيانات والمعلومات. وتستخدم هذه البرامج فى رسم الخرائط المساحية التفصيلية Cadastal Maps والخرائط المستوية Planimetric Maps وخرائط الطرق وخرائط الحدود والخرائط السياحية والتاريخية. ولكن هذه البرامج غير مرنة أو عملية فى رسم الخرائط الموضوعية Thematic Maps أو رسم الخرائط من الصور الجوية أو من مرئيات الاستشعار من بعد لأنها تحتاج إلى وقت وجهد كبير. ويرجع ذلك إلى أن إمكانية عرض الصورة النهائية التى تقومها تلك البرامج تعتمد على النمط التخطيطى Vector Type فى عرض المعلومات (Robinson & Jackson, 1985)

٢ - برامج رسم الخرائط آلياً Automated Mapping System (AMS) : تعتمد هذه البرامج على أنظمة يقل فيها إلى حد كبير الاعتماد على تعليمات الخرائط كما هو الحال فى البرامج السابقة . وتركز حرية الخرائط فى اختيار الأوامر المناسبة أو الاختيارات التى يقدمها البرنامج المستخدم أثناء عملية الرسم ، ويقوم البرنامج بتفسير تلك الأوامر والاختيارات المطلوبه وتنفيذها وعرضها على الشاشة .

الراسمات : Plotters تعتبر الراسمة الرقمية بواسطة الأقلام أو إبرة الخش من أكثر الراسمات استخداماً، وهى نوعان :

١ - راسمة رقمية ذات سطح مستوي يمكنها الرسم على اللوحات الورقية والأفلام ، وذلك بتثبيت اللوح على سطح الراسمة الذى يوجد عليه حامل أقلام أو إبرة الخش . ولهذا الحامل حركتان: الأولى فى اتجاه محور السينات والثانية فى اتجاه محور المصادات وذلك لرسم أى ظاهرة طبقاً لاحتياجاته.

٢ - راسمة رقمية اسطوانية تقوم بتحريك اللوح في اتجاه محور الصادات ، بينما يتحرك حامل الأقلام في اتجاه محور السنيات.

والأقلام المستخدمة في تلك الراسمات إما أن تكون أقلاماً جافة Ball Point أو أقلاماً ذات سن من اللباد Felt - Tip. ويتم رسم الصورة الرقمية Raster على طابعات خاصة مثل الطابعة النقطية Standard Dot Matrix Printer أو الطابعة الملونة Ink - Jet Printer أو طابعات الليزر Laser Printers. وتستخدم الطابعات النقطية الملونة محلول طباعة Liquid Toner لانتاج الرسومات الملونة أو الرسومات بالأبيض والأسود .

وحدات التخزين Storage Units : يتم تخزين البيانات والمعلومات التي تم ادخالها حتى يمكن استرجاعها عند الحاجة وإعادة تشكيلها في صور مختلفة . وتشمل وحدات التخزين :

أ- التخزين في أقراص ممغنطة أو صلبة ثابتة Magnetic or Hard Disk Storage.

ب - التخزين على اشرطة ممغنطة Magnetic Tapes.

ج- التخزين على أقراص مرنة ممغنطة Floppy Diskettes.

وتعتمد قدرة وحدة التخزين على سعتها التي تقدر بالميجابايت Mega Byte أو بالجيجابايت Giga Byte. كما تتميز وحدات التخزين بقدرتها على خزن كميات ضخمة من المعلومات والبيانات في حيز محدود ، وإمكانية استعادتها وعرضها وتصحيحها وتعديلها وتحديثها . وكذلك تبادل المعلومات آلياً بين وحدات التخزين وبينها وبين وحدة التخزين الرئيسية .

خاتمة ...

نحن أمام تيار منهجى جديد فى البحث الخرائطى الذى أصبح واقعاً ملموساً ، ولم تظهر حتى الآن ردود أفعال مضادة له ، وليس أمامنا إلا أحد طريقين : إما أن نفوت على أنفسنا هذا التيار الجديد بحجة قلة امكانياتنا المادية فى توفير الأجهزة والبرامج اللازمة للتدريب ، وهى حجة قد تخفى وراءها عدم الرغبة فى التعرف على ما تتطوى عليه هذه الوسائل الجديدة من مزايا ينبغي معرفتها ، وإما أن نأخذ بهذه الوسائل الجديدة فى دراساتنا وخططنا العلمية فى المرحلة الجامعية الأولى وفى مرحلة الدراسات العليا ، وأن نعمل على توفير معمل خرائطى حديث قد يبدأ صغيراً ويامكانيات محدوده ولكنه سوف يكبر ويتطور بعد ذلك .

وينطوى الطريق الأول على نزعة سلبية يكمن وراءها الخوف من كل جديد وعدم الرغبة فى بذل الجهد ، بينما يعكس الطريق الثانى نزعة ايجابية تضيف إلى مالدينا حتى نصل الى الغاية العلمية السامية . ولا يمنع ذلك الجمع بين الأسلوب الخرائطى التقليدى فهو الأساس والقاعدة العلمية الصلبة التى لا غنى عنها ، والأسلوب التقنى الحديث فهو مكمل وملازم .

المراجع الرئيسية

أولاً : المراجع العربية

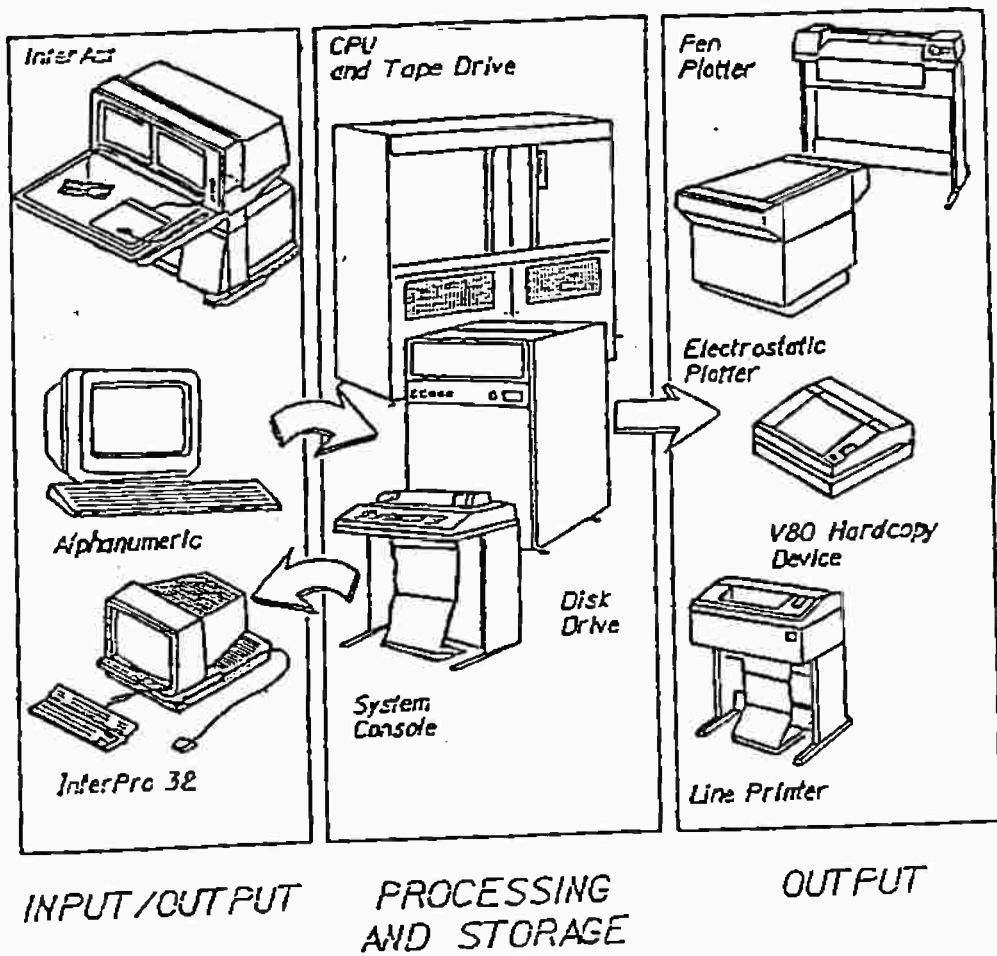
أحمد أحمد مصطفى (أ) : نظم البيانات الجغرافية المكانية باستخدام الحاسب الآلى . مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، الاسكندرية - ١٩٩٠ .

_____ (ب) : التحليل الرمزي لبعض الظواهر الجيومورفولوجية فى أنشاء الخريطة الكنتورية بالحاسب الآلى . مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٩٠ .

ثانيا : المراجع غير العربية

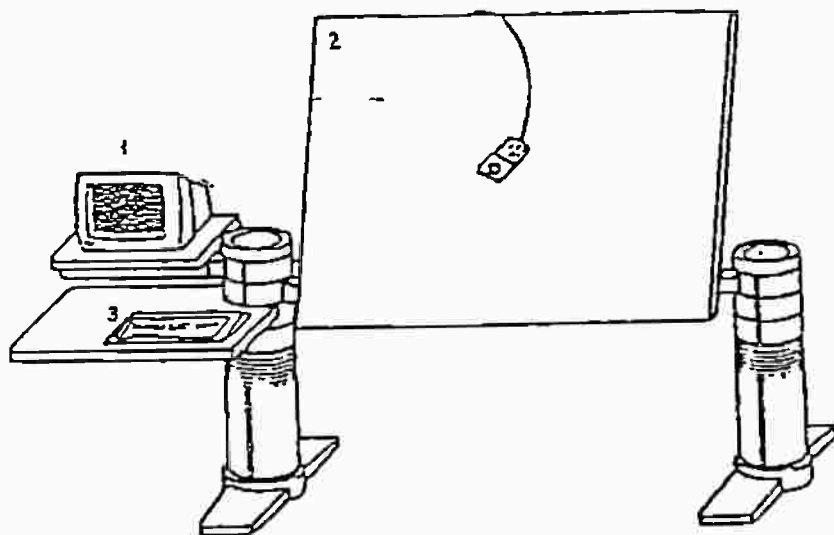
- Baudelair , p. & Stone, M., 'Techniques For Interactive Raster Graphics.' Computer Graphics, Vol. 14, PP. 314 - 320, 1980.
- Battenfield, B.P., 'Digital Definitions of Scale - Dependent Line Structure.' Proceeding, Auto - Carto, Vol.1, PP. 497 - 506, London, 1986.
- _____ , 'A Rule For Describing Line Feature Geometry.' In : 'Map Generalization For Knowledge Representation. 'Edited by : B.P.Battenfield & R.B. McMaster, Longman Ltd., London, 1991.
- Jensen, J.R., 'Introductory Digital Image processing.' Englewood Cliffs, prentice - Hall, New Jersey, 1986.
- Palmer, B., 'Symbolic Feature Analysis and Expert systems.' Proceeding of the International Symposium on Spatial Data Handling,

- Robinson A.H. & Sale, R.D. Elements of Cartography.' 3 rd.Edit. John Wiley and Sons Ltd., New York, 1969.
- Robinson, G.& Jackson, M., ' Expert Systems in Map Design.' Proceeding, Seventh International Symposium On Computer - Assisted Cartography, Auto- Carto, Vol.7,PP.330 - 339 , London, 1985.
- Shiryayev, E.E., ' Computers and the Representation of Geographical Data.' John Wiley and Sons Ltd., London, 1987.
- Wang., D.C.C., Vagnucci, A.H.& Li, C.C., 'Digital Image Enhancement : Asurvey.' Computer Vision , Graphics and Image Processing, Vol.24, PP. 363 - 381, 1983.



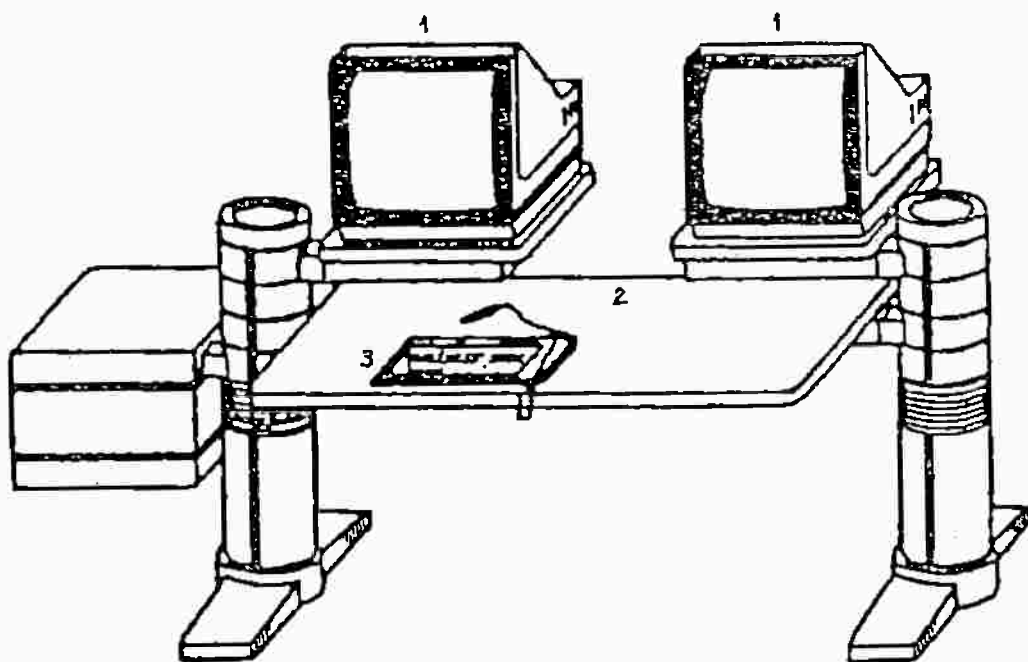
شكل (١) أجهزة الرسم الرقمي

DIGITIZING STATION

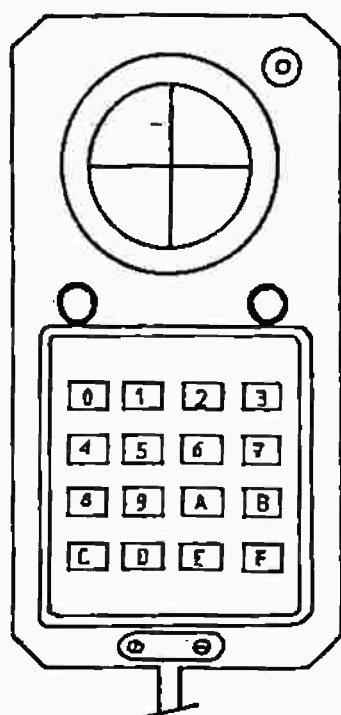


- 1 • GRAPHIC MONITOR
- 2 • DIGITIZER
- 3 • KEYBOARD

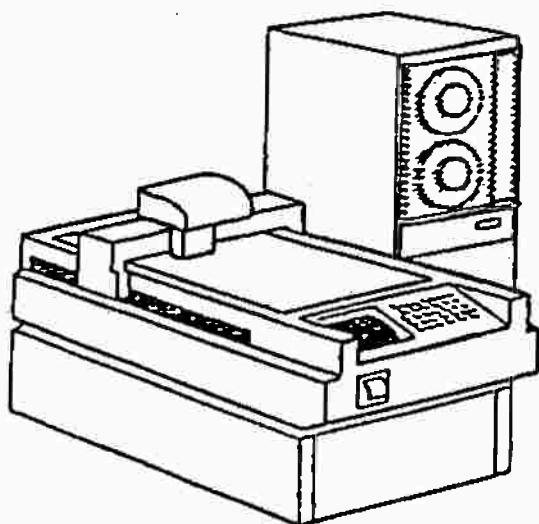
شكل (٢) منفذ الإدخال



شكل (٣) منفذ الإدخال اليدوي



شكل (٤)
مؤشر وموجة

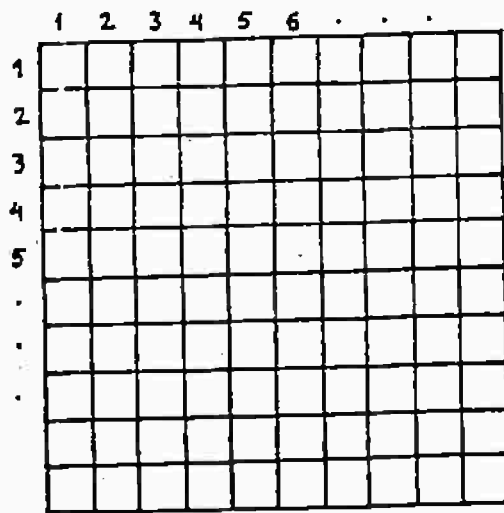


شكل (٦)
جهاز الفرز أو المسح الترانزيتي

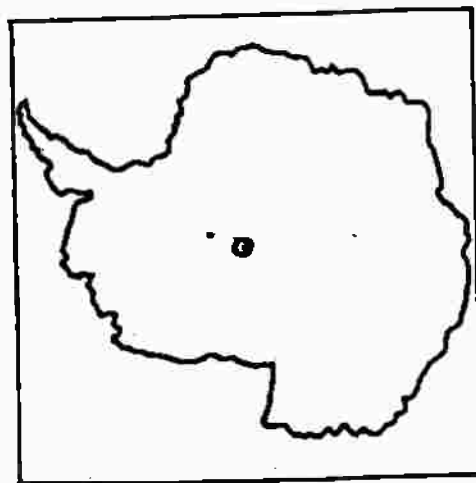
E.TOWN	A.TOWN	E.SUBURB	A.SUBURB	E.VILLAGE
AVILLAGE	E.DEPART	A.DEPART	NOP	NOP
E.LARGMT	A.LARGMT	E.MEDMT	A.MEDMT	E.MOUNTAIN
A.MOUNTAIN	E.SMALLMT	A.SMALLMT	NOP	NOP
E.LLAND	A.LLAND	E.MLAND	A.MLAND	E.NLAND
A.NLAND	E.SLAND	A.SLAND	NOP	NOP
E.NOMAD	A.NOMAD	E.MIN-OU	A.MIN-OU	E.LAND-MK
A.LAND-MK	E.PWP-SIA	A.PWP-SIA	E.OP-SUR	A.OP-SUR
E.OP-UNGR	A.OP-UNGR	E.OIL-TNK	A.OIL-TANK	E.OIL-WELL
A.OIL-WELL	E.OIL-PSTA	A.OIL-PSTA	E.OIL-SEPL	A.OIL-SEPL

GRAT. N	GRAT. S	GRAT. E	GRAT. W	SM. UTM. N
LG. UTM. N	SM. UTM. S	LG. UTM. S	SM. UTM. E	LG. UTM. E
SM. UTM. W	LG. UTM. W	SM. UTM. ORD	LG. UTM. ORD	NOP
TRAVERSE	BENCH-MK	LN-LINE	LN-MARK	DUAL-RD
MAIN-RD	SEC-RD	DUAL-ROUD	MAIN ROAD	SEC-ROAD
MAIN TRACK	SECTRAK	PATH	TUNNEL	BRIDGE
CULVERT	KM-MARK	EM-TEL	RW-LINE	RW-STA
BUT-AREA	BUILDING	NOMAD-SET	RUIN	GOV-OFF
MOSQUE	CEMETERY	HOSPITAL	POL-STA	FIR-STA
POST-OFF	SCHOOL	RADIO-STA	FACTORY	NOP

تابلو شکار (۵)



(٢) فيلم شفاف عليه شبكة الخطوط
الرأسية والدقيقة



(م) الخريطة المصدرة

	1	2	3	4	5	6	.	.	.
1					b	b			
2				b			b	b	b
3	b	b		b					b
4	b	b	b	b					b
5		b							b
.		b							b
.		b	b						b
.			b	b	b	b			b b
						b	b	b	b

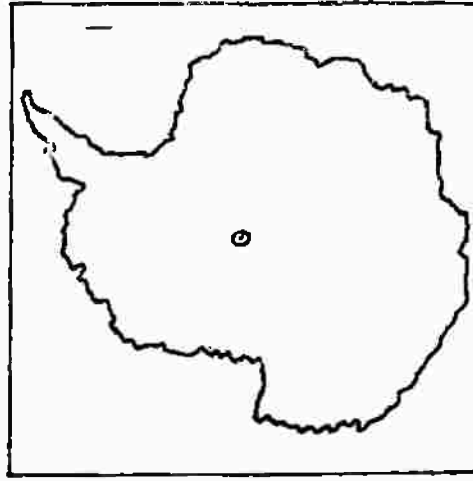
(أ) القيم الشفاف بعد توقيع المعلومات
الرقمية

شكل (٧)

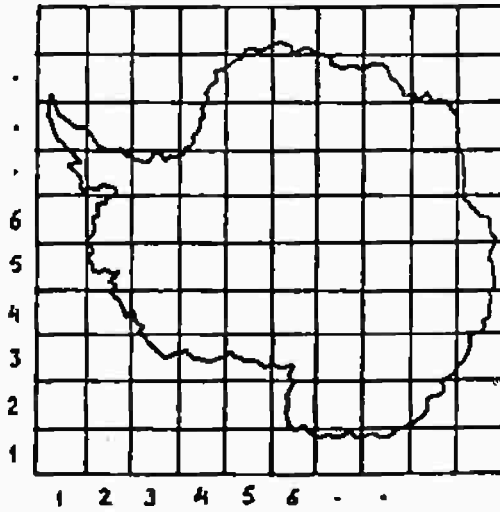
الصورة الرقمية لعرض المعلومات

	1	2	3	4	5	6	.	.	.
1									
2									
3									
4									
5									
6									
.									
.									
.									

(ب) القيم الشفاف



(ب) الخريطة المبدئية



(د) الفيلم بعد توزيع الخريطة

شكل (أ)

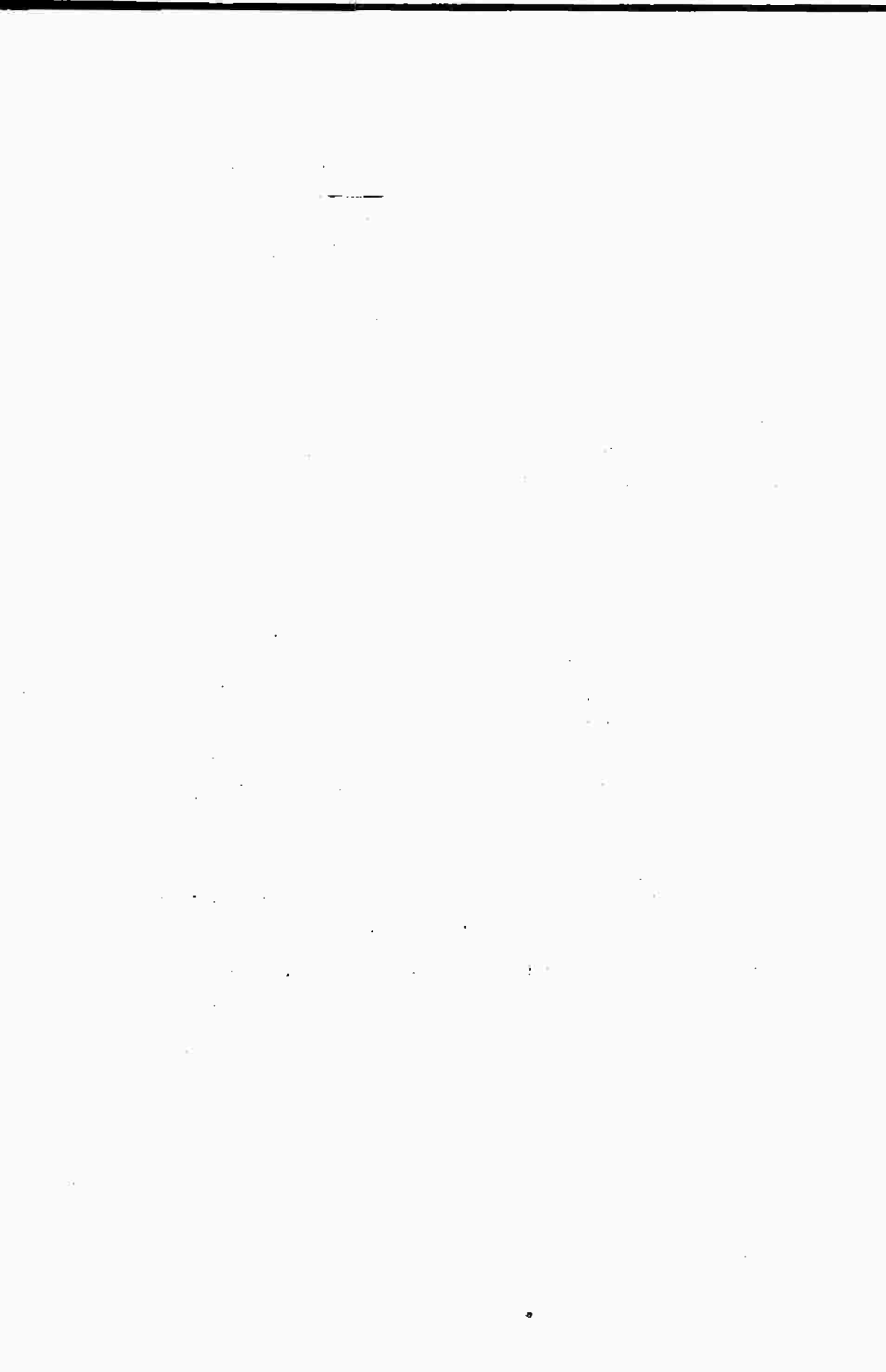
الصورة التخطيطية لعرض المعلومات



مناهج وأساليب البحث في جغرافية التنمية
- الإطار المرجعي -

دكتور
إبراهيم عبد العزيز زيادى

قسم الجغرافيا
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



١ - مقدمة :

تمثل جغرافية التنمية تجاها حديثا فى الدراسات الجغرافية، ومبحثا مؤداه للتوظيف الأمل لموارد البيئة بمعرفة إنسان يمتلك قبرا من المهارات المتولدة والمكتسبة والمنقولة.

و يرقى مفهوم جغرافية التنمية عن كونه مجرد فكرة لإشباع الحاجات - وإن كان ذلك من بين أهدافها - إلى مفهوم تنمية المكان والإنسان والزمان وتتم تنمية المكان بالاستقلال المخطط لموارده الطبيعية مع الحفاظ على البيئة من التلوث، وتحقيق تنمية الإنسان بقدر ما هو مؤهل له من تحديث لمهاراته وأدواته، على حين تعنى تنمية الزمان امتداد مردود التنمية لأطول فترة ممكنة.

و تتخذ جغرافية التنمية من نتائج البحث فى مجالات الجغرافيا الطبيعية والبشرية والاقتصادية، والتخطيط مداخلات لقاعدة ييقلت تؤكداه تنمية الاستشعار عن بعد، وترتب وتصنف باستخدام نظم المعلومات الجغرافية لتصبح متاحة عبر شبكات المعلومات. وتوظف هذه اليبقات فى تقييم للنماذج وتصميمها ومن ثم التطبيق، ومن بعده للتطوير.

و تهدف جغرافية التنمية إلى تحقيق ما يعرف بالتنمية المستدامة فى منظومة إقليمية تتربط وتتفاعل داخل الإطار العالمى فى محاولة لتضييق الفجوة بين كل من الشمال المتقدم ومن ثم الجنوب المتخلف، بفضل التوصل إلى أعلى قيمة مضافة لموارد البيئة الطبيعية. وتتعدد محاور التنمية ما بين التنمية الزراعية بصفة عامة وفي الأراضى شبة الجافة بصفة خاصة، وتنمية النبات الطبيعى فى المراعى والغابات، وتنمية للبيئة البحرية فوق الأرصعة القارية. وتشغل التنمية الصناعية جل اهتمام المشتغلين بجغرافية التنمية فى الحضر عامة ومن أجل للتنمية الريفية خاصة فى ظل ضوابط من شأنها الحفاظ على للتجانس البيئى.

و يمثل الإنسان المحور الرئيسى بين محاور جغرافية التنمية لأنه من خلاله، ومن أجله يتم استغلال مولد الحيز الجغرافى الطبيعية، ومن ثم تكون الأنشطة الاقتصادية. من أجل ذلك تكون التنمية البشرية السبيل إلى التنمية الاقتصادية. وتتم تنمية الإنسان بالاهتمام بالمستوى التنقى، ومده بالمعلومات وربطه بمناطق التقدم والسعى إلى تحقيق للنقلة الحضارية للتدرجية لكل شعوب العالم الثالث.

١-١- يرى هودر (Hodder)، وزميله، (١٩٧٤) ارتباط للتنمية بحسن اتخاذ القرار لتعيين الموارد البيئية واختيار الأساليب، وإتباع النماذج، وإنتهاج سياسة النمو المتكافىء، بالإضافة إلى تحديد الأهمية النسبية لقطاعات الإنتاج والخدمات، ويؤكد على ضرورة التعامل مع عملية التنمية فى إقليم بعينه كجزء من مشكلة عامة رغم تعدد المحاور ما بين التنمية المكائية غير المتكافئة وبين التنمية الشاملة، أو التنمية

على أساس الاهتمام البيئي والاستغلال الاقتصادي، وعلى الجغرافى أن يعمل على تحقيق التكامل بين كل هذه المحاور.

١-٢- يوضح ستريتن (Streeten)، (١٩٨٠) التحولات التى وجهت محاور جغرافية التنمية فى كل النظريات التى تربط بين التخلف وبين الاستعمار التقليدى قديما، والفكرى والاقتصادى حديثا ومعاصرا. ويعتبر النمو الاقتصادى من أهم معايير قياس للتنمية مشيرا إلى المشكلات التى يجب معالجتها من خلال جغرافية التنمية وهى نقص الموارد، وتلوث البيئة، والتباينات الإقليمية، بالإضافة إلى فشل خطط للتنمية بهدف إثباع الحاجات لرفع المعاناة عن كثير من دول الفقر فى أنحاء العالم.

١-٣- يعرض عارف ليلة، (١٩٨٣) لمفهوم التنمية من مدخل للتقدم والتخلف وفق معيارين أولهما كمي يعتمد على المقاييس المادية لعدد من المؤشرات المتباعدة مثل مستوى الدخل، الإنتاجية، معدل التراكم، معدل النمو، مستوى المعيشة. وثانيهما ينطج بعدا اجتماعيا ويخلص إلى أن مفهوم التنمية هو الوضع الذى يصبح فيه الإنسان فى موقف إيجابى ونشط تجاه ظروف وجوده الطبيعية والاجتماعية.

و يقدم عرضا لخصائص نموذجين للتنمية أحدهما النموذج الأحادى، والآخر النموذج الشامل، اللذين استقطبا عددا من دول العالم المتخلفة، وما ترتب على ذلك من مشكلات أعاقَت الوصول إلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية الفاعلة. ويوضح الأيديولوجية الغربية التى تسعى للهيمنة على البلدان المتخلفة وجعلها تتورق فى فكها وما تطبقه من لمساج للتنمية تهدف إلى فتح أسواق لمنتجات الغرب، وتشجيع التوجه الاستهلاكى للدول المتخلفة.

و يخلص إلى أن لسرافجية تنمية يجب أن تقوم على عدالة التوزيع وإعادة توزيع الدخل القومى مع إحداث تغيير فى هيكليات الاقتصاد المتخلف بالاتجاه صوب التصنيع. مؤكدا على ضرورة استقلالية عملية التنمية والاعتماد على الذات، وأن توجه التنمية إلى الدخول شعب الحاجات وقضن لمشاركة التنمية.

١-٤- يشير محمد الصياد، (١٩٨٨) إلى حزمة تحقّق لهذا الاجتماعى من خلال برامج التنمية حيث تمثل النظم الاجتماعية فى الدول المتخلفة على علاقة صعبة للتنمية، حيث تسود الفردية وتضعف روح الجماعة. ويعتبر أن لقررتية حقيقة أحضط السكان على الموارد الأرضية بحيث تنوء بحبء الإغلاء ومن ثم يجب إعادة التوازن بين الإنسان والأرض حيث إن زيادة أعداد السكان تتطلب زيادة متعيلة فى النتاج القومى المعلى، ونقص السكان يلاذى إلى تطويل الموارد المتعلة ونقص الإنتاج.

١-٥- يشير براون (Brown)، (١٩٨٨) أن التنمية عملية متكاملة تتم من خلال تغيرات شاملة فى كل من البنية الاجتماعية، والاتجاهات والمظاهر القومية من

شأنها أن توظف موارد البيئة الطبيعية للتوظيف الاقتصادي الأمثل. ويتحقق للتنمية بزيادة معدلات النمو، وضمان عدالة التوزيع في آن واحد. وأكد أن دور جغرافية التنمية هو التركيز على دراسة التغير في الحيز الجغرافي سلباً وإيجاباً، والتعرف على عوامل هذا التغير سواء أكانت داخلية أم خارجية، ومدى الاستجابة المحلية لتأثير هذه العوامل، ويتطلب ذلك المعرفة بالظروف البيئية والعلاقات التبادلية. وعلى الجغرافي اختيار أفضل نماذج للتنمية سواء أكانت تقليدية أم حديثة بما يتفق والمكان ومع الأسس الاجتماعية، وعلى ضوء العلاقات الديناميكية بين الدول الفقيرة وبين ما تتلقاه من مساعدات خارجية مادية أو تكنولوجية ومدى ملائمتها لظروف المجتمع النامي الطبيعية والبشرية.

٦-١- يعرض بريان (Brian)، (١٩٨٩) لأهمية جغرافية التنمية بعد التغيرات التي شملت العالم واتضح خلال الثمانينيات من هذا القرن وظهور دول الغنى ومجموعة دول الفقر ويشير إلى عدم عدالة توزيع الموارد بين دول العالم اعتماداً على تقرير كل من البنك الدولي، ومنظمة الأغذية والزراعة للذين أوضحا أن نحو ١٥ ٪ من سكان العالم يخصصون بحوالى ٧٥ ٪ من الدخل العالمى، على حين بلغ نصيب نصف سكان العالم نحو ٥ ٪ فقط من هذا الدخل.

و يرجع ذلك إلى فشل خطط التنمية الاقتصادية في الدول الاشتراكية وفي مجموعة الدول التي اختارت أو فرض عليها التبعية حيث تم التخطيط للتنمية في غياب البيانات، وقصور البنية التحتية ونقل التشريعات، وتدخل الأساليب، بالإضافة إلى عدم انتماء الكيان الاجتماعى، ومن ثم اتسعت الفجوة بين دول الفقر وبين دول الغنى في الغرب وزادت أهمية جغرافية التنمية ودورها المنشود في إعادة التوازن بين الإنسان والبيئة وتحقيق قدر من عدالة التوزيع.

٢ - مناهج البحث في جغرافية التنمية

ترافق ظهور الدراسات الأصولية لجغرافية التنمية مع انتهاء الحرب العالمية الثانية وإعادة توزيع الثروات، ومن ثم وضوح الفوارق بين كل من دول الغنى وبين مجموعة دول الفقر. وترتب على ذلك إمكانية المقارنة بين دول الغرب الأوربي والأمريكي التي تميزت عن غيرها بارتفاع المستوى الاقتصادي والاجتماعى، وبين بقية دول العالم إلى حد أن أصبحت تجربة الغرب نموذجاً يحتذى به ويقاس عليه في التنمية.

وبعد لتخطيط المسليم نحو التنمية المستدامة Sustainable Development لعامل الأساسى في تقدم دول الغرب للتقى وتحقيق فوائض إنتاج مكنتها من رفع مستوى الخدمات ونوعيتها، وهيكلت لها الاستقرار الاقتصادى، ومن ثم الإبداع للكرى ثم الهيمنة. على حين ألت بعض العوامل الجغرافية والأيديولوجية إلى إقباع التنمية غير المتكافئة Uneven

Development فى بقية الدول، وأى نقل نماذج غير مناسبة إلى تناقص الناتج القومى المحلى Gross Domestic Product مع تزايد أعداد السكان إلى تخلفها.

و تلاحت مفاهيم التنمية فى محاولة للتوصل إلى فكر ومناهج بحث فى جغرافية التنمية بهدف الارتفاع بدول الفقر وتنمية مواردها الطبيعية والبشرية تنمية مستدامة. وظهرت أفكار منها النمو الاقتصادى Economic Growth، والتحديث Modernization، وعدالة التوزيع Distributive Justice، والتحول الاقتصادى الاجتماعى Socio - economic Transformation وتبلورت هذه الأفكار إلى مفهوم معاصر لجغرافية التنمية مؤداه إحداث التغيير فى الهيكل الاقتصادى وفى البنية الاجتماعية لدول التخلف، والتوجه نحو تغيير سمات المجتمعات للرفية، وربط الاقتصاد المحلى بالاقتصاد العالمى. وإبراز أهمية دور النظم السياسية فى توجيه خطط التنمية وتدعيم للتطبيق، وضرورة مشاركة قطاع الأعمال فى وضع خطط التنمية وتنفيذها وتقييمها، بالإضافة إلى النقل المنعقل للتكنولوجيا. وعلى ضوء هذا المفهوم تبلورت مناهج البحث فى جغرافية للتنمية والنظريات والأساليب.

٢-١- قدم محمد الزوكة، (١٩٧٤) عرضاً لعدد من مناهج البحث فى الجغرافيا الاقتصادية وليس هناك شك فى أهميتها كمناهج بحث فى جغرافية للتنمية وفق المفهوم المعاصر، إذ تشكل أطراً جغرافية عامة رئيسية تحكم الفكر وتوجه البحث نحو الهدف بإتباع الأساليب المناسبة وتحديد موارد البيئة الطبيعية، والحرف الأساسية التى يمارسها الإنسان فى بيئته، وقاعدة مهمة عند التخطيط ووضع نماذج التنمية.

٢-١-١-١-٢ المنهج الإقليمى : The Regional Approach

يختص هذا المنهج بدراسة الإمكانات الاقتصادية للإقليم وعلاقته بالأقاليم الأخرى، ومن ثم تأتى أهميته خاصة مع التوجه العالمى نحو نظام الاقتصاد الموحد. ويعطى هذا المنهج صورة عن الأنشطة الاقتصادية داخل الإقليم، وعن دور الإنسان فى استغلال الموارد، ومدى التكامل داخل الإقليم الواحد. ومن ثم إمكانية تحديد خطط التنمية الإقليمية وتقييمها وتقويمها واختيار النماذج التى تتناسب مع إمكانات الإقليم الطبيعية والبشرية سعياً وراء التنمية.

٢-١-٢-٢ للمنهج الموضوعى : The Topical Approach

يهتم هذا المنهج بدراسة الإنتاج والنقل والتسويق والاستهلاك لمورد اقتصادى معين ودراسة الظروف الجغرافية الطبيعية والبشرية التى تؤثر فى هذه العلاقات المتبادلة. أو أن تتم دراسة الإنتاج الاقتصادى من خلال الحرف الأولى التى يمارسها الإنسان وهى الزراعة، الرعى، الصيد البحرى، قطع الأخشاب، التعدين، والثانية التحويلية، والثالثة الخدمية، وحينئذ الرابعة التخطيط وتصميم البرامج والنماذج من أجل التنمية الاقتصادية.

٢-١-٣- المنهج الأصولي : The Principal Approach

يقوم هذا المنهج على الاهتمام بالتركيب الاقتصادي والعوامل الجغرافية الطبيعية والبشرية التي تؤثر فيه، وما ينتج عن هذا التكثير من نظم تتحكم في الإنتاج، ومن ثم يعتبر منهجا مناسباً للبحث في جغرافية التنمية التي تهتم بالجانب الحضري للسكان ومدى تقبلهم لنماذج التنمية من العالم المتقدم بقرى الموروث الحضري والعادات والتقاليد والنظام السيلفي التي تحكم الملوك الاجتماعي للسكان وتوجهه.

٢-١-٤- المنهج الوظيفي : The Functional Approach

يعد من أحدث المناهج الجغرافية بصفة عامة، ويهتم بتحليل التركيب الوظيفي للنظم الاقتصادية في ضوء التطور التاريخي ومراحل التأثير البشري على كل من الإنتاج والتبادل السلي أو الخدمي. وتعتمد الدراسة على الوحدات الإنتاجية وقوة العمل، وتكنولوجيا الإنتاج، والتسويق، وبيان دور النشاط الاقتصادي في الاقتصاد القومي ومدى ارتباطه بالاقتصاد العالمي.

٢-٢- عرض محمد الفراء (١٩٨٠) لعدد من مناهج البحث الجغرافي في بحثه عن المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي من أهمها منهج الاستقراء، ومنهج الانتشار.

٢-٢-١- منهج الاستقراء : The Inductional Approach

يهدف هذا المنهج إلى دراسة المواقع الجغرافية من خلال عرض لخصائص البيئة الطبيعية وتوزيع السكان وأنشطتهم الاقتصادية، وتوقع هذه الخصائص على الخرائط ثم ترتيبها وتصنيفها إلى أنماط وتحديد العلاقات فيما بينها. وتصاغ النتائج وتصمم النماذج من خلال الاستقراء والاستنتاج مما يمكن الجغرافي من اتخاذ القرار. ويهدف هذا المنهج في مجال جغرافية التنمية حيث يتم استقراء الواقع من خلال قواعد البيانات التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة مثل الاستشعار عن بعد ونظم المعلومات الجغرافية وشبكات المعلومات، وبالتالي تصميم نماذج التنمية المناسبة ووضع الخطط والتوجه صوب التنمية المستدامة لموارد البيئة.

٢-٢-٢- منهج الانتشار: Diffusional Approach

يقوم هذا المنهج على فكرة الحركة التي تحكم كل الظواهر الطبيعية والبشرية داخل الوحدات المكانية، ويكون دور الجغرافي أن يفسر التنظيم العام للأنماط الرئيسية بهدف تحليل المؤثرات التي أدت إلى نشأة هذه الأنماط من خلال دراسة النمط مكاني وتحليل العمليات والتوقع. ويستخدم هذا المنهج في دراسة الانتشار المكاني لعمليات التحديث ونمو الابتكارات وحركتها عبر روعس كبرى تنمية كبرى. ويهتم بدراسة هيرلوكية المستويات الحضرية تبعاً لوظائف مركز العمران الحضري التي تؤثر في أقاليمها بدرجات متفاوتة

من النفوذ والقوة والتعدد والمدى. وعلى هذا تتم دراسة حركة التنمية الإشعاعية من المراكز العمرانية إلى الظهير الأقل تنمياً بدرجة تتناسب طردياً مع حجم المركز العمرانى المؤثر ووظائفه .

٢-٣- قدم فلاورديو (Flowerdew)، (١٩٨٢) لمنهج من مناهج جغرافية التنمية يعرف بالمنهج المؤسسى.

- المنهج المؤسسى : The Institutional Approach

تعتمد ركائز هذا المنهج على التعرف على مدى فعالية المؤسسات والهيئات القطاعية والإقليمية فى اتخاذ القرار لدعم التنمية. ويقوم هذا المنهج على مبدأ السببية التراكمية من خلال عدم التكافؤ الإقليمى فى ظل تأثير السوق الرأسالية، ويبحث فى موضوع التنمية غير المتكافئة وأسباب التخلف والبنية الاجتماعية والفوارق الطبقة، ومن ثم فإن الدراسة تشتمل على كل من تنمية الموارد الطبيعية والموارد البشرية والعمل نحو إحلال التنمية للمستدامة محل التنمية غير المتكافئة.

٢-٤- أوضح فوريس (Forbes)، (١٩٨٤) الخطوط الرئيسية لمنهج إقليمى فى جغرافية التنمية يهتم بدراسة الموضوعات الإقليمية والمبادئ التقليدية للتوازن الاقتصادى. ويرتكز على عدد من نتائج للتطبيقات الميدانية لنماذج التنمية، ويعد تطويراً للمنهج الإقليمى العام المستخدم فى الدراسات الجغرافية.

- المنهج الإقليمى للتنمى : The Regional Development Approach

يعتمد هذا المنهج على دراسة التنمية من خلال تحديد مدى للتوازن الاقتصادى بين موارد الإقليم وبين السوق، حيث إن عدم التوازن الإقليمى يمثل ظاهرة انتقالية تنقضى مع لتوجه نحو التنمية للمستدامة لتتكامل مع عامل السوق فتتحقق الكفالية الذاتية. ويشتمل هذا المنهج على ثلاثة محاور للبحث الجغرافى فى جغرافية للتنمية هى :

أ - يتركز البحث داخل الدول النامية على دراسات القلب والهوامش والعمل على نمو القطاعين معا من خلال بحث أساليب التحديث والتنمية البشرية، وتحديد معوقات التنمية ووضع الحلول واختيار نماذج تقوم على الاعتماد على الذات.

ب - الاهتمام بدراسة التغيرات التى تحدث فى مواضع معينة من العالم الثالث، ورصد الواقع تمهيدا لتطبيق الأساليب التفصيلية فى العلوم الإنسانية والتي من شأنها أن تؤدى إلى تحقيق التنمية.

ج - دراسة أساليب معالجة التباين فى درجة النمو الاقتصادى على مستوى الدول ومراحل البناء الاقتصادى ومعدلات التنمية بين الدول الفقيرة بهدف تقليص الفوارق.

٢-٥- حدد هاموند (Hammond)، (١٩٨٥) مناهج البحث الجغرافى الأصولية فى كل من المنهج الوصفى، والمنهج الكمى، والمنهج الاجتماعى، وأشار إلى أن أدوات البحث تتمثل فى كل من المفهوم، والنظم، وتحليل السلوك، والإدراك والتسببية. وأكد على أهمية التحليل المكاني، وأساليب التفسير، واستخدام النظريات والنماذج كطرق للبحث.

- منهج التحليل المكاني : The Spatial Analysis Approach

يهتم هذا المنهج بدراسة المظهر المكاني وتنظيمه، وأنماط توزيع المراكز العمرانية والأنشطة الاقتصادية وتعليل هذا التوزيع. ويهتم بمحاور ثلاثة ذات مجال هندسى فى إطار التوزيع هى المواقع Locations، والتفاعلات Interactions، والأقاليم Regions، يتم وصفها وتعريفها، ومن ثم تصنيفها فى هيراركية من شأنها تحديد العلاقات وشرح الأنماط. مما يتيح لصانع القرار التعرف على مشكلات البيئة المحلية، والصراعات المحلية والدولية، وعدم عدالة التوزيع وغيرها من معوقات التنمية ووضع الحلول واختيار النظريات والأساليب بهدف التوصل إلى نموذج مناسب للتنمية المستدامة للمكان.

٢-٦- قدم يسيونى عبد الرحمن، (١٩٩٤) شرحاً لأهم الاتجاهات التى اشتملت عليها المناهج المعاصرة للبحث فى جغرافية التنمية من خلال نموذجين أحدهما ينتمى للفكر الغربى والآخر يعد امتداداً للفكر الماركسى.

٢-٦-١- للمنهج النيوكلاسيكى : The New Classical Approach

يهتم المنهج النيوكلاسيكى بدراسة مشكلات التنمية ومعوقاتها فى الحيز الجغرافى التى من شأنها الحد من نجاح التنمية ويترتب على حلها دفع عجلة التنمية. ومن أهم هذه المعوقات رعوس الأموال والتكنولوجيا الحديثة وتوافر الأسواق القادرة على استيعاب المنتج بعد تحقيق التنمية وهى أمور نجحت التجربة الغربية الرأسمالية فى تطبيقها والوصول إلى أعلى معدلات التنمية للمستدامة وقد شجع ذلك منظرى هذا المنهج إلى المنداة بتطبيقه فى دول تختلف دون اعتبار للظروف الجغرافية لكل دولة طبيعياً وبشرى، الأمر الذى لم يمكن من نجاح التجربة. وترتب على نتائج التطبيق إدخال عدد من المتغيرات على فكر هذا المنهج من أهمها مراعاة التباين الجغرافى والمستوى التكني لمواضع التطبيق، ومن ثم التعامل مع كل إقليم تبعاً لظروفه واحتياجاته.

ويدور فكر هذا المنهج حول حتمية التوجه إلى التنمية الصناعية بهدف التصدير ولتصاص العمالة الزائدة من المجتمعات الزراعية مع رفع معدلات الاستثمار المنتج، وبالتالي زيادة القيمة المضافة للموارد الطبيعية والبشرية. والتأكيد على ضرورة تحقيق التوازن فى التنمية الاقتصادية فى كل أقاليم الحيز الجغرافى أو ما يعرف بالتنمية الشاملة، على أن تمثل الأبعاد المكانية عنصراً مهماً من عناصر التخطيط واتخاذ القرار.

٢-٦-٢- المنهج الراديكالى : The Radical Approach

و يعرف بالمنهج البنائى، ويمثل امتدادا للفكر الماركسى فى مجال التنمية، يربط بين كل العوامل فى إطار نظام اجتماعى غير خاضع للقيود المؤسسية بهدف تحقيق تنمية تتصف بالعدالة الاجتماعية داخل إطار اقتصادى محلى متكامل، ويؤكد هذا المنهج على ضرورة الأخذ بنظام مركزية التخطيط واتخاذ القرار على المستوى القومى، مع إصلاح الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بالإضافة إلى حتمية الحد من سيطرة الصفوة من كبار الملاك والتجار وزمن تأثيرهم على مسار عملية التنمية. ويدعو هذا المنهج إلى ضرورة الأخذ فى الاعتبار عند التخطيط للتنمية المستدامة بالظروف الجغرافية لكل إقليم، مع الاستعانة بالخبرات المحلية.

٣ - معايير التنمية وأساليب القياس والتنظير

ينبنى التنظير على نتائج التطبيقات العملية لمناهج البحث من خلال أربع مراحل رئيسية تبدأ بمرحلة البحث وتحديد المشكلة وعرضها، ثم عملية الفرضية لعدد من الحلول، يليهما مرحلة التطبيق التى يتم من خلالها اختبار الفرض ومدى صلاحيتها لحل المشكلة، وتمثل مرحلة التنظير آخر هذا المراحل حيث يتم ربط الفرضيات التى أثبت التطبيق صحتها وملاءمتها لحل المشكلة.

٣-١- يتم قياس التنمية على أساس عدد من المتغيرات التى تعكس التفاعل بين النظم وبين المجتمع، وتعتمد دقة القياس على دقة وكم البيانات المتاحة وطبقا لمستوى جمعها ودرجة الثقة بها. وتعتبر العلاقة الارتباطية بين هذه المتغيرات مؤشرا للتنمية، ومن ثم يكون تفسير الانحرافات الناتجة عن مؤشر بعينه ومعالجتها فى إقليم الدراسة وفقا للظروف الجغرافية السائدة. وقد حدد كوكس (Cox) (١٩٧٢) عشرين معياراً اقتصاديا واجتماعيا لقياس مستويات التنمية، قام بتطبيقها وأثبتت جدواها، إذ حصلت الدول المتقدمة على رتب عالية ميزتها عن الدول المتخلفة. ووضع بارك (Barke) وزميله (١٩٨٤) ثمانية وعشرين معيارا للتمييز بين كل من الدول المتقدمة وبين الدول المتخلفة، منها أربعة عشر معيارا اقتصاديا وثمانية معايير اجتماعية، وستة منها حضارية وسياسية. وتميزت معايير بارك بنتائجها الوصفية التى مكنت من التحديد المتكامل لدول التقدم ودول التخلف. ونجح بريان (Brian)، وزميله، (١٩٨٩)، فى وضع ثلاثة وأربعين معياراً لقياس التنمية، وأخضع الوحدات المكانية للقياس والترتيب فى رتب أوضحت مدى الفوارق بين دول الغنى المتقدمة وبين مجموعة دول الفقر.

٣-٢- يستخدم فى قياس التنمية أساليب كمية بعضها تقليدى، يتطلب جهداً ووقتاً، وتظل نتائجه غير مؤكدة تبعا لمعايير الثقة فى البيانات. ويعتمد البعض الثانى على توظيف تقنية الحاسب الآلى، والاستعانة بعدد من البرامج تيسر للجغرافى وصانع

القرار للتوصل إلى نتائج يمكن الاعتماد عليها عند وضع خطط للتنمية المستدامة. وتستخدم في تصميم أو اختيار نماذج التنمية التي تتلاءم مع الواقع البيئي والاجتماعي للحيز الجغرافي محل الدراسة. ومن أهم الأساليب الكمية المستخدمة الحواسيب الآلية لأسلوب العوامل المتعددة للتقسيم والتصنيف وعرض البيانات، وأسلوب تحليل الانحدار متعدد العوامل أو أسلوب المطابقة أو الاعتماد وأسلوب تحليل العوامل.

٣-٢-١- أسلوب العوامل المتعددة للتقسيم والتصنيف وعرض البيانات :

Mul

Presentation -

Kruskal and Wish 1978.

ويغيد استخدام هذا الأسلوب في دراسة الموارد البيئية الطبيعية والبشرية والاقتصادية، والعوامل التي تؤثر فيها وأهميتها والعلاقات التي تحكم لتطورها، ومن ثم التقسيم والتصنيف. ويحدد هذا الأسلوب التماثل بين مجموعة العوامل Test of Similarity وتصميم العوامل المتمثلة إلى مجموعات Cluster Analysis وتوزيعها على شكل متعدد الأوجه Multidimensional Scal. ويتم معالجة البيانات لعملية موضع التحليل لتكون النتائج كما يلي :

- تحديد مدى التشابه بين مجموعات العوامل داخل الوحدات المكانية المختلفة.
- توزيع الوحدات تبعاً للتماثل في العناصر وتأثير العوامل في منظومة وفق درجة التشابه التي تعرف بشجرة التماثل Dendrogram. وقد تم تطبيق هذا الأسلوب بمعرفة كل من توماس (Thomas) وزميله (1990) (زيلي، 1990) في تحديد العوامل المؤثرة في النشاط الاقتصادي، وتقسيم الوحدات الجغرافية إلى مجموعات من حيث التماثل، فألت في التوصل إلى نتائج بحثية في جغرافية التنمية.

٣-٢-٢- أسلوب تحليل الانحدار متعدد العوامل :

Stepwise Multiple Regression, Hiddy and Dellon, 1980 .

تحدد نتائج تطبيق هذا الأسلوب الكمي مدى تأثير العوامل الرئيسية والثانوية على الظاهرة الجغرافية داخل المكان محل الدراسة، مثل العوامل التي تحدد اتجاه التنمية، أو تعمل على إعاقتها، أو العوامل التي تؤثر على أنماط استخدام الأرض، أو العوامل التي تؤثر في الإنتاج والاستهلاك كماً ونوعاً. وترتب العوامل تبعاً لأهميتها بما يمكن من اختيار نموذج التنمية الأمثل على ضوء العوامل الأوضح أثراً^(١).

(١) معادلة تحديد الإندلر متعدد العوامل :

$$y = A \pm (b_1 x_1) \pm (b_2 x_2) \pm (b_3 x_3) \pm \dots$$

(t₁) (t₂) (t₃)

حيث (y) العامل محل الدراسة ، (x) مجموعة العوامل المؤثرة ، (b) ثابت القيم ، (A) الثابت العام ، (t) معيار الثقة .

و قد طبق الكريونى (El-Kariony)، وزميله (١٩٩٥) هذا الأسلوب عند دراسة إنتاج الأسماك واستهلاكها فى مصر والعوامل التى تؤثر فى كمية الإنتاج، وفى طبيعة الاستهلاك وموسميته .

٣-٢-٣- أسلوب المطابقة أو الاعتماد

Corresponding Analysis - NCSS, USA Prog., 1994.

يستعان بهذا الأسلوب الكمى فى تحديد العامل الجغرافى الأكثر اعتماداً عليه (عامل الصفة الغالبة) لظاهرة معينة من بقية العوامل المركبة للظاهرة، وكذلك المقارنة بين كل العوامل. وتترجم النتائج على شكل مجموعات، ويحدد الاتجاه العامل الغالب ونسب الاعتماد عليه بالنسبة لكل مجموعة. ويناسب هذا الأسلوب الدراسات الخاصة بجغرافية التنمية إذ يحدد الصفة الغالبة على النشاط الاقتصادى داخل وحدات الإقليم الجغرافى، ومن ثم يتم توجيه خطط التنمية واختيار النماذج المناسبة لتحقيق التنمية المستدامة داخل الإقليم أو مجموعة من الأقاليم.

٣-٢-٤- أسلوب تحليل العوامل : PCA , 1994 - Factors Analysis

يساعد أسلوب تحليل العوامل فى تعيين العوامل التى تؤثر على عامل معين، وهى مرتبة ترتيبياً تنازلياً من المهم إلى الأقل أهمية، وتحدد درجة أهمية العامل وفقاً للقيمة المستخرجة من تطبيق هذا الأسلوب وتعرف بقيم Eigenvalue Percent التى ترتبط بقيم التباين المرافقة لكل عامل من العوامل. ويمكن هذا الأسلوب من تحديد العوامل المؤثرة فى توطن أنماط محددة من الأنشطة الاقتصادية فى الحيز الجغرافى، ومن ثم إمكانية التأكيد على تنميته أو الإحلال لنشاط بديل أعلى فى إنتاجيته مما يزيد من القيمة المضافة للبيئة الجغرافية، ويحقق أكبر قدر من التنمية المستدامة.

٣-٣-٣- نظريات جغرافية التنمية :

يتم تطبيق مناهج البحث بإتباع الأساليب والطرائق والنظريات التى من شأنها أن تصل بالباحث إلى الهدف وفيما يلى عرضاً موجزاً لعدد من النظريات التقليدية والحديثة التى توجه مسار البحث فى مجال جغرافية التنمية.

٣-٣-٣-١- قدم صفوح خير، (١٩٧٨) عرضاً لعدد من النظريات التقليدية فى مجال البحث الجغرافى إلا أنها تمثل قاعدة أساسية للدراسات الجغرافية عامة، ويمكن استخدامها فى جغرافية التنمية إذ أنها تهتم بكل من النمط Pattern، والعملية Process، وهما من أساسيات الدراسات الجغرافية، وتعين هذه النظريات فى تفسير للتوزيع الحالى لأنماط للتوزيع المكانى، وتعليل عملية الارتباط بين مختلف الأنماط ومن ثم فهى تناسب منهج البحث فى جغرافية التنمية.

- نظرية فون ثونن **The Von Thunen Theory** فى تحديد مناطق الزراعة وأنماطها فى ظهور المراكز الحضرية وتفيد فى عمليات التنمية الريفية.
- نظرية فيبر **The Weber Theory** فى تحديد مواقع الصناعة، والعوامل التى تؤثر على قرار تحديد هذه المواقع.
- نظرية فتر **The Fetter Theory** فى تحديد الحدود الفاصلة بين مناطق النفوذ للأسواق المتجاورة داخل الإقليم، وبين الأقاليم المختلفة فى الحيز الجغرافى.
- نظرية كريستلر **The Christaller Theory** فى دراسة حركة النقل والمبادلة وتفسير خاصية التدرج، ونظم التباعد بين المراكز العمرانية.
- نظرية التآثير المتبادل **The Interaction Theory** فى تحديد الظهير الجغرافى وتوضيح العلاقات التكاملية بين الظواهر الجغرافية وبين المواقع.
- نظرية نقطة الانقطاع **The Breaking - Point Theory** فى تحديد الحدود التى تفصل بين أقطاب الهيمنة، ومن ثم تتضح السمات التى تميز كل إقليم من حيث مدى نجاح خطط التنمية.

٣-٢-٣- عرض هانسن (Hansen)، (١٩٨١) است نظريات للتنمية تعالج مشكلة اختيار المواقع الملائمة للإنتاج الاقتصادى من شأنها أن تضمن التوزيع العادل للتنمية المستدامة على كل المستويات الجغرافية.

- نظرية النمو المتوازن :

تدعو هذه النظرية إلى توجيه الاستثمارات إلى عدد متنوع من الأنماط الصناعية يتولد عنها طلب على السلع، ومن ثم تتحقق لها صفة الاستمرارية، وترتبط هذه النظرية بين عملية التنمية فى الدول النامية، وبين الطلب على الإنتاج السلى إلا أنها لم تضع فى الاعتبار قدرة السوق على الاستيعاب، وكذلك عنصر المنافسة بين دول التخلف والدول المتقدمة ذات القدرة الإنتاجية منخفضة التكاليف.

- نظرية أقطاب التنمية :

تنادى هذه النظرية بفكرة للتنمية المركزة فى عدد محدود من المواقع، أو القطاعات يتم الاعتماد على مخزلاتها ومخرجاتها فى انتقال التنمية إلى بقية المواقع والقطاعات الأخرى ذات العلاقة المباشرة بالأقطاب. ويتم ذلك باستغلال الموارد المتميزة الاستغلال الاقتصادى الأمثل على ضوء القرار الجغرافى الذى يمكن من توظيف الاستثمارات فى المواقع الأكثر قابلية للتنمية بداية، ثم الأقل قابلية نسبياً، وهكذا يتم التوصل إلى التنمية الشاملة وتؤكد النظرية على أهمية الابتكار والتخطيط ونقل النماذج من خلال الأقطاب الأجنبية. ويسيطر مبدأ الهيمنة لوحدة اقتصادية على فكر هذه النظرية بسبب قوتها وطبيعة مواردها وأنشطتها الاقتصادية. وكذلك تأثير هذه الوحدة المهيمنة (القطب) على من يمدونها بالمواد الأولية، ومن ثم يتحولون تدريجياً إلى أقطاب جدد يجذبون إلى التنمية من حولهم.

- نظرية السببية التراكمية :

تقوم هذه النظرية على فكرة تصميم نموذج سببي دائري بسيط للتنمية له تأثيراته التراكمية المتوافقة مع العمليات الاقتصادية ومع البنية الاجتماعية. وتؤكد النظرية على أن التنمية المستدامة لموقع معين لها تأثير تراكمي وتوسعي للاقتصاد المحلي والخارجي يزيد من مكانه الموقع على حساب المواقع الأخرى، ومن ثم تبدأ الهجرة إليه من الظهير وإليه يتجه رأس المال، وفي ذات الوقت تزيد مخرجات الظهير من المواد الأولية وتتاح فرصة تنمية قطاعه الاقتصادية.

- نظرية للتأثير المتبادل بين القلب والهوامش :

تتفق هذه النظرية مع النظرية السببية التراكمية، إذ تتأدى بتطبيق نموذج للتنمية من خلال الابتكارات التراكمية والتي تنشأ في مراكز قابلة للتغير وقدرة على اكتساب الهيمنة وجذب الموارد، بالإضافة إلى إمكانية الابتكار والتحديث الاقتصادي والاجتماعي، ومن ثم تولف المعلومات للتراكمي وانتشار الابتكارات من القلب صوب الهوامش.

- نظرية الانتشار المتسلسل :

تمثل هذه النظرية نموذجاً للتنمية المكانية الزمنية يمكن المراكز الحضرية من تحقيق التنمية المستدامة والقدرة على الابتكار. وتنتشر التنمية وما يلازمها من ابتكارات من المراكز الحضرية على شكل أشعة نحو الريف بقدر حجم هذا المركز وتنوع وظائفه الاقتصادية والاجتماعية. وتؤكد النظرية على فكرة لنقل صور التغير الاقتصادي والاجتماعي من المراكز العليا إلى المراكز الأدنى منها مكانة لترتقى بها تدريجياً حتى تتحقق التنمية المستدامة لكل وحدات الإقليم من حول للمركز الحضاري.

٣-٣-٣- تبين من شبكة المعلومات العالمية (INTERNET)، (١٩٩٧) عند البحث في موضوع نظريات للتنمية من خلال قناة اتصال واحدة من بين عديد من القنوات أن هناك ما يقرب من مائة عنوان رئيسي يضم كل منها عددا من الموضوعات يتعذر حصرها بتدرج تحت مسمى نظرية التنمية Development Theory، ومن ثم تتضح أهمية التقنية الحديثة في أساليب الاتصال وتبادل المعلومات خاصة في فرع من فروع المعرفة الجغرافية يعتمد في فكره وأساليبه وتطبيقاته على النماذج المقارنة، وعلى قاعدة كبيرة للبيانات تمكن من اختيار النظرية المناسبة لظروف الحيز الجغرافي من أجل تمييزه تنمية مستدامة اقتصادياً واجتماعياً(١) .

(١) للملحق رقم (١) يوضح عدداً مختاراً من الموضوعات التي تم للتوصل إليها عبر شبكة المعلومات العالمية في ١٥/أغسطس / ١٩٩٧ .

<http://www.stile.lut.ac.UK/~gyedb/STILE/t0000425.html>.

٤ - نظم المعلومات الجغرافية وجغرافية التنمية

يمكن استخدام نظم المعلومات الجغرافية Geographical Information Systems (GIS) أسلوباً معاصراً في تهيئة قاعدة منهجية للمعلومات تعتمد على تكنولوجيا الاستشعار عن بعد ييسر للجغرافى عامة وللجغرافى المتخصص فى التنمية خاصة القدرة على حسن اتخاذ القرار أو اقتراحه لجهة الإدارة وصنع القرار والتنفيذ. وفيما يأتى عرض مسحى لعدد من التطبيقات التى اعتمدت على نظم المعلومات الجغرافية فى مجال جغرافية التنمية.

٤-١- أبرز أبو راضى، (١٩٩٢) دور منهج التكامل فى نظم المعلومات الجغرافية وأهمية توحيدها كمدخل لحل المشكلات البيئية بما يزيد من قدرة الجغرافى على المشاركة الفعالة فى مجالات التخطيط البيئى من أجل التنمية. وأكد على أهمية توفر المعلومات لكل من الجغرافى وصناع القرار من أجل التوصل إلى الحلول المناسبة لمعوقات التنمية. وأشار إلى دور نظم المعلومات الجغرافية التى تعتمد على تكنولوجيا الاستشعار عن بعد كأحد مصادر المعلومات عن الظواهر الجغرافية الثابتة والمتغيرة. وعرض لعدد من نظم المعلومات منها:

- نظم المعلومات الجغرافية (GIS)

Geographical Information Systems

- نظم المعلومات الأرضية (LIS)

Land Information Systems

- نظم المعلومات المكانية (SIS)

Spatial Information Systems

- نظم معلومات الموارد الطبيعية (NRIS)

Natural Resources Information Systems

ويخلص إلى ضرورة العمل على توحيد هذه النظم حتى تصبح أكثر إفادة وأشمل فى المعلومة.

٤-٢- عرض جوردن (Gordon)، وزميله، (١٩٩٢) نموذجاً لاستخدام نظم المعلومات الجغرافية فى إجراء ما يعرف بالمسح البريدى للظاهرة تم تطبيقه فى سبع ولايات أمريكية هى (أريزونا، كاليفورنيا، فلوريدا، ميتشجان، أوريجون، تكساس، واشنطن). وشمل البحث المسحى جميع المدن التى يزيد عدد السكان فيها عن ٢٥ ألف نسمة وعددها ١٥٦ مدينة، وأختص البحث بجمع المعلومات من أقسام التخطيط، ومن ثم دراسة الصورة الكاملة للمعلومات الجغرافية فى هذه الولايات، ويؤكد الباحث على أهمية

هذا النموذج في ترسيخ أهمية نظم المعلومات الجغرافية، وخلق الكوادر الفنية، ويمكن تطبيقه عند التخطيط للتنمية المستدامة والمتوازنة داخل أقاليم الوحدات السياسية.

٤-٣- أوضح نيجكامب (Nijkamp)، وزميله، (١٩٩٣) دور نظم المعلومات المكانية في التخطيط الإقليمي والحضري لخدمة التنمية من حيث التصميم والنماذج والتطبيق. وأشار إلى أن تصميم هذه النظم بالتعاون مع نظم إدارة البيانات، ونماذج المحاكاة تمثل أساسا مهما في التخطيط الإقليمي والحضري الاستراتيجي الذي يشتمل على أنماط استخدام الأرض وأنظمة النقل والبنية التحتية والخدمات. ويشترط في هذه النظم قدرأ من المرونة لمواجهة التطور والتغير في الظروف البيئية يمكن من دعم القرار مع آليات للتنذير وتحليل التكلفة والخواص وتقييم تجارب المحاكاة.

و يعرض البحث لعدد من التطبيقات الناجحة تمت في فرنسا ونيوزيلاند والولايات المتحدة أسهمت نماذج نظم المعلومات في تطوير البنية التحتية، وتنمية أنماط استغلال الأرض مع الحفاظ على البيئة. ومن ثم تتضح حيوية نظم المعلومات في التخطيط الإقليمي واتخاذ القرار الاستراتيجي خاصة مع التطور السريع في تقنية تسجيل المعلومات وتبليها وتحليل معلومات المرئيات الفضائية. ويسهم ذلك في زيادة قدرة الجغرافي على التحليل والتقييم والتقييم والتتبع بين المولد البيئية والبشرية من أجل تنمية مستدامة حق.

٤-٤- قدم هاتشنسن (Hutchinsun)، وزميله، (١٩٩٣) ورقة بحثية تحت على المشاركة في تصميم نظم المعلومات الجغرافية بهدف التنمية من خلال تقييم بعض عناصر نقل التقنية التي تساعد في تحقيق التنمية المستدامة، وحل مشكلات استغلال الموارد. ويشير البحث إلى فشل غالبية مشروعات البنك الدولي للتنمية وبرامجه بسبب نقل نماذج لم تضع في اعتبارها البعد الاجتماعي، وتعمل البنك مع السكان على تهم مجرد منتفعين وليس كمشاركين في عمليات التنمية. ومن ثم يجب وضع الأفراد على خط البداية وفي صلب ونهاية كل مرحلة من مراحل التنمية، ولن تتم المشروعات على أساس تحديث أسلوب الإنتاج بما يتوافق وقدرات السكان. ويشير إلى أهمية التخطيط المشترك الذي يسهم فيه المستفيدون من التقنية، يحددون المشكلات ويصحون للمدخلات ويقيمون النتائج، خاصة بعد فشل نقل تكنولوجيا نظم المعلومات إلى الهند بهدف التنمية الزراعية، ولم تكن الهند مؤهلة بعد للتعامل مع هذه التقنية الحديثة.

٤-٥- ناقش ميكهوف (Mikhova)، وزميله، (١٩٩٤) الفجوة في مجال تكنولوجيا نظم المعلومات الجغرافية بين كل من أوروبا الغربية، وأوروبا الشرقية واتجاه بلغاريا إلى تحديث نظام نظم المعلومات بها لتساير ركب التقدم. وقد أتبعت بلغاريا في ذلك خطة من أربع مراحل مترابطة تشمل تحديث أنظمة الحاسبات الآنية، والبدء في إقامة قاعدة راسخة من قواعد البيانات، وتقييم الموارد البيئية، والاهتمام بالإحصاءات

الديموغرافية. ويؤكد البحث على ضرورة قيام المنظمات الدولية بدور فاعل لتكامل أنظمة المعلومات في كل دول العالم يشتمل على الأنظمة المحلية والإقليمية والعالمية يضمن حسن تبادل المعلومات وتوظيفها لتنمية دول العالم الثالث. وإلى أن يتحقق ذلك فإن على الدول النامية إقامة نظم محلية للمعلومات تستخدمها في وضع خطط التنمية المحلية مع مراعاة قابلية هذه النظم للارتباط مستقبلا بالنظم العالمية.

٤-٦- عرض محمد عزيز، (١٩٩٥) لمفهوم نظم المعلومات الجغرافية وتطورها موضحا أهميتها كركيزة للاستقرار والاستنتاج بالنسبة للجغرافى عامة ولصانع قرار التنمية خاصة. وبين دور نظم المعلومات في إتاحة فرصة ربط المعلومات مكانيا الذى يمثل أساس العمل الجغرافى. وأوضح التطور المتلاحق فى تكنولوجيا النظم، مما يجعلها من سمات العالم المتقدم، ومن ضروريات تنمية وتقدم العالم المتخلف باعتبارها توليفة متكاملة متعددة الوظائف مؤكدة النتائج.

٤-٧- قدم جاتكويسكى (Jankowski)، (١٩٩٥) شرحا لأحد أساليب دعم القرار من خلال تكامل نظم المعلومات الجغرافية مع معايير ومقاييس طرق اتخاذ القرار.

وقدم ما يعرف بالنموذج المنطقى الذى يحدد المشكلة ويضع الحل وبدائله ويقومها ويتم ترتيب الحلول فى جدول القرار تبعا لأفضليات تماشيها مع الظروف الجغرافية الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية. وتبين نجاح عملية المزاجية بين نظم المعلومات وبين المعايير باستخدام آلية تبادل المعلومات ، أو الاعتماد على قاعدة مشتركة للبيانات فى وضع خطط متميزة للتنمية المستدامة .

٤-٨- تمكن شميدت (Schmidt)، وزملاؤه، (١٩٩٥) من وضع نموذج متميز لتطبيق نظم المعلومات الجغرافية فى دراسة آليات استخدام الأرض وأثرها على خصوبة التربة فى مرتفعات تقسيم المياه فى نيبال، وبين دورها فى التخطيط للتنمية. وترجع أهمية هذا النموذج إلى انه يختص بمنطقة منزلة فى دولة نامية تعاني من تدهور مقومات البيئة الطبيعية وضغط السكان المتزايد على الموارد. وقد حدثت تغييرات فى أنماط استخدام الأرض أدت إلى تناقص مساحة للنبات الطبيعى وفقد التربة لخصائصها. وقد تم استخدام نظم المعلومات الجغرافية وتحليل الصور الجوية فى دراسة التغير فى أنماط استخدام الأرض على امتداد الفترة من ١٩٧٢ حتى ١٩٩٠، ووضع خطط ناجحة للتنمية. ومن ثم يمكن محاكاة هذا النموذج عند التخطيط لمناطق التخلف التى تماثل منطقة الدراسة بالاستعانة بنظم المعلومات الجغرافية.

٤-٩- أوضح كارفر (Carver)، وزملاؤه، (١٩٩٦) تقييم ميدانيا لنظم المعلومات الجغرافية فى تصميم نموذج للتنمية يوضح الخصائص البيئية، ويساند صانع القرار فى اتخاذ قراره عند تنمية المناطق المنعزلة، ويبنى البحث نتائجه على الدراسة التى

قامت بها كل من البعثتين الإنجليزية والروسية في منطقة جبال أطاى في جنوب وسط سيبيريا بهدف إقامة متنزّه قومي. وتوضح الدراسة أن عملية التخطيطية وتبادل المعلومات وتكامل الصياغة بين الجغرافيين من خلال نظم المعلومات الجغرافية أمور تمكن من اتخاذ قرار التنمية البيئية، وأيضاً التوقع المستقبلي، ويخلص البحث إلى قدرة النموذج الذي أستخدم في هذه الدراسة على إجراء عمليات المسح الشامل لجميع الخصائص الطبيعية والحيوية، وكذلك التأثيرات البشرية لأي مكان مع الربط فيما بينها والتحليل والاستنتاج، ومن ثم التوجه نحو التنمية المستدامة.

٤-١٠- عرض هاليت (Hallett)، وزملاؤه، (١٩٩٦) لتطور نظم المعلومات البيئية في مجال التخطيط لأنماط استخدام الأرض المستدام كنموذج من نماذج التنمية في كل من إنجلترا، وويلز. ويؤكد البحث على أهمية جمع البيانات وترتيبها وتصنيفها لتكون معدة للجغرافي ليتخذ القرار المناسب لكل القطاعات البيئية والاقتصادية والاجتماعية، للحد من الضغوط المحتملة على الموارد. وتمكنه من التخطيط لتنمية البيئة من خلال تغيير أنماط الاستخدام. وتمثل النماذج التي أوردتها البحث مؤشرات لتوجيه استخدام الأرض بحيث تحافظ على التماسك البيئي مع استدامة الأنشطة الاقتصادية، وتضع العوامل الاجتماعية في الاعتبار، وتشكل منظومة جغرافية المكان. وتعتبر هذه النماذج أدوات متكاملة للتخطيط ووضع سياسات استخدام الأرض الدائم والنسبي للمستقبلي.

٤-١١- أورد ماتيكالي (Mattikalli) وزميله، (١٩٩٦) تطبيقاً لنموذج معمل لتصدير باستخدام الاستشعار عن بعد في نظم المعلومات الجغرافية في قياس تغيرات جودة المياه لسطحية تبعاً للتغير الذي طرأ على استخدام الأرض في المملكة المتحدة. فقد أثبتت الدراسات ارتفاع تركيز النترات في مياه أنهار المملكة بنسبة من ٥٠-٤٠٠٪ على مدار العشرين عاماً الماضية نتيجة لزيادة استخدام المخصبات الزراعية لتوأكب تزايد مساحة الأراضي الزراعية، ولاستخدام المخصبات في أراضي المراعي أيضاً. ويعتمد النموذج على مرنيتات الأكلر الصناعية التي تغذى مدخلات نظم المعلومات حيث يتم تحليل بيانات استخدام الأرض والقياس السريع الدقيق لمدى جودة مياه الجريان السطحي والتنبؤ بالتغيرات المنتظرة مع استمرار تغير أنماط استخدام الأرض. ويعتبر هذا النموذج مهماً في دراسة التنمية خاصة في المناطق التي تقوم فيها الزراعة على الري من الأنهار العابرة.

٤-١٢- أوضح جونز (Jones)، وزملاؤه، (١٩٩٧) دور نظم المعلومات الجغرافية في دعم مجموعات العمل في مجال التخطيط الإقليمي بهدف التنمية المستدامة، خاصة وأن تبادل المعلومات يدعم القرار، ويوضح آثاره، وتنتج استخدامهم. ويوضح البحث قدرة نظم المعلومات على تحليل آثار التخطيط، وتحديد البدائل، وخلق مناخ للعمل الجماعي لفريق عمل ينكب على دراسة نواحي متباينة في الإقليم الجغرافي الواحد.

ويقدم البحث نموذجاً للتخطيط المستقبلي في قطاع الصناعة ومدى التكيف مع الظروف البيئية، وتحديد الارتباطات المكانية، مع الحفاظ على البيئة من الملوثات الصناعية. ويتميز هذا النموذج بالمرونة وإمكانية التغيير المستمر، وتقديم الحلول البديلة مما يجعله قادراً على دعم التنمية المستدامة.

٥ - نماذج بحثية معاصرة في جغرافية التنمية

تبلور الفكر الجغرافي في موضوع التنمية وظهرت بحوث جغرافية حددت ملامح البحث ومحاوره واتجاهات مناهجه في جغرافية التنمية. وفما يلي عرضاً مسيحياً لعدد من البحوث الجغرافية في العقد الأخير من القرن العشرين نشرت في عدد من الدوريات العربية والأجنبية المتخصصة في مجال الدراسات الجغرافية، وعبر شبكة المعلومات العالمية، ونوقشت في ندوات ومؤتمرات علمية.

٥-١- عرض فوربس (Forbes)، (١٩٩٠) للتحديات التي تواجه المشتغلين بجغرافية التنمية في العالم الثالث خاصة مع حداثة التخصص والإسهام الجغرافي المحدود في فكر نظرية التنمية. وأكد على ضرورة الخروج من دائرة الفكر الخاص بعلم الاقتصاد من خلال مزيد من التطبيقات الجغرافية والتأكيد على العلاقة بين المكان والبيئة عند التخطيط للتنمية.

٥-٢- قدم جودلاند (Goodland)، (١٩٩٠) عرضاً لجهود البنك الدولي في دفع عجلة التنمية الاقتصادية من خلال عدد من المشروعات ذات البعد البيئي وتحقيق التكامل بين الموارد البيئية والدراسات الجغرافية والاقتصادية داخل الحيز الجغرافي. وأشار إلى أهمية التنمية الاجتماعية للمستدامة التي تعجل من نتائج التنمية، إذ أن عدم التوافق بين كل من التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية من شأنه أن يزيد من تكاليف الإنماء ويؤخر مسيرته.

٥-٣- أوضح مجدى السرسى، (١٩٩١) أهمية السوق في زيادة الدخل القومي من خلال دراسته لموضوع التجارة الخارجية وتصدير القطن المصرية، مؤكداً على أهمية التوسع في التصدير لمواجهة احتياجات السوق. ويتطلب ذلك زيادة الإنتاجية وتحقيق فائض من خلال أساليب التنمية الزراعية مثل التجميع الزراعى، والتكثيف الزراعى، والزراعة المحمية، وتطوير أساليب الجمع والتعبئة والنقل. ويشير إلى أن التوسع في صناعات الحفظ بهدف التصدير من شأنها أن تمثل مدخلاً للتنمية الريفية.

٥-٤- أوضح إبراهيم غانم، (١٩٩١) دور الصناعات الغذائية في تحقيق نمط من أنماط التنمية المستدامة في قطاع الصناعة بالملكة العربية السعودية. وعرض للأبعاد الجغرافية لنجاح هذه الصناعة، ومواقف تنميتها من حيث مصادر الخامات ونقص

الكوادر البشرية ومنافسة التسويق. وحلّس إلى ضرورة التنمية فى قطاع الثروة الحيوانية، وإعادة التوزيع الجغرافى لمواقع الصناعة، وتنمية الموارد البشرية. وأكد على أهمية اتباع أسلوب البرمجة الخطية من أجل التوصل إلى سياسة مثلى للربط بين كل من مناطق الإنتاج ومواقع التصنيع، ومراكز الاستهلاك.

٥-٥- استخدم Hashem، وزميله، (١٩٩١) صور القمر الاصطناعى لائنسات فى إنشاء خرائط جيومورفولوجية، وأخرى للتصريف المائى فى شبة جزيرة سيناء بهدف تنمية أنماط استخدام الأرض، ومن ثم أمكن إنشاء عدد من الخرائط توضح الخصائص التضاريسية، وتحدد أنسب مناطق التنمية الزراعية حيث توجد مصادر المياه الجوفية، وأنسب المناطق لأعمال التشييد والبنية الأساسية والخدمات، وتم التوصل إلى تحديد كل من وادى العريش، ووادى فيران كمناطق رئيسيتين للتنمية الزراعية المستدامة. و يمثل هذا البحث نموذجا لاستخدام الاستشعار عن بعد فى الحصول على المعلومات الجغرافية التفصيلية يمكن من التخطيط الواقعى للتنمية.

٥-٦- توصل جودة حسنين، (١٩٩٢) إلى أن ظروف المناخ الحالية فى الصحارى العربية تحول دون تعويض المخزون المائى الجوفى من المياه الحفرية التى يرجع أحدثها إلى العصر الحجري الحديث، على حين يعود أفقها إلى الزمن الجيولوجى الثالث. ومن ثم تتأتى أهمية تنظيم توظيف هذه المياه فى عمليات التنمية الزراعية، أو للرعية، أو العمرانية على شكل مشروعات محدودة المساحة ذات بعد زمنى محدد ومتوقع خلسة بعد فشل سياسة التنمية غير المتكافئة وغير المخططة فى كل من إقليم الوادى الجديد فى مصر، وإقليم الحسا بالمعوية، وإقليم الكفرة بليليا، وإقليم الحفرة بالجزائر.

٥-٧- أكد غنيمى، (١٩٩٢) على أهمية الأبعاد البيئية فى تشكيل ضوابط فاعلة للتخطيط الإقليمى، وضرورة تهم طبيعة النظام الإيكولوجى، وتقييم المردود البيئى، وصيغة الموارد. وعرض لنموذج تطبيقية موضحا أهمية دراسات المناخ والتربة والمياه المتاحة فى قطاع الزراعة، وتقييم طاقة المراعى، وتقييم الاستخدام الغلبى، بالإضافة إلى التوزيع البيئى للصناعة، بحيث ينجح التخطيط الشامل فى تحقيق التنمية المستدامة مع الحفاظ على البيئة.

٥-٨- ناقش ربيع، (١٩٩٢) جدوى المخططات الإقليمية التى اشتملت على برامج للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، والعمرانية على مدى ربع قرن. وأوضح أن هناك فجوة متسعة بين فكر هذه المخططات وبين واقع التطبيق، إذ لم تتح لهذه البرامج فرصة النجاح لغياب الفكر الجغرافى الذى من شأنه أن ينسق بين الفكر وبين معطيات البيئة الطبيعية وإمكانات السكان. ولوصى بضرورة عدم المحاكاة، إذ أن لكل بيئة جغرافية مقوماتها الخاصة، ومن ثم تكون البرامج المحلية التى يسهم فى تصميمها الجغرافى هى السبيل إلى نجاح برامج التخطيط الإقليمى وخطط التنمية.

٥-٩- عرض حميد، (١٩٩٢) لدور المعلومات فى تصميم للتخطيط والتنمية ونجاحها خاصة تلك التى تتصف بالتكامل، ومن ثم تتضح أهمية نظم المعلومات الجغرافية سواء فى ذلك النظم المبنية على المنهج، أو القائمة على نظم المسح المتوازي، إلى جانب دور الخاسبات الآلية فى عمليات التحليل للمكانى، وإعداد النماذج بناء على هذه المعلومات التى تسهم للمرتبات الفضائية فى مخلاتها. وعرض للمشروع البريطاني لنظم المعلومات وقدرته على معالجة البيانات و التحليل الكروتوجرافى واستقراء النتائج بما يتيح تصميم نماذج للتنمية المستدامة لأقاليم التخلف تستند إلى بيانات مؤكدة عن ظروفها الجغرافية الطبيعية والبشرية .

٥-١٠- قام جونز (Johns)، (١٩٩٢) بتقييم تجربة التنمية الصناعية فى الأرجنتين التى كانت تعتمد على الحرف الأولى وتصدير الإنتاج إلى الدول الأوربية، ومن ثم كانت ضرورة تغيير أنماط النشاط الاقتصادى لمواجهة تحكم الدول الصناعية الرأسمالية فى كل الإنتاج السلمى للأرجنتين. وأيضاً من أجل التنمية الاجتماعية بعد أن أخذت فرص العمل تتناقص و انخفاض المردود الاقتصادى نتيجة لعدم القدرة على زيادة حجم الصادرات. ويرى عدم نجاح التجربة فى تحقيق الهدف بسبب نقص رموس الأموال، وعدم قيام المؤسسات الصناعية الكبرى، والتخلف التكنولوجى، ووصاية الدولة، بالإضافة إلى منافسة الدول الصناعية الكبرى. ويشير إلى ضرورة البدء فى إحداث التغيير الشامل فى البنية الاقتصادية والاجتماعية من أجل تنمية صناعية تقوم على أسس راشدة ووضع نموذج للتنمية الشاملة والمستدامة يحقق التوازن الاجتماعى.

٥-١١- عرض شاف (Schaaf)، وزميله، (١٩٩٢) لتأثير المناطق الحضرية على تنمية الظهير الريفى من خلال دراسة العلاقة التى تربط مناطق الحضر على جانبى الحدود بين كل من غانا، وساحل العاج. ويوضح لنقل المعرفة والمعلومات والتكنولوجيا إلى الريف عبر حلقات الاتصال بين المراكز الحضرية فى البلدين. وترتب على ذلك حدوث تنمية زراعية واكبتها تنمية بشرية حيث اتخذت المراكز الحضرية نمط أطباب التنمية بالنمسة للريف المجاور.

٥-١٢- عرض محمد بكير، (١٩٩٢) إلى تنمية مستوطنه لأوغصون موضعاً دور صانع القرار فى اختيار للمواضع المناسبة فى ضوء معرفة المعطيات الطبيعية للمكان. وقدم توزيعاً وتصنيفاً للمستوطنات على طول الساحل الجنوبى الشرقى لمصر وأهم أوضح الأنشطة الاقتصادية فى لأوغصون وعوامل تنميتها اقتصادياً. فأكد على أن تنمية التعدين تتوقف على حسن الاستفادة من الخامات الموجودة والكامنة، وأن توطيئ بدو العباددة من شأنه أن يودى إلى تنمية للنشاط الرعوى كنشاط اقتصادى ثانوى، كما حدد المناطق القبلية للاستزراع عند مصبات الأودية الجافة، وأشار إلى أن التوجه نحو التنمية السليحية يمكن أن يحقق التوازن الاقتصادى لأوغصون. وتمثل دراسة الحالة هذه نموذجاً يمكن تطبيقه فى بقية المستوطنات المماثلة بهدف تنميتها اقتصادياً واجتماعياً تنمية مستدامة.

١٣-٥- أوضح تونى (Toni)، (١٩٩٢) أن مشكلة التخلف واختلال التوازن الاقتصادى فى العالم العربى وليدة التراث الاستعمارى، ومن ثم يجب الاهتمام نحو التنمية البشرية والارتقاء بقطاع التعليم ودور المرأة فى عملية الإنتاج. ويوصى بضرورة التنمية الصناعية لمواجهة تزايد أعداد السكان مع الاهتمام بعملية التحديث للتكنولوجيا، مشيراً إلى أنه إذا لم تتم تنمية مستدامة، فإن للعالم العربى سيواجه مشكلات اقتصادية واجتماعية سيكون من الصعب حلها خاصة مع استمرار ارتفاع معدلات الخصوبة.

١٤-٥- ناقش روبرتس (Roberts)، وزميله، (١٩٩٢) مشكلة التنمية غير المتكافئة وأثرها فى استغلال الموارد الطبيعية فى منطقة (أوجالا) المتاخمة لحدود كل من تكساس ونيومكسيكو. وتبين سلبية التغيير وعدم الاستقرار فى خطط التنمية والتحول فى نظم الزراعة، والصراعات السياسية وبعد ذلك نتيجة للمفهوم السياسى الخاطئ للتنمية الذى لا يضع فى الاعتبار خطورة تدمير البيئة بالاستغلال الجائر على مواردها. ويوضح البحث مشكلة الموارد الطبيعية ومدى تعرضها للزيادة أو النفاذ، ومن يملك سلطة القرار، ومن ثم التوزيع على حساب بقية السكان وهم الغالبية، ومن ثم يتضح عدم القدرة على التخطيط من أجل تنمية تحقق العدالة الاجتماعية فى ظل سيادة النظام الرأسمالى الذى يعتقد فى فكر التحديث أسلوباً للتغيير.

١٥-٥- أكد جلاسبير (Glasmeier)، (١٩٩٢) على أن الأخذ بأساليب التقنية الحديثة ليس بالأسلوب الأمثل للتنمية الريفية بناء على نتائج دراسته لمناطق التخلف خارج الولايات المتحدة على مدى عشر سنوات. وأوضح الظروف الجغرافية للمناطق الريفية ومدى افتقارها إلى مقومات البنية التحتية، وجهل السكان بالابتكارات الحديثة. ويرى ضرورة أن يسبق عملية التنمية الاقتصادية إجراء الأبحاث ووضع الخطط والسياسات من أجل تأهيل السكان للتعامل مع أساليب التكنولوجيا المتطورة حتى تصبح واحدة من احتياجاتهم ويدعو إلى توظيف تقنية المركز الحضرية فى خدمة المناطق الريفية التى فى الجور، مع ترويجية الأساليب التقليدية والحديثة فى تطبيق نماذج التنمية. ويؤكد على حسن اختيار أسلوب التنمية بما يناسب ظروف كل إقليم إذ أن للتنميين غير وارد، بالإضافة إلى اعتبار كل من المنظور الزمنى والموروث الحضري لكل إقليم.

١٦-٥- قدم آدمز (Adms)، (١٩٩٣) شرحاً لمفهوم كل من التنمية المستدامة، والتنمية الخضراء موضحاً أهم الانتقادات التى واجهت فكرة التنمية الخضراء فى مقابل القبول والتطبيق واسع المجال لفكرة التنمية المستدامة التى يعتبرها البعض تحديثاً للفكر الرأسمالى الذى يجمع بين تنمية البيئة والنمو الاقتصادى.

١٧-٥- عرض مالكى (Maleki)، (١٩٩٣) لعدد من اتجاهات التنمية ومفاهيمها من خلال معالجته لنظرية التنمية الإقليمية وعلاقتها بالنظم السياسية وأهمية المشاركة

الأهلية. وموضوع التكنولوجيا وعلاقتها بالتنمية وديناميكيات التغيرات المحيطة والإقليمية والعالمية. وأكد على ضرورة الترابط الاقتصادي الذي هو سمة العصر مبرهنا على ذلك بنماذج متكامل عمليات التصنيع بين مجموعة الدول المتقدمة، ومن ثم فقد أصبحت محلية الإنتاج من الأساليب التقليدية.

٥-١٨- ناقش بيت (Peet)، وزميله (١٩٩٣) نظرية التنمية في ظل سيادة عصر السوق موضحا أن هناك شعوبا تميل علومها إلى العالمية: قادرة على تغيير النظم المساندة من خلال مفهوم الترابط البيئي ووحدة العالم وتوضح أهمية تحليل النظم البيئية عند السعي لإعادة التوازن بين الإنسان والبيئة من خلال إتاحة الفرصة للدورة الطبيعية للموارد المتجددة، وتوضح الآثار السلبية للنظام للرأسمالي السابق في عدم الربط بين المجتمع والبيئة والتعدي الجائر على مواردها، ومن ثم يجب التوصل إلى أساليب جديدة لفهم نظم البيئة وتحديد الفوارق بين نظم التحكم فيها، ويقارن البحث بين كل من الفكر الغربي، و(بين) القوانين الصارمة لستالين وبين الفكر للرأسمالي، وكيفية تفهم الضوابط البيئية. ويؤكد على ضرورة القضاء على التناقضات في الخصائص التي تميز العلاقات بين البيئة وبين المجتمعات كسبيل للوصول إلى تنمية تحفظ على البيئة تجانسها.

٥-١٩- تناول شميدهايني (Schmidheiny)، (١٩٩٣) موضوع المنظور العالمي للتنمية والبيئة بالتعاون مع مجموعة من العلماء في مؤتمر الأمم المتحدة عن التنمية والبيئة ويقدم عددا من المقترحات لإعادة تنمية البيئة بهدف التنمية الاقتصادية. ويحدد أسباب حتمية نظام السوق العالمية من أجل تنمية دول العالم المتخلفة. وقدم نماذج للتنمية الاقتصادية والبيئية مثل الصناعات الجلدية بكينيا، ومشكلة التلوث ونقص الأوزون في منطقة مشروع (تيليكوم) بكندا، والتعدين في غرب استراليا موضحا الخطوات التي اتبعت لتحقيق التوازن بين التنمية الاقتصادية والتلوث البيئي. ويؤكد على ضرورة التنمية المستدامة للموارد الطبيعية والطاقت البشرية من خلال التقدم التكنولوجي التريجي حيث يشير إلى أن دورة التكنولوجيا ولادة للظروف البيئية، وتابعة للتقدم الاقتصادي ولأن حجمها ونوعيتها يختلفان باختلاف الظروف الجغرافية لكل إقليم.

٥-٢٠- كتب مورجن (Morgan)، وزميله، (١٩٩٤) عن مشكلات الزراعة في المناطق الأفريقية شبه الجافة، وعن معوقات التنمية بها. وأوضح مدى النقص في المحاصيل الغذائية والمحاصيل النخعية بسبب الجفاف ونخلف الأساليب ونظام الإقطاع بالإضافة إلى الحروب الأهلية. ويزيد من تفاقم المشاكل كل من الفقر ونقص رموس الأموال وقلة الوعي بالنظم الاقتصادية. ومن ثم تصبح للتنمية ضرورة لتفادي أخطار المجاعات حيث إن عددا كبيرا من شعوب هذه المناطق يعجز عن تأمين الغذاء منها نحو عشرون دولة تحت خط الفقر. ويعرض لتقرير البنك الدولي الذي يوصي بضرورة الحد

من التزايد العندى للسكان وتنمية الموارد البشرية مع إعادة تأهيل الموارد الطبيعية الآخذة في الانتثار وتتميتها، ويوصى بإتباع التنمية المستدامة من خلال خطط طويلة الأمد طموحة الأهداف تمهيم دول الشمال فى تدعيمها وتمويلها آملدا وتكنولوجيا.

٥-٢١- أوضح محمد الفاضلى، (١٩٩٤) أن الطفرة المفاجئة فى النمو الاقتصادى والسكانى فى دولة الإمارات العربية المتحدة لم تكن متوقعة. ولذا لم تعتمد الدولة أى خطة شاملة للتنمية خلال السبعينيات وأن التنمية قد تمت تحت ظل الظرفية، ومع بداية الثمانينيات اهتمت الدولة بوضع خطط للتنمية الشاملة المتوازنة اقتصاديا واجتماعيا وعلى الرغم من سيادة النفط إلا أن الدولة قد اهتمت بالتنمية الريفية جنبا إلى جنب مع التنمية الحضرية خاصة مشروعات البنية الأساسية.

٥-٢٢- درس Saleh (١٩٩٤) نظام الجريان السيلى فى وأدي فيران بجنوب غرب شبه جزيرة سيناء وتأثيره على عمليات التنمية الاقتصادية. وقد استعان بالصور الفضائية والخرائط الطبوغرافية. وتناول بالبحث العوامل التى تشكل نظام الجريان وأنماط استخدام الأرض الرئيسية وحدد مواقع وصور النحت والتكمير بفعل السيول والمناطق الأكثر تعرضا لمخاطرها، ومن ثم اقترح عدة طرق للحماية من آثار السيول السلبية وسبل توظيف مياهها فى عمليات التنمية فى نموذج طيب يوضح إمكانية تطويع البيئة.

٥-٢٣- تطرق الرملى (El-Ramly)، (١٩٩٤) لموضوع التنمية المستدامة بالحفاظ على مصادر مياه الأحواض النهرية الأفريقية من خلال دراسته لمصادر مياه حوض نهر الزمبىزى الذى يخرقشمان دول أفريقية هى (أنجولا، وبوتسوانا، ومالاوى، وموزمبيق، وناميبيا، وتنزانيا، وزامبيا، وزيمبابوى) وحدد خمسة محاور للتنمية المستدامة هى للتقييم الببنى، والضوابط البيئية، وقوانين الحفاظ على البيئة، والدعم المالى ومؤسساته، ومعايير ومقاييس الكفاية والتجربة، وأن تهتم دول الحوض بإنشاء قاعدة للمعلومات تمكن من تحديد مخاطر الفيضان والتلوث وعمليات ضبط النهر والاستفادة القصوى من مائته عن طريق تنظيم الأحقية وتحديد الأنصبة .

٥-٢٤- عرضت إيتلينجر (Ettlinger)، (١٩٩٤) لموضوع توطن التنمية من منظور مقارن لوضحت فيه أن التنمية تقوم على أسس فرضية محلية ضمن مجموعة الدول النامية، وعلى قدر الإمكانيات المتاحة، وأنه لا يمكن الاعتماد على الدولة وحدها فى تحقيق التنمية، وإنما يجب مشاركة القطاع الخاص، وأنه بدون هذه المشاركة قد يدعى للنظم الاقتصادية بسره. وتؤكد على أهمية المشاركة العالمية فى وضع برامج التنمية، إذ أن الاقتصاد المحلى مرتبط بالاقتصاد العالمى ونظم السوق المشتركة، ويؤكد هذا المفهوم للتنمية المتوازنة فى الغرب الأوربى والأمريكى، وتقرر بأنه على الرغم من التعاون والتقدم فى طرق النقل ووسائل الاتصال إلا أن الحدود السياسية مازالت تمثل عوقاً أمام التنمية.

٥-٢٥- أوضح حسين العتر، وزميله، (١٩٩٤) مشكلة استنزاف المياه الجوفية في الوطن العربي وتدهور نوعيتها، وحثية ترسييد إمتدادها وحمايتها من التلوث من أجل تنمية مستدامة. وقام بحصر موارد المياه في الوطن العربي التقليدية وغيرها، وتحليل استخداماتها ومحاولات الحفاظ عليها خلال الخمسين عاماً الماضية، مع الإشارة إلى عدد من المشروعات الخاصة بضبط مياه الأنهار العابرة، وتحويل مجارى بعضها وتحلية مياه البحر وتناول معوقات التنمية ومحاور التطوير السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتقنية لتنمية الموارد المائية في الوطن العربي من منظور قومي.

٥-٢٦- أكد جودة حسنين، (١٩٩٥) على ضرورة تقويم السياسة الاقتصادية من قبل صناع القرار لإعادة الحيوية إلى حرفة للرعى للتقليدي في الأراضي الجافة بدلا من إهمالها، ومن ثم إهدار مورد بيئي مهم في بيئات لا تصلح إلا لتربية الحيوان. وينبه إلى أن حرفة الرعى اللبوى تحت الخطي نحو الزوال حتى تكاد تتحول إلى حرفة حضرية، رغم أنها الوسيلة الرئيسية لتنمية الصحارى واستدامة مواردها.

٥-٢٧- عرضت هدى الشناوى، (١٩٩٥) لأهم الاتجاهات المعاصرة في قياس حد الفقر على ضوء التعريف الذى أقره المجلس القومى للمساعدات فى بريطانيا، والتغيرات التى تطرأ عليه نتيجة للتغير فى الأسعار والدخل القومى، وميزت بين معيار الفقر المجرد وبين معيار القياس الفعلي. وأوضحت أسباب تخلف دول العالم الثالث مقارنة بالعالم المتقدم ومن أهمها متوسط الإنتاج، ومعدلات النمو فى الدخل القومى، وعدالة للتوزيع، وطبيعة الأنشطة الاقتصادية، ودور رأس المال والخدمات. وأشارت إلى دور الإطار الاجتماعى فى إعاقه التنمية، ودور الإدارة ومساوئ البيروقراطية وقضايا التبعية والظروف التاريخية التى شكلت العلاقات بين الدول الفقيرة وبين الدول الغنية.

٥-٢٨- قدم وقمول (Wanmall)، وزميله، (١٩٩٥) تحليلا للتوزيع الجغرافى المكانى للخدمات والبنية التحتية لعدد مختار من المناطق الريفية بالهند اعتمادا على بيانات كمية لسلسلة زمنية مدتها ثلاثة عقود، موضحا أثر الاهتمام بالبنية التحتية فى تحقيق التنمية الاقتصادية الريفية وتوضح الدراسة التزايد المستمر فى الخدمات للمراكز العمرانية الريفية الصغيرة وما ترتب على ذلك من تطور تقنى زراعى فى كل من Andhra Pradesh Tamil Nadu، على حين تطورت الصناعة فى إقليم Maharashtra. وقد قامت الدولة بدور مهم فى المرحلة الأولى من مراحل تنمية هذه المراكز الريفية، ثم قام القطاع الخاص بتوظيفها وتطويرها والحفاظ عليها فى المراحل التالية فى نظام للمشاركة من أجل التنمية.

٥-٢٩- أوضح إيكنز (Ekins)، وزميله (١٩٩٥) حتمية إعادة النظر فى العلاقة بين الإنسان والبيئة فى ضوء نتائج مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية الاقتصادية فى

أسكنهولم ويريدى جانيرو عن ما تم من تدمير واستنزاف للموارد الطبيعية؟ خلال الفترة من ١٩٧٢ إلى ١٩٩٢ . وقد يكون ممكنا من الوجهه النظرية زيادة الناتج القومى المحلى، والامكانيات البيئية من مواد الطاقة والموارد غير المتجددة إلا أن ذلك يشكل فى الواقع استنزافا لموارد البيئة إن لم يكن وفق خطة محكمة للتنمية المستدامة .

٢٠-٥- أكد محمد سعودى، (١٩٩٦) على أهمية دور الجغرافيا والجغرافى فى معالجة مشكلات المجتمع البيئية الطبيعية والبشرية، وأوضح أن مستقبل الشعوب عامة والدول العربية خاصة مرهون بنجاح برامج التنمية الاقتصادية، والتطور الاجتماعى. وقد عرض لعدد من المشكلات المعاصرة مثل مشكلة الماء، ونقص الغذاء، والتصحر، والأمن القومى موضحا أنه لا أمان بدون تنمية اقتصادية واجتماعية، وأكد على أهمية الأخذ بالاكتشافات الحديثة والنماذج وتوظيف ثورة المعلومات فى تجسيد دور الجغرافى فى التخطيط من أجل التنمية المستدامة .

٣١-٥- عرض جالستون (Galston)، وزميله، (١٩٩٦) لموضوع التنمية الريفية فى الولايات المتحدة والعلاقة بين النظرية والتطبيق والإمكانيات، فأوضح الفرق بين الجغرافيا الاقتصادية التى تهتم بالتنظير وبين التنمية الاقتصادية التى تهتم بالتطبيق. ثم قدم وصفا لديناميكية التنمية فى ريف الولايات المتحدة مبرزاً تطورها التاريخى بدءاً من السبعينيات حيث تم تدعيم المناطق الريفية بعدد من الصناعات الصغيرة إلى أن حدثت الأزمة الاقتصادية فى الثمانينيات ويلاحظ حالياً أن للتنمية الريفية فى الولايات المتحدة تكاد تقتصر على قطاع السياحة وأن معظم المناطق الريفية المتاخمة للمجمعات الحضرية أخذت فى الزوال بعد أن بذلت القيمة المضافة لمواردها فى للتقص.

٣٢-٥- استخدم أحمد صالح (Slaeh)، (١٩٩٦) نظم المعلومات الجغرافية (GIS) فى إنشاء خرائط توضح درجة الملوحة للمياه الجوفية فى سهل صلالة بجنوب سلطنة عمان بهدف وضع خطط للتنمية المستدامة. وتبين تأثير الاستخدام غير المصوب للمياه الجوفية فى قطاعات التنمية الاقتصادية على منسوبها ودرجة ملوحتها، ومن ثم فقد أوضحت الخريطة النهائية الوضع الحالى للمياه الجوفية وضرورة وضع ضوابط للضخ منه، مع الاستعانة بمصادر بديلة كالمسود الاعراضية لمياه الجريز السطحي، وإعلاء استخدام مياه الصرف بعد معالجتها، وتحلية المزيد من مياه البحر، وتوظيف المياه المخترنة على هيئة بخار الماء فى ضباب فصل الخريف، ونقل المياه لقرقة عن الحاجة من منطقة جبل قارة وهكذا تم توظيف نظم المعلومات الجغرافية فى تخطيط نموذج للتنمية المستدامة للمياه الجوفية يمكن تطبيقه فى المناطق المشابهة فى ظروفها الجغرافية .

٣٣-٥- قدم شليفاك (Schliephake)، وزميله، (١٩٩٦) بحثاً مسحياً لأهم الموضوعات التى نوقشت فى المؤتمر الذى عقد بمدينة المفرق بالأردن عن الإنسان

والبيئة في العالم الإسلامي. ومن أهم الموضوعات الخاصة بقضايا التخلف وحمية التخطيط وصياغة النماذج من أجل التنمية الاقتصادية في العالم الإسلامي ما يلي :

- قدم حميده (HemideH) عرضاً لمشكلة الفجوة بين تزايد السكان في العالم الإسلامي وبين الغذاء، وقدر معدل التزايد السنوي بنحو ٢,٣ ٪ مما يعني تضاعف عدد السكان كل عقدين، وما يعنيه ذلك من مشكلات تتطلب وضع خطط للتنمية الزراعية والحد من تزايد أعداد السكان.
- أوضح المومني (Al-Momeni) مشكلة نقص المياه في أراضي العالم الإسلامي في كل من أفريقيا وغربي آسيا. وأشار إلى أن احتياجات التنمية في الأردن من المياه في عام ٢٠٠٥ تقدر بنحو ١,٢ مليون متراً مكعباً، على حين أن المئاح هو ١,٤ مليون متراً مكعباً فقط مما يجعل من عملية السلام أمراً مهماً حتى تتمكن الأردن من الحصول مستقبلاً على حصتها من نهر الأردن واليرموك.
- صنف نجار (Najjar) التنمية الاقتصادية في الأردن التي بدأت منذ عام ١٩٨٠ على أنها غير متكافئة، ومن ثم فلا بد من إعادة النظر في خطط التنمية والاتجاه نحو التنمية المستدامة والشاملة.
- أكد بابكر، (Babiker) على ضرورة العمل نحو تنمية السودان تنمية متوازنة تتفق مع موارده الطبيعية حيث أن التخلف قد دفع بالسكان إلى الهجرة نحو الحضر، وأن ما يقرب من ١٤ ٪ من سكان السودان يعيشون بمدينة الخرطوم التي تنوء بهم حيث إن ما يقرب من ٤٩ ٪ من سكانها يعيشون في الأكواخ، على حين يعاني نحو ٤٤ ٪ منهم من البطالة.
- قدمت بولنج (Buang) نموذجاً للتنمية الاقتصادية في ماليزيا يطمح إلى أن تتحول ماليزيا إلى دولة صناعية متقدمة في عام ٢٠٢٠ جنباً إلى جنب مع التنمية البشرية بهدف التوصل إلى مجتمع ليبرالي متقدم يحكمه نظام وضوابط اجتماعية متميزة.
- عرض سيد (Said) لمشكلات تكمير البيئة الطبيعية في شمال باكستان وفشل كل الجهود في الحد من لندثار الموارد الطبيعية حيث يسود الرعي الجائر، وتتواصل عملية تعرية التربة والقضاء على النباتات الطبيعي. وطالب بتضافر الجهود وتقديم العون المادي والتكنولوجي بهدف حماية البيئة، وإعادة تأهيلها لممارسة حرفة الرعي عماد النشاط الاقتصادي.

و توضح هذه النماذج توجه الجغرافيين المسلمين نحو الاهتمام بمشكلات البيئة والحفاظ على مواردها من الاندثار، ومحاولة استنباط نماذج لتنمية مستدامة خاصة بدول العالم الإسلامي ترتبط بالنظم العالمية.

٥-٣٤- أوضحت مك دونالد (McDonald)، (١٩٩٦) موقف النظم الاقتصادي الجديد في اليابان من حرفة فلاحه الأرض، إذ يسعى النظم إلى الحد منها وتوجيه العمالة إلى حرف

غير زراعية تساير التقدم التكنولوجى السريع لليابان. ويتجه المجتمع اليابانى نحو مبدأ OFF FARM JOBS. وتنمية الصناعة فى الأقاليم الريفية خارج حدود نطاق توكليو الصناعى الحضرى. و تقوم الدولة بإنشاء مشروعات زراعية ذات عائد كبير تستخدم أحدث الأساليب التكنولوجية، وتعديل التركيب المحصولى ليشمل محاصيل صناعية تمد الصناعة بمخلائها من المواد الخام الزراعية، وتخلق فرص عمل جديدة زراعية وصناعية، ومن ثم يتم الجمع بين المثلين الزراعى والصناعى، وتحقق التنمية الاقتصادية فى ذات الوقت.

٥-٣٥- عرض برومن (Brohman)، (١٩٩٦) للفكر النظمى للتنمية الذى أتبعته مجموعة دول (NICs) الآسيوية (هونج كونج، سنغافورة، كوريا الجنوبية، تايوان) وتمكنت من تحقيق التنمية الحقيقية. ولوضح عناصر التجربة وعوامل نجاحها أتت من أهمها للتوجه للداخلى والخارجى، والعوامل الجغرافية والتاريخية المساعدة وعدم تدخل الحكومات فى الشؤون الاقتصادية، بالإضافة إلى الدوران فى ذلك الاقتصاد العالمى. وأجرى مقارنة بين تجربة التنمية الآسيوية ومثيلاتها فى أمريكا اللاتينية التى لم يكتب لها النجاح معتمداً على التغير فى النتائج القومى المحلى خلال ثلاثة عقود، وبين إيجابيات التجربة الآسيوية من حيث التكامل بين كل من التقدم الزراعى والصناعى، وأهمية البنية الأساسية، والتنمية البشرية مبرزاً أثر الموقع الجغرافى والتصنيف الإقليمى على النشاط البشرى.

٥-٣٦- أجرى جاتيل (Gunnell)، (١٩٩٧) دراسة مقارنة بين كل من الهند وغربى أفريقيا فى محاولة لتفسير مقبول للتباين فى مستويات التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى إقليمين متشابهين فى الضوابط الطبيعية من حيث الموقع بالنسبة لدوائر العرض، الارتفاع، والمناخ الحوى، وخصوبة التربة. وتوصل إلى أن الاختلافات فى تركيب السكان وخصائصهم تعمل السبب الرئيسى فى تقدم الهند وتخلف غرب أفريقيا بالإضافة إلى عوامل أخرى مساعدة منها الضوابط الإدارية ومصادر التمويل، ومن ثم فانه يلزم لتطبيق النموذج الهندى فى غربى أفريقيا إحداث تغيير جذرى فى البنية الاجتماعية. ويخلص الباحث إلى أن دور جغرافية التنمية يبدأ بتحديد المواضيع للقبلة لإحداث التغير نحو الأفضل، واختيار النماذج المناسبة للتنمية والبرامج المخططة بحيث تتماشى مع الظروف الاجتماعية، وتحقيق التوافق بين الإنسان فى بيئته الطبيعية خاصة فى دول العالم الثالث.

٥-٣٧- أمكن من خلال البحث الممضى عبر شبكة المعلومات INTERNET التوصل إلى أربعين موضوعاً ترتبط بالتنمية المستدامة تضم عدداً من الموضوعات الفرعية المرتبطة وذلك باستخدام قناة اتصال واحدة (١) .

(١) الملحق رقم (٢) يوضح قائمة بالموضوعات المرتبطة بالتنمية المستدامة تم للتوصل إليها عبر شبكة المعلومات العالمية .

<http://www.Stile.lut.Ac.uk/~gyedb/STILE/t0000425.html>.

٦ - المراجع

٦-١- مراجع باللغة العربية :

- (١) إبراهيم عبد العزيز زيادى (١٩٩٥) :
التوزيع الجغرافى للبنى والتفر فى العالم العربى، دراسة جغرافية تحليلية، مجلة بحوث كلية
الأدب جامعة المنوفية، بحوث العدد الثالث والعشرون، شبين للكم. ص ص ١٤٣ - ١٧٤ .
- (٢) إبراهيم على غانم (١٩٩١) :
الأبعاد الجغرافية لتنمية الصناعات الغذائية بالمملكة العربية السعودية، المجلة الجغرافية
العربية، تصدر عن الجمعية الجغرافية المصرية، العدد الثالث والعشرون، السنة الثالثة
والعشرون، القاهرة. ص ص ١٩١ - ٢٤٠ .
- (٣) أحمد سالم صالح (١٩٩٤) :
السيول والتنمية فى وادى فيران بسيناء - دراسة تطبيقية من منظور جيومورفولوجى، المجلة
الجغرافية العربية، تصدر عن الجمعية الجغرافية المصرية، العدد السادس والعشرون، السنة
الساسة والعشرون، القاهرة ص ص ٨١ - ١٢٤ .
- (٤) بسيونى على عبد الرحمن (١٩٩٤) :
التنمية مفهوم ومنهج، مجلة بحوث كلية الأدب جامعة المنوفية، العدد السادس عشر،
شبين للكم. ص ص ٢٥١ - ٢٧٥ .
- (٥) جودة حسنين جودة (١٩٩٥) :
مستقبل الأراضى الجافة، رسائل جغرافية، رقم ١٧٧، قسم الجغرافيا بجامعة الكويت
والجمعية الجغرافية الكويتية، فبراير ١٩٩٥، الكويت ص ص ٣ - ٤١ .
- (٦) جودة حسنين جودة (١٩٩٥) :
الرعى التقليدى - نظام رعى فى طريقه إلى الزوال، رسائل جغرافية، رقم ١٧٩،
قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، إبريل ١٩٩٥، الكويت.
ص ص ١ - ٢٨ .
- (٧) حسين على العتر، وزميله (١٩٩٥) :
موارد المياه فى الوطن العربى ووسائل تنميتها وتطوير إدارتها، بحوث ندوة
المياه فى الوطن العربى، (٢٦ - ٢٨ نوفمبر ١٩٩٤)، الجمعية الجغرافية
المصرية، المجلد الثانى، طبعت بالتعاون مع الجمعية الجغرافية الكويتية، القاهرة.
ص ص ٣٧ - ٨٨ .
- (٨) صفوح خير (١٩٧٨) :
البحث الجغرافى، مناهجه وأساليبه، مطبعة جامعة دمشق، دمشق ص ص ٧٢ - ١١٣ .

(٩) عارف ليلة (١٩٨٢) :

لزمة التنمية والفكر التنموي الجديد، للتخطيط والتنمية في المنظور الجغرافي (دراسات مختلرة
جمعها عبد الله يوسف أبو عيش)، وكالة المطبوعات، الكويت. ص ص ٤٧ - ٨٦.

(١٠) فتحي عبد العزيز أبو راضى (١٩٩٢) :

نحو تكامل نظم المعلومات الجغرافية وتوحيدها - بين النظرية والتطبيق، ندوة الجغرافيا
والتخطيط الإقليمي، قسم للجغرافيا بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية - ٢٥ - ٢٧ فبراير
١٩٩٢. ص ص ٣٧ - ٣٩ .

(١١) فتحي محمد أبو عيالة (١٩٨٤) :

الجغرافيا الاقتصادية، دار النهضة العربية، بيروت. ص ص ٢٧-٣٥.

(١٢) مجدى عبد الحميد محمد السرسى (١٩٩١) :

إنتاج الخضر المصرية وتصديرها وإمكانية تطويرها، للمجلة الجغرافية العربية تصدر
عن الجمعية الجغرافية المصرية، العدد الثالث والعشرون، السنة الثالثة والعشرون،
القاهرة. ص ص ١١٧-١٥٨ .

(١٣) محمد الخزامى عزيز (١٩٩٥) :

نظم المعلومات الجغرافية - دراسة تحليلية للمفاهيم والخلفية التاريخية، للمجلة الجغرافية
العربية، تصدر عن الجمعية الجغرافية المصرية، العدد السابع والعشرون، السنة السابعة
والعشرون، القاهرة. ص ص ٢٤٥ - ٢٨٦.

(١٤) محمد الفتحي بكير محمد (١٩٩٢) :

مستوطنات التدين على الساحل الجنوبي الشرقى لمصر - دراسة حالة أبو غصون،
المجلة الجغرافية العربية، تصدر عن الجمعية الجغرافية المصرية، العدد الرابع
والعشرون، السنة الرابعة والعشرون، القاهرة. ص ص ٧١ - ١١٠.

(١٥) محمد خميس الزوكة (١٩٧٤) :

المدخل إلى الجغرافيا الاقتصادية - الجزء الأول، مؤسسة للتقافة الجامعية، الإسكندرية
ص ص ٣١-٣٩ .

(١٦) محمد عبد القى سعودى (١٩٩٦) :

حول مناهج أقسام الجغرافيا بالجامعات العربية وضرورة مملكة مناهج الجغرافيا لمشكلات
المجتمع المصرية المعاصرة، للمجلة الجغرافية العربية، تصدر عن الجمعية الجغرافية
المصرية، العدد ثلثين والعشرون، لسنة ثلثين والعشرون، القاهرة. ص ص ٤٩١ - ٥٠٩ .

(١٧) محمد على بهجت الفاضلى (١٩٩٤) :

قراءات التنمية الريفية في دولة الإمارات العربية المتحدة - منظور جغرافى، مجلة كلية
الآداب جامعة الإسكندرية، المجلد الحادى والأربعين، العام الجامعى ٩٣ / ١٩٩٤،
الإسكندرية. ص ص ١١٧ - ١٧٤.

- (١٨) محمد على عمر الفراء (١٩٨٠) :
علم الجغرافيا - دراسة تحليلية نقدية فى المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة فى
البحث الجغرافى، دورية للبحوث الجغرافية، قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية
الجغرافية الكويتية، رقم ٢٢، الكويت. ص ١٤، ص ٦٠
- (١٩) محمد محمود الصبياد (١٩٨٨) :
الصلة بين التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية فى الوطن العربى المؤتمر الجغرافى
الثانى، اتحاد الجغرافيين العرب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. ص ٦ - ١٠.
- (٢٠) هدى الشنولى (١٩٩٥) :
الغنى والفقر فى العالم العربى - المبررات والمؤشرات مع الإشارة لبعض قضايا للتعبئة
بالتطبيق على المجتمع المصرى ومجتمع للدراسة (منطقة عزبة الصعايدة بإمبابة -
فعاليات ندوة عاطف غيث العلمية لملامحة " العلوم الاجتماعية ومشكلات المجتمع العربى
٢٦ - ٢٨ إبريل ١٩٩٥، دار المعرفة للجمعية، الإسكندرية. ص ١٦٣ - ١٦٥.

٦-٢ - مراجع باللغة الإنجليزية :

- (1) Adms, B., (1993) :
Sustainable Development and the Greening of Development Theory , in
F. J. Schuurman Beyond the Impasse, file , C., IMAGES. PP.207 - 222
- (2) Barke, M., and Ohare, G., (1984) :
The Third World , Sydney. P.2
- (3) Brian , J.,L., (1989) :
Comparative Geography of the Global Economy, Economic Geography,
Vol.65, No.1 , January 1989, Clark University, Massachusetts. P.2
- (4) Brohman , J., (1996) :
Postwar Development in Asian NICs : Does the Neoliberal Model Fit
Reality ? , Economic Geography, Vol. 72, No.2 , April 1996 , Clark
University, Massachusetts. PP. 107 - 130
- (5) Brown L., A., (1988) :
Reflections on Third World Development , Economic Geography ,
Vol.64, No.3 , July 1988 , Clark University Massachusetts. PP. 256-260
- (6) Carver, S., Heywood, I., Cornelius, S., and Sear, D., (1996) :
Evaluating Field - Based GIS for Environmental characterization,
Modelling and Decision Support, INT.,J., Geographical Information
Systems Vol. 9, No ., 4, UK. PP.475 - 486
- (7) Cooke, R., U., and Johnson, J.,H., (1969) :
Trends in Geography , Geography and Economic Planning , by wood,
P.,A., Oxford.
- (8) COX, K., (1972) :
Man Location and Behaviour, New York .PP. 313 - 315
- (9) DeCola ,L., (1994) :
Simulating and Mapping Complexity Using Multi-Scale Techniques ,
INT. J. Geographical Information Systems , Vol.8, No. 5 , UK. PP.411-427
- (10) Ekins, P., and Jacobs, M., (1995) :
Environmental Sustainability and the Growth of GDP: Conditions for
Compatibility , The North The South and the Environment , Ecological
Constraints and the Global Economy , London. PP. 9 - 46.

- (11) **El-Kariony, I.,A., and Thomas , G.H., (1995) :**
Some Factors Determining Production and Consumption of Fish in Egypt, Bulletin of High Institute of public Health, Vol.,25, No., 4, Alexandria University , Alēxāndria. PP. 919 - 924
- (12) **El - Ramly , I., M., (1994) :**
Environmental Maragment of Water Resources Development in Zambezi River Basin , Bulletin de la Societe de Geographie D'Egypte, Tome LXVII , Vol. 67, Cairo.PP. 73 - 102
- (13) **Ettlinger, N., (1994) :**
The Localization of Development in Comparative Perspective, Economic Geography, Vol., 70 , No ., 2, April 1994 , Clark University , Massachusetts PP. 144 - 165
- (14) **Flowerdew, R., (1932) :**
Institutions and Geographical Patterns, London.
- (15) **Forbes , D., K., (1984) :**
The Geography of Underdevelopment, London. P. 115
- (16) **Forbes , D., (1990) :**
Geography and Development , A Post - Modern Challange , Society and Space , 8 , file, C., / IMAGES. PP. 131 - 133
- (17) **Freeman, T., W., (1961) :**
A Hundred Years of Geography , London.
- (18) **Galston , W., K., and Baebler, K., J. (1996) :**
Rural Development in the United States : Connecting Theory , Practice and Possibilities , Economic Geography, Vol.72, No ., 4 , October 1996 , Clark University , Massachusetts. PP. 453 - 457
- (19) **Glasmeier, A., K., (1992) :**
The High- Tech Potential : Economic Development in Rural America Economic Geography, Vol., 68, No ., 4, October 1992 , Clark University , Massachusetts. PP. 443 - 445
- (20) **Goodchild , M.,F., (1992) :**
Geographical Information Science , INT. J., Geographical Information Systems , Vol., 6, No., 1, UK. PP. 31 - 45
- (21) **Goodland , R., J., A., (1990) :**
Environment and Development : Progress of the world Bank , The Geographical Journal, Vol., 156 No., 2 July 1990 , London. PP. 149-157.

- (22) Gordon, W., R., and Soubra, N., M., (1992) :
Geographical Information System and Planning in the USA : Selected Municipal Adoption Trends and Educational Concerns , INT.J. Geographical Information Systems , Vol.6, No., 4, UK .PP. 267 - 278
- (23) Gunnell, y., (1997) :
Comparative Regional Geography in India and West Africal : Soils , Landforms and Economic Theory in Agricultural Development Strategies, The Geographical Journal Vol., 163, No.,1 March 1997 , London. PP.38 - 46
- (24) Hallett, S.H ., Jones , R., J., A., and keay , C.,A., (1996) :
Environmental Information Systems Development for Planning Sustainable land Use, INT., J., Geographical Information Systems , Vol., 10, No., 1, UK. PP. 47 - 64
- (25) Hammond , C.,W., (1985) :
Elements of Human Geography, Second Edition London. PP.15- 21
- (26) Hansen, N., M., (1981) :
The Center-Down Development Paradigm , in Stohr, W., and Taylor, F., : Development From Above or blow, New York. PP. 15 - 22
- (27) Hasbem, S., M., and El-Rakaiby,M., L., (1991):
Geomorphology of Sinai Peninsula from Landsat Satellite Images and its Potential for Land Use, Bulletin de la Societe de Geographie D'Egypte Tome LXIV, Cairo. PP. 145 - 167.
- (28) Hodder , B., W., and Lee , R., (1974) :
Economic Geography , London. P. 169
- (29) Hutchinsun, C., F., and Toledano , J., (1993) :
Guidelines for Demonstrating Geographical Information Systems Based on Participatory Development , INT., J., Geographical Information Systems , Vol,7, No., 5 , UK. PP. 453 - 461
- (30) Jankowski,P., (1995) :
Integrating Geographical Information Systems and Multiple Criteria Decision - Making Methods, INT. , J., Geographical Information Systems, Vol.9, No, 3 , UK. PP. 251 - 273
- (31) Johns , M., (1992) :
Industrial Capital and Economic Development in Turn the Century Argentina, Economic Geography , Vol., 68 , No., 2 , April 1992 , Clark University , Massachusetts. PP. 188 - 204.
- (32) Jones , R., M., Copas , C., V., and Edmonds , E., A., (1997) :
GIS Support for Distributed Group- Work in Regional Planning , INT., J., Geographical Information Science , Vol., 11, No ., 1 , UK. PP. 53 - 71

- (33) Malecki, E., J., (1993) :
Technology and Economic Development: the Dynamics of local
Regional and National Change , Economic Geography , Vol.69 , No.,
1 January 1993 , Clark University , Massachusetts. PP. 94 - 98
- (34) Mattikalli, N., M., and Richards, K., S., (1996) :
Estimation of Surface Water Quality Changes in Response to Land Use
Change : Application of the Export Coefficient Model Using Remote
Sensing and Geographical Information System, Journal of Environment
Management, Vol., 4ii, No., 3, November 1996 , Plymouth. PP. 263 - 282
- (35) McDonald, M., G., (1996) :
Farmers as Workers in Japan's Regional Economic Restructuring ,
Economic Geography, Vol. 72, No.,1, January 1996 , Clark
University , Massachusetts. PP. 49- 72.
- (36) Mikhova, D., and Pickles, J., (1994) :
GIS in Bulgaria : Development and Perspectives INTJ., Geographical
Information Systems , Vol.,8, No., 5, UK. PP. 471 - 477
- (37) Morgan, W., B., and Solarz, J., A., (1994) :
Agricultural Crisis in Sub- Saharan Africa: Development Constraints
and Policy Problems, The Geographical Journal , Vol., 160 , No .,1 ,
March 1994 , London .PP.57 - 73.
- (38) Nijkamp, P. and Scholten, H., J., (1993) :
Spatial Information Systems Design Modelling and Use in Planning ,
INTJ., Geographical Information Systems , Vol7, No.1, UK. PP. 85-96.
- (39) Peet, R., and Watts, M., (1993) :
Development Theory and Environment in Age of Market
Triumphalism , Economic Geography , Vol.69, No., 3, July 1993 ,
Clark University , Massachusetts. PP. 227 - 253
- (40) Roberts, R., S., and Emel, J., (1992) :
Uneven Development and the Tragedy of the Commons : Competing
Images for Nature - Society Analysis , Economic Geography , Vol.68,
No., 3, July 1992 , Clark University , Massachusetts, PP. 249 - 271
- (41) Saleh, A., S., (1996) :
A GIS Approach to Underground Water Salinity Assessment and
Mapping in Salalah Plain Sultanate of Oman, Bulletin de la Societe de
Geographie D'Egypte, Tome Lxix, Vol., 69 , Cairo .PP. 141 - 155.

- (42) Schaaf, T., and Maehard, W., (1992) :
The Significance of Towns as Central Places for Rural Development in the Border Region of Ghana and the Ivory Coast, Applied Geography and Development, No., 40, Germany. PP.39 - 50
- (43) Schliephake, K., and Abdel Rahman, B., A., (1996) :
Man and Environment in the Muslim World, Orient, German Journal for Politics and Economics of the Middle East, Germany. PP.406 - 409
- (44) Schmidheiny, S., (1993) :
A Global Perspective on Development and the Environment, Economic Geography, Vol.,69, No., 4, October 1993, Clark University, Massachusetts. PP. 436 - 438.
- (45) Schmidt, M., G., Schreier, H., E., and Snah, P., B., (1995) :
AGIS Evaluation of Land Use Dynamics and Forest Soil Fertility in Watershed in Nepal, INT, J., Geographical Information Systems, Vol., 9, No., 3, UK. PP. 317 - 327
- (46) Srinivasan, A., and Richards, J., A., (1993) :
Analysis of GIS Spatial Data Using Knowledge Based Methods, INT, J. Geographical Information Systems, Vol., 7, No., 6, UK. PP. 479- 500
- (47) Streeten, P., (1980) :
Development Ideas and Historical Perspectives in Hirshman, A., D., : Towards a New Strategy for Development, Oxford. PP. 21 - 52
- (48) Thomas, G., H., and El-Kariony, I., A., (1995) :
Fisheries of the Egyptian Northern Delta lakes during 1962 -1989, Alexandria Journal of Agricultural Research, Faculty of Agriculture Alexandria University, Vol.40, No., 1, Alexandria PP. 185 - 201
- (49) Toni, Y., T., (1992) :
A Non- Malthusian Perspective on Population and Development of the Arab World, Bulletin de la societe de Geographie D'Egypte, Tome Lxv, Cairo PP. 31 - 54 .
- (50) Wannmall, S., and Islam, y., (1995) :
Rural Services, Rural Infrastructure and Regional Development in India, The Geographical Journal, Vol. 161, No., 2, July 1995, London PP. 149 - 166
- (51) Williams, C., C., and Haughton, G., (1995) :
Perspectives Towards Sustainable Environmental Development, Gatehead, England. PP. 9 - 21

Development theory

- Linked topics -

- The Geography of Underdevelopment.
- Theories of Development: Capitalism, Colonialism and Dependency.
- Global Capitalism: Theories of Societal Development.
- Labelling and the Language of Development.
- Sociology of the Global System.
- Theories of Underdevelopment.
- The Stages of Economic Growth; A Non-Communist Manifesto.
- The Theory of Economic Growth.
- Sociological Aspects of Economic Growth.
- Social Change, differentiation and evolution.
- The Social Society.
- The Achieving Society.
- Deconstructing Determinism: Marxism's development theory and a comradely cr..
- Rethinking Development.
- The Irrelevance of Development Studies,
- Geography and Development; A Post-Modern challenge.
- Epilogue: 'Researching for Development'.
- Theories of Development and Politics of the Post-modern-Exploring a border..
- Bringing culture back in : Overcoming the economic-cultural split in development.
- Culture and Development: The Prospects of an afterthought.

(1) <http://www.stile.lut.ac.uk/~gyedb/STILE/t0000425.html>

- A New World Order; Grassroots movements for social change.
- Women and Development in the Third World.
- Economic Theories of Development.
- Development Economics and the Study of Development.
- The Rise and Decline of Development Economics .
- Latin America: Sociology of Developing Societies.
- Geography and Underdevelopment I .
- Latin American Theories of Development and Underdevelopment.
- Dependencia : An Ideological History.
- Latin America : Underdevelopment or Revolution .
- Dependent Accumulation and Underdevelopment.
- Accumulation on a World Scale: A critique of the Theory of Underdevelopment.
- Dependency and Development in Latin America.
- Unequal Exchange: A Study of the Imperialism of Trade.
- The Modern World System I
- Methodological aspects of a Marxian approach to Development: An analysis of ..
- Capitalist World Development: A Critique of Radical Development Geography.
- Geography of Underdevelopment II.
- The Greening of the world
- Development Theory in Transition
- From Modernization to modes of Production.
- politics and Ideology in Marxist Theory .
- The Origins of Capitalist Development ; A Critique of Neo-Smithian Marxism.
- Modernization , Underdevelopment, Uneven development .
- The Modes of Production Controversy.
- Marxism , Post-Marxism and the Geography of Development .

- **Sociology of Development: Reflections on the Present Crisis.**
- **Transcending the impasse: Metatheory, theory and empirical research in the s..**
- **Marx, Weber, and Development Sociology: Beyond the impasse.**
- **Development Theory and the three Worlds.**
- **Development Theory and the three Worlds.**
- **Theories of Development: Capitalism , Colonialism and Dependency.**
- **Global Capitalism: Theories of Societal Development.**
- **The Alternatives to Liberal Democracy: a Latin American Perspective.**
- **Liberalization and 'Modern Liberty' : 4 Southern States.**
- **The State , Civil Society and Democracy in Africa : some theoretical issues.**
- **The Cultural Particularity of Liberal Democracy.**
- **European Trade Policies and the Developing World.**
- **The Interaction between styles of development and the environment in Latin A..**
- **Development studies: critique and renewal.**
- **Diverse Paths of Economic Development.**
- **Development Economics : What Next?**
- **Development Studies .**
- **The EC and the Developing World.**
- **Capitalist World Development : A Critique of Radical Development Geography.**
- **Third World Development.**
- **Market .**
- **Development and Environment: a view from the South .**
- **Debates and reports: Some Critical Questions for Anti-Essentialism.**
- **Reply to Richard Peet.**
- **After the Green Revolution.**
- **Sociology of the Global System.**

- Multinational Enterprises in less developed countries.
- The Collapse of Socialist Development in the Third World.
- Socialism and Underdevelopment.
- Emancipations, Modern and Postmodern.
- Beyond The Impasse: New Directions in Development Theory.
- Introduction: Development Theory in the 1990's .
- Development Research: From Impasse to a New Agenda.
- How Relevant Is Development Studies?
- The Political Meanings of Development : In Search of New Horizons.
- Political Programmes and Development: The Transformative Potential of Social D..
- Ethics in Development Studies : The Example of Debt.
- Exploring Development Interfaces: From the Transfer of Knowledge to the Transf..
- Gender Studies: Whose Agenda?
- Modernity, Post-Modernity and the New Social Movements.
- Sustainable Development and the Greening of Development Theory.
- Urban Social Movements in the Third World.
- Development Theory and the Three Worlds.
- Development 1 : Power, Knowledge, Discursive Practice.
- Democratization in Asia .
- Third World Development.
- Theories of Underdevelopment.
- The Geography of Underdevelopment.
- Economic Theories of Development.
- Dilemmas of Development.
- The Crisis of the 1980s in Africa, Latin America and the Caribbean: an overview.
- Economic Crisis , Structural Adjustment and the State in Sub-Saharan Africa.
- The IMF and the South: The Social Impact of Crisis and Adjustment.

Sustainable development -

-Linked topics -

- A New World Order; Grassroots Movements for social change.
- "Political Ecology .
- Environmentalism and Political Theory: Toward an Ecocentric Approach
- "Marxism and the Environment: A view from the Periphery.
- Sustainable Development.
- Environment and Development in Latin America .
- Ecology and Development in the Third World.
- Poverty and the Planet.
- Economics, Natural Resource Scarcity and Development"
- Development Theory and the Three Worlds.
- "Editorial : Environmental change, Development challenges.
- "A note on Poverty and Sustainability.
- "Present Development styles and Environmental problems.
- "The environment in the political arena.
- "Marxism and natural limits.
- The Political Economy of Soil Erosion in Developing Countries.
- "Imperialism and the Crisis of nature in Central America .
- The Emperor's new clothes : The World Bank and Environmental Reform.
- Development and the Environmental Crisis: red or green alternatives?
- "Structural Adjustment and National Environmental Strategies: What Interactio..
- "Aid for Third World Environments: Development Aid Agencies weak on environme..
- "Environmental Implications of Structural Adjustment: Reflections on Scientif ..

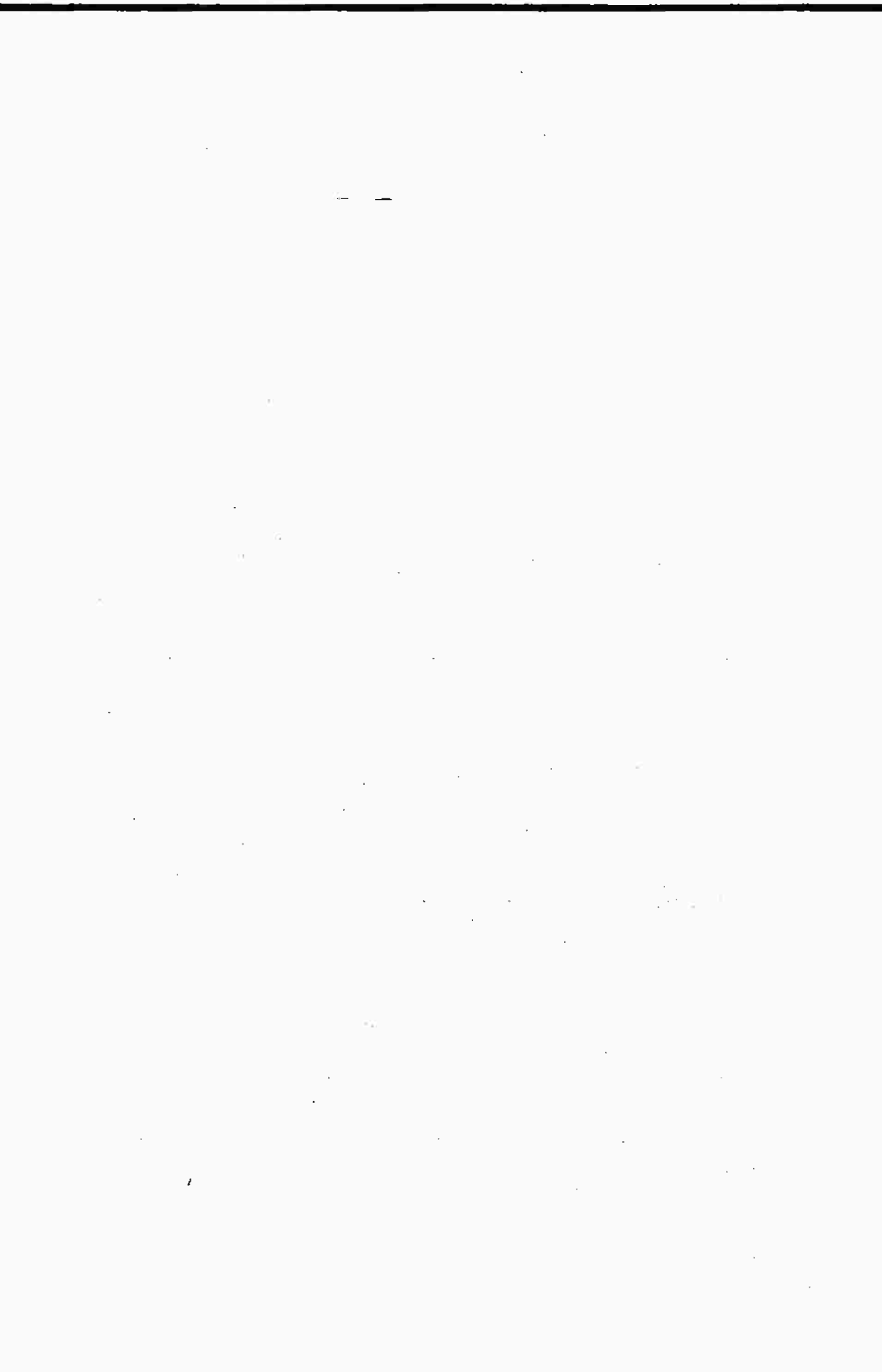
(1) [Http://www.stile.lut.ac.uk/~gyedb/STILE/t0000425.html](http://www.stile.lut.ac.uk/~gyedb/STILE/t0000425.html)

- Sustainable Development and the Market: A Framework for Analysis.
- Struggling with Honduran Poverty : The Environmental Consequences of Natural Re..
- Special edition on African economic environments.
- "International Order, economic regionalism and structural adjustment; The case..
- Special edition including a Report on the Rio Summit.
- Development and Environment : a view from the South.
- Special edition on the Rio Summit.
- Special Edition on Environment and development .
- "Green Revolution by order."
- After the Green Revolution.
- "Green Revolution.
- "The Green Revolution .
- "Induced Innovation, green revolution and income distribution.
- Beyond the Green Revolution.
- "The Green Revolution : A Diffusion Model.
- Sustainable Development and the Greening of Development Theory.

الأشكال الأرضية وعلاقتها بالجيولوجيا
مع التطبيق على أجزاء من اراضى
مصر وليبيا

د. عبد الله علام عبده

جامعة طنطا



مقدمة

اختار الباحث أماكن متباينة الموقع والتكوين والتركيب الجيولوجي في أجزاء من أراضي مصر وليبيا هي:

في مصر : القسم الجنوبي من سيناء حيث تتواجد الاسخور النارية.

في ليبيا : منطقة الجبل الاخضر التي تتركب من اسخور جييرية، وفي منطقة غدامس علي الحدود التونسية الجزائرية التي تتكون من صخور رملية وجيرية. ويهدف الباحث امكانية وجود تمايز في الاشكال الارضية في المناطق الثلاث نتيجة للاختلافات فيما بينهما من حيث التركيب والتكوين الجيولوجي. وقد اعتمد في دراسته علي ما يلي:

(١) الدراسة الميدانية .

(٢) الصور الجوية مقياس ١ : ٢٠.٠٠٠

(٣) الصور الفوتوغرافية .

(٤) الخرائط الجيولوجية والطبوغرافية والكتنورية، مقياس :

١ : ٥٠.٠٠٠ - ١ : ٢٥.٠٠٠

وقد حاول الباحث من خلال تلك الدراسة أن يربط العمل الحقل، بالصورة الجوية والصورة الفوتوغرافية، ليستضح في النهاية العلاقة بين الاشكال الارضية وجيلوجية المناطق.

هذا ويحتوي البحث علي ثلاثة أقسام رئيسية هي :

- الاول يختص بدراسة لجيلوجية المناطق المدروسة.

- الثاني يختص بدراسة جيومورفولوجية المناطق الثلاث.

- الثالث يختص بالتحليل الجيومورفولوجي للصور، متضمناً النتائج التي توصل إليها الباحث.

ثم ينتهي البحث بقائمة المراجع والمصادر.

- موقع مناطق الدراسة -

(١) منطقة الصخور النارية - جنوب سيناء :

فيما بين رأس محمد في الجنوب ، وخط تقسيم المياه لوادي كبير شمالاً ، وخليج العقبة شرقاً، وخليج السويس غرباً.

(٢) منطقة الصخور الرسوبية الرملية والجبسية «على الحدود الليبية- التونسية الجزائرية»:

وهي نقطة التقاء الحدود التونسية الجزائرية الليبية، على خط عرض ٣٠ شمالاً. والحدود الواضحة هي منطقة العرق الكبير جنوب تونس وشرق الجزائر- بينما الحدود الشمالية والشرقية والجنوبية للمنطقة عبارة عن هضبة الحمادة في الأراضي الليبية، وتشرف تلك الهضبة على المنطقة بانحدار شديد.

(٣) منطقة الصخور الجبلية، شمال شرق الأراضي الليبية «الجهل الأخضر».

فلكياً بين خطى عرض	١٥	٨	٢٢
وبين خطى طول	٤	٥٢	٣٢
	١٠	٤٨	٢١
	١٠	٤٥	٢٢
			شمالاً
			شرقاً

- حدها الشرقي وادي درنة ومصبه عند مدينة درنة.
- حدها الغربي أودية شرق مدينة الشحات والتي تصب بالقرب من مدينة سوسة.

- حدها الشمالي البحر المتوسط من درنة إلى سوسة.
- حدها الجنوبي أودية ظل المطر جنوب مدينة القبة.

- القسم الأول -

جيولوجية المناطق الثلاث

(أ) منطقة الصخور النارية - جنوب سيناء

١- التكوين الجيولوجي:

- المنطقة مقطاة بصخور نارية متضمنة الجرانيت القديم والحديث المنتمي إلى الدورة الصهيرية الثانية والثالثة، فصخورها الجرانيتية توجد على هيئة كتل كبيرة ضخمة غير منتظمة الشكل، وتلك الصخور مقطوعة بالعديد من السدود، وأحدث صخور المناطقة هو صخر الجرانيت.
- وتتداخل مع الجرانيت القديم صخور حامضية نارية منها، النايورائيت، والكوارتيز دايورائيت، والتوناليت، وتتداخل في الجرانيت الحديث نسبياً سدود من الانديزائيت والدوليرايت وكذلك صخور جرانو دايورائيتيه.

- وسدود المنطقة تقطع الصخور الجرانيتية حيث تشكل أجساماً طويلة ممتدة لعدة كيلومترات ، وسمكها يتراوح ما بين سنتيمترات إلى أكثر من ١٥ متر، وأغلبها عمودي. وللسدود أنواع كثيرة بالمنطقة منها السدود الحامضية والسدود المتوسطة؛ والسدود القاعدية، وأخيراً القلوية.

فمنطقة الدراسة تتكون أساساً من صخور نارية تنتمي إلى عصر ما قبل الكامبري، وتنقسم تلك التكوينات إلى قسمين علوي ، وسفلي ، وهذان القسمان يؤثران في شكل الظواهر الجيومورفولوجية. ومن أهم ما يؤثر في الظاهرة هنا وجود الصخور النارية المتداخلة وأنظمة السدود السابقة، والتي تبرد تحت سطح الأرض، مثال ذلك الجدد، لأكوليت، ولابوليت، وباثوليت.

ولكل منهما تأثيره على شكل الصخر والمظهر الجيومورفولوجي الخارجي، ويؤثر الباثوليت على شكل الصخور - فهي كتل ضخمة عميقة تتكون من الجرانيت والجرانو دايريت، حيث تكون جزور الجبال.

باحتماء أطرافها على قطع صغيرة متفاوتة الحجم من الصخور المحيطة بها، ويمكن أن تظهر على سطح الأرض بعد النحت الضعيف من عوامل التعرية.

ومن الظواهر الأخرى بالمنطقة ذات السمة الجيولوجية ظاهرة الفواصل وكتل الصخور المدورة، حيث تتميز الكتل النارية العميقة بوجود فواصل وشقوق أفقية كانت أو رأسية تفصل الكتل الصخرية فتجعلها متفاوتة الأحجام، وتتكون هذه الفواصل والشقوق بفعل الاتكماش المصاحب للتبريد، وتنشط عوامل التعرية، وينشط أيضاً تأثير المحاليل المائية الحارة عادة في هذه الفواصل. وينشأ عن ذلك تآكل ويري أركان وحواف الكتل الصخرية المنفصلة والمربعة الشكل أو متوازية المستطيلات، مؤدية إلى تكوين أجسام صخرية بيضاوية أو دائرية ، حيث تميز تلك الأشكال صخور الجرانيت.

(٢) البنية الجيولوجية :

معظم فوالقها هامشية تنتمي إلى الزمن الثالث، وهناك فوالق عادية، تأخذ اتجاه غرب، وفوالق تأخذ اتجاه شمال وشمال شرق، أذاحتها تتراوح ما بين ١ كم إلى عدة كيلومترات.

ومعظم الفوالق هنا ناحية الداخل واستمرت منذ الزمن الثالث حتى الرابع. ومن أهم فوالق منطقة الدراسة، فالق الحادمية، وفالق أم سيدرفالق وادي كيد.

والمنطقة تأثرت بالمحركات الأرضية التي أدت إلى تكوين أخدود خليج العقبة، ويخترقها عدد كبير من الصدوع، وكثير من السدود البازلتية التي تأخذ نفس اتجاه الصدوع.

- هذا وقد كان للفوالق السابقة واتجاهاتها أثر كبير على صخور المنطقة، حيث اتضح أن الصخور الجرانيتية الحديثة يحتمل تشققها نتيجة قوى التقلص بسبب البرودة أثناء تبلورها «شقوق أولية» ففي هذا النوع من الجرانيت - أنظمة الفوالق - تطورت في اتجاهات مختلفة ولكن اتجاه شمال غرب - جنوب شرق هو الاتجاه السائد والشقوق أحياناً تكون عمودية، وهناك الشقوق الأفقية، بينما المنحنية أقل شيوعاً.

وفي الجرانيت الأحمر والوردي الحديث نجد أنه مشقق بدرجة كبيرة مع نشاط كبير للتجوية، وهذا النوع من الصخور تأثر بقوة تكتونية قوية عمودية على مستوى الشقوق، مما سبب شقوق مقوسة.

- أما عن أثر الصدوع على منطقة الدراسة فكان على النحو التالي:
حدث حركة رفع أدت إلى ارتفاع كثيف وظهور صخور القاعدة فيما قبل الكمبري، وقد انتظمت الصدوع الكبرى في شكل سلمي، نتج عنها أشكالاً هندسية، وشكلت منخفضات تضارسية.

وقد هبط الغطاء الرسوبي - المكون من السليكا - ليغطي قيعان تلك المنخفضات. وأن عمليات الهبوط السابقة تبعها نشاط ناري، لذلك تظهر كثير من قواطع البازلت بكثرة في المنطقة نتيجة للتصدع وحدث فالتق في قشرة الأرض على فترات متباعدة.

- يبدو مما سبق أثر البنية الجيولوجية على الأشكال الأرضية، فقد تم إضافة تكوينات بازلتية، وظهرت الانكسارات والفوالق، وغير ذلك من الأشكال المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالظاهرة الجيومورفولوجية في المنطقة المدروسة.

(ب) منطقة الصخور الرسوبية - الرملية والجيرية - عليها الحدود الليبية - التونسية - الجزائرية «غدامس»

يشراوح ارتفاع غدامس التي تتوسط المنطقة حوالي ٢٨٠ متر فوق مستوى سطح البحر، ويوجد في المنطقة العديد من السبخات الملحية مثل سبخة المجذوم.

وتلك السبخات تعتبر أحواض تصريف داخلية. أو مستوي قاعدة محلي لأودية المنطقة الصحراوية . وأهم ما يميز المنطقة وجودة ظاهرة القور وقد قام الباحث بزيارة للمنطقة استمرت خمسة عشرة يوما، يرافقه فريق من البحث الميداني، واستطاع تتبع العديد من الظواهر الجيومورفولوجية وتسجيلها وقياس أبعادها، مستخدما الصور الجوية والخريطة الطبوغرافية وقد قام الباحث بتصوير كل الظواهر الجيومورفولوجية الموجودة هناك، ويتناول البحث الكثير منها ، وقد توغل الباحث مسافة أكثر من ١٠٠ كم داخل الحدود التونسية الجزائرية، بهدف دراسة أشكالها الأرضية.

جيولوجية المنطقة:

من أهم التكوينات علي السطح صخور الحمادة الحمراء، ووجود الصخور الجيرية والطفل والمارل والصلصال، ومعظم الصخور هنا رسوبية جيرية كربونية، وقد أظهرت العينات التي تم اخذها من المنطقة وقام الباحث بتحليلها في المعامل الخاصة بذلك، العديد من الصخور الرسوبية مثل، الشيرت، صخر الصوان، الكواوتيز، الجبس.

وتتنتمي صخور المنطقة من حيث عمرها الجيولوجي إلي الزمن الثاني، وبالتحديد العصر الكريتاسي.

هذا وتغطي العديد من مساحات المنطقة الكثبات الرملية. وغند تتبع أودية المنطقة الصحراوية وجدت الارسابات المائية متمثلة في الطمي والذي يصل سمكة أحيانا إلي أكثر من المتر .

وهناك تكوينات حصوية مختلفة الشكل والحجم في قيعان وديان المنطقة .

- والمنطقة من حيث تكوينها الجيولوجي تتميز بالطبقة في صخورها الرسوبية، كما تخلو من الانكسارات والالتواءات - ومن خلال الدراسة الميدانية، وعند دراسة ظاهرة القور نوجدان الطبقة المثلثة لها تقع علي مستوي واحد، وقد أظهرت التعرية المائية وجود حافات ناتجة عنها، كان يعتقد أنها انكسار، ولكن اتضح أن ذلك ناتج عن فعل المياه للحفات الموجودة.

- وبعض الدراسات الجيولوجية تؤكد وجود حافات انكسار بسيط يبعد عن مدينة غدامس بحوالي ٤ كم، ودليلهم علي ذلك هو الاختلاف الملحوظ في ميل الطبقات بتلك المنطقة.

والمنطقة في أوديتها يبدو تقطعها بكثير من القواصل والشقوق، وعلي حافاتها، وفي قيعان أوديتها . وليس للشقوق اتجاه معين، ولكن من الواضح تأثيرها الكبير بكل عوامل التعرية والتجوية بالمنطقة.

- أما عن الشكل العام لمنطقة الدراسة فهي عبارة عن مسعرات ثلاث هي :
- المستوي الأول هو الأعلى يمثل سطح القور - المستوي الثاني أقل ارتفاعا يمثل مدينة غدامس.

- المستوي الثالث - أقلهم ارتفاعا ، يمثل مستوي قاعدة محلي وهو سبخة المجذم. ومن خلال دراسة المنطقة يتضح لنا أهم الأشكال الأرضية بها والتي تمثلت في الآتي:

(٢) ظاهرة السبخات

(١) ظاهرة القور

(٣) ظاهرة الوديان الجافة الصحراوية.

(٤) ظاهرة الكثبان الرملية بكل أشكالها .

(٥) ظاهرة حافات التعرية المائية .

وسيوضح بيان كل الظواهر السابقة في الجزء الخاص بالتحليل الجيومورفولوجي للصور ، في نهاية البحث:
(ج) منطقة الصغور الجيرية - الجبل الأخضر:

تمثل المنطقة جزء من المدرج الأخير لمدرجات الجبل الأخضر بالقرب من ساحل البحر المتوسط .

وقد بلغت مساحة المنطقة حوالي ١٥٨٦,٥ كم^٢ . وترتفع عن سطح البحر بحوالي ٦٠٠ متر

هذا وقد قام الباحث بزيادة المنطقة بهدف دراستها ميدانيا مع فريق عمل ميداني من جامعة قارون في شهر ١١ عام ١٩٩٣ م، واستمرت زيارة المنطقة والعمل بها أكثر من ١٤ يوماً. قام خلالها الباحث بدراسة ميدانية مكثفة، نتج عنها العديد من نتائج البحث.

وتم استخدام العديد من وسائل البحث العلمي والمتمثلة في أدوات القياس في العمل الجيومورفولوجي، من قياسات معدلات الانحدار، والاتجاهات، ودرجات الانحدار، والكاميرا، وأخذ العينات لتحليلها ، وعمل قطاعات عرضية وطولية ميدانية، مع تتبع كافة الظواهر الجيومورفولوجية بمنطقة الدراسة، وفي أماكن

متباينة، وكذلك ظواهر قيعان الادوية وجوانبها، وظواهر الساحل الليبي من درنة إلى سوسة ، يهدف عمل تحليل جيومورفولوجي كامل للظاهرة.

جيبولوجية المنطقة:

(١) التكوين الجيولوجي:

تتلخص تكويناتها فيما يلي:

(١) تكوين البيضاء (٢) تكوين الابرق (٣) تكوين الفاندية (٤) تكوين المجاهير وادي دخان العويلية (٥) تكوين رأس الهلال (٦) تكوين الاثرون. (٧) تكوين ابولونيا (٨) تكوين درنة (٩) تكوين الزمن الرابع. - حيث تتكون صخور المنطقة من الحجر الجيري بنسبة ٩٠٪ مع تكوينات من المارل والدولوميت.

ويتكون الجبل الاخضر من إرسابات ترجع إلى الزمن الثاني والثالث، وفي العصر الكريتاسي العلوي يظهر التتابع الطبقي علي هيئة دورتين ترسيبتين، تمثل الدورة الثانية الاحداث تكوين المجاهير وادي دخان والعويلية، حيث الحجر الجيري والمارل والدولوميت ، بينما تمثل الاولى في تكوين الاحرار والبنية. ويحتوي تكوين الاثرون علي الكلكارنيت وهو عبارة عن طبقات رقيقة من الطباشير مع قليل من المارل، وينتشر وادي الاثرون والقلعة .

- في الزمن الثالث يظهر التتابع الطبقي واضحا في منطقة الساحل ، حيث تكوين ابولونيا ، ويتكون من حجر جيري دقيق ، حبيباته متوسطه بها حفريات، وفي الزمن الثالث وبالتحديد في عصري الاوليوجوسين، والميوسين تكون الحجر الجيري الطحلي الابيض، والمارل الاصفر، والصخور الجيرية المحتوية علي مارل رمادي.

(٢) التركيب الجيولوجي:

فقد تعرضت المنطقة لحركات تكتونية عنيفة ، نتج عنها سطوح عدم التوافق، وذلك منذ العصر الكريتاسي العلوي وانتهت في الزمن الثالث، ونتج عنها ايضا العديد من الانكسارات والشقوق، وظواهر خاصة بالتراكيب، تأخذ اتجاه معين وهو شرق شمال شرق - غرب جنوب غرب .

هذا ويوجد العديد من الانكسارات في المنطقة بعضها يأخذ اتجاه الشمال ٧٥° شرقا ، والآخر يأخذ اتجاه شمال ٩٦° شرقا.

- كما يوجد بالمنطقة العديد من سطوح عدم التوافق مثل :

سطح عدم التساوق بين تكوين اهلوتيا والاثرون، وبين تكوين درنة وتكوين
البيضاء، وبين البيضاء والابرق، وبين لابق وتكوين الفاندية.
- وتنشر الشقوق بالمنطقة فمعظمها ينتمي الي العصر الايوسيني، وغالبيتها
يأخذ اتجاهات شرق غرب، وشمال شرق جنوب غرب، ومعظمها عمودي. ومن
انواعها شقوق مفتوحة، شقوق وقفلله- شقوق مملوءة.

القسم الثاني الاشكال الارضية

من خلال

الدراسة الميدانية - الصورة الجوية - الصورة الفوتوغرافية
(أ) منطقة الصخور النارية:

كثير من العوامل ساهمت في نشأة الظواهر الجيومورفولوجية بمنطقة الدراسة، منها الباطني ومنها الخارجي وقد نتج عن ذلك العديد من الأشكال وهي:
الأشكال التحتانية مثل الأسطح شبه المستوية وأسطح التعرية.
ثم الانهيارات الأرضية، ونظام التصريف النهري بالمنطقة.

وتوجد بالمنطقة أشكال بنيوية مثل الحافات الإنكسارية المتمثلة في أسطح الصدوع وحوافها - وظاهرة الأحواض الجبلية وهناك الأشكال الرسوبية التي تتمثل في المراوح الفيضية والرواسب النهرية على شكل مصاطب ورواسب ما بين الأودية.

وهناك الكثير من الظواهر الجيومورفولوجية الأخرى أبرزتها الدراسة الميدانية والصورة الجوية مقياس ١: ٢٠٠٠٠ سوف نتتبع بعضها بغرض تحليلها، وفيما يلي عرض لأهم الظواهر الجيومورفولوجية بالمنطقة:

* الأشكال التحتانية: أسطح مستوية - شبكة الصرف - الانهيارات الأرضية - الإنزلاقات الصخرية - السقوط الصخري - الحوائق .

* الأشكال الرسوبية: المصاطب - المراوح - رواسب ما بين الأودية - رواسب المنحدرات.

* أشكال بنيوية : الحافات الإنكسارية «الحواف الصدعية» - حافات أسطح الصدوع» - الحرائط الجبلية - القباب الجرانيتية.

* كافة الظواهر الجيومورفولوجية السابقة توضحها الصور من رقم (٤٧) إلى رقم (١) وقد اتضح من دراسة المنطقة، أن معظم الأشكال متشابهة، لذلك تم التركيز على مناطق محدودة - بهدف الدراسة التفصيلية الواضحة.

(١) جنوب المنطقة أهم الأشكال بها: بالتحديد من خط تقسيم المياه ما بين أودية خليج العقبة وأودية خليج السويس، وأودية رأس محمد تجاه شرم الشيخ.

حيث تفرع الأودية بداية من وادي ليتح تجاه خليج السويس، ووادي لتحى تجاه خليج العقبة، ووادي ثالث يتجه جنوباً ناحية شرم الشيخ ، وأودية كثيرة أخرى تتفرع في اتجاهات مختلفة. نلاحظ هنا ما يلي : الأودية تتميز بالاتساع في مجاريها الرئيسية بينما مجاريها الفرعية المنحدرة من الجبال تتعزّز بأنها خانقية وذات انحدارات شديدة جداً. وضيقة للغاية، ومنطقة التقاء تلك الروافد الخانقية يوجد بها رواسب سميكة، ونلاحظ أن الوادي المتجه ناحية خليج العقبة يتجه شمالاً ثم شرقاً ثم شمالاً بزاوية مقداره ٥٠°، وهذا الوادي يعتمد عليه الروافد الخانقية ، والسبب في هذا التعامد الصدوع التي أصابت منطقة الدراسة - ويواصل الوادي اتجاهه ناحية الشرق بزاوية قدرت بحوالي ٧٥°. ويقترب قاع الوادي الرئيسي ورواسب حديثة ترتكز على رواسب أقدم منها، شكلتها المياه على هيئة جداول صغيرة تأخذ الشكل المضفر. ثم يغير الوادي اتجاهه وزاويته في اتجاه الشمال والشمال الشرقي بمقدار ٤٥°، ثم يوازي الوادي اتجاه القواطع البازلتية، مما يساعد على النحت والتجوية للصخور هنا. ينتج عن ذلك التلال المنعزلة على جوانب مجرى الوادي وعلى قاع الوادي نفسه، ثم يتجه الوادي ليلتقي بأودية أخرى فرعية وهكذا، وعلى الجوانب تنتشر ظاهرة المراح الفيضية التي تميز كل منطقة الدراسة، فبعض الأودية في المنطقة تزيد فيه أعداد المراح الفيضية لتصل إلى أكثر من ١٥٠ مروحة متباعدة المساحة والشكل. وتتميز المنطقة أيضاً بوجود حوائط صخرية عالية ومتصلة في كثير من الأحيان، بعضها متآكل بسبب عوامل التعرية، وبعضها صلب متماسك وعند مقارنة الصورة الجوية بالصورة الفوتوغرافية، يبدو لنا التحليل أكثر وضوحاً للأشكال السابقة.

(٢) شمال المنطقة أهم الاشكال بها :

* وجود قواطع البازلت أثر على شكل الأرض تأثيراً كبيراً فتبدو وعرة سيئة وتبدو الرواسب على جانبي الوادي سميكة، وتكثر الحوائط الجبلية، والأودية الخانقية، ووجود رواسب تحت منحدرات الجبال، كما نجد القاع النهري ملئاً بالرواسب السميكة، والتلال المنعزلة يوجد حولها كميات كبيرة من الرواسب، كما أن صخور الجرانيت هنا هشة يسهل عمل التجوية والتعرية بها. كما تتميز تلك المنطقة بوجود الفوالق بعضها مغطى بالرواسب السميكة - ونلاحظ أن الحوائط الجبلية الشمالية أثرت فيها عوامل التجوية والتعرية بنسبة

قليلة، على عكس الحوائط الجبلية الجنوبية كان التأثير فيها كبيراً جداً.
كما تنتشر في المنطقة التلال بكثرة، والمصاطب الفيضية على جانبي الوادي،
وتنتشر أيضاً الوديان الخانقية وأسطح الحافات الصدية - والحوائط الجبلية -
وتتخذ تلك الحوائط اتجاهات مختلفة ، شمال ٢٥ شرق، ٧٥ شرق.
وفي المنطقة تكثر القواطع خاصة منها الحمضي والقاعدي.
* ومن الملاحظ على الأودية هنا أنها ضيقة و خانقية ، وأثر النحت بها قليل
نظراً لصلابتها.

نلاحظ أيضاً وجود الحافات الانكسارية. والأحواض الجبلية، حيث يوجد أكثر من
٥ أحواض كبيرة هذا بخلاف الأحواض الجبلية الصغيرة، وتلك الأحواض تقطعها
السدود البازلتية، وتكوينها ينتمي إلى الجرانيت الحديث. ومن الملاحظ أن
الأودية متباينة من حيث عرضها وأطوالها ، فيما بينها ويحدها حافات
انكسارية تتميز بانحدارين أحدهما شديد والآخر قليل الانحدار.
* أما عن الرواسب الموجودة على جانبي الأودية فهي عبارة عن أسطح خفضتها
عوامل التعرية، ترتكز عليها الرواسب، وتقطعها المياه على هيئة وديان، وتمتلئ
تلك الوديان برواسب أخرى سميكة مكوناتها من الكوارتز البلاجوكليزي، مع
كمية من الحصى، وتقطع تلك الرواسب سدود البازلت باتجاهات ١٥، ٤٥، ٩٠
تجاه الشمال، وتظهر الرواسب الدقيقة في الصورة الجوية بلون رمادي ولكن
الرواسب الخشنة تظهر بلون غامق.

* أيضاً توجد ظاهرة أخرى وهي تلال الجرانيت القبابية الدائرية، ذات انحدارين
الشديد منها ناحية الشرق والخفيف ناحية الغرب، وأهم ما يميز صخر الجوانيت
هنا نظام الفوالق والشقوق المتعامدة مع بعضها، مما أثر على شكل النظام المائي
بها أدى ذلك إلى جعل الأودية متعامدة مع بعضها البعض. كما نلاحظ وجود
المناطق الجبلية المعقدة تضاريسياً، وتختلف في تركيبها وتكوينها من ناحية
الشرق والغرب، فهي متماسكة صلبة تجاه الغرب، وأقل تماسكاً تجاه الشرق،
ويرجع السبب إلى طبيعة تكون صخورها فالصخور الشرقية حديثة التكوين،
بينما الغربية تنتمي إلى الجرانيت القديم ، فصخور الجرانيت القديم تتميز
بوجود البلاجوكليز بنسبة كبيرة يغلب عليه اللون الرمادي الفاتح جداً ويتحمل
عوامل التعرية ويجعل المنطقة هنا على هيئة حوائط جبلية عالية، تسير في
اتجاه حوائط أخرى موازية لها، مما أثر على نظام شبكة الصرف في المنطقة،

ولكن أهم ما يميز منطقة المنبع هنا لتلك الأودية وجود حواف خطوط الانكسار والتي تأخذ الشكل المستقيم، ووجود خطوط أخرى منشئية، فالسبب في هذا الانثناء أن نظام الفوالق هنا نوعين مختلفين في اتجاههما ، مع وجود عوامل التعرية والتجوية، فوحدت اتجاه الصدعين على هيئة خطوط منشئية. من خلال العرض السابق يبدو لنا التركيز على بعض المظاهر الجيومورفولوجية. مثل:

أ - الحافات الانكسارية ب- الحوائط الجبلية.

جـ - القمم الجرانيتية د- الأحواض الجبلية.

من حيث الحافات الانكسارية ، يرجع السبب فيها إلى كثرة الفوالق والشقوق والانكسارات بالمنطقة ، وقد نتج عن وجود الحافات الانكسارية ظاهرة التساقط والانزلاق الصخري، والنحت التراجعي، وعملية تقويض جوانب الوديان عند الحافات ، وقد نتج عن وجود مثل هذه الحافات أودية خانقية شديدة الانحدار، كما تتميز المنطقة نتيجة لوجود الحافات بالنظام الأخدودي، والحوائط الضيقة جداً، مع حافات متوازية مستقيمة الاتجاه في مجاري الوديان الرئيسية - ونلاحظ أيضاً علي منحدرات الحافات وفي أسافلها وجود الرواسب المتراكمة والتي تأخذ الشكل الهرمي.

* أما عن الحوائط الجبلية و قمم الجرانيت بالمنطقة، فتعتبر بمثابة خطوط تقسيم مياه ما بين الأحواض النهرية. وجميع الحوائط السابقة مقطعة بخطوط الانكسارات والسدود المختلفة الأنواع، وتنتشر أيضاً ظاهرة القباب الجرانيتية بسبب طبيعة التركيب المعدني للجرانيت حيث الجرانيت خشن الحبيبات والذي لا يقاوم عوامل التعرية والتجوية. ويساهم فيما سبق أيضاً الفواصل والشقوق في صخور الجرانيت.

* ولكن بالنسبة لظاهرة الأحواض الجبلية والتي سبق الإشارة إليها، فهي عبارة عن أحواض فرعية تغذي الأودية الرئيسية ذات مناسيب منخفضة بالنسبة للمناطق المجاورة لها، وتتباين تلك الأحواض فيما بينها من حيث المساحة، والمنسوب.

والسبب الرئيسي في تكوين الأحواض الجبلية هو نظام بنية المنطقة والانكسارات التي أصابتها - وساعد على ذلك تكوين صخور الجرانيت.

(ب) منطقة الصخور الرسوبية «الجيرية - الرملية» غدامس، ومن خلال الصور الجوية والدراسة الميدانية للمنطقة، تمكن الباحث من تتبع الظواهر الجيومورفولوجية التالية: الظواهر الناتجة عن فعل التعرية الهوائية حيث نحت الرياح ويتمثل ذلك في الكهوف الريحية، والموائد الصحراوية، وحيث تعمل الرياح كعامل إرساب فتتكون الكثبان الرملية وهي بكثرة في المنطقة.

أيضاً تمكن الباحث من تتبع الظواهر الناتجة عن فعل المياه وهي:

- * السبخات والعيون المائية بها مثل عين الدبانة.
- * الأودية الجافة الصحراوية.
- * أهم الأشكال بالمنطقة وهي ظاهرة القور.

والظواهر السابقة توضحها الصور من رقم (٤٨) إلى رقم (٧٢) وبإيجاز شديد عن أهمها اتضح الآتي: ظاهرة الكهوف الريحية توجد أسفل الحافات الصخرية حيث حمولة الرياح الخشنة في أسفل الحافة مما يؤدي إلى زيادة احتكاكها مع الصخر، خاصة إذا كانت تلك الأجزاء من الصخر ضعيفة فيؤدي ذلك إلى تعمق ما تحمله الرياح من رواسب خشنة في أعماق الصخر الضعيف، فتبدو في النهاية على هيئة ثقب يفصلها عن بعضها ما تبقى من الصخر على هيئة أعمدة.

ومن أبرز الظواهر الناتجة عن نحت الرياح ظاهرة الموائد الصحراوية والتي تنتشر على أراضي الصحراء الليبية خاصة تلك المنطقة المدروسة، فقد لوحظ بعضها شمال شرق غدامس بحوالي ٣٠ كم، ومن الظواهر المميزة لواحة غدامس وخاصة المنطقة الحدودية الليبية وجود الكثبان الرملية متعددة الأشكال وخاصة منها الطولي، وتنتشر الكثبان الرملية على طول الطريق من درج إلى غدامس، وفي مسافات متفرقة من الواحة.

كما يوجد العديد من الظواهر الناتجة عن فعل المياه، من أبرزها السبخات والتي تعد مستعربات قاعدة محلية لكل الأودية التي تصرف مياهها داخل الواحة، فهناك أكثر من ٦ سبخات، أكبرها جميعاً سبخة المجزم، حيث تشترك تلك السبخة في أراضي الثلاث دول الحدودية. والسبخات هنا مستوية تغطيها الرواسب السطحية المختلطة بالأملاح، وغالباً ما تتوسط السبخة بحيرات ضحلة جداً، عدا سبخة المجزم والتي يتوسطها الكثبان الرملية وبين تلك الكثبان توجد

بحيرة عميقة وهي بحيرة عين الدبانة، وتصرف إليها كل الأودية الكبيرة بمنطقة الدراسة، وحول سبخة المجذوم توجد العديد من القور والتي تمثل شبه دائرة حول السبخة، وقد بلغ عمق بحيرة عين الدبانة السابقة أكثر من ٥٠ مترًا وقد حدد البعض عمقها على أساس أنها ٥٥ مترًا ويرجع الجيولوجيون أن هذا العمق سببه فالق، وأن الضخ المائي للعين كبير من أسفلها مما جعلها تتصل بمخزون الماء الجوفي بالإضافة للمياه التي تأتي إليها من الوديان التي تصرف فيها.

* ومن الظواهر الناتجة عن فعل المياه، ظاهرة الأودية الصحراوية الجافة. فتلك الأودية تصرفها داخلي، مثل وادي المالح، الاوال، وادي تناورت، وادي ميمون، ويصرف معظمها في سبخة المجذوم.

ومعظم رواسب الأودية تتكون من الحجر الجيري والمارل والدولوميت. والجبس، والحصى والحصباء، ومنها الرواسب الدقيقة، والرواسب الخشنة وأهم ما يميز الأودية هنا اتساعها في كثير من الأحيان وتمتد إلى أكثر من ٣٠٠ كم طولي. ويوجد بالأودية الصحراوية ظاهراتها المرتبطة بها، والصور توضح ما سبق.

* أما عن أهم ظاهرة جيومورفولوجية بالمنطقة كلها وهي ظاهرة القور حيث فعل المياه مع مساعدة عوامل أخرى ساهمت في نشأة مثل هذه الظاهرة، وقد ساعد على تتبع تلك الظاهرة وجود الصور الجوية وبعض خرائط المنطقة، فيوجد من القور ما هو متصل، ومجموعة تتجاوز بعضها البعض، ومنها ما هو منفصل في أماكن متباعدة ومتناثرة على كل مساحة ألواح، فقد تتبع الباحث ما يقرب من ٥٠ قارة منعزلة من القور، وبعض منها متصل أو متقارب أثناء دراسته الميدانية على هذا النحو.

* معظم قور المنطقة كانت عبارة عن مناطق جبلية وتليه متصلة تمثل حافات وخطوط تقسيم مياه للأودية الصحراوية، ومع التغيرات المناخية في البلايستوسين، وسقوط الأمطار في المناطق الصحراوية، تشكلت تلك الظاهرة، فقد لعبت المياه الدور الرئيسي والكبير في تشكيلها وتقطيع تلك الحافات والتلال على هيئة قور، ساعدها على ذلك صرل تلك الأودية التي تشكلت بين القور في مستويات قاعدة محلية مثل سبخة المجذوم السابق توضيحها.

* أما عن طبيعة التكوينات الجيولوجية للقور فهي:

نظام الطبقات بها أفقية ناتجة عن ترسيب بحر تيشس لها في عمليات الطفيان والانحسار، والقطاع الجيولوجي للقور بوضع تتابع الطبقات بها من طبقات

جيرية يعملوها طبقات رملية، وأحياناً طبقات من الجبس مع الجير وهكذا.
وأشكال القور مختلفة منها المستطيل، ومنها الدائري ومنها القبابي، ولكن
كلها ذات أسطح مستوية منسوبها واحد تقريباً، ومن أشهر قور المنطقة، قارة
جبن الصحابة، أو قارة رأس الغرل، والقارة المشلخة، وقور سبعة المجزم وقارة
توان وغيرها من القور.

منطقة الصخور الجيرية الجبلية : الجبل الأخضر-الساحل من درنه
إلى سوسة :

* أمكن تتبع الظواهر الجيومورفولوجية هنا من خلال الصور الجوية والدراسة
الحقلية، فالظاهرة هنا تختلف عن المنطقة الصحراوية السابقة "لغدامس" وشكل
الأودية يختلف كل الاختلاف عن السابقة وسوف نتتبع بعض تلك الظواهر
حيث أمكن للباحث تقسيمها كما يلي :

(أ) ظواهر بفعل المياه
(ب) الظواهر الكارستية.

وقد تتبعها الباحث وسجل لها العديد من الصور ليكمل بها تحليل الظاهرة.
والصورة من رقم (٧٣) إلى رقم (٨٢) توضح ذلك :
ويمكن إيجاد تلك الظواهر على النحو التالي :

(أ) ظواهر بفعل المياه :
- ظواهر الأودية النهرية بالمنطقة ومن أبرزها الأودية الخانقية مثل منطقة عين
قرطبلس في وادي القلعة، حيث الصخور الجيرية ومدى فعل المياه بها مما ساعد
على ذلك.

* أيضاً ظاهرة الجنادل والشلالات، مثل شلال رأس الهلال بالقرب من مصب
وادي القلعة، وشلال درنة بالقرب من مدينة درنة عند المصب، ووجود الجنادل
عند عين قرطبلس وسط وادي القلعة. ومن ظواهر قيعان الأودية ظاهرة نقاط
التجديد ومعظمها من النوع السلمي، في وادي القلعة، وادي الأثرون، وادي
المهول، والسبب في ذلك وجود عقد الصران داخل الصخور الجيرية وبعض من
هذه النقاط ناتج عن انخفاض مستوى القاعدة لمستوى سطح البحر، مثل شلال
رأس الهلال عند مصب وادي القلعة.

* أيضاً من ظواهر قيعان الأودية ظاهرة الحفر الوعائية، وتنتشر في وادي القلعة
، وادي الأثرون، وادي الحصين.

* ظاهرة المدرجات النهرية وتوجد على بعض جوانب الأودية مثل وادي الحمي ووادي هوضحاك، ووادي ذرنة، وتتكون من الطوفا الكلسية يعلوها المارل.

* ظاهرة السهل الفيضي تم ملاحظة ذلك في الأودية التي تصب عند رأس الهلال، مثال ذلك وادي القلعة، في المناطق الواسعة منه والأودية التي تصب بالقرب من مدينة سوسة.

* ظاهرة منعطفات الشباب: تتبعها الباحث في جميع الأودية الخانقية والتي تصرف مياهها ناحية البحر المتوسط، أي شمال منطقة الدراسة لأن معظم تلك الأودية تتميز بمرحلة الشباب.

وقد أوضحت نتائج الدراسات المورفومترية التي أجراها الباحث في بحث مستقل لأودية الحافة الشمالي للجبل الأخضر، ان تلك الأودية تتميز بمرحلة الشباب .

(ب) الظواهر الكارستية

بإيجاز شديد، تتمثل في (١) البالوعات «الإذابة - الانهيارية» (٢) ظاهرة البوغاز «التشرشر الجيري» (٣) التربة الطينية الحمراء «منتشرة بالمنطقة» (٤) أهم ظواهر الكارست بالمنطقة الكهوف الجيرية- حيث تنتشر في مناطق متفرقة منها كهف قرطبلس، ومنها كهف شجيرة عند درنة ومنها الكهوف الكبيرة المساحة والكهوف الصغيرة والمتوسطة.

(ج) الظواهر الجيومورفولوجية الساحلية

أمكن تتبعها على النحر التالي:

من درنة إلى مدينة سوسة على طول الساحل وجدت ظواهر، المسلات البحرية، ومدرجات النحت النهرى، وظاهرة الكهوف البحرية - وظاهرة الجروف البحرية أو الخلجان وظاهرة الأقواس البحرية - وغيرها من الظواهر الأخرى.

وقد تتبعها الباحث وتم قياسها ميدانياً وتصويرها وأجرى التحليل الجيومورفولوجي الدقيق لها يتضح ذلك من خلال الصور من رقم (٧٧) إلى رقم (٨١) حيث ربط الباحث بين تركيب وتكوين صخور الساحل وتأثير الأمواج عليها مما ساعد على نشأة مثل هذه الظواهر الساحلية.

ويمكن معرفة هذا التحليل من خلال القسم الثالث والأخير في هذا البحث والخاص بتحليل دقيق للظاهرة من خلال الصور لكافة الظواهر الجيومورفولوجية للمناطق الثلاث السابقة.

القسم الثالث

- تحليل الصور الفوتوغرافية للأشكال الأرضية
(أ) منطقة الصخور النارية - جنوب سيناء.

رقم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
(١)	توضح صخور الجرانيت الوردي بتوسطها صخر طيني لأثر سد بازلتي، وهي جزء من حافة صدعية انكسارية.
(٢)	توضح أحد الروافد الخانقية ناتج عن الانهيارات والتجوية وتآكل الصخور، ويوجد أثر لسد بازلتي، وبأخذ الخائق شكل حرف V ويمتلئ القاع بالرواسب الخشنة والحطام الجرانيتي، والجوانب تبدو شديدة الانحدار.
(٣)	سدود بازلتية وأسية بارزة في وسط صخور الجرانيت، السبب فيها فعل المياه، وتظهر صخور الجرانيت في أعلى صورة كقمة مديبة.
(٤)	الشقوق واضحة في الجرانيت وتظهر الكتل البركانية الصغيرة، والتشقق هنا على شكل صفائحي، ونلاحظ أيضاً التفكك الكتلي بسبب التجوية
(٥)	عرق من الكوارتز يظهر من خلال صخور الجرانيت الحديث، سمك العرق يتراوح ما بين سنتيمتر إلى ٢ سم، اتجاهه ٨٠° جنوب شرق.
(٦)	يبدو هنا ألوان مختلفة من الجرانيت، حيث الوردي ثم الرصاص ثم الوردي، وبينها السدود البازلتية، يتضح من الصورة التداخل الناري.
(٧)	عرق من الكوارتز سمكه ٥، ١ سم إلى ٥، ٢ سم، يوازي قاع أحد الأودية بين صخور الجرانيت يمتد في اتجاهه من القرب إلى الشرق.
(٨)	أحد السدود البازلتية شكله ملتوي، يوازي قاع الوادي متجهاً ناحية الجنوب الغربي، تقطعه المسيلات المائية
(٩)	فوالق صغيرة تسبب انهيار الكتل الجبلية، ويوجد ثقب أسفل الكتلة اتساعه ٣٢ سم وطوله ٧٣ سم، تنزلق عليه الكتل على هيئة

رقم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
	تقوس مقعر ناحية الثقب، ويوجد في الكتلة نفسها ثقب آخر حوالى ٧٠ سم.
(١٠)	من أثر نظم التجوية يوجد ذلك البروز الصخري وحيث يختلف نوع الصخر من جرانيت رصاص، بينهما سد باذلتى وشقوق وصخر متساقط وحصى وحصىاء بجوارهما، مع وجود قاطع حامضي في صخور الجرانيت الوردي سمكه ٣٠، ٢ متر بجوار السد البازلتى، نلاحظ بالصورة نظم الفواصل الرأسية والأفقية والمائلة.
(١١)	تبدو الفواصل الرأسية والأفقية والمائلة في الجرانيت ويتضح أثر عوامل التعرية، ووجود حافات قافزة.
(١٢)	وجود انحدارات عمودية نتيجة لنظم الفواصل، مع ملاحظة أثر عوامل التعرية ومجاري المياه في الجرانيت كما يوجد قاطع من الصخور البركانية في وسط الجرانيت وعند المنحدر نلاحظ مخروط الهشيم وبين الفواصل والشقوق توجد رواسب الهشيم.
(١٣)	فالق رأسي في الجرانيت اتجاهه ٢٥ شمال شرقي، اتجاه رمية الفالق ٨٠ سم، لون الجرانيت رمادي، يوجد تفكك حبيبي على السطح بسبب التجوية الميكانيكية.
(١٤)	يوجد بوسط الكتلة لون رصاص غامق في وسط الجرانيت الوردي، يمثل الزينوليت طوله ٢٦ سم، عرضه ٢١ سم.
(١٥)	توضع سد من البازلت وقاطع بركاني في الجرانيت وهذا السد من النوع الرأسي، بسبب فعل المياه، نلاحظ أن الانحدارات شديدة وتوجد حافة صدعية مع وجود حافة صخرية مستقيمة الامتداد ويقسمها القاطع السابق إلى قسمين، وتوجد التلال السيفية المشرشرة ذات القمم الجرانيتية الأبرية المدببة بسبب التصدع والانكمسارات، كما نلاحظ الواجهة الصخرية المفتتة والمقطعة تقطيعاً شديداً بفعل الشقوق والفاصل ساعدت أيضاً التجوية.
(١٦)	توضع شق صخري وسدود رأسية بارزة وسط صخر الجرانيت الأبيض، نتج ذلك بفعل المياه وتآكل الجرانيت الضعيف مع مساعدة

رقم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
	عوامل التجوية.
(١٧)	تشقق واضح في الصخور ناتج عن الصدوع ومساهمة عوامل لتجوية في توسيعه. السمك ما بين ٢٠ سم إلى ٣٢ سم - الحظ تعرض الصخر للحرارة والبرودة مما يؤدي إلى تكوين واتساع مثل هذه الشقوق والفوالق ، كما نلاحظ تقشر الصخر وتجريفه في شكل بيضاوي وسقوط الكتل البيضاء من أماكن سقوطها بفعل التجوية في الجرانيت الأحمر - نلاحظ وجود فوالق صغيرة تتعامد مع الفالق الأفقي السابق ، وهي في طريقها لتكوين تجريف جديد على سطح الصخر.
(١٨)	نلاحظ وجود حافة صخرية شديدة الانحدار جداً ٩٠ ، يبدو عليها كثير من الانهيارات ، مع وجود رواسب صخرية وفتات صخري منحدر من أعلى ، مع وجود مخروطات الهشيم عند نهاية المسيل وبين الشقوق والفواصل حيث الانحدارات العمودية - نوع الجرانيت هنا خشن الحبيبات مع ملاحظة الواجهة الصخرية المفتحة والمتقطعة تقطيعاً شديداً بسبب الشقوق والفواصل ، نلاحظ أيضاً انحدار السيلات انحداراً فجائياً بسبب التصدع.
(١٩)	الجرانيت الأحمر يوجد به مجموعة من السدود البازلتية والتجاويف الصخرية بفعل المياه والرياح وتشققات صخرية وانحدارات شديدة مع وجود قمة جرانيتية قاومت عوامل التعرية، مع ملاحظة السد البازلتي والذي يصنع قوس، نلاحظ أيضاً التقطع الشديد بفعل الفواصل والشقوق.
(٢٠)	صخور جرانيت وردي وفتات صخري، تأخذ الشكل المتدرج على هيئة كتل جبلية منعزلة عن بعضها، وبها سد بازلتي يوازي القمم السابقة تجاهه شمال غرب. والجرانيت الأحمر هنا ينتهي إلى الدوة الصحيرية الثانية، بينما الجرانيت الأبيض حمضي.
(٢١)	رسوبيات من فتات الجرانيت أسفل المنحدر قليل بزاوية مقدارها ٦٥ عند قاع الرادي وأعلى ٨٥ ، عبارة عن طبقات هشة من الجرانيت

رقم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
	ارتفاعها ٢, ٢٦ متر عن القاع، وبطول ٨٦ متر، وعرض سطحها ١٨ متر.
(٢٢)	أثر التجوية الميكانيكية والكيميائية يتضح هنا ، حيث قمتين جبليتين، ويظهر فيها أثر التجوية على هيئة تكهف وتساقط وانهارات وتفتت حصوي، وثقوب صخرية مع وجود سد بازلي أثرت فيه التجوية فنحرتة وفصلت القمتين، نلاحظ أيضاً أن الجرانيت هنا ضعيف وهش مع وجود فجوات وكهوف صغيرة على طول أنظمة الفواصل.
(٢٣)	اشاخص صحراري من الجرانيت قرب قاع الوادي، ناتج عن تأثير الجرانيت بفعل التجوية وبخاصة الكيميائية على طول الفوالق الرأسية، ونلاحظ وجود فجوات وكهوف صغيرة تخترق فواصل الشقوق ، وتوجد حفرة صخرية يشير إليها السهم تكونت بفعل التجوية.
(٢٤)	الرواسب سميكة أسفل الجبل مع وضوح تفكك الصخور وانهارها، مع ملاحظة الكمية الكبيرة للمواد الصخرية المفتتة والمذابة ومدى كمية التراكمات الهشة عند منابع أحد الأودية، ويمكن حدوث النحت التراجعي ، يساعد على ذلك الهدم والنحت والانزلاقات على الجوانب شديدة الانحدار، إضافة لفعل المياه والتجوية خاصة الميكانيكية.
(٢٥)	منطقة تقسيم المياه أعلى مكان في منطقة الدراسة. التشقق الصخري واضح جداً، تستقبل كميات كبيرة من المياه، مع وجود كميات كبيرة من الرواسب الحصوية بكل أشكالها وأحجامها ترتفع حوالي ٢, ٥ م، ويظهر في الواجهة الشرقية للجبل أثر التصريف المائي، وتوجد عملية التصريف العكسي حيث التعرية الخلفية، ساعد على ذلك أيضاً عملية الهدم والنحت والانزلاق على الجوانب شديدة الانحدار والتجوية، نلاحظ من الصورة شدة التضرس، والروافد النهرية العميقة شديدة الانحدار، ساعدتها الشقوق والفوالق، نلاحظ عطية

رقم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
	التسايط الصخري على تلك الجوانب، أدى ذلك إلى تمزق السطح وينتج عن ذلك تكون مواد صخرية مفتتة وحصى وجلاميد، نلاحظ أيضاً نمو الأشجار مع خطوط الانكسارات والحظ الانهيارات الصخرية، وأحجام الشقوق والتصدعات والسدود والمراوح الفيضانية تحت منحدر الحافات الصاعدة.
(٢٦)	كتل صخرية وفتات صخري في مناطق تقسيم المياه - خائق جبلي قاع مثلي، وصخور القاع نشأتها ترجع إلى عمليات التفلق الصخري والانفصال الصخري، والتقشر الصخري من الكتل الجرانيتية المجاورة.
(٢٧)	أعلى منطقة عند خط تقسيم المياه بين الأودية الشرقية التي تصرف في خليج العقبة، والأودية التي تصرف في خليج السويس - يشير الباحث إلى الشمال الغربي. الحظ وجود الحافة الصاعدة، نلاحظ خشونة حجم الرواسب، مناطق صخرية مقطعة بالحافة، امتداد طولي للحافة، المجاري هنا شديدة الانحدار، تتقطع الحافة بالشقوق والصدوع والفوالق.
(٢٨)	تمثل خائق من حوائط المنطقة مع وجود حافات صاعدة.
(٢٩)	سد بازلتي من النوع البارز عن صخور الجرانيت الضعيفة، يبدو أثر عوامل التعرية والتجوية في تفتيت وانهيار صخور الجرانيت.
(٣٠)	حائط جبلي مرتفع عمودي على قاع أحد الأودية يمثل حافة انكسارية شديدة الانحدار جداً بدرجة ٩٠° وبطول ٧٠٠ متر، اتجاه الحائط ٥ شمال شرق، وصخوره الجرانيتية يتضح بها نظم الفواصل المنتشرة المؤدية إلى انحدارات عمودية.
(٣١)	تل جرانيتي قبلي في مجرى أحد الأودية، تظهر به التشققات والفواصل الأفقية والتي تتعامد عليها الرأسية والمائلة، أثرت المياه على التل وفصلته عن جسم الجبل المجاور له.
(٣٢)	حافة صاعدة انكسارية متصلة، بها سدود رأسية بارزة، نتجت بفعل المياه في الجرانيت الضعيف.

رقم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
(٣٣)	حافة صدعية انكسارية يظهر فيها أثر المياه مما أدى إلى وجود أخوار عميقة، يبدو أثر المياه ونحتها على سطح حافة انكسار في صخور الجرانيت.
(٣٤)	جزيرة صخرية تمثل قمة جبلية منفردة ، يبدو على سطح القمة مجار مائية كثيرة ورواسب في أسفل القمة مع وجود أشجار، ووجود حافات قافلة، انحدار شديد جرف مقعر.
(٣٥)	رواسب جرانيتية تأخذ شكل المصطبة ارتفاعها يتراوح ما بين ١م إلى ١,٦م، عرض سطحها يتراوح ما بين ٧م إلى ١٥,٩ متر، طولها ١٢٠متر، تجمعت الرواسب عند حضيض المنحدرات بسبب الأمطار الغزيرة .
(٣٦)	تمثل رافد نهري عند قمة إحدى المراوح ، نلاحظ البولدرز الكبير الحجم، نتيجة التساقط الصخري وجرف المياه لها، ونلاحظ أيضاً التقشر الصخري على سطح الكتل، وعدم استدارتها حيث تعرض الجلاميد للتحلل الكيميائي، ويوجد الجلاميد ذو الفجوات والتكهف على السطح، وفجوات على طول الفواصل موجودة.
(٣٧)	نلاحظ وجود صخور من بقايا السدود البازلتية وبقايا السدود الجرانيتية «لونها أسود وأحمر» نلاحظ أن طول الكتلة الساقطة ٨٩سم وعرضها ٦١سم والبازلتية طولها ٩١سم ، وعرضها ٦٣سم.
(٣٨)	تساقط كتل صخرية بفعل الجاذبية مع ملاحظة نظام الفواصل والشقوق في الجرانيت الأحمر.
(٣٩)	عند قمة المروحة الساقطة الصخور الجرانيتية تفتقر للقاع، وقد أخلت المياه ما يوجد حولها من رواسب، وظلت تنتظر نحتها في دورة تعرية أخرى.
(٤٠)	رافد نهري يغزي إحدى المراوح، نلاحظ وجود السدود النارية الرأسية البارزة، مع كثرة النباتات عند خطوط الانكسارات، الحظ وجود جانب مقعر في الشرق بسبب النحت الجانبي، وجانب محدب في الغرب بسبب الإرساب.

رقم الصورة	التهليل الجيومورفولوجي للصورة
(٤١)	رواسب على جوانب إحدى المراحل وصل ارتفاعها ٧٥ سم، تأخذ الشكل المخروطي، تتجرت بسبب تجمع فتات الجرانيت والبازلت، عند مقدمات الجبال الجرانيتية في أوقات المطر الغزير والسيول، مما أدى إلى زيادة التحت الراسي وتآكل جوانب الأودية فتكونت الرواسب السابقة.
(٤٢)	كتل صخرية جرانيتية بازلتية ساقطة ملتصقة ذات لون أحمر وأسود.
(٤٣)	تساقط صخري عند قمة إحدى المراحل، نلاحظ تفاوت حجم الكتل المنزلة مكان تجويف الكتلة السابقة الساقطة حيث كانت ملتصقة ثم حدث انفصال صخري.
(٤٤)	تكملة الصورة السابقة، حيث تتضح الكتلة الساقطة، نلاحظ وجود شقوق عمودية على سطح الصخرة وشقوق سطحية أفقية بسبب التمدد والالتكماش، مما يساعد على تفكك وانحلال سطح الصخرة ووجود حصى وحصىاء، وجماميد كبيرة وصغيرة ومتوسطة لقرنها من مصدرها، مما أدى إلى عدم استدارتها.
(٤٥)	تساقط صخري، نلاحظ حجم الكتلة الساقطة بفعل الانزلاقات وحجم الحصى والجماميد المجاورة، والسقوط الناتج عن الجاذبية وتشقق الصخور ونظم الفواصل الصخرية، وتعاقد الفوالق مع بعضها، والجوانب شديدة الانحدار.
(٤٦)	رواسب جرانيتية خضنة تتأثر بعوامل التعرية متجمعة تحت الحواف الصخرية، ذات انحدارات شديدة، تتكون من فتات جرانيتي خشن كبير الحجم، يعلوها رواسب دقيقة مع ملاحظة تماسك وتلاصق هذه الحبيبات بفعل مياه الأمطار والرمال التي تساعد على ذلك، نلاحظ تكوين مجرى سيل في رواسب الجرانيت يبلغ عرضه ٢,٧٥ متراً، وينحدر تجاه قاع الوادي.
(٤٧)	مروحة فيضية من المراحل التي تميز منطقة الدراسة، نلاحظ تقطع صخور الجرانيت في الجبل الموجود خلف المروحة بالسدود النارية،

رقم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
(٤٨)	وجود اللغم الجرانيتية الحادة مع أثر عوامل التعرية ووجود حائط جرانيتي متصل يمثل أحد جبال المنطقة. (ب) منطقة الصخور الرسوبية الرملية والجيرية - غدامس: النباتات المنتشرة في قيعان أحد الأودية الصحراوية بمنطقة الدراسة وهي نباتات ققيمة.
(٤٩)	توضح النبات الطبيعي الموجود على الكشبان الرملية حول عين الدبانة في سبخة المجزم حيث تعمل النباتات على تثبيت الكشبان.
(٥٠)	يوضح نظام بنية وتكوين القور بمنطقة الدراسة، نلاحظ مدى توافق الطبقات بالقور.
(٥١)	نظام الفواصل واللواق والشقوق على سطح القور، والصورة لحافة من حافات القارة المشلخة، وقد ساعد على زيادة الشقوق والفواصل فعل التجوية الكيميائية والميكانيكية.
(٥٢)	توضح أثر التجوية على صخور المنطقة وخاصة الكيميائية منها.
(٥٣)	جانب من القارة المشلخة
(٥٤)	تساقط وزحف الفتحات من جوانب القارة الملخرة.
(٥٥)	توضح الانزلاق الكتلي من إحدى منحدرات القور
(٥٦)	توضح التساقط الصخري
(٥٧)	توضح التقاء أحد أودية غدامس بوادي آخر من الأودية الكبيرة ويتضح من الصورة التشقق الطيني في قاع الوادي.
(٥٨)	وسط سبخة المجزم حيث عين الدبانة، ويوجد حولها الكشبان الرملية والنباتات التي ساعدت على تثبيتها . عمق العين يتراوح ما بين ٥٠ - ٥٥ وهي منطقة لجميع للأودية القريبة منها كما أنها تتصل بالمياه الجوفية عن طريق فائق العين.
(٥٩)	الكشبان الرملية الطولية في تونس والجزائر وليبيا، كما توجد على طول الطريق من درج إلى غدامس.
(٦٠)	إحدى القور بمنطقة الدراسة.
(٦١)	قارة مستطيلة الشكل.

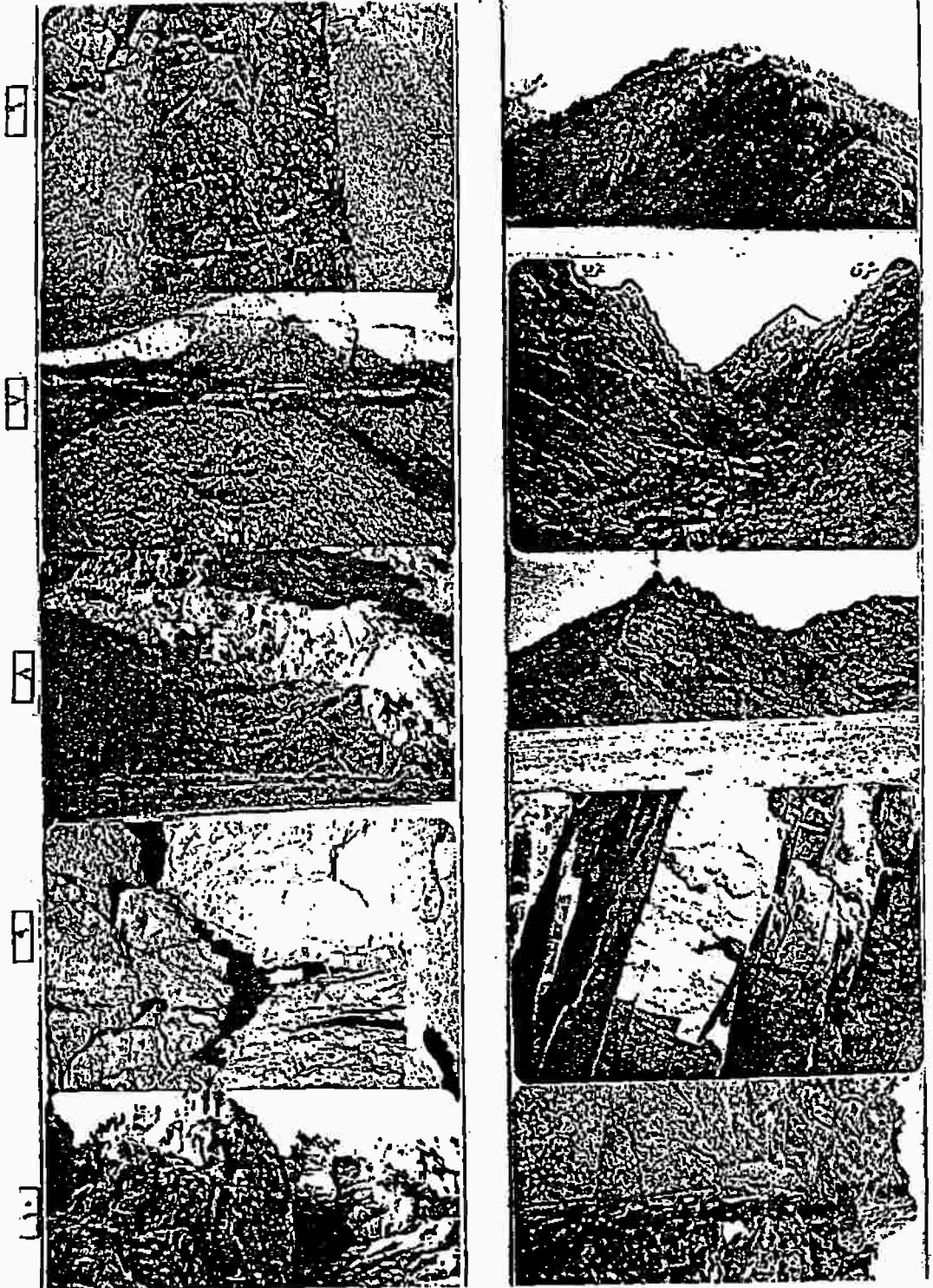
رقم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
(٦٢)	زحف الكشبان الرملية على الطريق من درج إلى غدامس، مما يسبب خطورة كبيرة جداً، حيث الطريق الذي يربط ليبيا بالجزائر وتونس.
(٦٣)	توضيح الصورة التفكك الكتلي لإحدى منحدرات قارة من قور غدامس، نتاج التجوية الميكانيكية، مساعد على ذلك نظام الفواصل وشدة الانحدارات، حيث تتعامد الفواصل.
(٦٤)	أثر التجوية الكيميائية على صخور منطقة الدراسة.
(٦٥)	صخور يغلب عليها اللون الأحمر بإحدى القور، نلاحظ زيادة نسبة المعادن الحديدية بها وبعضها يتحول إلى اللون البني، بسبب تفاعل الجو مع الحديد.
(٦٦)	توضيح مكونات الجبس داخل الصخور بمنطقة الدراسة.
(٦٧)	تبيين التساقط الصخري من أعالي الحافات إلى المنحدرات وتحرك المواد وزحف الفتحات.
(٦٨)	توضيح شدة درجة انحدار واجهات قارة من القور المنتشرة بغدامس، وينتج عن الانحدار وقوة الجاذبية تساقط صخري أسفل المنحدرات.
(٦٩)	وجود فجوات وحفر في الحافات الصخرية تمثل الكهوف الريحية، يرجع هذا إلى طبيعة التكوين الصخري ونظام بنية الصخر ومدى تأثيره بالرياح كعامل نحت.
(٧٠)	توضيح الصورة التعرية الخلفية لإحدى حواف القور والنحت التراجعي.
(٧١)	صورة توضيح تكوينات بعض قيعان وديان منطقة الدراسة، نلاحظ كثرة التكوينات الجبسية والرواسب مختلفة الأشكال والأحجام.
(٧٢)	رافد من روافد الأودية الصحراوية، ويتضح بالرافد الثنيات المحدبة، والثنيات المقعرة. والمناطق التي يتسع فيها الرافد والمناطق التي يضيق فيها.

رقم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
(٧٣)	(ج) منطقة الصخور الجيرية الجبلية - الجبل الأخضر، التجوية بالكائنات الحية في صخور الحجر الجيري ساعد على ذلك كثرة أشجار المنطقة.
(٧٤)	أثر التجوية الكيميائية.
(٧٥)	أهم ما يميز المنطقة الشمالية بمنطقة الدراسة وجود الحوافق، والصورة لخاصة يأخذ حرف V في وسط وادي القلعة.
(٧٦)	إحدى المساطب المائية في أودية جنوب منطقة الدراسة، وادي بوضعاك لاحظ الحفرة الوعائية.
(٧٧)	ظاهرة على الساحل تقع في المنطقة ما بين الأثرون ورأس الهلال وهي ظاهرة الجروف والخلجان البحرية، حيث ساعد على وجود تلك الظاهرة اختلاف بنية وتراكيب صخور الساحل هنا وخاصة أن المنطقة السفلى من الطبقات هشة وضعيفة، وساعد أيضاً على تأكلها نظام الفواصل والشقوق، مع تعرضها للفعل (تآكل) البحر والأمواج القوية التي ترتطم بها، فتعمل على نحت وتراجع الشاطئ باستمرار، وحيث أن الصخور هنا جيرية تكثر فيها الفواصل ويستمر التآكل للطبقة الهشة وترك الطبقة الصلبة فوقها فيحدث ما يسمى بالتراجع وتكوين الجروف التي تتراجع وتكون الخلجان البحرية.
(٧٨)	توضح ظاهرة الأقواس البحرية، تنشأ بسبب نحت الأمواج للمناطق الضعيفة في الرؤس البحرية ويستمر النحت للرؤس فتتصل الكهوف ببعضها البعض، ليظهر في النهاية قوس طبيعي بين تلك الكهوف.
(٧٩)	على الساحل من الأثرون إلى سوسة، عند ما يشتد نحر الأمواج للأقواس السابقة تنهار الكياري الطبيعية، ويبدو جسم القوس بعد ذلك على هيئة مسلة بحرية
(٨٠)	توضح الصورة نظام بنية الصخور وتكوينها ومدى تأثيرها بالنحت البحري، وذلك بسبب طبيعة الشقوق والفواصل على صخور الحجر الجيري.

رسم الصورة	التحليل الجيومورفولوجي للصورة
(٨١)	توضح عمل الأمواج وقوتها وقدرتها على نحت صخور الحجر الجيري ومدى فعلها في الفواصل والشقوق بمنطقة الساحل.
(٨٢)	مناطق جيرية تخلو من النبات الطبيعي، تتسرب خلالها مياه الأمطار فتساعد على اتساع الشقوق والفواصل بها، وتستمر هكذا حتى تتآكل معظم صخور الجير و يبقى بعضها على هيئة سيوف مشوشة ، وهذا ما يسمى بظاهرة التشرشر الجيري - البوجاز - كما توضحها الصورة. ويساعد على ذلك مدى مسامية الصخور. ونفاذيتها للمياه، والخطوط والفواصل والشقوق بالصخور. ووجود العقد الصلبة في الصخور الجيرية - كل ما سبق يساعد على حدوث ظاهرة التشرشر الجيري «البوجاز» وهي منتشرة في المنطقة المدروسة.



ارقام الصور





I



II



III



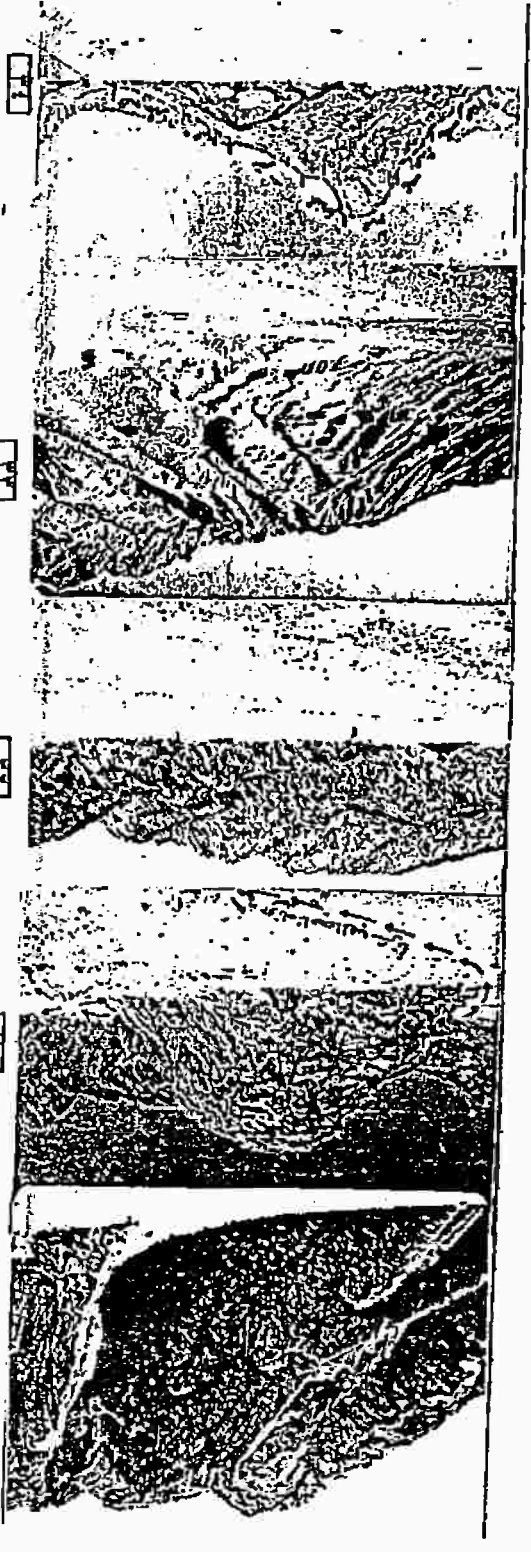
IV



V









12



13



14



15



16



17



18



19



20



21



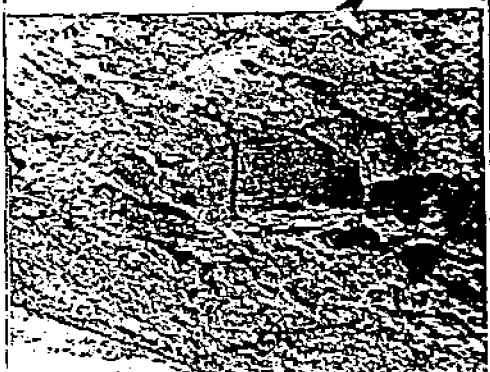
10



10



10



10



10



10



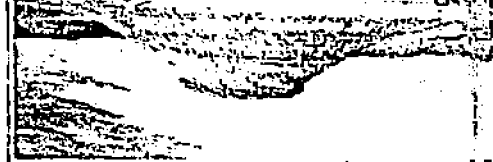
10



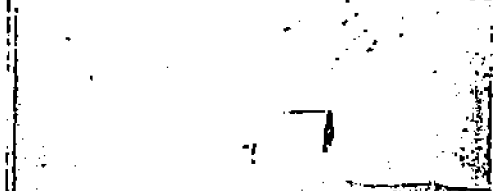
10



10



10



10



۱۷۷



۱۷۸



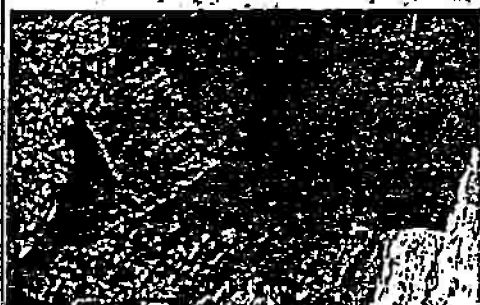
۱۷۹



۱۸۰



۱۸۱



۱۷۷



۱۷۸



۱۷۹



۱۸۰



۱۸۱



[AV]



[AV]



[AV]



[AV]



[AV]



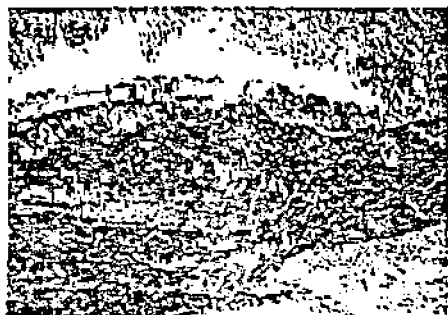
[AV]



[AV]



[AV]



[AV]



[AV]



موضوع البحث
الرأي العام والضغط الاجتماعي
دراسة حالة شمال سيناء

مقدم من :

دكتور طه عبد العاطى نجم

المدرس بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

قسم الاجتماع - شعبة الاتصال والإعلام



محتويات الدراسة

أولاً: أهمية موضوع الدراسة.

ثانياً: المفاهيم الأساسية.

ثالثاً: الاجراءات المنهجية.

رابعاً: أهداف الدراسة.

خامساً: العلاقة بين الضبط الاجتماعي والرأى العام.

سادساً: وسائل الضبط الإجتماعى فى مجتمع شمال سيناء.

١- قادة الرأى.

٢- التنظيمات الحزبية.

٣- وسائل الإعلام.

سابعاً: اثر العزلة الجغرافية والاحتلال الإسرائيلى فى عملية
الضبط الإجتماعى.

خاتمة: النتائج العامة للدراسة

الهوامش والمراجع.

مصادر الدراسة.

الرأي العام والضبط الاجتماعي ”دراسة حالة شمال سيناء“*

أولاً: أهمية موضوع الدراسة:

يعتبر الضبط الاجتماعي أساس العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين الأفراد، وبعد قاعدة أساسية لكل تنظيم اجتماعي، وخاصة أنه كلما اتسعت دائرة العلاقات الاجتماعية، وزيادة الاختلافات والمنافسات، صار عسيراً على الأفراد أن يعيشوا في سلام بدون وجود عوامل ضابطة تجعلهم يكفون عن بعض مانعهم دوافعهم الطبيعية، ومن خلال ذلك تتحقق حرية كل فرد ويتم وحدة النظام الاجتماعي. ويهدف الضبط الاجتماعي إلى ضمان استقرار التنظيم الاجتماعي مع مراعاة دينامية النظام الاجتماعي، حيث تعمل الضوابط الاجتماعية على تماسك الجماعة، إلا أن هذا التماسك قد لا يكون. كالملا بصفة منتظمة، وذلك لتعارض المصالح الشخصية للأفراد مع المصالح المشتركة للنفقات والجماعات، وكثيراً ما تتداخل مصالح الوحدات الاجتماعية الصغرى مع مقتضيات مصالح الوحدات الاجتماعية الكبرى. ومن هنا تبرز أهمية الدور الذي تقوم به الضوابط الاجتماعية في تنسيق الأنشطة والاهتمامات الفردية مع المصالح الجماعية.

وتتضمن فكرة الضبط الاجتماعي فعل الحكم ووضع القيود والتسلط والإخضاع أو التنظيم بوجه عام، كما تتضمن من ناحية أخرى فعل التوجيه

* يرجع الفضل في ظهور هذه الدراسة إلى حيز النور إلى أستاذي الدكتور/ أحمد أبو زيد - أستاذ الأنثروبولوجيا وعميد كلية الآداب (سابقاً) - والمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة، حيث أشركني سيادته ضمن مجموعة البحث التي شاركت في الدراسة التي قام بتوليها المركز. وقد اعتمدت الدراسة الميدانية على المعلومات الأنثروغرافية التي جمعها الباحث ضمن فريق مشروع بحث الدراسة الأنثروغرافية للمجتمعات الصحراوية في مصر - دراسة حالة شمال سيناء.

والإرشاد وخلق التوازن والمحافظة على التماسك الاجتماعي. ويمكن القول أن كل ما يساعد على امتثال الناس لقواعد وأنماط السلوك والمعايير والقيم السائدة في المجتمع يدخل في موضوع الضبط الاجتماعي. وتعتبر المصالح الاقتصادية عاملاً أساسياً من عوامل الضبط في المجتمعات التقليدية نظراً لأنها توضع قيوداً على سلوك الأفراد. كذلك يلعب الدين دوراً هاماً في الضبط الاجتماعي لأنه يضع لأفراد المجتمع الأحكام والشرائع التي تنظم السلوك والعلاقات، كما يحدد العقوبات التي يجب توقيعها على من يخترق التعاليم الدينية. وكذلك تحدد روابط القرابة وبخاصة في المجتمعات البدائية الحقوق والواجبات والالتزامات التي يجب أن تقوم بين أعضاء الجماعة القروية مما يساعد على تماسكها وعلى استمرار العلاقات القروية بين هؤلاء الأعضاء، وكذلك تعتبر الحكومة في المجتمعات المعاصرة بكل تنظيماتها المعقدة من إدارية وتنفيذية وقضائية عاملاً من عوامل الضبط الاجتماعي^(١).

وقد أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية أن الضوابط الاجتماعية في المجتمعات البدائية تنشأ بصفة تلقائية من عدة دعائم وركائز تنظيمية. وتبرز مصادرها الاجتماعية في سلطة الرقابة الجماعية التي تنبثق أحياناً عن العصبية القبلية أو العشائرية أو قرابة الدم أو الولاية والتبني والتحالف والمصاهرة، وقد تنبثق عن مصدر غيبي سحري أو ديني أو روحي، وقد تكون ضرورة لازمة لمساندة بعض الأنشطة الاجتماعية الحياتية أو التي قد تتصل بالحياة الاقتصادية أو السياسية للجماعة. ويمكن القول إن الضوابط الاجتماعية التلقائية السائدة في المجتمعات البدائية تبدو علامة غير متخصصة، حيث يصعب التمييز بين التنظيمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لعدم وضوح المقدمات الأساسية لهذه التنظيمات. وبالرغم من الاعتراف بأهمية هذه الحقيقة، لكن يجب التأكيد على أنه متى يقوم تنظيم اجتماعي، لابد وأن يسانده مجموعة من الضوابط والرقابة التي تتمثل في أدنى صورها في الطرق الشعبية والعادات

الجمعية والتقاليد الجماعية والأعراف والآداب العامة، وتمثل هذه النظم نوعاً من الضغط الاجتماعي على سلوك الأفراد والجماعات^(٢).

ولما كان المجتمع السينائي يجمع بين خصائص المجتمعات البدوية والمعاصرة، لذا تنوعت الضوابط الاجتماعية داخله. فهناك مزيج بين الضوابط غير الرسمية المتمثلة في العادات والتقاليد والأعراف المتبعة والضوابط الرسمية المتمثلة في سلطة الدولة من خلال أجهزتها الرقابية المتعددة. وقد جمع المجتمع السينائي أيضاً بين وسائل الضبط الاجتماعي الإلزامية أو القهرية خلال فترات الاحتلال ووسائل الضبط العادية في عهد التحرير وإزالة آثار العدوان. وخلال هذه الفترات كان الرأي العام أداة أساسية من أدوات الضبط الاجتماعي في مجتمع شمال سيناء.

ثانياً: المفاهيم الأساسية.

١- الضبط الاجتماعي Social Control.

يستخدم علماء الاجتماع كلمة «الضبط الاجتماعي» بمعنى واسع وشامل لوصف كل الوسائل والأساليب التي تستخدمها الجماعة لتحقيق النظام في المجتمع. وقد رأى كل من «روس» و «كولي» أن الضبط الاجتماعي يشير إلى معاني الإرشاد والإشراف والتوجيه^(٣). والضبط الاجتماعي عند «روس» يهتم بالسيطرة المقصودة، ويؤدي وظيفة في حياة المجتمع. وعندما وصف «روس» الضبط الاجتماعي في كتابه، فقد استرشد بأشكال الضمير الجمعي عند دوركايم مثل الرأي العام والقانون والأنساق العقائدية والتربية والعرف والدين والفن والشخصية. وقد رأى «توماس» W.L.Thomas أن الضبط الاجتماعي يبرز من خلال الأفعال النمطية الجديدة للإنسان وقدرته على خلق أنماط جديدة باعتبار أنه في حاجة إليها. أما «بارك» Park فقد اهتم بتحول دور الوسائل الأولية للضبط - الأسرة والجوار والمجتمع المحلي إلى الوسائل الثانوية ممثلة في الشرطة والصحافة والجهاز السياسي والمحكمة^(٤).

والضبط الاجتماعي عند «جورفيتش» Gurvitch هو مجموع الأنماط الثقافية والرموز الاجتماعية والمعاني الجماعية والقيم والأفكار والمثل، وكذلك الأفعال والعمليات التي تتضمنها ويستخدمها أى مجتمع، ويستطيع بواسطتها التغلب على مختلف أنواع التفرق وإعادة التوازن إلى الجماعة^(٥).

ونظراً لتعدد أنواع الضبط الاجتماعي واختلاف المنظورات السوسيولوجية التي تناولته، لكن يمكن تحديد مفهوم الضبط الاجتماعي فى هذه الدراسة، بأنه «مزيج من الضوابط الرسمية المتمثلة فى العادات والتقاليد والأعراف المتبعة والضوابط الرسمية المتمثلة فى سلطة الدولة من خلال أجهزتها الرقابية المتعددة». ولما كانت هذه الضوابط تعد عاملاً أساسياً فى تشكيل الرأى العام بمجتمع شمال ميناء فقد اعتبر الرأى العام الأداة الأساسية فى عملية ضبط وتوجيه السلوك فى هذه الدراسة.

٢- وسائل الضبط الاجتماعي.

قسمت دائرة معارف العلوم الاجتماعية وسائل الضبط الاجتماعي إلى ثلاث فئات رئيسية هى وسائل فيزيقية ومادية ورمزية. ويستخدم الجلد أو الحبس فى الوسائل الفيزيقيه، ويسرز تأثيره على الجسم. أما الوسائل المادية، فتتركز فى المكافآت المادية التى تتضمن السلع والخدمات. وتبرز الوسائل الرمزية فى الرموز المعيارية مثل المكانة والتقدير والرموز الاجتماعية المعيارية مثل الحب والتوافق^(٦).

وتختلف وسائل الضبط من مجتمع لآخر، حيث تتوقف هذه الوسائل على حد كبير على طبيعة المجتمع ذاته وظروفه الخاصة ونوع الثقافة السائدة. ومايعتبر وسيلة ناجحة فى أحد المجتمعات قد لا يكون كذلك فى مجتمع آخر. وتختلف فاعلية وسائل الضبط فى المجتمع الواحد تبعاً للتغيرات التى تطرأ على التنظيم الاجتماعي وعلى نمط القيم. ويميز العلماء بين وسائل الضبط التى تعتمد

على القسر والقهر ووسائل الضبط التي تعتمد على المناقشة والإقناع والتوجيه^(٧).

وزداد أهمية وسائل الضبط الاجتماعي وبقوى الشعور بالحاجة إليها كلما تعقد المجتمع وتداخلت أوجه نشاطه. ولذلك ترتبط وسائل الضبط في الجماعات المتقدمة حضاريا بالعمليات الاجتماعية التي يطلق عليها بالأساليب الفنية للإدارة أو التنظيم الاجتماعي. وتتصل هذه الأساليب بالنواحي الاقتصادية والسياسية والنظم الإدارية والتربوية. وتتداخل هذه الجوانب من أجل استمرار النظام الاجتماعي وبقاء فاعليته^(٨). ولما كان مجتمع سيناء يجمع بين الوسائل التقليدية والحديثة في عملية الضبط الاجتماعي. فقد تعددت وسائل الضبط في هذه الدراسة، وتضم قادة الرأي لتعبير عن فاعلية الوسائل التقليدية وتؤكد على دور الاتصال الشخصي في ضبط وتوجيه سلوك وآراء الأفراد، وكذلك تجمع هذه الدراسة بين الوسائل الحديثة من خلال إبراز دور التنظيمات الحرية ووسائل الإعلام في ممارسة الضبط الاجتماعي. وعلاوة على الوسائل التقليدية والحديثة رأى الباحث أن سيناء تعد منطقة متميزة، ولم تقتصر فيها وسائل الضبط على الوسيلتين السابقتين فقط، وإنما برز دور الإحتلال الإسرائيلي أيضا في هذه العملية، ولذلك سوف نتناول هذه القضية أيضا.

٣- الرأي العام. Public Opinion

بالرغم من الاختلافات حول تحديد مصطلح «الرأي العام»، لكن يتفق دراسي الرأي العام عموما على الأقل بأنه «جمع من آراء أفراد حول قضية تهم الجمهور». وعادة ينظر إلى هذه الآراء بإمكانية ممارسة التأثير في سلوك الفرد والجماعة وسياسة الحكومة». وقد اهتم بدراسة الرأي العام كل من الموسيولوجيين والمنظرين السياسيين وعلماء النفس الاجتماعي والتاريخيين^(٩). وقد اتفق كثير من علماء الاجتماع على وجود ظاهرة نفسية تتميز بها

الجماهير الشعبية، ويتشكل بها السلوك الجماعى بصورة عامة وتتحدد وفقها الضوابط والتنظيمات الاجتماعية، وهى ظاهرة تلقائية يطلق عليها عقل الجماعة أو الضمير الجمعى. ويرى كثير من علماء الاجتماع أن «الرأى العام» يعتبر المصدر الأول للضبط الاجتماعى، باعتبار أنه القوة التى يعتمد عليها ويستند إليها، وخاصة فى الجماعات المتقدمة. والرأى العام هو أشبه مايكون بالإرادة العامة كما يقول «لويلى» J.R.Lowell ولكن لا يحس به الأفراد لأن وجوده معنوى. والرأى العام هو المنبع الذى تصدر منه أحكام الجماهير، كما أنه القوة التى تؤثر فى العلاقات الاجتماعية، بل فى الحياة السياسية والاهتمامات الاقتصادية والقيم والمعايير الفنية^(١٠).

ولا تقتصر فاعلية الرأى العام فى المجالات الاقتصادية والسياسية فحسب، وإنما يمتد أبعد من ذلك. فهو يدل على الرضا العام Consensus أو الرأى الجامع، والذى ينشأ تلقائياً كجزء لا يتجزأ من التكوين الثقافى والحضارى للجماعة، وهو ما يطلق عليه بالرأى العام المستقر، فهو يصدر عن مجموعة القيم والمثل والنماذج الثقافية والعقائدية التى انتقلت عبر الأجيال المتعاقبة وأسهمت فى بلورته على نحو يضمن استقراره وثباته إلى درجة يصبح معها مصدراً شفافاً يعكس تقاليد الجماعة وعرفها وتشريعاتها ويصبح قوة ضابطة فعالة لسلوك أفراد الجماعة ومواقفهم. وتبدو قوة الرأى العام وسطوته أيضاً فى المجالات الداخلية، فهو يساند العادات والاتجاهات الشعبية فى القواعد الاجتماعية المتبعة^(١١).

والرأى العام فى هذه الدراسة يمثل عاملاً أساسياً فى ضبط وتوجيه سلوك وآراء الأفراد. ويخضع فى تكوينه إلى مجموعة القواعد والأعراف والمعايير الأخلاقية التى يلتزم بها أعضاء المجتمع، علاوة على الوسائل والأجهزة الرسمية للدولة مثل التنظيمات الحزبية ووسائل الإعلام. إذن فالرأى العام يقصد به هنا «مجموعة القواعد الرسمية وغير الرسمية التى تنظم حياة الأفراد، وتمارس تأثيرها فى ضبط وتوجيه سلوك وآراء المواطنين».

ثالثاً: الإجراءات المنهجية للدراسة.

اعتمدت هذه الدراسة فى إجراءاتها المنهجية على استخدام المنهج الأنثروبولوجى، حيث يهتم هذا المنهج بإجراء البحوث المركزة على جماعات صغيرة محدودة الحجم والمساحة. ويستمر البحث الميدانى نفسه فترة طويلة من الزمن تستغرق بضعة شهور، وقد تمتد إلى عام أو أكثر. ويلجأ فيها الباحث إلى طريقة الملاحظة المباشرة والمشاركة ومعايشة الأهالى أنفسهم ومشاركتهم فى كثير من مظاهر النشاط اليومي لضمان الإحاطة بكافة الجوانب الاجتماعية والثقافية السائدة فى تلك المجتمعات المحلية أو الجماعات القبلية المختارة، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات الانثوجرافية عن مختلف مظاهر الحياة فى منطقة الدراسة^(١٢).

ويهتم موضوع البحث بدراسة مجتمع شمال سيناء الذى يضم مجموعة من القبائل المنتشرة فى الصحارى، علاوة على مجموعات من سكان المدن. إذ يبلغ عدد السكان ١٧١,٥٠٠ نسمة (حسب إحصاء ١٩٨٦ التابع للجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء). وتنقسم محافظة شمال سيناء إدارياً إلى ستة مراكز تقوم حول ست مدن رئيسية هى العريش (العاصمة) والشيخ زويد ورفع وعر العبد والحسنة ونخل. ويتبع كل مركز من هذه المراكز (باستثناء العريش) عدد من القرى الرئيسية التى يلحق بكل منها عدد من التوابع التى هى أقرب فى العادة إلى التجمعات السكنية الصغيرة أو النجوع أو الكفور^(١٣) وعندما ما اتيحيت للباحث - صاحب هذه الدراسة الاشتراك فى بحث المجتمعات الصحراوية فى مصر - شمال سيناء سنة ١٩٨٨ الذى قام بإجرائه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايئة تحت إشراف ورئاسة الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد، فقد تناول الباحث خلال اشتراكه فى هذا البحث الإهتمام بجمع البيانات الميدانية الخاصة بقضية الرأى العام والضبط الاجتماعى.

وقد استخدم الباحث أدوات المنهج الأنثروبولوجى خلال مرحلة جمع

البيانات التي استغرقت ستة شهور في مناطق الدراسة، حيث قام بالاشتراك مع فريق البحث المشار إليه بدراسة مسحية لمنطقة شمال سيناء، اعتمد فيها الباحث على الملاحظة بالمشاركة في جمع البيانات. وتتلخص هذه الطريقة في «محاولة الباحث الاشتراك في الأنشطة الاجتماعية المتنوعة التي يقوم بها أعضاء الجماعة الاجتماعية - موضوع الدراسة - بقدر ما تسمح الظروف والتقاليد»^(١٤). فمن خلال المشاركة في المناسبات الاجتماعية والطقوس وزيارة مندنيات الشبان ووحدات الإنتاج يستطيع الباحث الأنثروبولوجي أن يحصل على الكثير من المعلومات الحقيقية عن العلاقات القرابية والاقتصادية والسياسية في المجتمع موضوع الدراسة^(١٥).

ونظراً لأهمية دور الإخباريين في جمع البيانات الميدانية في هذه المجتمعات الصحراوية، فقد استعان الباحث بمجموعة من الإخباريين في مناطق الدراسة. «فالإخباري هو الشخص الذي يعرف بحكم وضعه في المجتمع - أياً كان هذا الوضع رسمياً أو غير رسمي - قدراً من البيانات التي تفيد البحث، أو الذي يمكنه التقريب بين الباحث والمجتمع الذي سوف يدرسه بأى صورة من الصور، أو يساعده في التعرف على من هم أكثر معرفة بأمور المجتمع»^(١٦).

أما عن أداة جمع البيانات، فقد استخدم الباحث «دليل المقابلة» - الذي أعده الدكتور أحمد أبو زيد-، وتركز محاوره الأساسية حول قضيتين أساسيتين، وتفرعت منهما مجموعة من القضايا الفرعية، وهما^(١٧):

أولاً: أساليب تشكيل وتعبئة الرأي العام بمنطقة البحث.

١- العلاقة بين رجال الإدارة والسياسة والقادة القبليين والتقليديين.

٢- التنظيمات الحزبية في المجتمع المحلي والانتماء إليها والوعي ببرامجها والدعاية لها والإيمان برسالتها.

٣- توجيه الرأي العام - دور القادة المحليين التقليديين والأساليب التي يتبعونها

فى ذلك، وهل يعبرون عن رأى الحكومة أو الحزب أو أنهم يدافعون عن قضايا خاصة بالمجتمع المحلى.

٤- الدور السياسى الذى يقوم به القادة.

٥- أثر العزلة الجغرافية فى تكوين رأى عام مستقل ومتميز أو معاد أو متحيز، والموقف من مشكلة الانتماء القبلى والمحلى والقومى والعربى والإسلامى.

ثانيا: أجهزة تشكيل الرأى العام فى منطقة البحث.

١- دور القادة القبليين ومحاولات الاستعانة بهم اجتماعيا وثقافيا ودينيا.

٢- التنظيمات السياسية الحزبية.

٣- المراكز الإعلامية المنتشرة فى المحافظة.

٤- الإذاعات المحلية والقومية والأجنبية ومدى الإقبال عليها والثقة فى برامجها والنقد الموجه إليها.

٥- الصحف والمجلات ومدى انتشارها وتداولها والموضوعات التى يهتم بها القراء فى المجتمع.

٦- التجمعات والتنظيمات الشبابية والطلالية والنسائية والعمالية.

٧- إطلاق الشائعات ومدى الوعى بخطورتها والشك فيها والقدرة على تقويمها وتقبلها أو رفضها.

رابعا: أهداف الدراسة.

ينتمى هذا البحث إلى الدراسات الوصفية، حيث نحاول وصف وتحليل وسائل تشكيل الرأى العام فى مجتمع شمال سيناء، باعتبار أن هذه الوسائل تعتبر أدوات أساسية فى عملية الضبط الاجتماعى. ويمكن صياغة الفرض الرئيسى الذى قامت عليه الدراسة على النحو التالى:

١- يجمع مجتمع شمال سيناء بين خصائص المجتمعات البدوية والمعاصرة،

وتعددت فيه وسائل تشكيل الرأى العام بين طرق رسمية وأخرى غير رسمية، علاوة على وجود وسائل أخرى خارجية. فإلى أى مدى تعتبر هذه الوسائل بمثابة أدوات رئيسية فى عملية الضبط الاجتماعى بمنطقة شمال سيناء. وللإجابة على هذا التساؤل الرئيسى يتطلب تحقيق مجموعة من الأهداف الفرعية الأخرى التى يحاول البحث تحقيقها هى:

١- ماهى العلاقة بين الضبط الاجتماعى والرأى العام؟.

٢- دور قادة الرأى فى عملية الضبط الاجتماعى.

٣- دور التنظيمات الحزبية فى عملية الضبط.

٤- دور وسائل الإعلام فى عملية الضبط.

٥- أثر العزلة الجغرافية والاحتلال فى عملية الضبط.

خامساً: العلاقة بين الضبط الاجتماعى والرأى العام.

يخطئ من يعتقد أن الضبط الاجتماعى يتركز فقط فى أيدي رجال الشرطة والقضاة وماشابه ذلك فقط، فقد أظهرت كثير من المجتمعات الصغيرة طاعة حسنة للقانون بدون اللجوء إلى المكاتب القانونية.^(١٨) وقد ذهب «لانديس» إلى التأكيد على أنه بالرغم من أن المجتمع الإنسانى قد أصبح أكثر تعقيداً وتشعباً، فإن وسائل الضبط غير الرسمية وغير النظامية لم تقل أهميتها، بل ربما زاد تأثيرها. كما أن الجماعات الصغيرة تعرف بدورها وسائل الضبط النظامية ذات الطابع الرسمى بدون وجود الأجهزة المتكاملة أو الهيئات المتخصصة^(١٩).

ولقد أكد «جورج هومانز» على أن وسائل الضبط الاجتماعى فى أى مجتمع تعتبر نتاجاً لتنظيم الحياة الاجتماعية ذاتها، حيث يتوقف حجم المجتمع وعزله النسبية عن المجتمع الكبير فى تحديد نمط التفاعل. ويعتبر الرأى العام هو

المصدر الأول للضبط الاجتماعى، باعتبار أنه القوة التى يعتمد عليها ويستند إليها. فهو أشبه مايكون بالإرادة العامة كما يقول «لويل» J.R.Lowell، ولكن لا يحس به الأفراد لأن وجوده معنوى. والرأى العام هو رغبة تتاب أعضاء المجتمع تسم بالديمومة، وتمثل وظيفتها الاجتماعية فى المحافظة على الكيان الاجتماعى للجماعة ودرء ما يهدد تنظيماتها وقيمها^(٢٠).

وتظهر الوظيفة الضابطة للرأى العام، إذا نظرنا إليه على أنه مصدر التشريعات والتقنينات الضابطة فى المجتمعات الديمقراطية. ففى ظل النظام الديمقراطى تصدر القوانين تعبيراً عن رغبات الرأى العام وتحقيقاً فعلياً للإرادة الجماعية وضماناً للنظم والتنظيمات الاجتماعية. ويتمثل الرأى العام ويتحدد فى الجماعات عن طريق الهيئات النيابية التى تتألف من ممثلين للشعب ينطقون باسمه ويعلنون رأيه وإرادته. ولا تستطيع القوة وحدها أن تحمى النظام الاجتماعى، فهى تعجز - إذا لم يساندها الرأى العام - عن ضمان احتفاظ الضوابط الاجتماعية بفاعليتها الإيجابية. وتظهر هذه الحالات التى تفرض فيها القوانين بالقوة ضد مشيئة الرأى العام بشكل واضح فى أحوال غير عادية، مثل فرض قواعد ونظم جديدة من حكام الشعوب المغلوبة على أمرها فى المستعمرات أو الالتجاء إلى مظاهر القهر الجماعى، لتدعيم نظم انقلابية أو ثورات اجتماعية لم تكن الجماعة أو بعض هيئاتها مهياً لقبولها. وكلما استخدمت القوة ضد اتجاهات الرأى العام الغالبة، أدت إلى خلق المقاومة وازدياد الحاجة إلى استخدام مزيد من القوة^(٢١).

وتظهر أهمية الرأى العام كوسيلة للضبط الاجتماعى فى رعايته ودفاعه عن المثل الاجتماعية والمبادئ والمفاهيم الخلقية والنماذج العرفية والقيم التقليدية للجماعة. فهو القوة التى تساند هذه الأدوات الضابطة والقواعد التنظيمية لعلاقات الأفراد الاجتماعية. ويسهم الرأى العام فى خلق المثل والفضائل الاجتماعية مثل «المشاركة الرجولية» التى قد تحمل بعض

الجماعات على مؤازرة جماعة أخرى ترتبط معها بروابط وحدة اللغة أو العقيدة أو المكانة الاجتماعية والسياسية فى المجالات الدولية. وفى الوقت نفسه تعادى أو تعارض أو تقاوم التيارات الثقافية المستوردة من جماعات تختلف عنها فى نماذجها الثقافية أو العقائدية (٢٢).

وقد أكد كثير من علماء الاجتماع على أهمية الرأى العام باعتباره مصدراً أساسياً فى عملية الضبط الاجتماعى. فقد وجد «روسو» فى الرأى العام مجموعة من الخصائص الإيجابية التى تجعله أداة هامة من أدوات الضبط الاجتماعى. ولعل أبرز هذه الخصائص مايلى (٢٣):

١- يمارس الرأى العام تأثيره على نطاق واسع، وهو بذلك يكمل الوظائف التى يقوم بها القانون.

٢- أنه أقل آلية من القانون، فهو يضع فى اعتباره تغير الظروف كالمكان والزمان والدافع.

٣- يقوم الرأى العام بحماية السلام الاجتماعى عن طريق فرض المطالب الخلقية التى قد لايجزؤ القانون على فرضها.

٤- أنه يتميز بالمرونة التى قد لا تتوفر فى القانون.

٥- يتميز الرأى العام بأنه مباشر وسريع بعكس الحال بالنسبة لكثير من وسائل الضبط الأخرى، إذ أنها تتميز بالبطء. (٢٤)

وتأتى أهمية الرأى العام باعتباره أداة من أدوات الضبط الاجتماعى نظراً للتأثير الذى يمارسه فى المجال السياسى والاجتماعى. وفى المجال السياسى يؤدى الرأى العام وظيفة هامة وهى مساندة بعض الحكام وإسقاط بعضهم. وفى المجال الاجتماعى يلعب الرأى العام دوراً أساسياً فى رعاية المثل والقيم والمبادئ الأخلاقية، لأنه يوجه اللوم والتحقيق لبعض الناس. وعلاوة على ذلك يؤدى الرأى العام دوراً هاماً فى المحافظة على التراث والعادات والتقاليد المتوارثة فى المجتمع (٢٥).

سادسا: وسائل الضبط الاجتماعى فى المجتمع السينائى.

الرأى العام فى أى مجتمع لا يأتى -حرأقى- تكوينه، وانما يخضع إلى مجموعة عوامل تؤثر فى تكوينه مثل تأثير القادة والزعماء والأحزاب السياسية، فضلا عن الدور الذى تمارسه وسائل الإعلام فى هذا المجال. وبالرغم من تشابك هذه العوامل وتداخلها، إلا أنها تتفاوت فى أهميتها ودورها فى تشكيل الرأى العام. فالنظام السياسى مهما اختلف خطه الفكرى. فإنه يلعب دورا هاما فى تكوين الرأى العام، وذلك لأن المواطن يقع تحت الهيمنة الكاملة للأيدولوجية المسيطرة فى النظام السياسى. أما الزعيم أو القائد، فيلعب أيضا دورا هاما فى حياة الناس. وبالرغم من أن هذا الدور بدأ يتلاشى فى المجتمعات المتقدمة، لكنه يزداد نموا فى الدول النامية، حيث يجسد دور الزعيم فى هذه الدول الملامح الأساسية لمواطنيه. وبالنسبة لدور التنظيمات الحزبية فى تشكيل الرأى العام، نجد أنها تمارس دوراً هاماً فى هذه العملية، خاصة إذا كانت قائمة على أساس ديمقراطى. وأخيراً وعن وسائل الإعلام، فقد يلاحظ أن أجهزة الإعلام تشكل فى أغلب النظم قنوات اتصال بين الحكومة والرأى العام، وذلك لعرض سياساتها ومشروعاتها. وهى بذلك تدفع المواطن من حيث لا يدرك إلى تكوين رأى عام يصب فى الأهداف التى تطمح إلى تنفيذها^(٢٦).

ولما كانت هذه الدراسة تتركز فى بحث مدى اعتبار الرأى العام أداة من أدوات الضبط الاجتماعى، فأحرى بنا أن نبحث عن وسائل تشكيل الرأى العام فى المجتمع السينائى باعتبارها أدوات أساسية من أدوات الضبط. وهذا يجعلنا نتعرض لدور قادة الرأى لما يمثلونه من عنصر أساسى فى المجتمع السينائى. وتتناول أيضا دور التنظيمات الحزبية، وذلك لأنها تنشأ على أساس ديمقراطى تفرضه الإرادة القبلية، وأخيرا نتعرض لوسائل الإعلام المحلية والقومية والعالمية، لما لها من دور فعال فى هذا المجال.

١ - قادة الرأى.

يوجد ارتباط وثيق بين دراسة موضوع قادة الرأى وعملية تشكيل الرأى العام، حيث تعد الأخيرة عملية اجتماعية واتصالية تنطوى على تفاعل اجتماعى بين الآراء من خلال المناقشة الجدلية الحرة والعنية لوجهات النظر المختلفة. ولذلك تلعب الشبكات الشخصية والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد دوراً هاماً فى هذا الصدد. وقد أكدت عديد من الدراسات على أن جماعات العمل أو الجيرة أو الأسرة قد تساعد أو تعرقل تبني رأى ما أو قبول فكرة معينة لدى الفرد. ومن هنا يبرز دور مايسمى بالجماعة المرجعية أو قادة الرأى (٢٧).

وقد أشارت الدراسات الأمريكية إلى أهمية الاتصالات الشخصية وتفوقها فى التأثير على وسائل الإعلام، حيث يمتاز قائد الرأى بشدة تمسكه بمعايير الجماعة، وزيادة تعرضه لوسائل الإعلام. كما لابد لقائد الرأى أن يكون على صلة وثيقة بالأشخاص الذى ينقل المعلومات إليهم. ويلجأ الناس إلى قادة الرأى عندما لا تتفق الأفكار والمعلومات المعروضة عليهم مع أفكارهم ومعتقداتهم (٢٨). وبالإضافة إلى ذلك يلعب قائد الرأى دوراً هاماً فى تقديم أفكار جديدة للجماعة تكون محوراً للنقاش بينهم. فقائد الرأى يمثل حلقة اتصال مستمرة بالجماعات الأخرى لتعريفها بأعماله واقتباس أفكار جديدة، والعمل على إيجاد الجو الاجتماعى الذى يساعد على تماسك أفراد الجماعة، وتقديم أعمال الجماعة باستمرار بطريقة موضوعية (٢٩).

ومن خلال الخصائص التى يكتسبها قادة الرأى، فيقد يكونوا وسيلة هامة فى تنظيم الجماعة وضبط سلوك أفرادها. وغالباً ما يشار إلى الشخص الذى يشغل مركز معين مثل منصب رئيس قسم مثلاً بأنه قائد رأى رسمى A Formal Leader. وقد اكتسب هذه الصفة من خلال القوة الخاصة التى منحها له مركزه الوظيفى. وليس بالضرورة أن يكون الشخص قائد الرأى فى أحد الميادين يشغل الوظيفة ذاتها فى ميادين أخرى. كابتن كرة القدم ليس بالضرورة أن يكون أحسن طالب (٣٠).

ولا يقتصر مفهوم قائد الرأى على الشخص الذى يشغل مركزاً وظيفياً

معيناً فقط، إنما تمتد لتشمل أشخاص معينين لديهم القدرة على التأثير بصورة غير رسمية فى اتجاهات الأفراد الآخرين -أو فى سلوكهم الظاهر بصورة مطلوبة ومتكررة فى موقف اختياري^(٣١). وقد يكون من بين هؤلاء أشخاص لهم منزلة اجتماعية معينة لدى الجماعة التى ينتمون إليها، أو يتمتعون بمستوى تعليمي أو ثقافي معين، أو قد يكونوا من كبار السن. وفى هذه الحالة يطلق على الشخص الذى يتمتع بخاصية من الخصائص السابقة، ويزر تأثيره فى الجماعة التى ينتمى إليها بأنه قائد رأى غير رسمي Informal Leader.

ويعمار الدين أيضاً دوراً هاماً فى حياة قادة الرأى، فالتقوى والصلاح والانظام فى صلاة الجماعة داخل المسجد من دواعى مكانته القائد فى القرية واحترامه. وبذلك صار المسجد أكثر الأماكن أهمية داخل القرى كوسيلة لأداء الشعائر الدينية ووسيلة للقاء الأهالى مع قادة الرأى العام^(٣٢).

ونظراً لطبيعة المجتمع السيناى الخاصة فإنه يتميز بتقديس العادات والتقاليد التى تلزم الأفراد باحترام كبير السن، أو الشخص الذى يثقون فيه، وربما يكون هذا الشخص شيخ القبيلة، أو يشغل منصباً سياسياً معيناً، أو نال قسطاً عالياً من التعليم، أو يتمتع بمنزلة دينية معينة فى المجتمع. وربما تبدو سيطرة قادة الرأى على أفكار واتجاهات المواطنين بطريقة واضحة. ويحدث ذلك بالفعل عند ترشيح للقبيلة أحد أفرادها لعضوية المجالس النيابية، أو فض للنازعات بين القبائل، أو قيادة الجماهير لعصيان أو تمرد. ويحكى الصيادون من قرية التلول بمركز بشر العبد واقعة تؤكد ذلك قائلاً: «عندما قام أحد أفراد حرس الحدود بإطلاق النار على أحد الصيادين، والذى لقى مصرعه فى الحال نتيجة انحراف قاربه تجاه مكان معين بين البحر والبحيرة - بحيرة البردويل - فكانت هذه المنطقة بالذات مثار خلاف وجدل بين الصيادين وحرس الحدود. ونتيجة لمقتل هذا الصياد، اجتمع رؤساء القبائل بالصيادين، وقرروا الإضراب نهائياً عن العمل حتى يتم حل هذه المشكلة. وبالفعل تم عقد اجتماع بين أعضاء

الجلس المحلى بالمحافظ ومندوبين من الصيادين ورؤساء القبائل وحرس الحدود، وتمت إزالة المعوقات المفروضة أمام دخول الصيادين منطقة النزاع، وأصدر رؤساء القبائل أوامرهم للصيادين بالعودة إلى العمل.

ولا يقتصر تمثيل قادة الرأى فى المجتمع السينائى على كبار السن أو مشايخ القبائل أو الأعيان، ولكن برزت فئة جديدة من القادة وهم فئة للشقفيين وأصحاب التعليم العالى، وشاغلى المراكز الوظيفية العليا فى الحكومة. ويرز دور هذه الفئة من القادة فى الأزمات السياسية، أو خلال مناقشة قضايا سياسية محل جدل وحوار. فهؤلاء القادة لديهم المقدرة على إقناع الآخرين بأرائهم وأفكارهم، وبالتالي يستطيعون ضبط وتوجيه سلوك وآراء الجماعة التى يتمون إليها.

وإذا حاولنا التعرف على الوسائل التى تجعل قائد الرأى موجهها وضابطاً لآراء وسلوك أفراد الجماعة التى ينتمى إليها، نجد بداية أن القائد يعمل جاهداً على إحداث التوازن بين أعضاء جماعته. فالقائد لا يعطى أوامر يستحيل تنفيذها. فإذا أعطى أمراً فإنه يتوقع أنه سوف ينفذ فالقائد يجب أن يحافظ على مركزه. وتمثل منزله الاجتماعية فى الاعتماد المتبادل بين منزله وسلطته فى قراراته. فهو عندما يعطى أوامر لاتطاع، فبالنالى تضعف منزلته، وحينئذ تضعف جراته فى إصدار أوامر لجماعته فى المستقبل وقد لوحظ ذلك فى إدلاء المواطنين بأصواتهم خلال الانتخابات البرلمانية سنة ١٩٨٤، حيث برزت أهمية قادة الرأى فى هذه الانتخابات، خاصة فى منطقة الشيخ زويد (٢٣).

وعلى جانب آخر يكتسب قادة الرأى قدرتهم فى الإقناع والتأثير نتيجة أنهم أكثر عرضة لوسائل الاتصال الجماهيرى بكل أنواعها من أتباع الرأى Opinion Followers أو التابعين لآراء غيرهم. فهم يستمعون أكثر من غيرهم إلى برامج إذاعية مختلفة، ويقرآن الصحف والمجلات، بالإضافة إلى أن حديث قادة الرأى يختلف قوة تأثيره عن الاستماع أو القراءة فى مظهرين لمسلمين

هما (٣٤) :

١- إنك تستطيع أن تطفىء المذياع أو تطرح بالجريدة أو المجلة جانباً إذ لم يعجبك ما تسمعه أو تقرؤه، ولكنك لا تتمكن من أن تفعل ذلك بسهولة إذا كنت تتحدث مع أناس آخرين.

٢- تختلف وسائل الاتصال الرسمية عن الحديث المباشر في مسألة أخرى وهي أنك لا تستطيع أن تعترض البرنامج الموجه من وسائل الاتصال الرسمية أو ترد على رسالة إعلامية رداً مباشراً وبسهولة نفسها التي نلاحظها في الرد على الحديث المباشر ويؤكد ذلك صعوبة متابعة المسؤولين رجوع الصدى بشأن بعض الحملات القومية التي تقوم بها وسائل الإعلام، بينما يسهل ذلك أثناء الندوات الجماهيرية والمؤتمرات الشعبية.

ونخلص مما سبق أن قادة الرأي من خلال ما يميزون به من انتشار داخل أعضاء المجتمع، وانتمائهم إلى طبقات متعددة، وجماعات الجوار والأصدقاء. فمن هنا يكون تأثيرهم سهلاً ومقبولاً على أعضائهم، وبالتالي يتحكمون في توجيه وضبط آرائهم وسلوكهم.

٢- التنظيمات الحزبية.

من الحقائق المؤكدة في عصرنا الراهن أن الأفراد وهم فرادى لا يستطيعون مقاومة الهيئات الحكومية أو الوقوف في وجهها إذا ما أرادت أن تستبد أو أن تتعسف في استعمال سلطتها، وأن التكتلات أقدر منهم في هذا المجال. فالأحزاب السياسية تقوم بهذا الدور في العصر الحديث سواء كانت في الحكم أو المعارضة، وتستطيع مراقبة ومحاسبة الهيئات الحاكمة من خلال مناقشة سياسة الحكومة وإظهار مواقع الخطأ فيها من أجل إثارة الرأي العام ضدها. وعلاوة على ذلك تقوم الأحزاب بدور هام في توعية الشعب وتثقيفه سياسياً،

فحيث يتم تشكيل المكاتب السياسية بالمحافظة والمراكز والقرى. وعلى هذا الأساس تكون ترشيحات المجالس المحلية ومجلىّ الشعب والشورى. ويمكن الهدف من وراء هذه العملية هو ضمان حصول هذه الترشيحات على أكبر قدر ممكن من الأصوات إذا عرضت في استفتاء جماهيري.

ونستطيع أن نستشهد بأحد الأمثلة التي تم بواسطتها تشكيل المجلس الشعبى المحلى لمركز للحسنة. فقد كان المطلوب انتخاب اثنين وخمسين عضوا على مستوى المركز، بحيث يتم تمثيل القبائل الخمس الكبرى مع الأخذ فى الاعتبار توزيعها المكاني وقوتهم العددية. وهذه القبائل الخمس الموجودة فى المركز هى: الترابين والاحيوات والعيادة والحويطات والتيها. ولكن اتباع مبدأى التوزيع المكاني والقوة العددية كان معناه أن تمثل الترابين وحدها بخمسة وثلاثين عضوا، بينما تمثل القبائل الأربع الأخرى بسبعة عشر عضوا فحسب. وهو أمر كان خليقا بأن يثير كثيرا من المشاكل والمتاعب والصراع، وحتى يمكن تجنب ذلك الوضع تم الاتفاق على أن يتم التمثيل بالتساوى بحيث تمثل كل قبيلة من القبائل الخمس بعشرة أعضاء ثم يتم تعيين العضوين الباقيين لشغل المقعدين الفرديين، وبذلك أمكن تخاشى النزاع أو الصراع المحتمل، وتحقيق نوع من التوازن فى داخل المركز، وإن كان فى ذلك خروج على المبادئ والقواعد المنظمة كعملية انتخاب أعضاء المجالس الشعبية المحلية (٣٧).

ونستطيع أن نخلص مما سبق بأن السلطة القبلية هى القوة الأولى الملزمة فى ضبط سلوك الأفراد وتوجيه آرائهم فى المجتمع السيناى. وغالبا ماتفضل السلطة السياسية فى فرض أفراد معينين أو أوضاع سياسية معينة لايرضى عنها أبناء البادية. ويمكن أن نؤكد ذلك بمثال واقعى، حيث فشلت حكومة الحزب الوطنى خلال انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٤ فى فرض المرشحين الذين ترغبهم. بينما استطاعت السلطة القبلية أن تنجح فى اختيار أفراد من القبائل

للترشيح . وقد حدثت هذه الواقعة فى منطقة «الشيخ زويد» ، حيث لم يحصل الحزب الوطنى من قبيلة «السواركة» سوى نسبة ضئيلة جداً من الأصوات، بينما حصل حزب الوفد المدعوم من السلطة القبلية على نسبة عالية جداً من الأصوات. وفاز حزب «الوفد الجديد» وقتها بمقعد فى مجلس الشعب. ونمتج من الواقعة السابقة أن التنظيمات القبلية تلعب دوراً هاماً ومؤثراً فى ضبط آراء مواطنيها، وأن السلطة السياسية تفضل فشلاً ذريعاً إذا حاولت ممارسة هذا الدور دون الاعتماد على السلطة القبلية.

٣- وسائل الإعلام.

تلعب وسائل الإعلام دوراً هاماً ومؤثراً فى الجانب المعرفى للفرد، أى إعطاؤه معلومات جديدة تختلف عن معلوماته السابقة، وتغيير أو تعديل أو خلق صور ذهنية عنده عن الأحداث أو المواقف. ويبدو تأثير الرسالة الإعلامية واضحاً إذا كان مضمونها يتفق مع بعض جوانب شخصية ودوافعه وقيمه، وتلعب وسائل الإعلام دوراً أساسياً فى خلق وتكوين مايسمى «بيئة الرأى»، لأن الناس يتحاشون العزلة الاجتماعية، فإنهم أكثر ميلاً للتعبير عن الآراء التى تؤيد مايدركون أنها آراء سائدة أو شائعة بين الجماعة ويقمعون الآراء التى يرون أنها غير شائعة. وهذا يدعم بدوره رأى الأغلبية^(٣٨).

وتمارس وسائل الإعلام تأثيراً بالغ الفعالية فى خلق رأى عام فيما يتعلق بالقضايا الجديدة التى لايملك الفرد حيالها رأياً محدداً، ويجعلها أصدقائه وزملائه فى العمل أو الأسرة. ومن هنا تكمن فاعلية وسائل الإعلام فى خلق مناخ من الرأى. وتبدو هذه الفاعلية بطريقة واضحة عندما لايملك الفرد أى مصدر آخر للمعلومات حول الموضوع المثار^(٣٩).

وقد حاولت معظم الكتابات التمييز بين ثلاثة أهداف رئيسية للإعلام هى نقل وتوصيل المعلومات للآخرين، ومحاولة التأثير فى آرائهم وأفكارهم ثم

الترفيه والتعلمية وتمضية أوقات الفراغ، إن هذه الأهداف الثلاثة تشابك معا وتتفاعل ويكمل بعضها الآخر. وسواء كان محتوى العملية الإعلامية وهدفها هو الكشف عن أهم الاتجاهات والآراء والمواقف السائدة بالفعل في المجتمع، أو إصدار تعليمات وتوجيهات تعبر عن سياسات وأيديولوجيات معينة تريد الدولة عن طريق أجهزة الإعلام نشرها بين الناس، وتغيير الآراء السائدة فعلاً بينهم، أو أن يكون المحتوى مادة ترفيهية يراد بها شغل أوقات الفراغ والتسلية والترفيه، لكن في النهاية يقوم جوهر العملية الإعلامية دائماً على الاتصال^(٤٠).

ولقد استطاع الإنسان أن يستفيد من وسائل الاتصال الحديثة في تنظيماته الاجتماعية، حيث تعتمد كثير من أنشطة المجتمعات المعاصرة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على وسائل الاتصال. وبالرغم من تعدد مجالات استخدامها - وسائل الاتصال - لكن يصعب استخدامها في عملية الضبط الاجتماعي على كل المجتمع، نظراً لاختلاف الضبط من قرية يسكنها فلاحين عن مدينة معاصرة، ومن متجر في بلد يتبع النظام القديم عن متجر لقسم كبير في مدينة متروبوليتة^(٤١).

ولانندesh بأن وسائل الإعلام نظر إليها بعض الباحثين مثل «ميشيل بيتريك» Michael J. Petrick باعتبارها وسيلة لضبط السلوك الاجتماعي. وقد نمت هذه الوسيلة بطرق مختلفة، وبرز نفوذها في المجتمع الأمريكي. فهناك ارتباط شديد بين البحث عن آليات وسائل الإعلام والضبط الاجتماعي. وقد حاولت وسائل الإعلام ممارسة دورها في عملية الضبط من خلال تشجيع الأفعال الاجتماعية المفيدة ومحاربة الأفعال الاجتماعية الضارة^(٤٢). وقد فسر «بارمونز» كيفية تأثير وسائل الإعلام في عملية الضبط الاجتماعي من خلال ما تقدمه، حيث تعرض أمام الفرد صورة خيالية عن المنحرف، وترك للأفراد في النهاية حرية اتخاذ موقف نقدي بالنسبة لما يشاهدونه. وتستطيع وسائل الإعلام ممارسة دورها في هذا المجال من خلال تقديمها المادة الإعلامية بطريقة جذابة،

ومخاطبة الأفراد وفقا لمستوياتهم الثقافية^(٤٣) . -

وتبدو صعوبة تصور دور حقيقى لوسائل الإعلام فى تأثيره فى خلق رأى عام يتسم بالفاعلية، وذلك لتمييز النظم السياسية وديناميات الحياة السياسية فى المجتمعات النامية، ولكن هذا لايعنى إنكار الدور الذى تقوم به وسائل الإعلام فى التأثير فى الرأى العام، ولكنها تعنى بخصوصية هذا الدور فى المجتمعات النامية. فهناك سلبيات تحيط باستخدام الرأى العام أداة من أدوات الضبط الاجتماعى، حيث يسمى النظام السياسى باستمرار الحصول على تأييد المواطن وكسب رضاه. وهنا تصبح وسائل الإعلام قناة الاتصال الوحيدة تقريبا بين المواطنين والنخبة السياسية. ومن هنا نأتى سيطرة النظام السياسى على وسائل الإعلام فنخرج منها الكلمة الواحدة والرأى الواحد^(٤٤) .

ويختلف تأثير وسائل الإعلام فى سلوك الفرد طبقا لنموذج المستمع أو القارئ، بل ويختلف هذا التأثير من حقبة زمنية إلى أخرى، ومن منطقة لأخرى. وإذا كنا بصدد دراسة استخدام وسائل الإعلام باعتبارها أداة من أدوات الضبط الاجتماعى فى شمال سيناء، فنجد بداية أن الرسالة الإعلامية فى سيناء، تهتم بالتركيز على الإعلام عن سيناء. وتهتم بالتأكيد على القيم الإيجابية والعادات البدوية، والدعوة لنبد العادات التى تتنافى مع قيم المجتمع البدوى. وتركز الرسالة الإعلامية أيضا على مشروعات التنمية، والقضاء الضوء على مشكلات المجتمع والعمل على حلها. وعلاوة على ذلك تقوم وسائل الإعلام بالرد على ماثيره وسائل الإعلام الأجنبية من معلومات غير صحيحة، حيث يؤدى الإعلام الداخلى فى سيناء فى هذا المجال دوراً متميزاً فى مجال التوعية وتبصير المواطنين بالمعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ولقد بدأت أولى طلائع الإعلام الداخلى فى منطقة شمال سيناء منذ عام ١٩٧٦ بمركز إعلام القنطرة شرق عقب مراحل فض الاشتباك الأولى. وفى

٢٥ مايو ١٩٧٩ انتشرت قوافل الإعلام الداخلى فى المنطقة حتى وصلت إلى خط العريش/ رأس محمد. ويمكن حصر وسائل الإعلام الداخلية بمحافظة شمال سيناء فى ثلاثة وسائل أساسية هى الجمع الإعلامى بالعريش، ومراكز الإعلام بالمحافظة، وإذاعة شمال سيناء، بالإضافة إلى وسائل الإعلام القومية.

أ- الجمع الإعلامى بالعريش.

يعد الجمع الإعلامى بالعريش أول مجمع نموذجى للإعلام على مستوى الجمهورية، حيث تم افتتاحه سنة ١٩٨٥، وهو مجمع متكامل يقدم الخدمة الإعلامية المتكاملة من أجل مصر وسيناء على وجه الخصوص. ويضم الجمع نادياً للطفل، تمارس فيه أنشطة قراءة الكتب الدينية، والقصص التاريخية، ومحاولة تعريف الأطفال بالإنجازات التى حققتها الدولة فى شمال سيناء بعد التحرير. ويهدف هذا النادى إلى غرس الانتماء فى الطفل، وإبراز دور الدولة فى تحقيق الأمن والتنمية. ويضم المجمع أيضاً قاعة لمركز النيل تستخدم فى الدورات التدريبية والندوات الإعلامية وإلقاء المحاضرات، وعمل اللقاءات للتوعية الإعلامية فى كافة القضايا القومية والمحلية. ويقدم المركز خدماته للمدن والقرى من خلال قوافل مجهزة بسيارات يقوم بها أخصائى إعلامى يوزع مطبوعات عن الموقف السياسى للدولة. وإبراز النهضة الصناعية فى مصر والمعالـم السياحية بها. وتبرز فاعلية هذه الأفلام من خلال تقديمها للمواطن البدوى بصورة جذابة، وبالتالي تكون عاملاً مؤثراً فى توجيه أفكار وسلوك المواطنين تجاه الدولة.

وعلاوة على ماسبق يضم الجمع الإعلامى قاعة لتعليم الكبار، وأخرى لكبار الزوار، ومركز صحفى دائم، ومركز دراسات عن سيناء، ومكتبة وقاعة للاطلاع، ونادى للمشاهدة الجماعية.

ب- مراكز الإعلام.

بدأت مراكز الإعلام عملها فور تحرير ميناء مباشرة. وقامت بالتغطية الإعلامية الكاملة فور دخول الإدارة المصرية المناطق المحررة. وحاولت هذه المراكز التأكيد على تماسك المجتمع، وحث الجماهير على المشاركة في خطط التنمية. وقد عملت مراكز الإعلام منذ تأسيسها على غرس القيم الإيجابية في المواطنين، ومحاولة التخلص من القيم السلبية التي تركها الاحتلال الإسرائيلي، ومحاولة إحساس المواطن بأن الإدارة المصرية حريصة على الاهتمام بالجوانب التعليمية والصحية والاقتصادية في المنطقة^(٤٥).

ج- وسائل الاتصال الجماهيري.

تبدو خطورة الدور الذي تمارسه وسائل الإعلام من خلال إمكانياتها المتعددة في التأثير في كل جوانب السلوك الإنساني. فهي تقوم برسم صورة ذهنية لدى الأفراد عن الدول والمواقف والأحداث، فتؤثر بالتالي في الطريقة التي يدرك بها الناس الأمور، والطريقة التي يفكرون بها. وبمعنى آخر تظهر وسائل الإعلام وهي تقوم بدور قمعي يتمثل في تسييد آراء وأفكار أصحاب السلطة السياسية والاقتصادية، وماعلى المواطنين إلا أن يستقبلوا ويستوعبوا هذه الآراء والأفكار دون تمييز أو مقارنة بغيرها^(٤٦).

ويرى «جارنر» أن وسائل الإعلام تتمتع بتأثير متميز في قدرتها على زرع الأفكار والقيم الثقافية. ويختلف هذا التأثير من فرد إلى آخر حسب الوقت والمكانة الاجتماعية والسلم الوظيفي. وقد اهتم «مارشال ماكلوهان» بهذه الأفكار وركز على أن العالم سوف يكون بمثابة قرية صغيرة نتيجة للتقدم الهائل الذي سوف يحدث في أجهزة الإعلام وخصوصا في التلفزيون^(٤٧).

وقد أصبحت وسائل الاتصال الجماهيري في العصر الراهن قادرة على نقل مختلف الأحداث فور وقوعها إلى أى مكان في العالم. وهكذا أصبحت

الكرة الأرضية بمشابة قرية عالمية، تلاشت فيها أهمية الحدود السياسية والفواصل الجغرافية. وتعرض مختلف دول العالم الثالث لحملات مستمرة من هذه الوسائل، مما يحتم على هذه الدول حماية الرأى العام بها من التأثيرات الضارة لهذه الوسائل وفى مقدمتها الإذاعات المسموعة والمرئية (٤٨).

وإذا تحدثنا عن أهمية الإذاعة فى تشكيل الرأى العام - باعتبارها أداة من أدوات الضبط الاجتماعى - نجد أن سيناء تعتبر بوقاً إعلامياً خطيراً فى المنطقة لما يتميز به موقعها الجغرافى الممتاز، فهى ملتقى الإذاعات العربية والأجنبية وخاصة إذاعة إسرائيل ويستطيع المواطن السينائى استقبال العديد من المحطات الإذاعية المحلية والعربية والأجنبية. ونتيجة لهذا التمييز الجغرافى، وتعرضها لفترة احتلال قاربت خمسة عشر عاماً، فقد تميز الرأى العام لشعبها بالمقارنة بشعب الوادى، حيث فرضت العزلة الجغرافية عليها طوال هذه الفترة لجؤ المواطن السينائى إلى الإذاعة لمعرفة الحقائق والأخبار، ومن ثم جاءت محصلة تكوين أفكاره واتجاهاته لما لفتته له الإذاعات المختلفة من معلومات. وعلاوة على ذلك فرضت الإذاعة أهميتها على المواطن السينائى نظراً لافتقاده وسائل الاتصال الأخرى مثل الصحف وصعوبة التقاط إرسال التليفزيون المصرى. وكانت الإذاعة هى الوسيلة الأولى بل والوحيدة التى تقوم بدور الترفيه والإعلام والإخبار، وتصاحب المواطن فى قضاء أوقات فراغه. ومن هنا برزت أهمية الإذاعة فى تشكيل الرأى العام بالمجتمع السينائى.

ومن منطلق الاهتمام بأهمية الإذاعة فى تشكيل الرأى العام لدى المواطن السينائى وضبط وتوجيه سلوكه، فقد استخدم المحتل الإسرائيلى هذه الوسيلة استخداماً جيداً يتوافق مع مصالحه. ولجأت إسرائيل طيلة فترات احتلالها للمنطقة إلى تلفيق الأخبار وتشويه الحقائق. وحاولت أيضاً الترويج لإقناع المواطن البدوى البسيط بسياسة فرض الأمر الواقع والتقليل من مصداقية الحكومة المصرية. وعملت الإذاعة الإسرائيلية من خلال برامجها المتنوعة على

جذب قاعدة عريضة من جماهير البادية، وتخطبهم بلهجاتهم ومستوياتهم الثقافية. وكان برنامج «العم حمدان» من أبرز البرامج التي حاولت هدم الروح المعنوية لدى المواطن المصري، ويتناول نقداً عنيفاً للسياسة المصرية، وإجبار مصر على الخضوع والاستسلام^(٤٩). أما التلفزيون، فيمكن القول عنه بأن تأثيره يعادل ثلاثة أضعاف تأثير الإذاعة، وذلك لأن برامج التلفزيون تعطى إحساساً بالألفة. وتتوقف قوة تأثير التلفزيون بالنسبة للرأى العام على حسن إعداد البرامج وتنوعها وجاذبيتها للمشاهد والبعد عن السطحية، وكذلك عرض الحقائق وتبسيطها للوصول بها إلى كافة العقول ذات الثقافات المتباينة^(٥٠).

وإذا حاولنا التعرض لخصائص التلفزيون، نجد أنه أصبح يشكل محورا مركزيا فى حياتنا اليومية، وجزءا من ثقافتنا، ويعد أيضا وسيلة تشير إلى تكامل المجتمع ثقافيا. وقد وصف «سيلفزستون» Silverstone التلفزيون بأنه وسيلة ساحرة معقدة مليئة بالتناقض، ويتميز أيضا عن الوسائل الأخرى بأنه وسيلة سمعية بصرية، حيث يجذب العين والأذن، كما أنه لا يرسل الصورة فقط، وإنما الصورة المتحركة بما فيها حركة الجسم والتعبيرات التى تنعكس على الوجوه. كما أن التلفزيون وسيلة قوية يمكن بواسطتها الوصول إلى جميع المواطنين، وأخيرا يتميز عن المواد المطبوعة بتقديمه المادة فى آتيتها.^(٥١)

ونظراً لهذه المميزات التى يتمتع بها التلفزيون، فقد حاولت إسرائيل استغلاله جيداً طيلة فترات الاحتلال من أجل تشكيل رأى عام موال لها، وبالتالي سهل على إسرائيل ضبط وتوجيه سلوك سكان المناطق المحتلة. واستطاعت فرض برامجها ونشر ثقافتها بين المواطنين، وسهلت مهمتها فى إقناعهم بما تعرضه عليهم. فالصوت والصورة عاملان مشجعان لإثبات الحقيقة، بالإضافة إلى انعدام وسائل المقارنة. وكثيرا ما منح المحتل الإسرائيلي عزل المواطن السينائى عن ثقافته وانتمائه لبلده مصر. وقد امتد استخدام إسرائيل للتلفزيون فى تشكيل رأى عام موال لها حتى بعد الاستقلال ووصول

الإرسال التليفزيونى المصرى إلى أرض سيناء، فقد لوحظ توجه معظم المواطنين إلى التليفزيون الإسرائيلى بصورة ملقطة للنظر بالمقارنة بمشاهدتهم لبرامج التليفزيون المصرى. ومن هنا تبدو أهمية استخدام هذا الجهاز الخطير فى تشكيل الرأى العام فى هذه المنطقة الهامة التى عاش شعبها عشرات السنين تحت نير الاحتلال وتعرضه لأكبر عمليات غسيل المخ.

وقد تمثلت عمليات غسيل المخ التى يمارسها التليفزيون الإسرائيلى على سكان الأرض المحتلة بأن عهد إلى إعطاء المتلقى السينائى صورة ذهنية مشرفة عن إسرائيل، وإبراز القيم الحضارية لها، والتعظيم من شأن القوة العسكرية لها، ووصفها بالقوة الخارقة، واستطاعتها تدمير الجيوش العربية مجتمعة. ولم تكتف وسائل الدعاية فى التليفزيون الإسرائيلى على عرض عضلات المحتل الإسرائيلى، بل حاولت التشكيك فى مقومات الأمة العربية، واعتبارها خليطاً متافراً من الشعوب والأجناس والأقليات. وحاولت الدعاية الإسرائيلية إقناع المواطن العربى بواقع التخلف الاقتصادى والاجتماعى الذى تعيشه مصر والدول العربية، ومن الصعب تجاوزه^(٥٢).

وعن دور الصحافة فى تشكيل الرأى العام فى مجتمع شمال سيناء، نجد أن العلاقة بين الصحافة والرأى العام هى علاقة تشابك وتداخل لا يمكن إغفالها، حيث أن درجة الثقة فى الصحافة يترتب عليها مدى نجاحها فى التأثير فى الرأى العام. فالكلمة المطبوعة تؤثر بدرجة كافية فى القارئ بالمقارنة بالكلمة المسموعة. فالكلمة المطبوعة تتيح للقارئ فرصة عظيمة لفهم معناها ومدلولها. وترك أيضاً له الحرية فى اختيار الوقت المناسب للرجوع إليها والاستمتاع بها. وتعتبر الصحافة سلاحاً خطيراً من أسلحة الإعلام التى لعبت دوراً هاماً فى تكوين الآراء وتوجيهها^(٥٣). ولما كانت سيناء مجتمعاً صحراويًا يتناثر سكانه عبر الصحراء، ويصعب توزيع الصحف على هذه المناطق المتباعدة - باستثناء مدينة العريش - فجاء تأثير الصحافة فى الرأى العام ضعيفاً إذا ما قورن

بوسائل الاتصال الأخرى. علاوة على ذلك تعتبر الضخافة وسيلة بطيئة في توصيل المعلومات، وبالتالي يتضاءل تأثيرها. ومن هنا لم تحاول إسرائيل الاعتماد عليها خلال فترات الاحتلال في توجيه الجماهير وضبط سلوكهم. سابعاً: أثر العزلة الجغرافية والاحتلال الإسرائيلي في عملية الضبط الاجتماعي.

سأل أحد أفراد الاحتلال رجلاً بدوياً: أيهما أفضل من وجهة نظرك الحكم المصري أم الإسرائيلي؟ فرد عليه البدوي صريحا قائلاً: والله لو تجمعت إسرائيل بكاملها في صورة شخص واحد وقدموا لي الشهد في كل صباح لتذوقته مرأً اليحماً. ولو كنت في سجون مصر لكانت هي جنتي. هذه وجهة نظر تؤكد على رفض البدوي للاحتلال نتيجة لما وجد فيه من آثار سلبية ومعاناة انعكست على ظروفه الاقتصادية وأحواله المعيشية، وبالتالي على أفكاره ومعتقداته. ولكن في مقابل وجهة النظر السابقة تبدو آراء أخرى متحفظة على سياسة المحتل، أو وجهات نظر مؤيدة له، لكن في نهاية الأمر، لكل طرف له من المييزات والأسباب التي تدعوه لمناصرة وجهة نظره. وهذا ماسوف تتعرض له من خلال الأمثلة والمواقف التي توضح الآثار التي تركها الاحتلال في المواطن البدوي، وانعكاس ذلك على تكوين الرأي العام وبالتالي ضبط توجيه السلوك.

لقد استخدم المحتل الإسرائيلي في تعامله مع بدو سيناء أسلوب التهريب والعقاب الجماعي في مقابل ترك الحرية التامة لهم لممارسة الأعمال التجارية والكسب. وكان من نتيجة ذلك هو وضع الحكومة المصرية في مأزق كثيرة بعد التحرير. فقد ظهرت مشكلات عديدة عقب انتهاء الاحتلال مباشرة، حيث كان يعمل عدد كبير من الشباب داخل إسرائيل. وقد خلق ذلك موقفاً حرجياً للحكومة المصرية إبان التحرير، لأنه كان من الصعب تعويض هؤلاء الشباب بالمميزات التي افتقدوها. وربما قد خلق هذا في الشباب رأياً عاماً مؤيداً لإسرائيل (٥٤).

ولما كانت بحيرة البردويل تمثل مصدراً اقتصادياً حيوياً لعدد كبير من الصيادين في منطقة شمال سيناء، فقد آسّطت إسرائيل استغلالها جيداً لصالحها بشرط الحفاظ على استفادة الصيادين. وخلال فترات الاحتلال سمحت إسرائيل لهم باستخدام أدوات الصيد الحديثة، بل قامت بتزويدهم بهذه الأدوات لاستغلال مصادر الثروة السمكية بالبحيرة. وبعد انتهاء الاحتلال، فرضت الحكومة المصرية القيود على استخدام هذه الوسائل، وبالتالي تفاقمت المشاكل بين الصيادين والحكومة المصرية، وعلاوة على ذلك فرض حرس الحدود قيوداً جديدة على الصيد في هذه المنطقة.

أما المشكلة التي واجهت التجار عقب انتهاء الاحتلال، فقد تمثلت في زيادة عددهم خلال فترات الاحتلال نتيجة لسيادة الرأسمالية الحرة داخل إسرائيل، علاوة على ذلك كان يعمل جزءاً كبيراً من هؤلاء التجار بالبضائع الأجنبية، لكن بعد التحرير أصبح هناك انجذاباً يدعو إلى دخول السلع المصرية، والتقليل من استيراد السلع الأجنبية، بل وفرض القيود عليها. واضطر التجار إلى قبول القوانين المصرية، خاصة قوانين الدعم والرقابة على السلع، مما نتج عنه حدوث مشكلات بين التجار والحكومة، الأمر الذي فرض رأياً عاماً متحفظاً من قبل التجار على قبول الإدارة المصرية بعد التحرير.

ونتيجة لظهور المشكلات السابقة وغيرها عقب التحرير مباشرة، وماتبها من تكوين رأي عام مناهض للإدارة المصرية. فقد كان لزاماً على الحكومة المصرية أن تتخذ خطوات عملية لحل هذه المشكلات، ومحاولة خلق رأي عام موالٍ لها. فقد واجهت مشكلات شباب الحرفيين باستغلالهم في تعمير سيناء. وعن مشكلة التجنيد، أصدر وزير الدفاع قراراً بالعفو عن جميع الشباب الذين عاصروا الاحتلال. أما مشكلة الصيادين، فقد عقدت مؤتمرات وندوات بالاشتراك مع سلاح الحدود وأمكن التغلب على مشاكلهم. وفي مجال

التعليم، أقيمت نهضة تعليمية سريعة، حيث أصبح في كل قرية مدرسة. وفي سنة ١٩٦٧ كانت توجد مدرسة ثانوية وحيدة بالمحافظة، وبعد التحرير أُقيم في كل مركز مدرسة ثانوية عامة، علاوة على المدارس الفنية. وبالرغم من محاولة الإدارة المصرية التخلص من بعض المشكلات التي ظهرت عقب انتهاء الاحتلال، إلا أن هناك بعض العناصر من البدو لم تنس المميزات التي عادت عليها خلال فترات الاحتلال، ولم تنس أيضا فضل إسرائيل عليهم. فعندما بدأ الاحتلال الإسرائيلي للمنطقة كانت الظروف المعيشية للبدو تمر بأصعب أحوالها. فقد ترك الناس منازلهم وقت الحرب، وسكنوا الجبال بلا مأوى أو طعام. ورأت إسرائيل في هذه الظروف الصعبة فرصة سانحة لجذب هؤلاء المواطنين. وقامت بجمع الناس من الجبال، وتقديم الخدمات الأساسية لهم، حيث أنشأت خط مياه من بئر السبع - من داخل إسرائيل - ومدت الخطوط داخل سيناء. وانتشرت التجمعات البدوية حول المياه، علاوة على إنشاء مجموعة من الطرق يستفيد منها البدو، وتخدم القوات المسلحة الإسرائيلية. واهتمت بالخدمات الصحية. ويؤكد أحد المواطنين ذلك بقوله «لو كان فيه حالات ولادة صعبة، تنزل الطائرات الهيلوكبتر الإسرائيلية الجبل وتنجد مثل هذه الحالات».

ولم تكف إسرائيل بالممارسات السابقة في عمليات غسيل مخ المواطن السينائي، بل حاولت جذب المواطنين واستقطابهم، فأدخلت الصناعات الإسرائيلية والبضائع المستوردة من الغرب إلى سيناء. وكان الهدف من وراء ذلك هو وضع المواطن السينائي في مقارنة بين المنتجات المصرية والإسرائيلية. ويعبر عن هذا الموقف أحد البدو قائلا: «أنا لابس بروفل استعملته ١٥ سنة منذ أيام الاحتلال.. صناعة إسرائيلية، مفيش منه». وحرصت إسرائيل على غرس الانتماء والولاء لها في نفوس البدو من خلال مواقف عديدة، مما جعل المواطن البدوي البسيط يشعر بأن إسرائيل تخاف على حياته. ويؤكد ذلك رواية مشهورة يتداولها الناس في مجالسهم وهي:

«أنشأت إسرائيل في أحد المناطق التابعة لمركز بئر العبد معسكراً قبل حرب ١٩٧٣. وأقامت بجانب المعسكر منازل مضاءة بالكهرباء. وكانت إسرائيل تهدف من وراء ذلك خداع القوات المصرية. وكان أحد الجنود يتردد على المعسكر كل مساء لإضاءته ثم يعود في الصباح لإطفائه. وعرض الإسرائيليون على البدو الإقامة في هذه المنازل المقامة بجانب المعسكر، شريطة أن يقيموا فيها نهائياً فقط، ويقادروها مساء خوفاً من قيام القوات المصرية بضرب هذه المنازل ليلاً».

ومن خلال المظاهر السابقة التي استخدمها المحتل الإسرائيلي في غسيل المخ ، يمكن القول بأنه استطاع - المحتل - بفضل هذه العمليات وعلاوة على مساعدة العزلة الجغرافية للمنطقة أن يكسب رأياً عاماً مؤيداً له ، بل ومناهضاً لتحرير سيناء وعودة الإدارة المصرية إليها. ومن هنا عملت إسرائيل على توجيه وضبط سلوك المواطنين وفق ما يترأى لها لخدمة أهدافها وتحقيق مصالحها، وانعكس ذلك بالضرورة على معتقدات وأفكار المواطن السينائي تجاه الإدارة المصرية. ولذلك صعبت مهمة الأخيرة في تشكيل رأى عام موافق لها، بل ومازلت تصعب مهمتها في توجيه وضبط سلوك المواطن في هذه المنطقة حيال القضايا والقوانين المصرية.

خاتمة: النتائج العامة للدراسة.

تعرضنا فيما سبق إلى تناول وسائل تشكيل الرأى العام فى المجتمع السينائى، وذلك باعتبار أن الرأى العام يمثل أداة هامة من أدوات الضبط الاجتماعى فى المجتمع. وقد تمثلت هذه الوسائل فى ثلاثة محاور أساسية، برز خلالها دور الاتصال الشخصى ممثلاً فى قادة الرأى والتنظيمات الحزبية. وجاءت وسائل الإعلام بأشكالها المتعددة لتمثل محوراً ثانياً، وأخيراً تأثير العزلة الجغرافية والاحتلال الإسرائيلى يمثل محوراً ثالثاً. ومن خلال مناقشة هذه المحاور، فقد لوحظ أن كل من هذه الأساليب لعبت دوراً هاماً فى تشكيل

الرأى العام، وبالتالي فى تحقيق الضبط الاجتماعى .

ويمكن القول بأنه مهما اختلفت أساليب تشكيل الرأى العام فى المجتمع السينائى، إلا أن لكل من هذه الأساليب ما يميزه من خصائص ومميزات. فقيادة الرأى مثلاً قد يلعبون دوراً فعالاً فى تحقيق الضبط الاجتماعى فى بعض القضايا الأخلاقية المثارة بين القبائل. وكذلك تؤدى التنظيمات الحزبية دوراً هاماً فى تحقيق الضبط الاجتماعى من خلال التفاف المواطنين حول أيديولوجية معينة وأهداف عامة تسعى التنظيمات الحزبية إلى تحقيقها.

أما عن وسائل الإعلام وتشكيل الرأى العام فى مجتمع شمال سيناء، فقد لوحظ أن هذه المنطقة تمثل بوقاً إعلامياً خطيراً فى المنطقة، وعلاوة على عزلتها الجغرافية نسبياً عن مصر. ومن هنا جاءت أهمية وسائل الإعلام. وقد لوحظ أن المحتل الإسرائيلى استخدم هذه الوسائل استخداماً جيداً فى تحقيق الضبط الاجتماعى إبان فترات الاحتلال بل استطاع تشكيل رأياً عاماً كامناً لصالحه فى نفوس المواطنين حتى بعد رحيله عن المنطقة. ولكن بعد تحرير سيناء ودخول الإدارة المصرية إليها، فقد تم إعادة تشكيل الرأى العام فى المنطقة من خلال إنشاء إذاعة شمال سيناء ووصول الإرسال التليفزيونى المصرى إلى المنطقة، علاوة على الأنشطة التى يمارسها الإعلام الداخلى ممثلاً فى الجمع الإعلامى النموذجى بالعريش ومراكز الإعلام بالمحافظة.

وقد شكلنا أيضاً كل من العزلة الجغرافية والاحتلال الإسرائيلى دوراً هاماً فى عملية تشكيل الرأى العام للمواطن السينائى. وتمثل ذلك فى نظرته إلى قضايا وطنه، بل وانتمائه، حيث مارس المحتل عمليات غسيل مخ واسعة للمواطنين وبالتالي ترك آثاره السلبية على المنطقة لكنه لم ينجح فى ممارسة هذا الدور إلا على فئة معينة من المواطنين، خصوصاً الذين تأثرت مصالحهم الاقتصادية بعد رحيل المحتل.

ونخلص من استعراض أساليب تشكيل الرأى العام فى شمال سيناء، وبالتالى فى تحقيق الضبط الاجتماعى إلى التأكيد على أن بعض هذه الأساليب قد يستخدم استخداما جيدا مثل قادة الرأى، وكذلك التنظيمات الحزبية شريطة إطلاق الحرية التامة لنشاطها، وإزالة المعوقات التى تحد من ممارسة دور هذه التنظيمات، واختيار المواطنين الأحزاب السياسية التى تتوافق مع اتجاهاتهم وأفكارهم. أما عن العزلة الجغرافية وتأثير الاحتلال الإسرائيلى ووسائل الاتصال الجماهيرى، فهى عناصر متشابكة، قامت بدور سلبى فى تحقيق الضبط الاجتماعى، بل مازال تأثيرها ممتد حتى الآن. فقد نتج عن وجود هذه العناصر الثلاثة تشكيل رأى عام مناهض لبناء المجتمع. ومن هنا يأتى أهمية الإعلام المصرى فى إعادة تشكيل الرأى العام بالمنطقة ليتضافر مع وسائل الاتصال الشخصى فى تحقيق الضبط الاجتماعى.

وبنما ترى وجهة النظر السابقة ضرورة الاهتمام بدور وسائل الاتصال الجماهيرى فى تحقيق الضبط الاجتماعى، تبرز وجهة نظر أخرى لم يتعرض لها البحث تؤكد على أهمية دور الدولة فى توفير الحاجات الأساسية للمواطنين. ويمكن أن نستخلص هذه الرؤية من تعليق أحد المواطنين بمدينة العريش وهو يقول: «يجب على الدولة أن تشعر المواطن العادى بأدميته، ووطنيته ومصريته، ويأتى ذلك من خلال إحساسه بالمسئولية، بل والمشاركة الفعلية فى المجتمع أسوة بالمواطن العادى فى المحافظات الأخرى. ولكن ليس للإعلام أى دور فعال دون الاهتمام بقضايا الجماهير الأساسية. ويجب عمل مؤتمرات عامة يحضرها المواطنون، ويؤخذ بأرائهم فى حل المشاكل. وهذا ما يهدى النفس، إطعم الفم تستحي العين. فالمفروض إقامة ندوات توضح للمواطن البدوى نوايا المحتل جراء تقديمه الخدمات، وذلك لأن العامل الاقتصادى يعد أحد العوامل الأساسية فى تحديد الانتماء. فالإعلام بمفرده غير قادر على جلب الانتماء».

وبالرغم من أهمية البعد الإقتصادي الذي أكدت عليه الرؤية السابقة وقناعتى الشخصية بالدور الأساسى الذى تؤديه الظروف الاقتصادية فى تحقيق الضبط الاجتماعى، إلا أن هناك أيضا جانب معنوى تتولى تنظيمه وإدارته الأجهزة المسئولة بالدولة. وهذا مايقوم به بالفعل المركز الإعلامى بالعريش من تنظيم برنامج إعلامى يزور فيه الشباب السينائى المدن المصرية، حيث يتم تنظيم سفر أفواج من شباب رفح والشيخ زويد والعريش والمناطق الأخرى لزيارة المدن الكبرى مثل القاهرة والإسكندرية والحلة الكبرى والمدن الأخرى. وتهدف هذه الزيارة إلى تمكين الشباب السينائى من عقد مقارنات بين المدن المصرية والمدن الإسرائيلية. وعلاوة على ذلك يقوم المجلس الأعلى للشباب والرياضة بتنظيم رحلات سياحية لشباب الجمهورية لزيارة الأماكن المختلفة بسياء، وإقامة المعسكرات الدائمة بها.

ونستخلص مما سبق أن هذه الدراسة خلصت إلى مجموعة من النتائج أهمها:

١- يشكل قادة الرأى فى مجتمع شمال سيناء دورا فعالا فى تحقيق الضبط الاجتماعى بالنسبة لبعض القضايا الخلافية المثارة بين القبائل. ويأتى ذلك نتيجة وجود شبكة شخصية من العلاقات الاجتماعية بين الأفراد تسمح بإحداث تفاعل اجتماعى بين الأفراد وبعضهم بعضا أو بينهم والدولة.

٢- تؤدى التنظيمات الحزبية دورا هاما فى تحقيق الضبط الاجتماعى، ويتمثل ذلك فى اختيار قيادات التنظيمات السياسية على مستوى القرية والمركز والمحافظة. وقد بدا ذلك واضحا فى ترشيحات المجالس المحلية ومجلسى الشعب والشورى.

٣- تعد السلطة القبلية هى القوة الأولى الملزمة فى ضبط سلوك الأفراد وتوجيه آرائهم فى المجتمع. وغالبا ما تفضل للسلطة السياسية فى فرض أفراد معينين أو أوضاع سياسية معينة لا يرضى عنها أبناء مجتمع شمال سيناء.

٤- أصبحت وسائل الإعلام أداة رئيسية هامة فى اتصال الدولة بمواطنيها. وقد شكلت هذه الوسائل دورا هاما فى مجتمع شمال سيناء فى ضبط سلوك المواطنين وتوجيههم سواء خلال فترات الاحتلال أو بعد التحرير. وقد تمثل ذلك فى تنفيذ الإدعاءات الاسرائيلية عن مصر إبان الاحتلال من خلال الإذاعات الموجهة أو عبر تقديم رسالة إعلامية تؤكد على المشروعات التنموية وتوعية مواطنى سيناء وتبصيرهم بالمعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٥- برزت أهمية استخدام وسائل الإعلام المصرية فى إعادة تشكيل الرأى العام بشمال سيناء عقب التحرير مباشرة بصورة واضحة، وبأى ذلك نتيجة لعمليات غسيل المخ التى مارستها وسائل الإعلام الاسرائيلية إبان فترات الاحتلال. وتمثل ذلك بصورة واضحة بالنسبة لاستخدام الإذاعة والتليفزيون باعتبارهما أداتين هامتين فى تشكيل الرأى العام بمحافظة شمال سيناء بالمقارنة باستخدام الصحافة. ويرجع ذلك إلى سهولة تعرض المواطن لهما وجاذبيتها فى توصيل المعلومة فى مقابل ارتفاع نسبة الأمية وتعثر عمليات توزيع الصحف بالمحافظة خاصة بين المناطق الجبلية.

٦- شكلت العزلة الجغرافية والاحتلال الاسرائيلى عاملين أساسيين فى تشكيل الرأى العام بمحافظة شمال سيناء. وقد تمثل ذلك فى سياسة الترغيب والترهيب التى اتبعتها اسرائيل خلال فترات الاحتلال لمواطنى شمال سيناء.

٧- برز دور اسرائيل واضحا فى تشكيل رأى عام موال لها من خلال ترك الحرية التامة لمواطنى سيناء فى ممارسة المشروعات التجارية بحرية تامة وكسب الأموال واستيراد المنتجات الاسرائيلية وكذلك فى بعض المواقف الانسانية.

٨- واجهت الحكومة المصرية بعض الصعوبات. فى إعادة تشكيل الرأى العام لمواطنى شمال سيناء بعد الاحتلال، وذلك لتأثير عمليات غسيل المخ التى مارستها اسرائيل فى المواطنين، علاوة على بقاء اجراءات الحكومة المصرية فى حل مشاكلهم.

٩- تتمثل عملية تشكيل الرأى العام السليم لمواطنى شمال سيناء فى غرس روح الانتماء والاعتزاز بالهوية المصرية، ويبرز ذلك فى إزالة آثار العدوان النفسية والاقتصادية والاجتماعية، وربط مواطنى سيناء بالوادي والدلتا، وتوجيه رسالة إعلامية صحيحة تتسم بالموضوعية وتدعم القيم الايجابية، وتقاوم السلبية والعزلة واللامبالاة، علاوة على خلق فرص العمل للمواطنين وزراعة الأراضى وإقامة المصانع.

الهوامش والمراجع:

- ١- د. أحمد أبو زيد، البناء الإجتماعى - مدخل لدراسة المجتمع، الجزء الثانى، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٧، من ص: ٤٢٣ - ٤٢٦.
- ٢- د. أحمد الخشاب، الضبط الإجتماعى - أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، مكتبة القاهرة الحديثة، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٨، من ص: ١١٤ - ١١٥.
- ٣- د. أحمد أبو زيد، البناء الإجتماعى، مرجع سابق، ص ٤١٨.
- 4- Jese R.Pitts, Social Control, The Concept in: David.Sills, International Encyclopedia of Social Sciences. Callier- Macmillan, The Free Press, Vol.13, London, 1968, p:383.
- ٥- د. أحمد أبو زيد، البناء الإجتماعى، مرجع سابق، ص: ٤٢٢.
- 6- Amitial Etziani, Social Control - Organizational Aspects, in: David L.Sills, op. cit., p. 396.
- ٧- د. أحمد أبو زيد، البناء الإجتماعى، مرجع سابق، ص: ٤٣١.
- ٨- د. أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص ٥٨.
- 9- W.Phillips Davison, Public Opinion, in: David L.Sills, Vol.13, op. cit, p:188.
- ١٠- د. أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص ٣١٢.
- ١١- المرجع السابق، ص ٢١٨.
- ١٢- د. أحمد أبو زيد، المجتمعات الصحراوية فى مصر - دليل العمل الميدانى، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنتية، القاهرة، ١٩٩٠، ص: ١.
- ١٣- نقلا عن: د. أحمد أبو زيد، المجتمعات الصحراوية فى مصر - البحث الأول شمال سيناء - دراسة اتنوجرافية للنظم والأنماط الاجتماعية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنتية بالقاهرة، ١٩٩١، ص: ٢٦١.

١٤- د. محمد عبده محبوب، مقدمة في الاتجاه السوسيولوجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص: ١٤٣.

١٥- المرجع السابق، ص: ١٤٣.

١٦- د. عبد الباسط عبد المعطى، البحث الإجتماعى - محاولة نحو روثة نقدية لمنهجه وأبعاده، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص: ١٩١.

١٧- د. أحمد أبو زيد، المجتمعات الصحراوية في مصر، دليل العمل الميداني، مرجع سابق.

18- George G.Homans, The Human Group, Kegan Paul, LTP, London, 1959, p:284.

١٩- د. محمود أبو زيد، الشائعات والضبط الاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠، ص: ٤٥.

٢٠- د. سامية جابر، القانون والضوابط الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١، ص: ٨٩.

٢١- د. أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص: ٢٢٠.

٢٢- المرجع السابق، ص: ٢٢٢، ٢٢٣.

١٣- د. سامية جابر، القانون والضوابط الاجتماعية، مرجع سابق، ص: ٨٠.

٢٤- بالرغم من هذه الإيجابيات، إلا أن روسو ذكر بعض الخصائص السلبية للرأى العام مثل:

١- أنه ليس هناك فرد من أفراد المجتمع يعرف بالتحديد إلى أى مدى يمدح ويثنى، وإلى أى مدى يلوم. ولذلك تظهر المتناقضات التى تضعف من سلطة الرأى العام.

٢- المفروض أن يكون هناك رأيا عاما موحداً وثابتاً فى وقت معين، ولكن غالباً ما يصطدم الرأى العام مع شعور طائفة معينة.

٣- أن سلطة الثروة والمكانة، وكذلك إصدار الأوامر والقرارات تجمل ضبط الحكام عن طريق الرأى العام مسألة صعبة؛ المرجع السابق، ص: ٨٠.

٢٥- د. عبد الوهاب كحيل، الرأى العام والسياسات الإعلامية، مكتبة المدينة، القاهرة، ١٩٨٥، ص: ٥٤.

٢٦- د. رفيق مكري، مدخل فى الرأى العام والإعلام والدعاية، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٨٤، ص: ١٩ - ٢٠.

٢٧- هويدا على، قادة الرأى - المفهوم والمنهج، المجلة الاجتماعية القومية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة، المجلد التاسع والعشرون، العدد الثانى، مايو ١٩٩٢، ص: ٥٩.

٢٨- د. إبراهيم إمام، الإعلام والاتصال بال الجماهير، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١، ص: ١٥٥.

٢٩- د. صلاح العبد، علم الاجتماع التطبيقى وتنمية المجتمع العربى، دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٢، ص: ٢٧٥.

30- Amitail Elzioni, op.cit., pp: 397,398.

٣١- د. سمير حسين، الإعلام والاتصال بال جماهير والرأى العام، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٤، ص: ٩٩.

٣٢- د. نادية سالم، قادة الرأى فى المجتمع المصرى - دراسة تحليلية عن الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لقادة الرأى المحليين فى الريف، ندوة قياس الرأى العام فى مصر ١٠-١٢ مارس ١٩٨١، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٨١ ص ١٦.

33- George G.Humans, op.cit,p: 429.

٣٤- د. سامية جابر، الاتصال الجماهيرى فى المجتمع الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص: ٢٣٥.

٣٥- د. رفيق مكري، مرجع سابق، ص: ٨٦.

٣٦- د. نعمان الخطيب، الأحزاب السياسية ودورها فى أنظمة الحكم المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٣، ص: ٩١ - ٩٧.

٣٧- د. أحمد أبو زيد، المجتمعات الصحراوية فى مصر - البحث الأول شمال سيناء، مرجع سابق، ص: ٢٨٠.

٢٨- د. مصطفى أحمد تركي، وسائل الإعلام وأثرها في شخصية الفرد، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع، يناير - مارس ١٩٨٤، ص: ١٠١.

٢٩- هيرت شيلدر، المتلاعبون بالمقول، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٠٦، أكتوبر، ١٩٨٦، ص: ١٩٤.

٤٠- د. أحمد أبو زيد، الإعلام والرأي العام، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع، الكويت، يناير - مارس - ١٩٨٤، ص: ٤.

41- Richard T.Lapierre. A theory of Social Control, McGraw - Hill, Book Company, Inc., London, 1954, p:519.

42- Steven H.Choffe, Michael J.Petrick, Using the Mass Media, McGraw - Hill Book Company, New York, 1975, p: 172.

43- Jese R.Pitts, Op.cit,p: 385.

٤٤- د. أماني قنديل، وسائل الإعلام وظاهرة الرأي العام، ندوة قياس الرزى العام في مصر، ١٠-١٢ مارس ١٩٨١، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٨١، ص: ١٩.

٤٥- ونتيجة لأهمية هذا الدور الذي تمارسه مراكز الإعلام بالمحافظة، حاول المسؤولون التوسع في أنشائها، حيث تم إنشاء مركز إعلام العريش في ٢٥ مايو ١٩٧٩، ومركز إعلام رفح في ٢٥ إبريل ١٩٨٢، ومركز إعلام المنفذ البري برفح، بالإضافة إلى المركز الرئيسي وهو مركز النيل للإعلام.

٤٦- محمد فرج، الدولة وتشكيل الوعي، مجلة قضايا فكرية، الكتاب الأول، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، يوليو ١٩٨٥، ص: ١٢٥.

47- Denis Mcquail , The Influence and Effects of Mass Media, in : James Curran ed., Mass Communication and Society, Edward Arnold, London, 1977, p: 89.

٤٨- د. عبد الغفار رشاد، النتائج السياسية للرأي العام، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الرابع، المجلد الثاني عشر، ١٩٨٤، ص: ١١٧ - ١١٨.

٤٩- تحدث «إيفان يادين» رئيس أركان الجيش الإسرائيلي ١٩٥٠ - ١٩٥٢ في ندوة عقدتها جريدة «معاريف الإسرائيلية» بمناسبة مرور ٢٥ عاما على تأسيس إسرائيل قال فيه: «إن لدينا سلاحاً من الدرجة الأولى لاستغله كما ينبغي، وهو وسائل الإعلام باللغة العربية.. هيئة الإذاعة التي أنشئت عنها يجب أن تعمل ٢٤ ساعة يوميا بأقوى أجهزة بث إذاعية وإلى أبعد المسافات من العراق حتى مصر يوما بيوم وساعة بساعة وستة ستة. هناك عدة أمور يمكن أن نقولها لهم في مصر مثل ٢٥ أو ٣٠ مليون مريض بالزهرى وبعانون من مرض الحمى كذا، وقضية فلسطين بالنسبة لهم كقشرة الثوم، يجب أن ندخل في أذهانهم هذا الأمر صباح مساء، يجب أن نحدثهم عن مشكلاتهم وما يمكن عمله بخصوص تلك المشكلات.. تعالوا نعرضهم أن بإمكانهم أن ينسوا إثناء إسرائيل».

- د. إبراهيم عبد الكريم، الإعلام الإسرائيلي الموجه إلى العرب - بحث في المرسل والخطاب، مجلة الوحدة السنة الخامسة، الرباط، العدد ٥٤، مارس ١٩٨٩، ص: ٦٠.

٥٠- د. سميد سراج، الرأي العام - مقوماته وأثره في النظم السياسية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص: ١٨٤ - ١٨٦.

51-Roger Silverstone, Television and every day life, Routledge, London, 1994, p: 24.

٥٢- د. إبراهيم عبد الكريم، مرجع سابق، ص ٦٤-٦٥.

٥٣- د. خليل صباه، الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم، دار المعارف بمصر، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٧، ص: ١٧.

٥٤- امتدت عمليات غسل المخ لتشمل السماح للمواطنين، العمل داخل إسرائيل ذاتها، حيث كانت تعيش سيناء ظلوما اقتصاديا صعبا، وفي الوقت ذاته كانت حاجة إسرائيل إلى العمال المصريين هامة من أجل تنفيذ الشعار الذي رفعه «ساحم ييجين» - وزير الإسكان والرفاه الاجتماعي سنة ١٩٧٠ - تعمير إسرائيل بأيدى عربية. وبدأ انتشار العمال العرب داخل إسرائيل والعمل في كافة مجالات المعمار، وبرواتب مجزية. وحاولت إسرائيل معاملة هؤلاء العمال معاملة إنسانية وكسبهم لصالحها، وغرس المقارنة في نفوس المواطنين، والرضا بالأمر الواقع.

مصادر الدراسة:

- ١- أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي - مدخل لدراسة المجتمع، الجزء الثاني، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٧.
- ٢- أحمد أبو زيد، المجتمعات الصحراوية في مصر - دليل العمل الميداني، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنتائية، القاهرة ١٩٩٠.
- ٣- أحمد أبو زيد، المجتمعات الصحراوية في مصر - البحث الأول شمال سيناء - دراسة اثنوجرافية للنظم والأنساق الاجتماعية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنتائية، القاهرة، ١٩٩١.
- ٤- أحمد الخشاب، الضبط الاجتماعي - أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، مكتبة القاهرة الحديثة، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٨.
- ٥- أمانى قنديل، وسائل الإعلام وظاهرة الرأي العام، ندوة قياس الرأي العام في مصر (١٠-١٢ مارس ١٩٨١، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنتائية، القاهرة، ١٩٨١.
- ٦- إبراهيم إمام، الإعلام والاتصال بال الجماهير، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١.
- ٧- خليل صابات، الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم، دار المعارف بمصر، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٧.
- ٨- رفيق سكري، مدخل في الرأي العام والإعلام والدعاية، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٨٤.
- ٩- سامية جابر، الاتصال الجماهيري، في المجتمع الحديث، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٣.
- ١٠- سامية جابر، القانون والضرابط الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١.

- ١١- سعيد سراج، الرأى العام، مقوماته وأثره فى النظم السياسية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.
 - ١٢- سمير حسين، الإعلام والاتصال بال جماهير والرأى العام، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٤.
 - ١٣- صلاح العبد، علم الاجتماع التطبيقى وتنمية المجتمع العربى، دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٢.
 - ١٤- عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعى - محاور نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧.
 - ١٥- عبد الوهاب كحيل، الرأى العام والسياسات الإعلامية، مكتبة المدينة، القاهرة، ١٩٨٥.
 - ١٦- محمد عبده محجوب، مقدمة فى الاتجاه السوسيو أنثروبولوجى الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧.
 - ١٧- محمود أبو زيد، الشائعات والضبط الاجتماعى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠.
 - ١٨- نعمان الخطيب، الأحزاب السياسية ودورها فى أنظمة الحكم المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٣.
- الدوريات العربية.**
- ١٩- أحمد أبو زيد، الإعلام والرأى العام، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع، يناير - مارس ١٩٨٤.
 - ٢٠- عبد الغفار رشاد، النتائج السياسية للرأى العام، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الرابع، المجلد الثانى عشر، ١٩٨٤.
 - ٢١- محمد فرج، الدولة وتشكيل الوعى الاجتماعى، مجلة قضايا فكرية، الكتاب الأول، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، يوليو ١٩٨٥.

٢٢- مصطفى أحمد تركي، وسائل الإعلام وأثرها في شخصية الفرد، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع، يناير - مارس، ١٩٨٤.

٢٣- هربرت شيلر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٠٦، أكتوبر ١٩٨٦.

٢٤- هويدا عدلى، قادة الرأي - المفهوم والمنهج، المجلة الاجتماعية القومية المجلد التاسع والعشرون، العدد الثاني، مايو ١٩٩٢.

المراجع الإنجليزية.

25- Curran James, ed., Mass Communication and Society, Edward Arnold, London, 1977.

26- H.Choffe Steven, Petrick Michael , J, Using The Mass Media, Macgraw - Hill Book Company, New York, 1975.

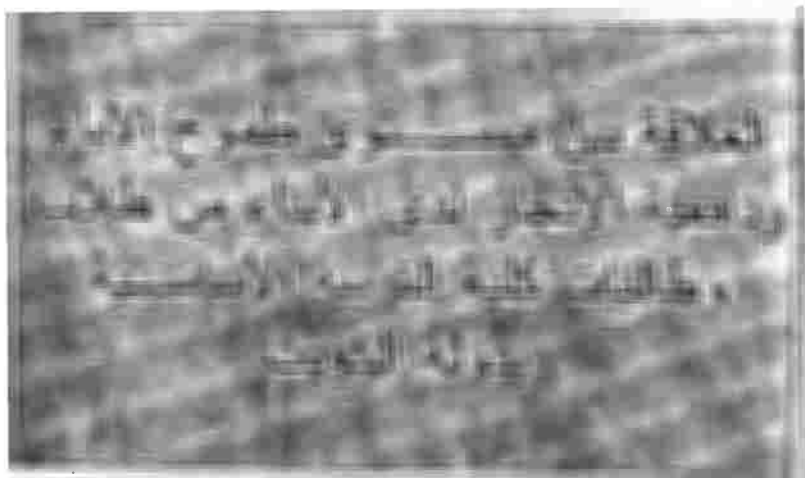
27- Davison W.Phillips, Public Opinion in:David L.Sills Encyclopedia of Social Sciences, Callier - Macmillan, The Free Press, vol.13, London, 1978.

28- G.Homans George, The Human Group, Kegan Paul, LTD, London, 1979.

29- L.Sills David, International Encyclopedia of Social Sciences, Callier - Macmillan, The Free Press, Vol.13, London, 1968.

30- Silver stone, Roger, Television and every day life, Routledge, London, 1994.

31- T.Lapierre, A Theory of Social Control, McGraw - Hill Book Company, Inc., London, 1974.



د. فريح عويد العزى
قسم علم النفس - كلية التربية الأساسية
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي



العلاقة بين مستوى طموح الآباء وقابلية الإيجاز لدى الأبناء من طلاب ومطلوبات كلية التربية الأساسية

مقدمة :

تشير معظم الدراسات النفسية والتربوية إلى أهمية الرعاية الوالدية ودورها في التنشئة الاجتماعية فضلاً عن التحصيل الدراسي ، وتعد الأسرة من أهم العوامل المؤثرة في نشأة الطفل وتحديد سلوكه ، وأبرزت نتائج الدراسات التي قام بها عدد من الباحثين الدور الذي يقوم به أولياء الأمور في دفع أبنائهم إلى التحصيل ، وكذلك دور المعلمين في تحديد الأولويات التعليمية (Marjoribanks, 1979,p. 191).

ومن ناحية أخرى يوجد عدد من العوامل المرتبطة بغياب التلاميذ عن المدرسة متعلقة بالإجهاضات الوالدية نحو أبنائهم ومنها :- عدم حرص الوالدين على حضور اجتماعات مجالس الآباء الذي يوثق العلاقة بين المنزل والمدرسة ، ويجعل الإبن تحت الرقابة من قبل الوالدين والمعلمين ، وكذلك عدم زيارة الوالدين لمدارس أبنائهم والسؤال عنهم ، إضافة إلى عدم متابعة الوالدين للتحصيل الدراسي لأبنائهم في المنزل أو المدرسة ، وذلك بسبب انتشار الأمية لدى كثير من الآباء والأمهات ، والتفكك الأسري ، وعدم توفير الظروف المناسبة لاستنكار الأبناء في المنزل (محمود عبد الحليم منسى وآخرون ، ١٩٩٠).

وترى " وينتربوتوم " Winterbottom (١٩٥٨) إلى أن تحقيق ما لدى الأبناء من إمكانات إنجازية كان يصاحبه تشجيع الأمهات لأبنائهن على المبادأة والتلقائية والاستقلالية (صفاء الأصغر وآخرون ، ١٩٨٣) . وأوضح عدد من الدراسات أهمية الدافعية للإنجاز عند الأبناء وارتباطه بطموحات أبنائهم ودرجة اهتمامهم (انظر : مصطفى تركي ، ١٩٧٤ ، Nutall & Nutall, 1976).

وتوصلت الدراسة التي قام بها محمود عبد القادر (١٩٧٨) إلى وجود ارتباط إيجابي دال إحصائياً بين درجات النجاح في نهاية الفصل الدراسي وكل من الطموح والمثابرة . وقام جابر عبد الحميد (١٩٨٩) بدراسة مقارنة بين التلاميذ المتفوقين والمتوسطين والمتأخرين دراسياً بالمرحلتين الإعدادية والثانوية بدولة قطر في الدافعية والإتجاهات المدرسية وبعض المتغيرات المتعلقة بسمات الشخصية ، وخلصت الدراسة إلى أن الطلاب المتفوقين دراسياً حصلوا على درجات أعلى من المستويات المتوسطة والمنخفضة في التحصيل الدراسي ، وكذلك في التفكير الأصيل والحيوية ، فالطلاب المتفوقون دراسياً يميلون على العمل بدرجة أكبر ، ولديهم قدرة على الإنجاز ، ويميل إلى حل المشكلات للصعبة ، ويستمتعون بالمناقشات التي تثير تفكيرهم وبالأفكار الجديدة . ويرى محمد رمضان (١٩٨٧) أن الدافعية العالية للإنجاز ترتفع من مستوى التحصيل ، فالطلاب المتقدمون للتحصيل كانوا أكثر دافعية للإنجاز .

يعد الآباء هم المعلمون الأوائل في حياة أبنائهم ، ويؤثرون على سلوكهم وعلى أفعالهم، ويكتسبون منهم الخبرات التعليمية ، ويحفزونهم نحو التحصيل الدراسي ، وكلما كانت الأسرة تدرك أهمية التعليم في حياة أبنائها فإنها تنفعهم إلى هذا الاتجاه ، ولكن العكس قد يحدث أحياناً ، وهذا ما أكدته إحدى الدراسات من أن التغيرات التي طرأت على دور الأسرة من الأسباب التي تؤثر في درجة الدافعية للإنجاز بين طلاب الجامعة ، كما أن غياب الوالدين عن المنزل فترات زمنية طويلة نظراً لإرتباطهما بالعمل ، ولد لدى الأبناء إحساساً بأهمية الانتماء إلى الآخرين أكثر من اهتمامهم بالرغبة في الإنجاز والتفوق (محي الدين حسين، ١٩٩٨، ص٣٩).

كما أن اختلاف المستوى الثقافي لأولياء الأمور ، ووظيفة الأب أو تعاوده عن العمل ، فضلاً عن الحالة الزوجية للطلاب يمكن أن تكون من بين العوامل التي تؤثر على دافعية الإنجاز للأبناء .

مشكلة الدراسة :

تتحدث مشكلة هذه الدراسة في الآتي :

- ١- هل توجد علاقة بين مستوى طموح الآباء ودرجات الأبناء من الطلاب والطالبات في دافعية الإنجاز ؟
- ٢- هل تتأثر دافعية الإنجاز لدى الأبناء بالمستوى الثقافي للآباء ؟
- ٣- ما مدى العلاقة بين تقاعد الأب عن العمل أو استمراره في أدائه للعمل والدافعية للإنجاز لدى الأبناء ؟
- ٤- هل يؤثر زواج الطلاب والطالبات على دافعتهم للإنجاز ؟

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة الحالية إلى ما يلي :

- ١- محاولة التعرف على العلاقة بين مستوى طموح الآباء ودافعية إنجاز الأبناء.
- ٢- مدى تأثير المستوى الثقافي للآباء على دافعية إنجاز الأبناء .
- ٣- الكشف عن علاقة الحالة الوظيفية للآباء (متقاعدين - وغير متقاعدين) والدافع للإنجاز للأبناء .
- ٤- مدى تأثير درجة الدافع للإنجاز لدى الطلاب والطالبات بحالتهم الزوجية.
- ٥- التعرف على الفروق بين الجنسين (طلاب وطالبات) في الدافع للإنجاز .

الإطار النظري للبحث

افترض " ماكليلاند " أن الدوافع الاجتماعية متعلمة ومكتسبة على ضوء الخبرات الإنفعالية بأنواع معينة من السلوك ، وأن الطفل في بداية حياته يعتمد على الآباء في تقييمهم لإنجازهم ، وذلك عن طريق أسلوب الثواب ، فإذا نشأ الطفل في ظروف يشب فيها السلوك

الذى يتميز بالنجاح ولا يكافأ السلوك الفاشل فإن قوة الدافع للإنجاز سترتفع عند الطفل ، ويرى 'ماكلياند' ، ونتر " McClelland & Winter أن الدافع للإنجاز يمكن تعليمه للبالغين بقدر معقول من النجاح ، وذلك بإتباع الخطوات التالية :-

١- تعليم المشاركين كيف يفكرون ، ويتحدثون ، ويتصرفون كالأفراد ذوي حلجة الإنجاز المرتفعة .

٢- تحفيز المشاركين وحثهم على وضع أهداف عملية وواقعية .

٣- إعطاء المشاركين معلومات مرتدة عن مدى تقدمهم في تحقيق تلك الأهداف .

٤- خلق روح الفريق بين أعضاء المجموعة وإتاحة الفرصة أمامهم في التعرف على أمتيات كل عضو منهم ، ومخاوف كل فرد من للفشل أو النجاح (آدم العتيبي ، ١٩٩٦ ، ص ٣٤٠) .

وتوصل "روزن ، وداندارد" (Rosen & Dandrad) إلى أن الآباء من ذوي الدافعية المرتفعة للإنجاز يكون لأبنائهم الخاصية ذاتها ، وذلك لأن مثل هؤلاء الآباء يشجعون الأبناء على اكتشاف المواقف ، وعلى حل المشكلات بأنفسهم (عبد الخالق ، النبال ، ١٩٩١ ، ص ٦٤٠) .

ويشير "ماكلياند" (McClelland, 1985) لأهمية الدافعية وقيمة الحوافز ، واحتمالية النجاح - كما تقاس بشكل مستقل - في التنبؤ بالأداء الملجز . ويذكر أن كلامن النظرية والبحوث توديان إلى النتائج التالية :

١- قوة الدافع هي المحدد الأساسي لأعمال الشخص ، وذلك بما لا يغفل أثر بقية المحدودات بوجه عام .

٢- قوة الحوافز هي المحدد الأساسي للاختيارات التي تعتمد على أساس معرفي .

٣- تشترك قوة الدافع مع احتمالية النجاح في التنبؤ بقوة الاستجابة .

٤- تستوعب كل هذه المحدودات بالإضافة إلى هذا التفاعل المذكور مايزيد على ٧٥٪ من التباين في هذا المجال (أحمد عبد الخالق وآخرون ، ١٩٩٤) .

ولا يعنى ذلك أن هذه هي كل النتائج ، ولكنها النتائج التي يبرزها "ماكلياند" ، وهناك مؤثرات كثيرة تؤثر في تكوين الدافع للإنجاز ، والدراسات كثيرة تنوق للحصر .

وتفاوت إمكانات الأفراد في الدافعية للإنجاز ، إذ يتميز أصحاب الدافع القوي للإنجاز بصفات تختلف عن أصحاب الدافع المنخفض ، فالذين يتمتعون بقوة الدافعية للإنجاز يميلون

إلى إظهار لداء مرتفع في الأعمال التي تشتمل على مستويات متوسطة من التحدي ، والتي تتضمن تغذية راجعة مباشرة تتصل بالنجاح والفشل ، ويتصفون بالمثابرة والكفاءة العالية ، وفي بعض الأحيان يتجهون إلى الغش لزيادة الإنتاج والوصول إلى الهدف الذي يصبون إليه، ولديهم نشاط حركي مرتفع ، ومياليين إلى التغيير (Winter, 1988) . وذلك على الرغم من أن الغش يعد صفة غير مقبولة اجتماعياً وهو وسيلة إلى بلوغ الهدف بطرق غير مشروعة.

ويرجع التقلبات بين الأفراد في مستويات الدافعية إلى عدد من العوامل منها العوامل الداخلية كالاهتمامات والقيم ، أو الخارجية كالبيئة التي يعيش فيها الفرد وما يوفره السياق الاجتماعي من ميسرات أو عقبات بالنسبة للفرد ، حيث تحدد خبرة الفرد والسياق الذي يعيش فيه مدى تسبته لطاقته في اتجاه أو آخر (محي الدين حسين ، ١٩٨٨).

كشفت إحدى الدراسات أن الأطفال الذين يعيشون في نطاق أسر تنمي لديهم الشعور بالمسئولية وحرية الحركة يظهرون قدراً أكبر من الدافعية للإنجاز بعكس الأطفال الذين يعيشون في بيئة أسرية تستخدم الحماية الزائدة لهم (بدر العمر ، ١٩٨٧).

ولا يقتصر الاهتمام بالدافعية للإنجاز على الجوانب الأكاديمية أو التحصيل الدراسي بل يتسحب إلى مجالات شتى كالمجال الاقتصادي ، والمجال الإداري ، والفني والتقني . وقد أشار " ملكيلاند " إلى الدور الذي يقوم به الدافع للإنجاز في رفع مستوى أداء الفرد وإنتاجيته في مختلف المجالات ، فالتمو الاقتصادي السليم لأي مجتمع ، والذي يهدف إلى التطور والتقدم ، إنما يرجع إلى الدافعية للإنجاز عند أفراد هذا المجتمع (عبد اللطيف خليفة ، ١٩٩٥ ص ٦).

وتتأثر دافعية الإنجاز لدى الأبناء بالاضطرابات النفسية التي يعاني منها الوالدان أو أحدهما وأشار عدد من الدراسات إلى أن زملة الأعراض الاكتئابية ترتبط بدافعية الإنجاز (انظر : Lynn, 1987) . ودلت إحدى الدراسات أن هناك علاقة بين الدافعية للإنجاز والميل العصائية (محمد رمضان، ١٩٩٣، ص ٣٩٠) ، وقام عبد الخالق ، والنيال (١٩٩١) بدراسة

الدافع للإنجاز وعلاقته بالقلق والابتساض ، وأسفرت النتائج إن ارتباط جوهري سالب بين الدافع للإنجاز والقلق لدى كل من الذكور والإناث ، وارتباط جوهري موجب بين كل من الدافع للإنجاز والابتساض وسالب بين " القلق والابتساض " لدى الذكور فقط ، وكشف التحليل العاملي عن عامل " القلق مقابل الابتساض " لدى الذكور ، وعامل " القلق مقابل الابتساض والدافع للإنجاز " عند الإناث .

ويتضح من ذلك أن الدافع للإنجاز يرتبط بالصحة النفسية ، ومن ثم يمكن أن ينتقل التأثير إلى أفراد الأسرة الواحدة ، فالأبناء لا يعيشون بمعزل عن آياتهم بل يتفاعلون معهم . فالإكتئاب والقلق والضغط النفسية والاجتماعية وغيرها ، هي عوامل مؤثرة على دافعية الإنجاز لدى الأفراد ، فالمناخ الأسري المناسب يدفع البناء إلى الإنجاز وتحقيق أهدافهم وطموحاتهم ، في حين أن سوء التوافق الأسري والخلافات العائلية والتفكك بمثابة معوقات تحول دون وصول الفرد إلى الهدف الذي يسعى إليه .

قد تعرض جونجهام للعلاقة بين مستوى الطموح واحترام الذات ، وإشارة نتائج الدراسة إلى وجود علاقة موجبة بين ارتفاع مستوى الطموح واحترام الذات المرتفع (محمود أبو مسلم ١٩٨٧) . ويرتبط بمفهوم الدافعية للإنجاز مفهوم الطموح كما أشارت إلى ذلك نتائج الدراسات التي تتناول العلاقة بين المتغيرين مثل دراسة كلارك وآخرين (Meer, 1967)، إبراهيم كشوش، ١٩٧٥، محمود أبو مسلم ، ١٩٨٧).

ويمثل الطموح واحداً من أهم أبعاد الشخصية الإنشائية ، ذلك لأنه يمد بمثابة المؤشر الذي يتوقع منه السلوك الإنشائي في تعامله مع بيئته وتصين الأداء المستقبلي . وإذا كانت للطموحات متفئة مع الأداء فلن ذلك يمكن أن يؤدي إلى تدعيم سلوك الأبناء ويزيد من دافعيتهم للإنجاز .

ويتضح مما سبق إن الدافعية للإنجاز لدى الأبناء ومستوى طموح الآباء يمد من أهم الجوانب الدافعية التي تسهم في تحقيق الفرد لذاته ، ومن ثم فلن افتراض علاقة بين

الدافعية للإنجاز للأبناء ومستوى طموح الآباء له ما يبرره تماماً ، مما دعا الباحث الحالي إلى القيام بهذه الدراسة لمعرفة دور طموحات الآباء ومستوياتهم الثقافي وحالتهم الوظيفية في دافعية الإنجاز للأبناء ، هذا فضلاً عن دور الحالة الاجتماعية للأبناء في دافعتهم للإنجاز .

مصطلحات الدراسة

١- الدافع للإنجاز :

يعرف " ماكلياند " وزملائه الدافع للإنجاز بأنه يشير إلى استعداد ثابت نسبياً في الشخصية ، يحدد مدى سعي الفرد ومثابرته في سبيل تحقيق وبلوغ نجاح يترتب عليه نوع من الإرضاء ، وذلك في المواقف التي تتضمن تقييم الأداء في ضوء مستوى محدد من الامتياز ، كما يعرف الإنجاز بأنه النشاط الذي يقوم به الفرد ويتوقع أن يتم بصورة ممتازة (عبد اللطيف خليفة ، ١٩٩٥ ، ص ٨٠).

وبين " هيلجارد وآخرون " أن مفهوم الدافع للإنجاز هو قدرة الفرد على تحديد أهدافه في ضوء معايير التفوق والامتياز (Hilgard et al, 1979) وأشار "حسن على حسن" إلى أن متغيرات الإنجاز تندرج تحت ثلاثة جوانب :

- أ- الإنجاز باعتباره دافعاً (الميل إلى الإنجاز) : استعداد الفرد وميله إلى الاقتراب من النجاح ، وفقاً لمعيار معين من الإتيقان والتفوق ، وشعوره بالثقة بالنفس والاعتزاز بالذات.
- ب- الإنجاز باعتباره أداء (التحصيل الأكاديمي) : اعتبار نتيجة التحصيل الدراسي تعبيراً عن شدة الدافع للإنجاز .
- ج- الإنجاز كونه سمة شخصية (الشخصية الإنجازية) : يفترض أن الإنجاز يمثل سمة شخصية ترتبط بخصائص معرفية ومزاجية (حسن على حسن، ١٩٨٦، ١٩٨٩ ، ص ١٩-٣٢).

د- ويرى فاروق عبد الفتاح (١٩٨١) أن الدافع للإنجاز يشير إلى الرغبة في الأداء الجيد وتحقيق النجاح ، وهو هدف ذاتي ينشط السلوك ويوجهه، ويعتبر من المكونات المهمة للنجاح المدرسي ، ويوصف الأفراد ذوو دافع الإنجاز المرتفع بأنهم يميلون إلى بذل محاولات جادة للحصول على قدر كبير من النجاح في كثير من المواقف المختلفة .

ويعرف أحمد عبد الخالق (١٩٩١، ص ٣٣) الدافع للإنجاز بأنه الأداء على مستوى الامتياز والتفوق ، أو الأداء الذي تحثه الرغبة في النجاح . وحدد عبد الفتاح دويدار (١٩٩١، ص ٦) الدافع إلى الإنجاز على أنه سعى الفرد تجاه تحقيق ذاته وتوكيدها ، حيث يشعر الإنسان بتحقيق ذاته من خلال ماإنجزه ، وفيما يحققه من أهداف .

وحدد عبد اللطيف خليفة (١٩٩٥، ص ٨٠) الدافعية للإنجاز على أنها تعنى :-
" استعداد الفرد لتحمل المسؤولية ، والسعى نحو التفوق لتحقيق أهداف معينة ، والمثابرة للتغلب على العقبات والمشكلات التي قد تواجهه ، والشعور بأهمية الزمن والتخطيط للمستقبل" .

ومن الملاحظ أن التعريفات السابقة للدافعية للإنجاز ركزت على عدد من المفاهيم منها:- مستوى الأداء ، والاستعداد لتحمل المسؤولية ، والسعى نحو تحقيق الهدف ويتمثل في طموح الفرد . فالإنجاز والطموح والحماسة من أهم أبعاد الدافعية للإنجاز ، والتي تظهر في سلوك الإصرار والمثابرة في تحقيق الأهداف المرجوة (Cohen, 1979, p.19) .

ويرى الباحث الحالي أن الدافعية للإنجاز من المفاهيم المكونة للشخصية ، وتسهم الأسرة والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد في استثارة هذا الدافع وتوضيح أهميته من خلال المواقف التي يتعرض لها ، وتكتسب بعض المعاني كالشعور بالمسؤولية . وتتفاوت هنا بين الأفراد أهمية الهدف ، وتحقيق التفوق ، والنجاح على ضوء التنشئة الاجتماعية ، فهناك الاتكالي الذي لا يتحمل المسؤولية ، ويعتمد على أبويه في حل كل المشكلات التي تعترض مسيله ، وتصبح درجة الإنجاز لديه منخفضة ، فكلما أدرك الفرد أهمية العمل والطموح

ارتفعت لديه الدافعية للإجازة والعكس صحيح ، بمعنى أن الفرد الذي لا يولي أهمية للأهداف التي يسعى إلى تحقيقها ، فإن مستوى الدافعية لديه سيكون منخفضاً .
وبقدم الباحث الحالي تعريفاً للدافعية للإجازة كما يستخدم في هذه الدراسة بأنه :
الأداء على مستوى الامتياز والتفوق الذي يحقق فيه الفرد ذاته ويؤكددها .

٢- مستوى الطموح :

ويعرف في ضوء الاختبار المستخدم في هذه الدراسة بأنه : عبارة عن سمة ثابتة نسبياً تفرق بين الأفراد في الوصول إلى مستوى معين يتفق والتكوين النفسي للفرد وإطاره المرجعي ، ويتحدد حسب خبرات النجاح والفشل التي مر بها (جابر عبد الحميد ، ١٩٨٧) .

وقد قام الباحث بتصنيف مستوى طموح الآباء إلى مستويين :

- أ- المستوى الأقل : وهم الآباء الحاصلون على (أقل من ٤١) درجة على المقياس المستخدم في الدراسة .
- ب- المستوى الأعلى : وهم الآباء الحاصلون على (أعلى من ٤١) درجة على المقياس المستخدم في الدراسة .

٣- المستوى الثقافي للآباء :

ويقصد به درجة تعليم الآباء تبعاً للمراحل التعليمية التي اجتازوها . وقد قسمت إلى أربعة مستويات هي :

- أ- الجامعي وبعد الجامعي .
- ب- الحاصلون على الثانوية العامة وما في مستواها .
- ج- الذين اجتازوا المرحلة التعليمية المتوسطة فقط .
- د- الذين اجتازوا المرحلة التعليمية الابتدائية فقط .

٤- الحالة الوظيفية للآباء :

صنفت إلى مستويين :

- أ- متقاعدين : الآباء الذين تقاعدوا عن العمل (وهي ظاهرة منتشرة في الكويت أن يتقاعد العاملون في سن الأربعين من عمرهم ، ويحصلون على كل حقوقهم ومميزاتهم المادية من مكافأة شاملة ومعاش شهري) .
- ب- غير متقاعدين : وهم الآباء الذين يمارسون العمل في وظائفهم .

٥- الحالة الاجتماعية للأبناء :

- ويقصد بها الحالة الزوجية للطلاب والطالبات وقد صنفت إلى :
- أ- متزوج .
- ب- غير متزوج .

الدراسات السابقة :

أولاً : الدراسات التي تناولت أثر التشكئة الاجتماعية على الدافعية للإجازة ،

قام مصطفى تركي (١٩٧٤) بدراسة العلاقة بين نمط الرعاية الوالدية في الأسرة الكويتية - كما يدركها الأبناء - وبين بعض متغيرات شخصية هؤلاء الأبناء بجامعة الكويت ، واستخدم الباحث مقياس " شيفر " Schaefer لقياس الرعاية الوالدية واختبار آخر لقياس الدافعية للإجازة ، وانتهت الدراسة إلى أن هناك ارتباطاً موجباً بين الدافعية للإجازة عند الأبناء والحث على الإجازة من قبل الوالدين .

وقام " إيجرلي " (Edgerly , 1975) بدراسة عن تأثير معاملة الآباء لأطفالهم ، وكانت عينة الدراسة مكونة من أربعين طفلاً ، وعشرة من الآباء . وكان الأطفال يدرسون في الصف الثاني الابتدائي ، وطبق عدد من المقاييس منها مقياس " متروبوليتان للإجازة " Metropolitan Achievement Scale ، والجشطلت Gestalt . ودلت نتائج الدراسة على وجود زيادة في العمل الأكاديمي عن طريق تأثيرات الآباء وجماعات التوجيه .

وبحث أنور رياض عبد الرحيم وسبيكة يوسف الخليفى (١٩٩٢) أثر بعض المتغيرات الأسرية والمدرسية والنفسية على التحصيل الدراسى لدى عينة من طالبات المدرسة الثانوية بدولة قطر (عددها ٨٥ طالبة) ، واستخدم الباحثان استمارة بيانات عن تدخل الوالدين ، والواجبات الدراسية المنزلية ، ومقياس البيئة الاجتماعية للأسرة ، ومقياس كومرى للشخصية ، واستمدت درجات التحصيل الدراسى من أحد الامتحانات النهائية، وانتهت الدراسة إلى أن هناك عدداً من العوامل التى تؤثر على التحصيل منها خمسة متغيرات أسرية ، وأربع سمات شخصية ، فضلاً عن تدخل الوالدين والواجب المدرسى.

وفى دراسة قامت بها ميمونة الصومالى (١٩٩٣) هدفت إلى الكشف عن دلالية الإيجاز لدى عينة من تلاميذ الصفين الخامس والسادس الابتدائى بمدينة الرياض ، وعلاقتها ببعض أساليب التنشئة الاجتماعية ، وهى : السواء ، والتذبذب ، والتسلط ، والتفرقة ، وانتهت الدراسة إلى اختلاف درجة الدافع للإيجاز لدى الإناث باختلاف مستوى السواء لآبائهن وأمهاتهن ، فبنات الآباء ذوى السواء المرتفع ، والأمهات ذوات السواء المتوسط تفضل فى الإيجاز من بنات الآباء والأمهات أصحاب السواء المنخفض. كما كشفت الدراسة لاختلاف درجة الانجاز لدى الإناث باختلاف مستوى التسلط لأمهاتهن كما تتركه الإناث (عبد اللطيف خليفة ، ١٩٩٥ ، ص ١٨).

ودرس " توماس أوكلاند " وزملائه (Oakland et al., 1994) الدافع للإيجاز لدى عينة من الأطفال البرازيليين ، والتأثير النسبى لكل من المتغيرات الآتية : الذكاء ، والمستوى الاجتماعى والاقتصادى ، وحجم الأسرة ، والصحة ، والغياب عن المدرسة ، والسلوك المرتبط بجنس التلميذ . وتكونت العينة من ٢١٤ طفلاً برازيلياً ، تتراوح أعمارهم بين ٥-١١ عاماً . وتم الحصول على البيانات من مصادر ثلاثة هى : التلاميذ ، والمدرسة ، وأسر هؤلاء التلاميذ . وظهر أن العلاقة قوية بين الفكاك والتحصيل العام (وبخاصة القراءة) ، كما لارتبط المستوى الاجتماعى والاقتصادى بالتحصيل العام والتحصيل فى مادة الرياضيات ، فى حين ارتبط السلوك المتعلق بجنس التلميذ بالدافع للإيجاز .

ودرست - كارول هاين ، وجون ليوكو " (Hein & Lewko, 1994) أساليب المعاملة الوالدية داخل الأسرة بالنسبة للتلاميذ ذوى التحصيل المرتفع فى العلوم ، وفحصت الفروق بين الجنسين فى العوامل المرتبطة بالأسلوب التسلطى فى المعاملة الوالدية . وكانت العينة ٢٦٢ من الطلاب (١٥٧ أنثى ، و ١٠٥ ذكراً) ، تراوحت أعمارهم بين ١٢-٢٢ عاماً ، طبق عليهم اختبار تقرير ذاتى ، واتضح أن الأسلوب الرسمى فى المعاملة الوالدية سائد ومسيطر ، وأن العوامل المرتبطة بهذا الأسلوب تختلف من البنين إلى البنات . وبينت النتائج الآثار الإيجابية للأسلوب الرسمى فى المعاملة الوالدية ، لأن المفحوصين الذين جاءوا من أسر يسودها هذا الأسلوب أظهروا مستويات مرتفعة من التماسق الأسرى والتفاعل والتشجيع ، فضلاً عن مستويات مرتفعة من الدافع للإنجاز ، ودرجات مرتفعة فى مادة العلوم .

ومن الملاحظ من عرض الدراسات السابقة التى تناولت أثر التنشئة الاجتماعية على الدافعية للإنجاز ، مدى التأثير الفاعل الذى تحدثه الأسرة على إكساب أبنائها بعض الأساليب التى تشجعهم على الإنجاز والطموح والمثابرة ، فالآباء والأمهات يركون أهمية غرس هذا السلوك ، وتتجسد دافعية الإنجاز فى التحصيل الدراسى ، فاهتمامات الآباء بتوفير المناخ الدراسى ، والمتابعة الحثيثة مع الإدارة المدرسية ، والتعاون المنشود بين المنزل والمدرسة يحقق دافعاً نحو التحصيل الدراسى . ويدرك الأبناء الذين ينتمون إلى أسر تعنى برعايتهم صحياً وتربوياً مدى الاهتمام الذى يوليه آباؤهم ، ومن ثم ترتفع لديهم درجة الوعي نحو العمل وإنجازه . وقد بينت بعض الدراسات السابقة - ارتباط دافعية الإنجاز بالاتزان النفسى والاجتماعى للوالدين ، فالمغالة والتطرف فى أساليب التنشئة الخاطئة (القسوة ، والتنبذ ، والتفرقة ، والإهمال ، واللامبالاة) هى عوامل إذا ما وجدت تنعكس سلباً على الأبناء ، وتشتت تفكيرهم وتقلل من جهودهم .

ثانياً : الدراسات التى تناولت الفروق فى الدافعية للإنجاز بين الجنسين :

قامت " كلميليا عبد الفتاح " (١٩٨٤ ، ص ١٥٨) بدراسة مستوى الطموح لدى طلبة وطليلات الجامعة ، وانتهت الدراسة إلى أن مستوى الطموح عند الطلبة أعلى منه عند

الطالبات ، وفسرت الباحثة هذه النتائج بأن ظروف التنشئة الاجتماعية التي تعيشها الإناث خلال مرحلة الطفولة تؤدي إلى التفرقة والإهمال، والاهتمام بالذكور على ضوء العوامل الحضارية والثقافية في المجتمع والذي يميز الرجل عن المرأة .

ودرس رشاد موسى (١٩٨٦) الدافع للإنجاز للأطفال والراشدين على عينة من الطلبة والطالبات (٢٢٥) طالبا ، (١٣٧) طالبة في جامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية ، وانتهت الدراسة أن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين الطلاب والطالبات في دافعية الإنجاز لصالح الطلبة .

وقام رشاد موسى (١٩٩٠) بدراسة دافعية الإنجاز لدى عينة مكونة من (١٢٠) طالبا وطالبة في جامعة الأزهر ، أظهرت الذكور أكثر دافعية للإنجاز من الإناث . وفسر الباحث هذه النتيجة بأن الأسرة تشجع الذكور على الإنجاز في المجالات العقلية، أما الإناث فالإنجاز يتركز عندهم في الجوانب الاجتماعية .

ويبحث أحمد عبد الخالق (١٩٩١) الدافع للإنجاز عند اللبنايين ، وكانت عينة الدراسة مكونة من (٥٣٦) طالبا وطالبة من المرحلة الثانوية ومن جامعتين (بيروت العربية - واللبناية) واستخدم الباحث مقياس كن " . وبينت نتائج الدراسة تفوق طلبة المدرسة الثانوية في دافعية الإنجاز على طالباتها ، في حين لم تظهر فروق بين الجنسين في الدافعية للإنجاز على مستوى طلاب الجامعة .

ودرس مصطفى الصفطى (١٩٩٥) الدافعية للإنجاز لدى عينتين من طلاب المرحلة الثانوية في كل من مصر والإمارات العربية ، وكانت العينة المصرية مكونة من (٣٤٩) طالبا وطالبة، واشتملت العينة الإماراتية على (٣٢٠) طالبا وطالبة ، وأسفرت نتائج الدراسة عن تفوق الطالبات على الطلبة في الدافع للإنجاز في العينة المصرية ، فقد ظهرت فروق دالة إحصائياً بين الطلبة والطالبات في مصر لصالح الطالبات ، في حين لم توجد مثل هذه الفروق بين الجنسين في الإمارات ، وعند فحص الفروق بين البلدين على ضوء دافعية الإنجاز ،

كانت الفروق لصالح البنين من دولة الإمارات مقارنةً بنظرائهم في مصر ، ولم تظهر أى فروق جوهرية بين الطالبات في مصر والإمارات .

ويتضح من عرض هذه الدراسات السابقة في الفروق بين الجنسين أن الذكور أعلى في دافعية الإنجاز من الإناث ، وقد فسرت معظم الدراسات هذه الفروق بالعوامل الثقافية والاجتماعية ، التي تركز على الذكور بكون الإنجاز في الحث على العمل ، وخلق روح المنافسة والتحدى (انظر: حسن على ، ١٩٨٩ ، رشاد موسى ، ١٩٩٠ ، محي الدين حسين ، ١٩٨٨ ، Singh & Olsen, 1971; Kaur, 1987 ، Dion, 198 ، Hause, 1974, Block, 1981 ، Ramos, 1991) ، بينما لم تكشف بعض الدراسات الأخرى عن فروق جوهرية بين الجنسين في دافعية الإنجاز (انظر: مصطفى تركي ، ١٩٨٨ ، محمد إسماعيل ، ١٩٨٩ ، سيد الطواب ، ١٩٩٠ ، أحمد عبد الخالق ، ومايسة الفيال ، ١٩٩١ ، عويد المشعان ١٩٩٢ ، Flukerson, Furr & Brown , 1983, Ratric & Botha, 1971 ، Zuckerman , 1977).

وعلى ضوء نتائج الدراسات السابقة يتضح وجود تضارب في الفروق بين الجنسين في الدافعية للإنجاز فبعضها أكد هذه الفروق ، وبعضها الآخر نفى وجود هذه الفروق ، ويجدر أن نؤكد حقيقة أن المجتمعات العربية والإسلامية تتسم بخصوصية ثقافية وحضارية تختلف عن المجتمعات الغربية ، فاهتمام الأسرة في المجتمع الكويتي بالذكر إنما يرجع إلى القوامة ، وأن القوامة للرجل الذي يتحمل مسؤولية بناء الأسرة والإنفاق عليها من منطلق العقيدة الإسلامية والتراث الثقافي للمجتمع . كما تثبت حقيقة أخرى مؤداها أن المجتمع الكويتي مجتمع ديناميكي متغير ، أصبح للمرأة فيه حقوق ومكتسبات لم تتوافر لها في العقود الماضية ، فالتنظيم وفرص العمل والمنافسة في معظم الميادين والمجالات جعل دافعية الإنجاز لديها تتزايد ، والطموح والمثابرة ترتفع ، وضافت للمسافة بين المرأة والرجل ، ومن ثم انحسرت الفروق بينهما في تحقيق الأهداف والآمل ، فتكافؤ الفرص بين الجنسين جعل الدافعية نحو العمل متساوية .

ثالثاً : الدراسات التي تناولت الدافعية للإنجاز وعلاقتها بالمتغيرات الأخرى :

لم يتوصل الباحث الحالي إلى دراسات مباشرة تناولت متغيري الدراسة : مستوى طموح الآباء وعلاقته بالدافعية للإنجاز لدى الأبناء ، ويعرض الباحث بعض الدراسات التي تناولت المتغيرين على طلاب جامعيين .

اهتم كلارك وآخرين (١٩٥٦) بدراسة العلاقة بين مستوى الطموح والدافع للإنجاز على عينة مكونة من (٤٥) طالبا جامعيًا مبتدئا ، وقد أشارت نتائج الدراسة أن هناك فروقا دالة بين مجموعتي الطلاب ذوي الدرجات المتطرفة على استبيان مستوى الطموح الأكاديمي وقرنائهم ذوي الدرجات المتوسطة على نفس الاستبيان من حيث شدة الدافع للإنجاز .

وتوصل مير (١٩٦٧) إلى نتيجة مماثلة على عينة من الطلاب الجامعيين عندما تعرض لدراسة العلاقة بين مستوى الطموح والدافع للإنجاز ، وتوصلت نتائج الدراسة إلى أن هناك علاقة دالة بين هذين المتغيرين ، حيث كان الأفراد ذوي الدافع المنخفض للإنجاز يضعون لأنفسهم مستويات طموح متطرفة في الاتجاه المرتفع ، والأفراد ذوي الدافع المتوسط للإنجاز يضعون لأنفسهم مستويات طموح متطرفة في الاتجاه المنخفض ، بينما كانت مستويات طموح ذوي الدافع المرتفع للإنجاز تنقسم بالاعتدال .

ودرس محمود أبو مسلم (١٩٨٧) العلاقة بين الدافع للإنجاز ومستوى الطموح والتعلم الذاتي ، وذلك على عينة من تلاميذ الصف الثاني (١-٨٥) تلميذا وتلميذة من ذوي المستوى المرتفع من حيث القابلية للتعلم الذاتي ، و(٢-٨٥) تلميذاً وتلميذة من ذوي المستوى المنخفض من حيث القابلية للتعلم الذاتي . وتوصلت نتائج الدراسة إلى وجود علاقة بين ارتفاع مستوى الطموح والقابلية للتعلم الذاتي ، وأن الذكور أعلى في مستوى الطموح والتعلم الذاتي ، وأن الإناث أعلى في دافعية الإنجاز مقارنة بالذكور ، وذلك في المستويين المنخفض والمرتفع لمستوى الطموح والتعلم الذاتي .

قام ريتشارد لن ، وأحمد عبد الخالق وآخرين (١٩٩١) بدراسة حضارية عبر ثقافية بين ثلاث وأربعين دولة ، لمعرفة متوسطات الدافعية للإيجاز والفروق بين الذكور والإناث ، واستخدم مقياس " راي - لن " للدافعية للإيجاز . وقد حصلت الإناث على درجات أعلى في ثمان دول هي :- فرنسا ، وأستراليا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وفنزويلا ، ويوغوسلافيا ، وجنوب أفريقيا ، وتركيا ، وأتلنترا . في حين حصل الذكور على درجات أعلى في مصر والصين (Lynn et al., 1991 p. 54) .

وفحصت " إلينا يو " (Yu, 1980) بزوغ الدافع للإيجاز ، وأجرت عددا من المقابلات للتعرف على مدى فاعلية التوجه الفردي مقابل الجمعي في إثارة الدافع للإيجاز . وكانت عينة الدراسة من المراهقين الصينيين ، وكان من بين نتائج الدراسة أن مفاهيم الاستقلال والفردية مفاهيم غريبة على المجتمع الصيني الذي يربى أبناءه على الطريقة التقليدية في الاعتماد والاتكالية والتجمع ، بعكس الحضارة الأمريكية التي تعطي لأفرادها قدراً مرتفعاً من الاستقلالية والاعتماد على النفس .

ودرس محمد روشان علي (Ali, 1988) العلاقة بين الدافع للإيجاز والأداء الجامعي في مجتمع نام هو زامبيا ، واستخرج ارتباطاً جوهرياً مرتفعاً وموجباً بين المتغيرين .

وفي دراسة قام بها بدر العسر (١٩٨٧) عن الدافعية لدى طلاب جامعة الكويت ، استخدم الباحث مقياساً مترجماً للدافعية للكليات الجامعية ، وتكون المقياس من ستة مجالات في الدافعية (الاستجابة غير الشائعة ، والدافعية الداخلية، وإعلام الذات، وتوجيه الفرد ، ونقص الأهداف ، والاختلاف بين الجنسين) . وكانت عينة الدراسة مكونة من ٢٣٥ طالباً وطالبة من الكليات النظرية والعملية ، وأسفرت النتائج أن مستوى الدافعية الداخلية أعلى لدى طلبة الكليات العملية من طلبة الكليات النظرية ، وتفوقت الطالبات على الطلبة في الدافعية الداخلية ، وتفوق طلبة المجموعة الدراسية الثانية (الفرقة الثالثة + الفرقة الرابعة) في الدافعية الداخلية على المجموعة الدراسية الأولى (الفرقة الأولى + الفرقة الثانية) .

وفسرت هذه النتيجة بأن استمرارية الطالب في الدراسة تتيح له الفرصة في استكشاف الجانب العلمي لموضوع دراسته .

وعن علاقة الدافعية للإنجاز بمتغير وجهة الضبط Locus of control ، توصل صلاح أبو ناهية (١٩٨٤) ، وممدوح الكناي (١٩٩٠) في دراستين منفصلتين إلى وجود علاقة إيجابية دالة إحصائياً بين الدرجات المرتفعة من الدافع للإنجاز والضبط الداخلي ، حيث يتميز نوى الضبط الداخلي بالمثابرة والتحمل في سبيل التفوق والامتياز .

وكشفت دراسة رشاد موسى (١٩٩٣) عن علاقة بين الاكتئاب النفسي للوالدين والاكتئاب والدافعية للإنجاز عند الأبناء ، واستخدم الباحث مقياس التقدير الذاتي للاكتئاب والدافعية للإنجاز للأطفال والمراهقين على عينة مكونة من ٢٠١ من الآباء والأمهات وأبنائهم، وأسفرت نتائج الدراسة عن وجود علاقة دالة إحصائية وموجبة بين اكتئاب الأبناء، وسلبية بين اكتئاب الوالدين ودافعية أبنائهم للإنجاز ، كما ظهرت علاقة دالة إحصائية سالبة بين اكتئاب الأبناء ودافعية الإنجاز .

ودرس بختيار فاطمي (Fatmi, 1990) المتغيرات المتعلقة بتركيب الأسرة والدافعية للإنجاز في عينة من طلاب المدرسة العليا في الهند ، وتكونت العينة من ٤٤٦ طالباً . أما متغيرات الأسرة التي درسها فكانت أسرة مفردة أو نووية مقابل ممتدة ، وترتيب الطالب في الأسرة (الأول ، الأوسط ، الأخير...) . ولم يظهر تأثير دال لنمط الأسرة لدى الطلاب القبليين، أما الطلاب غير القبليين الذين انحدروا من أسر نووية (مفردة) فقد حصلوا على درجات أعلى بمستوى دال إحصائياً في الدافعية للإنجاز بالنسبة إلى الطلاب غير القبليين الذين انحدروا من أسر ممتدة . ولم يظهر فرق دال إحصائياً بين الطلاب في الدافعية للإنجاز تبعاً لترتيبهم في الأسرة باستثناء الطلاب القبليين الذين شغلوا الترتيب الأول والترتيب الأخير. ولكن هذه الدراسة تنقد من ناحية الاختبار الذي استخدم لقياس الدافعية للإنجاز ، وهو اختبار تكملة الجمل Sentence Completion Test ، فهناك مشكلات قياسية كثيرة تواجه الطرق الإسقاطية وبخاصة ثباتها وصدقها .

وقام كل من " أكرمان ، وأكرمان " (Ackerman & Ackerman, 1989) بدراسة الفروق بين الأجيال ، والتشابه أو الاختلاف بين الإبن ووالده في كل من الدافع للإنجاز ومصدر الضبط . وتكونت العينة من ١١٣ طالباً جامعياً ، بالإضافة إلى والد كل طالب منهم . وتتم النتائج دليلاً مقنعاً على نقص العلاقة المباشرة بين الدافع للإنجاز ومصدر الضبط بين الوالد والإبن . وظهرت فروق دالة إحصائية بين الأجيال بالنسبة لمستويات التوجه نحو العمل ، ومصدر الضبط . ونوقشت النتائج على ضوء أهمية اكتشاف العوامل المهيمنة التي تسبق كلا من الدافع لإنجاز ومصدر الضبط .

ودرس " محمد مقصود ، وماري كولمان " (Maquod & Coleman , 1993) في "بنتوانا" بجنوب أفريقيا " دور التفاعل الوالدي في الدافعية للإنجاز " ، وقرنت مستويات الدافعية للإنجاز عند ١٨٠ مراهقاً تتراوح أعمارهم بين ١٦-٢٢ عاماً ، ويعيش كل منهم مع: (١) آبائهم البيولوجيين أو المتبنين ، أو (٢) أجدادهم لأبائهم أو لأقاربهم الحميمين ، أو (٣) يعيشون بمفردهم دون والد أو أجداد . وكشفت النتائج أن متوسط درجات الدافعية للإنجاز للمفحوصين الذين يعيشون مع آبائهم أو أجدادهم أعلى بمستوى دال إحصائياً من المفحوصين الذين يعيشون دون آبائهم . وتشير نتائج هذه الدراسة إلى أن للتفاعل بين المراهق ووالده داخل الأسرة بعد عاملاً جوهرياً في تطور الدافعية للإنجاز .

وقامت " آن ماري فونتين " (Fontaine, 1994) بدراسة العلاقة بين الدافعية للإنجاز في المدرسة وطرق تنشئة الطفل ، وذلك لتحديد أي طرق هذه التنشئة تميز التلاميذ الذي يتصفون بالدافع المرتفع أو المنخفض . واستخدم اختبار يقيس ستة متغيرات كما يلي : تركيب الحياة الأسرية ، والتلقائية ، والتسلطية ، وتقبل الطفل ، وتوقع النجاح ، ومصدر الضبط . وطبق هذا الإسخبار على ٢٨٨ تلميذاً في السنة الدراسية السادسة (تتراوح أعمارهم بين ١٠-١٣ عاماً) . وكشفت النتائج أن الأطفال ذوي الدافعية المرتفعة يعيشون في أسر ذات تركيب أكثر جموداً more rigidly structured families بالنسبة إلى الأطفال الأقل دافعية .

ودرس "بيتسون" (Peterson, 1995) القادة من رجال المقاولات الأمريكيين في جنوب فلوريدا والمولودين في كوبا " (من أصل كوبي) ، وهم من أكثر رجال المقاولات نجاحا من بين ٣٠-٤٠ ناجحا في هذا المجال ، وحلل دوافعهم وقدراتهم ، وظهر أن دوافعهم Motives تتأثر بالطموح المرتبط بالأسرة ، ونماذج الأدوار Role models والحاجة إلى الإيجاز من خلال ملكية الأعمال ، كما تتأثر أيضا بالنزعات الشخصية والموقفية التي تحدد بالشخص إلى أن يقبل المخاطرة في أعمال المقاولات . أما القدرات في مجال المقاولات فقد تأثرت بالرموز الأسرية والتعليم والخبرة في الأعمال ، وكذلك - في بعض الحالات - المهارة في اللغة الإنجليزية . وما يهمنا في هذه الدراسة ما ظهر من تأثير دوافع المقاولين بالطموح داخل أسرهم ، وهو ما يمكن أن نستنتج منه أثر الأسرة في الدافع للإيجاز .

ودرس " هو كادا ، وفنشام " (Hokada & Fincham, 1995) الأصول الأسرية لأنماط الإيجاز لدى مجموعتين من الأطفال الذين يتسمون بالعجز ، ومن يتصلون بالتوجه نحو الإتيقان Mastery ، وذلك عن طريق ملاحظة هؤلاء الأطفال الذين كانوا في السنة الدراسية الثالثة لهم . واختبر أداء أمهاتهم في سلسلة من المهام العقلية القابلة للحل ، وغيرها من غير القابلة للحل . وظهر أن أداء أمهات الأطفال المتفوقين يكشف عن حساسية واستجابة لإدراك قدرات أطفالهم وطلبهم المساعدة . كما اتضح أن أولئك الأمهات يدعمن أنواع السلوك المتفوق والمتقن عند أطفالهم ، وذلك عن طريق زيادة سلوك التدريس الذي يركز على العمل، والمحافظة على عاطفة إيجابية أثناء محاولتهم حل الألغاز غير القابلة للحل . وبالإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء الأمهات قمن - عند مواجهة الفشل - بإعادة تدريب قدرات أطفالهم أو السلوك الموجه نحو الأداء . وتتسق هذه النتائج مع الفرض القائل بأن أمهات الأطفال الذين يتسمون بالإتيقان يقمن بعملية تنشئة اجتماعية لدافع الإيجاز لدى أطفالهم . ولكن صغر حجم العينات في هذه الدراسة يعوق تعميم نتائجها ، ومع ذلك فإن دراسات أخرى تؤكد النتيجة العامة لها ، وتتلخص في تأثير الدافع للإيجاز بالعوامل الأسرية.

وخلصت الدراسات التي تناولت الدافعية للإجاز وعلاقتها بالمتغيرات الأخرى ومنها مستوى الطموح إلى عدد من النتائج التي بينت أثر الفروق الحضارية بين الذكور والإناث وأساليب التنشئة الاجتماعية مثل الاتكالية والاستقلالية وأثر كل منها في حفز الدافع للإجاز عند الأبناء . وكشفت بعض الدراسات الأخرى عن علاقة بين الدافعية للإجاز ووجهة الضبط ، وكذلك أثر الاكتئاب النفسي للوالدين على دافعية الأبناء ، كما برهنت بعض الدراسات على تأثير تركيب الأسرة والتفاعل الوالدي ومستوى الطموح على الدافعية ، ومن نافذة القول أن نذكر أن الدافعية للإجاز تتأثر بعدد غير قليل من العوامل في زيادتها أو نقصها .

فروض الدراسة :

وضعت الفروض التالية في ضوء كل من مشكلة الدراسة ونتائج الدراسات السابقة :

- ١- توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين مستوى طموح الآباء ودرجات دافعية الإجاز للأبناء .
- ٢- توجد فروق بين المستويات الثقافية للآباء ودرجات دافعية الإجاز للأبناء .
- ٣- توجد فروق بين الحالة الوظيفية للآباء (المتقاعدين وغير المتقاعدين) في درجات الدافع للإجاز للأبناء .
- ٤- توجد فروق بين الحالة الزوجية للطلبة والطالبات أثناء الدراسة ودافعيتهم للإجاز .
- ٥- توجد فروق في الدافع للإجاز بين الطلبة والطالبات .

إجراءات الدراسة

أولاً : عينة الدراسة :

تكونت عينة الدراسة من ٢٠٢ (١٠٠ طالب ، ١٠٢ طالبة) بكلية التربية الأساسية ، ٢٠٢ ولي أمر لهؤلاء الطلاب . وقد تم تصنيف عينة الدراسة في ضوء مشكلة الدراسة وفروضها . ويبين جدول (١) توصيف عينة الدراسة من الطلبة والطالبات .

جدول (١)

توصيف عينة الدراسة

ع	م	ن	عيفات الدراسة
٣,٨١	٢١,٨٢	١٠٠	الطلبة
١٣,٠٨	٤٦,٧٥	١٠٠	آباء الطلبة
٣,١٠	٢١,٥٣	١٠٢	الطالبات
١٢,٧٩	٤١,٥٦	١٠٢	آباء الطالبات

وبوضوح جدول (١) أعمار الآباء والأبناء وإن كانت المتوسطات متقاربة إذ إن متوسط أعمار آباء الطلبة م=٤٦,٧٥ ، وآباء الطالبات م=٤١,٥٦ عاما ، وبعد منخفضا ، ويفسر ذلك بأن الزواج المبكر والإيجاب من السمات التي يتدسف بها المجتمع الكويتي ، لذا فإن الآباء ، وفقاً لمعايير النمو، يعتبرون من فئة الشباب .

ب - أدوات الدراسة :

أ - مقياس " راي لن " Ray-Lynn الدافعية للإجتاز ، ويحتوى على ١٤ سؤالاً يجاب عنها باختيار أحد البدائل : " نعم ، غير متأكد ، لا " ، وللتحكم في وجهة الاستجابة بالإيجاب تم عكس مفتاح تقدير الدرجات (التصحيح) في نصف عدد العبارات ، والدرجة القصوى هي ٤٢ (Lynn et al., 1991, p. 54) . وللمقياس ثبات يزيد على ٠,٧٠ في سبع دول تتحدث الإنجليزية ، وله معاملات صدق لا تقل عن نظيرتها في المقاييس الطويلة ، واستخرج " راي " معايير له في أربع دول ، وبرهن على ذلك بعدة طرق : الارتباط بين الدرجة عليه وتقدير الأقران ، والتوجه نحو النجاح ، والإجتاز الفعلى (Ray, 1979) . وقام أحمد عبد الخالق (١٩٩١) بترجمة المقياس إلى اللغة العربية ، وحسب ثبات الاتساق الداخلي للمقياس ، وذلك بقسمته إلى نصفين ، ووصل معامل الثبات إلى ٠,٦١ بعد التصحيح بمعادلة " سبيرمان - براون " .

ب - مقياس مستوى الطموح ، المشتق من " قائمة إدواردز للتفضيل الشخصي " Edwards Personal Preference Schedule (EPPS) . ويتكون المقياس من ٢٨ بنداً ، ويشتمل كل بند على عبارتين تشيران إلى نشاطين مقبولين اجتماعياً ، ولكن أحد النشاطين مؤشر لمستوى الطموح ، ويطلب من المفحوص اختيار الإجابة التي تنطبق على سلوكه بشكل أكبر . وترجم المقياس إلى العربية جابر عبد الحميد (١٩٨٧) ، وطبق على عدد من العينات الكويتية ، وكشفت الدراسات عن ثبات مقبول (٠,٩٧) لهذا المقياس (كمال مرسى ، ١٩٧٩ ؛ مصطفى تركي ، ١٩٨٠ ؛ عويد المشعان "ب" ، أحمد عبد الخالق وآخرون ، ١٩٩٤) .

نتائج الدراسة وتفسيرها

يبين جدول (٢) المتوسطات والانحرافات المعيارية لمتغيرات الدراسة .

١- الغرض الأول :

" توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين مستوى طموح الآباء ودرجات دافعية الإنجاز للأبناء " .

ويبين الجدول (٢) نتائج تحليل التباين الأحادي بين درجات مجموعتي الإنشاد والذكور في الدافع للإنجاز تبعاً لتصنيف مستوى طموح الآباء منخفضي ومرتفعي الدرجات .

جدول (٣)

تحليل التباين الأحادي لدرجات الطلاب والطالبات في الدافع للإنجاز تبعاً لتصنيفهم على درجات مستوى طموح الآباء المنخفض والمرتفع

المصدر	مجموع المربعات	م . ح	م . م	ف	الدالة
بين المستويات	١,٠٨	٣	٠,٣٦	٠,٠٤٣	غير دالة
الخطأ	١٦٣٨,٤٩	١٩٨	٨,٢٧		
الكلية	١٦٣٩,٥٧	٢٠١			

ويتضح من جدول (٣) عدم وجود فروق دالة إحصائية بين مجموعتي الفكور والإناث في الدافع للإجتاز ، والمصنفين في ضوء المستوى المرتفع والمنخفض لدرجات الآباء في مستوى الطموح . وهذه النتيجة تخالف نتيجة دراسة محمود أبو مسلم (١٩٨٧) ، وكذلك " بيترسون " (Peterson,1995) .

٣- الغرض الثاني:

" توجد فروق بين المستويات الثقافية للآباء ودرجات دافعية الإجتاز للأبناء " .
ويبين جدول (٤) تحليل التباين الأحادي لدرجات الطالبات في الدافع للإجتاز في ضوء تصنيفهم إلى المستويات الثقافية للآباء (جامعي ، ثانوي ، متوسط ، ابتدائي) .

جدول (٤)

تحليل التباين الأحادي لدرجات الطالبات في الدافع للإجتاز
في ضوء تصنيفهم إلى المستويات الثقافية للآباء

المصدر	مجموع المربعات	م . ح	م . م	ف	الدالة
بين المستويات	٢٣,٦٦	٣	٧,٨٩	٠,٩٣	غير دالة
الخطأ	٨٢٧,١٣	٩٨	٨,٤٤		
الكل	٨٥٠,٧٩	١٠١			

ويتضح من جدول (٤) عدم وجود فروق في الدافع للإجتاز بين المجموعات الأربع من الطالبات المصنفة في ضوء المستوى الثقافي للآباء ، ولا توجد دراسات تناولت هذه المتغير من الدراسات السابقة .

ويبين جدول (٥) تحليل التباين الأحادي لدرجات الطلاب في الدافع للإجتاز في ضوء تصنيفهم إلى المستويات الثقافية للآباء (جامعي ، ثانوي ، متوسط ، ابتدائي) .

جدول (٥)

تحليل التباين الأحادي لدرجات الطلاب في الدافع للإنجاز
في ضوء تصنيفهم إلى المستويات الثقافية للآباء

المصدر	مجموع المربعات	م . د	م . م	ف	الدالة
بين المستويات	٦٥,٧٨	٣	٢١,٩٣	٢,٩٢	دالة عند ٠,٠٥
الخطأ	٧٢٢,١٨	٩٦	٧,٥٢		
الكل	٧٨٧,٩٦	٩٩			

ويتضح من جدول (٥) ارتفاع القيمة الفالسية (٢,٩٢) وهي دالة إحصائياً عند مستوى ٠,٠٥ ولمعرفة أي المجموعات أعلى في متوسط درجاتها في الدافع للإنجاز ، قام الباحث بإجراء معادلة (شفيه) وهي أحد طرق المقارنات المتعددة (صلاح مراد، ١٩٨١) ، وتكشف المعادلة أن مدى شفيه = ٢,٢٦ ، ويحصل الفروق بين متوسطات المجموعات ظهر أن المجموعة الرابعة (ذوي آباء مستوى ثقافي ابتدائي) أعلى في الدافع للإنجاز للبناء الطلاب مقارنة بباقي المجموعات .

٣- الفرض الثالث :

" توجد فروق بين الحالة الوظيفية للآباء (المتقاعدين وغير المتقاعدين) في درجات الدافع للإنجاز للبناء " .

ويوضح جدول (٦) نتائج تحليل التباين التثلاثي بين درجات المجموعات الأربع للطلاب والطالبات في الدافع للإنجاز في ضوء تصنيفهم تبعاً للحالة الوظيفية للآباء (متقاعدين وغير متقاعدين) .

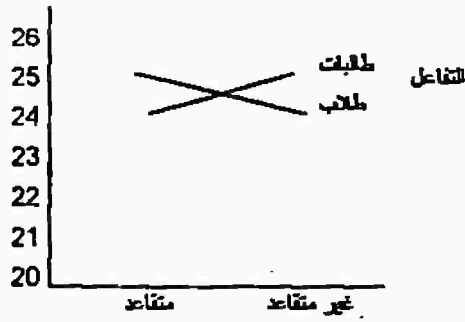
جدول (٦)

تحليل التباين الثنائي لدرجات الطلاب والطالبات في الدافع للإجتاز
في ضوء تصايفهم تبعاً للحالة الوظيفية للآباء

المصدر	مجموع المربعات	م. د	م. م	ف	الدالة
الجنس	٠,٨٢	١	٠,٨٢	٠,١٠	غير دالة
الحالة الوظيفية للآب	٢,١٨	١	٢,١٨	٠,٢٧	غير دالة
التفاعل	٢٥,٠٧	١	٢٥,٠٧	٢,٠٨	دالة عند مستوى ٠,٠٧
الخطأ	١٦١١,٥	١٩٨	٨,١٤		
الكلية					

ويتضح من جدول (٦) عدم وجود فروق بين الجنسين (الطلاب والطالبات) وكذلك بين الحالة الوظيفية للآب ، بينما تشير النسبة المئوية ٣,٠٨ بمستوى دلالة عند ٠,٠٧ إلى التفاعل ، ولبيان ذلك استخدم الباحث متوسطات درجات المجموعات في الدافع للإجتاز لبيان أي المجموعات أكثر تفاعلاً مع الأخرى .

متوسطات درجات مجموعتي الطالبات والطلاب في الدافع للإجتاز : الطالبات (آباء متقاعدون) ٢٤,٢٩ ، غير متقاعدين ٢٥,٢٢ ، طلاب (آباء متقاعدون) ٢٥,٢٢ ، غير متقاعدين ٢٤,٧٥ .



٤- الفرض الرابع:

" توجد فروق بين الحالة الزوجية للطلبة والطلبات أثناء الدراسة ودافعتهم للإجازة "

جدول (٧)

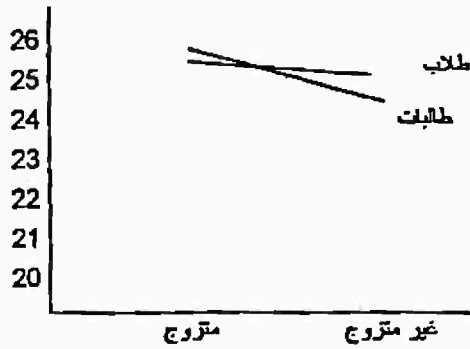
تحليل التباين الثنائي بين الطلبة والطلبات

المتزوجين وغير المتزوجين في درجاتهم على الدائم للإنجاز

المصدر	مجموع المربعات	م. ح	م. م	ف	الدالة
الجنس	٠,٨٢	١	٠,٨٢	٠,١٠	غير دالة
الحالة الزوجية	١١,٥٨	١	١١,٥٨	١,٤٥	غير دالة
التفاعل	٤٦,٨١	١	٤٦,٨١	٥,٨٦	دالة عند ٠,٠٥
الخطأ	١٥٨٠,٣٦	٧,٩٨			
الكل	١٦٣٩,٥٧	٢٠١			

يتضح من جدول (٧) عدم دلالة النسبة الفاتية في كل من الجنس والحالة الزوجية ، بينما بلغت النسبة الفاتية في التفاعل ٥,٦٨ وهي دالة عند مستوى ٠,٠٥ والشكل التالي يوضح أثر أي المجموعات في التفاعل .

متوسط درجات الطالبات (متزوجات ٢٥,٧٨ ، غير متزوجات ٢٤,٣٢) ، الطلاب (متزوجين ٢٤,٤٣ ، غير متزوجين ٢٥,١٢) .



٥- الفرض الخامس:

" توجد فروق في الدافع للإجتاز بين الطلبة والطالبات " .

وللكشف عن الفروق بين الجنسين استخدم اختبار (ت) (انظر جدول ٨) .

جدول (٨)

قيمة (ت) والمتوسطات (م) والانحرافات المعيارية (ع) لمجموعتي الطلاب والطالبات

في الدافع للإنجاز

المجموعات	حجم العينة	م	ع	قيمة "ت"	مستوى الدلالة
الطلبة	١٠٠	٢٤,٩٨	٢,٨١	٠,٨٣	غير دالة
الطالبات	١٠٢	٢٤,٤٩	٥,١٢		

ويتضح من جدول (٨) عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين مجموعتي الدراسة من الطلاب والطالبات في الدافع للإجازة .

مناقشة النتائج

كشفت نتائج الفرض الأول : " توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين مستوى طموح الآباء ودرجات دافعية الإجازة للأبناء " عن عدم وجود دلالة إحصائية بين درجات المجموعات الأربع من ذوي انخفاض وارتفاع مستوى الطموح لدى الآباء ودافعية الإجازة لدى الأبناء الطلبة والطالبات . ويمكن أن تفسر هذه النتيجة بأن طبيعة المجتمع الكويتي وتركيبه والخاص بارتفاع المستوى الاقتصادي والإشباع الذي تعيشه الأسرة الكويتية قد أثر في دافعية الطلاب والطالبات ، حيث إن حصولهم على شهادتهم للجامعة إن يكون له التأثير الواضح في حياتهم من حيث انتقالهم من طبقة اجتماعية إلى طبقة أعلى ، أو إدراك فرق واضح في مستوى الدخل الاقتصادي ، أو أن طبيعة المهنة التي يدرسون ليزهون لها (مدرس أو مربية) سيرفع من مكانتهم الاجتماعية ، حيث يقل أثر ذلك بين الأفراد الكويتيين الذين يجمعهم العصبية ويقاها الترابط القبلي ، بالرغم من المناخ الاقتصادي المشبع الذي يعيشه الأفراد الكويتيين آباء وأبناء وأسراً ، حيث يتيح النظام الاجتماعي الكويتي للأفراد كل الإشباعات من منزل مستقل وسيارة حديثة وفرصة للسفر للخارج في الإجازات الصيفية ، وأن دخل الفرد أو رب الأسرة يتيح له هذه الإشباعات بدون صعوبة أو معاناة ، ويعني ذلك أن الأهداف الحياتية لدى الأفراد بشكل عام ليست صعبة الوصول إليها . وهذه النتيجة تخالف نتيجة دراسة محمود أبو مسلم (١٩٨٧)، وبيترسون (Peterson, 1995) .

وتشير نتائج الفرض الثاني : " توجد فروق بين المستويات الثقافية للآباء ودرجات دافعية الإجازة للأبناء " ، إلى وجود فروق بين المجموعات الأربع تبعاً لتصنيف المستوى الثقافي للآباء (جامعي ، ثانوي ، متوسط ، ابتدائي) ، وأن مجموعة الطلاب الذي لهم آباء

في مستوى ثقافي ابتدائي ، أعلى في دافعتهم للإنجاز مقارنة بباقي المجموعات ، وذلك بعد حساب مدى " شفبه " مقارنة متوسطات درجات المجموعات بعضها بعضاً .

ويفسر الباحث هذه النتيجة بأنه ربما يكون إيماء الأبناء الطلاب للمستوى الثقافي لآبائهم ، وهو أدنى المستويات الثقافية ، دافعا ومنشطا لهم في الأداء والإنجاز للوصول إلى مستوى تعليمي أعلى ودخل اقتصادي أكبر ومكانة اجتماعية متميزة عن الأب .

وربما كانت أساليب التنشئة الاجتماعية لهذه العينة من الآباء تشجع أبناءهم على تحمل المسؤولية المبكرة، وتتبع الفرصة لهم للتعبير عن ذواتهم ، وتطعيمهم ارتضاع قيمة النجاح والإنجاز في حياتهم . وتتفق هذه النتيجة مع نتائج دراسات أنور رياض وسبيكة الخليفي (١٩٩٢) Hein & Lewko (1994) Edgerly (1975).

ومن ناحية أخرى تشير نتيجة الفرض الثاني لدى الطالبات إلى عدم وجود فروق بين مجموعة الطالبات تبعاً لتصنيفهم إلى المستويات الثقافية الأربعة لآبائهم (جامعي ، ثانوي ، متوسط ، ابتدائي) . ويفسر الباحث هذه النتيجة بأن المستوى التعليمي لدى الأفراد الكويتيين ليس معياراً أساسياً للدخل الاقتصادي أو المكانة الاجتماعية ، حيث يتميز المجتمع الكويتي بتلاشي الطبقات في تركيبته ، وتقلرب الأفراد الكويتيين في الدخل والمكانة ، وأن كثيراً من الحاصلين على الشهادات الدنيا (الثانوية ، المتوسط ، الابتدائي) يحتلون مناصب قيادية في المؤسسات الاجتماعية ، وأن دخلهم الاقتصادي مرتفع لدرجة الإشباع والوفرة . وربما لهذه الأسباب تقلرب درجات دافعية الإنجاز لدى مجموعات الطالبات ، فلم تظهر فروق واضحة بينهما ، كما يرى الباحث أن لكون طبيعة هذه المجموعة من الإناث لبن الطالبات تضمن أنها ستجد الوظيفة والعمل بعد تخرجها وسيتاح لها فرصة الزواج تبعاً للعادات والتقاليد الاجتماعية ، بالرغم من أن هذه النتيجة تخالف نتائج الدراسات التي تشير إلى تميز الإناث في دافعتهم للإنجاز ، وتتفق هذه النتيجة مع نتائج دراسات مصطفى تركي (١٩٨٨) ومحمد اسماعيل (١٩٨٩) وسود الطواب (١٩٩٠) وأحمد عبد الخالق ومایسه التليل (١٩٩١) وعويد المشعل (١٩٩٢) .

وتوضح نتائج الفرض الثالث : " توجد فروق بين الحالة الوظيفية للآباء (متقاعدين وغير متقاعدين) في درجات الدافع للإنجاز للأنباء " ، أنه يوجد تفاعل بين المجموعات خاصة بمجموعتي " الطالبات ذوي الآباء غير المتقاعدين بمتوسط درجات في دافعتهم للإنجاز قدره ٢٥.٢٢ ، ومجموعة الطلاب ذوي الآباء المتقاعدين بمتوسط درجات في دافعتهم للإنجاز يساوي ٢٥.٢٢ " .

وتفسر هذه النتيجة بأن المجتمع الكويتي يتميز بخاصية ربما لا توجد في المجتمعات الأخرى ، وهي التقاعد عن العمل في سن مبكر وهو الأربعون عاماً ، مع حصول المتقاعد على كل حقوقه المادية من مكافآت ومرتب يتكافأ مع نفس الزملاء من العاملين ، وربما تكون قيمة العمل عند الأنباء من الطلاب والطالبات ضعيفة ، لأن المجتمع يقدم كل عوامل الإثابة للمتقاعدين ، كذلك فإن المجتمع لا ينظر نظرة دونية للأفراد المتقاعدين مقارنة بالأفراد العاملين من الآباء ، وأن التقبل الاجتماعي للفئتي المتقاعدين وغير المتقاعدين وأسرهم وأبنائهم متفوية إن لم تكن واحدة . ولذلك ظهر التفاعل لدى مجموعة الطالبات لآباء غير متقاعدين مع مجموعة الطلاب لآباء متقاعدين ، وربما تكون هذه النتيجة لأن الطالب لأب متقاعد يتحمل بعض المسؤوليات الأسرية ، وترتفع لديه القيم نتيجة لتقاعد أبيه ، بينما في مجموعة الطالبات تقارب متوسط درجاتهم مع مجموعة الذكور لوجودهم مع أب مازال يعمل ، فتترك أولئك الطالبات قيمة العمل والإنجاز في ضوء المناخ الأسري لعمل الأب واستمراره فيه . وتتفق هذه النتيجة مع نتيجة دراسة " بيترسون " (Peterson, 1995) .

وتشير نتائج الفرض الرابع : " توجد فروق بين الحالة الزوجية للطلبة والطالبات أثناء الدراسة ودافعتهم للإنجاز " إلى وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى ٠.٠٥ لمصدر التفاعل ، وذلك بين مجموعتي المتزوجات وغير المتزوجات من الطالبات ، ولا توجد دلالة إحصائية بين باقي المجموعات .

وتفسير ارتفاع متوسط درجات المتزوجات عن غير المتزوجات في الدافع للإنجاز ، يعني أنه بالرغم من صراع الأدوار الذي تعاني منه الطالبة المتزوجة لتعدد أدوارها زوجة

وأما وطالبة وربما كانت موظفة كذلك ، أن مستوى المسؤولية لديها مرتفع ، وأنها تدرك قيمة النجاح والإجتر ، أو أنها تريد أن تحصل على الشهادة الجامعية بسرعة حتى تعمل (إن لم تكن تعمل) وترفع من مستوى أسرتها ، أو ربما يكون ارتفاع دافعية الإجتر لديها نوع من تحقيق الذات وبخاصة أن البنات في المجتمع الكويتي يتزوجن في سن مبكر ، كما أن المجتمع الكويتي لا يتأثر بالفروق في المستوى التعليمي بين الزوج والزوجة أو التكافؤ التعليمي بين الزوجين ، فتلجأ الزوجة إلى إثبات ذاتها أكثر من خلال حصولها على الشهادة الجامعية بتميز .

وتشير نتائج الفرض الخامس : " توجد فروق في الدافع للإجتر بين الطلبة والطالبات عينة الدراسة " إلى عدم وجود فروق بين متوسطات درجات المجموعتين . ويؤسّر الباحث هذه النتيجة بأن الدافعية للتعلّم لدى الطلبة والطالبات متقاربة وليست مطلباً رئيساً في حياة الأفراد ، وربما لطبيعة النظام التعليمي بالكلية (نظم الساعات المعتمدة) الذي يتيح للطلبة والطالبات فرص النجاح والتميز بمجهود أقل مقارنة بالأنظمة التعليمية الأخرى ، وربما يكون للإطباع الاقتصادي الذي يعيشه المجتمع الكويتي وتلاشي الفروق بين الطبقات الاجتماعية أو عدم وجودها ، وأن الزواج سواء أكان للرجل أم للمرأة ليس مرتبطاً بالمستويات التعليمية لأي منهما ، وأنه لا يوجد معيار للتميز (التقدير) عند الحصول على عمل بعد التخرج . وتتفق هذه النتيجة مع نتائج دراسات سيد الطواب (١٩٩٠) وعويد المشعل (١٩٩٣) ، وكذلك دراسات كل من : Botha ١٩٧١ و Flukerson, Furr & Brown, 1983.

المراجع

- (١) أبو علام (رجاء محمود) (١٩٨٦) علم النفس التربوي . الكويت . دار القلم مطب. ٤.
- (٢) أبو مسلم (محمود أحمد) (١٩٨٧) التعلم الذاتي وعلاقته بمستوى الطموح والدافعية للإنجاز لدى تلاميذ المدرسة الثانوية العامة . مجلة كلية التربية جامعة المنصورة ، العدد التاسع ، الجزء الثاني .
- (٣) الأعسر (صفاء) ، قشقوش (إبراهيم زكي) ، سلامة (محمد أحمد) (١٩٩٣) دراسة استطلاعية للعلاقة بين دافعية الإنجاز وبعض المتغيرات العقلية والشخصية والاجتماعية في المجتمع القطري ، مجلة مركز البحوث التربوية ، جامعة قطر ، المجلد الثاني.
- (٤) العتيبي (أحمد غازي) (١٩٩٦) أثر بعض المتغيرات الديموغرافية على دافعية الإنجاز لدى طلبة الجامعة الكويتيين . المجلة العربية للعلوم الادارية ، مجلد ٣ ، عدد ٢.
- (٥) العمر (بدر) (١٩٨٧) دراسة مسحية للدافعية لدى طلبة جامعة الكويت . مجلة العلوم الاجتماعية ، عدد ٤ ، ص ٧٥-٩٥.
- (٦) المرى (محمد إسماعيل) (١٩٩٣) اهتمام أولياء أمور تلاميذ المرحلة الإعدادية بأمور أبنائهم المدرسية وعلاقته بكل من الدافع للإنجاز والتحصيل الدراسي لدى هؤلاء الأبناء . مجلة كلية التربية بالزقازيق ، جامعة الزقازيق ، العدد ٢٠ ، الجزء الأول.
- (٧) تركي (مصطفى أحمد) (١٩٧٤) الرعاية الوالدية وعلاقتها بشخصية الأبناء دراسة تجريبية على طلبة جامعة الكويت . دار النهضة العربية ، القاهرة .
- (٨) جابر (جابر عبد الحميد) (١٩٨٩) دراسة مقارنة بين عينة من التلاميذ المتفوقين وللمتوسطين والمتأخرين دراسياً بالمرحلة الإعدادية والثانوية بدولة قطر في الدافعية وسمات الشخصية والاتجاهات المدرسية . دراسات نفسية ، جامعة قطر - الدوحة.
- (٩) حسن (حسن علي) (١٩٨٦) الشخصية الإيجابية وبعض سماتها المعرفية والمزاجية . رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة ألمانيا ، ج.م.ع.
- (١٠) حسن (حسن علي) (١٩٨٩) المرأة ودافعية الإنجاز : دراسة نفسية مقارنة لدافعية الإنجاز وبعض الحقائق المعرفية والمزاجية المتعلقة بها لدى الذكور والإناث في المجتمع المصري . مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة للكويت .
- (١١) حسين (محي الدين أحمد) (١٩٨٨) (٢) للدافعية إلى الإنجاز عند الجنسين . مجلة علم النفس عدد ٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٢) حسين (محي الدين أحمد) (١٩٨٨ ب) دراسات في الدوافع والدافعية . القاهرة : دار المعارف .

١٣) دويدار (عبد الفتاح) (١٩٩١) العوامل المحددة لدافعية الإنجاز في ضوء بعض المتغيرات لدى الموظفين في المجتمع المصري . بحوث المؤتمر السنوي السابع لعلم النفس في مصر .

١٤) سالم غنيم (محمد عبد السلام) (١٩٩٤) أثر التفاعل بين مستويات الإنجاز ومواقف النجاح والفشل في سرعة التعلم . المجلة المصرية للدراسات النفسية ، ٩ ، ص ١١٥ .

١٥) عبد الخالق (أحمد محمد) (١٩٩١) الدافع للإنجاز لدى اللبنانيين . بحوث المؤتمر السنوي السابع لعلم النفس في مصر .

١٦) عبد الخالق (أحمد محمد) ، المشعان (عويد سلطان) عياد (فاطمة سلامة) ، الشطي (عدنان عبد الكريم) ، المنزى (فريح عويد) (١٩٩٤) دراسة مقارنة للدافعية للإنجاز لدى طلبة الجامعة الكويتيين قبل الغزو العراقي وبعده . المجلة المصرية للدراسات النفسية ، عدد ٩ ، ص ١-١٦ .

١٧) عبد الخالق (أحمد محمد) / النبال (مايسة) (١٩٩١) الدافع للإنجاز وعلاقته بالتلق والإبساط . دراسات نفسية ، ١ ، ج ٤ ، القاهرة .

١٨) عبد الرحيم (أنور رياض) ، الخليفي (سبيكة يوسف) (١٩٩٢) أثر بعض المتغيرات المدرسية والأسرية والنفسية على التحصيل الدراسي لدى عينة من طالبات الثانوى بدولة قطر . مجلة مركز البحوث التربوية بجامعة قطر ، السنة الأولى ، العدد الأول ، ص ١٣-٥٣ .

١٩) عبد الستار (إيلي) (١٩٩٠) أدوار التعليم قبل المدرسي ، بحث ميداني . المؤتمر الثالث للطفل المصري ، جامعة عين شمس .

٢٠) عبد القادر (محمود) (١٩٧٨) دوافع الإنجاز وعلاقتها ببعض عوامل الشخصية والنجاح الأكاديمي عند طلاب جامعة الكويت ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد ١٤ .

٢١) محمد (محمد رمضان) (١٩٨٧) العلاقة بين الدافعية للإنجاز والميل للعصايبية . مجلة علم النفس ، عدد ٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- ٢٢) مراد (صالح) (١٩٨١) المقارنات المتعددة للمتوسطات الحسابية مجلة كلية التربية ،
جامعة المنصورة .
- ٢٣) منسى (محمود عبد الحليم) ، غونى (منصور أحمد) ، دمياطى (لوزية
إبراهيم) (١٩٩٠) أسباب غياب التلاميذ والتلميذات عن المدارس فى ضوء آراء تلاميذ
وتلميذات المرحلة المتوسطة . مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، العلوم التربوية ٣م .
- ٢٤) موسى (رشاد علي) (١٩٩٣) : علم النفس المرضى : دراسات فى علم النفس . القاهرة :
دار عالم المعرفة .
- ٢٥) موسى (فاروق عبد الفتاح) (١٩٨١) اختبار الدافع للإدماج للأطفال والراشدين . (تأليف
هريمانز) ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة .

- 26 -Ackerman, L. & Ackerman, P.I. (1989) Generational differences and
parent-child resemblance in achievement motives and locus of
control: A cross-sectional analysis. *Personality & Individual
Differences*, 10, 1237-1242.
- 27 -Block, J. (1981) Gender Differences in the nature of premises
developed about the world, in : E. Shapiro & E. Weber (Eds.),
Cognitive and affective growth: Developmental interaction, New
York: Hillsdale .
- 28 -Botha, E. (1971) The Achievement motive in the three cultures. *the
Journal of Social Psychology*, 85, 163-170.
- 29 -Cohen, J. (1979) Personality assessment. Rand Mc Nally Company,
Chicago .
- 30 -Dion, K.K. (1985) Socialization in adulthood. In., G.Lindzey & E.
Aronson (Eds) *HandBook of social psychology*. New York,
Random House, 3rd, vol. 2, pp.123-147.

- 31 - Edgerly R.F.(1975) The effectiveness of parent counseling in the treatment of children with learning disabilities. Diss. Abs. Int ., vol. 36, p.1301.
- 32 - Fatmi, B. (1996) Family structure variables and achievement motivation among high school students. *Indian Journal of Applied Psychology*, 27, 25-28.
- 33- Flukerson, K.F. Furr, S. ,& Brown, D. (1983) Expectations and achievement among third, sixth and ninth grade black and white males and females. *Developmental Psychology*, 19, 231-236.
- 34 - Fontaine, A.M. (1994) Achievement motivation and child rearing in different social contexts. *European Journal of Psychology of Education*, 9, 225-240.
- 35 - Hein, C., & Lewko, J. H. (1994) Gender differences in factors related to parenting style: A study of high performing science students . *Journal of Adolescent Research* , 9, 262-281.
- 36 - Hilgard. E.R., Atkinson. R.L., & Atkinson, R.C. (1979) *Introduction to psychology*. 7th ed New York : Harcourt Brace Jovanovich.
- 37 - Hokada, A., & Fincham, F. D. (1995) Origins of children's helpless and mastery achievement patterns in the family. *Journal of Educational Psychology*, 87, 375- 385.
- 38 - House, W.C. (1974) Actual and perceived differences in male and female expectancies and minimal goal levels as a function of competition. *Journal of Personality and Social Psychology* , 42, 493-509.
- 39 - Lynn, R .et al., (1991) The secret of the miracle economy: Different national attitudes to competitiveness and money. Exter. The Social Affairs Unit .
- 40- Marjoribanks, K. (1979) *Families and their learning environments: An empirical analysis*. London: Routledge & Kegan Paul.

- 41 - Maqsd, M., & Coleman, M. F. (1993) The role of parental interaction in achievement motivation. *Journal of Social Psychology*, 133, 859-861.
- 42 - Nuttal, E. & Nuttal, R. (1976) Parent-child relationships and affective academic motivation. American Educational Research Assoc, San Francisco, California.
- 43 - Oaklard, T., Wechsler, S., Bensusan, E., & Stafford, M. (1994) The construct and measurement among Brazilian children: An explanatory study. *School Psychology International*, 15, 133-143.
- 44 - Olsen, N.T. (1971) Sex differences in child training antecedents of achievement motivation among Chinese children. *Journal of Social Psychology*, 83, 303-304.
- 45 - Peterson, M. F. (1995) Leading Cuban-American entrepreneurs: The process and developing motives, abilities, and resources. *Human Relations*, 48, 1193-1215.
- 46 - Ramos, Maria Lourdes Lianza. (1991) Perceived gender and drive for success. *Philippine Journal of Psychology*, 24, 59- 64.
- 47 - Ratric, A., & Zuckerman, M. (1977) An application of the state-trait concept to the need for achievement. *Journal of Research in Personality*, 11, 459-465.
- 48 - Ray, J.J. (1979) A quick measure of achievement motivation-validated in Australia and reliable in Britain and South Africa. *Australian Psychologist*, 14, 337-344.
- 49 - Winter, D.G. & Carlson, L. A. (1988) Using motive scores in the psychobiographical study of an individual. *Journal of Personality*, 56, 75-103.
- 50 - Yu, Elena S. (1980) Chinese collective orientation and need for achievement. *International Journal of Social Psychiatry*, 26, 184-189.



عنوان البحث

الممارسات الشعبية وخصوصية المرأة

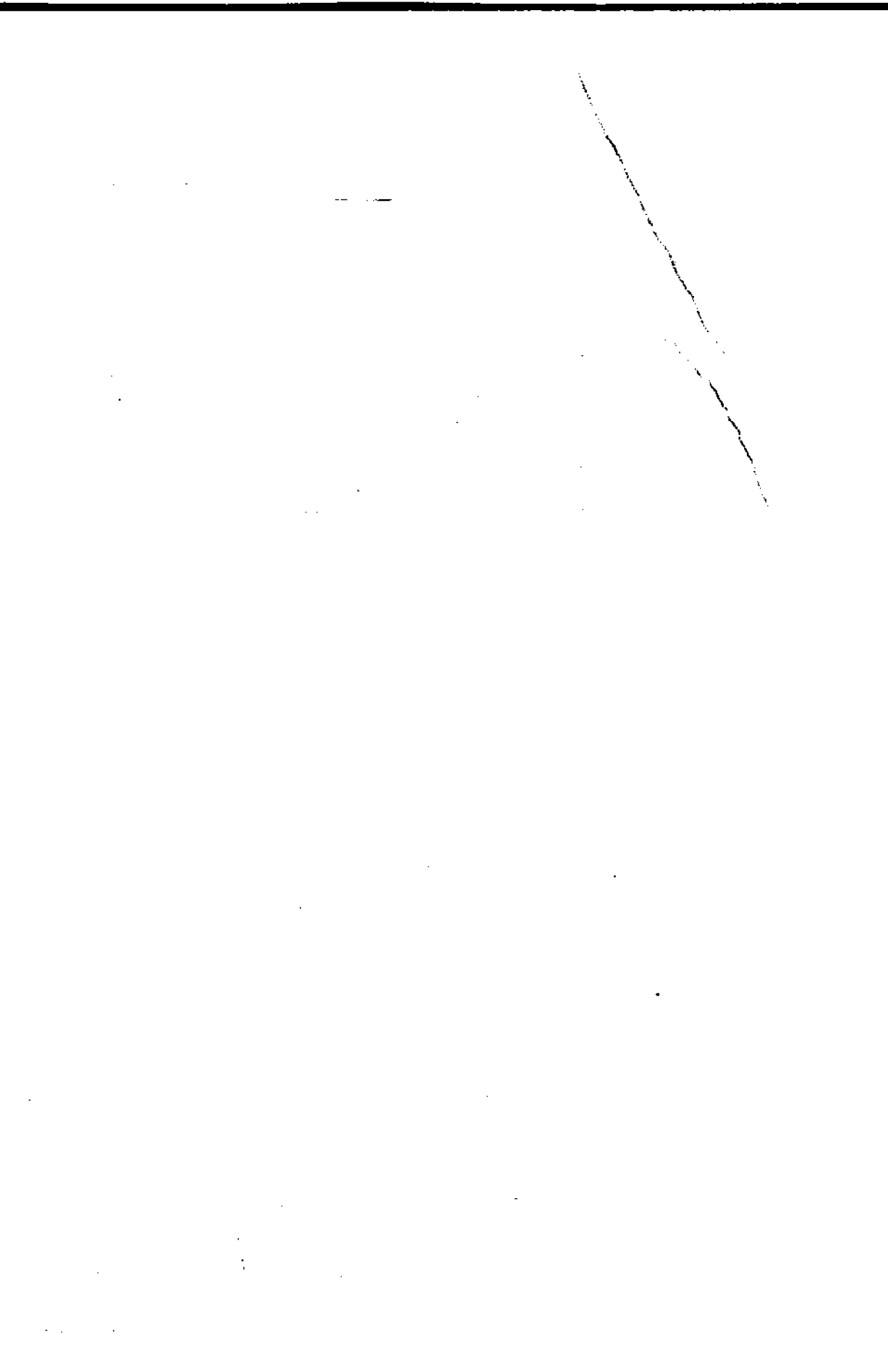
دراسة أنثروبولوجية لإحدى القرى بمحافظة الدقهلية

دكتورة

فاتن محمد عبد الغفار شريف

مدرس الأنثروبولوجي بقسم الاجتماع

كلية الآداب - جامعة المنصورة



لقد شغلت الممارسات الشعبية كإحدى عناصر التراث الشعبي ، اهتمام كبير من الباحثين في مجالي الأنثروبولوجي والفولكلور ، ولقد كان الفولكلور منذ زمن بعيد هو النموذج السائد والمتاح للأنثروبولوجية الطبية خاصة فيما يتعلق بالطب الشعبي والممارسات العلاجية الشعبية (١).

ولمة وظيفة هامة للفولكلور وهي تأصيل القيم كما تتصورها البيئة الثقافية وتبرير طقوس الجماعة وممارستها . فالممارسات والمعتقدات والعادات والأفكار هي الحقائق التي تكون المورثات الثقافية ، والتي لازالت مستمرة بحكم العادة في مجتمعاتنا المعاصر يتلقاها جيل عن جيل (٢). كما أن البحث عن وظيفة العناصر الفلكلورية شاق وعسير ويقتضي ضرورة التعرف على مدى تعبير هذه العناصر الفلكلورية على العلاقات والقيم السائدة في المجتمع ، ومن ناحية أخرى دراسة العناصر الفلكلورية التي تدخل في كل نسق من الأنساق الاجتماعية التي تولف البناء الاجتماعي مما يعني فهم المجتمع ككل من زاوية فلكلورية بحتة (٣)

ومن الملاحظ اهتمام عناصر التراث الشعبي بالزواج والإنجاب وكثرة الذرية ، ولذا فإن أهم عمل ميداني هو جمع المادة الفلكلورية من حفظتها ومستخدميها خلال ممارستها في الحياة اليومية مباشرة واستقصاء المعلومات عنها من الرواة الذين لهم خبرة في الحفاظ على هذه المأثورات وحفظها (٤)

ولاشك أن عناصر التراث الشعبي المتعلقة بخصوبة المرأة تعكس مدى اهتمام المجتمع المصري بصفة عامة والمجتمع الريفي بصفة خاصة بقيم الإنجاب وأهمية الدراسة تنبع من أنها تعد إسهاما إثنوجرافيا في مجال الدراسات الأنثروبولوجية لإحدى عناصر التراث الشعبي . بهدف رصد وتحليل الممارسات الشعبية المرتبطة بخصوبة المرأة التي لازالت مستمرة في إحدى القرى المصرية ، والتي ما كانت لتبقى وتستمر لولا أنها تؤدي وظيفة هامة بالنسبة لممارسيها .

ويركز البحث علي دراسة الممارسات الشعبية المرتبطة بخصوبة المرأة من خلال دراسة إثنوجرافية تعتمد علي الوصف والتحليل لتلك الممارسات والمعتقدات المتعلقة بها وكذلك التغيرات التي طرأت علي بعضها ، وأدت إلي اندثار البعض الآخر .

ولقد اعتمدت الباحثة علي بعض من طرق البحث الأنثروبولوجية منها الملاحظة المباشرة لبعض الممارسات الشعبية التي أتاحتها الظروف نظرا لحساسية البعض منها ، بجانب إجراء مقابلات جماعية وفردية للمبحوثات مع الاستعانة ببعض الإخباريات لشرح بعض الممارسات التي تحتاج إلي خبرة النساء المحترفات أو كبار السن .

مجمع البحث شملت الدراسة الميدانية قرية ميت الأكراذ وهي قرية صغيرة تقليدية علي الرغم من قربها من مدينة المنصورة -موضحة علي الخريطة- علي بعد حوالي ثمانى كيلومترات ؛ مساحتها حوالي ٤٠ ألف متر منها ٢٠ ألف متر تتبع وزارة الأوقاف والأهالي تستأجرها مقابل إيجار موسمي ، المسافة من الطريق الرئيسي الإسفلت حتى القرية حوالي ٥٠٠ متر . وسيلة النقل للمنصورة الميكروباس (من القرية إلي سندوب ومن سندوب إلي المنصورة) إجمالي عدد السكان حوالي ثلاثة آلاف نسمة (٥) . يوجد بها المرافق العامة من كهرباء ومياه وصرف صحي ، تفتقر القرية إلي الخدمات العامة مثل الوحدة الصحية ومكتب البريد ونقطة الشرطة وتعتمد علي قرية شابة المجاورة لها وهي قرية متحضرة أو سندوب أو مدينة المنصورة ولا يوجد بها سوى مدرسة ابتدائية واحدة ، وبها جمعية تعاونية زراعية لتقدم الخدمات لسكان القرية حيث تعد الزراعة هي النشاط الاقتصادي الغالب لأهلها .

وقد انحصرت الدراسة على المبحوثات سواء الأميات أو المتعلقات ، اللاتي يتمين إلي عائلات تمارس النشاط الزراعي ، لأن الفلاحين أكثر الفئات المجتمعية تعبيرا عن عناصر التراث الشعبي ، وخاصة تلك الممارسات الشعبية المرتبطة بخصوبة المرأة نظرا لأهمية الإنجاب وخاصة إنجاب الذكور كقيم اجتماعية في المجتمع الريفي .

كما عمدت الدراسة إلي أن تشمل المبحوثات المتزوجات لقدركن علي تناول الممارسات المرتبطة بالخصوبة ومعالجة العقم ، بالإضافة إلي الاستعانة بالإخباريات من كبار السن

لخبرتهن في القيام بتلك الممارسات ودورهن في تقديم النصح والمشورة للنساء المستشارات وخاصة في العائلة الممتدة .

الفترة الزمنية للدراسة الميدانية

استغرقت حوالي ستة أشهر من منتصف يناير ١٩٩٧ وحتى نهاية شهر يوليو ١٩٩٧ ولقد حاولت الدراسة إلقاء الضوء على الممارسات الشعبية لخصوبة المرأة من كافة جوانبها بدءا بمفهوم الخصوبة والإخصاب من الناحية البيولوجية ، ثم عرضنا لممارسات الخصوبة في مصر القديمة ، وبعدها الممارسات الشعبية في مراحل الخصوبة ومن خلالها تناولنا الخصوبة وأهمية الإنجاب والنظرة للمرأة المنجبة والمرأة العقيم ثم استعرضنا الممارسات المرتبطة بالزواج بداية من عقد القران والزفاف وفض غشاء البكارة ، ثم الحمل وما يتبعه من حالات تأخر الحمل والحمل الكاذب والإجهاض ، وكذلك الولادة والممارسات المرتبطة بالخلاص وأخيرا عرضت الدراسة في عجلة الخصوبة وتنظيم الأسرة.

مفهوم الخصوبة وعملية الإخصاب

تعني الخصوبة fertility القدرة على إنجاب الأطفال بالنسبة للمرأة خلال فترة خصوبتها التي تتراوح ما بين ١٥-٤٥ سنة من عمرها ويمثل معدلات الإنجاب عدد المواليد لكل ألف امرأة في سن الخصوبة .

أما الإخصاب Fertilization فهو يعني اتحاد بين الحيوان المنوي sperm والبويضة legg (ovum) للأثنى ليكونا البويضة المخصبة والتي تتم في قناة فالوب للأثنى (٦)

كيف تتم عملية الإخصاب تعتبر الخلايا التناسلية الأثنى (oocytes) والبويضات قبل النضج أكبر خلايا الجسم ، وتتطور في مبايض الإناث ، حيث تستمر عملية النضج حتى سن البلوغ ، عندئذ يكون عدد خلايا البويضة قد وصل إلى ذروته عند ميلاد الأثنى ولا يمكن إنتاج خلايا جديدة ، رغم وجود ما يقرب من نصف مليون خلية في كل مبيض ، وأن كان عدد الخلايا القابلة للإخصاب أقل كثيرا . وهناك عدد كاف من البويضات تكفي فترات الخصوبة في كل شهر حتى تصل المرأة إلى مرحلة انقطاع الدورة في الخمسين من العمر تقريبا ، وعلى النقيض يستمر إفراز البلايين من الخلايا المذكرة حتى سن متأخرة

من العمر ، وإن كان عدد الحيوانات المنوية وقدرتها على الإخصاب ينخفض بتقدم العمر ، وعدم القدرة على إتمام تلقيح ناضج . وهناك هرمونات تفرز بواسطة الغدة النخامية الموجودة أسفل المخ تقوم بالتحكم في الهرمونات الجنسية الموجودة بالدم والتي تفرزها بصورة أساسية خصية الرجل ومبايض الأنثى . وتستعد بطانة جدار الرحم لاستقبال الجنين بواسطة إشارات كيميائية تنطلق من المبيض إلى تيار الدم مما يؤدي إلى زيادة عدد الأوعية الدموية في سطح بطانة الرحم لانزراع البويضة فإذا لم يحدث الإخصاب تموت البويضة ، ويبدأ المبيض من جديد عملية الإعداد لإطلاق بويضة جديدة ثم يموت غشاء الرحم المفرط فيعرف عندما تبدأ الدورة الشهرية . إما في حالة حدوث إخصاب البويضة بواسطة حيوان منوي في قناة فالوب ، عندئذ تسمى البويضة المخصبة أو الـ (زيجوت) zygote إلى الرحم فتتحد مع غشاء الرحم الذي ينشئ من هذا من الأوعية الدموية ، وهكذا يتم بناء المشيمة ، وهي العضو المتخصص في تغذية الجنين ، وتتكون من أوعية دموية تدخل وتخرج من الجنين النامي ، بينما تحمل أوعية الأم الدموية الغذاء والأكسجين إلى الجنين وتأخذ منه الفضلات وثنائي أكسيد الكربون ، ومن ثم تقوم المشيمة بتزويد الجنين النامي بداخل الرحم بالوظائف التنفسية والغذائية التي تؤديها فيما بعد الرئتان والمعدة والأمعاء . وعندما يحدث الانقسامات الخلوية الجنينية ، وتنشأ أعضاء أولية يستطيع الجنين الحركة "داخل حمام سباحته الخاص" في التجويف الرحمي ، مع نبضات القلب دافعا الدم من خلايا المشيمة ليعود منها الدم محملا بالغذاء والأكسجين ، وبعد تسعة أشهر يكون الجنين قد أكمل نموه استعدادا للولادة ، إذ لا تستطيع المشيمة مواصلة تغذية أي زيادة في حجم الجنين ، ويتم إعطاء الإشارة لعملية الولادة ، فيتمزق الرحم ، ويتسع عنقه ، ويندفع الطفل من خلال قناة الولادة إلى خارج المهبل ، حيث يتنفس أول نفس في حياته ويتم قطع الحبل السري (٧)

ممارسات الخصوبة في مصر القديمة

أن الطقوس والممارسات المرتبطة بخصوبة المرأة تنتشر في كل ثقافات العالم ويمكننا رصد ظواهرها منذ أقدم العصور في الآثار والسجلات القديمة للشعوب المختلفة، ومنهم

الفراغة الذين سجلوا على جذران معابدهم وعلى ورق البردي الممارسات والطقوس التي تصاحب دورة الحياة .فلقد عرفوا فيما يتصل بأمراض النساء ، أمر التأكد من خصوبة المرأة أو عقمها ، وتشخيص الحمل ومعرفة نوع الجنين ، فكان بول الحامل يوضع على قمح وشعير ، فإن نبت القمح كان الجنين ذكر ، وإن نبت الشعير فأنثى ، وإن لم ينبت أحدهما فلا حمل ، كما عرفوا علاج سقوط الحمل والحقن المهبلية (٨).

كما وجد بين الأوراق البردية الطبية نصوص تختص بأمراض النساء كالإجهاض والسيلان المهبل والقلق الحيضي وطرق معالجتها بما لا يتناقى مع الاكتشافات الحديثة كالحقن وغيرها مما يوصف لمنع التريف وزوال العوارض في الأرحام (٩) . ومعظم البرديات التي عثر عليها تشير إلى أصل إلهي أو إلهي ترجع إلى عهد الدولة القديمة ، وأقدمها جميعا بردية كاهون - الفيوم حاليا - وجدها بيتري Petrie سنة ١٨٨٩ وترجع إلى عهد الدولة الوسطى (١٩٥٠ ق.م) وتضم هذه البردية تشخيصات وممارسات تتعلق بأمراض النساء ، وعلاج هذه الأمراض باستخدام الجعة واللبن والزيت والبلع ، والعلاج بالغسيل والتبخير المهبل والتعرف على مدى خصوبة للمرأة ، وذلك بأن تجلس المرأة فوق بقايا جعة فإذا تقيأت كانت خصبة ، ودل عدد مرات القيء على عدد الأولاد الذين سوف تلدهم ، وإذا لم تقيأ يعني أنها عقيم (١٠)

ولاشك إن ارتباط المرأة بعملية التكاثر والإخصاب والنسل أوحى للإنسان البدائي أن يكون مجتمع الأله على غرار وضعه في الطبيعة من حيث أن هذا المجتمع هو الآخر يتوالد ويتناسل ويتكاثر على شاكلته . وما شيوخ (الثالوث الإلهي المقدس) في معظم حضارات الأمم القديمة إلا أوضح دليل على هذا الاستنساخ من منطلق أن مصدر تكون ذلك الثالوث هو الزواج الذي يتم بين الذكور والإناث من الأله ، وممرته هو ابن أو ابنة علم غرار المجتمع الإنساني ، ومن أشهر أنواع الثالوث الإلهي المنبثق عن ذلك الزواج الأسطوري بين الشمس والقمر لاجتماعهما مرة في كل شهر وعند اتجاهاهما نحو الأرض ويبدو أن (الزهرة) كانت لمرّة هذا الزواج ، ليتشكل ذلك الثالوث الإلهي ، لا عند العرو في الجاهلية فحسب ، وإنما كان هو نفسه في حضارات وادي الرافدين ووادي النيل

واليونان ، مما يحمل على الاعتقاد بانتقال هذا الشكل في دورة متصلة في أساطير تلك الحضارات والشمس هي أقدم أنواع الآلهة الإناث ، وقد وصفت بالأم العظيمة المقدسة ، ومما يؤكد حقيقة إن الشمس (إلهة مونتة) ، لا إلهة ذكر ، قول القدماء إن الإلهة تأنيث إله ، وأن الشمس سميت بها لأنها كانت تعبد في العصور القديمة ، لكونها رمزاً مانحاً للخصوبة (١١).

وترى بلاكمن من طقوس الخصوبة بالنسبة للمصريين المحدثين ، ذهاب النساء إلى أحد المعابد القديمة المليئة بالنقوش ، وعند دخولهن كانت كل واحدة تخطو سبع خطوات للأمام والخلف فوق ما كن يفترض أنه فوهة حفرة تؤدي إلى حجرة الدفن الموجودة تحت الأرض ، وبعد أن ينتهي ذلك يعدن إلى المعبد الخالي من النقوش الذي كانت تقيم به وينفريد بلاكمن ، وكانت تقوم بإخراج بعض التعاويذ لتخطو عليها كل امرأة سبع مرات للخلف والأمام وكانت التماثيل عبارة عن رأس إيزيس وإله منحت وجعران وقطة . وهناك اعتقاد شائع في مصر إن الأشياء القديمة والأثرية لها قدرة عظيمة فيما يتعلق بمنح الخصوبة ، إلا أنه من الصعب إن لم يكن مستحيلاً ، أن نحصل على معلومات موثوقة من الناس أنفسهم عن أسباب إضافتهم لهذه القوة السحرية على الآثار (١٢) .

الممارسات الشعبية ومراحل الخصوبة:

إن اهتمام المجتمع بخصوبة المرأة وقدرتها على الإنجاب ينعكس على مختلف عناصر التراث الشعبي بما فيها تلك الممارسات الشعبية المرتبطة بها مما يزيد من الدور الذي يقوم به الممارس الشعبي ويعزز مكانته الاجتماعية بالإضافة إلى تأثيره على الجوانب الأخرى في المجتمع (١٣).

وتبدأ مرحلة خصوبة المرأة منذ البلوغ وحتى سن اليأس وهي مرتبطة بالدورة الشهرية menstruation والمعدل المتوسط لهذه الدورة ٢٨ يوماً منذ بداية نزول دم الحيض وحتى أول يوم في الدورة التالية . ودم الحيض يعني الإفراز الدوري من خلال المهبل لرحم غير حامل لكثرة من الدم تحتوي على خلايا نسيج غشاء الرحم المفرط ، ومعدل فترة الحيض

من ٤-٥ أيام ، وتحدث كل أربع أسابيع خلال المرحلة الإنجابية عند المرأة غير حامل .
ويحسب عمر الجنين من اليوم الأول للدورة الأخيرة .

وكلما كانت الدورة الشهرية للفتاة في سن مبكرة زادت فترة الخصوبة عنها إذا حدثت
في سن متأخرة (١٤) .

وفي مجتمع البحث ارتبطت الدورة الشهرية بعلامات الخصوبة للفتاة قبل الزواج فلقد اتفق
أغلب المبحوثات سواء الأميات أو المتعلقات ، أن بلوغ الفتاة في سن مبكرة وكذلك
نزول دم الحيض بفترة وانتظام الدورة الشهرية تدل على أن الفتاة عند زواجها سوف
تنجب ، كما أن عدم حدوث الدورة الشهرية أو عدم نزولها بانتظام أو نزولها ليوم أو
يومين على الأكثر بكميات دم قليلة دليل على ضعف احتمال حدوث الحمل .

وتكشف الدراسة عن اختلاف رؤية كل من المبحوثات المتعلقات والأميات عن مكون
الدورة الشهرية وتأثيرها على خصوبة المرأة . ويتضح ذلك من خلال أقوال أغلب
المبحوثات المتعلقات " دليل على سلامة الواحدة لقدرتها على طرد الدم الفاسد من
جسمها " ، " حدوث الدورة يعني فيه تبويض وأن الواحدة عندها استعداد للحمل " ،
" اللي يتزل عليها دم كثير وتعب دليل على إن هرموناتها كثير لما تتجوز تحمل على طول "
وبالنسبة للمبحوثات الأميات نجد أن أغلب الآراء تدور حول الأقوال التالية " الواحدة
اللي بتجليها بمغصه شديدة تحمل على طول " ، " اللي بتزول عليها العادة كثير وهي بنت
لما تتجوز تحمل على طول عشان التبويض عندها كويس " الدورة لما تقعد على الواحدة
عشر ايام يبقى ممكن يحصل لها إجهاض ، لكن اللي بتيجي لها أربع أيام حملها عادي "
الواحدة اللي نزل عليها دم العادة في سن متأخر بتغيب على ما تحمل " .

ومن النصائح الهامة التي توجهها الأمهات لبناتهن للمحافظة على خصوصيتهن ضرورة غسل
أثار دم الحيض فوراً تحت الماء الجاري حتى لا يمشي عليه أحد فلا تنجب " .
ويعتد دم الحيض عند كثير من الشعوب من المحرمات ، وهو المانع الأساسي للقرارات
الخارقة للخلافة وللمحافظة على الحياة ، فليست العلاقات الجنسية هي وحدها المنوعة في
فترة الطمث ، بل المنوع أيضاً البقاء في محيط امرأة حائض ، والنسوة الحائضات كن

قدعما يعزلن في أكواخ خاصة ، ولا يسمح للواحدة منهن حتى بلمس الطعام الذي تناوله ، قدم الحيض هو بيساطة المياه السيئة والأنوثة المشنومة والتي ينبغي تجنبها ، واتخلص منها بكل الوسائل (١٥).

وفي قبيلة الكومانشي Comanchie يحظر علي النساء البالغات المشاركة في الطقوس الدينية حتى انقطاع الحيض ، ومن الشائع أن يقوم الأطباء الشعبيين بتلريب زوجاتهم علي طرق العلاج بعد انقطاع الحيض حتى يستطعن الاستمرار في تولي الأعمال المنوطة بأزواجهن إذا ترملن (١٦).

وتدور في مجتمع البحث كثير من المعتقدات حول المحرمات التي تحيط بالفئة أثناء فترة الحيض فهي غير طاهرة ويجب عليها ألا تدخل علي العروس أو السيدة حديثة الولادة قبل مرور الشهر العربي ، حتى لا تصيبهما بالكبسة -وهي الاعتقاد في قدرة بعض الأشياء أو الأشخاص علي إيذاء المرأة أثناء مراحلها الانتقالية كالزواج والحمل والإنجاب مما يفقدها خصوبتها وقدرتها علي الإنجاب فلا يمكنها الحمل -كما أن الأخت التي عليها الدورة لا تؤذى أختها لاعتقادهم أن دمهما واحد .

الخصوبة وأهمية الإنجاب

ومن الجدير بالذكر أن هناك بعض القيم ، والتصورات تعد هي المحرك الأساسي للسلوك الإنجابي وتبدو مجسدة في كثير من الممارسات لدى الأفراد وفي مختلف القطاعات المجتمعية ، وذوي المستويات الاجتماعية المتباينة ، ولا نبالغ إذا قلنا أن هذه تعد من المحددات الأساسية للسلوك الإنجابي والتي تلعب دورا أساسيا في عملية تنظيم الأسرة ، إذ تتوقف علي فهمها ودراسة مدلولاتها نجاح تلك البرامج أو فشلها . من تلك القيم قيمة الإنجاب ، ذلك أن إنجاب الأطفال يدل علي رجولة الزوج ، كما يدل علي أنوثة الزوجة وقدرتها علي الإنجاب ، فالإنجاب يكسب الزوج مكانة اجتماعية جديدة ، كما يكسب الزوجة مكانة اجتماعية جديدة هي مكانة الأم ويرتب علي ذلك حقوق وواجبات جديدة أيضا (١٧) . ويعكس تفضيل الذكور في أغلب المجتمعات ، اتجاههم نحو الحجم المثالي للأسرة فهو يتحدد من منطلق التوازن الجنسي وفي دراسة مسحية حضرية قام

ما Riddler في الهند أنه على الرغم من أن أغلب المبحوثين أتفقوا على أن العدد المثالي للأطفال ثلاثة ولدين و بنت إلا أنه في حالة عدم إنجاب الولد يتكرر الإنجاب الذي من شأنه رفع معدلات الإنجاب في المجتمع (١٨) .

وتعد قيمة الأولاد الذكور من القيم الأساسية التي تحدد السلوك الإنجابي في المجتمع المصري عامة والريف خاصة ، فبجانب أنهم يمثلون القدرة الإنتاجية في اقتصاد المجتمع الزراعي الذي لا يحتاج إلى تدريب فإن الولد الذكر يقف من أخوته البنات موقف الحارس الذي يصون أعراضهن ، ويحميهم من أن يتعرضن لظلم أو مهانة من أحد ، كما أنه يكون الحافظ بعد لثروة العائلة من أن تبدد وتوزع على الأقارب ، ولا يفتن الفلاح بالولد الواحد على قلة البنات ، فالوحيد عنده أهر ، عاجز لا يقوى على إثبات وجوده وسط مجتمع يتطلب الكثير من الأيدي العاملة من الرجال ، فالذكور وحدهم هم موضع الحسد (لا أيد تسقف وحدها ... ولا وحداني يكيد رجال) لأنه ينشأ مدبلاً وناعماً .

وللتربية دوراً أساسياً في تفضيل الذكور ، ذلك أن التصور السائد يتجلى في أن تربية الذكر أسهل بكثير من تربية الأنثى لأن الذكر مهما فعل أو تصرف تصرفاً فيه شيء من الانحراف ، فإن سلوكه في الغالب يتردد إليه مباشرة ولا يشين أسرته ، بينما يشينها أقل انحراف من الأنثى وبناء على ما سبق يمكننا القول أن حب الريفيين لإنجاب الذكور يترتب عليه تكرار الحمل والإنجاب وخاصة إذا كان إنجاب البنات قد تكرر أكثر من مرة الأمر الذي من شأنه رفع معدلات الإنجاب لدى الأسرة المصرية (١٩) .

أفادت المادة الأنثوجرافية في جميع الحالات عن أهمية الإنجاب وخاصة إنجاب الذكور وارتفاع مكانة المرأة التي تتمتع بالخصوبة ، ويتضح هذا في أقوالهم المتواترة مثل "اللي خلف ما متش" ، "العيال عزوه" ، "يا مربي في غير ولدك با زارع في غير أرضك" ، "إن المال والبنون زينة الحياة الدنيا" ، "العيال رزقهم علي الله" ، "العيال عزوه" وكذلك الأمثال الشعبية "اللي ما يغلبه ولده يغلبه جلده" ، "ما يجري من قدامك إلا من حزامك" ، "أبنتك من دمك ينعي همك" .

كما أن المرأة الولود من الصفات المفضلة عند اختيار العروس لقول الرسول (ص) " تزوجوا المرأة الودود الولود " .

ومن هنا نجد أن المرأة التي تنجب وخاصة الذكور ترتفع مكانتها لدى زوجها وأهله ومع أقوال الإنجاريات " الخلف يخلى جوزها ما يفكرش يتجوز عليها ، ولو كانوا صبيان يقوا شوكتها وسط سلايفها " ، " الأولاد يخلوا جوزها يحبها ويخاف عليها ولا يسهدها بالطلاق ويعمل لها قيمة وبأخذ رأيها في أمور حياتهم ويكون لها كلمة مسموعة " ، " الواحدة من غير عيال متساو يش حاجة " ، " واللي ما تخلفش زي البيت الوقف أو الأرض البور " ، فالمرأة المنجبة مثل الأرض الخصبة الصالحة للزراعة " ولنا نجد من أقوالهم المتواترة " الست اللي ما تخلفش زي الشجرة اللي ما بتطرحش تستاهل قطعها " ، وعدم إنجاب الزوجة من الأسباب المقبولة اجتماعيا لكي يتزوج الرجل مرة أخرى من أجل الإنجاب ، فالمرأة المنجبة في المجتمع الريفي حياتها الزوجية والأسرية أكثر إستقرارا ، لها مكانتها وسط زوجها وأهله .

أما عن المرأة العقيم فهي تواجه صعوبات نفسية واجتماعية في حياتها الزوجية والأسرية ، وهناك بعض المجتمعات التي نلاحظ فيها النساء لا يرتقين إلى مرتبة النضج الكامل إلا حين يلدن طفلهن الأول وفي مثل تلك المجتمعات لا تعتبر المرأة العاقر " أنثى " أو " بالغة " ، وهي تنادي بتلك المصطلحات التي ينادي بها الصبية والمراهقون (٢٠) .

والعقم يهدد مكانة المرأة ويشعرها بعدم الاستقرار في حياتها الزوجية لاحتمال زواج زوجها مرة أخرى وهي بالنسبة للمحيطين بها تفتقد لأهم مقومات المرأة وهي الخصوبة ولذا يجب أن تتخلى عن مكانها لزوجة أخرى تستطيع تحقيق الهدف من الزواج ألا وهو الإنجاب . كما تخشى بعض النساء على أطفالها من المرأة العقيم خوفا من أن تحسدهم ، حيث الاعتقاد بأن المرأة المعوقة اجتماعيا وفيزيقيا تكون أكثر قدرة على الحسد ، وهناك العديد من الأمثال الشعبية والأقوال المتواترة التي تتناول المرأة العقيم أو التي تفتقر للخصوبة ، منها " اللي ما تجبش ذرية حرام فيها الرعية " ، " الشجرة ما يزها إلا طرحها " (ثمارها) ، كما يشبهونها بالرجل لافتقادها لأهم مقومات الأنوثة في المجتمع ألا وهي الإنجاب ، ومن

أقوالهم "دي زي الذكر"، "زي النحلة الذكر مساتطرحش"، "حرام معيشة الذكر وبالذكر"، "راجل نلهم ويا راجل". وتصور هذه الأقوال موقف المجتمع من المرأة غير المنجبة في نظرهم غير جدية بالحياة الزوجية لأن الهدف من الزواج الإنجاب .

كما تبين من المادة البحثية اختلاف النظرة إلى المرأة العقيم بين الأميات والمتعلمات من جانب وبين زوجها وأهله وأهلها من جانب آخر ، فتقول إحدى المبحوثات "لما يكون الراجل متعلم بيرضى بقضاء الله والراجل الجاهل نظرتة لها على ألها زي الأرض البور لا زرة ولا نبتة" وتقول أخرى "إذا كان يحبها ومريحاه مهما كانت الضغوط عليه لا يتحوز عليها ويرضى بنصيه وخاصة المتعلمين" ، إلا أن أغلب المبحوثات أتفقن على أن الزوج مهما كان تعاطفه مع زوجته في البداية فإنه يضيق بها ويسدى استيائه ويفتعل المشاجرات باستمرار معها لرغبته في إنجاب أبناء يحملون اسمه ويكونوا ذكرى له ، يجلب ضغوط أسرته ليتزوج مرة أخرى ، وهو يلقي قبول من المجتمع لأنه يحقق إحدى القيم المرغوبة ألا وهي الإنجاب .

إلا أن الجدير بالملاحظة إن أغلب المبحوثات المتعلمات وخاصة اللاتي يعملن ذكرن أن الحب والتفاهم بين الزوجين يعوض عدم الإنجاب لقناعتهم ألها إرادة الله سبحانه وتعالى ، وكما ورد على لسان إحدها (محلش عارف الخير فين ويمكن الواحدة تخلف طفل معوق أو يطلع فاسد ، وأكيد ربنا رحمته واسعة وحاييزي الصابرين) .

أما عن موقف أهل الزوج فهناك اتجاهين الأول وهم القلة يرضون بمشينة الله ولا يجرحوا مشاعر زوجة الابن ، ويذهبوا بها إلى للأطباء والمشايخ ويساعدوها في بعض الممارسات الشعبية المرتبطة بالخصوبة سوف نعرض لها بالتفصيل فيما بعد-أما الاتجاه الثاني فلقد كشفت للمادة الميدانية على اتفاق أغلب المبحوثات على أن موقف أهل الزوج يكون ضد الزوجة سواء من خلال التلميحات أو الضغط على الابن للزواج مرة أخرى ، وبالنسبة للمبحوثات الأميات وخاصة المقيمات في مسكن العائلة يتم تكليفها بأعمال شاقة في المنزل أو الحقل ، ويعايرونها بعدم الإنجاب إذا تيرمت أو احتجت من كثرة الأعباء ، بل يسعون إلى أن تكره البيت وتخرج منه برضاها لكي يتزوج أبنتهم مرة أخرى .

وبالنسبة لأهل الزوجة فآلمهم يتعاطفون معها ، ويشفقون عليها ، ويدافعون عنها بأن كل شئ من عند ربنا ، ويحرصوا على تجنب الحديث عن الإنجاب أمامها حتى لا يجرحوا مشاعرهما ، وبأخذونها للأطباء والمشايخ لعلاجها ، كما يواسون الزوج "وبحطون عليه" ، ومساندته حتى لا يترك أبنتهم .

كشفت المادة الميدانية عن الكثير من الممارسات الشعبية التي تساعد المرأة على الحمل والإنجاب وهي ترتبط بمراحل خصوبة المرأة بدءا بالزواج وما يتبعه من تأخر الحمل أو العقم أو الإجهاض وحتى الولادة تحاط بممارسات وطقوس خوفا من عدم تكرار الحمل .

الزواج :

إذا كانت الوظيفة الأساسية للزواج هي إنجاب الأطفال للمحافظة على النوع واستمراره فإنه لابد أن يحاط بالشعائر والطقوس التي تمنح الخصوبة للزوجين ، وتجعله زواجا مشمرا (٢١) .

اعتاد المصريون في عهودهم الأولى التبكير بالزواج لاعتقادهم أن فيه صيانة للنفوس من التلوث بالتقالص ومراعاة لاستلزام حرارة الجو ، وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه ما معناه (أن من يادر بالتزوج في صباه وهو في ريعان الشباب وإقبال الحياة يمكنه أن يسرى في شيخوخته ذرية تسره نشاطها ويستطيع تربيتها على ما أوتي من نشاط وسعة في الرزق فيكونون لعينه قررة ولآماله ذخرا) (٢٢) .

يمكن للزوجة المصرية أن تصبح أما في سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشر ، وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة على خصوبتها المذهلة ، ومن الممكن لها أن تصبح أما مرة كل تسعة أشهر ، ولكننا نستطيع القول لكي تقدم نسبة دقيقة بأن كل مصرية تنجب طفلا كل ثلاثة أعوام ، ويقدم ذلك التقدير نوعا من التعويض بالنسبة للسيدات الآتي يتميزن بخصوبة قليلة أو الآتي يجعلهن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الإنجاب والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، بل أنه بعد بمثابة عار للمرأة ، لذا تلجأ السيدة العقيم إلى كل الوسائل التي تفرضها معتقدات النساء وخزافهن لكي تستطيع الإنجاب .

لكن السيدات في نفس الوقت لا يقيمن خصييات لسن متأخرة كما يحدث في أوروبا ،
فما أن يقتربن من سن الثلاثين حتى تؤدي نوبات الحمل المتكررة إلى جعل الولادة عسيرة
مما قد يكلف الطفل الذي كن سيتباهين به حياته ، وسن الخامسة والثلاثين هي السن
الطبيعية التي يتوقف عندها معظم السيدات عن الإنجاب ، ويظل بعضهن يتمتعن بنعمة أن
يكن أمهات حتى سن الأربعين ، لكن تلك حالة شاذة ونادرة الحدوث ، ومن غير
المألوف أن ترى سيدة تنجب بعد هذه السن ، وتكون هذه فترة مزعجة بالنسبة للسيدات
المصريات ، إذ يشعرون في هذا الوقت ببعض الاضطرابات والتقلبات التي تؤدي صحتهم ،
لكن السيدة التي تقلت من هذه الأزمة يمتد لها العمر في بعض الأحيان لسن متقدمة
جدا (٢٣) .

من الملاحظ غنى المادة الإثنوجرافية بالمعتقدات والطقوس التي تصاحب مرحلة الزواج
خوفا من فشل الغرض الرئيسي منه وهو إنجاب الأطفال ولذا يحرص أعضاء المجتمع على
القيام ببعض الممارسات التي يعتقد أنها تحمي خصوبة العروس بدءا بعقد القران والذي
تصحبه بعض الممارسات خوفا من الأعمال السحرية والربط سمحر يصيب الرجل،
وينقله القلعة على الانتصاب أثناء العملية الجنسية - والذي يعقده أحد أعداء العروس لسن
والذي كان يرغب في الزواج من أحدها . ولذا أثناء عقد القران لابد من القيام بواحدة
من تلك للممارسات :

- ١- تقوم إحدى قريبات العروس بفتح المقص وغلقه عدة مرات .
- ٢- تحيط عمتها الجزء الأسفل من الفستان بدون عقدة وعند إتمام العقد ، يسحب الخيط
خوفا من الربط .
- ٣- كما يعتقد أن الإبرة بدون خيط عندما تحيط بها ذيل الفستان تفك الأعمال السحرية
ولا تؤذيها على شرط أن تقوم بذلك فتاة غير مخطوبة وأكبر أخوها .
- ٤- تقف امرأة من أهل العروس وفي يدها علبة كيريت ، وتستمر في إشعال عود الكيريت
وعندما يطفئ تشعل آخر وهكذا حتى يتم عقد القران .

أما بالنسبة للزفاف يفضل أن يتم في أواخر الشهر العربي ، حيث الاعتقاد إن مرور شهر عربي على العروسان يقلل من احتمالات الإصابة بالكسبة والتي تفقدها خصوصتها حتى يتم فكها ببعض الممارسات - سوف نعرض لها - وكذلك الأعمال السحرية ولعل أخطرها الربط للعريس ولذا أكدت أغلب المبحوثات (الأميات) على ضرورة أن يلبس كلا العروسان قبل كتب الكتاب ، قطعة من شبك الصيد وبها قطعة صغيرة من الرصاص ويربط بها حجاب حول الوسط حتى يمر شهر عربي عليهما لحمايتهما من الأعمال السحرية ، وليس لفك الأعمال . ومن أقوال أحد المبحوثات (أمية) "ممكن حد من اللي يكرهوا العروسين يعمل للعريس ربط ، يخليه ميقدرش يقرب من عروسته ، وعشان يفكوا الربط يجيوا بيضة فرخه مسلوقة ويقسموها بشعرتين من شعر العرومة وياكل كل واحد نص البيضة ، ويغطوا فوق البخور سبع مرات " . وتروى إحدى للمبحوثات (متعلمة) عن الربط " خالي في ليلة فرحه مقدرش يقرب من عروسته ، وكان يقول كل ما أقرب منها ألقاها مسدودة ومش عارف يعمل حاجة وكانت حالته النفسية سيئة جدا ، وقعد على الحال ده أسبوع ، راح للدكتورة أكدت له العروسة سليمة وكشف هو وتأكد إنه سليم ، وصرف على العلاج ٨٠٠ جنيه ، وبعدين راح لشيخ وفك له العمل اللي عملته أم واحدة كان خطبها وعصلش نصيب والشيخ كتب له ورقة حمرا ويدوها في ماء ورد ويشرب شويه ويفتسل بالباقي " .

وفيما يتعلق بالطقوس التي تصاحب فض البكارة فهي مرتبطة بالفكرة الأساسية في الزواج ألا وهي الإخصاب ، فالعذراء في المفهوم الشعبي أقدر عليه من الثيب ، ولذلك يقتصر الاحتفاء بزواج الأولي دون الثانية ، والإخصاب هنا موداه إنجاب الأطفال لأب معين ومحدد ، ومن ثم يعلن ذلك الإعلان الصارخ عن أنما عذراء أي أنه لم يسبق لها أن عرفت رجلا من قبل ، بما قد يحمل علي الاعتقاد بسلامة وشرعية أطفالها منه (٢٤) .

ومن المعتقدات الشائعة في مجتمع البحث أن تأجيل فض غشاء البكارة عن يوم الزفاف قد يؤدي إلى غياب حمل العروس ، كما تحتفظ العروس بالشاشة التي عليها دم فض بكارها لاستخدامها في حالة عدم إنجابها بان تضعها في الماء وتفتسل به . أو تضعها فوق رأسها

وتسكب الماء عليها وهي تشاهد (أي تقول أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله) كما يعتقد أن الممارسات المرتبطة بدم البكارة لا تصلح إلا لصاحبه ولا يستخدم لغيرها حتى لا تكسبها .

ومن الملاحظ في مجتمع البحث أن أغلب المبحوثات المتعلقات اتفقن علي ضرر استخدام دم البكارة في الممارسات الشعبية وخاصة إذا استخدمت السيدة البعض منه كاللبوس "صوفه" تضعه في الرحم وقد ذكرت واحدة فقط من تلك الفئة أنها وضعت الفوطه التي بها دم البكارة في الماء كم نصحتها أمها اغتسلت بالماء ولكنها لم تحمل .

ومن الملاحظ من المادة الميدانية أن هناك العديد من التحريمات والقيود يفرضها المجتمع على المرأة في فترة الخصوبة خوفا من تعرضها للكيسة وهي تعنى فقدان القدرة على الحمل أو الإنجاب والتي قد تصيب العروس ليلة زفافها فيتأخر حملها ، والزوجة بالإجهاض أو وفاة أطفالها ، والسيدة بعد الوضع في فترة النفاس فلا تحمل مرة أخرى أو لا تستطيع إرضاع طفلها ، وفي حالة حدوث انتهاك لتلك المحرمات أو القيود ، تصاب المرأة بالكيسة ، ولذا لابد من القيام ببعض الممارسات الشعبية الخاصة بكل منها للتخلص من آثارها وسوف نعرض لأهم التحريمات والقيود المرتبطة بحدوث الكيسة والتي تناولتها أغلب المبحوثات (الأميات) والبعض من (المتعلقات) وخاصة اللاتي يقمن في بيت العائلة حيث تأثير الأقارب وكبار السن من النساء أقوى من تأثير التعليم وهي كما يلي :-

١- يجب ألا تنرج العروس أو الوالدة قبل أن يمر عليها الشهر العربي ، كما تمنع الفتيات من زيارة العروس حتى يمر شهر عربي منعا من أن تكون إحداهن عليها الدورة الشهرية ، وإذا حدث ذلك فإن الفتاة التي تسببت في حدوث كيسة العروس أن تتبول ثم تتبول عليه المرأة المكبوسة ساعة آذان الجمعة ، والجدير بالملاحظة إن أخت العروس التي عليها الدورة الشهرية لا تكسبها إذا دخلت عليها لأنه يعتقد أن دمهـما واحد .

٢- يجب ألا يزور العروس أو السيدة الوالدة شخص شارك في جنازة أو عائد من زيارة المقابر ولفك الكيسة التي حدثت لها نتيجة ذلك نجد العديد من الممارسات منها أن تستحم بماء غسل ميت ويفضل أن تكون سيدة ، ثم تلقيه في الشارع ، أو استعمال اللوف

الخاصة بالميت ، وعلى الرغم من أن بعض المبحوثات ذكرن لي أنها معتقدات خاطئة ، وهي ترتبط بالحالة النفسية للمرأة حيث قالت إحداهن (أن إحدى جاراتنا نصحتها النساء بأن تغتسل بغسل ميت ، وطلبت من إحدى السيدات اللاتي تحضر الغسل أن تحضر مياه الغسل إلا أنها لم تستطع أن تحضره لها ، وأحضرت لها مياه جارية من الخنفة ، وأوهمتها أنها مياه غسل ، وفعلا تم الحمل اعتقادا منها أنه ماء غسل) ، ومع ذلك نجد كثير من الروايات المتواترة عن تأثير غسل الميت في إحداث الحمل .

وقد ذكرت إحدى المبحوثات من (المتعلمات) تجربتها الشخصية "تزوجت ومرت سنة ولم أحمل ورحت للدكتور من غير فائدة ، وفي يوم حملت مرات السواق بتاع جوزي إني مكبوسة من واحد ميت وأن واحد قالها لابد من أن تغتسل بغسل ميت ، وفعلا استحيت بغسل ميت وحملت بعد كذا وعندني دلوقت أربع صبيان ، وحتى أمي فضلت أربعاشر سنة متخلفش وكانت مكبوسة ، وعندها أخ بموت له البنات، حطت واحدة من البنات على حجرها وماتت على رجلها وحملت بعد كذا " . وكذلك الذهاب إلى المقابر أثناء صلاة الجمعة على أن تمر على سبع شوارع ولا تحدث أحد ولذا تصحب معها سيدة أخرى لتتوب عنها في رد السلام أو الحديث ، ويجب أن تدخلها بظهرها وألا تعود من نفس الطريق. كما أن المرأة التي مات طفلها وتأخر حملها تذهب إلى مقبرة طفلها في صحبة خفير المقابر وتقوم بتغيير وضعه لاعتقادهم إن عدم الإنجاب يرجع إلى أنه ينام على وجهه ، وعندما تقوم بتعديل وضعه سوف تدخل روحه داخلها فتنجب مرة أخرى وتقول إحدى الأخباريات " لو مات عيلها وما خلقتش ثاني يقولوا لها روحي وافتحي تربته ليكون العيل مقلوب إعلليه عشان تحملي " .

ويرجع ارتباط المقابر والأموات بطقوس الخصوبة إلى الاعتقاد في تناسخ الأرواح الشائع بين الفلاحين

وهناك ممارسات مشابهة عند البنحالا وهي قبيلة تقيم في شمال الكونغو ، ففي إحدى المرات شوهدت امرأة من تلك القبيلة تحفر حفرة في الطريق العام ، وأوضح زوجها لأحد الضباط البلجيكيين أن زوجته تريد أن تصبح أما وتوسل إليه ألا يضايقها ، وتعهد

بإصلاح الطريق بعد ذلك ، واستمرت الميرة في التحفر إلى أن أخرجت عظام طفلها الميت التي احتضنتها بحب شديد متوسلة إليه أن يدخل جسدها ليولد من جديد ، وفي هذه الحالة ترى وبفريد بلاكمين طقوسا مشابهة لما يحدث في مصر الحديثة ومصحوبة بنفس الاعتقاد (٢٥).

٣- كما يجب ألا تدخل العروس على الوالدة أو العكس لأن كل منهما تكبس الأخرى وكذلك العروس تكبس مثيلتها في نفس الشهر العربي وإذا حدث يجب أن ينتظرا حلول الشهر العربي ونخرجا معا حتى تزول الكبسة ، وكذلك في حالة وجود امرأتان حوامل في نفس البيت يجب أن تلد أحدهما خارج البيت ، حتى لا تكبس أحدهما الأخرى ، ولتلك الكبسة التي تحدث للعروس من الوالدة ، أن تنتظر حالة ولادة لإحدى القريبات ، وتأخذ قطنة لها دم ساحن من الخلاص وتدخلها في الرحم . وكذلك الأم التي فطمت طفلها يجب ألا تدخل على العروس أو الوالدة ، وإذا حدث فإن المكبوسة تأخذ قطنة لها لبن الفطام وتلبسها ، وتجنب حدوث كبسة للعروس أو الوالدة لابد من خروجها لاستقبال أي من الزوار لها ولا تنتظر دخولهم عليها ، وقد ذكرت أغلب المبحوثات من الفتيات أنهن يفعلن ذلك .

٤- لا يدخل على العروس أو الوالدة الزوج بعد حلاقته بل يجب أن يخرج هي إليه ، وإذا حدث فلا بد من وضع عدة الحلاقة في الماء ليلة الخميس وتستحمي عند آذان الجمعة لذلك الكبسة .

٥- إذا دخل أحد يحمل باذنجان فإنه يجب على المرأة المكبوسة أن تذهب إلى أرض مزروعة باذنجان وتخلع شتلة مزهرة وتبول مكانها ، أو أن تلفة سبع مرات من الشرق إلى الغرب . كما يعتقد أن الليمون والبلح الكبيس (العحوة) يكبسوا العروس والسيدة الوالدة.

٦- إذا دخل الزوج عليها وهو يحمل لحم فيء وحدث لها كبسة ، عليها الذهاب إلى الخزار أثناء ذبحه لجاموسة تخطى على الذبيحة سبع مرات وهي تقرأ بعض الآيات القرآنية ، أو تضع اللحم في الماء ثم تغسل بالماء .

وهناك بعض الممارسات لفك الكبسة التي لا يعرف مصدرها منها :

١- أن يحضر لها أحد الأقارب عقد أزرق من أحد المشايخ الذي أتى به من السعودية أو من البدو وتضعه في المياه ليمر عليه ثلاث آذنان في يوم كامل وتستحمي بها لمدة ثلاث أيام ولا بد أن تأخذ أمها أو أختها الماء وتلقيه عند مفترق الطرق .

٢- أن يقذفوا في وجهها حرباء أو ضفدعة لاعتقادهم أنها فزعت وهي صغيرة ، ولن يشفيها سوى فزعة أخرى .

٣- تحضر أوراق البرتوف -نبات بري ينبت على الترع -وتغليها في حلة ماء ، وتوضع في طشت ، وتأخذ السيدة البوخة وهي ملفوفة في البطانية .

٤- تضع سبحة الكارم وتضعها في صدرها وتترها من ذيل جلبابها سبع مرات .
تضع المرأة صوفه بها بعض شمع وزيت .

٥- عمل كاسات هواء عن طريق القابلة خوفا من إصابتها بالرطوبة ، وهي إما أن تكون عن طريق إحضار كوب زرواية (إناء فخار) وإشعال كبريت فيه حتى يحترق الأكسجين الموجود فيها ثم وضعها على ظهر السيدة .

٦- تحضر المرأة حمامة بيضاء لم تحلق سوى مرة واحدة ثم تذيبها ، وتصعد بها إلى السطح لتسمع ثلاث آذنان (المغرب والعشاء والفجر) حتى لا تكون الشمس ساطعة ثم تأكلها

الممارسات والتحريمات المرتبطة بالحمل

يعد الحمل الوظيفة التي لا نظير لها للمرأة فلا يوجد مجتمع يستمر بدون إنجاب أطفال ، لذا فالحمل يحقق أهم وظيفة للمرأة ألا وهي الإنجاب (٢٦) .

وهناك بعض الأعراض العامة التي تصيب المرأة وتعد علامات على حدوث الحمل منها تأخر نزول الدورة الشهرية والرغبة المستمرة في النوم وانتفاخ البطن وكبر حجم الثدي وتغير لونه ، وآلام الظهر، وظهور كلف على الوجه والعنق ، بالإضافة للرغبة في بعض الأطعمة والفاكهة في غير أوانها ويسمى "وحم" -فلقد ذكرت إحدى المبحوثات إنها أتوحت على كبده وهرشت في أيدي طلعت على أيد بنى حنة كبده وكل ما تكبر ، تكبر معها (مع الأخذ في الاعتبار أن الكبده من الأطعمة إلى يستحب عدم تناولها أثناء

الحمل)- وكذلك كراهية بعض الأشياء مثل الشاي ورائحة السجائر ورائحة صابون الحمام ، وقد تكره معاشره زوجها في الأشهر الأولى ، وغيرها من الأعراض التي تختلف من امرأة لأخرى ومن حمل لآخر . وكذلك بين الذكور عن الإناث فتقول إحدى الإخباريات " وأنا حامل في الثلاث صبيان بطني صغيرة جدا مكش حد يصدق أني حطلم إلا لما أولد ، أما في البنت بطني كبيرة ومدورة " ومن أقوال المبحوثات عن الاختلاف بينهما " أنا بارجع في الولد والبنت لا" ، "البنت بتحلي أمها والولد بيوحشها " ، "البطن المطاولة للإمام يبقى ولد ولو بطنها للحنب تبقى بنت " ، " الولد يتحرك في البطن بسنوعة والبنت تتحرك بيطيء " .

هناك بعض التحريمات والقيود التي تفرض على الحامل خوفا من عدم اكتمال الحمل ، منها ما يتعلق بالأطعمة والمشروبات مثل عدم شرب المياه الغازية أو القرفة أو المشروبات الساخنة . وكذلك لا تأكل الشطة والكبد والعدس

وتعتقد الكثيرات أنه يجب أن يمتنع الزوج عن جماع الزوجة في الشهور الثلاثة الأولى حتى لا يحدث لها إجهاض بينما يفضل أن يكثر من ذلك في الشهر الأخير لتسهيل عملية الولادة .

كما يجب ألا تنظر الحامل إلى الأشخاص المعاقين أو المعتوهين ، بل يجب أن تحرص على النظر إلى الصور الجميلة .

وأياضا لا تمدق للحيوانات الشرسة فكما تقول إحدى المبحوثات "متبصش للكلاب عشان العيل ما يطلعش شرس زبهم " ..

أما عن تأخر الحمل فإنه يقترن بكثير من الممارسات نظرا لأنه يعد من الأوضاع التي لها صداها الاجتماعي والثقافي والنفسي ، ولذا تلجأ النساء إلى كل الطرق التي من شأنها إلهاء هذا الوضع .

وهناك بعض الاختلافات بين المبحوثات من الأميات والمتعلمات فيما يتعلق بتأخر الحمل ، فبينما ترى الأغلبية من الفئة الأولى أنه يبدأ الشعور بالقلق من تأخر الحمل بعد حوالي ستة

أشهر ، ويجب البدء في البحث عن أسباب عدم الإنجاب سواء من خلال القابلة أو الشيخ
ثم الذهاب إلى الطبيب .

وبعد عشر سنوات يبدأ الأمل في الإنجاب يخبو ، على الرغم من إن هناك حالات حمل
حدثت بعد أكثر من عشر سنوات .

وبالنسبة للفتاة الثانية فترى المبحوثات أنه بعد سنة على الأقل يجب البحث عن أسباب
عدم الإنجاب بالذهاب إلى الطبيب وعمل التحاليل اللازمة لعلاجها ، ولا تفقد الأمل إلا
بعد أن يكشف لها الطبيب عن عائق يمنع الحمل أو أن تبلغ السيدة سن اليأس

الحمل الكاذب وهي حالة تعتقد المرأة خلالها أنها حامل بينما هي ليست كذلك ، وهناك
بعض العلامات والأعراض التي تشبه الحمل مثل تأخر الدورة الشهرية *menstruate* على
الرغم من عدم تخصيب البويضة ، وهذه الحالة قد تحدث لأسباب نفسية أو ورم أو
اضطراب الهرمون الجنسي (٢٧)

وتشابه أعراض الحمل الكاذب مع نفس أعراض الحمل الحقيقي أو بعضها ، من انقطاع
الدورة الشهرية وانتفاخ البطن والقيء والرغبة المستمرة في النوم ، وكراهية بعض الأطعمة
والروائح بل وكراهية العلاقة مع الزوج أحيانا ، وقد ترغب في بعض الفواكه في غير أوانها
أو أطعمة غير معتادة عليها .

وقد تبين من الدراسة أن أغلب المبحوثات سواء كن أميات أو متعلقات قد سمعن عن
الحمل الكاذب، لحدوثه لمن أو إحدى قرياتها أو جيرانهن ويسميه البعض "حمل
غزلاتي" ومن أهم أسبابه لدى المتعلقات هو تأخر الحمل والرغبة الشديدة في الإنجاب أو
من أعراض سن اليأس وخاصة في البداية عندما تنقطع الدورة الشهرية عن العول فتعتقد
السيدة أنها حامل . أما الأميات بالإضافة للأسباب السابقة فقد ذكرن إنه قد يرجع للغيرة
من زواج الزوج مرة أخرى أو الغيرة من إحدى الأقارب أو الجيران حامل ، والأغلبية
يلجأن للطبيب .

وتقول إحدى المبحوثات (أمية) "جاري حسنت إن جوزها هايتجوز عليها ويطلقها ،
تأخرت عليها الدورة شهرين وحسنت بغيمان نفس ودوخة ، قالت إنها حامل ، ولما

راحت للدكتور قال لها ده مش حمل وأنه حمل كاذب ، خافت تقول لجوزها استنت كيام شهر وقالت إنها سقطت (أجهضت)

كما تلجأ المرأة التي تظهر عليها أعراض الحمل الكاذب إلى القابلة في البداية فكما تذكر إحداهن (أمية) " بنت سلفتي لما تأخرت عليها العادة ، راحت للداية لقت صدرها مليان عن ما كان ، قالت لها متقوليش لحد أنت حامل وكل ما تكبر بطنها يتأكد حملها وتيجي تنام على جنبها يتقلب معها ، وحست بتعب شديد أخذوها للدكتور وعمل لها أشعة وطلع أنه كيس ميه وعملت العملية وحملت بعد سنة " . وقد تكشف الزوجة أن حملها كاذب بنفسها لتزول الدورة الشهرية بعد تأخرها عدة شهور ، أو أن تتأخر عليها الدورة تسعة أشهر ولا تلد فتدرك أنه حمل كاذب .

وتختلف النظرة بين المبحوثات عن مكنون الحمل الكاذب فتقول إحداهن " عبارة عن دم متكون زي عنقود العنب " وأخرى " ده دم فاسد مخزون في البطن وتروح للدكتور يديها حقنة تنزل الدم " ، وثالثة تروى " أخيتي كانت فاكره نفسها حامل وراحت للدكتور طلع من بطنها حاجة زي كوز اللوف " ، وقد تعتقد كثير من المبحوثات (المتعلمات) أن الحمل الكاذب هو " حمل خارج الرحم نتيجة حدوث الإخصاب خارج الرحم ده تخصيب للبويضة خارج الرحم " .

أما عن النظرة للمرأة التي يحدث لها حمل كاذب فهي أما أن تقابل بالشفقة والعطف والدعاء أن يرزقها الله بالابن الذي تشتاق إليه ، وقد تعرض في بعض الأحيان للسخرية والاستهزاء وخاصة من أهل الزوج وزوجات أخوته ويرشقونها بالعبارات الجارحة مثل " عشموني بالخلق خرمت أنا وداني " يا فرحة ما تمت خدتها الغراب وطار " .

وبالنسبة لحدوث الإجهاض فإن الأمثال الشعبية تعكس التعاطف مع المرأة مثل " ماتقوليش لأبوه أيده في أيد أخوه " ، " أول بيضة للغراب " ، " ألف كوز ولا العزازة " ، وبجانب أن أغلب المبحوثات المتعلمات تؤيد الذهاب إلى الطبيب لأنه يربط الرحم ثم يفكه مساعاة الولادة ، أو يعمل لها التحاليل لمعرفة أسباب الإجهاض وتحديد العلاج المناسب للحالة . أما عن أسباب الإجهاض من وجهة نظر المبحوثات الأميات والممارسات المرتبطة

هما فهي تدور حول بعض الأعمال السحرية التي تقوم ١٤ إحدى السيدات التي تكرها أو تريد إيدائها وعليها أن تذهب للشيخ لعمل الاحجية وتضعه في صدرها حتى يكمل الحمل ، وورق مكتوب بماء الورد والزعفران وتضعه في الماء لمدة ست ساعات ثم تستحمي به وبعد ذلك تلقيه في مفترق طرق ، وتذكر إحدى المبحوثات " فيه شيخ يعالج الحالات دي أنه يشاور بالخشبة علي الست ويقرأ عليها آيات ومن جلسة واحدة يعرف عندها آبه ويعالجها " .أو تذهب للشيخة جارية التي تقوم بالكتابة علي ورق لتضعه في الماء ليلة الخميس وتستحمي ساعة آذان الجمعة . وتعطي للمرأة صوفه لتلبسها (توضع كاللبوس في الرحم) .وقد تنصحها وألا تنظر إلى المرأة كثيرا حتى لا تغضب أختها تحت الأرض "فتخبطها وتسقط " . وقد يحدث الإجهاض بسبب ضعف ظهر المرأة فلا يتحمل الجنين وتذهب إلى القابلة لتحضر لها قفل في قطعة من شباك الصيد حتى يكمل الحمل . ومن الممارسات أيضا أن تقوم فتاة بكر بإغلاق قفل علي ظهرها طوال فترة الحمل حتى لا يزول الجنين اعتقادا منهم أن إغلاق الظهر بالقفل سوف يغلق الرحم فلا يحدث للمرأة إجهاض وتستطيع أن تكمل حملها .

الولادة وخصوبة المرأة

وعلى الرغم من أن إنجاب طفل دليل على خصوبة المرأة ، إلا أن عملية الولادة نفسها تحاط ببعض الطقوس خوفا من إصابة الأم "بالكبسة" -عرضنا لها من قبل والتي تؤدي إلي انقطاع اللبن أو عدم إنجائها مرة أخرى .

ولقد تبين من الدراسة الإثنوجرافية أنه على الرغم من الفروق البنائية بين المتعلمات والأميات ، فالفتة الأولى تحرص على الولادة عند الطبيب أو المستشفى خوفا من التلوث أو الإصابة بالأمراض وحتى تكون تحت الرعاية الطبية ، وهي لا تهتم كثيرا بكيفية التخلص من المشيمة ، بينما أغلب المبحوثات الأميات يحرصن على الولادة في المنزل لأن القابلة تأخذهن علي راحتهم ، وهن يتفعلن ما إلا في الحالات التي تواجه صعوبات فتشير عليهم بدخولها المستشفى ، كما يحرصن علي عدم الخروج من المنزل قبل مرور شهر عربي، وكذلك وضع كيس من الزهرة الزرقاء (تستخدم في غسيل الملابس) ، أو بعض

الخرز في صدرها لمنع حدوث الكبة ، وإذا حدثت فإن هناك العديد من الممارسات لفكها .

إلا أن الجدير بالملاحظة أن أغلب المبحوثات من المتعلمات قد ذكرن أنهن يخضعن -إنما- لرغبة الأم أو الحماة في بعض الممارسات مثل ضرورة أن تخرج لزوارها -وخاصة إذا لم يهل عليها شهر عربي جديد- حتى لاتدخل عليها إحداهن وعليها الدورة الشهرية أو تتحلى بذهب جديد أو بندقي (عيار ٢٤)، أو أم فطمت طفلها أو والدته في نفس الشهر العربي -وهي كلها حالات يعتقد أنها تحدث الكبة ، إلا أنهن رفضنا الممارسات المتعلقة بفك الكبة وفضلن الذهاب إلى الطبيب لمعالجة الأسباب العضوية ، بينما ترى أغلب المبحوثات من الأميات أنهن يقمن بالممارسات التي تفك الكبة - سبق تناولها - وإذا فشلت يذهبن إلى الطبيب .

الممارسات المرتبطة بالخلاص

ويرتبط الحبل السري والمشيمة (الخلاص) عند كافة شعوب الأرض تقريبا سواء المتخلف أو المتحضر بروح وحياة وموت وصحة وطباع ونجاح أو فشل الشخص الذي يولد فيه ، ولذلك نجد أنه يرتبط بالاعتقاد الإنساني في الروح الخارجية أو الروح التي لا تنفصل عن الجسد ، ومن هنا أصبح ما يحدث للخلاص يؤثر في حياة الطفل بل ويحدد مصيره حيث يعتقد أنه يحوى روح الطفل الوليد أو يضم روحه الخائرة أو هو أخوه أو توأمه الحقيقي ، وانه مرتبط به ارتباطا وثيقا . فالتصرف فيه أو مصيره سوف يحددان مهارات الطفل وحظه ومصيره في الحياة . وتنتشر تلك المعتقدات لدى كافة شعوب الأرض . فلو نظرنا إلى قبائل البوقاغير Yukaghir مثلا في شمال شرقي سيبيريا فنجد أنهم يلاحظون تلك العلاقة التعاطفية بين الوليد وبين خلاصه حيث يلف في جلد الرنة ويلفون معه غموجا مصغرا لقوس وسهم وسكين خشبية صغيرة ، وقطعا صغيرة من الفراء ، وذلك بهدف أن يصبح هذا الوليد صائدا ماهرا . أما خلاص البنات فتوضع معه سكين صغير مما يستعمله النساء ، و"كستان" و"إبرة" ويلف كل هذا مع الخلاص في لفة ، والهدف من ذلك أن تصبح المرأة ماهرة في بيتها (٢٨).

وتفيد المادة الإثنوجرافية إلى ارتباط الخلاص بكثير من الممارسات التي تساعد على خصوبة المرأة .

لاعتقادهم إن استخدام الخلاص يجعل المرأة العقيم في حالة انفعال كامن مما يساعدها على التبويض كما يعتقد أن الرحم والجسم يغيروا من خلاص المرأة الأخرى فتحمل .
من تلك الممارسات أن تجلس المرأة إلى لا تنجب على الخلاص فور نزوله وتجعل حرارته تدخل في جزئها الأسفل ويفضل أن تكون السيدتان أقارب حتى يسمح لها بحضور الولادة التي تقتصر على المقربات من الأم وكذلك خوفا من إصابتها بالحسد إذا كانت غريبة وعن ارتباط الجلوس على الخلاص بحدوث الحمل ترى أغلب المبحوثات (الأميات) "أنه يجعل جسم الواحدة تغير " ومن أقوال المبحوثات (أميات) " قريتي أتجاوزت قبلي ومعلمتش ، ولما جيت أولد أخذت خلاص بنتي وقعدت عليه وحبلت بعدها بشوية " "يعكوا أضمه (بأخذوا قطعة صغيرة) من الحبل السري وتلبسه زي الصوفة " " الواحدة اللي ما بتخلفش تاخذ قطنه فيها دم الخلاص وتضعه في سفرها (رحمها) "

وعلى الرغم من العديد من الآراء التي تؤيد الاعتقاد أن الخلاص يمنح المرأة الخصوبة إلا أن البعض منهن ذكرن أن هناك العديد من الحالات فعلت ذلك ولم تحمل .
وبالنسبة للمبحوثات من المتعلقات فقد استكرن تلك الممارسات على الرغم من علمهن باستخدامها في العائلة أو المعارف وقد أجمعن على أن أفضل وسيلة لعلاج مشاكل الخصوبة سواء عقم أو تأخر حمل أو إجهاض متكرر هو الذهاب إلى الطبيب وإجراء التحاليل والأشعات اللازمة وتقول إحدى الإخباريات " عمتي (أخت الزوج) قعدت على خلاص سلفتها سبع مرات وفعلا تم الحمل ، وطلبت من مرات أبنتها ما بتخلفش تقعد على خلاص مرات ابنتها اللي لسه والدتها لكنها مارضتش أبدا لأنها متعلمة "

كما يتضح الاختلافات بين كل من المتعلقات والأميات في طرق التخلص من الخلاص ، حيث تحرص أغلب المبحوثات من الأميات على التخلص منه في مياه جاربة ولا بد أن ترميه أخت الوالدة أو أمها الخلاص وهي تضحك حتى يكون الطفل بشوش الوجه ،

والمياه الجارية حتى يطول عمره . ومن الأقوال المتواترة " اللي خلاصه يترمي في الميه جرحه يخف على الميه واللي تدفنه في التراب جرحه يغيب

كما يعتقد إن الرمي في البحر يمنع استخدامه في إيذاء الأم أو الطفل من قبل إحدى السيدات التي تريد إيذاءهم .

وتحرص بعض العائلات الريفية على دفن الخلاص في الأرض ومعه مسمار وكيس ملح لمنع رائحة التعفن وغالبا ما يدفن على عتبة مكان يشر بمستقبل زاهر لطفلهم مثل عتبة مدرسة أو كلية "علشان يطلع متعلم ويحب العلام " ، أو على عتبة صائغ أو صيدلية لاعتقادهم إن مستقبله يتأثر بهما .

وقد يفضل البعض دفنه على عتبة البيت حتى يجلب الرزق لأهله ، ولا يترك الخلاص في الشارع حتى لا يأكله كلب فيموت الطفل

وبالنسبة لأغلب المتعلمات تتم ولادتهن في المستشفى أو لدى الطبيب الخاص ، ولم يبدن اهتمام للاحتفاظ بالخلاص والقلة منهن فقط تري ضرورة أخذه ليتم دفنه تحت الأرض لأنه سنة .

الخصوبة وتنظيم الأسرة

يهتم التراث الشعبي بالخصوبة ، ولا يذكر شيئا عن فكرة تنظيم الأسرة ، ذلك أن كثرة الإنجاب من القيم الاجتماعية التي لازالت سائدة في المجتمعات التقليدية فهي دليل علي أنوثة المرأة التي تكسب مكانتها في المجتمع الريفي كامرأة منجبة ، كما أنها دليل علي رجولة الرجل ، كما أنها تتفق والاتجاه الروحي الذي يسود القرية المصرية مثل " الأولاد أحباب الله " ، " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " ، " ربنا ما خلقش حد ونسائه " ، " اللي خلقهم برزقهم " . ومما لاشك فيه أن المأثورات الشعبية المرتبطة بالخصوبة من العوامل الهامة المؤثرة في شخصية الإنسان الريفي ومن ثم في سلوكه الإنجابي .

كما أرجع الباحثون عامة ارتفاع نسبة الخصوبة في شمال أفريقيا ومجتمعات الشرق الأوسط إلى الدور الذي تقوم به المعتقدات الدينية والثقافة الشعبية حيث إنجاب الأطفال من النعيم المرغوبة في تلك المجتمعات مثل امتلاك الثروة .

معظم الأبحاث التي تناولت الخصوبة ، كانت بغرض بحث النمو السكاني ومدى انتشار وسائل منع الحمل ، والإقبال عليها .

وعلى الرغم من أن هناك اتفاق عام على أن نسبة الخصوبة في المدن تنخفض عنها في المناطق الريفية إلا أن ضبط النمو السكاني وانخفاض الخصوبة لا يرتبط فقط بالحضرية ولكن أيضا بارتفاع المستوى التعليمي والمكانة الاقتصادية وتأخر سن الزواج (٢٩) .

كما يجب أن يؤخذ في الاعتبار العوامل الثقافية وما تحويه من قيم ومعتقدات والتكامل البنائي الذي يشمل النظم الاجتماعية والاقتصادية والقراية ونظم الضبط الاجتماعي لأغمد تكشف بوضوح لماذا يرغب بعض الأشخاص في إنجاب الأطفال بينما لا يرغب الآخرون ، مع الوضع في الاعتبار إدراكهم المعرفي لمفهوم الخصوبة (٣٠)

وتعتبر مصر من أعلى دول العالم الثالث في معدلات الزيادة السكانية ، ولا يمكن فهم هذا المعدل الكبير للزيادة السكانية إلا من خلال معالجة موضوع الخصوبة ، فالزيادة المفرطة في عدد السكان ترتبط بلا شك بمعدلات خصوبة عالية .

مما لاشك فيه أن زيادة معدلات المواليد والخصوبة في مصر بعامة وفي الريف بخاصة لا ينبع فحسب من موقف ثقالي عام يرتبط بتفضيل الأسرة الكبيرة العدد وتفضيل الذكور ، وإنما ينبع أيضا من عوامل بنائية تنصل بطبيعة الأسرة ومستواها الاقتصادي ودرجة التعليم وغيرها من المتغيرات (٣١) .

كما أن هناك عاملين هامين يؤثران في درجة التحكم في نسبة الخصوبة وهما الدوافع وأدوار الجنس ، ولذا فإن تخفيض نسبة الخصوبة يرتبط بتوافر دافع الزوجين لهذا ، ففسي مجتمع يفضل الأطفال سواء من قبل الرجال أو النساء ، وخاصة النساء اللاتي تعد الأطفال مصدر لامتلاك القوة وتعزيز لمكانتهن عند الزوج ، ولاشك أن أغلب النساء في الثقافة العربية بصفة خاصة يشتركن في الاهتمام بالخصوبة والقدرة على الإنجاب لارتباطها بهويتهم الأنثوية (٣٢)

ولاشك أن التعليم يساعد على إيجاد الوعي نحو اتجاهات تنظيم الأسرة وتمتية موقف ملامم ، ولذا فإن الاستثمارات الضخمة للقضاء على الأمية جديرة بالثقة لأنها لا ترفع فقط مستوى المعرفة بل إنها تحدث تغيرا في الاتجاه أيضا (٣٣)

كما أكدت دراسة Lee Rainwater في كتاب عن منع الحمل والخصوبة بعنوان الفقراء وإنجاب الأطفال ، أن تعليم الزوجة أكثر ارتباطا بحجم الأسرة ، وأنه كلما ازداد التعليم فإن متوسط حجم الأسرة يصبح أصغر وأن المتعلقات تعليم متوسط لديهن أسر تضاعف في حجمها أسر المتعلقات الجامعيات (٣٤).

ولقد أظهرت الدراسة التي قامت بها علياء شكري عن المرأة في الريف والحضر ، أن المرأة المتعلمة هي أكثر الأمهات قدرة علي التحكم في ضبط خصوبتها ، وهو أمر يرجع في جانب منه إلي التعليم نفسه ، ولكنه يرجع في الجانب الاعظم الى طبيعة النشاط الذي يفرضه التعليم على المرأة وطبيعة الوضع المتميز الذي تحظى به داخل المجتمع المحلي خاصة المجتمع الريفي ، وبالرغم من صدق هذا الافتراض التام إلا ان الدراسة قد أكدت أيضا على ان هناك بعض الظروف التي قد تعترض قدرة المرأة المتعلمة على تحقيق ما تصبو اليه من إنجاب عدد قليل من الاطفال . من أهم هذه الظروف تدخل الحماة والاقارب عندما تكون الزوجة خاضعة لسيطرتهم داخل وحدة معيشية واحدة (٣٥).

وتعد عملية العقم من الوسائل الأساسية لمنع الحمل لأنها تعني إنهاء القدرة على الإنجاب للزوجين ، وقد توصلت إحدى الدراسات المسحية القومية أن ٩٠% من الأزواج في سن إنجاب الأطفال انتهت خصوبتهم بهذه الطريقة ومن بينهم ٩٠% من تلك الحالات تمت على الزوجة (٣٦) . وقد يرجع إجراء عملية العقم للزوجة إلى أنه في حالة الانفصال بين الزوجين فإن الأطفال غالبا ما يضموا للزوجة ، وإن الزوج قد يرغب في إنجاب أطفال من زوجته التالية (٣٧)

إن توافر وسائل تنظيم الحمل منذ عام ١٩٧٤ ساعد على إتاحة الفرصة للمرأة لتخطيط حياة أسرتها .

وبجانب الوسائل التكنولوجية لتنظيم الحمل هناك ممارسات شعبية لمنع الحمل أو تأجيله منها إذا أرادت الأم الحامل ألا تلد أطفالا لفترة معينة، تأتي ببذور نبات الخروع ، وعقب الولادة تاكل واحدة إذا أرادت ألا تحمل لمدة عام ، واثنين إذا أرادت ألا تحمل لمدة عامين وهكذا ، ويعتقد أن لهذه الطريقة فاعلية شديدة ، وإذا كانت امرأة تحمل ضغينة لامرأة أخرى تمنى ألا تنجب فإنها تلمس لها بعض بذور الخروع في طعامها مما يجعلها غير قادرة على الإنجاب (٣٨)

ومن المعتقدات السائدة في المجتمع المصري والمربطة بالإنجاب وتلعب دورا بارزا في الزيادة السكانية المعتقدات المرتبطة بالإنجاب كقيمة أساسية والمعتقدات المتعلقة بمكانة المرأة الولود أعلي من قيمة المرأة العقيم ، والتصورات القائمة في أذهان الريفيين عن قيمة الأولاد الذكور وتفضيلهم عن الإناث والقيم الدينية الراسخة عن الغنجاب بأن الأطفال زينة الحياة الدنيا وأهم أحباب الله-. بالإضافة إلى الميراث الذي يعد من المسائل الرئيسية التي يعول عليها كثيرا في كثرة الإنجاب ، وارتفاع مكانة الولد الذكر الذي يرث دائما ضعف الأنثى " للذكر مثل حظ الأنثيين " ولذا تفكر وتحرص كل أسرة علي أن يكون لديها مولودا ذكرا للحفاظ علي ثروة الأسرة . ومن الجدير بالذكر أن هذه القيم وتلك التصورات تعد هي المحرك الأساسي للسلوك الإنجابي ، وتبدو مجسدة في كثير من الأفعال والممارسات لدى الأفراد في مختلف القطاعات المجتمعية ، وذوى المستويات الاجتماعية المتباينة . ولا نبالغ إذا قلنا أن هذه تعد من المحددات الأساسية للسلوك الإنجابي ، والتي تلعب دورا أساسيا في عملية تنظيم الأسرة ، إذ يتوقف على فهمها ودراسة مدلولاتها نجاح تلك البرامج أو فشلها (٣٩).

ومن الملاحظ بالنسبة للمبحوثات ارتفاع نسبة خصوبة الأميات عن المتعللمات حيث نجد متوسط عدد الأبناء لأغلب المبحوثات المتعللمات مابين طفلين إلي أربع أطفال وبالنسبة للأميات من أربع إلي ستة أطفال ، كما من الملاحظ إن الرغبة في إنجاب الولد قد يؤدي إلي تكرار الحمل والإنجاب ، وقد تكرر المرأة الحمل عدة مرات علي الرغم من إنجابها للولد حتى يكون له أخ يسانده ، ومن أهم أسباب تفضيلهم للولد إنه امتداد للعائلة ،

ويمكن الاعتماد عليه وقت الشدة ، ولمساعدة والده في الأرض . إلا أن تزايد الاتجاه نحو المساواة بين الولد والبنت خاصة فيما بين المتعلمات وهناك حالات عديدة اكتفت الزوجة ببيتين أو ثلاثة علي الأكثر ، وأهم الأسباب التي ذكرتها المبحوثات لعدم تفضيل الولد أن البنت أصبحت مثل الولد في التعليم والعمل وقد تتفوق عنه أحيانا ، كما أن البنت تعلون أمها وهي سند لها الكبر والمرض ، بالإضافة إلى قناعتهم إن كل من الولد والبنت نعمة من الله يهب لمن يشاء ذكور ويهب لمن يشاء إناث .

أما بالنسبة لاتجاه المبحوثات لتنظيم الأسرة فعلي الرغم من اقتناع كل من الفتيين بفكرة تنظيم الأسرة واستخدام الوسائل المتعددة لمنع الحمل سواء الحبوب أو اللولب أو الحقن واتفقن علي رفض الزوج استخدام أي وسيلة لمنع الحمل من خلاله ، فهناك بعض الاختلافات بينهم من حيث عدد الأبناء التي يبدأ التفكير في استخدام وسائل تنظيم الأسرة وأسباب ذلك ، بالنسبة لفئة المتعلمات ذكرت أغلب المبحوثات بعد الطفل الثاني ، إذا كانا ولد وبنت ، وبعد ثلاثة في حالة إنجاب جنس واحد سواء ذكور أم إناث . وأهم الأسباب هي حاجتهم للرعاية والتوجيه السليم ، وعدم توفر الوقت والجهد لتربية أكثر من اثنين أو ثلاثة وخاصة مع عمل المرأة .

أما بالنسبة لأغلب المبحوثات الأميات فإن عدد الأبناء التي تفكر بعدها في تنظيم أسرهما بعد الطفل الرابع أو الخامس ومن أسباب استخدام وسائل منع الحمل هي مرض الأم أو حاجتهم إلى مصاريف كثيرة لا يقوى عليها الأب ، أما اللاتي رفضن فكرة تنظيم الأسرة وأغلبهن من الأميات أما لأسباب دينية وأن الأولاد نعمة من الله ، وكل مولود يحتاج برزقه ، أو الاقتناع أن الأولاد عزوة وسند عند العجز والكبر .

النتائج العامة للدراسة :-

- ١- لقد كشفت الدراسة عن أن القرية المصرية لازالت غنية بعناصر التراث الشعبي وخاصة تلك المتعلقة بالقيم الاجتماعية والروحية ، أو التي تؤدي وظيفة في المجتمع ، وفيما يتعلق بالممارسات الشعبية المرتبطة بخصوبة المرأة ، فإن إستمراريتها يرجع إلى ارتباطها بقيم الإنجاب ، وخصوبة المرأة وارتباطها بارتفاع مكانة المرأة المنجبة في المجتمع الريفي عن المرأة العقيم ، كما أنها وسيلة لتحقيق رغبة المرأة العقيم والمحيطين بها في الإنجاب .
- ٢- أن المادة الإثنوجرافية لمجتمع البحث غنية بالممارسات الشعبية والتي أكثر انتشارا بين النساء الأميات ويرجع ذلك بجانب قلة الوعي الصحي والمعتقدات الشعبية المرتبطة بها ، أيضا هي متاحة لمن في أي وقت بالقرية سواء عن طريق المشايخ أو القابلة أو النساء كبار السن أو حتى حالات الولادة التي يستخدم الخلاص في بعض الممارسات في أغلب الأوقات ، بالإضافة إلى ذلك رخص تكاليفها عن الذهاب إلى المستشفى أو الطبيب وقد يحتاج إلى تحاليل وأشعات تتطلب مصاريف ومبالغ لا تقدر عليها
- ٣- أن القيود والمحرمات التي تفرض على العروس والسيدة حديثة الولادة قبل مرور شهر عربي يعكس الخوف من تعرض أي منهما للكسبة وهي تعني في مجتمع البحث تعرض المرأة لبعض الأشخاص أو الأشياء التي من شأنها تعوق حملها وتفقد حيويتها ولذا فهناك الكثير من الممارسات الشعبية التي تمارس لفك الكسبة .
- ٤- كما أوضحت الدراسة تزايد الاتجاه نحو اللجوء إلى الطبيب أو المستشفى للحالات العقم والإجهاض وحتى متابعة الحمل والولادة وخاصة مع نجاح العلاج الطبي لتلك الحالات . وقد ساعد على ذلك القرب من المدينة وارتفاع نسبة التعليم في القرية بصفة عامة والمرأة بصفة خاصة ، كما ساعد انتشار وسائل الاتصال علي نشر الوعي الصحي .

٥- ولقد كشفت الدراسة عن ارتباط كثير من الممارسات بالاعتقاد النفسي في قدرتها علي منح الخصوبة ، كما أن بعض من تلك الممارسات تصيب المرأة بحالات نفسية سيئة وخاصة المتعلقة بالميت (العسل والتخيطية وفتح القبور) ، كما تؤدي البعض منها إلي الإصابة بالمرض أو الغثيان وخاصة المرتبطة بالخلاص واضطرار المرأة العقيم الجلوس علي أو أخذ قطعة صغيرة منها واستخدامها كالبوس يوضع في الرحم . وكذلك فشل الشيخ أو الشخة في علاج كثير من الحالات ، علي الرغم مما يشاع من قدرته علي علاج حالات مشابهة ، قد يكون للإيماء النفسي دورا فيه .

٦- كما تبين أن هناك بعض الاختلافات بين المبحوثات الأميات والمتعللمات فيما يتعلق بالممارسات الشعبية والعلاج الطبي فبينما تلجأ الفئة الأولى إلي الممارسات الشعبية وبعد فشلها تلجأ إلي الطبيب ، فإن الفئة الثانية تلجأ إلي الطبيب وإذا لم يقدم لها أسباب عدم الإنجاب أو لم يجد جدوى من العلاج الطبي فقد توجه إلي بعض الممارسات والتي تلعب الأم أو الحماة دورا هاما في إقناعها بمجدواه .

٧- ولقد أوضحت الدراسة أنه علي الرغم من ارتفاع نسبة الخصوبة بين المبحوثات الأميات عنها بين المتعللمات إلا أن القرية تشهد إقبال متزايد نحو استخدام وسائل تنظيم الأسرة وإن كان الاختلاف بينهما في الفترة التي يتخذ فيها القرار وكذلك في عدد الأطفال المناسب حيث نجد المتعللمات يفضلن تنظيم الأسرة بعد الطفل الثاني أو الثالث ، بينما أغلب الأميات يفضلن تنظيم الأسرة بعد الطفل الرابع أو الخامس وقد يلعب تفضيل إنجاب الذكور دورا في زيادة النسل نظرا لتكرار الحمل والإنجاب في حالة إنجاب المرأة للإناث ، وحتى إذا أنجبت ولد فالها تكرر الحمل حتى لا ينشأ وحيدا . ولاشك أن عناصر التراث الشعبي المرتبطة بخصوبة المرأة وارتفاع مكانتها عن المرأة العقيم أسهم في الزيادة السكانية ، لما للمأثورات الشعبية من تأثير في الوجدان وبالتالي علي سلوكه الإنجابي .

مراجع البحث:-

1-Kay, Margarita ; Anthropology of health ; The Mosby company ; Sain Louis ; U.S.A. 1978 ;p.7 .

٢- فوزى العتيل ؛ الفولكلور ماهو ؟ دراسات في التراث الشعبي ؛ دار المسيرة ؛ القاهرة ؛ ١٩٨٧ ؛ ص ١٩ .

٣- صفوت كمال ؛ مناهج بحث الفولكلور العربي بين الأصالة والمعاصرة ؛ عالم الفكر المجلد السادس ؛ العدد الرابع ؛ الكويت ؛ ١٩٨٦ ؛ ص ٢٠٢ .

٤- المرجع السابق ؛ ص ٢٠٣ .

٥- الجهاز المركزي للتعبئة والأحصاء لمحافظة الدقهلية ١٩٨٦ .

6-Mosby s Medical Encyclopedia ; Copyright © ; The Learning Company Inc. 1997. (Excerpted) .

٧- سيرروى كالن ؛ عالم يفيض بسكانه ؛ عالم المعرفة ؛ العدد ٢١٣ ؛ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ؛ الكويت ؛ سبتمبر ١٩٩٦ ؛ ص ١٨٥-١٨٦ .

٨- نجيب ميخائيل ؛ مصر والشرق الأدنى القديم ؛ مؤسسة المطبوعات الحديثة ؛ القاهرة ؛ ١٩٥٩ ؛ ص ٣٤٦ .

٩- يوليوس جيار ولويس ريتز ؛ الطب والتحنيط في عهد الفراعنة ؛ تعريب انطوان ذكري ؛ المتحف المصري ؛ القاهرة ؛ لا توجد سنة للنشر ؛ ص ٤٩ .

١٠- نجيب ميخائيل ؛ مرجع سابق ؛ ص ٣٤١ .

١١- أحمد إسماعيل النعيمي ؛ الآلهة الإناث في الموروث الأسطوري والشعري قبل الإسلام ؛ مجلة الفنون الجميلة ؛ العدد التاسع عشر ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ؛ القاهرة ؛ ١٩٨٧ ؛ ص ٨ .

١٢- وينفريد بلاكن ؛ الناس في صعيد مصر (العادات والتقاليد) ؛ ترجمة أحمد محمود ؛ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ؛ القاهرة ؛ ١٩٩٥ ؛ ص ٧٨ .

13-Alexander , Alland ; Adaptation in Cultural Evolution ; Columbia University press ; N.Y. 1970 ;p.154 .

14- Mosby s Medical Encyclopedia ; Op. Cit

١٥-جيلير دوران ؛ الأنثروبولوجيا (رموزها وأساطيرها) ؛ ترجمة مصباح العمير ؛
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ؛ بيروت ؛ ١٩٩١؛ ص ٨٣ .

١٦-محمد عبده محجوب ؛ أنثروبولوجيا الزواج والأسرة والقرابة ؛ دار المعرفة الجامعية ؛
الإسكندرية ؛ ١٩٨٥؛ ص ١٦٤ .

١٧-محمد الجوهري وآخرون ؛ دراسات في علم الفولكلور ؛ دار المعرفة الجامعية ؛
الإسكندرية ؛ ١٩٩٢ ؛ ص ٢٣٤ .

18-Kaur, Surjit ; Family Planning in two Industrial units ;
Sterling Publisher Pvt. , Ltd. India . 1978 ; p . 14 .

١٩-فوزية دياب ؛ القيم والعادات الاجتماعية ؛ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ؛
القاهرة ؛ ١٩٦٦؛ ص ٢٤٥ .

٢٠-محمد عبده محجوب ؛ أنثروبولوجيا الزواج والأسرة والقرابة ؛ ص ١٧٢ .

21-Dodge , John & Kasch , Haward ; "Marriage" in
Encyclopedia Britannia ; Vol . 14 ; William Benton Publisher ;
London ; 1964 ; p.946 .

٢٢-يوليوس جيار ولويس ريتز ؛ الطب والتحنيط في عهد الفراعنة ؛ مرجع سابق ؛
ص ٤٨ .

٢٣-علماء الحملة الفرنسية ؛ وصف مصر (المصريون المحدثون) ؛ ترجمة زهير الشايب ؛
مكتبة مدبولي ؛ القاهرة ؛ ١٩٨٩؛ ص ٥٧ .

٢٤-أحمد رشدي ؛ الأدب الشعبي ؛ الطبعة الثالثة ؛ مكتبة النهضة المصرية ؛ القاهرة ؛
١٩٧١؛ ص ٢٤٦-٢٤٧ .

٢٥-وينفريد بلاكن ؛ الناس في صعيد مصر (العادات والتقاليد)؛ مرجع سابق ، ص ٨١ .

26- Kassler, Evelyn ; Women :-An Anthropological View ; Holt
Rinehart and Winston ; U. S. A . ; 1979; p.73 .

27-Mosby s Medical Encyclopedia ; Op . cit . .

٢٨- محمد الجوهري ؛ دراسة المعتقدات الشعبية (الجزء الثاني) ؛ دار المعارف بمصر ؛
١٩٨٠ ؛ ص ٥٦٣-٥٦٤ .

29-Bois, Cora ; Human fertility ; and population problems ;
Schenkman Publishing Company , Inc . U.S.A. 1993 ; p.258.

30- Kay , Margarita; op. Cit

٣١- علياء شكري ؛ المرأة في الريف والحضر ؛ دار المعرفة الجامعية ؛ الإسكندرية ؛
١٩٨٨ ؛ ص ٢٧٥ .

32-Sticher, Sharon & Parpart , Jane ; Women Employment and
the Family in International Division of Labor ; Macmillan press
Ltd. London ; 1990 ; p.189 .

33-Nye,Ivan & Berado, Felix; The Family ; Macmillan
Publishing Comp. Inc.; N.Y. p.356 .

Balakrishna ; p.125

34-Raianwater , Lee ; Poor get children ; Quadrangle Books;
Chicago ; U.S.A. ; 1960 ; p.358 .

35-Freedman , Ronald ; p.26 .

36-Nye Ivan ; Op. Cit. .p.356

٣٧- وينفريد بلاكن ؛ مرجع سابق ؛ ص ٨٥ .

38-Bobhine , Jack Nobles & Flemming , Margaret ; Sociology ;
Macmillan press ; London ; 1983 ; p.71.

٣٩- محمد الجوهري وآخرون ؛ دراسات في الفولكلور ؛ مرجع سابق ؛ ص ٢٣٢ .

[illegible]

THE MOTIF OF MUTILATION OF CHARACTER AND SETTING IN *THE ALEXANDRIA QUARTET*

AMANI TAWFIK
UNIVERSITY OF ALEXANDRIA*

Lawrence Durrell makes extensive use of the motif of mutilation in *The Alexandria Quartet*. Taken at face value, the number of cases of disfigurement destroys the verisimilitude of the work. For, apart from a large number of minor characters who suffer from physical deformity or handicap, three of the main female characters in the *Quartet* have different types of mutilation: Justine suffers from a stroke which leaves her with a drooping eyelid; smallpox destroys the good looks of Leila Hosnani; and Clea loses her hand in a diving accident. Male characters in the *Quartet* are similarly mutilated. All three Hosnani men are a case in point: Faltheus is paralysed; his son Narouz is born with a harelip; and his other son Nessim loses a finger and an eye in a bad air raid.

*This paper was first presented at the conference titled On Miracle Ground IX, held by the International Lawrence Durrell Society in collaboration with the Faculty of Education, University of Alexandria, in Alexandria, Egypt, 23-27 June 1996.

The recurrence of the cases of mutilation cannot be taken as coincidental, especially when similar disfigurement characterises the topography of Alexandria in the *Quartet*. The city is geographically divided into two contrasting areas. On the one hand there is the luxurious dwelling area of the Cosmopolitan population, with the Cecil Hotel, Pastroudi's, the summer residence of the British ambassador, and the magnificent houses of the rich social elite as its most prominent features. On the other hand there is the squalid and foreboding Arab quarter, lurking as a wild beast in the slums behind the fashionable streets, and visited by only the most adventurous and curious of Europeans. This quarter is populated by the poverty stricken, superstitious and ignorant Moslem population who are not just socially but also racially identified from other Alexandrians, whether foreigners or the local intellectual circle of Copts and Jews who are described as 'the brains of Egypt'(M108). The Arab area of the city, with its leprosy, prostitution and witchcraft represents a cancerous tumour in the physiognomy of Alexandria, which is at first under control then gradually grows out of safe bounds.

The mutilation of both setting and character in the *Quartet* should be read as purely symbolic. The disfigurement of the city symbolises the cultural deterioration which according to Durrell prevailed with the

decline of British colonial presence in Egypt after the 1936 Treaty. The expanding Arab quarter is a side effect of the weakening foothold of the British in a city which was always considered an 'extension' (Saad-El-Din & Cromer 192) of Europe across the Mediterranean. In the same manner, character disfigurement in the *Quartet* is a symbolic projection of the consequences of the tension between the declining forces of colonialism, which to the author's mind represented enlightenment and civilisation, and the emerging Arab nationalism, which in contrast he considered philistine and barbaric.

The *Quartet* is therefore an essentially political, colonial work. The deterioration of British power in Egypt from 1936 onwards must have been of great significance to Durrell who was stationed in Egypt as 'an information officer for the British government' (Moore, Introduction xii), and whose function it was to serve British interests in Egypt. Durrell's politics were highly colonial; he described himself as 'a typical colonial at heart' (Moore 156). The *Quartet* itself could have been written as part of British propaganda against the independence of the colonies. Even though towards the end of the *Quartet* Durrell seems to acquiesce to the doom of the British in Egypt, his acceptance of the new Arab nation is a sad one. His frustration is clear in the sympathy with which he treats such characters

as grandfather Maskelyne who represents the climax of British colonialism in their victory in 1882 in ElTal ElKabeer. and his grandson, the war office employee with whose death the tradition of the British empire comes to a close.¹ Egypt is at the end of the *Quartet* handed over to a new conqueror, and nothing can be done about it. Durrell uses the motif of mutilation of character and of setting to express his frustration at the political, cultural and social changes that were taking place in the country at the time.

As far as the mutilation of setting is concerned, Alexandria is frequently described in the *Quartet* as a place that had lost its glory. In the opening page of *Justine*, Durrell describes his once 'beloved Alexandria' as 'dust-tormented' and comments 'flies and beggars own it today.'(J. 11) He clearly depreciates the effect of Islam as an alternative for Western civilisation in Alexandria, which in consequence became a sad place: 'The symbolic lovers of the free Hellenic world are replaced by something different, something subtly androgynous, inverted upon itself.'(J 12). The Orient, according to Durrell, cannot understand the Western culture of the city. Unlike the rest of Egypt, dominated by what he describes as a bleak faith 'which renounced worldly pleasure',

... Alexandria was still Europe - the capital of Asiatic Europe, if such a thing could exist. It could never be like Cairo where [one's] whole life had an Egyptian cast, where [one] spoke ample Arabic; here French, Italian and Greek dominated the scene. The ambience, the social manner, everything was different, was cast in a European mould...(M 147)

This Western quality was quickly disappearing. To Durrell's mind Alexandria, by its geographic and cultural proximity to Europe, should have been spared the cultural decline that accompanied the growth of Arab power. In the wake of the Second World War, however, the city was showing signs of cultural submission. Durrell describes the situation in *Justine* in words that are pregnant with racial connotations:

This city has been built like a dyke to hold back the flood of African darkness; but the soft-footed blacks have already started leaking into the European quarters. (J 58)

In *Clea*, Darley, with some distaste, finds Moslems after the war in possession of the city, which has in consequence become mediocre:

And here, strolling in the foreground ... with The insolence of full possession came plum-blue Ethiopians in snowy turbans, bronze Sudanese with puffy charcoal lips, pewter skinned Lebanese and Bedouin with kestrels, woven like brilliant threads upon the profiles of monotonous blackness of

the veiled women, the dark Moslem dream of the hidden Paradise, which may only be glimpsed through the key-hole of the human eye.(C 28)

In the same novel, he anticipates that Alexandria will fall again into 'centuries of dust and silence which Amr had imposed upon it' (C 29) In this respect, he agrees with E.M. Forster who believed that Islam had swept Alexandria 'physically and spiritually into the sea'. (Forster 69) Durrell makes the same point in his introduction to Forster's guide book of the city. 'With the arrival of Amr and his Arab cavalry', he wrote, 'the famous resplendent city dived into oblivion.'² He anticipated the same sort of decadence occurring again after the Second World War with the decline of Western authority and the growth of Arab influence in Egypt. Alexandria, according to Durrell, has become 'a moribund and spiritless backwater ... some great public urinal'(C 88). The sad extinction of its Greek civilisation is symbolically personified in the figure of the 'old Greek cobbler who had been caught in a bombardment and mutilated' (C 205), and again in the corpses of the Greek sailors whom Clea discovers at the bottom of the sea.

The Arab town in the *Quartet* is a symbolic symptom of the cultural malaise that Durrell believed would in time infect the rest of the city. His description of the Arab quarter stresses the filth, decrepitude and disease which appear so bizarre and shocking to

Europeans and which Durrell feared would soon become characteristic of the whole of Alexandria:

Streets that run back from the docks with tattered rotten supercargo of houses, breathing into each other's mouths, keeling over. Shuttered balconies swarming with rats, and old women whose hair is full of the blood of ticks. Peeling walls leaning drunkenly to east and west of their true centre of gravity. The black ribbon of flies attaching itself to lips and eyes of the children - the moist beads of summer flies everywhere; ... The smell of the sweat-lathered Berberinis, like that of some decomposing stair-carpet. And then the street noises: shriek and clang of the water-bearing Saidi, dashing his metal cups together as an advertisement, the unheeded shrieks which pierced the hubbub from time to time, as of some small delicately-organised animal being disembowelled. The sores like ponds - the incubation of a human misery of such proportions that one is aghast, and all one's feelings overflow into disgust and terror. (J 21)

Durrell uses similar images of putrefaction in his description of incidents and places in the Arab town where character and setting are portrayed as being equally mutilated. The children's brothel, for instance, is more than once described as a dark, foetid, rat infested hole; the little girls who work there seemed 'as if they had been half-eaten by the rats' (J 44). In the Mulid parades mutilation is boastfully displayed by dwarves and such freaks as Zubeida the bearded woman, five-legged

calves and two-bearded goats. Other participants inflict wounds upon themselves such as the old boy whose act it was to drive a dagger through both cheeks.³ Another sort of mutilation occurs in the circumcision booths where poor Moslem boys are circumcised for free in celebration of the Mulid. Mr. Ennayet Allah, whose name ironically means the care of God, is the quack who performs the ritual. In his booth he hangs 'lurid cartoons of the ceremony, painted and framed'; above the entrance to the booth he suspends 'a great glass jar cloying with leeches'; and more threateningly 'his two assistants stood at attention behind the ancient brass-bound shoe black's chairs with their razors at the alert'. (B 132) Durrell's description of the religious sacrifice of animals is even more portentous, and deserves to be quoted at length:

The camels of Narouz were being cut up for the feast. Poor things, they knelt there peacefully with their forelegs folded under them like cats while a horde of men attacked them with axes in the moonlight ... The animals made no move to avoid the blows, uttered no cries as they were dismembered ... Whole members were being hacked off as painlessly, it seemed, as when a tree is pruned. The children were dancing about in the moonlight picking up the fragments and running off with them into the lighted town, great gobbets of bloody meat. The camels stared hard at the moon and said nothing. Off came the legs, out came the entrails; lastly the heads would topple under the axe like statuary and lie there in

the sand with open eyes. The men doing the
axeing were shouting and bantering as
they worked. (M 121-2)

The motif of a helpless animal being hacked and disembowelled by a vulgar cold-blooded mob recurs in the *Quartet* to symbolise what Durrell felt was the disfigurement of an ancient civilisation by philistine and boorish Arabs. In *Justine* Durrell describes a sacrificial beast as a 'small delicately-organised animal'. (J 21) In the passage quoted above the camels are stoically patient and supernaturally silent. In contrast the Arab mob, children and adults alike, is noisy in festivity, and greedy for the meat of the sacrificed animal. The description of the toppling head of the camel recalls the incident of the decapitated body of the Swedish diplomat's wife which is discovered on the Matrouh road. The head is eventually found as it topples down from the apron of one of the Bedouin women, who were all the time denying any knowledge of the murder. Arabs in the *Quartet* are therefore seen as morally depraved barbarians, capable not only of disfiguring the city and committing atrocious murder, but also of destroying a whole civilisation.

Major characters in the *Quartet* who by their wealth, intellect or Western origin inhabit the elegant quarter of the city also suffer from mutilation as a result of the changing political and social scenes in

Alexandria in the forties. The growth of Moslem power at the time not only threatened the interests of the foreign community who were now at the mercy of an inimical Arab government, but also the interests of Copts who felt they were losing the political and social distinctions they had enjoyed for long. In the *Quartet* the Hosnanis are representatives of the Copts of Egypt. Falthaus and his two sons Narouz and Nessim feel deprived of their rights as the only true 'descendants of the Pharaohs, children of Ra, offspring of St. Mark.' (M p.125) Durrell uses the motif of mutilation to describe their predicament. Deformity in their case symbolises their loss of power

Falthaus Hosnani is rich and intelligent but frustrated by his paralysis, which illustrates his feelings as an oppressed Copt. He clearly blames his frustration on the British, who used the politics of divide to conquer between Moslem and Copt in order to maintain their supremacy in a country where they were no longer welcome. He tells the future British ambassador:

There were never any differences between us and the Moslems in Egypt before they came. The British have taught the Moslems to hate the Copts and discriminate against them ... When the British took control of Egypt the Copts occupied a number of the highest positions in the State. In less than a quarter of a century

almost all the Coptic Heads of Departments
had disappeared.(M 41-3)

Falthaus's helplessness and loss of control are not only symbolised by his physical handicap, but also by his cuckolding. He tolerates his wife's love affair with the British Mountolive so as not to risk losing her altogether. His social and physical impotence affect him psychologically; he has emotional fits and frequently contemplates suicide.

Narouz Hosnani inherits from his father the same sense of injustice and deep-seated anger at his powerlessness. His Coptic ancestry and his close attachment to the land make him an incarnation of 'the true Egypt underlying the fly-tormented airless towns'. (M 118)⁴ His harelip, however, debars him from public life, and he is forced to live constantly at home in Karm Abu Girg where he manages the family estate and acts as a personal slave to his father. His physical deformity, symbolising his creed, incapacitates him from leading a full life. This leaves a blemish on his psyche: he is inordinately violent and, because of his little education, he seeks power in resorting to black magic and the hallucinations of the three-breasted seer Taor and the Magzoub. Narouz is also a passionate preacher, and this becomes a means of unleashing his sexual and emotional frustration. For, Narouz's deformity affects his love life as well, and Clea is simply

disgusted at his passion for her. Not only is Narouz victimised at birth by his deformity, which symbolises a faith to which the British have become hostile, but also in the end by the corrupt Memlik Pasha who sacrifices him in order to spare his more lucrative brother. In this respect Narouz is symbolically identified with the quiet and patient sacrificial camels of the Mulid celebration. Like them, on the morning of his murder he runs to his horse 'noiselessly', and rides out to the fields 'slowly'. Under the tree where he is treacherously attacked he sits 'as immobile as an equestrian statue ... his arm carved in the position of a fisherman about to make a long cast. So he waited, smiling. His patience was endless.' (M 305)⁵ The slaughter of the camels and the murder of Narouz are also similar in that they both cause a metaphoric disfigurement of the land. In the case of the former, 'a huge soft carpet of black blood spread into the dunes ... and the barefoot boys carried the print of it back with them into the township.' (M 122) Similarly, after the murder of Narouz Darley feels the 'the whole countryside of Egypt shares in [the] melancholy feeling of having been abandoned, allowed to run to seed, to bake and crack and moulder under the brazen sun.' (C 41)

Narouz's brother, Nessim, is the one who makes it into the world by his good looks, social grace, and education. However,

he still feels debarred from a full life by the British conspiracy to curtail the power of the Copts. At the beginning of his career he wants to become a diplomat but is unable to. He becomes obsessed with the belief that the Copts of Egypt have become a secret society, living 'from prayer to prayer and from bribe to bribe' (*M* 109). He is convinced that his people, like all other foreign minorities in Egypt, have little chance in a country that is becoming predominantly Moslem. Just like other foreign minorities, Copts too have become 'dispossessed foreigners':

We, the foreign communities, with all we have built up, are being gradually engulfed by the Arab tide, the Moslem tide. Some of us are trying to work against it; Armenians, Copts, Jews, and Greeks here in Egypt, ... to defend ourselves, defend our lives, defend the right to belong here only ... (*M* 199-200)

He makes it his duty to try and regain for the Copts of Egypt their rightful place on their own land. In order to effect this he joins a Coptic-Jewish alliance that aims at destroying British influence in the Middle East by creating an independent Jewish state in Palestine. 'If only the Jews can win their freedom', he believes, 'we can all be at ease. It is the only hope for us'. (*M* 199) He marries the Jewish Justine in order to win the confidence of his Jewish allies, and becomes a cuckold,⁶ like his father, for espionage purposes. The conspiracy fails, however, and

Nessim and his wife are found out by the British and the Egyptians. During the war Nessim is employed as an ambulance driver, and loses an eye and a finger in an air raid. This disfigurement signifies his loss of power: Nessim loses his social status, he is forced to become a recluse, and his wife, who was solely attracted to him by his social eminence and promising political influence, now taunts him for his irrelevance.

In the case of female characters in the *Quartet*, mutilation is used as a symbol of their sense of identity crisis, which was another of the side effects of the end of British colonialism in Egypt. The educated and foreign women of Alexandria were threatened by the changes that were happening in the city at the time: Fear, insecurity dominate them. They have the illusion of foundering in the ocean of blackness all around. (J 57-58) Their intellect now became a hindrance, making them misfits in a philistine society. In *Justine* Durrell suggests that

To be happy one would have to be a Moslem, an Egyptian woman - absorbent, soft, lax, overblown; ... Their feelings are buried in the pre-conscious ... For centuries now they have been shut in a stall with the oxen, masked, circumcised. Fed in darkness on jams and scented fats they have become tuns of pleasure, rolling on paper-white, blue-veined legs. (J 58)

The three female characters here examined are all cases of intellectual women who are closely related to Alexandria. With the cultural deterioration of the city, Justine and Leila become soulless, pathetic women, while Clea has to undergo many changes in order to be able to survive. The degeneracy of the first two characters and the alteration of the last are symbolised by physical disfigurement.

Justine is 'a true child of Alexandria; which is neither Greek, Syrian nor Egyptian, but a hybrid : a joint' (*J* p.24) Her cosmopolitan character symbolises the multiracial, multinational aspect of Alexandria, which Durrell sums up as: 'Five races, five languages, a dozen creeds' (*J* 11-12) This multiplicity is attractive to visitors of the city like Darley. However, it has the drawback of depriving both the city and Justine of individuality. They are alike 'in that they both have a strong flavour without having any real character.' (*J* p.139) As a result Justine is involved in a process of looking for an identity, a quest which is symbolised by her search for a lost daughter. Significantly, her search ends in the children's brothel, a prominent part of the Arab town, where her daughter dies of meningitis. Justine finally finds an identity, but it is one that is as hateful to Darley as the children's brothel is.

At the end of the War, Justine is put under house arrest in punishment for her involvement in the Jewish conspiracy. In her enforced exile, she suffers from a stroke which leaves her with a drooping eyelid. When Darley meets her again in the last volume after a long absence, she has lost her charm and her pride. Just as Alexandria has become more of an Arab city, Justine has become more of an Arab woman, and Darley is disgusted at the change that has come over her:

... I awoke to find her standing beside the bed naked, with her hands joined in supplication like an Arab mendicant, like some beggar woman of the streets. 'I ask nothing of you' she said, 'nothing at all but to lie in your arms for the comfort of it ... A few strokes and endearments, that is all I beg of you.' (C 53)

Justine reminds Darley of an Arab because of her begging, which is always linked in the minds of foreigners with the Arab quarter where mutilated beggars display their deformity in order to earn the charity of passersby, and where little girls who work in the brothel beg for the attention of rich foreigners. Justine is also like an Arab in her strong smell. For, before Darley arrives she accidentally spills a bottle of perfume, and the scent revolts Darley. Once again a link is established between the new Justine and the Arab element in the city, as one of the dominant features of the Arab quarter for

Darley is the way it smells. In *Clea* he walks idly in the slums to 'drink in (forever: keepsakes of the Arab town) the smell of crushed chrysanthemums, ordure, scents, strawberries, human sweat and roasting pigeons.' (C 225) In the same novel he describes the smell 'from the burning refuse heaps' of the Arab quarter as a mixture of the smell of richly spiced 'cooking meat and whiffs of baking bread from the bakeries'. (C 69)⁷ Justine, therefore, repels Durrell after her mutilation because of her intellectual and physical decadence. She loses her earlier cosmopolitan appeal just as the city does, and becomes a typical Arab.

Unlike Justine, the identity of Leila Hosnani is well-established when she first appears in the *Quartet*. She is an Egyptian Copt, the representative of the *Genus Pharaonicus*, 'the true descendants of the ancients, the true marrow of Egypt' (M 41). As a young girl she is full of hopes and dreams. Intelligent and well-read, she speaks four languages apart from Arabic, which Durrell, a typical colonial, considers an insufficient source of education: 'for nobody can think or feel only in the dimensionless obsolescence of Arabic.' (M 24-5) Leila dreams of travelling abroad to escape 'the narrow confines of Egyptian society' (M 24) symbolised by the typically Arab black veil. In her natural milieu, she suffers from an 'anaemia' of culture, (Morcos 344) and needs to find for

herself a richer and freer environment where she can become the 'new Egyptian woman'(Fraser 158),-educated, liberal-minded and free. Her dreams, however, are soon frustrated by her conventional parents, who more than anything want to see her married to a rich gentleman. She is forced to give up her ambitions and is cornered in an unhappy marriage, living as a recluse in Karm Abu Girg with a bad-tempered invalid husband; 'her life must belong to Egypt'(M 24). The frustration of Leila's aspirations thus symbolically illustrates the evaporation of the colonial dream of Alexandria as an enlightened Western city.

Leila is in a state of cultural and social deprivation when Mountolive appears on the scene and quickly becomes her lover. To her he represents English culture, sophistication, and enlightenment. Just as in the case of Justine and Darley, Leila and Mountolive separate for a long while, and do not meet again until much change has come over Leila. At the same time that Alexandria is disfigured by the encroaching Arab civilisation, Leila gets the smallpox and her face is badly disfigured. As a result, she covers her face at all times with a black veil, thus becoming a typical Arab woman. When finally she agrees to meet her old lover again, it is only to beg him to overlook Nessim's arms smuggling to Palestine. Mountolive is shocked at her change of looks and

personality. Leila has lost her pride, and just as in the case of Darley and Justine, Mountolive is disgusted at her begging:

She cried aloud: 'I implore you to help' and suddenly, to his intense humiliation, began to moan and rock like an Arab, pleading with him ... Then she showed some disposition to go down on her knees in the cab and kiss his feet. By this time Mountolive was trembling with anger and surprise and disgust. (*M* 283)

Mountolive is also disgusted at Leila's smell: 'orange water, mint, Eau de Cologne, and sesame; she smelt like some old Arab lady.'*(M* 280)⁸ Leaving her, he suddenly finds that

the whole of Alexandria, had become distasteful, burdensome, wearisome to his spirit ... In a sense she had been Egypt, his own private Egypt of the mind; and now this old image had been husked, stripped bare. (*M* 284)

He wanders in disguise into the Arab quarter and walks into the children's brothel to be attacked by the depraved supplicating children prostitutes. His meeting with the much changed Leila and his experience in the brothel end his attachment to Egypt. He decides to leave the country:

He would waste no more time upon this Egypt of deceptions and squalor ... He did not even think of Leila now ... he looked back once, with a shudder of disgust, at

the pearly mirage of minarets rising from
the smoke of the lake ... (M 295)

The mention of the minarets suggests the Moslem element that was gradually enveloping the country and which colonials such as Mountolive and Darley find distasteful. The Arab character of the city, for a long while confined to its quarter, has now become characteristic of the whole of Alexandria, which becomes a place that is very similar to the children's brothel: 'a huge orphanage' where 'everyone [is] grabbing at the last chance of life.' (C 88)

Clea too is identified with Alexandria. Returning to the city after a long absence, she is the first person Darley wants to find just as he wants to rediscover Alexandria:

... in the desultory brilliant life of the
open street it was hard not to feel like
an ancient inhabitant of the city, returning
from the other side of the grave to visit it.
Where would I find Clea? (C 65)

An old inhabitant of the city herself, Clea is the friend and confidante of many of the major characters in the *Quartet*, but she hardly has a substantial private life. Her lack of individuality explains her inability to form lasting love relationships. Even when she and Darley fall in love he writes telling her 'I enjoyed you better as a thought than as a person alive.' (C 237) Her lack of a clear-cut

personality is also the reason why she is good at personifying others; she can bring her friend Scobie back to life by imitating his voice and mannerisms. As an artist her weak identity is apparent in her frequent change of style and in her limited creative ability; she is occupied mainly with such uncreative work as the painting of death masks and the modelling of substitute organs. Clea's want of individualism affects her character as well, making her temperamental and contradictory. Her tenderness to most of her friends is counterbalanced by her rude rejection of Narouz as a lover. Her merry laugh which so much attracts Darley is offset by her moroseness, listlessness and spiritual distress, all of which are the outcome of her struggle with an identity crisis.

The last volume of the *Quartet* follows Clea's search for an identity both as a woman and as an artist, a quest which symbolises the groping of Alexandria for a national definition after the collapse of British power. Clea discards one by one the many selves she comes across, until in the end she discovers she has to be born anew. She rejects Narouz as a lover, discovers she is not fulfilled in her lesbian relationship with Justine, is anxious to be rid of her virginity which she thinks hampers her artistic ability, faces the trauma of an abortion, and finally has to come very close to death before she learns that she must let go of the past in order to find a future. In a

diving accident a misfired harpoon nails Clea's hand to a wreck which rests near the bodies of Greek sailors at the bottom of the sea. In order to save Clea's life, Darley has to hack at her hand. As Clea comes back from the dead she believes she is a better woman and a more talented artist, even though she loses her painter's hand, at the bottom of the sea. The same applies to the city with which Clea is identified. Alexandria too comes close to extinction with the Second World War, and is reborn after it as a new nation; Darley comments: 'a whole new geography of Alexandria was born through Clea.' (C 198) In this process of rebirth a significant part of the history of the city, its glorious Western past, has to be buried at the bottom of the sea, where the dead Greeks lie and where Clea loses her hand. The attempt of some Alexandrians to cling to the past is futile. This idea is symbolically implied in Clea's ironic attachment to the corpses of the Greek sailors; at first she swims close to them, gives them nicknames and makes up stories about them, then eventually she almost drowns by getting nailed down to the bottom with them. To Durrell's mind, the changes that were taking place in Alexandria were inevitable, but they were also a sad sign of cultural and moral degeneracy.

To sum up, the motif of mutilation of character and setting in *The Alexandria Quartet* is used to express Durrell's frustration

as a 'typical colonial'⁹ at the political, cultural and social changes that were happening in Alexandria after the Second World War. The *Quartet* is a political work; a requiem for the end of an empire.¹⁰ Durrell deplores the effects of the decline of Western presence in Alexandria. The Arabs who take hold of Egypt after the War are, according to Durrell, ignorant, superstitious and unenlightened. The consequences of the political change of hands in Alexandria is symbolically illustrated in the *Quartet* in the topographic disfigurement of the city as it is exemplified in the Arab quarter, so, too, the symptoms of the social unbalance, loss of power and of identity of the educated and foreign minorities in Alexandria are illustrated in Durrell's use of the motif of character mutilation. At the end of the *Quartet*, Durrell is forced to come to terms with the new Egyptian identity. His friends and acquaintances, whether foreigners or of the local elite, are dispossessed by Alexandria. In the process of conversion into an Arab culture, many of the characters in the *Quartet*, as well as Alexandria itself, are distorted. Others die tragically, and a few, Darley included, depart sadly. At the end of *Clea* Darley writes:

I doubt if I could return again to Alexandria.
I feel it fade inside me, in my thoughts,
like some valedictory mirage - like the sad
history of some great queen whose fortunes
have foundered among the ruins of armies and
the sands of time!(C 240)

- ¹ I am indebted to Roger Bowen for his colonial interpretation of the *Quartet* in his "Closing The Toy Box": Orientalism and Empire in *The Alexandria Quartet*" (See Bibliography), especially his view of the Maskelynes as representatives of the colonial tradition, and his concluding statement about the *Quartet* as an 'epitaph for a lost world'. Cf Bowen, p.17.
- ² Lawrence Durrell, Introduction to E.M. Forster, *Alexandria: A History and a Guide*. 1982. Quoted by Saad-El-Din & Cromer, p. 194. See Bibliography.
- ³ Ironically, these acts are no less violent than the deeds of elegant Alexandrians in the Carnival which takes place in the Cosmopolitan part of town. On that occasion, recounted only once in the course of the *Quartet* to serve plot rather than symbolic purposes, Toto de Brunel is murdered by driving a hat pin through his skull. If the Mulid celebrations are bizarre and fearful to Darley and other foreigners in the *Quartet*, the disguised figures who participate in the Carnival 'startle the white-robed Egyptians and fill them with alarm.' (B 160) Durrell, however, does not draw a comparison, nor does he ponder on the Carnival as a symptom of a parallel cultural malaise that the foreign elite of the city suffer from.
- ⁴ Cf Bynum, p. 84.
- ⁵ Bynum identifies Narouz with the camels because of his harelip, which he associates with the ceremonial dismemberment that precedes the initiation of a shaman. He refers to the scene of the slaughter as a symbolic reenactment of the ritual. He does not give a political reading of the connection. Cf Bynum, p. 87.
- ⁶ Weigel briefly refers to the idea of cuckoldry in relation to Nessim only in the summary he gives of the Darley-Justine affair, and describes it as 'both fantastic and calculated' (Weigel 60). See

See above, p. 4 'the smell of sweat-lathered Berberinis', (J 21)

⁸ Read makes a connection between the reunion of the two pairs of lovers without, however, relating the change in the characters of Justine and Leila to the change in the setting. To him recurrence in this respect is a structural device used for 'emphasis'. CF Read, pp. 395 and 398.

⁹ See above p.2.

¹⁰ See note, no. 1.

REFERENCES

- Aldington, Richard. "A Note on Lawrence Durrell".
In *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.
- Attiya, Aziz S. *The Copts and Christian Civilisation*.
University of Utah Press. 1979.
- Bode, Carl. "A Guide To Alexandria". In *The World Of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.
- Boone, Joseph A. "Mappings of Male Desire in Durrell's *Alexandria Quartet*: Homoerotic Negotiations in the Colonial Narrative". In *Out of Bounds: Male Writers and Gender Criticism*. Eds. Laura Claridge and Elizabeth Langland. Amherst: University of Massachusetts Press. 1990.
- Brelet, Claudine. *Twentieth Century Literature*.
Lawrence Durrell Issue. Vol. 33. Part I. Fall
1987.
- Brombert, Victor. "Lawrence Durrell and His French Reputation". In *The World of Lawrence Durrell*.
Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.
- Bowen, Roger. "Closing The 'Toy Box': Orientalism and Empire in *The Alexandria Quartet*". *Studies in The Literary Imagination*. Vol. 24. No.1.
Spring 1991. pp. 9-18.
- Bynum, Paige Matthey. "The Artist as Shaman. Durrell's *Alexandria Quartet*". In *Lawrence Durrell: Comprehending the Whole*. Eds. Julian R. Raper and Melody L. Enscoe. Columbia and

London: University of Massachusetts Press.
1995.

—
Carruth, Hayden. "Nougat For The Old Bitch". In *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.

Cox, W. D. G. "Another Letter to Durrell". In *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.

Durrell, Lawrence. *Justine*. First published 1957.
Rptd. 1964.

—————, *Balthazar*. First published 1958.
Rptd. 1968.

—————, *Mountolive*. First published 1958.
Rptd. 1970.

—————, *Clea*. First published 1960. Rptd.
1973.

Elliot, George P. "The Other Side of the Story". *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: Dutton. 1962.

Forster, E.M. *Alexandria: A History and A Guide*.
First published 1922. Rptd. 1938.

Fraser, G.S. *Lawrence Durrell: A Study*. 1968.

Kruppa, Joseph E. "Durrell's *Alexandria Quartet* and The 'Implosion' of The Modern Consciousness". *Modern Fiction Studies*. Lawrence Durrell Number. Vol. XIII. No. 3. Autumn 1967. pp. 401-416.

Levitt, Morton P. "Art and Correspondences: Durrell, Miller, and *The Alexandria Quartet*". *Modern Fiction Studies*. Lawrence Durrell Number. Vol.

Mackworth, Cecily. "Lawrence Durrell and the New Romanticism". In *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.

Morcos, Mona Louis. "Elements of the Autobiographical in *The Alexandria Quartet*". *Modern Fiction Studies*. Lawrence Durrell Number. Vol. XIII. No. 3. Autumn 1967. pp. 343-359.

Moore, Harry T. "Introduction" to *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.

———. ed. "Lawrence Durrell Answers A Few Questions". In *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.

———. ed. "The Kneller Tape (Hamburg)". In *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.

Read, Phyllis J. "The Illusion Of Personality: Cyclical Time In Durrell's *Alexandria Quartet*". *Modern Fiction Studies*. Lawrence Durrell Number. Vol. XIII. No. 3. Autumn 1967. pp. 389-399.

Saad-El-Din, Mursi and John Cromer. *Under Egypt's Spell: The Influence of Egypt on Writers in English From The Eighteenth Century*. 1991.

Steiner, George. "Lawrence Durrell: The Baroque Novel". In *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore. New York: E.P. Dutton. 1962.

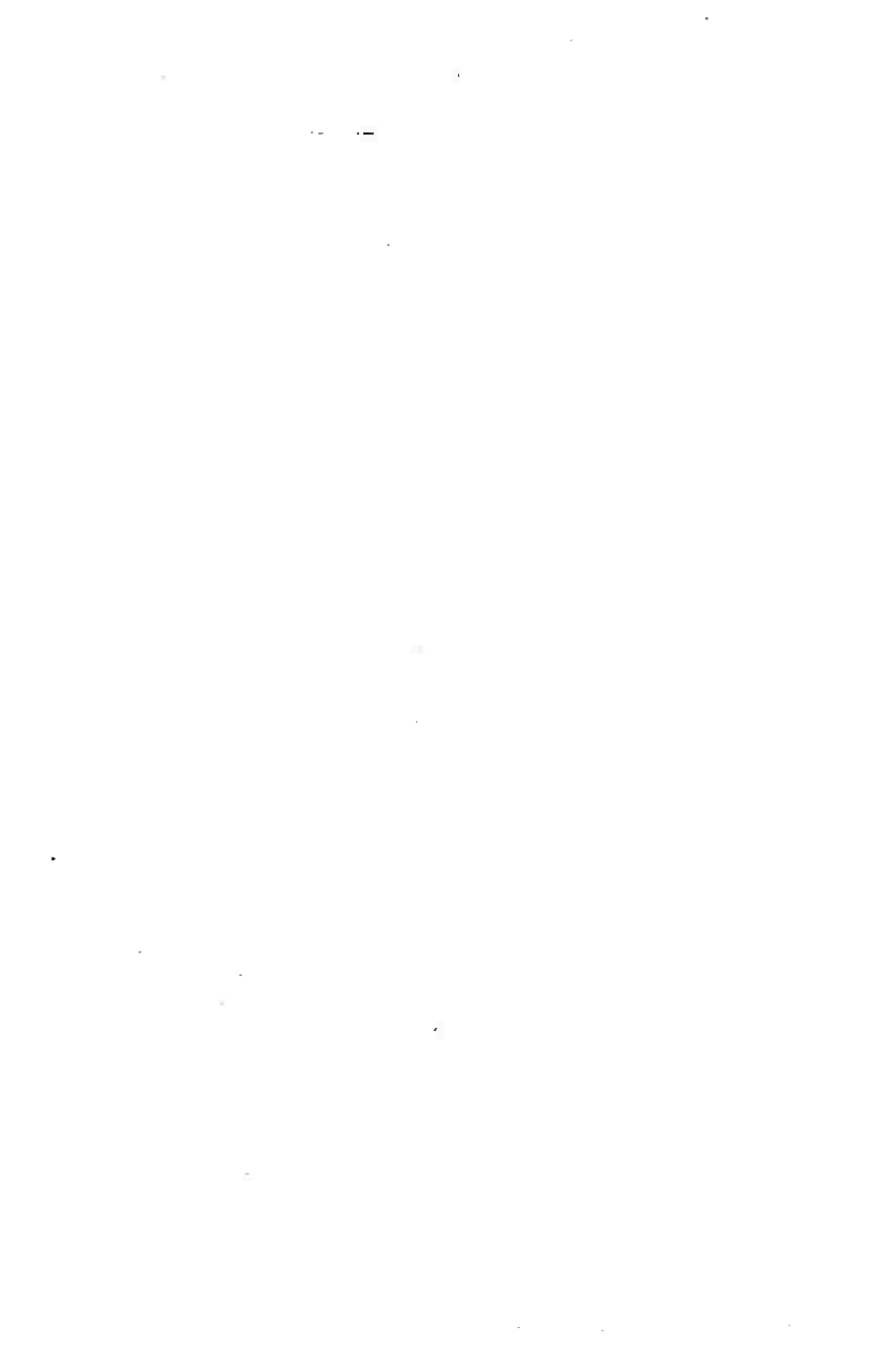
Trilling, Lionel. "The *Quartet*: Two Reviews". In *The*

World of Lawrence Durrell. Ed. Harry T. Moore.
New York: E.P. Dutton. 1962.

Weatherhead, A.K. "Romantic Anachronism In *The Alexandria Quartet*". *Modern Fiction Studies*, Vol. X. No. 2. Summer 1964. pp. 128-136.

Weigel, John A. *Lawrence Durrell*. New York: E.P. Dutton. 1966.

Wotton, G. E. "A Letter to Lawrence Durrell". In *The World of Lawrence Durrell*. Ed. Harry T. Moore.
New York: E.P. Dutton. 1962.



Muhammad Hussein Heykal et le Retour aux Sources

par

Rachida El Diwani

Muhammad Hussein Heykal (1890-1956) s'étonnait de voir chercher un point de rencontre entre l'Orient et l'Occident. S'il acquiesçait à la première partie du dit de Keppling "l'Orient c'est l'Orient et l'Occident c'est l'Occident", il n'en allait pas de même de la deuxième "et ils ne se rencontreraient jamais". Selon Heykal, l'Orient et l'Occident se sont rencontrés depuis toujours et continueraient tant qu'il y aurait Orient et Occident¹.

Quelles étaient les vues de Heykal concernant les relations entre ces deux mondes et ses perspectives concernant leur évolution? Quel était son message pour que l'Orient et l'Occident puissent coexister jusqu'à la fin des temps? l'Oriental en général et l'Égyptien en particulier, quel chemin devait-il prendre pour se tailler une place dans la civilisation du nouveau monde? Que faire de son patrimoine oriental dans la vie moderne placée sous le signe de l'Occident? C'est ce que nous

1. Muhammad Hussein Heykal, *Acharq al djadid*, Le Caire, Dar al maaref, 1990, p. 14. (Acharq ...) Heykal avait déjà médité ces paroles de l'écrivain anglais lors de la composition en 1921 de son ouvrage *Jean-Jacques Rousseau, Hayatuhu wa kutubuhu*, (Le Caire, Dar al maaref, 1990) p. 12, dans une tentative de rapprocher les deux mondes et cela en présentant aux Orientaux "un des pères de la liberté et de l'égalité, un des spécialistes de la vraie égalité sociale et un partisan progressiste de la foi dans le travail", comme il le dit dans sa "dédicace à l'Égypte libre", espérant ainsi contribuer à jeter les bases "d'une compréhension libre et sincère pour le règne de la paix". Les traductions sont les nôtres.

allons essayer de dégager dans cette étude.

Nous voudrions ensuite éclairer les vues de Heykal et montrer leur pertinence et leur bien fondé en donnant les résultats des études de Norman Daniel, historien anglais des relations entre l'Orient et l'Occident depuis la chute de Rome. Cela nous aidera beaucoup à comprendre ce qui se passe actuellement dans les pays orientaux envahis plus ou moins par la civilisation occidentale et la situation des différentes cultures indigènes par rapport à l'hégémonie occidentale. Daniel, après Heykal, montre la voie à la coexistence pacifique des différentes civilisations.

Heykal remonte à l'origine des contacts entre ces deux parties de la terre, l'Occident et l'Orient. C'étaient d'abord des guerres entre l'Égypte pharaonique et la Grèce, Rome, La Phénicie, la Perse, etc... Elles eurent lieu ensuite entre le monde islamique et le monde chrétien et cela depuis le jour où l'Islam commença à sortir de la péninsule arabique. L'Europe en voulut aux conquêtes islamiques d'avoir établi cette digue entre elle et le reste du monde connu alors, et cela au moment même où elle pensait pouvoir commencer sa propagande missionnaire. Héraclius avait à peine repris la Croix Sainte aux Perses et était arrivé à pieds de Constantinople à Jérusalem, selon son vœu, que voilà l'envoyé du Prophète Muhammad qui arrivait avec un message lui exposant la nouvelle religion et l'invitant à y entrer. L'empereur certes refusa et ce furent les débuts des hostilités. Quelques siècles après l'ère des conquêtes arabes, les croisés débarquèrent en Orient et y demeurèrent pour deux cents ans environ. Plus tard ils retrouvèrent les Orientaux, Turcs Ottomans cette fois, sur les champs de bataille à l'Est de l'Europe².

2. Heykal, *Acharq...*, p. 19.

Après la chute de Byzance et la fuite des savants grecs vers l'Europe de l'Ouest, celle-ci commença à se poser des questions sur les raisons de la victoire musulmane sur les chrétiens. Luther et Calvin entreprirent la réforme de l'intérieur de l'Église et demandèrent la liberté de penser qui ne devait pas s'opposer à la religion. Ils avaient compris que c'était la raideur de la pensée occidentale qui les avait affaiblis devant l'Islam. Cette raideur serait provenue, selon Heykal, de la trop grande autorité de l'Église dans tous les domaines de la vie, jusqu'à enlever aux hommes toute initiative.

La Renaissance intellectuelle de l'Europe était une conséquence directe de la Réforme religieuse et de la libération de la pensée³. A la même époque presque, la pensée en Orient allait être ligotée au nom de la religion⁴ et mise au service du prince. C'est cette même raideur qui causa la défaite de l'Orient devant l'Europe moderne.

Avec le XVIII^{ème} siècle, l'Europe commença à s'intéresser à l'Orient en vue de le coloniser sous prétexte d'y répandre la civilisation. Selon Heykal, c'est le développement de l'idée de nationalisme qui aurait dicté aux pays européens leur politique colonialiste. Chacun de ces pays, voulant empêcher les autres d'avoir des privilèges auprès de la Sublime porte, prétendait désirer assurer la sécurité de ses territoires. Les aspirations de ces pays s'élargirent et les capitulations remplacèrent les terres qu'ils ne pouvaient obtenir. Ce fut presque une invasion pacifique. Les sultans ottomans furent très heureux de payer ce prix, jugé bas, pour assurer la sécurité de leur khalifat. Ces capitulations, de garantie de sécurité, devinrent des droit de

3. Heykal, *Thawrat al adab*, Le Caire, Al hay'ah al-'amah liqussur al thaqafah, 1996, p. 214.

4. Heykal, *Acharq...*, pp. 28-34.

souveraineté pour les étrangers résidant en territoires ottomans et pour leurs pays d'origine⁵.

Dès la fin du XVIII^{ème} siècle, commença à croître en Orient le nombre d'Européens venant exercer des professions libérales et fonder des écoles servant leurs coreligionnaires. Heykal, essayant de remonter à l'origine du phénomène de l'occidentalisation, le trouve dans le bon accueil fait par les gouvernements despotiques de l'Orient à ces étrangers et dans les privilèges que les capitulations leur octroyaient. Les indigènes en conclurent que les Européens devaient être meilleurs pour obtenir ce traitement qu'ils enviaient. Ils se sont donc mis à les imiter espérant ainsi améliorer leur statut auprès de leurs propres gouvernements. Heykal affirme que cela eut lieu effectivement: les imitateurs des Européens obtinrent plus que les non imitateurs⁶.

Le sentiment de leur retard par rapport à l'Occident accrut l'ardeur des Orientaux à s'ouvrir à la civilisation conquérante. Les polémiques portèrent sur les modalités de cette ouverture. On fut plus rapide à s'adapter à la civilisation conquérante qu'à songer à vaincre les causes de la décadence. Les gouvernements se mirent à importer de l'Occident son style de vie, et, ce moins pour lui ressembler, que d'entrer dans ses bonnes grâces. L'Orient s'était rendu compte depuis un bon moment que l'Occident possédait les secrets de l'avancement. Mais, on se contenta d'importer les apparences et les formes, non les systèmes occidentaux eux-mêmes. Les gouvernements établirent des institutions nommées Al Shoura, pour imiter les parlements et les conseils des députés; fondèrent des écoles et vêtirent leurs écoliers à l'européenne; créèrent un système de justice et

5. *Ibid*, p. 54.

6. *Ibid*, p. 57.

introduisirent des lois inspirées des codes napoléonien ou suisse pour être comme l'Europe. Tout cela indiquait que les gouvernements considéraient le mode de vie occidental comme étant celui capable d'améliorer le niveau de leurs pays et de leur permettre de traiter en égaux avec les grandes puissances. Pour augmenter encore plus l'analogie avec l'Occident on envoya des Orientaux apprendre sur place les secrets de l'avancement occidental et on fit venir des "experts" pour mettre en pratique les emprunts⁷.

Tel fut le cas de l'Égypte. Lorsque Muhammad Aly voulut s'emparer de cette province de l'empire ottoman et la déclarer indépendante, l'Europe l'appuya et lui manifesta de la sympathie⁸. Pour prouver sa gratitude, il ouvrit la porte aux Européens, en fit ses conseillers et ses chefs d'armée, favorisant ainsi l'invasion rapide de l'Égypte par le monde occidental. Les résultats se firent voir, selon Heykal, lors de l'accord de Saïd

7. *Ibid*, p. 58-62. Ce qui fut surtout achevé dans ce processus c'est l'occidentalisation des formes des institutions. Mais le changement des mentalités pour mettre en œuvre ces institutions, ne fut même pas entrepris. Les Orientaux n'ont pas reçu de la part de leurs gouvernements l'éducation et l'entraînement nécessaires. Ces gouvernements ne se rendaient peut-être même pas compte de l'importance de convaincre les populations -illettrées- et de leur montrer les avantages des innovations entreprises. Il est sûr que la majorité ne se sentait pas concernée. L'occidentalisation n'intéressait que les dirigeants et une infime minorité ayant reçu son éducation en Occident ou dans les écoles des missionnaires.

8. Muhammad Aly se douta-t-il jamais des vrais mobiles de l'Europe, lesquels étaient d'affaiblir la Porte en lui amputant la plus importante de ses provinces et d'avoir les mains libres en Égypte dont le souverain devrait toujours tenir compte de sa dette envers elle? Mais Muhammad Aly, eut trop d'ambitions, dépassant ainsi les limites permises, et devint dangereux pour l'équilibre des forces. cf. Afaf Lotfy al Sayed Marsot, *Egypt Under the Reign of Muhammad Aly*, University Press, Cambridge, 1984.

introduisirent des lois inspirées des codes napoléonien ou suisse pour être comme l'Europe. Tout cela indiquait que les gouvernements considéraient le mode de vie occidental comme étant celui capable d'améliorer le niveau de leurs pays et de leur permettre de traiter en égaux avec les grandes puissances. Pour augmenter encore plus l'analogie avec l'Occident on envoya des Orientaux apprendre sur place les secrets de l'avancement occidental et on fit venir des "experts" pour mettre en pratique les emprunts⁷.

Tel fut le cas de l'Égypte. Lorsque Muhammad Aly voulut s'emparer de cette province de l'empire ottoman et la déclarer indépendante, l'Europe l'appuya et lui manifesta de la sympathie⁸. Pour prouver sa gratitude, il ouvrit la porte aux Européens, en fit ses conseillers et ses chefs d'armée, favorisant ainsi l'invasion rapide de l'Égypte par le monde occidental. Les résultats se firent voir, selon Heykal, lors de l'accord de Saïd

7. *Ibid*, p. 58-62. Ce qui fut surtout achevé dans ce processus c'est l'occidentalisation des formes des institutions. Mais le changement des mentalités pour mettre en œuvre ces institutions, ne fut même pas entrepris. Les Orientaux n'ont pas reçu de la part de leurs gouvernements l'éducation et l'entraînement nécessaires. Ces gouvernements ne se rendaient peut-être même pas compte de l'importance de convaincre les populations -illettrées- et de leur montrer les avantages des innovations entreprises. Il est sûr que la majorité ne se sentait pas concernée. L'occidentalisation n'intéressait que les dirigeants et une infime minorité ayant reçu son éducation en Occident ou dans les écoles des missionnaires.

8. Muhammad Aly se douta-t-il jamais des vrais mobiles de l'Europe, lesquels étaient d'affaiblir la Porte en lui amputant la plus importante de ses provinces et d'avoir les mains libres en Égypte dont le souverain devrait toujours tenir compte de sa dette envers elle? Mais Muhammad Aly, eut trop d'ambitions, dépassant ainsi les limites permises, et devint dangereux pour l'équilibre des forces. cf. Afaf Lotfy al Sayed Marsot, *Egypt Under the Reign of Muhammad Aly*, University Press, Cambridge, 1984.

des autres, primitives à son avis, et juste bonnes à coloniser. L'Europe parla alors du devoir d'instruire ces populations, de les élever au niveau de la civilisation moderne, de les former et de les préparer à s'auto-gouverner. Les Orientaux ont naïvement cru à ce dévouement et ont sincèrement essayé d'imiter la civilisation et la culture européennes. Mais "ils ont vite réalisé que leurs efforts ne concordaient pas avec les vrais desseins de ces seigneurs qui régissaient leur sort"¹³. Les Orientaux, et notamment les Égyptiens, s'attendaient à voir l'Angleterre lui apporter en échange des articles fabriqués à partir du coton local, les sciences, l'instruction et l'industrie. Lorsque l'Angleterre refusa et contrecarra même les projets égyptiens, là, les Égyptiens commencèrent à voir clair dans les vraies intentions du colonisateur. Les jeunes Égyptiens qui avaient fait leurs études en Europe -dont Heykal- et qui connaissaient les bases de la civilisation européenne: Sciences, Instruction et Industrie, comprirent qu'ils y avaient là deux poids, deux mesures.

La civilisation industrielle ne s'accommodait pas de l'établissement de l'industrie du textile en Égypte sous prétexte que le climat n'était pas favorable, et lorsque les Égyptiens enthousiastes ont persévéré dans leurs plans, Cromer les a prévenus qu'il leur faudrait payer des taxes de production contrebalançant les taxes de douanes, pour ne pas faire concurrence aux articles importés¹⁴. Les colonisateurs ne cessaient de répéter aux Orientaux qu'ils n'étaient capables que d'offrir les terres et la main-d'œuvre nécessaires à la fourniture des matières premières exigées par l'industrie occidentale en expansion.

La civilisation de la science refusait la science à l'Égypte.

13. *Ibid*, p. 229.

14. *Ibid*, p. 85.

L'Université, que les Égyptiens voulaient construire pour répandre la science et la culture, était jugée inutile par Cromer qui souleva même les hommes du gouvernement contre la campagne de collecte de fonds effectuée auprès des riches. L'instruction, limitée à l'extrême, ne devait former que des fonctionnaires obéissants et fidèles aux colonisateurs¹⁵.

Tandis que l'instruction publique était très réduite, les missions scolaires religieuses européennes venaient installer leurs écoles en toute liberté. C'était là que les enfants de l'Orient apprenaient à imiter la vie occidentale¹⁶.

Heykal voyait dans ces missions religieuses une sorte d'invasion bien organisée, car il ne pouvait expliquer autrement le fait que la France, par exemple, qui leur faisait la guerre chez elle, les subventionnait dans les colonies. Heykal pensait que la politique les a utilisées pour percer la ceinture islamique formée tout autour de la méditerranée. Les grandes puissances choisirent d'abord les pays islamiques à minorités chrétiennes, comme l'Égypte et le Liban, pour y installer les missions en question. Elles fondèrent, au Liban, des écoles depuis 1750, et contribuèrent à répandre des idées encourageant les chrétiens à se dresser contre les Ottomans. En 1850, le Liban s'insurgea et fut appuyé par les gouvernements européens qui lui assurèrent

15. *Ibid*, p. 65. (Douglas Dunlop: Note with reference to the linguistic basis of instruction in the Egyptian Government schools (10/2/1907), in Cromer: Annual Report for 1906, 108-15; cité par Amvar Abdel Malek, *Idéologie et Renaissance Nationale: l'Égypte moderne*, Paris, Anthropos, 1969, p. 348).

16. "Singer" serait peut-être le bon mot, vu qu'il s'agissait seulement des formes et non du contenu. Malak Hifni Nassef, une des pionnières du féminisme en Égypte, critiquait l'occidentalisation des filles allant aux écoles françaises, occidentalisation s'arrêtant à des détails très superficiels enlevant aux imitatrices toute authenticité. (cf. Abd al Met'al al Djabri, *Al Muslimah Al Asriyah Ind Bahithat Al Badiyah*, Le Caire, Dar al ansar, 1978).

l'autonomie politique comme ils l'avaient déjà fait avec Muhammad Aly. Voilà deux brèches dans l'enceinte ottomane¹⁷.

Quant aux missionnaires se répandant dans les pays et jusqu'aux petits villages, ils fournissaient une autre raison à la méfiance des Orientaux envers l'Occident. Dans les débuts des années 30, il y eut en Égypte un soulèvement de l'opinion publique à cause des activités flagrantes des missionnaires. Heykal participa à la campagne d'opposition à ce mouvement dont le centre semblait être l'université américaine du Caire¹⁸. La presse égyptienne publiait tous les jours des articles sur les activités des missionnaires et demandait au gouvernement de protéger les enfants et les gens simples contre cette propagande dangereuse qui avait recours, selon Heykal, aux moyens matériels profitant ainsi de la pauvreté du peuple, pour sa conversion. Le caractère secret de ces activités augmentait encore plus leur immoralité¹⁹.

Le Journal *Al Dihad* écrivit en Juin 1932: "En vérité, le prosélytisme religieux est un mouvement colonialiste et non de guidance vers une religion divine quelconque, car nous ne connaissons pas de religion qui recommande la duplicité et la trahison. Ce sont des ruses de colonisateurs servant des

17. Heykal, *Acharq...*, p. 60. Henri Laurens parle "des immixtions perpétuelles des puissances qui vont utiliser, comme cheval de Troie, les communautés minoritaires de l'empire". (dans *Le Royaume impossible*, Paris, A. Colin, 1990, p. 110). cf. aussi Albert Hourani, *Histoire des peuples arabes*, Paris, Seuil, 1993, pp. 351-379)

18. Heykal, *Mozakirate fil siyasah al misriyah*, Le Caire, Dar al ma'arif, 1990, I, pp. 271-2; pp. 293-4.

19. *Ibid*, p. 329.

ambitions politiques"²⁰. Heykal se demande comment, dans un tel climat, vouloir que les Orientaux aient confiance dans les Occidentaux? Lors de nombreux interrogatoires auxquels il fut soumis pendant cette campagne, accusé de provocation des adeptes des différentes religions, il rejeta la responsabilité de ce qui se passait sur l'Administration Européenne de la Sécurité Générale dans le Ministère Égyptien de l'Intérieur²¹.

Il publia une série d'articles à ce sujet dans *Molhaq al siyasah* et conclut que les Évangélistes n'arriveront qu'à dresser les populations islamiques contre eux et qu'à semer la haine de la civilisation occidentale²².

C'est à la suite de cette affaire que Heykal s'est tourné vers la biographie du Prophète et autres sujets islamiques dans un acte de défense de l'Islam et de son messager, dont l'image était souvent déformée par les orientalistes²³.

Volontairement ou non, ces orientalistes ébranlaient ainsi la confiance des jeunes musulmans dans leur religion et, par conséquent, dans leur identité qui en était inséparable. Ceux-ci, dans l'état de désorientation où ils étaient alors entre un Occident brillant de toutes ses lumières et un Orient se réveillant d'un long sommeil, recevaient avec une confiance illimitée tout ce qui venait du "savoir" de l'Occident, y compris

20. Cité par Abd al Aziz Charaf, dans *Muhammad Hussein Heykal fi zikrah*, Le Caire, Dar al ma'arif, 1986, p. 195.

21. Heykal, *Mazakirah...*, 1, p. 354.

22. Heykal, dans *Molhaq al Siyasah* du 14/10/1933. (cité aussi dans *Acharq...*, p. 205).

23. Heykal, dans *Molhaq al Siyasah* du 13/5/1932, "Hawl Hayat Muhammad"; du 23/5/1932, "Kayfa wa limaza aktoubu hayat Muhammad"; du 17/9/1933, "Athar al mustachriqin fil baath al islami"; du 7/11/1933, "Bayn mast wa bilad al charq al 'arabi", etc... (cité par Charaf, *op. cit.*, pp 199-202). cf. *Hayat Muhammad*, Le Caire, Dar al ma'arif, 1979, pp. 34-37.

la production orientaliste. Ils prenaient ainsi pour "scientifiques" les conclusions de ces "savants" concernant la religion et le Prophète de l'Islam. Heykal dans son introduction à *Hayat Muhammad* parlait de ce musulman qui lui reprochait de ne s'être pas basé sur les dernières "découvertes" orientalistes. Selon l'auteur, ces "découvertes" étaient non scientifiques et opposées aux fondements même de la foi islamique. Heykal plaignait ce genre de lecteurs qui acceptaient sans discernement toutes les données des orientalistes et qui pensaient que le modernisme exigeait leur adhésion aux contestations dressées contre leur patrimoine et même parfois le reniement, partiel ou complet, de celui-ci²⁴.

Heykal pensait qu'il était temps que les Orientalistes, qui ne l'avaient pas fait, changent de méthode. Les anciens orientalistes qui avaient calomnié l'Islam et son Prophète avaient peut-être leurs excuses. Ils écrivaient alors seulement pour les chrétiens et pensaient ainsi accomplir un devoir religieux. Mais le monde étant dorénavant relié par des moyens de communication rapides, et tout ce qui se disait ou s'écrivait était connu sur le champ, commenté, voire discuté. Pour toutes ces raisons, il fallait se défaire des sentiments nationaux, religieux ou ethniques. C'est seulement ainsi que les sentiments de fraternité pourraient naître entre l'Orient et l'Occident. Heykal rapporte les paroles de Dermengham surpris de voir cette catégorie d'orientalistes décidés à "désorienter et à répandre l'animosité et la haine entre les hommes"²⁵.

Heykal parle de certains orientalistes modernes qui, sans calomnier l'Islam, faisaient plus de mal à ses adeptes en avançant que l'Histoire de ces orientaux ne leur permettrait

24. *Ibid.*, p. 61.

25. *Ibid.*, p. 61.

jamais d'égaler les Européens qui, appartenant à une race supérieure, devaient les instruire, les préparer à la liberté et à l'exercice du pouvoir. Ils disaient aux Égyptiens, par exemple, que depuis la fin des pharaons, ils étaient assujettis aux Grecs, Romains, Perses, Arabes, Turcs, etc... Avec un tel héritage, il est impossible de savoir ce qu'est la liberté, ni comment se gouverner selon les principes de la démocratie moderne. Ils allaient même jusqu'à dire que les Musulmans, tant qu'ils resteraient attachés à l'Islam, n'avanceraient jamais. Il leur fallait rompre avec le passé, et savoir que l'Occident leur est nécessaire pour "entrer dans l'Histoire"²⁶.

L'orientaliste Gibb trouvait que les principaux moyens capables d'occidentaliser l'Orient étaient l'instruction et la presse, elles seules pourraient amener les Musulmans à distinguer entre ce qui est religieux et ce qui est temporel. Il affirmait que la "culture" pouvait sous l'influence occidentale réaliser cette fin dans les pays islamiques et même, si l'Islam n'avait perdu que très peu de sa force comme religion, il avait déjà beaucoup perdu de son importance comme code de vie et source de législation. Déjà, se plaçaient à côté de lui, et parfois au-dessus, d'autres sources²⁷.

Les peuples de l'Orient, colonisés au nom de la civilisation et privés par le colonisateur de tous les aspects bienfaiteurs de la civilisation, se voyaient, par contre, submergés par ses séquelles: "La prostitution, le tabac, l'alcool, les cosmétiques, le

26. Heykal, *Achraq...*, p. 64. cf. Edouard Saïd, *L'Orientalisme*, Paris, Seuil, 1980, pp. 147-183. Kassem Amin avait déjà, dans les dernières années du XIX^{ème} siècle, refuté ce genre d'allégations dans *Les Égyptiens, Réponse à M. le duc d'Harcourt*, Le Caire, Barbier, 1894. cf. aussi Marcel Boisard, *L'Islam aujourd'hui*, Paris, Flammarion, 1983, "L'Islam et les musulmans dans la conscience occidentale", pp. 15-43.

27. Heykal, *Achraq...*, p. 257.

jeu et les troupes de théâtre frivoles. Ces phénomènes, détruisant les budgets et la moralité des citoyens, étaient rentables pour les commerçants étrangers”.

Heykal et ses semblables comprirent ainsi, par ce décalage entre les slogans de la Mission Civilisatrice et la triste réalité, que la civilisation apportée par l'Occident en était une de colonisation économique, basée sur la démoralisation des peuples, la suppression de l'autarcie nationale, l'exploitation de ses ressources et l'expansion de l'esprit matérialiste étouffant la foi dans les valeurs spirituelles²⁸.

Les Orientaux, conscients du malheureux état de leurs pays²⁹ s'agitaient, mais se trouvaient partagés entre de nombreuses tendances. Il y en avait ceux qui pensaient que toute résistance était inefficace vu l'inégalité extrême des forces; et ceux convaincus par les théories occidentales disant que l'Orient était inapte à se gouverner, et, que, livré à lui-même, toutes les séquelles du despotisme à commencer par l'injustice, la cruauté, la vengeance, la corruption et l'immoralité se répandraient. Il n'avait qu'à se remettre entre les mains de l'Occident pour apprendre à vivre³⁰.

28. *Ibid*, p. 68. cf. Lotfy Asayed, “Al siyasa al injiliziah fi Misr”, dans *Qissat hayati*, Le Caire. Al hay'ah al misriyah al 'amah lil kitab, 1993, pp. 39-45.

29. Heykal, faisant son doctorat en droit à Paris, éprouvait de la honte à voir son pays colonisé. Dans un passage pathétique de ses mémoires de jeunesse, il racontait comment il souffrait du regard étonné de l'Européen posé sur lui. Il se sentait blessé jusqu'au fond du cœur, croyant entendre l'Européen se dire avec mépris: “Il appartient à une nation colonisée (...) après avoir été des rois et des dieux, vous êtes maintenant une pauvre nation affaiblie et satisfaite de sa faiblesse! Une nation acceptant la bassesse et l'humiliation!”, dans *Mozakirat Ichabab*, Le Caire, Dar al maaref, 1996, p. 187.

30. Heykal, *Acharq...*, p. 67. cf. A. Abdal-Malek, *Idéologie et Renaissance Nationale*, Paris, Anthropos, 1969, pp. 337-369.

Une autre catégorie d'Orientaux, enthousiastes, se révoltaient de voir l'Occident spolier leur liberté, qu'ils revendiquaient sur la base des principes de la Révolution Française. Ces hommes espéraient profiter de la guerre des grandes puissances entre elles pour atteindre leur but. Ils comptaient aussi sur le soulèvement et l'enthousiasme des peuples opprimés menaçant ainsi les intérêts du colonisateur³¹.

Il y avait enfin un groupe qui pensait absolument nécessaire le renforcement du moral chez les Orientaux, renforcement qui rendrait l'oppression impossible à supporter. Pour cela il fallait organiser un mouvement national réformateur, affaire difficile et de longue haleine. Heykal faisait partie de cette école, dont Muhammad Abduh avait été le chef de file et que ses élèves continuaient. Un de ceux-ci, Lotfy al Sayed, disait: "Demander notre indépendance à l'Europe, ou à l'Angleterre ou à la sublime porte, ne nous mènerait à rien. Il faudrait travailler par nous-même. L'indépendance serait le prix de notre lutte et de nos efforts pour bâtir ce pays"³².

Ces tendances durèrent jusqu'à la première guerre mondiale. Elles ne s'opposaient pas entre elles et auraient pu se renforcer mutuellement. Mais la politique occidentale usa de plusieurs stratagèmes pour monter leurs partisans les uns contre les autres. Et, effectivement, les indigènes se sont opposés et se sont lancé des accusations dont la moindre était la trahison de la cause

31. Telle fut l'attitude de Mustafa Kamel et de son parti. Mais si M. Kamel était passionné, Ghandi en Inde avait une réaction très pacifiste quoi qu'aussi révolutionnaire, celle de la non-coopération avec les Anglais. Les Égyptiens suivraient cette stratégie après les événements de 1919, pour l'obtention de leur indépendance. Heykal écrit beaucoup sur Ghandi qu'il admirait, voir *Acharq...*, pp. 169-202.

32. Cité par Abd al Aziz Charaf dans *op. cit.*, p. 39.

nationale. Cela fut le cas—notamment de l'Égypte³³. Lotfy al Sayed rapporte les paroles très significatives de Djamal al Din al Afghani: "Les Égyptiens se sont entendus à ne pas être d'accord"³⁴.

La politique colonialiste, d'après Heykal, alla même jusqu'à dresser les différentes communautés religieuses, dans un même pays, les unes contre les autres³⁵.

Puis vint le terrible réveil de l'Orient après la première guerre. Heykal raconte combien fut amère la déception des Orientaux en général, et des Égyptiens en particulier. Ils comprirent que la cause pour laquelle ils avaient combattu aux côtés des alliés était surtout celle de l'expansion coloniale et non pas de l'antifacisme comme ils le leur avaient fait comprendre³⁶. Ils virent que les promesses, à propos de l'octroi de leur liberté, n'avaient pas été faites dans l'intention de les tenir mais seulement pour se faire aider par les Orientaux.

Ils eurent l'occasion une fois de plus de voir comment les Occidentaux appliquaient leur politique de double poids, double mesures: les principes du président Wilson concernant les droits des peuples à disposer d'eux-mêmes n'étaient pas destinés aux populations colonisées par ces Occidentaux³⁷. La révolution de 1919 éclata contre le durcissement des positions des Anglais.

Heykal écrivit beaucoup dans la presse à propos de l'attitude

33. Heykal, *Acharq...*, p. 68.

34. Lotfy al Sayed, *op. cit.*, p. 17.

35. Heykal, *Acharq...*, p. 68.

36. *Ibid*, p. 253.

37. Heykal, *Mozakirate*, I, p. 67. Il est intéressant de voir la perspicacité de l'auteur à ce sujet: Dès la déclaration des principes en question, il savait que les Anglais les duperaient et trouveraient le moyen de s'en sortir de l'affaire sans donner à l'Égypte son indépendance.

des Anglais. Dans l'article "Les intentions des Anglais et leurs fins", il dit que "les Anglais sont connus depuis longtemps pour leur grande duplicité en politique et pour énoncer des paroles tout en pensant à autre chose. On voit les politiciens dire une chose et leur presse une autre. Rien de plus significatif que l'échec du président Wilson à rendre publiques les négociations de la paix ainsi qu'il l'avait affirmé dans ses principes"³⁸. Heykal avait toujours compris que les Anglais ne cherchaient que leurs intérêts et avaient comme devise en politique "la fin justifie les moyens". L'idée du profit dominait leurs systèmes politique, économique, éducatif, et même philosophique³⁹. L'Angleterre profita du temps de la guerre et du fait que les pays en étaient occupés pour déclarer l'Égypte sous mandat. Elle espérait que cette dernière en sortirait trop épuisée pour demander l'indépendance. Mais le "doux peuple égyptien" déçut l'attente des Anglais et protesta unanimement contre ce protectorat unilatéral. Ce peuple, demandant l'indépendance totale, se fit entendre de tout le monde et lui exposa l'injustice dont il était victime⁴⁰.

Quant à la politique à suivre avec les Anglais, refusant de libérer l'Égypte, elle consistait, selon Heykal, à couper toute

38. Heykal dans *Al Ahram*, du 19 février 1920. (cité par Charaf, *op. cit.*, p. 107).

39. Muhammad Abd al Raouf Selim dit que le grand écrivain, à l'occasion de la tragédie du partage de la Palestine "eut une fois de plus l'assurance que le droit et la justice sont des termes dépourvus de sens dans le vocabulaire de la politique; que les états à grandes puissances matérielles, militaires et économiques ont le dernier mot et que penser à un monde meilleur ou à une paix universelle n'est que pure utopie", "Heykal wa quadiyat Falestin" dans *Mollakhassat al abhath al moqadamah linachvat Muhammad Hussein Heykal wa djouhoud al istinarah al misriyah*, Le Caire, Al madjliss al aala lilthaqafah, 1996, p. 23.

40. Heykal, *Mazakirat*, I, p. 67.

relation avec eux: "serait traître à son pays celui qui communiquerait avec les Anglais. Personne ne s'exposera à eux, ni en bien ni en mal. Il faudrait envelopper nos droits du costume national, délaisser cette civilisation occidentale avide d'argent, et retourner à notre "orientalité" ascétique et frugale. L'Occident a noyé nos âmes orientales pures dans la matière épaisse et lourde et nous a ainsi asservis et humiliés. Non, un bout de pain sec dans la liberté vaut mieux que tous ces tapis et mets à l'ombre de l'avilissement"⁴¹.

Les Égyptiens suivirent une stratégie pacifique de non coopération avec les Anglais usant de violence⁴². Heykal avait beaucoup d'admiration pour cette politique favorite de Ghandi⁴³.

La révolution politique commencée en 1919 s'étendit aux domaines de la pensée, des sentiments et des sensations où la rigidité était à abattre. Selon Heykal, les Orientaux, et lui le premier, comprirent que les Occidentaux qu'ils considéraient comme des dieux de la pensée et de l'invention n'avaient semblé ainsi que parce que ceux-ci étaient libres et qu'ils étaient eux-mêmes esclaves de la rigidité. Il était donc temps de s'en libérer.

Au début de sa renaissance, l'Orient suivait, comme ensorcelé, les apôtres du droit, de la beauté et de la liberté. Heykal demandait que les populations considèrent d'un œil circonspect tous ces apôtres du modernisme et n'acceptent que

41. Heykal, dans *Al Ahran* du 6 février 1922. (cité par Charaf dans *op. cit.*, p. 112).

42. Heykal, dans *Al Ahran* du 31 janvier 1922. (cité par Charaf, dans *op. cit.*, p. 113).

43. cf. les articles de Heykal sur Ghandi dont quelques uns furent publiés dans *Acharq...*, pp. 169-202.

ce qui s'accorde avec leurs valeurs⁴⁴.

Heykal remarquait que la renaissance dans les arts, les sciences, la pensée, le mode de vie convergeait pour soutenir la renaissance politique. Cette convergence devant mener à la voie de la liberté en Orient, rendre impossible le retour du despotisme ou du colonialisme et rendre l'Orient capable de n'accepter dans ses relations avec l'Occident que des liens de coopération pour élever l'humanité à la perfection⁴⁵.

Heykal nourrissait beaucoup d'espoirs quant à la renaissance de l'Orient, surtout l'Orient islamique, mais après avoir traversé plusieurs étapes. Selon lui, le temps d'une génération ou deux, l'Orient se précipiterait pour emprunter tout à la civilisation occidentale, comme l'avait fait la Turquie, et comme essayaient de le faire la Perse et l'Afganistan. Des mouvements de réaction, comme celles qui avaient déjà lieu, suivraient et mettraient en branle ses anciennes civilisations⁴⁶.

Les vocations de ces anciennes civilisations se renforceraient dans des esprits dotés par la nature d'un souffle poétique exceptionnel et remplis de la science et la civilisation occidentales. De cette confrontation entre l'ancien, hérité de l'Orient, et le moderne, emprunté de l'Occident, naîtrait une nouvelle conception de la vérité.

Heykal prévoyait que l'Orient soufflerait de son esprit dans les Occidentaux qui entreraient dans la civilisation orientale en masse et alors Orient et Occident coopèreraient pour le règne du Bien et de la Vérité⁴⁷.

Heykal voyait presque la réalisation prochaine de ses espoirs

44. Heykal, *Acharq...*, pp. 97-101.

45. *Ibid*, pp. 100-104.

46. *Ibid*, p. 121.

47. *Ibid*, p. 122.

et conviait les grands admirateurs de l'Occident à méditer ses paroles et le profond sentiment chez certains Occidentaux que le spirituel, transcendant le pouvoir despotique de l'économie, manquait à leur civilisation. Si les enfants de l'Orient se rendaient compte de cela, ils comprendraient que du nouveau est à naître mais à condition qu'une lumière autre que celle du nihilisme surgisse. Selon Heykal cette lumière devait surgir bientôt et à partir de l'Orient, et plus précisément l'Orient islamique dont la civilisation concevait correctement l'unité de l'existence, basée sur la fraternité, la vérité, la liberté d'esprit et la soumission à Dieu seul⁴⁸.

Cette renaissance de la civilisation islamique dépendrait de l'union des efforts sincères dans leur désir de rendre aux Musulmans leurs forces spirituelles, comme aux premiers temps de l'Islam. Cette force, une fois recouvrée, rien de matériel ne pourrait l'abattre et les Musulmans sauveraient, du même coup, le monde du matérialisme⁴⁹.

Heykal invite les musulmans à dégager leur patrimoine

48. *Ibid*, p. 259. cf. Marcel Boisard, *L'humanisme de l'Islam*, Paris, Albin Michel, 1979.

49. Heykal, *Acharq...*, p. 217. Vue critiquée par nombre de musulmans, dont Laroui qui dit: "Cette vision toujours propagée par l'homme de religion est loin d'être passagère. Tout au long de l'histoire moderne, on la retrouve sous la plume des publicistes arabes: elle commence d'abord par faire l'unanimité, puis, peu à peu, perd de ses adeptes; elle se maintient cependant dans des groupes généralement considérés comme avariés. Pourtant faut-il gratter beaucoup pour la retrouver, à peine changée, chez des hommes qui se prétendent ouverts à la vérité objective?", dans *l'Ideologie arabe contemporaine*, Paris, Maspéro, 1977, p. 22. Laroui est représentatif de ceux pensant que la "vérité objective" nécessite le rejet du fond islamique de la pensée. Pourtant, des hommes comme Muhammad Abduh, Malek ben Nabi (cités par Laroui) et Heykal, ont pensé trouver la "vérité objective" dans les principes islamiques.

culturel des couches de chimères le couvrant et à rééditer, selon des critères scientifiques, les ouvrages de ce patrimoine qui avait un jour conquis le monde connu d'alors et lui avait fourni les outils nécessaires à l'édification de sa civilisation.

Heykal a toujours mis sa plume au service d'une idée spéciale: La personnalité orientale d'une manière générale et l'égyptienne en particulier. Sa cause était celle de l'amélioration de l'état de l'Orient et plus précisément de l'Égypte.

Heykal condamnait le fanatisme religieux et tenait à l'union nationale entre la majorité musulmane et la minorité copte. Ses attaques contre les orientalistes qui corrompaient l'image de l'Islam et de son Prophète, et contre les missionnaires ne provenaient pas d'une animosité quelconque à l'égard du christianisme mais plutôt de la compréhension des buts de certains de ces orientalistes et missionnaires. Et, si Heykal s'est mis à écrire des livres "islamiques", c'était bien à la suite du scandale provoqué par l'activité missionnaire en Égypte. Il avait compris qu'un des buts des ennemis des pays islamiques était de faire douter leurs enfants de leur religion pour les démoraliser et ainsi pouvoir mieux les maîtriser et les exploiter⁵⁰. Il s'employa à défendre l'identité arabe de toute accusation et à insuffler aux Arabes la confiance en eux-mêmes. Il essaya de réveiller les sentiments et d'aiguiser les volontés chez la jeunesse confuse et hésitante quant à la ligne à suivre; lui-même ayant passé par différentes étapes avant d'arriver à la manière d'être arabo-islamique.

Il avait commencé par faire l'apologie de la civilisation occidentale et demander de la copier du point de vue matériel et spirituel, pensant que c'était le bon moyen pour l'avancement

50. cf. note 22.

de l'Orient⁵¹. Puis il se rendit compte que le côté spirituel ne convenait pas à son pays vu la disparité entre notre histoire intellectuelle et culturelle et la leur. Il se mit alors à chercher cette vie spirituelle dans "notre histoire, notre culture, le fond de nos âmes, dans notre passé pour ressusciter nos esprits et nos cœurs"⁵².

Avant de réaliser cela, il avait cherché à traduire le patrimoine moral et spirituel de l'Occident⁵³. Mais il vit qu'il "mettait la graine dans la mauvaise terre. Celle-ci l'avalait et ne lui donnait pas vie"⁵⁴. Il chercha ensuite dans notre ancien héritage; il remonta aux pharaons. Mais il s'avéra que le temps et la stagnation intellectuelle avaient coupé toute relation avec cette époque⁵⁵. Il comprit enfin que "seule notre histoire islamique

51. Il pensait ainsi depuis son premier séjour en France. cf. *Mozakirat achabab*, op. cit., p. 201 où il disait: "Cette puissante civilisation, en dépit de ce qu'elle contient de corruption et de mal, envahit le monde d'un bout à l'autre et donne à ses hommes la suprématie sur les autres de manière à rendre ceux-ci obligés de s'intégrer à ceux-là et d'adopter leurs manières. Et même si j'espère qu'une nation arrive à prendre de leur civilisation les secrets de la force et de l'auto-défense, et à délaissier les innombrables produit de luxe apportant les problèmes, malgré cet espoir, dis-je, je conseille toute nation, ne pouvant faire cela, de donner sa propre couleur à la civilisation occidentale et de l'adopter".

52. Heykal, *Fi Manzil al wahy*, Le Caire, Dar al maaref, p. 23.

53. cf. Introduction de son livre *Jean Jacques Rousseau, Hayatouhou wa koutoubouhou*, op. cit., p. 12.

54. *Ibid*.

55. Il fit de l'hebdomadaire *Al Siyasah al esbu'iyah* (dont il était l'éditeur en chef) la tribune pour le "pharaonisme". Depuis le no. 106 du 17 mars 1928, la couverture portait l'image du dieu de la sagesse Tot, avec d'un côté un ancien Égyptien sculptant une statue et de l'autre, un scribe au travail, le tout paré de fleurs de lotus et d'inscriptions pharaoniques représentant la fertilité. cf. Muhammad Sid Ahmad, *Heykal wal siyasah al esbu'iyah*, Le Caire, Al hai'ah al'amah lill kitab, 1996, p. 286. En outre, Heykal composa des contes ayant

conviendrait et donnerait des leçons à mouvoir l'âme et à l'élever, qu'une nation ne liant pas son passé à son présent faisait fausse route, et qu'une nation sans passé n'avait pas d'avenir"⁵⁶.

Le problème de "la personnalité et du devenir arabo-islamique"⁵⁷ date des débuts de "la crise de la conscience" arabe⁵⁸, crise commençant avec les contacts du monde arabo-islamique avec l'Europe, dès les premières décennies du XIX^{ème} siècle. Pour tous les penseurs arabes il s'agissait alors de savoir comment rattrapper la marche de l'Histoire. Entrer dans la civilisation occidentale ou rester purement oriental? chercher des compromis et des moyens termes? Prendre le bien de partout tout en gardant son orientalité? En fait, c'était le dilemme "d'être ou de ne pas être", car, en fin de compte, refuser absolument l'autre et sa civilisation sous prétexte de garder son identité en n'essayant même pas de retrouver l'identité originale, la vraie, revenait à vouloir "ne pas être" dans un monde qui progressait et changeait à chaque instant. Les intellectuels arabes étaient déchirés entre un Occident brillant de toutes ses lumières, et dont la civilisation envahissait de gré ou de force l'univers, et un Orient traînant ses lauriers d'anciens maîtres de ce même univers.

Heykal était un exemple de ces hommes à la recherche de la forme et de l'esprit que devaient prendre leur devenir et leur

pour héros les dieux des pharaons, s'inspirant en cela des mythologies greco-romaines, cf. *Thavrat al adab*. Le Caire, Al hai'ah al'amah liqussur athaqafah, 1996, pp. 140-170.

56. Heykal, *Fi Manzil al Wahy*, p. 23.

57. Pour évoquer le titre de l'ouvrage de Hichem Djail, *La personnalité et le devenir arabo-islamiques*, Paris, Seuil, 1974.

58. Pour évoquer un autre livre *La Crise de la Conscience Européenne, 1680-1715*, de Paul Hazard, Paris, Fayard, 1961.

personnalité dans le monde où entraient nouvellement les Arabes. Après maintes tentatives, il a trouvé sa voie faite d'équilibre idéal entre son héritage spirituel d'Arabo-Musulman et les emprunts à faire à la civilisation occidentale à laquelle il ne pouvait, ni ne voulait, échapper.

L'expérience de Heykal serait une excellente illustration des conclusions de Norman Daniel historien des relations entre les cultures. Pour être bonne, une communication entre les cultures exige l'acceptation des différences ou "barrières" comme les appelle Daniel. Mais ces barrières ont aussi leur utilité. Certaines idées les traversent et d'autres sont tenues à l'écart. Il y-a alors un processus de sélection et ces "barrières" servent ainsi de filtre culturel⁵⁹. Car, à toute culture venant au contact d'une autre, une question se pose: Qu'est-ce qu'on peut et qu'est-ce qu'on doit échanger? C'est aussi le problème qu'avaient rencontré tous les penseurs égyptiens lorsque leur pays s'ouvrit à la civilisation occidentale un peu avant le milieu du XIX^{ème} siècle. C'était aussi le problème de Heykal, avec la différence que les Égyptiens alors s'étaient rendu compte des idées que se faisaient les Européens colonisateurs à leur propos.

Daniel pense que les individus pourraient faire l'effort de surmonter les différences culturelles s'ils comprenaient bien leurs sens et leurs valeurs et dans ce but louable "communication entre les cultures" ou "dialogue des civilisations"⁶⁰, il analyse l'attitude des habitants de cette partie du monde "victime de l'exploitation impérialiste"⁶¹ et cherche à dégager les réelles difficultés de communication ainsi que la nature du choix des choses à échanger pour pouvoir bien

59. Norman Daniel, *The Cultural Barrier*, op. cit., "Preface" V.

60. Cf. Roger Garaudy, *Pour un Dialogue des Civilisations*, Paris, Denoël, 1977.

61. Norman Daniel, *Op. cit.*, "Preface" V.

juger de la possibilité actuelle des cultures indigènes à résister à l'intrusion de la culture occidentale.

L'historien invite les Européens, venant à communiquer avec des peuples de différentes traditions "à ne pas traiter avec eux d'une manière exclusive ou intolérante, encore moins agressive"⁶². Une question cruciale se pose à lui: L'Occident est-il le seul état de tout le monde à venir?⁶³.

Daniel affirme que les barrières rencontrées par la transmission des idées aux XIX^{ème} et XX^{ème} siècles entre l'Europe et le reste de l'univers provenaient de l'absolue conviction qu'avaient les impérialistes de leur propre supériorité. De même il est évident que, du côté occidental, l'union de la supériorité technologique, de l'ingérence politique, du "pharisaïsme" religieux et moral, a inévitablement fermé les possibles voies de communication entre les Européens et les autres⁶⁴.

Les relations de l'Europe avec n'importe quelle partie du monde furent, de tout temps, composées de dévastation, d'harcèlement, de conquête et de guerre. Cela est vrai de l'Europe agresseur ou victime, et tout au long de l'histoire l'Europe remplit ces deux rôles. Or, les relations de gouverné à gouvernant ne sont pas les meilleures pour la libre transmission des idées, mais cela n'est pas le facteur décisif. L'Europe médiévale, quoique suspectant hautement l'Islam conquérant a trouvé moyen de prendre tout un corps d'idées à cette même culture, objet de suspicion et de crainte. L'Europe médiévale avait déjà créé son propre filtre culturel, l'anti-islam, comme

62. *Ibid*, "Preface", VI.

63. *Ibid*, p. 16.

64. *Ibid*, p. 147. Cf. Jean Meyer, *Les Européens et les autres, de Cortès à Washington*, Paris, A. Colin, 1975.

l'appelle Daniel. Ce filtre lui permit d'exploiter la pensée et les compétences arabes tout en gardant sa propre direction, sans dévier de son authenticité chrétienne. Daniel se demande si une telle réussite est capable de se répéter dans les circonstances actuelles. Pour lui, il devait être possible aux sociétés d'exploiter toute chose "culturellement neutre" sans que cela entrave leur développement culturel caractéristique. Est-ce que le précédent médiéval donne-t-il raison à espérer la survivance des différentes cultures aujourd'hui ou est-ce que les conditions favorables de ce temps n'existent-elles plus?⁶⁵.

Une culture résistante doit satisfaire aux conditions minimales de la situation médiévale. D'abord les techniques matérielles à adopter ne doivent pas lui répugner. Ensuite, il faut la détermination à atteindre le but donné. Enfin la volonté doit s'unir aux connaissances et aux jugements pour produire une action définie⁶⁶.

Dans le cas de l'Égypte, la première condition n'a jamais prêté à discussion: l'ensemble des techniques et connaissances scientifiques que les Égyptiens désiraient emprunter ne leur répugnait aucunement.

Quant au désir, il doit se combiner avec la détermination de ne pas accepter de direction extérieure; si la volonté est capable de faire la discrimination entre ce qu'il faut et ce qu'il ne faut pas prendre, la culture garde alors son authenticité. Or, on peut difficilement affirmer que tel était le cas de l'Égypte. Celle-ci, colonisée depuis 1882, n'a vraiment pas eu la liberté de choisir ou de refuser certains éléments de la civilisation occidentale qui s'était mise à l'envahir; à part le fait qu'il n'y avait pas de consensus sur les éléments à choisir ou à refuser vu la diversité

65. Norman Daniel, *Op. cit.*, p. 178.

66. *Ibid*, p. 179.

idéologique des personnes qui avaient le pouvoir et la capacité de le faire.

Ajouter à cela que les autorités jusqu'à la révolution de 1952 tentaient d'eupéaniser l'Égypte et non de lui conserver une certaine identité. A part cette date, il y eut effectivement chez "les Officiers libres" un fort sentiment d'anti-impérialisme qui se "marxisa" bientôt et tendit à couper le pays du monde occidental en brandissant des slogans nationalistes. Le but n'était pas de protéger l'authenticité de la culture nationale, mais plutôt de contenir mieux les Égyptiens. Le jour où le pays s'ouvrit à l'Occident, toutes les maladies de sa civilisation y pénétrèrent. Les conservateurs s'effrayèrent et le filtre anti-impérialiste se renforça par un courant islamique pour lutter contre les valeurs et modes de vie occidentaux qui s'opposaient aux traditions culturelles islamiques. Mais ce filtre rencontra des obstacles qui amoindrirent son efficacité d'abord l'animosité qu'il suscita à l'intérieur et l'extérieur du pays, provenant de la peur d'une "résurgence de l'Islam"; ensuite, le développement très rapide des moyens de communication et la difficulté où se trouve un pays, maintenant, de se fermer aux media qui pénètrent dans l'intimité de chaque famille. Ce n'est possible que lorsque les gouvernements le veulent, comme en Chine, ou en Iran où le filtre anti-impérialiste est en plein fonctionnement. Mais, évidemment cela signifie l'isolement du pays en question et la provocation de l'animosité du nouvel impérialisme qui n'accepte pas d'être combattu.

Le filtre médiéval anti-Islam a fonctionné idéalement grâce aux conditions historiques de l'époque. Le petit groupe de personnes, le plus souvent ecclésiastique, qui avaient mis au point ce filtre (composé de fausses idées à propos de l'Islam pour tenir les Chrétiens éloignés de cette religion rivale) avaient un même but déterminé et c'étaient des hommes de la même mentalité qui dirigeaient et faisaient les traductions des ouvrages

arabes sélectionnés dans un autre but déterminé: tirer profit des trésors techniques et scientifiques des Arabes sans permettre l'entrée des idées ou informations allant à l'encontre de leur politique. La télévision et les antennes n'interféraient point dans la politique séparatiste des autorités intéressés.

Aujourd'hui les médias contrôlés par les pays du nord (et les Juifs), ne cessent d'étaler tout ce qui concerne la vie occidentale. Depuis l'ouverture de l'Égypte à l'Europe et la classe dirigeante copie les manières étrangères comme si l'imitation pouvait établir sa position par une assimilation magique à la culture des plus forts⁶⁷.

Comme l'a bien remarqué Daniel "toute imitation de l'Occident est basée sur sa richesse"⁶⁸. Le filtre anti-impérialiste est ineffectif contre certaines attractions extérieures de la civilisation occidentale, surtout les apparences. Cela se voit, entre autres, dans la manière de s'habiller de la jeune bourgeoisie égyptienne imitant la jeunesse occidentale dont la motivation égalitaire dans les années soixante lui interdisait de jouir de plus de privilèges que les travailleurs. Cette jeunesse copia les caractéristiques les plus superficielles et les moins typiques des travailleurs: leurs manières de se vêtir. L'impact de cela sur les cultures des pays en voie de développement a ses ironies: la classe jeune et privilégiée, ayant les capacités d'une nouvelle aristocratie, copie les vêtements et les modes "smart" et "internationales" de la jeunesse occidentale, pour une raison absolument opposée: se dissocier de la masse dans leurs propres pays et ressembler aux habitants du monde riche et

67. Norman Daniel, *op. cit.*, p. 181.

68. *Ibid*, p. 183.

développé⁶⁹. De même, si la culture "Pop" signifie égalitarisme dans son aire d'origine, elle signifie élitisme ou privilège dans les aires du Tiers-monde où elle est adoptée par une minorité opulente. Ainsi l'imitation a inversé l'attitude originale: se dissocier des travailleurs et des villageois remplace le désir de s'associer à eux⁷⁰. Ce qui est encore plus ironique c'est que les travailleurs et les Égyptiens démunis cherchent maintenant à copier l'habillement des Égyptiens plus riches imitant eux les Occidentaux.

Est-ce à dire qu'il n'y a pas eu de résistance culturelle en Égypte? Elle eut lieu et surtout au début de la Nahda, fin XIX^{ème} et début XX^{ème} siècles. Les questions de l'émancipation de l'Égyptienne⁷¹ par exemple ou l'annulation du port du "tarbouche" ont causé beaucoup de remous dans la société égyptienne. La résistance provenait dans ces questions et les autres de différents groupes de personnes, rétrogrades, conservateurs ou révolutionnaires rejetant les modèles occidentaux parce que s'opposant à leurs traditions, coutumes, privilèges, religion, ou tout simplement semblant suspects, car venant de chez les colonisateurs.

Quant à la troisième raison de l'efficacité du filtre médiéval anti-Islam, c'était sa capacité discriminatoire. Le filtre anti-impérialiste qui fonctionna au mieux en Égypte après la

69. Cf. l'imitation des indigènes de l'Espagne du Moyen-Age des manières de vivre et de la langue des Arabes conquérant l'Andalousie, dans Ibn Khaldoun, *Discours sur l'Histoire Universelle (Al Muqaddimah)*, traduction nouvelle, préface et notes par Vincent Monteil, Beyrouth, Commission internationale pour la traduction des Chefs-d'Œuvres, 1967.

70. Norman Daniel, *op. cit.*, p. 183.

71. Cf. notre travail sur "l'émancipation de l'Égyptienne ou l'Éclectisme de Kassem Amin", dans *Horizon*, Association Égyptienne des Professeurs de Français, Le Caire, 1997.

révolution de 1952, n'a pas longtemps été capable d'empêcher les manufacturiers et propagandistes occidentaux d'imposer leurs exportations aux marchés locaux lorsque ceux-ci s'ouvrirent à eux. Si les modes de l'Europe et des E.U. sont suivies en Égypte (et dans les autres pays en voie de développement), même si la publicité est relativement inefficace, c'est parce qu'elles sont associées à une vie bourgeoise à envier, illustrée par les films, la télévision, les journaux et magazines, étrangers ou locaux.

En Égypte, comme beaucoup d'autres pays islamiques, il y eut une sorte de résistance culturelle à cet envahissement de la vie nationale par la civilisation occidentale. Ce fut sous la forme du retour de certaines tranches de la société à un mode de vie et de comportement plus islamique. Comme Heykal l'avait prévu, un demi-siècle plus tôt, il y a eu le désir des populations de retrouver leur identité, de retourner à leurs sources culturelles après une période d'occidentalisation.

Des Égyptiens se sont rendu compte qu'ils perdaient ainsi leur identité sans pour autant devenir occidentaux. D'un autre côté, tenant à certaines valeurs, ils se sont trouvés déchirés entre leur authenticité et l'image qu'ils ambitionnaient. En même temps, cette partie de la société, surtout les jeunes, commençait à se rendre compte que l'Occident ne lui offrait pas d'évidentes solutions à ses problèmes quotidiens qui s'accumulaient.

Ainsi l'intrusion de la civilisation occidentale en Égypte - à l'intérieur d'un certain cadre - causa du désarroi et fit naître la résistance culturelle, d'inspiration islamique, dans quelques groupes de la société. Mais cette résistance culturelle fut détournée au profit de différentes forces extérieures ne désirant pas nécessairement le bien de la société égyptienne ni le recouvrement d'une identité nationale, ni surtout le redressement de l'Islam comme force internationale. Ces puissances ont, d'une manière ou d'une autre, précipité ces

groupe vers leur propre destruction.

A travers les âges, seules les cultures en bonne santé ont survécu. L'intrusion culturelle réussit là où il n'y a pas d'attaches suffisantes avec les traditions locales.

Daniel met en garde contre la facilité de "coloniser" notre propre avenir ou notre propre passé. L'avenir sera déterminé par ce que l'on a fait et ce que l'on est et non pas parce que l'on pense faire ou être. Le passé, par contre, ne peut pas prendre aussi bien compte de lui-même. Ce qui est arrivé est final et ses effets continueront.

Un sentiment de supériorité provenant d'une estime, même exagérée pour le passé, peut utilement protéger la culture indigène, à moins qu'il ne soit tellement irréaliste et cause une réaction par le ridicule⁷².

Une cinquantaine d'années après Heykal, et d'un autre coin de l'univers, Daniel invite les hommes des différentes cultures à ne pas prendre les solutions culturelles de l'Occident sans d'abord bien examiner leurs valeurs. Car, pour l'Ouest lui-même, sa propre situation culturelle ne l'aide pas à contrôler ou à utiliser ses techniques et de cette manière elle n'arrive pas à donner aux Occidentaux ce dont ils ont eux-mêmes besoin. Il suggère même à ces derniers de revenir sur leurs pas pour recouvrer les pertes culturelles ou emprunter des manières de vivre à ces cultures techniquement moins avancées qu'eux. De toute manière un emprunt culturel est distinct de l'emprunt technologique⁷³.

Heykal, de son côté, affirmait que l'avenir verrait l'Occident industrialisé puiser dans les civilisations plus spirituelles de l'Orient. Daniel espère que le désarroi spirituel de l'Occident

72. Norman Daniel, *op. cit.*, p. 189.

73. *Ibid.*, p. 194.

éviterait aux emprunteurs de prendre aussi ses incertitudes intellectuelles avec sa technologie, "à moins que le boiteux ne veuille être guidé par l'aveugle"⁷⁴.

Daniel voudrait que le monde en voie de développement, désuni quant au présent, retienne ses traditions et garde assez de caractère et de vitalité pour résister aux pressions industrielles. Car, après tout, Modernisation ne veut pas dire Occidentalisation. Son message au monde en développement, pour la sauvegarde de ses cultures, est le suivant: "Allez et agissez avec détermination. Ne croyez pas ceux qui prétendent que c'est trop tard". Et au monde développé, il dit: "Essayez de ne pas détruire tout ce qui est différent, ne croyez pas ceux qui prétendent que c'est inévitable"⁷⁵.

Nous pouvons juger par les idées de Norman Daniel combien celles de Heykal sont d'actualité. Le problème de l'authenticité qui préoccupait les écrivains égyptiens de l'époque libérale⁷⁶ est bien remis sur le tapis, car comme l'a écrit M. El Kordi: "Une nation ne peut oublier son passé, ni tourner complètement le dos à ses traditions. Seulement, ce passé ne peut-être revécu tel quel, car le monde a changé et les problèmes du présent exigent de nouvelles solutions. L'authenticité réside en cela précisément, car au lieu d'être une copie du passé, autrement dit sa momification pure et simple, elle doit, au contraire, lui insuffler une vie nouvelle et l'enrichir par la création de formes originales"⁷⁷.

74. *Ibid*, p. 179.

75. *Ibid*, p. 195.

76. Cf. Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939*, Cambridge University Press, Cambridge, 1983.

77. Mohammed El Kordi, "L'Occident et l'Orient Entre l'Idéologie et la Réalité", dans *Horizon*, no. 4, Le Caire, A.E.P.F., 1996, p. 196.

Bibliographie

1. Abd al Malek, Anwar, *Idéologie et Renaissance Nationale: L'Égypte Moderne*, Paris, Anthopos, 1969.
2. Al Djabri, Abd al Met'al, *Al Muslimah al 'asriyah 'ind bahithat al badiyah*, Le Caire, Dar al ansar, 1978.
3. Al Kordi, Mohammad, "L'Occident et l'Orient entre l'Idéologie et la Réalité", dans *Horizon*, no. 4, Le Caire, Association Égyptienne des Professeurs de Français, 1996.
4. Al Sayed, Lotfy, *Quissat Hayati*, Le Caire, Al hay'ah al misriyah al 'amah lil kitab, 1993.
5. Al Sayed-Marsot, Afaf Lotfy, *Egypt Under the Reign of Muhammad Aly*, Cambridge, Cambridge University Press, 1984.
6. Amin, Kassim, *Les Égyptiens, Réponse à M. le duc d'Harcourt*, Le Caire, Barbier, 1894.
7. Boisard, Marcel, *L'Islam Aujourd'hui*, Paris, Flammarion, 1983.
8. Boisard, Marcel, *L'Humanisme de l'Islam*, Paris, Albin Michel, 1979.
9. Daniel, Norman, *Islam and the West: The Making of an Image*, Edinburg, Edinburg University Press, 1960.
10. _____, *Islam, Europe and Empire*, Edinburg, Edinburg University Press, 1966.
11. _____, *The Cultural Barrier: Problems in the Exchange of Ideas*, Edinburg, Edinburg University Press, 1975.
12. Charaf, Abd al Aziz, *Muhammad Hussein Heykal fi zikrah*, Le Caire, Dar al ma'aref, 1986.
13. Djaït, Hicham, *La Personnalité et le Devenir Arabo-Islamique*, Paris, Seuil, 1974.

14. Hazard, Paul, *La Crise de la Conscience Européenne*, Paris, Fayard, 1961.
15. Heykal, Muhammad Hussein, *Jean-Jacques Rousseau, Hayatuhu wa kutubuhu*, Le Caire, Dar al ma'aref, 1990 (1^{ère} édition, t. I, 1921; t. II, 1925).
16. _____, *Thawrat al adab*, Le Caire, Al hay'ah al 'amah liqussr al thaqafah, 1996 (1^{ère} édition, 1933).
17. _____, *Hayat Muhammad*, Le Caire, Dar al ma'aref, 1979 (1^{ère} édition, 1935).
18. _____, *Fi Manzil il wahy*, Le Caire, Dar al ma'aref, 1979 (1^{ère} édition, 1937).
19. _____, *Muzakirat fil siyasah al misriyah*, Le Caire, Dar al ma'aref, 1990 (3 volumes), (1^{ère} édition, I, 1951; II, 1953; III, 1978).
20. _____, *Acharq al djadid*, Le Caire, Dar al ma'aref, 1990 (1^{ère} édition, 1963).
21. _____, *Muzakirat achabah*, Le Caire, Dar al ma'aref, 1996 (1^{ère} édition, 1996).
22. _____, Articles multiples publiés dans des journaux comme *Al Ahram* et *Molhaq al siyasah*.
23. Hifni Nassef, Malak, *Al Nissa'iyat*, Le Caire, Dar al Huda lil tiba'ah wal nachr, s.d. (1^{ère} édition 1910).
24. Hourani, Albert, *Histoire des Peuples Arabes*, Paris, Seuil, 1993.
25. _____, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939*, Cambridge, Cambridge University Press, 1983.
26. Ibn Khaldoun, *Discours sur l'Histoire Universelle, (Al Muqaddimah)*, Traduction nouvelle, préface et notes par Vincent Monteil, Beyrouth, Commission Internationale pour la Traduction des Chefs-d'Œuvres, 1967.
27. Laroui, Abdallah, *L'Idéologie Arabe Contemporaine*, Paris, Maspéro, 1977.

28. Laurens, Henri, *Le Royaume Impossible*, Paris, Colin, 1990.
29. Lewis, Bernard, *Le Retour de l'Islam*, Paris, Gallimard, 1985.
30. Saïd, Edouard, *L'Orientalisme*, Paris, Seuil, 1980.
31. Selim, Muhammad abd al Raouf, "Heykal wa quadiyat Falestin", dans *Mollakhassar al abhath al muquadamah linadwat Muhammad Hussein Heykal wa djuhud al istinarah al misriyah*, Le Caire, Almadjliss al a'ala lil thaquafah, 1996.